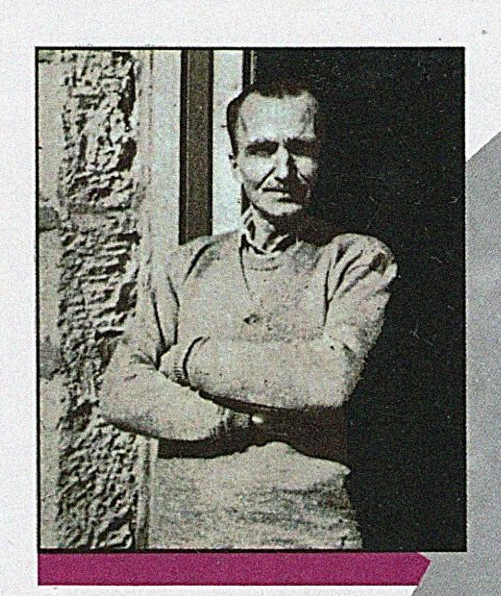
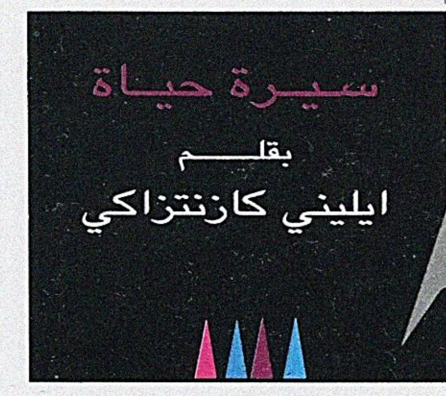
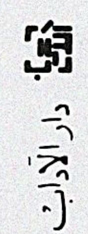
NIKOS KAZANTZAKI

المنشق

نيكوس كازنتزاكي







ترجمة

محمد علي اليوسفي





□ المنشق

LE DISSIDENT

BIOGRAPHIE DE NIKOS KAZANTZAKI

BY

ELENI N. KAZANTZAKI

PLON 1968

المنشق

نيكوس كازنتزاكي
سيرة حياة

بقلم : ايليني كازنتزاكي

ترجمة : محمد علي اليوسفي

دار الآداب - بيروت

تقديم المترجم

لا يستطيع قارىء هذا الكتاب أن يخرج سليماً من «عدوى» ما.

وحتّى إذا كان هـذا القارىء من غير المتحمسين لأعمال نيكوس كـازنتزاكي، مثل «زوربـا» و«الإغـواء الأخير» و«الإخوة الأعـداء» و«تقـريـر إلى الغريكـو» و«المسيح يُصلب من جديـد» وغيرها، فإنه يجد نفسه، هـذه المرة، أمام عمل من نوع خاص؛ هو عمل نسجه كازنتـزاكي في عزلته الأثيرة، خيطاً خيطاً، على غرار بعض الكائنات التي تبكّر فجراً من أجل اصطياد ما تجود به الدّنيا وتتلهّف إليه الروح.

هذا العمل المختلف والرائع هو حياته التي أرادهـا كما عاشها. وعاشها أيضاً كما أرادها لأنـه كان يـرفض كلّ ما هـو مختلف عما رسمه لنفسـه من مبادىء ورغبات وسلوك، ورؤية للعالم قبل كلّ شيء.

تلك الـرؤية التي لم تقتصر على الإرث الأغـريقي، وسيرِ عظماء اليونـان، بل اغتنت أيضـاً، منذ البـدء، برؤى إشراقيـة متأتيـة من تأثرِ كـازنتزاكي العـارم بفريديريك نيتشه، وهنري برغسون (وقد تتلمذ على يديه في باريس) والتصوّف البيزنطي والإسـلامي لذلك نجد قامـوسه اللغوي غنيًّا بمفـردات ومصطلحات مثل الروح، الجسـد، في ثنائيتهما الأبديـة، وكذلك الـوثبة الخلاقة (أو الـوثوب الخلاق)، ولحظـة الحدس الإشراقي، والأحاسيس بمختلف معـادلاتها اللغويـة الممكنة، والكائن الأسمى، المتفوق الخ...

لكن ذلك لم يمنع كـازنتزاكي من النّهل انطـلاقاً من روح الشعب المعـذّبة، في جـزيرتـه «كـريت» كما في أرجاء العـالم، معتبراً أن الـروح الساميـة تلعب دور «المحامي» الذي يـرافع أمام محكمة الكون ودفـاعاً عن عامة النـاس وقضاياهم النبيلة. غير أن ذلك الـدفاع يثري الـرّوح بدورها، لأنها كما في «زوربـا» تقارع فلسفة أخـرى، هي فلسفة العيش التي يرسمهـا لنفسه رجل من عـامة الشعب يُدعى زوربـا، وسوف نجـده في هذا الكتـاب رجلاً من لحم ودم، عبر رسـائله،

متابعاً لعبته العبثية هرباً من العجز والشيخوخة، «لم أتزوّج إلا من باب المزاح. السيدة زوجتي توفيت، وحسناً فعلت؛ ... لا أخشى الموت ... ولا أخشى أخطر عناصر الطبيعة .... حتّى إذا جاء ذنب نيزك ليضربنا ويحوّلنا إلى سَلَاطة طماطم ... الشيخوخة تخيفني ... وأجد نفسي تحتَ رحمة قرار عائلي يأمرني بمراقبة وحش، طفل صغير؛ حتى لا يحرق نفسه، حتّى لا يسقط، حتى لا يتعلم الرذالات...» ذلك ما يكتبه في رسالة إلى كازنتزاكي بعد هجرته إلى مناجم أخرى في صربيا، بحثا عن المال الذي «يستر» به شيخوخته!

وليس الشخوص وحدهم هم الذين يتقاطعون في حياة كازنتزاكي وأعماله، كما لاحظنا مع زوربا، بل هناك اللغة أيضا. إذ أن بعض المقاطع في رسائله تتشابه والكثير من المقاطع في مؤلفاته، ولا سيما «الأوديسة» التي ظلت ترافقه طيلة حياته «كمشروع عمر» وفي وعي كازنتزاكي أنها رؤية معاصرة لـ «عوليس»، بعد حوالي ثلاثين قرناً من تحرّكه في الأوديسة الأولى، أي «أوديسة» هوميروس. وقد جاءت «أوديسة» كازنتزاكي في ٣٣٣٣٣ بيتاً شعرياً، معتمدةً وزناً مبتكراً.

أيتها الشمس، يا مشرقي الكبير، يا قبعة تفكيري الذهبية.

تتملكني رغبة في اللعب ما دمت تعيشين وأعيش أيضاً، كي نُبهج قلبينا.

هذه الأرض طيبة وهي تلائمنا:

كما العنقود المشبوك تتشبث بالهواء الأزرق وتتأرجح في العاصفة، إذ تعضعضها الأرواح، وطيور الرّيح..

وهناك مسألة بالغة الدّقة، في هذا الكتاب، وتتعلّق برؤية كازنتزاكي لصلته بالإله. وهي صلة لا ينبغي قراءتها بشكل مسطح، أو فهم تبسيطي يلغي الإيمان من قلب الرجل. ولعلّ أسهل طريقة لقراءة هذه العلاقة وفهمها، تنطلق من التصوّف بما في ذلك التصوّف الإسلامي، وأسلوب الحلولي الذي يميّز صلة العبد بخالقه لدى متصوّفة الإسلام. يقول في إحدى رسائله «الموضوع الرئيسي شبه الوحيد، في أعمالي كلها، هو معركة الإنسان مع «الإله»، الصراع الشرس

الذي تخوضه الدودة المسمّاة «إنسان» ضد القوى المتسلطة والظلامية الموجودة في داخله وحواليه...» ويقول في موضـوع آخر، عن الإله «لا وجود لأحد غيره في العالم...»

إن كتاب «المنشق» الـذي ألّفته ايليني، زوجة كـازنتزاكي الثانيـة، من خلال جمع رسائلـه ومذكـراته وبعض نصوصـه غير المنشورة، يبيّن أن حيـاته، على خـلاف الكثير من الكُتّاب الكبـار، كـانت متطابقـة مع أعمالـه إلى حدّ التـداخل. ويكشف هذا الكتاب عن كفـاح رجل لم يتزحزح عن مواقفـه برغم كل المصائب التي حلّت به. لكنه يتضمن أيضاً قصة حبّ فريدة، يمكن أن تشكل زاوية أخرى لقراءة الكتـاب. وقد يكـون بطلاهـا نيكوس كازنتـزاكي، الطيب والشرس في آن واحد، وايليني التي ذاقت الأمـرّين بسبب عناده في مـلاحقة مثله الأعلى «عنـدما أسـافـر أندم على اضطهـادي لك» يقـول. وإلى جـانب ايليني (هيلينـا أو هيلين باللغات الأخرى، غير اليونانية) هنـاك نساء أخريات كثيرات ... لأن كازنتزاكي لم يتزوج ثانيـة إلا عندما صار وزيراً في بـلاده. وقبل ذلك اتفق مع «صديقته» على «ميثاق الأيام العشرة» التي يلتقيان فيها سنـويا، بينما تنوب «الرسائل» عن اللقاء، بقية أيام السنة التي ينعزل فيها «الناسك» من أجل الكتابة ... حتى مجيء الشيخوخة، ثم الموت في صفحات جدّ مؤثرة من الكتاب.

قصة حبّ إذاً، لكنها قصة تعطش للحيـاة، والخلود والإبداع («سوف أموت وكتب كثيرة لا تزال في داخلي») ولرؤية العالم الذي تنقل فيه نيكوس كازنتزاكي وأصرّ على توديعه قبل مـوته. قصة التطلّع إلى الحرية والعـدالة، برغم الحروب والقتل والدمـار، إطارها اليـونان التي تضطهـده، والغرب الذي يمـزّق روحه، وروسيا التي سـاهمت في خيبة أمله، والشرق الـذي يعشقه كازنتـزاكي إلى حد الاقتناع بأنّ دماً عربيًّا يجري في عروقه..

محمد علي اليوسفي

تونس ١٥/٢/١٩٩٤

من بين جميع الذين عـايشوا نيكوس كـازانتزاكي، عن كثب أو عن بعـد، كان هناك أصـدقاء كثيرون قدموا لي العـون ودعموني بحماستهم أثناء تحريـر هذا الكتاب. ولن أستطيع شكـرهم فرداً فرداً، وليتقبلوا هنا عميق اعترافي بـالجميل، وخاصة مراسلي ومراسلات نيكوس كازنتزاكي الذين وافقوا على مدّي برسائلهم الشخصية الواردة في هذا الكتاب.

وأود أيضا ذكر:

السيد نيكـوس ساكـلابانيس، ابن أخت كـازنتزاكي الـذي وافاني بـرسائل نيكوس إلى والدته وإلى عائلته؛

السيدين بابا داكي وجور جاكي اللذين أنقذا من التّلف رسائل كازنتزاكي إلى صديق طفولته خاريلاوس ستيفانيدس:

السيد بانديليس بريفيلاكي الذي تعتبر سيرته[1] وكذلك ملاحظاته وتعليقاته على الرسائل الأربعمائة التي تلقاهـا من نيكوس كازنتزاكي[2] ذات أهمية فائقة لمن يريدون دراسة أعمال كازنتزاكي؛

السيد جان هربرت الذي تكرّم بقراءة مخطوطتي ومساعدتي بنصائحه؛

السيدتين جاكلين مـواتي وكوليت جانيو على ترجمتيهما بالترتيب، لـرسالة انجيلوس سيكليانوس؛ ورسائل زوربا و«المدائح»؛

السيدتين أيفون مترال وليليان برنسي اللتين تولّتا تهذيب اللغة الفرنسية التي تجرأت على الكتابة بها مباشرة.

عسى أن يتوصل هـذا الكتاب المنبني على حياة رجل وموتـه، إلى حثّ الشباب على اقتفاء أثر آمالهم، حتى من خلال اليأس. إليهم أهدى هذا الكتاب.

ايليني كازنتزاكي
جنيف ١٩٦٧

---

(١) انظر سيرة نيكوس كازنتزاكي بقلم عزيز عزّت.

(٢) نشرت في اليونان وصدرت عن منشورات إ. كازنتزاكي.

«وأقول لـك أيضاً هذا: أيها الـرجل الجذاب جدًّا، أنت المقيم من دون عـادات بيننا، أيها المنشق! أمر واحد مؤكد، هو أننا نـحمل ختْم نظرتك؛ وثمة حاجة عارمة تشدنا إلى أماكن تتنفس فيها، وهناء رحب لا نعرفه من دونك .. تستطيع السكوت بيننا، إذا كان ذلك هو مزاجك؛ أو الذهاب وحيداً، إذا كان ذلك هو مزاجك: لا نطلب منك سوى أن تكون هنا! (والآن تعرف ما هيَ أرومتك)..»

صداقة الأمير

سان جون بيرس



بدلا من المقدّمة

وأنا منكبّة على دفاترك ورسائلك، يـا حبيبي، أحاول أن أبلور للذين يحبونك من خلال كتاباتك، صورتك المتعددة والدقيقة والموغلة في الهروب، أيضـا. فمن أية زاوية أتحدث عنك، من دون أن أخونك؟ كلّ ما كنت تبشر به، وتطمح اليه، وكل ما كنتَهُ، أعثر عليه الآن في هذه الأوراق التي بدأت تصفرّ وتتقصف مثل قشرة جليد رقيقة فوق بركة مياه خريفية. صمت طويـل يوقّعه خرير غليونك، مناجاة ذربة لمن تحبّ، موهبةُ خـارقة في فتح أشد الأرواح انغلاقـا، والاستماع إلى الأصدقاء، وأصـدقاء الأصـدقاء، وصـولاً إلى تلك اللقـاءات الطارئة في شـوارع مجهولـة، وكلمات مجانين القرى الذين كنت الوحيد القادر على جعلهم يعبّرون.

كنتَ تخرج لاقتناء جريدة، ووضـع رسالة في البريـد، وتعود مثل ساعي بريد حامـلا حقيبتك الملأى حكايـات. كنتُ أسلك الدروب ذاتها، ألتقي الـوجوه ذاتها، غير أنني أعود خاليـة الوفاض. فتعمد أنت، جالسا إلى مـائدة عملك، ويدك معلقة في الهواء ولا تـزال مسلحة بقلمك، فتروي لي شيئـاً ما، كي تضحكني وتـدفع في قلبي المسرة.

تجانس مياه الأعماق وصفـاؤها، هدوؤهـا الدائم، حتى إذا حرّكت العـاصفة سطحها، حتى إذا انقبض محياك لبرهة وجيزة، وبُحَّ صوتك..

كيف أتعـامل مع الكلمات، كيف أمدّهـا، كيف أضبطها، أروضـهـا، أخضعها، أخنقها، من دون أن أجعلها تنفجر حناناً وقسوة، كي تتمكن من استيعابك؟ كيف أبني ذلك السجن الذي كنت ترغب أن تُسجن فيه؟

– عندما أموت، اكتبي عنّي كتاباً..

– لا ، لا، لا ! لا بُدَّ من كاتب موهوب.

– سوف تضعين كتاباً عنّي، يا لينوتشكا، عليك أن تفعلي ذلك، لأن الآخرين سوف يقولون عني أشياء كثيرة غير دقيقة. أنت الوحيدة التي تعرفينني جيداً.

كم مرة أقسمتُ ألا أفعل؟ وحينئذٍ؟

حينئذ أكون أعجـز من أن أكتب، أو إذا أردتُ قول الحقيقة، كنت سأتخلى عن مثل هذه المهمّة في نصف الطريق، لـولا عثوري، ذات ليلة، على كلمات بخط يدك، في أوراق مهملة، وقد كتبتها بسرعة وبقلم الرصاص: خطة أولية لكتابي..

وها أنـذي أخوض التجـربة. ألا أكتب روايـة، هذا ممكـن، وبسـهولـة. أما أن أصفك، وأضمّك، وأثبّتك بإبرة ذهبية، كما لو كنتُ أثبّتُ فراشــة، فهذا ما يثور له قلبي. لأنني أحب الفراشات وأحبّ تخيلها وهي تتطاير فالتة، فوق رأسينا..



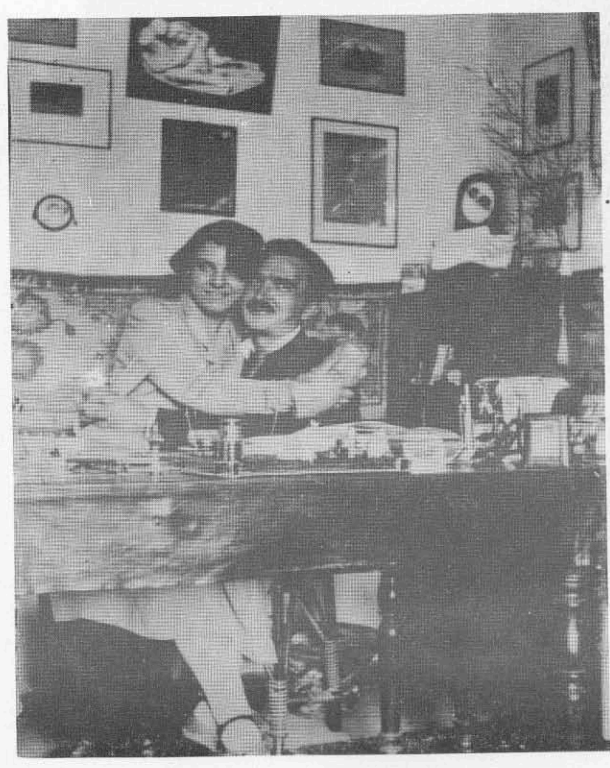
١٩٠٢ ـ ١٩٠٣ ـ «أتُوق إلى عمل جيّد آخر، بعيداً عن المرأة وعن الدراسة، بعيداً عن الجمال، ولكن ما هو؟».

«موازنة حياة»



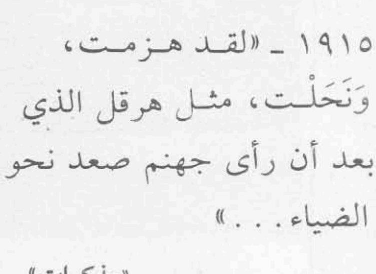
١٩٢٢ ـ «انظر يا إلّهي، هذه الفتاة السّاحرة «راحيل» جبينها المضيء مثل بنفسجة كبيرة».

«مذكرات»



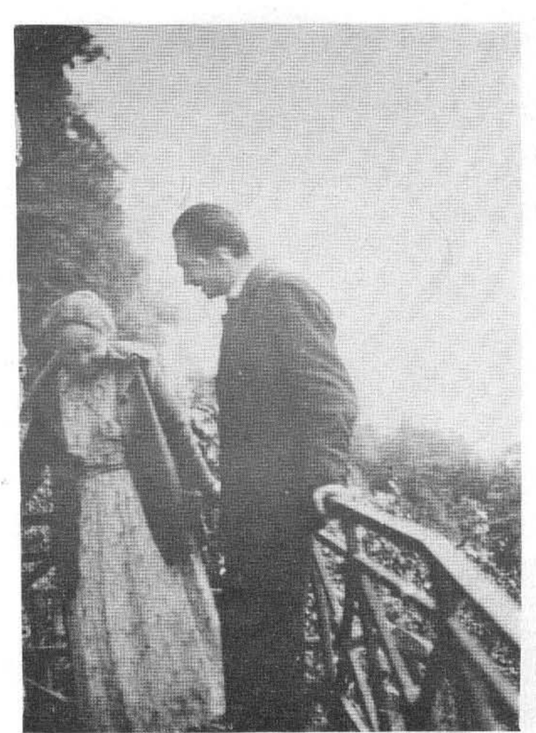
١٩١٥ ـ «في سكن متواضع في أثينا، بالقرب من «مكالاتيه» سعيد بلقياها حالماً دائماً مع إيقاع الألحان».

«المعاند»



١٩١٥ ـ «لقد هزمت، وَنَحَلْت، مثل هرقل الذي بعد أن رأى جهنم صعد نحو الضياء. . .»

«مذكرات»



١٩١٣ ـ «ولدت «إلسا» في مدينة صغيرة مكسوة بالثلوج من مدن ألمانيا ومع ذلك فهي تحيي الحنين إلى الشرق».

«مذكرات»

١٩٢٣ ـ «في الحديقة الفاتنة اغترابنا، المحادثات، الضحك، الصمت، المطر...».

«رسالة إلى إلسا»



١٩٢٤ ـ «ذهبت «أوليس» لتخلق الإلّه بشراع سفينتها. . . ألا ترين نفسك جالسة في المركب، صامتة، ملكة قلبك شغوفة، فخورة. . .».





. . . إلى أين نحن ذاهبان؟ لقد وضعنا دفة المركب نحو الهاوية. . .»

رسالة إلى إي. ساميون



١٩٢١ ـ «هدفي. . . هو إيجاد معنى جديد للحياة وتفسيره».

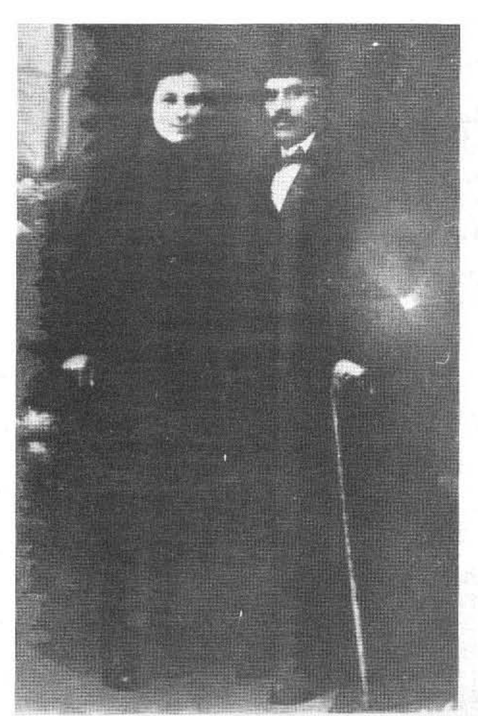
«مذكرات»

١٩٣١ ـ «من الفجر إلى الليل،
غارقاً في طيات المعجم،
كازانتزاكي يعمل دون وهن. . .»

«المعاند»

١٩٢٨ ـ «لقد اجتزنا الشواطىء الرائعة من دنيبر. . .»

رسالة إلى إي ساميون. .



١٩٢٢ ـ ١٩٢٣ ـ «أنـــا، وزوربـــا، والأمـــر اللانهائي، المرأة، اسمها في هذه المرة ليوبا».

«ألكسيس زوربا»

١٩٣١ ـ «لا نستطيع الذهـاب إلى أراضٍ بعيـدة، نيكـوس يـدعـو للميـلاد، «بـريڤيـلاكـي، أخـوه الشاب. . .»

«المعاند»



١٩٣٤ ـ «لا تسمـح مطلقـاً للـراحـة بـأن تفتـر همتك. . . ابق دائماً مستعداً وليكن عقلك غريباً والقلب إفريقياً. . .»

«المعاند»

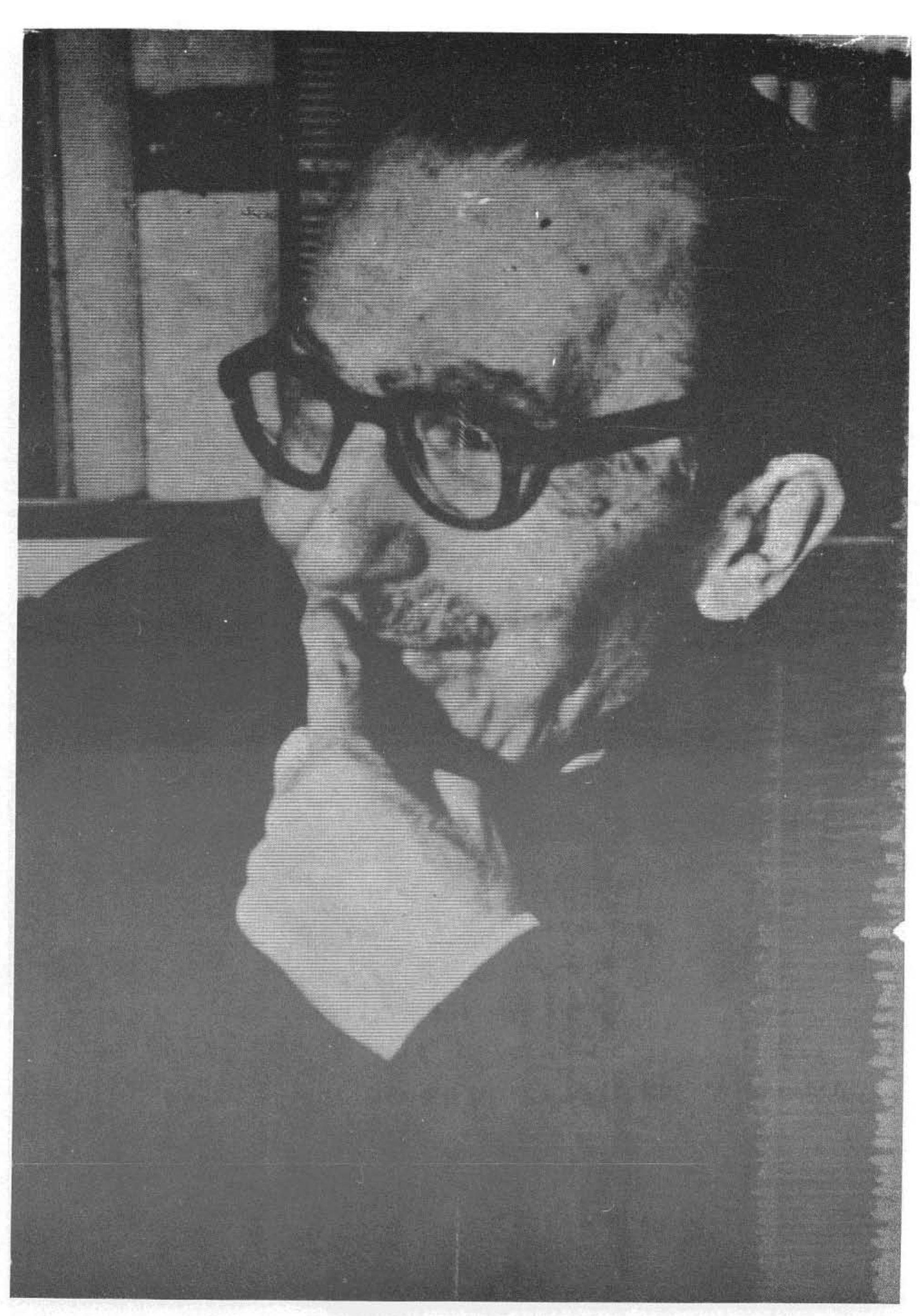
١٩٥٦ - «لقد وجدت بسرور صومعتي وأدواتي وأنتظر بفارغ الصبر ترجمة الأوذيسة. . . »

«رسالة إلى ينيس كاكريكدس»

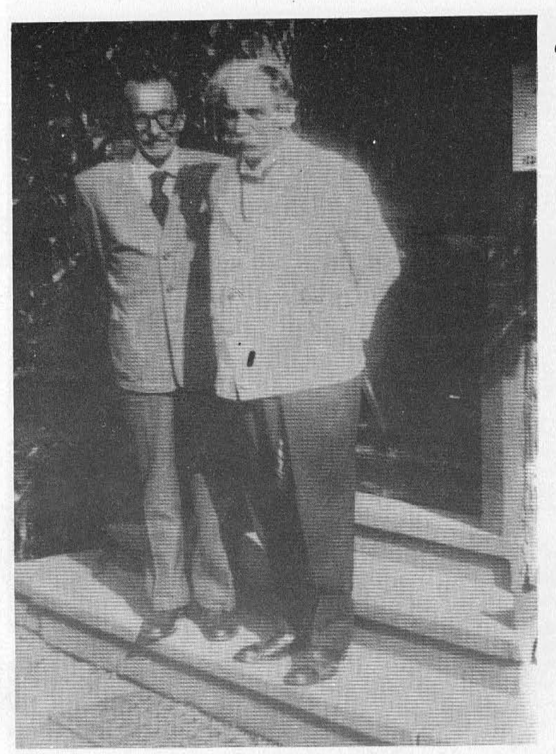


١٩٥٦ - «تتهيأ لي الأيام قصيرة. . لم أعش قط سنين قصيرة كهذه الشعلة تحترق في داخلي أكثر فأكثر. . . »

رسالة إلى ب. بريفيلاكي



١٩٥٧ ـ أنا كدابة دانتي، في جهنم التي عندما أكلت لم تعد جائعة كما قبل. . . »
«يا للخسارة لا أستطيع أن أحيا ٥٠٠ سنة لأصل إلى ترجمة كلّ القدامى. . »

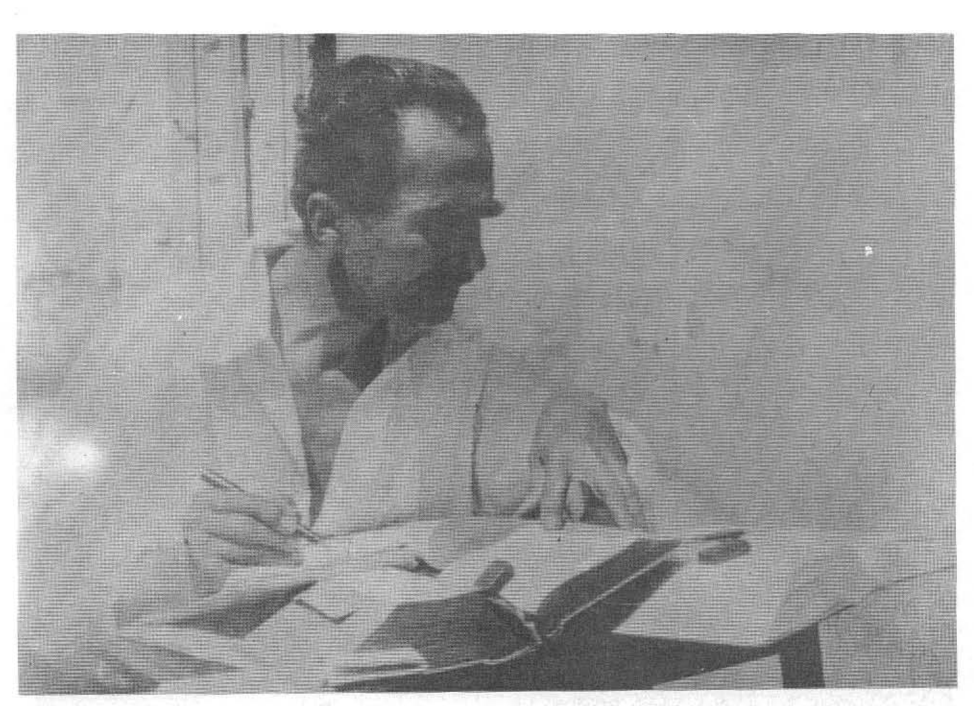


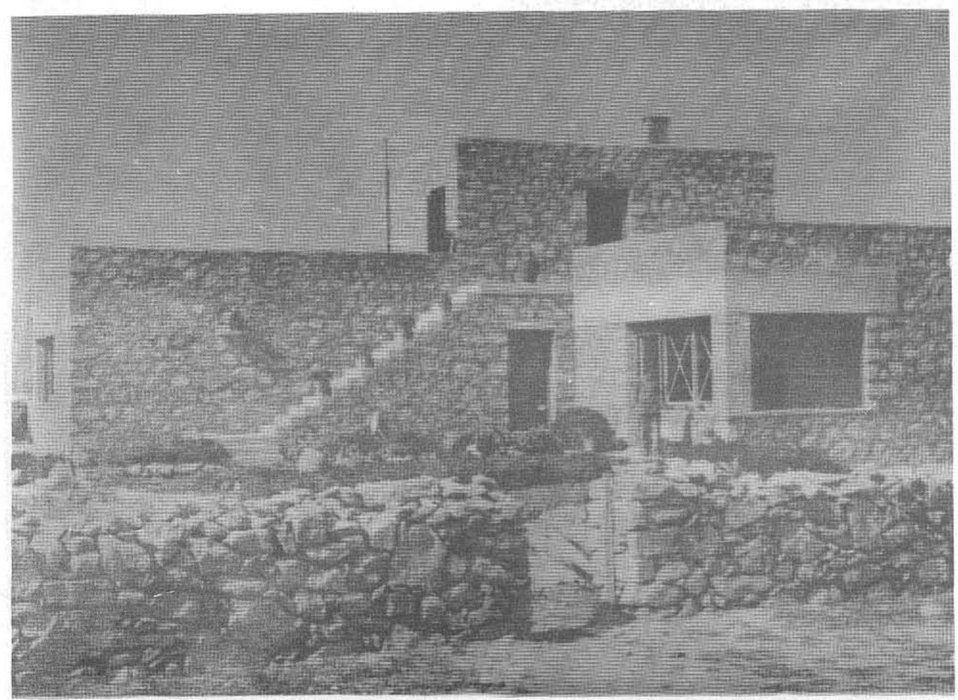
١٩٥٥ ـ «لقد رأيت محاربين يونانيين قدامى من كريت متشهابين مفعمين بالطيبة وبالإرادة التي تخضع»

عند أشوتيزر إلى كلزباش

١٩٥٥ ـ «دخلت في عامي الواحد والسبعين ولكن فقط في جسمي، قلبي وفكري لم يشيخا أبداً. . .»

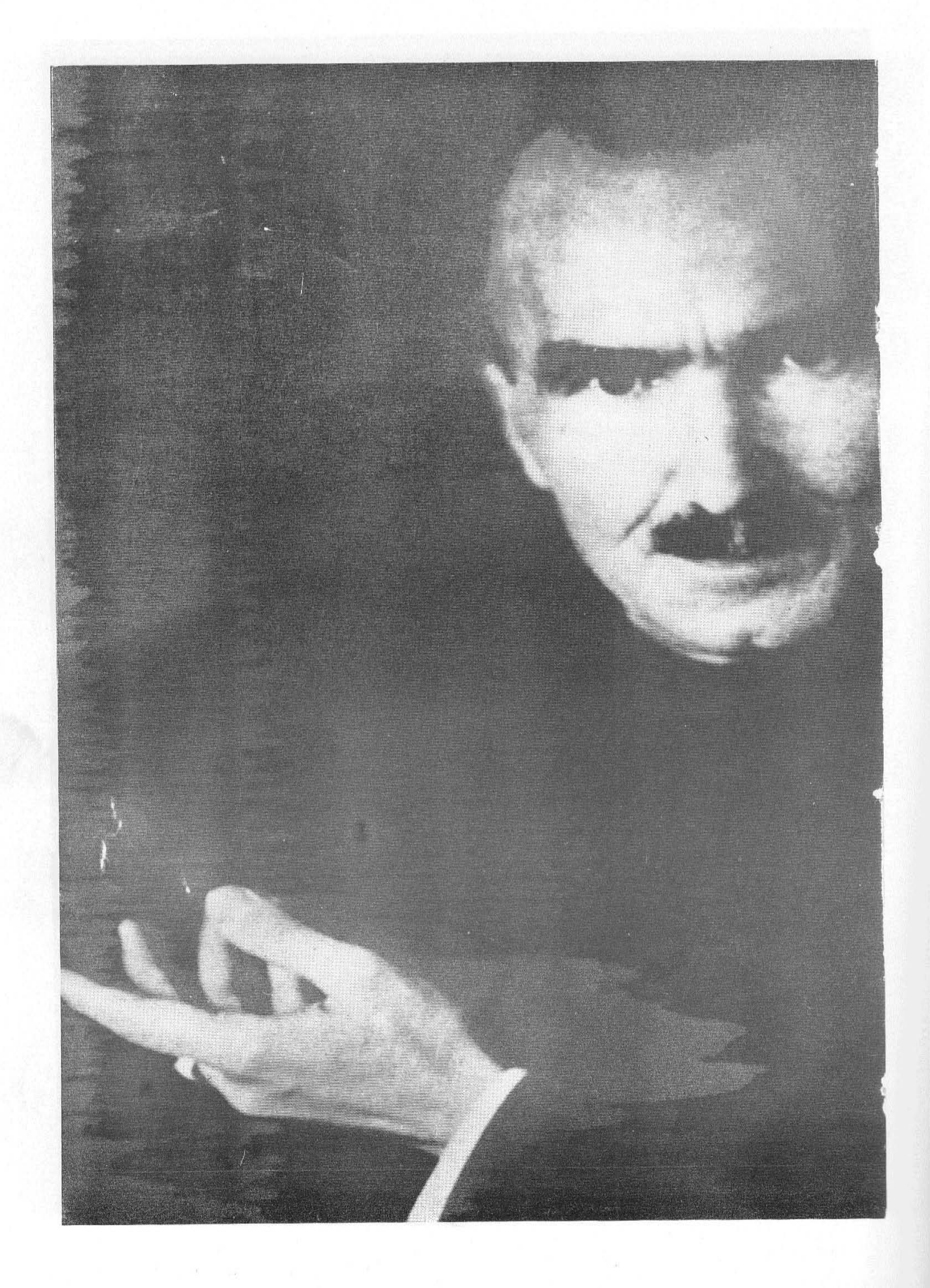
رسالة إلى بورجي كنوزي

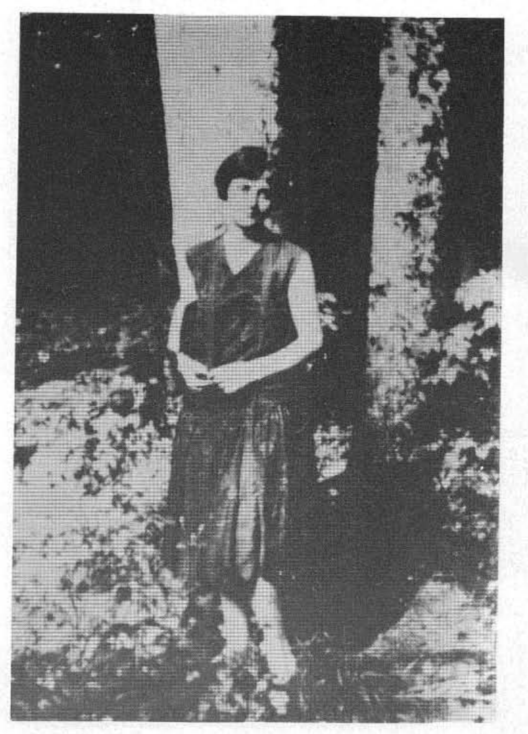




١٩٣٦ ـ «ليس هذا منزلاً، هذا حصن منيع.. بوذا لديه حق حين قال: من يبني منزلاً يصبح باباً ونافذة...»

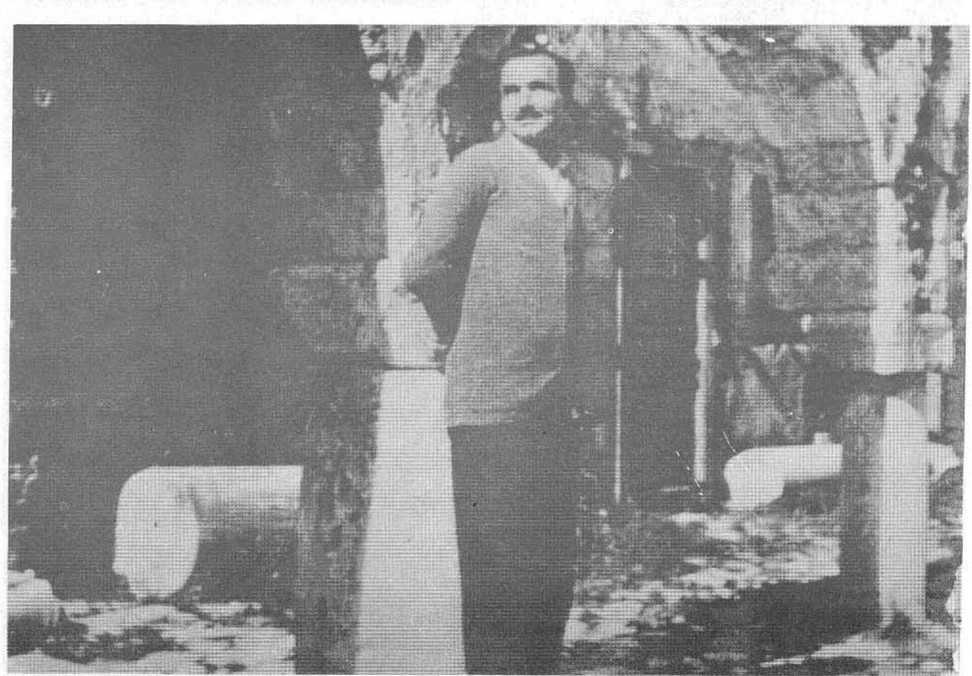
رسالة إلى ساميوز

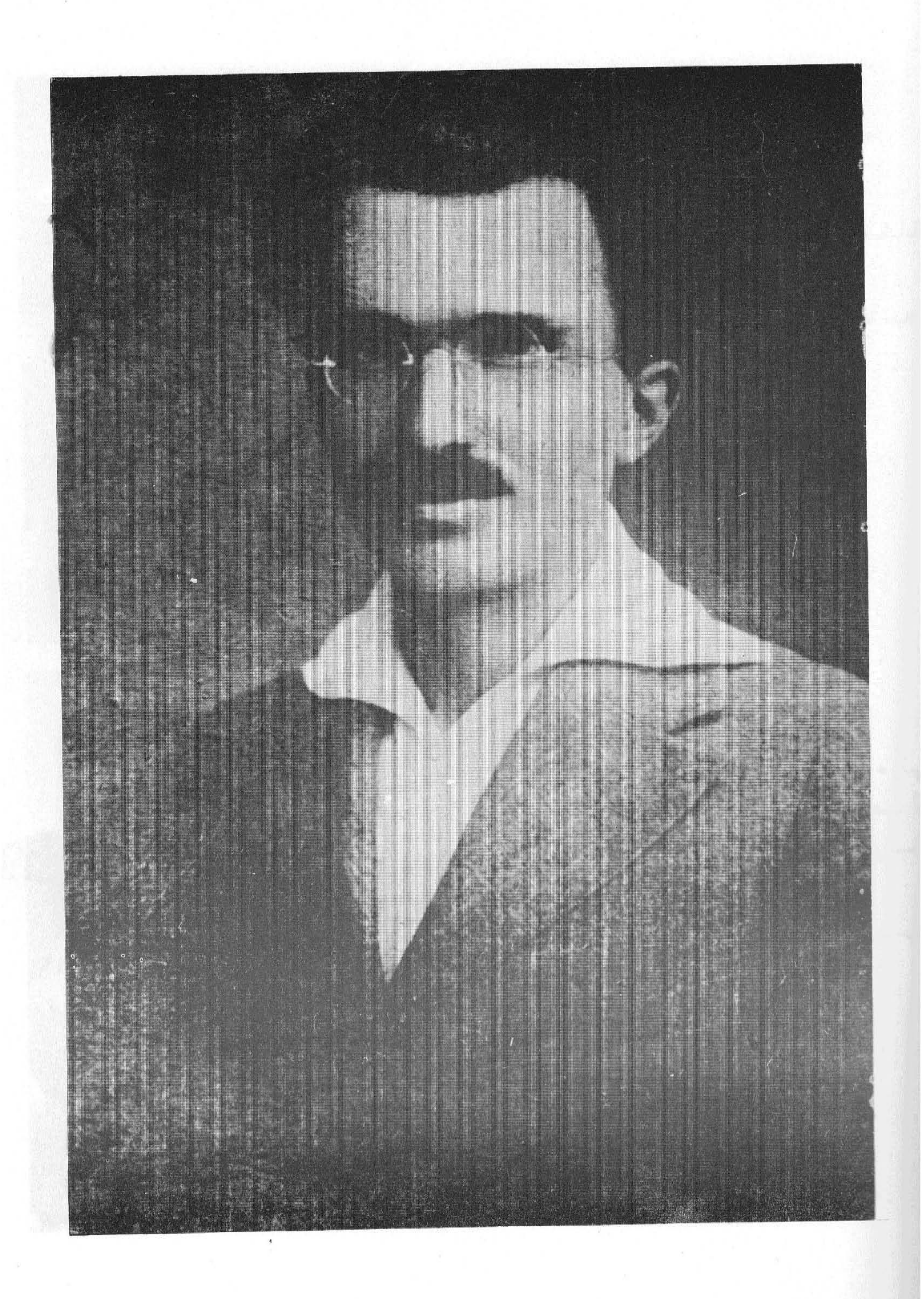


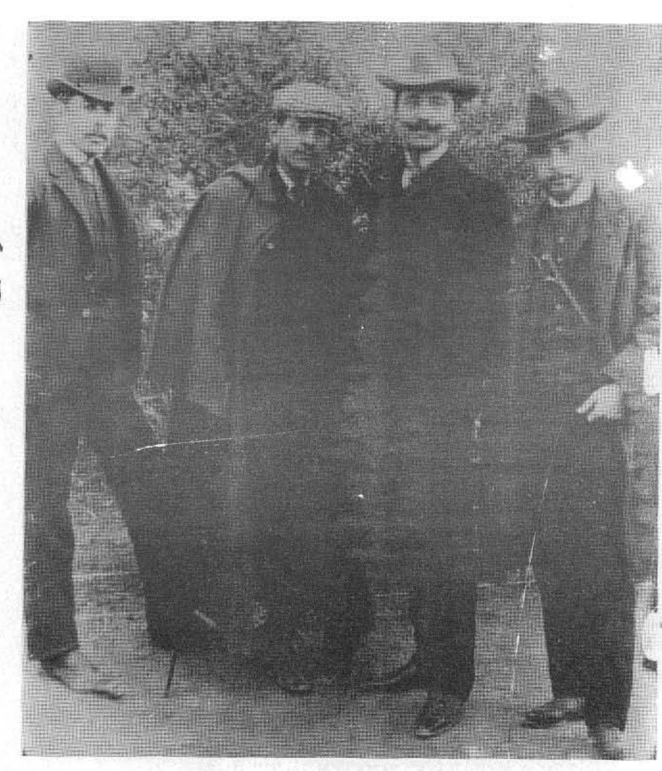


١٩٢٤ ـ «بما أنه ليس هناك نقطة نهاية لشيء ابتدئ به!! سأظلّ وفياً لك إلى الأبد على الرغم منك. . .»

رسالة إلى إي ساميوز







١٩٠٨ ـ ١٩٠٩ ـ «كنّا كثيران شابة لم تستهلك بعد. . .»

«موازنة حياة»



١٩١٤ ـ «كان يجب الإصغاء إلى أشعاره وهو يلقيها لفهم ما يجب أن يكون عليه أشعار اليونان القدامى. . .»

«موازنة حياة»

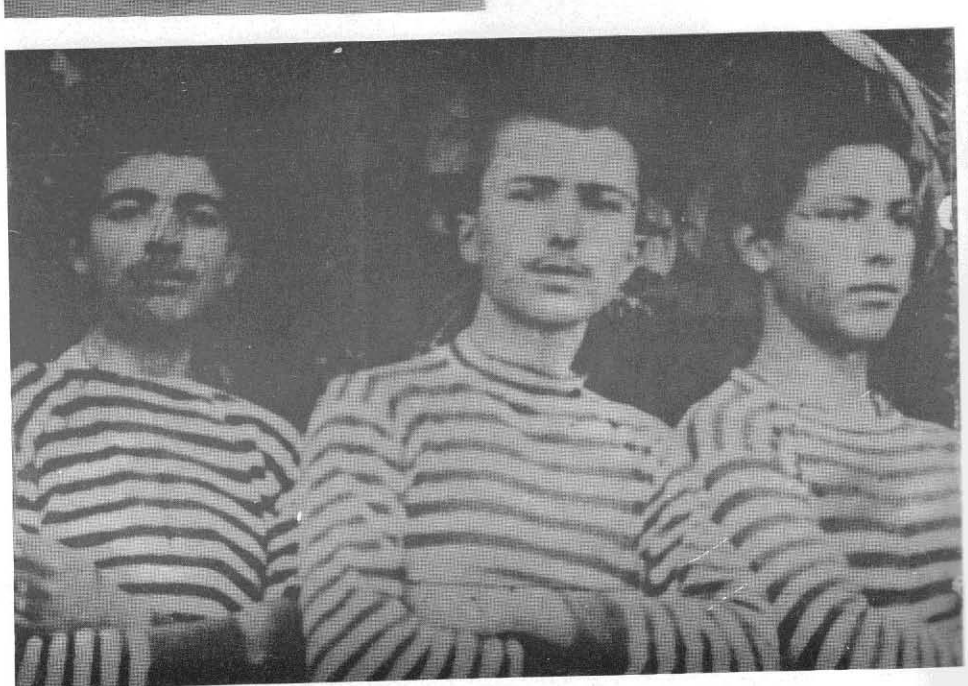


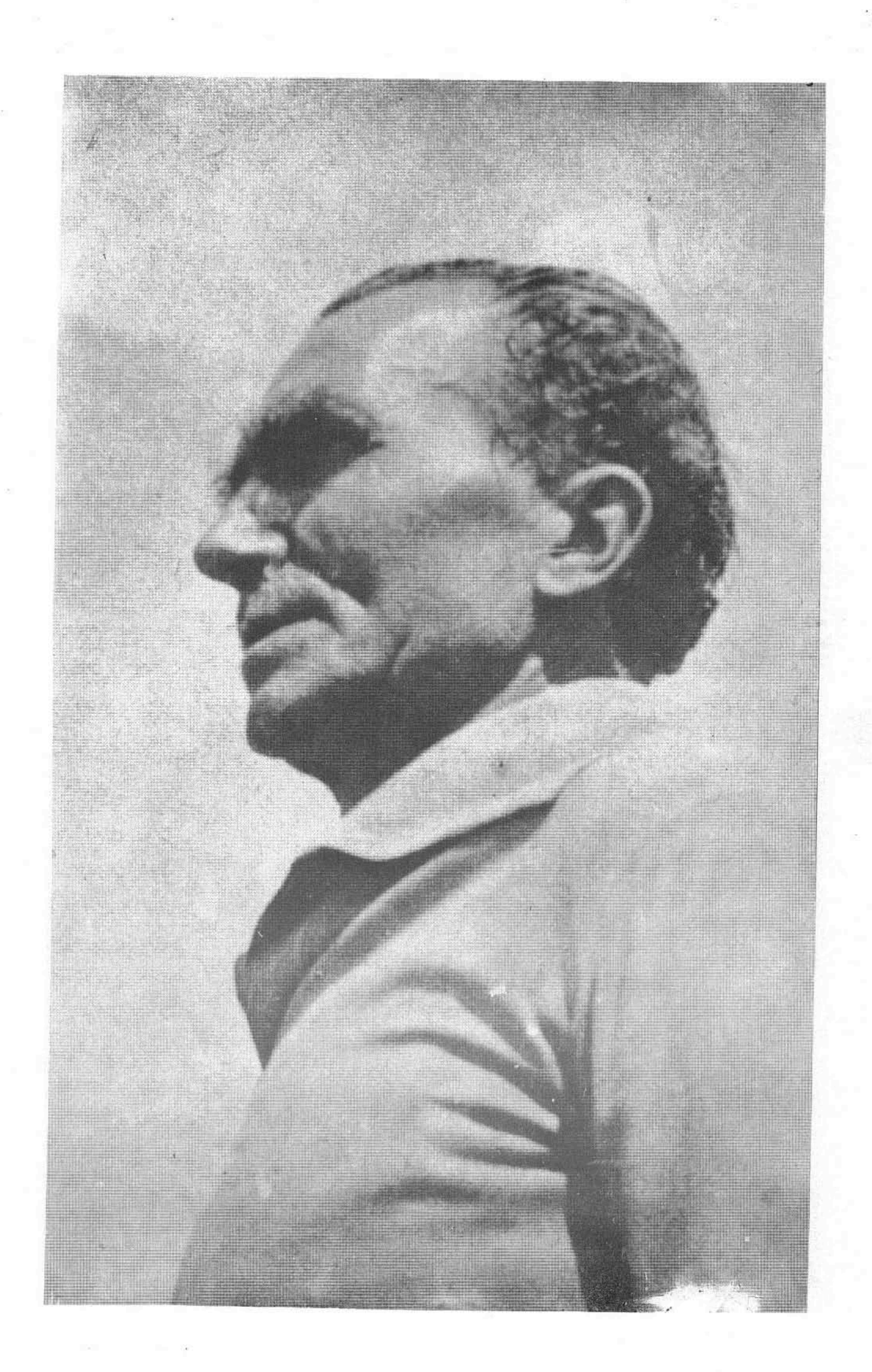
١٩٠٩ ـ . . . . وفي بضعة أيام . .
الهدوء شجرة الموز، الأم . . . »

رسالة إلى أمه

١٨٩٩ ـ «في هذه الحقبة القديمة
في موطني، استيقظ بلوغ الشباب
ببطء شديد . . . »

«موازنة حياة»





في البحث عن أسطورة جديدة

1924 - 1883



ليلتان أو ظلمتان، جـداران معتمان يحصران ثلاثة وثلاثين عـاماً من الضوء. لم يكن الجدار الأول مظلما إلا بـالاسم. فـالأرض تعكس القمـر، والقمـر يعكس الفجر الوردي المائل إلى الزرقة. ونحن نمشي على مـرآة من قصدير لا تكاد تحمل علامات قديمة قدم العالم: صعتر، سرو، مصطكا، علّيق..

أما الثاني، والأخير، فهو الموت. والإنسان الـذي يستطيع وصفه لم يولد بعد. ميت، محتضر، منازع، خلود الروح، العودة الأبدية، لائحة منفرة ميتة، تختمر مع الموت، ولا يستطيع أحد تفسيرها على نحو مجدٍ سوى إنسان ميت.

مـا الموت بدقـة بالنسبـة إلى قلب مـا زال يخفق؟ ما الكلمات التي يحتضنهـا الصمت الأخير؟ مـاذا قـالت العين الثـابتـة التي رفضت الشفقـة؟ والأسنـان المشدودة مانعةً خروج النجـدة؟ «يأس» سيقول البعض، «غبطة قصوى» يقول آخرون. أما هو، الوحيد الذي يحق لـه إبداء الرأي، موتنا، فإنه يسكت. وعلينا أن نخترق صمته.

ولكي أجسـد خيال محبـوبي ها أني مستعـدة للصعود بعكس التيـار، مثل صياد عجـوز يصعد نحـو النبع، قافـزاً من صخرة إلى صخـرة، ومن حجر إلى حجر. ينزلق، ينهض، يتأخر، ينحني، يتنـاول في كفّه قليلاً من الماء، يروي ظمأه، ويـواصل سيره صامتـاً .. الأحجار والصخـور سوف تخدمني كـروزنامـات وصوى: «هنا، سنة ألف وتسعماية .. هناك، عندما كنا نعيش على قمة جبل...»

في ما يخص الثمار التي تقاسمناها، سـواء أكانت مؤذية أم منعشة، لا مجال

لأي تردد. أما بالنسبة لما تبقى فسوف تكون الكلمة له. حجر صلب، تنبجس منه ألف شرارة. بعضهم كـــان يـــراه أحمر، والبعض كـــان يـــراه أبيض، أصفـــر أو بنفسجياً؛ كـــانوا يحسبونـــه «سائلاً» فيما يبقى حجراً صلبـــاً. سهل القراءة مثل كتاب ألفباء. هذا إذا كان كتاب الأبجدية كتاباً سهلاً.

أ، ب، ج، د، كان يا ما كان..

كان في قـديم الزمان، في شمال بعيد، بعيـد، وفي بلاد يأكل شمسها الـزّنجار، رجلٌ متوحّد، تسكنه طموحات لا تحدّ ولا تعد، رأي، أو خيّل إليه أنه رأي، جحشاً صغيراً. «يا له من مواطن! ويا للتيّـن ذي قطرات العسل!».

اشتعل قلبه وغامت عيناه وهو يجوب شوارع برلين شاعراً في أعماقه بجنون هذا الشعب الـذي أذلّته الهزيمة. كـان ينصت إلى صوت لينين قادمــاً من بعيد، ويتمنّى أن يلقي بقلمــه في النهـر، وراء كـل هـؤلاء الأمهـات المرتميـات فيـه مع أطفالهن، ويتعلم مهنة يدوية، ويلتحق بجيش العادلين. وها هو ذا جحش صغير، مـواطن له أربع قـوائم، يجعله يبـدّل وجهته. فـاندفعتُ أمـلأ الحقائب بـالكتب وأصـافح الأصدقاء المدهوشين: Auf Wiedersehen Auf Wiederse hen!) إلى اللقاء! إلى اللقاء؛ التيّـن يناديني إلى اليونان».

لم يكن يحب اليونان ومقاهيها والثـرثرات الدائمة التي تنهك الروح وتمتص الغضب الحقيقي. لكن هنـاك «كريت» جزيـرته، حمداً لله، وهنـاك أيضا، الشعب اليوناني الـذي يعادل، في نظره، كل ما تبقى، والذي استطاع أن ينحت لغـة مرنة قادرة على التعبير عما يتعذر التعبير عنه، وذلك على الرغم من جهود «فاناري»[1] المتعالمة وجـامعة أثينـا المحرّرة. وحتى لو كـان للمرء هـدف آخر في الحيـاة فإنه يستأهل التضحية به من أجل هذه اللغـة «آه، نعم، ما هي تلك الكلمة التي عثرت عليها قبل قليل في أغنيـة قبرصية؟ لابسة المعطف الطـويل: (ماكرومانتـوسا) آه، ماكـرومانتوسـا، كِيرَا .. وتلك الكلمة الثانية التي عثـرت عليها في أغنية كـريتية؟

---

(١) فاناري .. أو القسطنطينية توسّعاً. و«الفاناريون» هم العلماء اليونانيون الكبار في القسطنطينية الذين ابتكروا لغة ذات صفاء مبالغ فيه، وهي آفة ما زال الشعب اليوناني يعاني منها.

مرتاحة في مظاهر خادعة: كروفوباهيا! نعم: كروفوباهيا، يا للكلمات الجميلة!».

وهنا تبدأ حكايتي. عندما تعرفت يوم ١٨ مايو ١٩٢٤ على الرجل الذي ضحّى بكل شيء من أجل الحرية ومن أجل اللغة اليونانية الجديدة.

١٩٢٤. قبل عودة نيكوس كازنتزاكي إلى اليونان. وفي شهر مايو ١٩٢٤، تعرفت على زوجته غالاتي. كانت جميلة المحيّا، حاضرة البديهة، وتشرف على مجموعة صغيرة من الأصدقاء المخلصين ممن يتعاطون الكتابة والنقد الأدبي والفن بمختلف أنواعه، ويشاركونها ميولها أو انتقاداتها السياسية. وبوصفها كاتبة – تعمل بسهولة مذهلة وتتعاطى عدة أجناس أدبية – كانت تتمتع بتقدير اليسار اليوناني. وبعد سنوات من انفصالها عن زوجها عاشت بكبرياء واستقلالية، وما لبثت أن تعرفت على صديق رائع تزوجته سنة ١٩٢٦. وظلت هناك «لكنْ..» خفية لم يتعرّض إلى توضيحها أحد. لماذا كان نيكوس كازنتزاكي يعود الى بيتٍ لا يوفر له سوى أحزان جديدة؟ وما هو السر الذي جعل غالاتي عاجزة عن التخلص من نيكوس كازنتزاكي؟ أية عقدة دفعت بها، حتى نهاية حياتها، إلى الحديث الدائم عنه؟ وإلى جعله مشبوهاً وكريهاً لدى الذين لا يعرفونه؟ وتوبيخ كل من يتجرأ على ذكره بسوء أمامها، أيضا؟

ونظراً لكوني حضرت مثل هذه اللعبة في عدة مناسبات، فضلت ذات يوم رفض دعوة غلاتي للذهاب مع أصدقائها إلى محطة القطار من أجل استقبال نيكوس كازنتزاكي العائد من ألمانيا.

وهاهو الآن، هناك. ومن ديخاميني[1] بدأت تنتشر الإشاعات الخيالية في المدينة: «ضحكته تدوي مثل جرس .. نهِمٌ مثل غول .. لا يأكل شيئاً، إنه ناسك حقيقي .. يغازل النساء...» وبدأت الحكايات المتناقضة تنتقل بين الناس. وأرهقتني صديقاتي كاتي وماريكا[2] ولم تتركا لي فرصة للتنفس. ففي رأيهما أنه فرصة نادرة. شخص عظيم، جميل، رائع! والأسوأ من كل ذلك: أنه لا يستقر في

(١) حي سكني عال في المدينة يوجد فيه خزان ماء (ديخاميني) وبيت آل كازنتزاكي.
(٢) هما الأختان بابا يُوانو، عازفتا بيانو رائعتان.

مكان واحد. وذات صباح سوف يطير. وهكذا أكـون قد أضعت الفرصة الوحيدة للتعرف على شخص عظيم.

خدعت نفسي بلعب دور «اللا مبالية» وركزت أصابعي على عملي بالآلة الكاتبة ناقلة أوامر رؤسائي وطلباتهم، مع الهروب إلى مستقبل غامض وجذّاب ومقلق في آن واحد. كيف أنقذ ماء وجهي؟ كيف أواجه «الوحش»؟ كانت الأسطورة والواقع ينخران، مثل الأرضة أو السوس، خشب روحي، في حين اختار شعوري الباطني المواجهة.

كان يتوجب علينا في تلك الليلة اجتيـاز جبل بانتيليك، كي نبلغ شاطيء البحر فجراً، في رحلة منظمة يشارك فيها قـرابة عشرين متحمّساً من الشباب والشيوخ «من عشاق الطبيعة». ومن أجل تأكيد مآثرنا مشياً على الأقدام كان بعضنا يرفع عصا راعي أو عصـا صيّاد. والموعـد في محطة «الوحش» كما كنّـا ندعـو القطار البخاري الصغير الذي سوف يوصلنا إلى أسفل البانتينيك.

بدأ القمر بالظهور عندما رأيته قـادماً بخطوات عريضة وقفزات خفيفة، وهو مستقيم القامة مثل سروة. وكانت عيناه غائرتين تبدوان سوداوين تحت حاجبين كثيفين، مع جبهة عريضة، وأذنين دقيقتين وبارزتين. كـان يعتمر قبعة عريضة من قش وفي يـده وعاء بلـوري وردي اللون تموج فيـه سمكات سردين بمـرق الخلّ.

– لا شيء أفضل من هذا، للرحلات، أوضحت غالاتي، أمام دهشتنا.

لم أعد أتـذكر كلماته الأولى. وفي المقابل انتبهت جيـداً إلى الخطين الغائرين في وجهه.

لماذا اختـارني من بين كل الفتيـات الحاضرات في ذلك اليوم؟ هـل كان يـدرك ذلك؟ وفي غبش القطار بدأ يطرح الأسئلة التي سمعتها لاحقاً عدة مرات:

– أي كاتب تفضلين؟ ما هي أكبر فرحة عرفتها؟ ما هو لونك المفضل؟

ولعلني ركزت على إعجابي بـ «ماترلينك» لأنه بعد يومين، وبمناسبة عيد ميلادي، أهداني كتاباً مجلداً، بجلد أيّل أخضر - لوزي، يضمّ نصوصاً مختارة لهذا الكاتب. وعلى الصفحة الأولى رسم كفّ يدي بخطوطها التي انكب مازحاً على قراءتها عندما كنا نتشمّس فوق رمال «رافينا». ولقد مزّق تلك الصفحة بعد بضعة أعوام، دون أن يبيّن لي السبب.

هكذا بدا لي كازنتزاكي في اليوم الأول، وهكذا ظلّ طيلة حياته. كان مسكونا بالتناقض لكنه يتقدّم على الدرب ذاته من دون مساومة؛ متواضعاً ومتشدّداً، مضيافاً ومتوحداً، مولعاً بالبذخ لأنه مكّن العديد من الفنانين من النجاح، ولاعناً الأغنياء الذين لا يهبون شيئاً للفقراء، مفضلاً الزهد لأنه لا يستطيع التبشير بشيء وإتيان نقيضه.

شاعر صوفي رؤيوي - كان يؤكد أن «الأحلام لعبت دوراً كبيراً في حياتي وفي كتابتي» - كافح للخروج من جلده والتحوّل إلى شخص آخر: قائد سياسي. غير أنّ ذلك الآخر، الكامن فيه، لم يستطع الخروج أبدا.

«البحر! البحر!» وفي رفّة عين تحوّل متسكعو الليل إلى آلهة موج وحوريات ماء. قفزتُ بدوري، رامية بصندلي المغبّر بعيداً.

- هل ستسبحين مع كل هؤلاء؟ لماذا لا تبقين معي؟ كان يا ما كان .. لم أكن أعرف «الديكاميرون الأسود» لفروبنيوس ولا «التبليغ الذي أعلمت به ماري» ولا «المقبرة البحرية». لم أكن أعرف شيئاً. بل لم أكن أفهم جيداً ما يحدث في الاتحاد السوفياتي. ثمة جملة وحيدة قالها والدي[1] البرجوازي المسالم وترسخت في ذاكرتي: «أعتقد، ياأبنائي، أن مسيحاً جديداً قد ولد في روسيا...»

ولعلّ قطرات من دم جدّي[2] لوالدتي، ذلك الجبليّ الخشن الذي كان طبيباً وشاعراً ووطنياً ناشطا، ما زالت تتدفق في عروقي، من دون أن أعلم.

---

(١) قسطنطين ساميوس، موظف سام، مختص في المياه والغابات.

(٢) ثيودور أفندولي: بروفيسور في علوم الصيدلة، رئيس جامعة أثينا. تزوج امرأة كريتيّة وساهم في الكفاح من أجل تحرير كريت.

– سوف تحرقنا الشمس، قلتُ تلميحاً. والبحر منعش جداً..

– البحر يتطلب الوحدة والتأمل، همس قائلاً. ثم رفع صدره مثل درويش هندي جالس على الجمر:

– أنا افريقي، أحب الشمس! ولا بد أن نُفكّر فيك، أنت الأثينيّة الهشّة..

وتحرك من مكانه قليلا كي يغطيني بظلّه، دون أن يتحرك إلا مع حركة الشمس.

– كان ياما كان..

كلماته المنعشة مثل موجة فعلت فعلها فيَّ، إذ أنها أنستني رغبتي الجامحة في السباحة.

وبعد ذلك ألحّ علي اللقاء كل يوم. وعندما لا أتمكن من تناول العشاء معه، ومع بقية أصدقائه، في مطعم شيخ كريتي على سفح ليكابيت، كان يزورني آتياً لي ببعض الكتب، أو يراسلني ليحدّد موعداً في اليوم الموالي.

أيام الآحاد والعطل كنا نذهب لزيارة الكنائس البيزنطية والأديرة المهجورة التي كان يرغب في الحصول على أحدها لجعله مجمّعا للفنانين.

– وهكذا نعمل نهاراً، ونثرثر ليلاً، كان يقول حالماً، سيكون ذلك رائعاً. يكفي أن توافق الحكومة على إعطائي إياه..

بمفرده، أو بصحبة سيكليانوس[1]، تردد كثيراً على الوزارات المعنية. لكن الحكومات اليونانية متشابهة كلها. دائما صمّاء وعمياء أمام مخاطبيها العظماء.

كنا نذهب وأيدينا فارغة، ولا نأكل سوى قطعة خبز، أو ثمرة، أو حبّة طماطم. وكنت أستغرب ذلك الزهد في الأكل، بل أتألم منه. لكن كان يتوجب عليّ أيضاً

(١) انجليوس سكليانوس: من اكبر شعراء اليونان المعاصرين. كان جدّ مختلف عن كازنتزاكي لكنّهما ارتبطا ببعضهما ارتباطا حميمياً وثيقاً.

حفظ ماء الوجه. إذ كانت هناك مكافآت من نوع آخر.

كان على أناقـة غريزية. يرتـدي بدلاته السيئة التفصيل براحـة تامة. خفيف القدمين، مشيق الأصـابع مع أظافـر تحسده عليها كل امـرأة في العالم. ولم يكن يضـع ربطة عنق، مكتفيـا بدبّوس ذهبـي يثبت به فتحة قميصـه. وكان يضـع في أصبعه خاتماً كبيراً جدّاً، ويلف حول خصره حزاماً فضياً قديما من جورجيا. تلك هي ثروتـه كلها. ولا ينسى قفازيـه البيضاوين النظيفين دائماً، في يديـه، وكذلك تمثال «دانتـي» الصغير الذي يعتبره «رفيق الـدّرب» وفي نهاية حياتـه تخلّى عن القفازين والخاتم. غير أن دانتي ظلّ قرب سريره حتى آخر نفس.

لم يكن من الصعب إدراك مدى تقـدّمه من دون قناع. إذ كـان يفعل ما يبشّر به، ويبشر بما يرغب في فعله. يشعل الشمعة مـن طرفيها. يتشدد مع الآخرين إلى حدّ الإفـراط، ويطالب نفسه بـالمستحيل. ففي رسائلـه وكتبه، ومع من يحب، أو داخل الجمهـور، كان هـو ذاته، هـادئاً ومشعاً في آن واحـد، جاداً أو ضـاحكاً، بضعفه وبقـوته، غير مكترث لأقوال الآخـرين. وكلّ من يقترب منه، إمـا يحبه أو يكرهه. ولا أحد كان يحبه ويكرهه في الوقت نفسه.

كتب إليه الصحافي ج.ن يقول:

– لم أرغب في المجيء لرؤيتك، لأنك ضميري، وأفضّل عدم الإنصات إليه!

ولقد نصحني منذ اليوم الأول قائلا:

– كوّني صورة كاملة عن ذاتك وحاولي أن تشبهيها.

وهي فكـرة هاجس كـان يضعها على لسـان كل أبطـاله تقـريباً، ويمارسـهـا بدوره، من دون انقطاع:

كابُوديستريا[1]:

– (كان يعرف انه سيقتل. هو الآن وحيد ويتامل البحر)

---

(١) كابـوديستريا: أول حاكـم لليونان المحـرّرة. اغتيل في الكنيسة في اليوم الـذي كان يستعـد فيه للوفـاء بنذره وتوزيع أراضي الدولة على الفقراء. ولقد كتب كازنتزاكي تراجيديا شعرية تحمل اسمه.

ألا تخجلي أيتها الروح؟ هل تملّكك الخوف؟ تمالكي ذاتك.

لا تنسي أنك كوّنت في ذهنكِ كابوديستريا آخر، أسمى منك بكثير، وأقسمت ألا تشعره بالخزي أبداً..

وكذلك في «برومثيوس»[1] قبل الكارثة:

برومثيوس

... برومثيـوس الأعظم خلقته بنفسي: أبيًا كما أردتـه، يندفع إلى الأمـام فاقتفي أثره، محاولاً الاقتداء به بقدر استطاعتي. سوف يأتي اليوم الذي نصير فيه شخصاً واحداً..

لم يكن نيكوس كازنتزاكي ملاكاً. لكنـه، بطبيعته الدينية العميقة، كان يبحث بإصرار عن إله يريده عادلاً ومحّرراً.

«وكـان بوسعي أن أصير ملكـاً في مجال الفن، غير أنني أبسط كفّي وأطلب ما يشبـه الصّدقة: الربّ. ومثل السمندلة التي رأيناها في حديقة الحيوانات، أصيخ السمع، وليس السمع فقط، أنصت بعمق إلى حدّ بعث الصـوت القاصي. وكما يرتعش الجسد بكـامله لأنه لا يعرف أين سيقبله المحبوب، ترتعش روحي للقبلة اللا مرئية»[2]

قال لي ذات يوم:

– تحبّين السفر، ولماذا تمكثين في أثينا إذن؟

– إلى أين أذهب؟ وماذا سيقول أهلي؟

– العالم يتشكل الآن في الاتحاد السـوفياتي. ينبغي أن تتعلمي مهنـة تمكّنك من العيش في موسكو.

وحتى الموضة «كـانت تتطلب خطوة واحـدة، سرعان ما خطـاها، في مـوسكو أيضاً:

---

(١) «برومثيوس مقيداً» ثلاثية شعرية لنيكوس كازنتزاكي.

(٢) حوار مع راحيل، دفتر ١٩٢٣.

– وجـدت الحلّ! أنت تحبّين القبعـــات الجميلــة، أليس كـــذلك؟ إذن عليك أن تذهبي إلى موسكو كي تتعلّمي صنعها..

ونظراً لكـونه نادراً مـا يهذي بهذه الطريقة فإنــه يكون أول من يضحك على فكرته وتدوّي ضحكته مثل مجموعة أجراس يسمع صداها على بعد عشرة أميال.

كان يكره أثينا لأنه لا يعيش انسجامـاً في بيته. وبعد مرض غريب في في فينا، وصفــه في «المسيح يصلب من جـديد» وفي «تقـريـر إلى غـريكو»، وإثـر عــامين أمضاهما في برلين، تمكن من التخلص من آخر العراقيل.

يوم ٥ يوليو ١٩٢٤ ارتحل كازنتزاكي إلى جزيرة كريت، وفي رأسه مشروعان متناقضـــان تماماً: مقابلة قـادة الحزب الشيوعي في جزيرتــه، ومدّهم، إذا أمكن، بخبرته الشخصية، والاعتكاف في الوقت ذاتــه من أجل التفرّغ لكتابة «أوديسته» خوفاً من الاختناق بهذه الملحمة التي كانت تسكنه. وبعد يومين كتب لي:

هِيرَكْليُون ٧ يوليو

رفيقتي العزيزة، العزيزة،

عاد عوليس الثاني إلى وطنه. رأى رأس[1] الجبل الشاسع فوق مدينته، سلك، بقرب الماء، طريقه القديمــة، وطرق مجدّداً باب والده. كانت الباحــة ملأى بالحبق والمردقوش ومخمليات الهند. الشيخ «لايرتي» أدركه الهرم، الأمّ – الطيبة، الهادئة، الصامتة – تنظر إلى الرجل المتعــدد الأسفار؛ كم صار نحيلاً، كـم غار صدغاه، وعينــاه، وكم اتسع جبينه الذي لفحته الشمس وغطته الثلوج.

عـوليس الثاني، يــا رفيقتي، مرافقك في النــزهــات المسائيــة ، الرجل الــذي استمتع بمرافقتك وتكلم كثيراً ثــم صمت طويلاً، صعـد السلم ثم نزل منـه ثانيـة، مغادراً بيته الأبوي. كل شيء ظل كما هو، نظيفا، بسيطا، حسن الترتيب. وبدا له الشارع ضيقاً جداً، كما لو تقلص كل شيء أكثر، وازداد سذاجة. تحدّث الأب عن الكروم والزياتين، وتحدّثت الأم عن البلدان الأجنبية، وسألته كيف عاش في أراضٍ نائية، بين رجال ونساء أجانب، لماذا ازداد هزالا، ما هي همومه، ومتى سيكفّ .. وبدأ بقية أفراد العائلة يتوافدون. أبناء

---

(١) قمة جبل يوختاس على شكل رأس إنسان.

العمومة من أصحاب الملايين البدينين – ثمة هوّة عميقة بيننا – كانوا ينظرون إليّ مثل ثمرة أجنبية غريبة وفالتة عن شجرة السلالة. أطفالهم الجشعون الصامتون ينصتون، يراقبون، يجمعون ثرواتهم منذ الآن، كي يفهموا فيما بعد، بعد عشرات السنين (وربّما لن يفهموا أبداً) عمّهم الأسمر، الناسك، المتزهد، المتعدد الرحلات.

أذهب وأجيء في البيت الأبوي، أتذوق بهدوء مرارة الأشياء التي أحببتها وقد أمعنت الآن في الغياب، أفكر في برلين، في حمّى القلق الإنساني، هناك، مع أنا لا يا – توباري[1] اليهوديتين الفظيعتين، في اضطراري القاسي إلى إنكار والدي ووالدتي والابتعاد عنهما، وتأكيد ذاتي في مواجهة أخلاقهما ودينهما ومبادئهما الاجتماعية ومصالحهما. مساء البارحة حدّثت أبي عن البلشفية. صعد الدم إلى رأسه لكنه سكت. وقف وانسحب إلى غرفته. وفي ذلك شهادة بليغة، منه، استنكاراً.

عزيزتي الغالية، بمشيئة الله، أبتعد دائما. بمرارة، عن الأشخاص والأشياء الذين أحبهم ولا يستطيعون مرافقتي. أطوف في هيراكليون، أتأمل البحر الذي أعرفه جيداً، والجبال التي تلفحها الشمس، الأرض البيضاء، الحجارة، الأعشاب، الأبواب القديمة المألوفة، الفتيات المعروفات، الأصدقاء الذين كبروا، كما لو كنت أعيش في حلم قديم، كما لو كنت أنظر، في مياه شفافة وعميقة، إلى مدينة غارقة.

أعمامي وأخوالي الهرمون يسألونني عن انجلترا وفرنسا، وعن السياسة «هل ستنشب الحرب؟ من سوف يكون المنتصر؟» أحد أبناء عمي يسألني عن الجامعة التي يختارها للدراسة، وإحدى الفتيات تسألني عما إذا كان من الأفضل أن تسافر إلى أمريكا، لأنها، هناك، تستطيع أن تتزوّج «هل أنتِ مستعجلة؟ – نعم. لماذا؟ – أريد طفلاً. أحسد النساء اللائي يحتضنّ أطفالاً في صدورهنّ».

وأنا أحافظ على هدوئي، أضحك أحياناً، أصفّر أحياناً من الانفعال المقموع، وأجيب عن كل هذه المخاوف البشرية، أجاهد من أجل محبة كلّ هذه الأرواح الغريبة، أتماهي معها، أهتم بانجترا، أشارك في اختيار الجامعة، أذهب الى أمريكا بحثا عن زوج . أنهك، أتلف، يالينوتشكا، في باحتنا الصغيرة، لا أهمل شيئاً، أعيش، أحب، أتالم مع كل الذين يأتون لزيارتنا، كي يتفرجوا برعب وفضول على سندباد بحر الفكر.

المائدة التي أكتب لك عليها، في الحجرة التي تربيت فيها، مغطّاة بالفواكه

(١) من بطلات فروبنيوس في احدى حكاياته الافريقية.

والحلويات والموز، وكلّ ما أحبّ. أتشوق إلى زيارة البحر حتى يتجلّى قلقي في العزلة؛ ثم يقضي الرب بما هو مقدر. روسيا؟ فليكن ذلك وفق مشيئة الإله. لكنني، هنا أيضا، لن أفتقر إلى السعادة لأنني سوف أعمل.

حالما أصل إلى ليدا سوف أكتب إليك .. وأنتظرك. كوني طيبة، هادئة، اعتني بجسدك، احبّي الناس، ساعديهم، لا تنسي أحاديثنا، نزهاتنا، الصخور الحارقة التي جلسنا عليها، أشجار الصنوبر، الجبال، النجوم التي شاهدناها يائسيْن أو سعيديْن..

هيركليون ١٥/٧/١٩٢٤[1]

أتجوّل في الأزقة الضيقة لهذه المدينة، أنظر إلى الأشجار البائسة، الرجال الملفوحين، النساء الحاميات المجهولات، أذهب إلى البحر، أتمتع بالموج، أشعر بالبحر كله يتدفق في شراييني، أستنشق الهواء، أتمدد على الرمل الساخن؛ أعرف أنني الصوت الصافي لكلّ هذه الصرخات غير المنطوقة للعناصر – وإذا بقلبي المعذب ذي السلطة المطلقة، يا صديقتي، يثب مثل شيء حيّ، صغير وزائل. أتذكرك في كل اللحظات المرة والقاسية، أتذكر عينيك، صمتنا، كلماتنا، ظلّيْنا على الحجارة، كلَّ خطواتنا عبر الشواطيء والحقول وعبر رُوحيْنا. آه، من قلب الإنسان، يا له من لغز! ألتفت وأستمتع كثيراً بذلك الخط الأحمر الذي تتركه ورائي القطرات الساخنة من قلبي البشري.

وعندما أغادر البحر، مع حلول الليل، ولا تزال شفتاي وشعري وأفكاري محتفظة بالملوحة، ألتقي سرّاً بقادة الحركة الشيوعية هنا، ونخطط للمعركة القادمة. هم مجموعة من حوالي عشرة رجال، بسطاء، جاهلين، لهم أرواح عاتية وأذهان متعددة مشعة. كتلة لامعة، عاشقة، تنتظر نزول الروح كي تخصبها. ما زال البحر كله، رؤيا العزلة والأبدية، ملء عينيّ، كل «الجماعة»، وفجأة، بين هؤلاء الفقراء، البسطاء، «صيادي البشر»، المبشرين الجدد، المهانين، الجائعين، يتدفق فيَّ الحب الملتهب العابر تجاه الإنسان وهذا العصر المجيد واليائس الذي كُتبت لي الولادة فيه، وإذا «بالجماعة» تتركز في نقطة مشعة – الفعل الفوري.

أقول لنفسي: هؤلاء الرفاق هم الدرجة الأولى في تعاليمي الدينية. إنهم يحتلّون الصدارة كي ينقذوا أنفسهم من الظلم والجوع. وهم، كما كنا نقول يا عزيزتي

---

(١) رسالة إلى ايليني ساميوس.

لينوتشكا، تلك الحشرات التي تولد متيقنة من أن العسل قد خلق كي تشبع منه.

أما الدرجة الثانية (ولي حتى الآن ثلاثة إخوان في هذه الدرجة) فتتلخّص هكذا: لا تكافح من أجل ذاتك، بل من أجل الإنسان. يتوجب علينا أن نخلص الإنسان، وليس شخصنا البسيط..

في الدرجة الثالثة، وهي الدرجة العليا: لا نكافح من أجل ذواتنا، ولا من أجل الإنسان فحسب، بل من أجل الجميع، سواء أدركناهم أم لا، من نبات وحيوان وبشر وأفكار – نكافح من أجل خلاص الإله..

.. أبتهج من توصلي،لا دون قصد، إلى غرس جذور إلهي، هنا، في أرض الجدود، في الأرض المقدسة، والتي لا يفارقها النّور. يتوجب عليَّ الاعتناء بهذه الكتلة، وجعل طموحاتها على قدر حاجاتها، واستخدام القلق الكوني انطلاقا من هذا المكان، من هذا الوطن الصغير المتالق في البحر الأزرق، لإيجاد أفضل تعبير عن البعد الصوفي لميولي الدينية..

والدرجة الأولى للمبادرة، شئنا أم أبينا، هي اليوم للثورة الشيوعية.

آه ، يالينوتشكا، لو أن جسدي كله يصير قادراً على مجاراة ما يدور في رأسي! أحيانا تخترق عينيّ بروق أفريقية فأصرخ: هاأنذا، إنني مستعد! ثم تتلاشى تلك البروق. فهل تتلاشى حقا، أم أنها تعود لتنتظم في عاصفة دائمة؟.. سوف نرى .. قاسية هي الخليّة التي أورثني إياها والدي برناردون، حنونة هي الخلية التي أورثتني إياها والدتي بيكا. وليساعدني الله كي أتمكن، قبل موتي بقليل، من إيجاد التوليفة الفضلى.

رفيقتي الحبيبة، أقبل يدك، أتذكر الصخور الحارقة، بَحْرِيْنَا اللذيْن فتحا ثم أغلقا أول دائرة في لقائنا، أتذكر دير القديس يوحنا الصياد[1]، كل شيء يلمع في ذهني بهدوء، وبزُرقةٍ خالدة..

(هيركليون) ٢٠/٧/٢٤[2]

... قلبي مملوء بمرارة لا تحتمل. ليس لديّ أي وهم – لذلك أكافح بلا هوادة، يائساً

(١) دير مهجور على قمة خليمات، كان كازنتزاكي يتمنى الحصول عليه لتأسيس مجمع الفنانين.

(٢) رسالة إلى ايليني ساميوس.

وحرّاً، أعرف جيّداً أن سقوط هذه الطبقة الاجتماعيــة البائسة والتالية يؤدي إلى ازدهار العمال و إشراقهم الجسـدي والروحي، ثم يتحـولون إلى بـائسين، ويبلون بـدورهم، إذ يهجرهم «النفس القوي» فتعـوّضهم طبقة جديدة، وهكـذا دواليك، إلى مالا نهاية، حتى تتلاشى الأرض، وتنفصل الحياة، مثل كائن طفيلي، عن قشرة كوكبنا البسيط.

إنها ساعة الغسق، ساعتنا الخطرة؛ استلمت للتوّ رسالتك، وقلبي يخفق بشدة. ثمة دروب كثيرة تنفتح أمامي – كلها متساوية في عدالتهـا وقدسيتها و إنسانيتها وسحرها، وكلها تؤدي إلى القبر. فلماذا نختار أشدها وعورة، أقسـاها، أقلها بهجة؟ في هذه الساعة المسائية القاسيــة أمسك برسالتك، وقلبي يدق ويتساءل بقلق. هل تذكـرين ما قلته لك عن إخوتنـا الأفارقـة؟ «عندما يمـوت الإنسان، تغـور عيناه في التراب وتـزعق: – لم نَرَ شيئاً! والأذنــان: – لم نسمع شيئاً قط! والشفتـان: – لم نقبّل قبلة واحـدة! واليدان: لم نلمس شيئاً قط!» يـاإلٰهي، في هذه الساعـة، وأنا أكتب إليكِ، كلّ حواسي اليـائسة تطلق هذه الصرخة الأفريقية.

رفيقتي، أعيش كلّ لحظة بكثـافة فائقة إلى حدّ الـذوبان والتّلف.. ذهبت، أول أمس، مع لفتيرس[1] إلى قرية فارفاي[2] حيث ولـد أبي .. وهي تقع على قمة هضبـة؛ وحولها كروم وسرو وتحتهـا حقول قمح في أرض كلسية، بيضـاء، قاسيـة. لن أنسى أبداً كيف كان قلبي يثب وأنـا أجتاز الأزقة الضيقـة وأرى الأبواب الواطئـة، المفتوحة، والبـاحة، وأصص الحبق، والجرّة المزينـة بالـزعتر، والنساء الجالسـات في العتبة وهن يغـزلن، والفتيات، في الطابق الأرضي، ينسجن على النّول.

ذهبت إلى قرية والدي لأشعل فيها ناراً، نـار «فكرتنا»، حتى تشتعل وتنجو. لم أجد كثيراً من المعارف. كانت تلك القرية الأولى التي بدأت منها مسيرتي في جزيرة كريت.

واجبنا الصعب – السامي هو التوعية، إيجاد راضين وغير راضين، لتمكين البسطاء من وعي شقـائهم، رمي الجمر في بـاحة كلّ بيت مستكين. لماذا؟ لكي لا يتعفّن العـالم في هدوء وركود، لكي لا تتآكل الروح بالصمت والرضي..

آه يـا رفيقتي، كم أنـــا سعيـد لأن الله وفـر لي فـرصـــة مخاطبتك و إيجاد رابط بين

---

(١) لفتيرس الكسيو، شقيق غالاتي. كان أستاذاً، وكاتبا، وموسيقاراً في أوقات فراغه.

(٢) فارفاري: النطق اليوناني لاسم «البربر» وكان نيسيفور فوكاس امبراطور بيزنطة بعد تحرير كريت، قد وطّن الأفارقة في هذه القرية. ومن هنا فكرة كازنتزاكي عن الدم العربي الذي يجري في عروقه.

وجودينا. إنها – كما قلت – فاتحة خير. أرجو من الله أن يتشكل كتاب كاملٌ بطوليٌّ، مفعم بالمرارة والحب، مملوء بالحركة والفعل، بالصبر والطيبة.

أنتظر مجدّداً، وبكل فرح، رسالة أخرى منك .. يدي تظل دائما مفتوحة، مثل جفنة شحّاذ بوذي، وتطلب الصدقة. سوف تظل هكذا، دائما، مبسوطة، أعرف ذلك، وعندما أموت لن تتمكن الأرض من جعلها تنقبض. وفي اللحظة التي أبلغ فيها أوج الأمل، أحطّمه لأنه لن يعود قادراً على احتوائي.

رفيقتي العزيزة، رفيقتي العزيزة، ليكن إلهنا، الصلب، اليائس حامل النّار، معنا.

هيركليون ٢٩ يوليو ٢٤[١]

لا أرغب في الذهاب إلى روسيا هذا العام. سأبدأ بدعم «الفكرة» هنا، أولا.

رفيقتي، الحياة معجزة. ها إنك تجيئين إلى كريت، ها نحن نشاهد الجزيرة المقدسة معاً ونجلس سوياً على شاطيء بحر ليبيا قبالة أفريقيا.

تعالي بسرعة. فالعنب والتين والأجاص والبطيخ وهوميروس وبوذا، وروحانا، والأمطار الأولى الموشكة على النزول – كلهم ناضجون، جاهزون، طيبون ومقدّسون، يا رفيقتي!

نبع ماء معدني – بل قطّارة – في بستان رحب. أشجار ليمون وأترجّ ذات أوراق مائية، (الحنة) كما كان يحبها الرسام الجمركي روسو. ذباب ونمل نزق .. ممرّ ساحلي مغلق الطرفين بصخور وعرة. سقف واحد: مخزن، سقيفة مملوءة بجرارٍ وحبوب. وساكن واحد: شيخ أعمى ونصف أصمّ. ليدا! هي ذي الخلوة «النموذجية» التي اختيرت للشاعر المتزهد. ألم يدّعِ أنه يحب حياة البسطاء؟

ما من سرير أو طاولة أو أغطية، لا شيء يوحي بالرفاهية. نمل، ذباب، ورمل أصفر مدخّن مثل قصدير ذائب.

بغمزة واحدة من عينه حكم مرافقي على الوضع بأنه لا يطاق. وهذا دافع آخر للمثابرة.

---

(١) رسالة إلى ايليني ساميوس.

- كوب ماء، من فضلك، قلت وقد جفّ حلقي بعد مسيرة ساعات طويلة على ظهر بغل، عبر الجبال القاحلة.

وقف الشيخ، ربت على لحيته، ومسح يديه المتغضّنتين على سرواله الأزرق، ثم بحث عن عصاه متلمّساً، وقصد النّبع. وما لبث أن عاد بوعاء ماء فاتر، تسبح فيه نمال هائلة.

- نمال! صرخت والدموع تملأ عينيّ.
- أف! نمال! انما لم تؤذ أحداً قط!
- لنذهب فوراً، رجوته، باحثا بعينيّ عن البغلتين.
- سوف نذهب عندما تريد ذلك، أجاب الشيخ؛ نيكوس ضاحكا وقلقا في آن واحد. فلنذهب أولاً لتحية النبع!

انحنينا كثيراً كي نمرّ تحت أشجار الأترجّ الكثيفة. فجأة، ومن دون سبب ظاهر، تملّكنا ضحك جنوني أمام «النبع» العتيد، وأعتقد أن ذلك الضحك ربط بيننا بصلة أوثق من أية صلة بدانتي أو لينين أو زوربا على وجه الأرض.

- إذا بقينا، فإن غالاتي سوف تقول إننا أردنا استدراجها إلى هذا الفخّ، وإذا ذهبنا فسوف تقول إننا نريد حرمانها من التمتّع بهذا الفردوس الأرضي. القرار عندك، قال نيكوس بنبرة مداعبة.

لكننا بقينا. إذ توصلنا، من دون أن نعلم، إلى توقيع ميثاق حياة وموت.

وفي أحضان ليلة دافئة، تمدّدنا على الرمل، وتابعنا رفاق المكر الثلاثة، أفروديت وآريس وجوبيتير (المشتري) المخادع[1] في دورتهم السماوية.

كانت تلك الكواكب دقيقة في موعدها، أليفة، لا تدرك. طيارات ورق سماوية علّقنا عليها أمانينا مكتوبة على شرائط صغيرة؛ أمانٍ وطموحات نبيلة ترحل مع الليل لتضيع في أخاديد السباق الكوني.

(١) صفة يطلقها رعاة كريت على كوكب المشتري لانهم يخالونه فينوس فيستيقظون في ساعة جدّ مبكرة.

وفي النهار تكمن، فـوق البحر، داخل مغارة ضيقـة مثل محارة، ونقرأ بهدوء، «الإلياذة» و«ايفيجيني في تـوريد» لغـوته، واسخيلوس وتشستـوف. وبين فينة وأخرى يلقي مرافقي برأسه إلى الوراء، يتنهد بعمق، ثم يبدأ فجأة، بإنشاد أبياته الشعرية المفضّلة: يا لجنـون خلاص الفانين الأخرق .. آه أيها الإنسان الأحمق! عمَّ تبحث هنا، قرب فتاة تزيّنها الزهور، بينما العالم ينهار مطالباً بالنجدة؟

هل ارتـدّ عليَّ الشعر الذي زوّدني بـه في سخاء؟ فعلى الـرغم من بـذل جهود يائسة لم تتمكن السياسة من غزو روحه: يا لجنون خلاص الفانين .. ومن أجل كتابـة بيت شعري جميل رأيته يضحّي تبـاعاً بكل ما يفضله بنُـو البشر: العزّة، السفر، الـراحة، الصداقـة، الأهل، الموسيقى، الكتب .. وصولاً إلى طموحـه الأشد حرقة من أجل بلوغ صنوه: نبيّ «ما وراء الشيوعية»..

وفي حين كان نيكوس كـازنتزاكي يناضل على جبهتين في جزيـرة كريت: بعث الحياة في «عوليس»[1] مجدّداً، والاحتياط لتنكيد الشرطـة، كنت وأخواتي نصارع الموت هذه المرة، إذ خطفت منّا فجأة أعزَّ صديق، هـو شقيقنا الأصغر. وقد أجهد نيكوس نفسـه كي يعزّينا، وهو الذي تعرّف على شقيقنا في برلين.

هيركليون ٢٩ / ٩ / ٢٤ (٣)

أنا معكـم في هذه الأوقـات الصعبة يا رفيقتـي، وأحاول قدر المستطـاع مشاطـرتكم الحزن. لن أنسى شقيقكم أبـداً في ذلك المســاء، فـوق البحيرة، في برلين – كم كـان طيبـا وهادئا وصامتا؛ كان يتأمل بتأثر جمال تلك الليلة وفي حين كان أصدقاؤه يضجّون كان يبتسم مستسلماً.

والمرة الثانية التي رأيته فيها، في بيتكم، خلال شهر مايو، لن أنسى عينيه الرائعتين الواسعتين، ونبله الهادئ الصامت.

ما من جدوى للكلمات، يا رفيقتي، أمام هذا اللغز الفظيع: يأتي وجه حبيب، يعيش،

---

(١) العمل الذي سوف يتحول لاحقا إلى «ملحمة الأوديسة»

(٢) رسالة إلى ايليني ساميوس.

يتكلم ، يكبر معنـــا، وفجأة يختفي بهدوء، من دون أن يلتفت. فلِـمَ هـذا القتل اليـــومي والمتعـدد للقلب؟ من أين تـأتي؟ إلى أين تـذهب؟ ما المعنى الـذي يميّـز كلّ هذه الأشبـاح الحبيبة على وجه الأرض؟

في هذه اللحظة التي يملأ فيها قلبي خيال شقيقك تغزو رأسي كل هذه الأسئلة الأبدية وغير المجديـة، وتزيده قلقاً وحصراً. آه لـو انني أتمكن فقط من شدّ يدك، كعـزاء في هذه اللحظـة. نعرف أنـه لا وجود لجواب، غير أن هنـاك أيـادٍ تشد بعضهـا بعضاً بحـرارة ودفء. رفيقتي، رفيقتي العزيزة، ما أجمل الرحيل، لقـد أحسست بذلك عميقاً في ساعات صعبة. بلـوغ الضفة الأخـرى و إنهاء هذه المأساة المكتـوبة بشكل رديء، هـذه المأساة الباطلة. وحده الذي يحب، قادر على المقاومة.

هيركليون ٧/ ١٠/ ٢٤(١)

.. خلال بضعة أيام سأرحل إلى البيت القريب من البحر(٢). وسوف أعمل خلال فصل الشتاء، غير أن نشـوة السفر تنبثق من جديـد وتشوش أفكاري. آه! لـو أستطيع زيارة مصر الأعماق، وتمتلىء عينـاي بالنخيل، والموز والفـلاحين. عوليس في رحلتـه الثانيـة يجتاز النيل. ويصل إلى قلب أفريقيا السوداء. سأذهب معه.

اليوم، طوال النهار، كتبت نصّ مرافعتي(٣). استدعتني الشرطة بسبب مقالة ثورية كتبتها وأعطيت أربعاً وعشرين سـاعة لإعداد دفاعي. ما أصغر الحيـاة، وما أبأسها، في بلادنـا! في مكان آخر كان يمكن أن أتعـرّض لخطر – لأمل – القتل. أما هنـا فلن يتكبّدوا حتى مشقّة محاكمتي، لن يوفّروا لي فرصة اختبار شجاعتي. آه لو كنت روسيًا! لو كنت في مواجهة سيف الخطر الدائم!..

هيركليون ٥/ ١٢/ ١٩٢٤(٤)

رفيقتي العزيـزة، كم أن مزاجينا يظهران ويبرزان في رسـائلنا! أنتِ متّزنة، مهـذبة، صارمة، وأنا ذو طبيعة شرقية، اندفاعية، لا منطقية! لو كنّا معاً، لحاولت مجدّداً، بجهد وقلق، جعلك تجتـاز يـن تخوم العقل والصمت. أمـا الآن فأنت بعيـــدة جـدًا، في أثينـا

---

(١) رسالة إلى ايليني ساميوس.

(٢) بيت زميلة في الدراسة وصديقه الحميم مانوليس جيورجياديس الذي أعدمه الألمان، لاحقا، رمياً بالرصاص.

(٣) انظر الملحق في آخر الكتاب.

(٤) رسالة إلى ايليني ساميوس.

الفظيعة، هناك حيث تكون روحي مجردة من كـل قوة ولا تستطيع لمس أحد. افتقدك كل يوم، أشعر بذلك في كلّ ما تكتبين وفي الطريقة التي تكتبين بها، مزمومة الشفتين، واثقة، بلا بهجة. إلى أين تذهبين؟ لا أحد يعرف. ياإلٰهي كم أن ذاكرتي تمتزج بقلبي، كم يبدو الماضي أبديّ الحضور، كم أن كلّ شيء يبدأ من دون أن تكون له نهاية!

إني أمسك بك إلى الأبد على الرغم منك؛ لن تستطيعي الإفـلات. الكواكب الثلاثة تتلألأ أبديا فوق بحر ليبيا، وأنت معي، متمددة على الرمل، مساء وطيلة الليل.

لم يسبق لي أن أحسست بك قـريبــة مثل الآن، لم يسبق لنجـوم المجـرة أن ظهـرت ووشحتني بكل هذا الدفء، بما فيه من يأس وسكينة، مثلما تفعل الآن، لا سيما وأنا الآن سيد ذاكرتي، وقد انطفأت الحياة اليومية ولم يتبقّ منها سوى الجوهر..

١٨٨٣ – ١٩٠٢. شبابـه، مراهقته، العبـودية، المنفى والتحريـر، التعرف إلى العـالم الخارجي الغريب، الأفكـار، النساء والـرجال الـذين أثروا في فكـره أو في جسده، كل ذلك نعرفه جيداً، ومن مصدره الأول[١].

«يا إلهي، اجعل مني إلٰهاً! ياالهٰي، اجعل مني إلٰها!».

هـو ذا، رجلا في مقتبل العمـر، برأس مفـرطـة في الثقل، يستدعي الصـواعق الإلٰهية، وهو لا يكاد الوقوف في باحة البيت.

هي ذاتها الساحة التي تدوي بضحكاتـه وبكائه ولعناته: «اللعنة! اللعنة على الذي لا يحترم الصوم! أمّاه، هل رضعتُ أيام الأربعاء والجمعة أيضاً؟» ثم يشرع في البكاء عندما تردّ أمه بالإيجاب..

أول لقاء مع الموت، في المقبرة التي رافقـه إليها خاله للنزهـة: آنيكا تلك الجارة المشوقة، المعطّرة، الناعمة، وقـد تحولت إلى جمجمة شنيعة، نبشـهاً حفّار القبور

---

(١) أنظر «موازنة حياة»، منشورات بلون، باريس.

بضربة رفش .. وثـاني لقاء، لم يكن أقل رعبـا: تلك القبلة التي طبعهـا على أقدام الأبطال الذين شنقهم الأتراك على شجرة دُلب في الساحة العامة.

– لا أستطيع. يا أبي، لا أستطيع..

– تستطيع ، هذا واجبك!

وذلك الأب الأسطوري الذي كان يطالب ابنه بأمرين: ألّا يكذب، وألا يدع أحداً يغلبه. والـذي هيأ ابنه، وهـو لا يزال طفـلاً، كي يقتل أمه وأختيـه إذا ما اخترق الأتراك عتبةالبيت:

– موافق؟ علينـا أن نقتلهنّ لكي لا نتركهن يرزحن تحت العبوديـة. هل تجيد استخدام هذا السلاح؟

– نعم ، همس الطفل البريء العاجز عن قتل ذبابة.

١٩٠٢ – ١٩٠٦ مرّت الأعوام سريعة. ولم تكن هناك جامعة في جزيرة كريت. فاضطّر الطالب الشاب إلى الالتحاق بأثينـا. وفي هذه المرحلة بدأ مراسلة منتظمة مع عائلته.

وكـان يمازح أمـه وأختيـه لتعلّقـه بهن. ولا يحدّثهن إلا عـن الأشيـاء التي يفهمنها. ولا يفـوته أن يضـايقهنّ، ويمدحهـن، ويقدم لهن نصـائحه وهـداياه الصغيرة، من مساحيق وأشرطـة وصولاً إلى مشـدات الخصر .. بينما يلتزم نبرة جديـة مع والده، ويخاطبه بضمير المخاطب في صيغـة الجمع دون أي مزاح، ولا يعبر له إلا عن الاحترام والحب البنوي والاعتراف بالجميل.

وها هي ذي بعض المقتطفات من أول رسالة كتبها من أثينا:

أثينا، ٢١ / سبتمبر ١٩٠٢

والدي العزيز الموقّر

.. وأنا أكتب إليك، أستمع عبر النافذة إلى صخب هذه المدينة الكبيرة .. باعة الصحف المتنقلون يصرخون، وباعة الخضروات، والحليب، والسيارات والترام، يذهبون ويجيئون بلا انقطاع..

إنه لمن المحزن حقا، يا والدي الموقّر، أن يبتعد المرء عن أبيه وأمّه وأختيه، لكن ذلك كان ضروريا، لا سيما وأنت تأمل أن أصير ابناً لا تخجل منه أبداً..

الصّبر إذن يا أهلي الأعزّاء، إن حبي وتقديري لكم يزدادان هنا، في بلاد الغربة .. على والدتي ألا تبكي؛ أنا بخير، ولن أتأخر، على أية حال، لرؤيتها، فالأشهر تمرّ بسرعة..

أقبلكم بمحبّة فائقة

ابنكم المحبّ

نيكولاوس

أعيد قراءة هذه الرسائل فأتخيل عيني كاتبها الصغيرتين وهما تبرقان بمكر وانفعال غير مكبوتين جيداً. أربع صفحات، أولاها منسوخة باعتناء ومرسلة إلى والده والبقية إلى نساء العائلة. وبالنظر إلى اندفاعه العاطفي لم يكن قادراً على ضبط يده. وهذا ما كانت تشتكي منه أمّه وأختاه.

كان يمضي العطل في كريت، مكتسبا قوة جديدة من حضور أمه الجسدي. ومن جهة أخرى بدأ حبٌّ بريء يرتسم في حياته ليؤدي إلى الزواج فيما بعد. غير أنه ظل يحتفظ لنفسه بالمصاعب والشكوك والآمال. وليست هيركليون هي المكان المناسب لمقابلة كاتب بارز يشجع بداياته الأدبية، عندما فاجأته روحه وهي تتفتح مثل إنشادِ زيزٍ، فحاول، ببطء وألم، أن يخرج من درعه المعدني.

عمله الأدبي الأول «الثعبان والزنبقة» هو قصة طويلة صدرت باسم مستعار،

وحالم، مثل مضمونها: كارما نيرفامي. وكانت جدّ متأثرة بالكاتب الإيطالي دانوزيو. ولقد تنصّل منها كازنتزاكي فيما بعد، شأنها شأن كتاباته الأولى. لكنها كتبت بحماسة وتوقد. ولم يكد ينتهي من كتابة «الثعبان والزنبقة» حتى انكب على تأليف دراما اجتماعية. وأرسل بها إلى د. كالوجيروبولو، مدير مجلة «بينا كوتيك» في أثينا. وكان رجلاً مثقفاً وتقدمياً، فأبدى اهتماماً كبيراً بمؤلف «الثعبان والزنبقة». ولم يُخفِ الشاب الكريتي انفعالاته في الرسالة المرافقة:

.. كانت المخطوطة أمامي على الطاولة منذ عشرة أيام دون أن أتمكن من تهدئة نفسي. لم أكن أعرف إن كانت جديرة بالقراءة[1]. وما يشجّعني .. هو الصراحة التي أكتب بها .. و إذا قلت لك إنني أبكي أحيانا خلال الكتابة وأتألم وأنهك جسديًا، هل تصدقني؟

لقد شددت على ثلاث جمل ذات دلالة. ١٩٠٦ - ١٩٥٧ إحدى وخمسون سنة من الحياة الأدبية دون أي تغيّر يلحق بالرجل: ظل متواضعا، ساذجا، مرتبا دائما في إتقان عمله.

ما زلت أراه يدخل غرفتي، محمرًا من الخجل مثل تلميذ، ومقدمة «تودا - رابا» في يده:

- لينوتشكا، اقرأي، أرجوك، اخبريني إذا كانت لها قيمة! كنا نقيم منذ بضعة أسابيع «على قمة السعادة وتشيكوسلوفاكيا» كما أعلن في رسائله. كان عائداً لتوه من الاتحاد السوفياتي، حيث ظلّ وحيداً، ثم أكمل الرحلة التي بدأها برفقة بانييت استراتي وصديقته بيليلي وأنا. كان عمره آنذاك ستة وأربعين عاماً وبدأ يشعر أنه قادر على حمل كل ثقل الظلم الإنساني على كتفيه.

---

(١) «الفجر يطلع»، دراما، ١٩٠٦. نالت جائزة جامعة أثينا. مُثّلت وأثارت الكثير من المدائح، وتنبأ بعضها بمستقبل باهر للمؤلف.

هـا نحن أولاء في أرزجيبيرج، وبـالتحـديـد أكثر، في فـورسترهـاوزر، قـرب غوتسغـاب، في بيت عائلة سُـودَاتْ. بيت واسع يعود إلى السيـد الصغير كراوس الذي لم يشـاهد في حيـاته شخصاً يـونانيـاً، ولا تمراً، ولا زيتونـاً. والذي هتف مذهولاً لـدى رؤية أول نارنجة محفوظـة في السُّكر: «يا لها من زيتونـة لذيذة!» وكان يـرتدي، في عيد القـديس نيقولا، بـدلة الإطفائي، ويعتمـر القبعة، ثم يأتي ليقدّم تمنياته إلى نيكوس مخاطبا إياه بـ «هرديركتور!» (السيد المدير).

وكانت هناك أيضا هيلدا، شقراء مثل التبـن الذي كانت تثيره برفقة معزاتها. ثم والدة هيلدا التي لا تستثار إلا لرؤية الغجر:

– لصوص الزبدة! لصوص الزبدة! اقفلوا الأبواب لوجه الله!

أزمنة سعيـدة، ولادة، ثم ولادة جديدة لرجل وامـرأة . عزلة، فوق مـرتفعات أرزجيبيرج الثلجيـة حيث تعلمت أشياء كثيرة جـوهـريـة من بينها معنى كلمـة «عزلة» بالنسبة لرفيق دربي. كـان في حاجة إلى مجال واسع، وفضاء شاغر كي يجلس مثل ناسك آسيوي تحت شجرة، يقرب المزمـار من شفتيه ويبدأ بالعزف وبخلق أشباح سرعان ما تتحول إلى كائنات حية ومستقلة عن خالقها.

بعد عامين عدنا إلى عائلة كراوس. وفي الأثناء هيّأوا سريراً على مقاس نيكوس، ووضعوا مـدفأة في غرفته. وبـدأ نيكوس الصياغـة الثانية لـلأوديسة، من دون ارتداء قفـازين هذه المرة. وصرنا قـادرين على استقبال بعض الأصدقـاء: جورج نازوس[1]، بانديليس بريفيلاكي[2]، لفتيرس.

ولم يكن نيكـوس يتناول الغـداء كي لا ينقطع عن عملـه. لكنـه كـان فرحـاً ومرتـاحاً. وكنا نخرج للنـزهة في الجوار مرّة في الأسبوع. وهـو يحبّ كل مساء، قـراءة مـا يكتبـه في النهـار. وفي ذلك العـام، كـان ذلك شأنـه مع «الأوديسـة» و«القبطـان الياس». ثم عـاد مجدّداً إلى التهيّب نفسه، وإلى الـريبة نفسهـا التي تخالط صوته:

(١) ج. نازوس، صحافي شاب مات بعد بضعة أعوام.

(٢) ب. بريفيلاكي، كاتب، أستاذ تاريخ الفن، وكان آنذاك طالبا في باريس وصديقا وفيا لنيكوس كازنتزاكي.

– اقرأي ياالينوتشكا؛ اخبريني إذا كانت ذات قيمة..

وبعد مرور ثلاثين عاماً ظل محافظاً على القلق ذاته والشك ذاته. نحن الآن في آنتيب ونيكوس يكتب «تقرير إلى غريكو» بعصبية فائقة، مع التحضير لرحلتنا إلى الصين. وأكد أننا لا نخشى أي سوء من هذه الرحلة. كما أن الأطباء أكدوا لنا ذلك. غير أن صفارة الإنذار ربما كانت تدوّي في لا شعوره. فلم يكد ينتهي من كتابة المقدّمة حتّى قال لي بنبرة تأثر: «اقرأي يا صغيرتي، أرجوك، اقرأي ما كتبت، لست أدري حقا، إن كان ما كتبت ذا قيمة!».

أجمع أدواتي: البصر، السمع، الذوق، الشمّ اللمس، الروح.

حلّ المساء وانتهى يوم العمل، أعود إلى بيتي مثلما يعود الخلد إلى التراب. ليس لأنني متعب من العمل، لست متعباً، غير أن الشمس تغيب..

هذه المرة غامت عيناي أنا، واختنق صوتي: «ما الذي يدفعه إلى الحديث عن الموت هذا اليوم؟» فكرت وأنا أحاول إتمام القراءة «لماذا يتقبل الموت، لأول مرة، اليوم؟».

تظاهرت بالغضب؛ وتذمّرت. فظل محافظاً على هدوئه ووضع يده على كتفي، كعادته:

– اطمئنّي يا رفيقتي. سوف أعيش عشر سنوات أخرى! لقد سبق لنا القول إننا لا نموت إذا كان لنا هدف نريد بلوغه!

لكنه كتب إلى صديقه ب. بريفيلاكي، في المساء نفسه:

أرسل إليك افتتاح «تقرير إلى غريكو» لم تتمكن ايليني من قراءته حتّى النهاية. إذ انفجرت باكية. مع أنه من الأفضل أن تتعود على الأمر، وأتعود عليه أيضاً..

لكن، لنعد إلى العام ١٩٠٦:

أثينا ١٩٠٦

أمي العزيزة،

سامحيني على عدم الكتابة حتى الآن، لكنك لا تستطيعين تصور الأتعاب التي

ألاقيها من أجـل الدراسة .. لا أخـرج البتّة. في منتصف النهـار، وفي المساء، هنـاك شاب يأتيني بالطعـام والكتاب أمامي وأنـا أقرأ. أنام بـاكراً غير أنني أستيقظ حوالي السـاعة الثانية أو الثالثة ليلاً. أنهي الامتحانات وأستعيد طمأنينتي ..

أنا مبتهج جداً لقضاء عيد الميـلاد معكم هذا العام. في منتصف الليل سوف أذهب إلى الكنيسة وأقوم بعلامة الصليب وأشعل شمعة وأرتّل: كـرياليسون، كرياليسون! بعد ذلك أعود إلى بيتنـا، وهناك تكون المائدة جاهـزة والخنزير المحشو بـالقمح يدخّن. فهل نستطيع آنذاك احتساء قدح صغير، يا أنستازيا(١)؟ «مرحبا بك! مرحبا بك!».

أكتب إليك والساعـة منتصف النهار، أشعر بجـوع قاتل، أتساءل ما الـوجبة التي سـوف يأتيني بها النـادل. أترك ذلك لتقـديـره. ذات يوم لم يـأت لأنها كانت تمطـر .. فابتلعت خمسة فناجين شاي وثلاثة فناجين شوكولا وخمس قطع من البسكوت..

ها هو ذا قد جـاء! لقد أتاني بالأكل. شربة فاصـوليا؟ كلا! حمص وسمك مورة مقلي. انتبهي هـذا اليوم هـو الجمعـة، وأنا مصرّ، كما تعلمين على الصيـام. آه، لا ينقصني إلا هذا!

دعيني آكل الآن. سوف أكتب إليك فيما بعد.

أسمعك من بعيد تصيحين: «هنيئاً! – شكراً! شكراً!».

الحنين إلى العائلة، الكتب، القطران الذي تطلي به والـدته ثيابه حتى تمنع عنه سـائر الأمراض، «المشروع الكبير»، ذلك هـو مـا يتردد في كل رسـائله إلى أهلـه. ونادراً مـا يتحدّث عن الأتـراك المحتلّين، أو عن مخاوف اليونـان من الانجرار إلى حرب غير متكافئة.

١٩٠٦ سنة مـلأى مثل بيضةٍ بمُحَّيْن (صفـارين). تحصل كازنتـزاكي على شهادة جـامعة أثينا. وابتهجت العـائلة. أبوه، مثل غـالبية الفلاحين اليـونانيين،

(١) شقيقته البكر.

يحلم بأن يصير ابنه الوحيد محاميا، أو ربما، سياسياً مرموقا. الأم تنسج خيوط «المشروع الكبير» التي سوف تحافظ على ابنها بجانبها. والأختان توصيان على هدايا بسيطة: مساحيق، شرائط موضة .. وها هم يسهرون مطولاً حول قنديل النفط، يشربون الشاي، ويتحدثون عن عيد الميلاد الذي يقترب ويعلن عن قدوم الابن الشاطر. ماذا يمكن فعله لإسعاده؟ تبييض البيت. تنظيف «كارمن»، الكلبة الصغيرة. وضع نباتات عطرة جديدة في الباحة. هذا ما طلبه في رسائله. أما ما تبقى من همومه الأخرى، وكتاباته، وعطشه الدائم للمعرفة والفهم، والرؤية إلى أبعد حدّ ممكن، فلا أحد يدرك كثافتها عنده. يأتي الابن الوحيد، ثم يرحل، وتبقى المحبّة كاملة، وتزداد مرارة الرحيل، وتنقضي الحياة، وتنفتح هوّة بينه وبين مسقط رأسه، هوّة لا يردمها سوى الموت..

سنة ١٩٠٧ صار نيكوس كازنتزاكي بطل مغامرة عجيبة: توّجت جامعة أثينا عمله الدرامي «الفجر يطلع» مع توبيخه على أفكاره المتقدمة.

«إننا نتوّج الشاعر، غير أننا نطرد من هذا الصرح الطاهر، الشاب الذي تجرّأ على كتابة مثل تلك الأشياء»، ذلك ما قاله أستاذ الجامعة الموقر، س. لامبروس الذي ترأس ذلك التتويج المذهل. ذلك التتويج المذهل. فماذا فعل المُكلّل بالغار؟ بكلّ اعتزاز، غادر القاعة «الطاهرة» من دون أن يصفق الأبواب. وفيما بعد، صار يستمتع بالحديث الساخر عن طريقة حمله لإكليل الغار إلى سويسرا كي يعطّر طبخة «الستيفادو» المحلية[1] عندما كان يعيش في زيوريخ مع جان ستافريداكي[2].

عندما علم فلاسيس غافريليديس، الصحافي الشهير في اليونان، بنتائج الامتحانات الجامعية، كتب في صحيفته «اكروبوليس»:

«إنَّ الكاتب المسرحي، السيد ن. كازنتزاكي الذي أسندت إليه الجائزة عمليًا –

(١) نوع من اليخنة بلحم البقر توضع فيها أوراق الغار.

(٢) ج. ستافريداكي، أصيل كريت، القنصل العام لليونان في سويسرا خلال العامين ١٩١٨ و١٩١٩. وكان كازنتزاكي يحبّه كثيرا. مات في مقتبل العمر في تفليس سنة ١٩١٩، بينما كان كازنتزاكي آنذاك في مهمة خاصة، يحاول ترحيل لاجئي القوقاز اليونانيين (انظر «زوربا» و«موازنة حياة»).

مع إنكارها عليه شكليا – مكافأة لعمله: «الفجر يطلع»، وهو عمل جميل ورمزي حقًا، شخص كريتي. وبتعبير آخر، فهو ثوري .. عمله الجديد يشبه عمله السابق، الأرجواني اللون، الذي كتبه في السنة الماضية بعنوان «الثعبان والزنبقة»، ويتميز بالقوة، وبالجمع بين النسيم وريح السموم، بين الروائح الجامزة والعطور الفاتنة، وعطور بلاد العرب الأصيلة، وكما تتميز ريشته بحميّا جواد عربي، فإن عمله الجديد تخترقه روح متمرّدة، يتعذر ترويضها، في نوع من الصراع ضد الطبيعة والمرأة، ضد الحب والذات.

«وأهم شيء بالنسبة إلينا، هو أن الأدب اليوناني، مع مؤلف (الفجر يطلع) و(الثعبان والزنبقة)، يغتني، رغم فقره الحالي، بكاتب جديد من شأنه بلوغ المرتبة الأولى. وعندما نتأمل عمليه المذكورين باهتمام، نميّز مصدراً أدبياً مجهولاً. إنه يدخل عالم الآداب بإلهام ثقافي، وجمالي، ولغوي، جديد. وهو حقاً الكاتب الجديد، كاتب الشعلة، كاتب الحياة..»

ثم نادى الكريتيَّ الشّاب وعهد إليه بتحرير جريدته. ولم يكد كازنتزاكي يوافق مغترًا لفترة قصيرة، حتى استعاد حريته للذهاب إلى باريس من أجل استكمال دراسته.

وفي رسالة مؤرخة في الأول من اكتوبر ١٩٠٧ تحدّث عن انطباعاته الأولى حول باريس. وأخبر والده بالاضطراب الذي شعر به عندما وجد نفسه وحيداً في صخب مدينة كبيرة – «سيارات، صراخ، جموع، مساكن عالية، آلاف الأشياء التي تضايقك...» في حين تحدّث لوالدته وأختيه عن مفاجأة سارة تتمثل في كون النساء كلهن يعملن «ليلاً ونهاراً، لكسب العيش وليس كما عندنا، حيث تمكثن جالسات طوال النهار تطرزن، وما أن تسمعن صوت سيارة حتى تهرعن إلى الباب كي تعلّقن لاحقا عما رأيتن..»

١٩٠٨. يوم ٢٥ يناير ١٩٠٨ أجاب كازنتزاكي عن سؤال وجّهته إليه أخته، بنبرة مازحة، قائلاً إنه يتابع دروساً فلسفية في جامعتين[1]: وأضاف: «أنا راض

(١) كوليج دي فرانس والسوربون.

لأنني بدأت أتعلّم الـ A. B. C » (اللغة الفرنسية).

غير أن الدراسة والبعد عن الوطن لم يعرقلا اندفاعه الأدبي. وسرعان ما كتب مسرحيتين جديدتين وقدمهما للمشاركة في مسابقة تنظّمها جامعة أثينا. ووضع كل آماله في عمله الجديد «فاسغا» لكنه أصيب بخيبة مرة عندما علم أن عمله لم يقبل حتى لدخول المسابقة. ولقد أرسل عدة مقالات من باريس إلى صحيفة تصدر في أثينا لكنها غير بارزة كثيراً .. وكتب إلى ذويه:

باريس (بلا تاريخ)

أمي الحبيبة، أنستازيا وهيلينا

الفرنسيات لسن بشعات مثل اللائي عندنا في كاسترو [1]. إنهن جميلات جداً – ويعتنين كثيراً بتصفيف شعورهن، ولهنّ بشرة في منتهى البياض والنّعومة. عندما أتذكر نساءنا .. أنفجر ضاحكاً..».

باريس، يونيو ١٩٠٨

أمي العزيزة،

أنا حزين لعدم قبول «فاسغا» .. لكنني سعيد لرؤيتكم بعد بضعة أيام .. سوف نستيقظ باكراً جدًّا مع هيلينا أو مع أنستازيا .. للذهاب إلى كنوسوس أو إلى كُرومِنَا .. ثم أعود للكتابة. وأنزل مرّة أخرى «ما الأخبار إذن؟» ونمزح ونمزح ونأكل العنب..

وذات يوم تصعد أمي .. وتجلس على الصندوق، ويكون طرفا جوربيْها جديدين، وأغمق من البقية. وتقول لي، ماسكة خدّها بيدها: «هيا يا بني، ما رأيك في مشروعنا ؟» فأقول لها كذا وكذا، ملتزماً بجديّة تناسب عمري (يا ماريغو[2]، مهما فعلتِ فإن عمري ٢٦ عاماً).. وبعد ذلك أرافق والدي إلى الكروم، ذات ظهيرة، وأحدّثه مدة ساعتين ونصف الساعة. ونبدأ بالإجراءات .. وفي يوم آخر، أحدّث هيلينا عن مشروع آخر نعرفه .. ها ها ها! يالها من مزحة!..

ما أطرف هذا العالم! في هذه اللحظة يهتزّ الشارع تحت نافذتي: سيّارات، قطارات

---

(١) هيركليون تسمّى أيضا «كاسترو» بسبب أسوارها.

(٢) أمّه.

(كذا!)، النهر، نساء بفساتين مقوّرة، أصوات، كنائس عالية مبانٍ ذات سبعة طوابق، مسارح، موسيقى – حياة مضطربة. وخلال بضعة أيام: الهدوء، أشجار الموز، أمي، كامارس[1] صور أبطال استقلالنا[2] تعجبني الحياة هكذا. الانتقال من الضد إلى ضدّه.. أنا مسرور..

باريس (بلا تاريخ)[3]

.. في غرفتي – شكراً يا أنستازيا لأنك لم تقطبي حاجبيك – تشتعل النار طوال النهار. وإنه لجميل الجلوس في جو دافئ، واحتساء الشاي والقراءة بينما الثلج يتهاطل في الخارج، وبين الفينة والأخرى ترفع ستائر النوافذ لترى العالم في منتهى البياض.

الأمر الوحيد السيىء هو أن غرفتي تروق للأصدقاء وكثيراً ما يدقون الجرس حتى أفتح لهم. أتظاهر بأنني لم أسمع، وأكفّ حتّى عن التنفّس، آملاً أن يحسبوني غائبا. لكنهم لا ينخدعون ويصرخون «كلا، لن نتحرّك من هنا حتى تفتح لنا!».

.. أقوم، افتح، أوبّخهم، ثم أدعهم يدخلون .. يشعلون المدفأة، يبحثون عن الشاي والسكر والبسكوت ويجهزون الشاي. ويسألونني: هل تريد شاياً أنت أيضا؟ – تسألون؟ في الفنجان الكبير طبعاً!..

يأتون بالكونياك أو الشمبانيا فنحتسي معاً، وهكذا نضيع الكثير من الليالي. غير أنّ صاحبة البيت تفرح لذلك، لأنهم، كما تقول لي، يجبرونني على الاستراحة قليلا من عناء الدرس. لو رأيتها، أمّاه، لقبّلتِها، وطليتِ ثيابها بالقطران، حتى يمنّ الله عليها بالقوة..

باريس، ١٩٠٨[4]

.. كم أن العالم جميل هناك، في الرّيف. لا شك أن السنابل الآن قد ارتفعت بمستوى البحر، مع شقائق النعمان والأشجار المزهرة والـزّيزان. ولا سيما الفواكه. رأيت، في يوم سابق، كرزاً ملفوفاً في ورق حريري، مرتباً في صناديق صغيرة مثل أقراص الدواء! فتذكرت الصحون الكبيرة المملوءة بالكرز، وفرحتي عندما تحمرّ شفتاي بعصيره. في

---

(١) الساحة الرئيسية في هيركليون.

(٢) تُزيّن جدران منازلنا، دائما، بصور أبطال الاستقلال.

(٣) و(٤) رسائل إلى أهله.

احدى المرات حسبت عدد النّوى فكانت مائة وخمسين نواة..

باريس، (بلا تاريخ)[1]

أمي الحبيبة، انستازيا وهيلينا،

.. لا شيء يعادل فرحتي باستلام رسائلكن. في الحقيقة كثيراً ما أقول لنفسي أنه لا يوجد شخص في العالم يحبّ أمّه وأختيه مثلي. قبل أيام، عندما استلمت رسالتكن، ذهبت إلى الجامعة. فاقترب مني صديق وقال لي: «ما بك؟ ماذا حصل لك؟ – وصلتني أخبار من أهلي! صرخت به. من أمي وأختيَّ، هذا ما حصل لي!..

باريس (بلا تاريخ) [2]

حدّثنني كيف تسير الأمور السياسية هناك، وكم مرّة يختبيء يانغو[3] وراء الباب مع بندقيته، عندما يشعر بالخطر. أنا أتابع حياتي المعتادة أقرأ كثيراً، وأشعر بقلق عصبي عندما أفكّر بأنني لن أعود أبداً، لذلك أريد قراءة كتب باريس كلها، قبل رحيلي».

١٩٠٩، بموازاة دروسه الفلسفية وقراءاته، جهّز كازنتزاكي روايتين: «الحياة الامبراطورة» والثيونتروب: Théantropes لتشكلا ثلاثية روائية بعد إضافة «الأرواح المهشمة». غير أن الربيع جاء، وسرعان ما كسب شيطان السفر الجولة.

باريس (١٩٠٩)

أمي الحبيبة، انستازيا وهيلينا،

.. أكملت دراستي .. وعوض البقاء شهرين آخرين في باريس، أفكر في قضائهما في روما .. آه، لو كنت، في هذه اللحظة، أملك بعض المال، لرتّبت كتبي وثيابي وحزمت حقائبي، وناديت السائس، وصعدت إلى القطار، لأستيقظ صباح الغد في ايطاليا! ها هي ذي الحياة التي تروق لي .. وليس مجرّد الذهاب إلى طاحونة كاستريناكي مع

---

(١) رسالة إلى أهله.

(٢) رسالة إلى أهله

(٣) شخص تربطه علاقة بالعائلة.

الاضطرار إلى لف ساقيّ بلفافات واقية واعتمار قبعة واسعة الأطراف ووضع خمار على كتفيّ، وانتعال جزمتين طويلتين، وأخذ مطرة ماء، ورسم شارة الصليب قبل أن أقصد الطريق!..

رسائل مزوّقة لأنها موجهة حتماً إلى القبطان ميخاليس، مع أنّه في الحقيقة ليس على هذه الدرجة من الشراسة، إذ يكفيه أن يقلب الصفحة الأولى المزوّقة جيداً، ليقرأ على ظهرها جزءاً آخر من الرسالة، كلّه مزاح ومناكفة، كما يكتبه ابنه لكلّ من أمه وأختيه.

باريس، ٢٥ يناير ١٩٠٩

والدي الحبيب،

أنا بخير وأتمنى أن تكون «حضرتكم» والعائلة، كذلك .. فرحتي الوحيدة هي أن أتأكد بأنكم على ما يرام. أتساءل عما كان سيحلّ بي لولاكم. كلّ ما أعرفه من أشياء جيدة يعود فيه الفضل إلى حضرتكم.

مع الاحترام والمحبة

ابنكم ن

ونقرأ على ظهر الرسالة نفسها:

أمي الحبيبة، أنستازيا وهيلينا،

.. أحيانا، في الليل، عندما أكون مندمجاً في القراءة تحت المصباح المزوّد بعاكس نور أخضر، بينما الثلج يهطل في الخارج، والنار موقدة في الغرفة، تأتي ماتيلدا، أو أختها سوزان[1] حاملة قطعة التطريز، وتسألني: هل تسمح لي بمجالستك؟ سوف أطرز جزءاً آخر غير أن النعاس يغالبني ومن شان صحبتك أن توقظني، هل تسمح؟» أرفع رأسي وأجيب: «بطيبة خاطر، ويا ليتك في الأثناء توقدين المدفأة وتعدّين قليلا من الشاي. لأنني، شخصيا أنزعج من ذلك.

– آه ، بكلّ سرور!

(١) ابنتا وكيلة الفندق العائلي (بونسيون)

وأثناء غليان الماء، تنهمك ماتيلدا، أو سوزان، في التطريز، منحنية الرأس، فاقول في نفسي: «أنا مستعد لأن أقدّم نصف حياتي كي تكون أنستازيا، أو هيلينا، جالسة في هذا المكان، وأمامها، على الأريكة، تجلس أمي، وتدرز بعض الجوارب..

أنا في منتهى القلق لأنّ المال تأخرّ. والأسوأ من كلّ ذلك أن كتبي في الحقائب، وغرفتي تشبه سفينة موشكة على الإقلاع، أو تشبه بيتنا وقت الغسيل..

وكتب من فلورنسا ، أي قبل خمسة عشر يوماً من بلوغ روما:

(بلا تاريخ)

أمي الحبيبة، أنستازيا وهيلينا،

.. ها هو ذا الحساب قد بدأ، مساء الخير!

في اليوم الأول كنت أطوف هنا وهناك بحثا عن مسكن .. وإذا بسيد يقترب مني: «Signore, cercate un casa? ومعنى ذلك: سيدي هل تبحث عن بيت؟ – نعم، سيدي، قلت له، Sapete una? يعني: هل لك علم بوجود واحد؟ ثم رافقني إلى أحد البيوت. ولاحت ثلاث أخوات، الواحدة أبشع من الأخرى، عمر الثانية خمس وأربعون سنة، والبكر ستون (ولقد ذكّرتني بالأخوات فوكادو بوليس)(١). عرضن عليّ غرفة صغيرة مزينة بستائر طويلة من الدنتيلا، وثلاث مرايا، وأيقونات في كلّ مكان، وروائح بخور، وأغصان أشجار – مصلّى حقيقي .. والآن أنا مرتاح .. في المساء آكل المعكرونة وأتكلم الإيطالية. في العاشرة نذهب إلى النوم. بونا نوتي، بونا نوتي، سينيورينو! هذه هي حياتي هنا.

«.. هنا، الناس لا يتكلمون، بل يغنّون .. مجاملون، فرحون دائماً، صاخبون. كل يوم أزور ثلاث أو أربع كنائس. وهي موجودة في كلّ خطوة. أزورها لأتمتع برؤية رسوم الفنانين الكبار».

---

(١) جارات في هيركليون تذكرهن نيكوس كازنتزاكي ووصفهنّ في «الحرية أو الموت».

فلورنسا مدينة ملأى بالسيّاح، وفي كل مكان نسمع إنجليزيات، في أيديهن دليل السائح، وهن يهتفن: Yes! all right, yes! . قرب البيت الذي نزلت فيه توجد كنائس سان ماركو، سان لورنزو، ثم سانتا ماريا نوفيلا وسانتا ماريا أنونشياتا! هل لاحظتنّ؟ هل لاحظتن كم هي جميلة لغتهم؟ يكفي النطق بهذه الأسماء للشعور بالإبتهاج..

(فلورنسا، ١٩٠٩)(١)

أنا سعيد جدًّا .. وكثيراً ما أقول: لولا القطران لما توصلت إلى تحقيق أي شيء! ما همّني إذا كانت ثيابي الداخلية سوداء ورائحتي مثل رائحة رصيف أو ميناء تملأه براميل القطران وحبال المراكب؟ اليوم وأنا أتنزه شاهدت أشجار لوز مزهرة. لا تستطعن تخيّل مدى تأثري وانفعالي. أعتمر قبعة خضراء، مع ربطة عنق خضراء أيضاً. أنا مثل مرج يغطيه العشب. لا أعرف أحداً ولا أحد يعرفني وأفعل ما أشاء. ألتهم برتقالات في الشارع، أتوقف نصف ساعة وأتفرج على أحد الرسوم..

ولا شك أن القبطان ميخاليس قد أصابه القلق من تنقّلات ابنه. لذلك يكتب له، هذا الأخير، بأسلوب مباشر وبعيد عن الزخرف:

روما، ٢٤ مارس ١٩٠٩

والدي العزيز جدًّا

.. لم أغادر فلورنسا طلباً للمتعة، بل يتوجب عليّ الاطلاع والدراسة في روما. كلّ هذا يفيدني. إنني أتعذب بسبب دروسي، وأتعذّب ضعف ذلك عندما أفكر في التعب الذي تحصل به على الأموال التي ترسلها إليّ. وأنت تعرف أنني لست من أولئك الشباب الذين يجهلون واجباتهم.

إني أقتصد حتى في قوتي .. سامحني يا والدي على طول هذه الرسالة .. غير أنني لا أجد طريقة أخرى لأبرهن لك على منتهى الإدراك والوعي بما تبذله من أجلي وما لا

---

(١) رسالة إلى ذويه .

يستطيع أي أب أن يبذل مثله. أتعذب كثيراً في الخارج.

وفي روما لا أتنزّه لقتل الوقت، بل أكدُّ كثيراً، لأنني أريد أن أشرّف اسمنا ذات يوم.

سنة ١٩٠٩ نُشرت له أطروحته: «نيتشه في فلسفة القانون» ومسرحية تراجيدية في فصل واحد، تدور أحداثها حول أسطورة شعبية، وعنوانها «رئيس العمال»، ومسرحية أخرى في فصل واحد بعنوان «كوميديا». ولو لم ينشر الكتاب الأخير سنة ١٩٠٩ لأثار الكثيرون مشكلة حول الانتحال أو السرقة الأدبية، لشدّة ما يذكر هذا العمل بعمل آخر لسارتر، هو «الأبواب المغلقة». غير أن الاثني عشر ميتاً، المحصورين في غرفة موصدة بلا منافذ، ينتظرون، عند كازنتزاكي، مجيء المنقذ، الذي لا يأتي طبعاً..

وفي مجلة «باناتيني» نشر كازنتزاكي، في هذه الفترة أيضاً، بحثاً فلسفياً بعنوان «العلم يعلن إفلاسه».

١٩١٠ – ١٩١٣، ما قيمة الأفكار إذا لم يتم تطبيقها؟ نيكوس يحبّ غالاتي، وغالاتي تحب، أو تعتقد أنها تحب نيكوس. نكيف تتم البرهنة على ذلك للآخرين؟ كيف يمكن الدفاع عن أفكار تحلّق أعلى من المياه الراكدة في مدينته الصغيرة؟

سنة ١٩١٠ قررا العيش في عش الزوجية، على الرغم من اعتراض ذويهما، ومن دون المرور بالكنيسة. وهكذا شدَّ القبطان ميخاليس على أسنانه وعلى .. حافظة نقوده. ولا شكَّ أن هذا الرجل الصَّمُوت قد أفلت بعض الكلمات المتهوّرة. إذ أن الابن، صاحب السمع الرهيف والحساسية الفائقة، أصيب بالانقباض، لكنه ظل يحترم والده، الرائع على أية حال، مع تفويت أي فرصة عليه كي يساعده مرة أخرى.

ومع إله الحب انطلق العاشق الشاب يبحث عن مسكن مثالي. وهو في هذا

المجال، يشبه كشّافي الينابيع. فخلال تطـوافه الطويل، من دون مال دائماً، وجد بيوتاً واسعة، مشمسة، مطوقة بالحدائق، في أحياء رائعة.

ومن أجل كسب القوت انكـبّ على العمل. ونظراً لعناده واضطـرابه وصبره في آن واحد، فقد وظف قـدرته على العمل الأسطوري، والتزم بـالجلوس على مقعده طوال أربعة أعوام، كي يترجم إلى اليونانية، وفي أسرع وقت ممكن، أكبر عدد ممكن من المؤلفات الأجنبيـة، من بين تلك التي يعتبرها جديـرة به وبمواطنيـه. وها هي ذي بعض العناوين:

وليم جيمس : نظرية الانفعال.

ف. نيتشه : أصل التراجيديا.

ف. نيتشه : هكذا تكلم زرادشت.

ج.ب ايكرمان : محاورات مع غوته.

س. أ. ليسان : التربية المستندة إلى العلم.

م. مترلينك : كنز البسطاء .

داروين : أصل الأنواع.

ل. بوخنر : القوة والمادة.

برغسون : الضحك.

أفلاطون: ١– في طبيعة الإنسان.

٢– في الصلاة.

أيون. مينوس. ديمودوكوس. سيزيفوس. كليتوفون.

سنـة واحدة من التحـدّي الذي رفعتـه المرأة في وجه المجتمع، كـانت كافيـة. وهكذا طلبت الزواج سنة ١٩١١ وحصلت على الموافقة، وتمّ الاحتفال في الكنيسة التابعة لمقبرة هيركليون. وبدل خـاتمي الزواج، وضـع كل منهما في أصبعه خاتماً من حديد صدىء، مصدره بعض القبور.

ومن خلال العـلاقات المكتوبة والشفـوية مع المقربين منهما، نـدرك أن حياة الزوجين الشـابين لم تكن قاتمة على الـدوام. فإلى جـانب الأوقات العصيبـة كان هناك وفاق وعُطل سعيدة في كريت، حيـث تجلجلُ ضحكات نيكوس كازنتزاكي، تلك الضحكـات التي كان يستخـدمهـا درعاً في مـواجهـة الشرّ القادم. وكـان في الإمكـان تلافي كلَّ شيء لـولا اختلاف طبـاعـه عن طباع زوجتـه. لو .. لكنـه من الصعب تشريح الروح البشرية. وعندمـا يئس كازنتزاكي من إيجاد الانسجام في بيته صـار يبحث عن فرص الرحيل، من أجل المحـافظة على حبّه لزوجتـه أطول وقت ممكن.

شهدت اليـونان، والعـالم بأسره، آنذاك، أيامـاً صعبة: الحرب ضـد الأتراك (١٩١٢ - ١٩١٣) ثم ضد البلغار الذين كانـوا يطمعون في ضمّ تيسالونيكي، وبعد ذلك اشتعلت الحرب الكونيـة والحقد الأخوي الذي قسم اليونـان إلى معسكرين متقاتلين، مع الملكية أو ضدها. وهي لعنة ظلت تحط بثقلها على البلاد المنقسمة.

تطوّع كـازنتزاكي فتمّ تعيينه في حكـومة رئيس الوزراء وسـوف يرافق ملك اليونان بمناسبة جولة في ربوع الامبراطورية.

ولقد روى لي فيما بعد:

– لم تعلمين كيف استقبلنا أولئك اليونانيون المفعمون بالفرح. كانوا يرتمون على ولي العهد، ويقبلـون يديـه. ولأنّ أجمل سجاداتهم المفـروشة على الأرض لم تكن كافية فقد فرشوا أجسادهم على الأرض كي تدوسهم قدم الأمير المحرّر.

– كيف كان ردّ فعل ملك اليونان لاحقا؟

– ما سعر هذه السجادة؟ سأل بصوته الرتيب، ما سعر هذه السجادة؟ وكرر ذلك مثل أسطوانة تالفة .. «ما سعر .. ما..»

ليس بين أيدينا سـوى بطاقة بريديـة واحدة تعود إلى تلك الفترة. وهي تحمل ختم بـريـد أثينـا، مع تاريـخ: ١/ ١٠/ ١٩١٢. وهي مرسلـة إلى خـاريـلاوس ستيفانيدس، صديق حميم لنيكوس، وكان يزعجه لحساسيته العالية.

عزيزي

الحرب قادمة من دون أي شك. وإذا استبقنا إنجلترا فإن اليونان سوف تحتل كريت – ربما الأربعاء القادم. هنا تخيم العزلة، السكينة، الغبار. سوف نفعل المستحيل كي نصل إلى الحدود..

وجاءت سنة ١٩١٤ بأفراحها وأحزانها: النصر المرتقب – أخيراً تحصل اليونان على سهول واسعة ولن تقتصم على صخورها القديمة: الازدهار، ولا سيما هبة الآلهة: صديق الروح، الشاعر انجيلوس سيكليانوس.

سنة ١٩١٤ أعلنت وزارة التربية القومية عن مسابقة تخص الكتب المدرسية. وكلّ كتاب تتم إجازته يظلّ مستعملاً في المدارس طيلة أربع سنوات متعاقبة، في اليونان وخارجها. ومن ثمَّ يحصل المؤلفون على شهرة واسعة وايرادات مالية عالية.

شارك كازنتزاكي في المسابقة وتم قبول كتبه الخمسة. وربّما ساعدته زوجته في تحرير تلك الكتب؛ ذلك أنه كان يخشى الغيرة التي بات يثيرها اسمه، وطلب منها أن توقع تلك الكتب باسمها فقط. وفيما بعد باعت حقوق الطبع، من دون معرفته.

وما زال اليونانيون، حتى اليوم، يعتقدون، بحسن نية، أن تلك الكتب المدرسية من تأليف غالاتي. إلا أن بعض الرسائل التي وجّهها كازنتزاكي إلى صديقه ستيفانيدس، وقد تمّ العثور عليها حديثا، تبيّن الحقيقة[1].

ميثانا، ٢١ يونيو ١٩١٤

عزيزي خاريلاوس،

.. أعالج نفسي حالياً بالاستحمام في مغاطس كبريت، لأنني متعب قليلا، أو بالأحرى

---

(١) شخصان من جزيرة كريت هما السيدان جورجاكي وباباداكي أنقذا رسائل كازنتزاكي خلال بيع منزل ستيفانيدس بالمزاد العلني، في كريت.

لأنني أستطيع توفير قرابة مائتي دراخما. أتصوّر سأمك القاتل في كاسترو .. لا أعرف إلا دواء واحداً: تأليف الكتب المدرسية .. لقد قلت لك ذلك منذ عدة أعوام، أما الآن فإن فكرتي قد تبدو لك أقل طوباوية بالنظر إلى أن ٦٠٠٠٠ دراخما قد د[illegible] جيبي .

وهناك المزيد! تصوّر أن البطرياركية قد أعلنت في العام الماضي، في القسطنطينية عن مسابقة لتأليف كتب قراءة خاصة بالصفوف الأربعة في المدارس الابتدائية .. أرسلت كتابين .. وأجيزا .. ومنذ أيام قليلة تلقيت برقية من البطرياركية، تطلب فيها منّي كتابين آخرين، لأنّ الكتب الأخرى لم تعجبهم. آمل أن أنجزهما، وربما أرسلهما أيضاً، خلال عشرة أيام .. هي ذي أعمالي وصفقاتي وتبجّحاتي..

أنا، هنا، وحدي تماماً. ألهو مع البحر فيغمرني. أعتقد أنني لا أرغب في غير ذلك. إنه يملأ قلبي مثلما يفعل الحبّ. لو أنك جربت مثل هذه الفرحة في هيركليون لاغتبطت طيلة العمر. ينقصك تركيز الذهن، والتعلّق بأي شيء من أجل هدف ما- البحر، المرأة، الصيدلية[1] ذاتك، الخ. أنا دائما، أهيم بشيء ما، ولذلك أقرّ بالعرفان والمحبّة للوجود. هذا التصور ضروري لي، ومفيد، لذلك أقوّيه وأرعاه باهتمام ومثابرة. ونظراً لوجودي، هنا، وحيداً، كاد يتملكني السأم والتعب. لكنني ألقيت بنفسي في البحر. وشيئاً فشيئاً أدركت أنه يملك كل شيء ويستطيع أن يعطي كل شيء؛ وجدت فيه ألفَ بَهَاءٍ وبهاء، زيّنتُه برموز وأفكار، ألبسته حمّيا خيالي، والآن ، بعد تحضيرات واعية، بدا لي مثل عشيقة فاتنة، غنية بالمعرفة، تضمّخ قلبي وروحي وتثير أعمق جذور فكري.

إنَّ قيمة الأشياء هي تلك التي نكون أهلاً لإكسابها إياها. كلّ شيء يشبه ورقة بيضاء ونحن نكتب عليها جملة تافهة، أو مفعمة بالحماسة .. من جانبي أحاول تسجيل الكلمات التالية: «كلما أضفت مزيداً من القيمة على الحياة، ازدادت قيمتي» وأعمل على استخدام حماستي، دائما، كأداة للاقتراب من الكمال..

٥ أكتوبر ١٩١٤[2]

عزيزي ،

يتوجب علينا، أنا، أنت، ومانوليس[3]، وأندروكليس[4]، أنْ نشترك في مشروع

---

(١) كان ستيفانيدس يحلم بفتح صيدلية، وتم له ذلك فيما بعد.

(٢) رسالة إلى خ. ستيفانيدس.

(٣) مانوليس جيورجيا ديس.

(٤) أندروكليس كسيناكي، زميل دراسة أشرف فيما بعد على مناجم كازنتزاكي.

مشترك، من دون أخطاء. لا أستطيع أن أكون سعيداً من دونكم. ولكن، لا تقلق، سوف أجد شيئاً ما، يكفي أن تساعدوني..

إنَّ محاولة سجن بعض الكائنات ضمن قوالب عادية يعادل ارتكاب جريمة. إنهم يتخيلون أنفسهم مركز العالم. لكنهم لا يعرضونها لسخرية الآخرين. ومن حقهم أن يكونوا مُلهمين إذ بفضلهم – والآخرون يصفونهم بجنون العظمة – لا يتعفّن العالم في قيح المدّعين لـ «الحكمة»، وفي بصاقهم.

أنجليوس سيكليانوس كان من ذلك الصّنف. وعندما تم اللقاء بينه وبين كازنتزاكي، في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٤، حدثت صعقة الحبّ. وفي هذا المجال يقول كازنتزاكي «وفي الغد، انتعلنا أحذيتنا الحديدية[١] وقصدنا جبل آثوس».

ولمدة أربعين يوماً جاب الشاعران الجبل المقدّس بحماسة ملؤها القلق والغبطة. أن يكون الإله موجوداً في كلّ الأشكال – ديونيزوس، المسيح، هرقل – فهذا أمر لا يشكان فيه قطعاً، غير أن الرعب الأكبر، والشك الوحيد المسموح به هو الرغبة في معرفة مدى قدرتهما على إيجاد الكلمات القادرة على أن تتسع له؛ ومدى استطاعتهما تمجيده برفع كاتدرائية جديرة به وبإيمانهما.

وبعكس غوته الذي كان ينفي وجود غاية في هذه الحياة وعلينا أن نكفّ حتى عن طرح الأسئلة، ذهب كازنتزاكي إلى أن الحميّا الإنسانية ليست فردية البتة، بل هي إرادة الكون التي تتجلى لأول مرة داخل الإنسان. ومن هنا تأتي المسؤولية، والبطولة، والكفاح .. وفيما بعد يضيف: ما من أمل. الحرية المطلقة؛ وبالتالي الفرح!

مقتطفات من يوميات نيكوس كازنتزاكي خلال عامي ١٩١٤ و١٩١٥.

الجبل المقدس. نوفمبر – ديسمبر ١٩١٤

١٤ نوفمبر. الساعة السابعة والنصف. رحلنا من أثينا..

١٩ نوفمبر. مشهد جميل لجبل آثوس. صعودنا نحو كارياس كان في منتهى الروعة حقاً .. الإغواءات الثلاثة لدى الرهبان هي: المراهقون، البخل، وحبّ السلطة. تذكّر

---

(١) تعبير متواتر في أغانينا الشعبية.

الطريقة السرية التي اشتكى بها حاجب دير أثينا من تلك الفضائح.

بلغنا دير ايفيرون. عظيم. ويا لها من لحظة إلٰهية عندما شاهدنا البحر «إخييسًا (المدوّي) والقمر. في تلك اللحظة كان القمر ينجز ما قُدِّرَ له – بإضاءة الأشياء الأبدية.

٢٠ نوفمبر (دير ايفيرون). التقينا مساء البارحة رئيس أساقفة ليونتوبوليس؛ إنّه مثقف جدًّا. لكنه يكتب رواية أيضاً. الحضارة تفسد كلّ شيء: صور الملوك، المشاهد الأجنبية، الكهرباء، الخ، الخ..

Ogni mattina io rinasco (كل صباح أولد من جديد)

.. الحياة: مشروع ما ورائي.

.. الحياة الرهبانية، كما هي، جاهلة ولا أخلاقية، أسمى من الحياة الدنيوية.

ويمكن للتقاليد، حتى وإن اختزلت في حركات خارجية، أن تساعد ا لفنان على ابتكار عمل فنّي كبير ذي تأثير اجتماعي لا يحدّ.

أنْ تكون للمرء فكرة سامية، معناه أنه يتقدم دائما نحو الشباب.

ليلة ٢٠ نوفمبر ١٩١٤

تحت ضوء القمر، نزلنا السلم، وفي يد كلّ منا سبحة، قاصدين السهر.

لحظة أبدية – كما لو رفعتنا أجنحة الملائكة.

٢١ نوفمبر. صلاة السَّحَر. نرتّل صلوات العذراء..

«السماء والأرض لم تستطيعا احتواءَك.

وبطن امرأةٍ اتسع لك».

كثيراً ما نؤنسن الإلٰه بدلاً من تأليه الإنسان.

بيوت الرهبان: شقق من ثلاث إلى أربع غرف. كهرباء، جرس تحت المصباح الكهربائي، ستائر، أطقم شاي، مدافئ، خدم صامتون..

٢٢ نوفمبر. محاورات مع الرهبان .. ضعف إيمان. خوف من الفقر. حب للعالم. روح علمية كاذبة. يا للسذاجة!..

هنا يحطم رعب الجحيم الناس. ولا يقدّم لهم الدّين أيّ عزاء. قلت لأحدهم إنَّ المسيح كان يضحك أيضاً، فغضب.

الجمعة ٥ ديسمبر .. الإضافة إلى جوهر الحياة، التعبير عن ذروة طموحنا. متعلّقين بإرادة فوق بشرية، نندفع إلى الأمام.

ما من مشكلة أخلاقية تعوقنا؛ وما ظلّ مؤلماً ومتعذر الحلّ بالنسبة إلى نيتشه وجدنا له حلاًّ..

٦ ديسمبر. (دير) يوسافيون. عليَّ أن أركز ذهني، وأعبّر، بصور دنيوية ودينية، عن قلبي المتحرّك مثل البحر. أبتكر عملاً أصيلاً من حيث الإلهام والشكل، يحتوي كلّ ما في تنفّسي من حبٍ وحرارة. أبتكر شيئاً ما يجعل سرّ الحياة يتفتّح مثل الشمس، مثل الزنبقة.

٧ ديسمبر . (دير) القديس بولس. الحب هو طريق الخلق الوحيد. ولا ينبغي أن تخالطه التشنجات والصرخات بل يكون عميقاً، واسعاً، هادئاً ومتوازناً. (أفلاطون، دانتي، بيتهوفن، رودان).

٨ديسمبر... هذا المساء هزّني تولستوي بعمق. هروبه المأسوي – اعتراف بالهزيمة. كان يرغب في ابتكار ديانة فلم يبتكر سوى فنّ وروايات. إنّ أفضل ما فيه – وكان يدرك ذلك – لم يتم التّعبير عنه.

الأحد ١٤ ديسمبر. [دير] دوخياريو... روى لنا راهب، كان دركيّاً في السابق، كيف تحوّل إلى رجل دين: قرأ السيرة الذهبية لأحد قديسي القرى، عندما جاء ليعتقل أحدهم. وهكذا بدت له الكلمات أحلى من العسل.

دير خيليانداريو . [قال لنا] باناريتوس: «لم أصر راهباً بسبب الميل بل بسبب الفقر... – وهل أنت راضٍ؟ – بفضل الإله وحتى اذا رأيتني أتنهّد فأنا لا أفعل ذلك تعلّقا بالأرض خسر... عليها كلّ يوم، لكنني أتنهّد تعلّقاً بالسماء...

١٤ ديسمبر . ثمة أناس يقتلون أرواحهم ويموتون فعلاً.

السبت ٢٠ ديسمبر . هذا الصباح قرأنا النشيد الثالث لدانتي. لن أنسى تأثّري أبداً....»

ويختـــــم :

فكرة: إعادة تنظيم الزهد الهليني، اليوناني. كيف يمكن جعل جبل آثوس بؤرة حياة روحية.

٢٣ نوفمبر . في الليل، نتحدّث ونحن في الفراش، عن الخلق. وفي لحظة سريعة. في ثانية واحدة، لا نكاد نبلغ ذروة انفعال حتى يتولد قلق مجبول من فرح وسرّ خفيّ وفضول: إلى أين ستتّجه قوة الخلق *الحرّة*، مستقلّة عنّا؟ وما أن نبلغ قمة انفعال، بفضل موضوع معيّن (ديونيزوس) حتى ينبثق فجأة، موضوع آخر، كامل الوضوح، شفافاً، جاهزاً لأن يتحوّل إلى عمل فنّي. حينئذ نتخلّى عن الموضوع الأول ونتعلّق بهذا العمل..

فليسقط الأدب، والقوالب الضيّقة للأجناس الأدبية. ثمة خلاص واحد: معتقد ديني. هو وحده يستطيع احتواء روحي كلها؛ هكذا فقط يليق به الإنكشاف.

٢٤ نوفمبر (دير) ستافرونيكيتا:

(خلق) عمل كامل. مثل ذكر النحل الذي يخصب الملكة ويموت. كذلك أنا، «الحياة الامبراطورة».

ما من نُشارة جانبية. كلّ قوتي مركّزة في ديونيزوس والمسيح وثيا(١).

٢٦ نوفمبر. ليس الخبز ضروريا ضرورة الفكرة.

نحن الآن أكثر ارتياحاً مما كنّا في البداية.

نَفَس يُخصّب القرون، ويهبُ وجهةً ما لكلّ الأرواح. ما زال المسيح يُحيي المؤمنين.

٢٨ نوفمبر. (دير) باناغودا. – وضع خطّة، كيف يتوجب أن تكونَ خلال عشرة أعوام.

٢٩ نوفمبر. (دير) كَارَاكَلُّو: في المساء، وكلانا في سريره، تحدّثنا أيضاً عن رغبتنا الأكثر جوهرية والأكثر سموًّا: خلق دين. كلّ شيء ناضج. آه كيف بوسعنا التعبير عن أقدس وأعمق ما عندنا.

٣٠ نوفمبر. العيش، دائما على القمم. آه، يالسذاجة الضجة المتولدة عن العادة! كيف نخلّص أرواحنا وكيف أرمي بالسهام التي أحتفظ بها في جسدي؟

---

(١) الحروف الأولى من عنوان عمل أو مشروع عمل، يعتقد ب. بريفيلاكي أنه «تيوفانو» الذي استبدله المؤلف لاحقا بعنوان «نيسافور فوكاس».

جبل اَتـوس . [تاليف] كتاب شبيـه بكـاتدرائيـات رودان: حجّنا الـروحي إلى جبل اَثوس. كيف عشنـا سلالتنا، معتقـدات أسلافنا، كيـف سَمَوْنا، في كل مكـان، بأرواحنا، كيف مجّدنا الحياة التي تندفع في السموات مثل سهم من نعمة الإله.

الفن ، هـو الإيمان الذي يـوجّـه فكر الـرسـام والمهندس المعماري والملحّن، وقـاطع الحجارة. الدين الذي يسمو بكلّ شيء. كيف قرأنا دانتي، بوذا، الانجيل. كيف تحدّثنا عن اليـونـان وعن الحياة. العـذراء، المسيح، الملائكـة، الطبيعـة، الهواء الذي لم تـدنّسـه المرأة....

ثم تبدأ سنة ١٩١٥ بداية جيدة. ويكتب نيكوس كازنتزاكي واثقاً من نفسه:

دخلتُ دورة الإبـداع. كلّ شيء على مـا يرام. جسمـي سليم، أشجار اللـوز أزهـرت في بستاني وروحي مضاءة وواثقة.

عليّ أن أهزم عدوّين: «المدغدغ»، والمتّشنّج غنائياً، أي المؤقت والتّافه. المجرّد. ينبغي أن يتحوّل كلّ مفهوم من المفاهيم إلى صورة فنية. سوف أنتصر على كل شيء بالتقشف.

٢٠-١-١٩١٥ . تاثر عميق في متحف الأكروبول...

٥-١١-١٩١٥ . ينبغي ألا أكتفي، في كل مـوضـوع، بافكـاري المرتجلـة، أو حتّى المتعقّلة ، وإنما أتاهب وأقـول : في الأعلى ، في ما هو أعلى ، مـاذا يوجـد؟ حتى تبلغ قوتي سَمْتَها ..

فبراير ١٢ مارس. أدرس دانتي. طموحاته تربكني وتستنهضني ..

وبعد جبل اَثوس بـدأ انجيلوس سيكليانوس ونيكوس كـازنتزاكي يفكران في حجّ تاريخي «بحثا عن ضمير تاريخهما» كما كتب كازنتزاكي في دفتره : ميسـترا ، اسبرطة ، تايجيت ، ميسـين ، دلفي ، طيبة ، ميغا اسبيالون ، الأكروبول ...

وتناوب بينهما الفراق واللقاء الدائم ، والمحاورات المشبوبة ، والرغبة الجامحة في التوصل إلى توليفة بين بيزنطـة وبلاد الإغريق .. الأول في راحة وطمأنينة ، على ساحل البحر ، وقـرب الغابة ، مثل إله معبود من زوجته الـرائعة ايفا. والثاني في

شقـة برجـوازيـة في أثينا ، صحبـة غـالاتي ، سعيداً بـاسترجـاعها أمـلاً إيجاد الانسجام دائماً ، مستبقـاً الكارثـة ، مع ذلك ... وأحيانـاً ترافق غـالاتي نيكوس لزيـارة سيكاليانوس حيث تكـون ايفا في زيّ تاريخي عتيق ، مع جـدائل شقراء تبلغ ركبتيها ، وتستقبل الأصدقاء بروح سيدة مجتمع عظيمة ، وتعلّمهم طريقة درز وفتل الصنادل القديمة.

يوم ١٩ مارس سجل كازنتزاكي في دفتره :

قال لي شاب يـدعى مركاتي ، اليوم ، إنني أشبـه تولستوي. وكنت شديـد التأثر لأنّ تطوّر تولستوي هو ما أسعى إليه.

كلّ تطوري الجديـد أدين به لـرحلاتي في جبل آثـوس ، وميسترا ودلفي ، ولقراءاتي الأخيرة (برغسون ، طاغور ، كلـوديل ، بارّيس ، أوكن ، الخ ، الخ ...) ولرفقة انجيلوس سيكليانوس.

وفي هذه الليلة تحديـداً – كان كازنتزاكـي موجوداً في ميغااسبيـلايون – يوم ١٩ مـارس ١٩١٥ ، بعـد أن استمع إلى الأنـاجيل الاثني عشر ليـوم الخميس المقدّس، فكتب :

تأثر شديد في الكنيسة. لاح لي المصلوب أكثر قرباً منّي ، أشد شبهاً بي. تأثرت جدّاً بـ «الإله المتألم» وقلت في نفسي : فلتأت القيامة مع التّشبّث والحب والجهد. فرح ، انتصار على الشهوات ، خـروج من الجسد ، حـريّة. بساطـة وسكينة متكـونتان من جوهر كلّ الأهواء التي خضعت للعين الإلهية. *روح شبيهة بالنّور ، شبيهة بماء النبع الصافي.*

لن نجـد تمجيداً «مسيحيـاً» من هذا القبيل ، لـدى كازنتـزاكي ، إلا في «فقير أسيـز». غير أنه استطـاع أن يجعل روحه شبيهـة بـالنور ، بماء النبع الصـافي ، والمحافظة عليها سليمة حتّى النهاية.

٢٠ مارس. أشكـرك ، يا إلهي ، لأنك خلّصتني من العلم ، من الحقيقـة ، من الفنّ ، من الواجب ، من كل الكلمات وكلّ المثل. أشكرك لأنك أنقذتني من موت لا استطيع تحمله ، إذ أنـه متعـارض مع طبيعتي السـامية. أنـت وحدك ، أبـديـاً ومشرقـاً ، تستطيع تهدئة الزّوبعة العاصفة بقلبي ...

غير أن العاصفة تتربص به :

٨ يونيو (١٩١٠). آه! الرحيل، الرحيل، للخلاص من مجتمع الناس. في بيتي[١] على ساحل البحر، الهروب (وحيداً مع نفسي)[٢]. هذا المساء إنكسرت روحي مجدّداً في اتصالات طويلة وتافهة، في أشياء مجترّة ألف مرّة، بشاعات، أهواء صغيرة..

إلهي، كيف أنجو، كيف أخلص من ذلك؟ القرف يخنقني، قرفي تجاه نفسي، لأنني أنحطّ، لأنني إذا لم أسافر، لن يكتب لي الخلاص! بي حاجة إلى البكاء، إلى الصراخ: آه! كم وددت لو لم أوجد! صرختي تتوجّه إليك، يا إلهي، فاستمع إلى رجائي.

وما لبث أن ذهب إلى جزيرة صغيرة، هي سيفنوس، حيث أعتكف في دير عذراء الجبل، من ٩ إلى ١٩ يوليو :

أكتب، أكتب، انحلّت العقدة وانبجس البكاء. أحسّ بالراحة لأنني كتبت بصراحة مطلقة. وسرعان ما أصابني المرض، قيء وحمّى. الأمر بسيط، الجسد يغتاظ قليلاً أخي الجسد لا حال تدوم.

٢٤ يوليو. أغادر الدير، غداً، في أثينا، حيث أشتاق إلى غالاتي.

٢٥ يوليو. فرحة العودة. دائماً أعود في حال أفضل. أكثر رقة، أكثر هدوءاً، أفضل حالاً. ومع ذلك يعود البشر بطبائعهم البائسة إلى تكدير صفائي فأسافر من جديد طلباً للشفاء.

٠ - ٢٥ أغسطس. أنا في سيكيا حيث فرحة الحياة. عندي، متوازنة بشكل إلهي. لا شيء ينقصني:

Laudotosi, misingnore, per it fratello Angelo, che e'bello et robustoso et casto et forte

٢٥ أغسطس. أسافر إلى أثينا. يا لها من فرحة، يا لها من قبلات سرية، عندما وحدتني غالاتي، مساء، وبشكل مفاجيء، جالساً أمام الباب المشّبك. لكن، يوم ٣٠ أغسطس. هو اليوم الأكثر فظاعة - مشاحنة فظيعة. سافرنا معاً إلى سيكيا.

---

(١) كان كازنتزاكي يحلم ببيت في سيكا، قرب انجيلوس سيكليانوس.

(٢) باليونانية «مونوس بروس مونون» أي: وحيداً قرب ذاتي.

(٣) حمداً لك يا إلهي، عن أخي انجيلوس، فهو جميل وصلب وعفيف وقوي.

٣-٤-٥ سبتمبر. أيام مـريعة ... رسـالة أثيمـة. أحسست أن شيئـاً واحداً يـوجد ، النّور.

لقد فـرضت المشكلة الأخلاقية نفسهـا عليّ بوضوح مطلق وتقبّلها بطيبـة متشدّدة ، بعـد معـركـة فظيعة، تمرّدت فيهـا العنـاصر السفلى على العنـاصر الأسمى. انتصرت وأصابني الهزال ، مثل هرقل الذي بعد أن رأى الجيم ، صعد نحو النّور.

ودائماً خلف أُثر هرقل ، في أولمبيا ، إذْ كتب كازنتزاكي :

كم إنَّ الناس يخطئون في حـقّ الوجه المقدّس لهرقل ، البطل المتصـوف : حياة ملأى بالزهد والكفاح والأحزان العميقة والتطهّر الداخلي النهائي ...

٧ سبتمبر. جولة رائعة فوق التلّة التي شاهدنا منها فوهات «الألفي» ولدى عودتنا ، لمحنـا أضواء حمراء مثل الـزهـور ، موزّعـة على حـافتي الطريق. إنهم زوّار الاحتفـال الشعبي وقد فاجأهم الليل. وجدت السلوى ، هذا المساء ، في الحب وفي بساطة الحياة.

أنْ أُفلِتَ من شراك المجتمـع ، أستمتع ، مثل الإلــه قبل الخلـق ، بـالصمت العميق وبالنعمة ....

٨ سبتمبر ... لم يعـد يوجـد شيء بـالنسبـة لي ، إلا عملي. المرأة تصرّفت بلا جـدارة، والإنسـان انحطّ أمامي. حـاصرتني كلّ البشـاعات ، وثمـة خلاص واحـد : عملي (الفنّ والدين: جوهر إرادتي).

الهروب. وحيداً أمام ذاتي. إهمال التفاصيل ، الدّنـاءات ، تحطيم سلاسل الناعورة ، لأتخلص من كلّ مشكلة تقنية أو فكرية ، ومن كل وثاق :

(١) «omniveggente, renigator ditutto, di mi maestro» ينبغي عدم نسيان أبرز ممثّلي الفضيلة: المسيح ، بوذا ، ميكائيل ، انجلو ، بتهوفن.

١١-١٢ سبتمبر. سيكيا. يوم من أشنع أيام حياتي. إنَّ الحياة المشتركة باتت كارثة لكلينا (٢). «ما هو سـامٍ في كلَيْنا لا يمتزج» لا بدَّ من نهاية فظيعة ، هـادئة ، محتومة ...

---

(١) رائياً كلّ شيء ، طارحاً كلّ شيء ، سيداً على ذاتي.

(٢) هو وزوجته.

هي أيضاً سوف تشعـر بالراحة وأصير سيد ذاتي ، حرّاً. «كلّ أعمالي شعـارها وهدفها : (١) Come l'uomo s'eterna . هذا ما توصلت إليه(٢).

تأسيس ديـانة ، تأسيس ديانـة مهما كان الثمن ، تلك هـي الفكرة. الهاجس التي سوف تسكن كازنتـزاكي طيلة أعوام ، دافعة بميـوله الغريزية نحـو الزهد وإنكار الـذات عبر الضحك ، إلى حدود قصوى. وعندمـا يبلغ صفاء الرؤيـة بعد معارك قاسية ، ويدرك أنَّ «الأسطورة الجديدة» تهرب منه ، يلتجىء إلى الشعر.

في «المأدبة» وهو كتاب يعـود تأليفه على الأرجح ، إلى ما بين ١٩١٨ و ١٩٢٠ ، يـذكر كـازنتزاكي ، بأسلـوب توراتي وعلى شكل اعتراف ، حلمـه بزهـد أراد أن يكرس لـه عامين من حيـاته ، وفي هـدوء جبل آثوس ، ولم يستطـع استكماله إلا بطريقة متقطعة ، خلال إقامات عـديدة في أماكن اعتزال مختلفة. فعمّ كان يبحث في ذلك التنسّك الخيالي ، داخل مضيق عميق وضيّق مثل بئر؟

أستجيب إلى ايقـاع قاسٍ ، أتطوّع في جيـش بدأ السير لبلـوغ الأمل الأكثر جنـوناً ... أنتصر بالإيمان ، أنـا أيضاً ، كما كـان يفعل الزاهـدون ، على المماحكة الفـارغة والخوف والموت ...

ولكي يبدأ ، فقـد قسم ذاته إلى معسكرين غـريمين : الأعلى والأدنى ، الواضح والغامض ، الروح والجسد ، وجعلهما يتواجهان :

... قلت لنفسي : سوف أذلّ رغبـات الجسد وأقلصهـا قدر المستطـاع. فإذا أراد النوم ، أسهر. وإذا أراد الأكل ، أصوم. وإذا أراد الجلوس ، أقف وأتسلق الجبل. وإذا أحسّ بالبرد ، أخلع ثيابي وأمشي على البلاط ... وعندما أهزم الجسد ، ألتفت إلى الروح وأقسمها ، هي

---

(١) كيف يصير الإنسان خالداً.

(٢) من بين الأعمال المخطط لها في تلك المرحلـة ، لم تُنشر سـوى أربعـة «المسيح» ، و «نيسـافـور فـوكـاس» و «عوليس» و «هرقل» وهي مسرحيات شعرية ، والملاحظ انّ «هرقل» نُشرت فقط ، في مجلتين تصدُران في كريت وفي مصر ، ومازالت مفقودة حتى الآن.

الأخرى ، إلى معسكرين : أسمى وأدنى ، إنساني وإلٰهي. وسوف أقاتل الأهواء الذهنية الصغيرة ، القراءة والذكرى والابتهاج بالنصر ، والعدالة ، والصداقة والحنان ، والفرح والحزن.

وعندما أنتصرُ للمرة الثانية ، أعلن في نفسي عن تقسيم جديد : في الأسفل ، الأمل ، العدو الأخير ، وفي الأعلى ، شعلة الإلٰه التي سوف تلتهمني من دون دخان ولا حركة ، في الصمت وفي الظلمات العميقة.

كلا ! كلا! لن أتوصل ابداً إلى التعبير عن الألم والشهوة في تلك الحفرة العميقة داخل صومعة التنسّك. وليس السبب في ذلك أنني لا أرغب ، أو لا أجرؤ ، بل لأن ذلك الموت يدق عن القول ، وما من كلمات تستطيع احتواء لذتّه.

تنتهي «المأدبة» نهاية غير متوقعة. ففي اللحظة التي يظنّ الزّاهد نفسه مستعداً وقد آن الأوان كي :

ينتهي الاحتفال ويدوّي السوط في الهواء ، وتندفع روحي ، شرارةً عملاقة ، فوق أسوارك يا بابل ، وترتمي في الشوارع كي تحرق آلهة الخشب ، وتذيب عجول الذهب وتطوق خاصرتك ، فتزمجرين متوسلة المغفرة...

في هذه اللحظة الحرجة تحديداً ، يحلّ حلم وينير الفكر المعتم لدى الزّاهد:

دخلت البيت الأبوي ورأيت والدي جالساً ، كعادته ، متقاطع الساقين ، فوق الأريكة. وما أن رآني حتى وثب بشراسة وصاح :

– أتأتي مرتدياً جبّة كاهن؟ هل شبعت من العالم ؟ أين عرفت العالم؟ هل تزوجت؟ هل فقدت ولداً؟ هل جربّت الفجور؟ هل عملت؟ اغْرب عن ناظري!

وما لبث الشيخ أن جلس وانفجر بضحكة مريعة :

– إلامَ تدعوني؟ همس. إلام تدعوني؟ إلى عرسك؟ هل أنادي عازفي كمان وراقصين؟ هل أذبح خرفاناً؟ ... هوذا ابني ، ابني الوحيد ، يتخذ له امرأة ... فلينجب أطفالاً وهكذا أنتصر ، أنا ، على الموت.

التفتَ بهدوء ، نظر إليّ ، سكت طويلاً. ترقرقت دمعة من عينيه. لقد تملّكه الهدوء والحنان:

– في أية حال جئتني ، نـازف الدم ، خائر القوى ، حتى شعرك بـدأ يتساقط يا بني ، عيناك انطفاتا ، واحْدودب ظهرك ، وتدثرت بجلباب ، وصرت تطرق الأبواب مثل شحّاذ. هل نضبت سلالتي؟ ماذا فعلت بالدم الذي وهبتُك إياه؟

وبكلّ هدوء تبخر كلّ شيء ، مثل الندّى ، في الهواء ... آه ، لقد علا صوت أبي فجأة ، في عزلتي ، مثل نداء أعلى من نداء المرأة :

– انهض. هل تبحث عن الإله؟ هـاهوذا ، إنَّه العمل ، المملـوء بالشراك ، والتحسّس ، والعناد والقلـق. ليس الإله قوة تـوصلتْ إلى توازن أبـدي ، بل هو القـوة التي تُخلّ بكل تـوازن ، من أجل تـوازن أكثر سَمـوًا في كلّ مـرة. ومن يسلك الطـريق نفسه ، في دائرتـه الوثيقة ، ويكافح ويتقدم هو الـذي يجد الإله ويتعاون معه. انهض ، انزل بين الناس ، تعلم كيف تحبهم وتقتلهم – الحب هـو الاحترام ، والمحبـة والقـرف. لا تأمل خلق شيء وحدك. لن تسمـو إلا إذا كافحت مع النـاس ، مع الرأفة بقلبنـا البائس ، والحقـد عليه. تعال بكلّ ضعفك وعجزك وأوهامك. سوف تتخلص منهـا بالكفاح ... انزل ، ابحث ايضاً عن موقعـك واضرب. العدوّ هو الإلـه الذي يـرتدي جبّـة رهبان ويمسك بسبحـة ، اللاّ نظيف ، اللّا – متزوج ، الكسول.

... مرت الأيـام والشهور. وحلت الأمراض والهذيان. ثم أقبل الـربيع ... في ذلك اليوم قمت بجولـة طويلة. تمتعت أنـا أيضاً بحـرارة الشمس مثل حشرة الأرض ، واستعدتُ قواي ... إنَّه الربيع، فكرّت ، «الإغواء الأكبر». هذا الإغواء الذي لا يستطيع الرهبان منعه من تخطي عتباتهم.

تملكني الدوار ، استندت إلى شجـرة. تأملت الطيور. تجمع الشعـر والقش من التراب وتبني أعشاشها على عجل. كان أديم الارض مفعماً بالحياة ، يتحرك ويعمل ، وأحسست بنسغ الشجرة التي أستنـد اليها ، يصعـد حتى الذروة ويحاور التربة والحجـر والمياه والهواء والشمس كي يصنع منها زهوراً. شاهدت المادة ، العاهرة الكبيرة ، ذات الوركين الواسعين ، تسقط باكية عند قدمي المسيح مثل ماري مادلين ، فتتغير هيئتها تماماً.

شعـرت بشفقـة عارمـة على الأرض التي تحملنـا وتغـذينـا. وحطّ حـزنٌ دقيق عن الـوصـف ، على قلبي ، لأنني أسأت في الكـلام عنـك ، أيتهـا الأرض الأم ، أنـا الـواثب في أحشائك ، ممتلئاً بالطمي والندّى.

الفارس ، هو الـذي يستطيع ، عندما يندفع حصانه ، أن يحمل كأسـاً ممتلئة بالماء ،

من دون أن يترك قطرة تراق. وأنـتِ أيتها السيدة الأمازونية ، حـافظي على قلب الإنسان سويّاً ، راسخاً ، ممتلئاً.

يستطيع نشيد منبثق من قلب طين الحياة أن يقهـر أكبر خطيئة مميتة. إلٰهي ، إلٰهي أنصت إلى النشيد الـذي تردده الحياة ، وهي في شرك الموت! ... وفي اللحظـة ، وأنا منهك بالمرض ، ومفتون بالربيع ، استمعت في داخلي إلى نشيد الحياة ينبثق من ذاتي ، وتردده آلاف الأفـواه ، ومن حشرات ودواب ، ومـيـاه ، وأعشـاب ، وبشر ، مثل صـلاة ، مثل أمـر وشكوى.

آه ، يـا لعذوبـة الحيـاة ! كيف تغنّي لامبـالية – مثل الحسّـون ذي العنق الأحمر ، منتشياً بأريج الأجّاص البرّي وبالعش الدافىء الذي تلمع فيه بيضتان ... «فلأغرّد أولاً ، ثم أحضن البيض ، فلأغرّد أولاً! » ولم يفهم بعد أنه يقف على فخّ قناص الطيور ...

لا نعرف من سنة ١٩١٦ إلا العرض العالمي ، في منتصف شـهر مارس ، لأوبرا مـانويس كـالـوموريس : «رئيس العمال» المقتبسـة من مسرحيـة كازنتـزاكي. ونعـرف أيضـاً أن كـازنتـزاكـي صـار عضـواً في جمعيـة العلـوم الاجتماعيـة والسياسية، يوم ٢٠ أغسطس من العام نفسه.

وفي سنة ١٩١٧ كان هناك «زوربا». زوربا ومنجم الفحم العتيد الذي لم يكن يوجد في كـريت بل في جنوب «البيلوبونيـز» ، في «براستوفا» التابعـة لـ «مانى» ، قرب خليج صغير ورائع ، يتميز برمل ناعـم وينابيع مياه حلوة تنبجس في البحر وعلى الشـاطىء. وكثيراً مـا تحدّث نيكوس عن الماعـز التي كـانت تأتى وتضرب الـرمل بحـوافرهـا حتى ينبجس الماء. ومـازال المسنّـون في «مانى» يتـذكـرون كازنتـزاكي وزوربا وكوخهما. ويشيرون بفخـر إلى المغارة التي كـان يلجأ إليها نيكــوس للقـــراءة والكتابة. ويتـذكرون أيضاً سيكليانـوس ، وصوته المدّوي عندمـا ينشد أشعاره ، وطـريقة نومـه على مصطبة صُنعت خصيصاً لـه ، فوق الأمواج !

لقد وجـدتُ خليج بـراستوفـا الصغير ، كما وصفه لي نيكـوس تماماً. غير أن

هناك أمراً واحداً يؤلمني الإفصاح عنه وكتـابته – لم يكن لدي ضيعة «ستوبا»[١] كسرة خبز واحدة تقدمّها لنا. زيتون. طماطم، وبعض التين. ولأن سكان «ماني» يعيشون منسيين من حكومة أثينا، فهم على حق عندما يقولون إنّهم يعيشون «وراء الشمس».

انهار المنجم فتركه زوربا وكازنتزاكي، أحدهما ارتحل قاصداً مناجم خالسيديك، ثم صربيا، والثاني إلى سويسرا[٢]

فيينّا ٢٥-٥-١٩١٧

عزيزي أنغيلاكي[٣] ... أنا Surheureux[٤] أي أنني أعيش نوعاً من البؤس والقلق. أنا وحدي ولا أستطيع الضحك، وبالتالي الارتياح. حركة موسيقية هائلة. هذا الأسبوع، التاسعة لبتهوفن، براهمز، شتراوس. والرقص.

«دائماً، ن»

غرينْدِلْوُلْد ٥اكتوبر ١٩١٧

عزيزي انغيلاكي،

«الجبال الظليلة والبحار الصاخبة» توجد بيننا وصوتنا لا يجد صدى، أنا أزعق كلّ يوم، وأكتب أحياناً إلى غالاتي، وأحياناً إليك، وإلى فارانداتوس[٥] ... غير أنني لا أمتلك أية إجابة وأخشى المراقبة الإيطالية على الحدود، وهي مراقبة متشدّدة ولامبالية...

أكتب لي، أرجوك، رسالتين شهريا، إحداهما وديّة، تتحدّث فيها الروح عن الأشياء

---

(١) ضيعة صغيرة قرب براستوفا

(٢) مروراً بفيينّا

(٣) محام من آسيا الصغرى. صديق حميم لكازنتزاكي. كان موظفاً في البنك واستقال آنذاك كي يلتحق بكازنتزاكي في القوقاز.

(٤) بالفرنسية في الأصل ويمكن ترجمتها حرفياً «فوق سعيد» وكأنه تجاوز السعادة إلى نقيضها.

(٥) جان فاراندانوس، محام، صديق وشريك في منجم براستوفا.

الأبدية التي تُربكنا أحيانـاً ... في المساء – والثانية تجارية تماماً ، تلخص سير الأعمال كلها. أرجوك.

لم تتـوصل روحي إلى السكينـة بعد. وكما قطـة تـريد الـولادة وتبحث عن مـوضع مناسب في أرجـاء البيت وفي الجوارير والخزائن ، وتحت الأسرّة ، ولا تـرضى أبداً بسبب القلق والخشية ، أركض أنا ايضاً من جبل إلى جبل وأبحث عن موضع ألِدُ فيه. وأعتقد أن سويسرا ليست مناخي المناسب. لو أنَّ سفاكياناكي[1] ياتي ، على الأقل ...

زيوريخ ، فريغوتستراس ١٤

٢٧ أكتوبر ١٩١٧[2]

... إليك كيف أعيش. مادّياً ، تقنين المعيشة الغالية جـداً ... روحيّاً ، حركة موسيقية عظيمة ... وفي المجالات الأخرى ، ما من إثارة عُليَا.

مكتبات ، ولكن كما تعلم ، لم نعد ننتظر أشياء مهمـة من الكتب. هناك بضع لوحات في المتحف ، جميلـة جداً. إن شـاء الله ، سوف أذهب إلى بـاريس في الربيع: هنـاك فقط ترتاح روحي ...

١٥ نوفمبر ١٩١٧

عزيزي انغيلاكي ،

... هنا في زيوريخ ، أسكن في القنصلية العامة لانّ القنصل صديق عزيز ... أحتاج إلى مجموعة من الرجال المسكونين بالرفعة القصوى وباشعاع الإيمان والفرح والانضباط. أعمل وحيداً ، أتجول في الجبال، وأحياناً يلوح لي وجـه نيتشه، مربكاً مثل حدس موجع. لـذلك أريد أن أحصّن نفسي وأذهب إلى جبل شـاهف جـدّاً كي أتمكن من حمل عبء قلقي وطموحاتي من دون انحناء، أذكرك دائماً بتأثر عميق، لأن ما يجمعنا هو شيء في منتهى الصوفيـة والتجانس، نفس الحنين الـذي «لَألما ماتـر» وللشرق. هنا، أعي جيـداً تفوّق عرقي وعندما تتلاشى كلّ هذه الحضـارة الافرنجية عن وجه الأرض الرائع، نعود نحن،

(١) كوستا سفاكياناكي ، استاذ موسيقى وملحّن ، وصاحب ثقافة واسعة.

(٢) رسالة إلى جان أنغيلاكي.

الشرقيين، كي نجدد بـذار الحياة. سابقى هنـا، أنا الشرقي، ومثل العنكبـوت، آكل قلبي كي أنسج، بصلابة، سلسلة الأمل الجديدة..

زيورخ ٥-١٢-١٩١٧(١)

أنجزت عملاً، هذه الأيام، وبدأت بآخر، وأشعر بكل الغثيانات والانفعالات العصبية التي تتملك المرأة الحامل، وسـوف أذهب غداً إلى «أروزا».. وإن شاء اللـه سوف أجـد ما أبحث عنه، وأعود إلى دحرجة صخرتي السَيزيفيّة..

روحي مثل روح المسلم عندما يصلي، متجهة نحو الشرق. آه، في الضباب الكثيف، في الرطوبة والثلج، لينبثق الجبل الأزرق، البحر، خرقة حمراء فوق نخلة، الرمل الساخن، القوس العـربي، الفلاّحـة بجرّتها على رأسها، حـافية القـدمين، سمراء، نـاهدة. روحي تشتعل مثل دمشق في منتصف النهار، وتجرّني رقصة زنجية في اصابعي العشر، بينما أنا جـالسٌ بهدوء في مسارحهم، اتأمل أفكـارهم الصغيرة الهزيلة، ونسـاءهم السمينات الشاحبات وأسنانهم الذهبية. آه! يـا لروائح الميناء الشرقي، ببرتقاله وبطيخه المتعفن، وزوارق «القـايق» المتأرجحــة ذات اليمين وذات الشمال، والأقـدام الحافيـة الملطخـة بـالوحل!... هـذا ما أعطتني إيـاه أوروبا - الاشمئـزاز من كلّ ما ليس شرقيّـاً ينتمي إلى جنسي. لقد وجدت نفسي، أنا المنحدر من سلالة العرب، على جزيرة كريت الافريقية. و إن شاء الله، إن شاء الله يتحقق سفرنا إلى الشرق ما دام دمنا «يعيش ويحكم»(٢).

ويزداد إيمان كازنتزاكي بسلطة الروح المطلقة. إذا عرف المرء كيف يريد شيئاً فإنـه يحصل عليـه. بل يستطيع سحبـه من العـدم. فكـرة طـالما كـررهـا في «كريستوف كولمبوس»(٣).

(حاول كريستوف كولمبوس، في البـداية، إقناع رئيس دير عذراء الأطلسي، والقبطان ألونسو والقبطان خوان، ثم ايزابيل نفسها فيما بعد).

كريستوف كولمبوس (غاضباً):

جيل بلا إيمان، ملوث، كافر بالنعمة، محكومٌ بالموت!

---

(١) رسالة إلى ج. انغيلاكي.

(٢) تعبير يوناني شعبي.

(٣) «كريستوف كولمبوس أو التفاحة الذهبية» مسرحية لنيكوس كازنتزاكي.

هذا الجيل يتحدث عن الجنّة الأرضية ويشرع في الضحك!

أبداً، يا قبطـان ألونسو، أبداً، يا قبطان خـوان، لن تجدا الأرض الجديدة، اعلما بذلك منّي، لأنكما لاتحملانها في أحشائكما!

الأرض الجديدة تولد أولاً في قلوبنا، وبعد ذلك فقط تنبثق من البحر...

ويتوجه إلى ايزابيل التي لا تصدّق وعود كريستوف كولمبوس:

إننا نقول «غير موجودة» عن كلّ الأشياء التي لم نرغب فيها بعد... إذا كانت لا توجد [الجُزُر] فلماذا وُلدتُ؟ إنها موجودة لأنني موجود!

سعيدٌ هو، يا ملكتي، من يحمل حلم الليل طيلة النهار ويجهد كي يحقّقه.

هذا هو الشباب والإيمان، وبهذه الطريقة وحدها يكبر العالم...

١٩١٨ – يوم أول ينـاير، يقـوم جان استـافريـداكي، وميشال غـونالاكي، والآنسة م. ك. ، ونيكوث كازنتزاكي، برحلة عبر الجبال السويسرية: كوار، ماران، بيتر مـولينيس، دافوس بـونتريـزينـا، سيلفابـلانيـا... قمم شـاهقة، تطلعـات ومحاورات راقية، ويحدث سوء تفاهم أو تأسف أحياناً، لكن من دون سطحية أو أفكار دنيئة.

ويـدوّن كـازنتـزاكي ألوان القمـم، وأشكال الأشجـار المتبلـورة، والسيـول المتجمّدة، والقمر، والفجر، والطائر الـوحيد، الّذي يحلّق على امتداد الثلج الواسـع، حركة بُنَيّةٍ قـدمت له باقة زهـور... مساء ٩ ينـاير في بونتريزينـا، داخل الفندق الفارغ، لم يحتـدم الحوار، فاقترح نيكـوس أن يتحدّث عـن الحب. وجرت قـرعة وكان هو أول من افتتح النقاش:

أماثـل الحبّ بالـوثوب الحيـوي، ١) النبـات، ٢) الحيـوان، ٣) البشر، ٤) تـزاوج الأرواح الذكرية والأرواح الأنثوية، ٥) توحد مـؤسسي الديانات ... وأضاف إنّ العلاقات بين الناس الذين مثلنا لا ينبغي أن تكون جسدية، بل نفسية، متضمنة كلّ أهواء الحبّ ... فـاحتـدم النقـاش، واحتجّ الجميع قـائلين إنّ كلّ هذا الطـرح معـارض للطبيعـة،

وتضحية مريعة ، ويضفي طابعاً دينياً على مجموعتهم. أجبتُ بأنه يتوجب علينا التضحية بالسعادة الفردية وتحويل الأهواء ، ونستطيع خارج دائرتنا فقط ، أن نعقد صلات دُنيا ... علينا أن نضاعف جهودنا كي ننقذ فضيلة تطلعاتنا.

١٠ يناير. وصلنا إلى سيلفابلانا. أفكّر بشدة في نيتشه ، وفي لُو سالومي. غادرنا غونالاكي. حزن الوداع ....

مرّت الأيام وزادت الجماعة السعيدة سانت مورينز وبيغيرس وتيافنكستل ... مشاهد خلابة ، محاورات نصف جدية ، نصف ايروسية مع الفتاة ... عودة إلى زيوريخ ، حفلات ، مآدب ، أحزان...

١٣ فبراير. تقابلت مع «أ». كانت الأمطار تهطل. ذهبنا إلى «هول ستيوب». كانت ترتدي مجرّد فستان من القطيفة السوداء، وعلى جيدها العنبري تبرز دنتيلا بيضاء ناعمة. عينان جميلتان تشعان ذكاء. احتسينا زجاجتي «ديزالي» وتناولنا أكلة «الفوندي». مرح، ضحك. اقتنيت لها قرنفلة حمراء: بشارة.

أعقب ذلك علاقة حب دامت أربعة اشهر. تخللتها فترات يسر وعسر. فترات يظن المرء فيها أنه اقترب من السعادة، وأخرى يشعر فيها أنه وحيد ويائس. يوم ١٤ يونيو، سوف تسافر «أ» فجراً. وتعود الدفاتر إلى تسجيل انتظام الرحلات عبر الجبال والوديان. ولن تذكر أيةّ كلمة أخرى عن الفتاة المتعالمة التي تقبلت خلال تلك الأشهر الاربعة ان تعيش متلقية بركة، أو لعنة، رجل مهم ...

ومن أجل الاقتراب من حالته الروحية في تلك الفترة الدقيقة، وبالنظر إلى أن أية رسالة عن تلك الفترة لم يتم إنقاذها، سأجمع في مصادفة عشوائية بعض الجمل المستخرجة من أربع أوراق مزدوجة ومنتزعة من دفتر مدرستي، احتفظ بها كازنتزاكي.

١٥-١٦ فبراير: في مطعم أوستر، أضاءتْها الشمس ... جميلة جداً وقد قلت لها ذلك.

١٨ فبراير[1]. في القنصلية اليونانية، حول مائدة الغداء. بلا حراك، شاحباً شحوب الموت، على عتبته. أختنق. قلت لنفسي: عليّ أن افتح الباب وأغادر هذه الأرض. أختنق!

---

(1) انه يوم ميلاده، وبالتالي، فهو، كما اعتاد ذلك، يوم امتحان ضميره واتخاذ الكثير من القرارات الكبرى ...

٢٠ فبراير... حدّثتها عن انشدادي إلى الدائرة الأكثر سمّواً و إشعاعاً للألوهية، وكيف أن الفنّ لا يسعني. أتخلّى عن الربح المؤكـد لأنني مقتنع بأن «عشرة انتظارات أفضل من خمسة مؤكدات..»

حدّثتهـا عن أسلافي، العـرب، والأمر الـذي تلقيّته كي أحـاكيهم وأحرق سفـن آمالي وأغزو كلّ «كريت» جديدة، بإجبار روحي على الاندفاع نحو ذرى جديدة.

١١ مـارس. يوم رائع. في غـاندريـا وثب قَلْبانـا. قلنا: هنـا نكون سعيـديْن. عدنـا سعيدين ...

١٣ مـارس. تحدّثنا عن الحب. قـرأت «مأدبـة» افلاطـون. الحب الصريح أفضل من الحبّ المتستّر ... ناكفْتها لأنها متحذلقة وقلت لها: أريد أن أكون قبطاناً في السفينة التي ترسلها ملكة سبأ، كلّ ثلاثة أعوام، إلى سليمان، محمّلة بالقرود والطواويس...

١٧ مارس ...يوم جميل جدّاً. يفترسني همّ البحث عن مبرر جديد لوجود الحياة. قلت لها: الآن صرت أفهم الإلٰه بشكل أفضـل لأنني أعمل مثله، بتعدد وجـوهه. وسلكنـا معاً درب الحبّ. لم أعد قادراً على القيام بما هو مؤقت وزائل. أهب نفسي كاملة في كلّ خطوة...

١٩ مارس. استثـارة فكريـة كبيرة. جسدي يـذوب مثل فتيل الشعلة. أحس بـالإلٰه يتغنّج حـولي مثل امرأة وأريـد الإمساك به لحماً ودمـاً. قرب المدفأة في «سيهـوف» كنت أرتجف بكاملي...

٢٠ مارس. اليوم قلت لها: «آه، لو كان معي، حول مائدتي، أربعة رجال، كي أتحدّث معهم وأجبل الإلٰه!» ارتعشت مدركةً مدى بُعدي عنهـا، بعدي الشديد، إلى حدّ الانفصال المروّع ...

وسوف تعود «أ» بعد تسعة أعوام، متزوجة وأمّاً لطفل، أما نيكوس كازنتزاكي فقد دفع المرساة وأبحر وحيداً في بحـر «أوديسته» التي كرهتها تلك المرأة إلى حدّ رفض الاستماع إليه وهو يقرأها لها..

لقـد تألم كازنتـزاكي كثيراً، ولأسبـاب عـديدة، وكثيراً مـا أوحى لي بـذلك في رسائلـه. كل النساء اللائي أحبَّهنّ حتى ذلك الوقت حَثَثْنَـه على العمل. كلهنّ، ما عدا واحدة: إلَسا. وإلسا بعيدة... المنال.. وكانت كل واحدة منهنّ، تحبّه بطريقتها الخاصة وتأمل مع ذلك أن تـراه يغيّر من طباعه «كما لو كان في الإمكـان مطالبة

شجرة موز بإعطاء برتقال»[1].

نعم، لقـد تألم كثيراً، لكن ذرّة واحدة من المرارة لم تبق في روحـه. فلا وجـود لكائن يحبّه ويتركه يشتكي من قلة الاحترام والعطف. وأكثر من ذلك: لقد علّمني كيف أحبّ كلّ النّسْـوة الـلائي أثْرَيْنَـهُ وصَقَلْنَـهُ مثلما تفعل الموجـة بالحصـاة، والأصابع البارعة بحبّة العنْبر...

أثينا، ٢٨ سبتمبر ١٩١٨

عزيزي أنغيلاكي

لقد جئت إلى أثينا لمقابلة وزير الخارجية[2] ولسوء الحظ لم أتمكن من ذلك، فبقيت في مـوقع الحيرة، يملأني شعـور بـالاشمئـزاز إزاء التغيّرات التي لاحظتها هنـا، و إزاء المتكـالبين ومحدثي النعمة. تحصّلت على رخصـة من الحكومـة السويسريـة لاستيراد ٥٠٠ طن من الخرّوب... وأنا أعمل مع شركـة يونـانية سويسريـة متخصصة في تجارة الخرّوب والـزيت والتبغ. ومن المفترض أن تحصـل اليـونـان، في المقـابل، على الحديـد، وبعض الآلات، والنسيج والأدوية وخشب البناء الخ، الخ... إذا استطعت الحصول على إجازة عدْ إلى أثينا لبضعة أيام حتى نتفق.... لأن الأمر يتعلّق بصفقات كبيرة...

سـواء أكانت «صفقـات» كبيرة أم صغيرة، فقد كُتِبَ عليك في «الكتاب العظيم» ألا تحصد منها شيئـاً، يا عزيزي نيكـوس. فهل تتذكر «مقبرة آمـالنا»؟ والخطة الخمسيـة التي علّقْتَهـا فـوق سريـرنـا، في غـوتسغـاب «على ذروة السعـادة في تشيكوسلوفاكيا»؟ لقد كانت ترسـم قـائمة بكل ما يتوجب علينا إنجازه، والأماني التي من حقنا تقديمها كي تتحقق خططنا.

كَمْ كنتُ أنتظر ساعي البريد بلهفة آنذاك! كان يأتي من البعيد، مع الشمس أو برفقة الـزوابع الثلجية، وعندما تئـز خطواته على السلّم الخشبي الضيق، أسرع إلى لقائه. غير أن كلّ الآفـاق ظلت مغلقة، من كلّ صـوب... ومع ذلك فإن أفكارك وكلّ ما كنت تقترحه، حققّه آخرون.. أفلام، سيناريوهات، كتب، منشآت جامعية،

---

(١) جملة كان نيكوس كازنتزاكي يحبّ ترديدها.

(٢) فينيزيلوس.

اتحاد دولي لحماية السلام... وثمة من حقق ذلك انطلاقا من تصوراتك وخططك نفسها، من دون أية اشارة إلى إسمك. ذلك ما لم نكن نتوقّعه آنذاك. أتذكر فقط كيف كنت تنهض من نومك أكثر تصلبا من عادتك، كي تضع صليبا أحمر كبيراً على الأمل الخائب. ولم تمض السنة الأولى كلها عندما حصلنا على مقبرة ظريفة تزينها الصلبان القرمزية.

لقد تَلاَفَتْكَ الثروات الملموسة إلى الأبد. ومع ذلك زارتك المعجزة، مراراً، وجاءت لتنحني أمام بابك، مثل جمل ينتظر أن تمتطيه.

من زيوريخ كنتَ تنادي الشرق بصرخات مدوية. فجاء «بطريقة أخرى»، كما يليق، من دون فولكلور أو أحلام يقظة تجاوزها الزمن، جاء مع مشاكله الحارقة، والجديرة وحدها بفكر ثاقب.

وعندما عُيّن كازنتزاكي مديراً عاما في وزارة الاسعاف الاجتماعي، بتوسط فينيزيلوس، هيّأ بحماسة خطة شاملة لإنقاذ اللاجئين اليونانيين في القوقاز.

أثينا ١٠ يونيو ١٩١٩

عزيزي انغيلاكي، أنا سعيد بكثافة انشغالي، أفعل الخير من دون عراقيل كبيرة... اليوم تلقيت من آيدييوس برقيةً من الوزير. وهو يصدّق على تقريري المتعلق بتنظيم لجنة لإعادة اللاجئين[١]...

إنَّ الكفاح والاتصال بالناس يُريحانني جداً، وكما تتقوّى أنتَ، بالسباحة في البحر، أتقوّى من جانبي، بمصارعة بني البشر... أعمل كثيراً في الوزارة، حتى في الليل.... وفي أعماقي، يلمع وجه الإله.

(بلا تاريخ)[٢]

مشروع الرحلة يسيرُ جيداً. أدرس كلّ مشكلة مدة خمسة أو ستة أيام، ثم أقدم

---

(١) أرسلت اليونان بقوات لمحاربة الاتحاد السوفياتي، فبدأ البلاشفة يزعجون اليونانيين في القوقاز.

(٢) رسالة إلى انغيلاك.

مذكرة للوزير أعرض عليه فيها كل الحلول الممكنة... وأشير عليه بالحلّ الأمثل في نظري. وهكذا أدلي برأي فيبدي ارتياحه. وكثيراً ما يرسل بهذه المذكرات إلى فينيزيلوس[1] مبتهجاً. لهذا يتقبل خطتي الخاصة بالشرق...

توصيني بألاّ أرهق نفسي. إنّ الحرية واللذّة، بالنسبة إليّ تكمنان في العمل إلى حدّ يتجاوز واجبي، وعندما تنتهي ساعات العمل ويذهب الموظفون «الثّانويون» مرتاحين، أبقى حرّاً وأعمل تحت جناح الإلٰه العظيم. أفكر فيك كثيراً واتذكر «السَّفر الكبير» – سماء الشرق ليلاً، الهلال، القرى الوسخة، أقمشة الكاليكوت الملوّنة والمناهل الظليلة في منتصف النهار...

(أثينا ، بلا تاريخ) [2]

أنا أيضاً، أجلس إلى هذا المكتب، والشرق كلّه يرقص فوق هذه الوثائق، والمذكرات، وسجلات اللاجئين. أعمل بطريقة رائعة. أنهك نفسي. وعندما أذهب إلى المكتب أثب مثل أيّل وأقول لنفسي: آه،، متى أشرع في العمل، وفي توجيه بعض الناس، وأرى إرادتي متجسدة في أعمال يومية وأعاين بذلك قيمة روحي. وزيري يحضر غداً. إنه يوم التقرير المخيف. نعم، أو، لا، سوف نرى. أذهبُ كلّ يوم إلى الوزراء وأناضل من أجل تحميسهم.

أتناول العشاء في مطعم اسفيكاكي[3] ثم أعود فوراً إلى الوزارة حتّى منتصف الليل. أحسّ بدوار الإنهاك اللذيذ. لقد ضعفتُ كثيراً – وهذه طريقة من الطرق التي يبذل فيها المرء دمه من أجل وطنه ...

بسرعة فائقة، ٢٥ يونيو ١٩١٩

عزيزي أنغيلاكي. سنسافر خلال عشرة أيام أو خمسة عشر يوماً، على الأرجح. سوف أعينك في القسطنطينية، في مركز القيادة، هناك ... أما أنا فسوف أتقدّم باتجاه روسيا – القوقاز – وفي «الجسر»، حيث سأنشيء مصالح أخرى.

يجب أن تصير موظفاً معنا. وسوف تعين رئيساً للقسم «أ». وعندما أسافر أريد منك أن تعوضنّي كمدير، لأنني منزعج من ترك الأعمال التي بدأتها هنا، نصف جاهزة ...

---

(١) كان فينيزيلوس آنذاك، في باريس، يشارك في «مؤتمر السلام».

(٢) رسالة إلى انغيلاكي.

(٣) مطعم قريب من الوزارة.

«أزرع في كلّ الريــاح» ذلك ما يصلح شعــاراً لكازنتزاكي. فــالرجل ذو الإرادة الحديديــة، الرجل الــذي لاينهك، لم يتوصل قط إلى مــلازمة مـوقعه بعـد إنجاز مهمتــه. إذ سرعــان مــا تتمــرد روحــه وجســده، وتسكنــه الحمّى. وليس العمل الجنونى هو الذي ينهكــه، بل الرتابة والمقعد المريح. إنَّه يشبــه حاجّاً يهرب، أمام بركة مــاء، خوفاً من رؤية وجهــه، مدنّساً بالماء الآسن. هل هنــاك رغبة في رؤيته ينتعش من جــديد؟ تكفيــه حجــرة ضيقة على شــاطىء البحــر، أو على قمة أحــد الجبال، وقلم وورق، وفــواكه كثيرة، وكائن بشري يحبــه ويقف إلى جانبــه، وها هوذا نشطاً ومستعداً ومعافىً، مزدريــاً الزمن ومزدرياً ذاته، غير آمل في شيء، غير مطالب بشيء، غير قــابل للقهر. ممضياً أيامــاً وشهوراً وأعواماً، إذا لــزم الأمر، في ملاحقة الكمال.

مع ثــورة ١٩١٧ طلب اليونــانيون المقيمــون في ما وراء القــوقاز – أرمينيــا، جورجيا، أذربيجان – وكذلك في ايكاتيرينــوسلاف ونوفوسبيرسك، من الحكومة اليونانية أن تعيدهم إلى بلادهم، بسبب مطاردة البلاشفة والأكراد[1] لهم. ومعنى ذلك أن أولئك الفلاحين المتعوّدين على أراضٍ خصبــة، سوف يعيشون على أراضٍ غير خصبة في اليــونان، وفي ذلك مراهنة خطــرة. وأدرك كازنتزاكي فوراً فــداحة المشكلــة، ووافق فينيــزيلــوس على قــرارات مديــره الجديــد في وزارة الاسعــاف الاجتماعي.

ولا يتكلم كازنتزاكي بطيبة خاطر عن نفسه. وحتّى عندما ينتقل بنا الحوار إلى تلك الأعوام التي كــرّسها للعمل الاجتماعي، يتذكــر، بوجه خاص، التأثــر البالغ الذي استُقْبلتْ بــه اللجنة اليونانية لإعــادة اللاجئين في باكو وتفليــس وسوهوم واريفان والقسطنطينية ... نعــم، في القسطنطينية. إذ كانت اليونــان آنذاك لاتزال تعيش حلمهــا الكبير الذي عــاد يتحقق في زمن فينيزيلــوس: إنشاء دولــة تتمتع بالحكم الذاتي على «الجسر» ويكون الهدف منها تــوطين اليونانيين القادمين من القوقاز «هؤلاء الحراس الرائعين للتخوم اليونانية».

---

(١) شاهد كازنتزاكي يونانيين مقيّدين مثل الدواب من قبل الاكراد.

ومن أصدقائه الذين ساعدوه على إنجاز مهمّته، هناك ثلاثة انتقلوا إلى الضفة الأخرى، وهم هيرقليس بوليمارخاكي، العملاق الكريتي، الذي كان يشغل رتبة مقدّم (في مجال العدالة العسكرية)، وجان ستافريداكي، وجورج زوربا. ومازال على قيد الحياة جان انغيلاكي الذي سيدخل عتبة التسعينات قريباً، وجان كونستانتاراكي، زميل نيكوس كازنتزاكي أيام الدراسة ومدير بنك بارز في أثينا. ويتفق الاثنان على القول بأن كلّ شيء قد سار وفق الخطط التي وضعها كازنتزاكي. وأنّ مهمتهم دامت حوالي سنة ونصف السنة، وقد أسعفوا آلاف اليونانيين، وأعدّوا مستشفيات، وتم نقل الراغبين في مغادرة روسيا بنظام كامل – حيوانات، آلات، بشر، تم نقلهم على متن بواخر يونانية ...

غير أنّ فينيزيلوس أُجبر على الاستقالة، وقد تألم، لذلك، كلّ اللاجئين الموظفّين في ثيساليا الغربية ومقدونيا، ودفعوا ثمناً باهظاً ...

فهل هذا هو السبب الذي جعل كازنتزاكي يتحاشى الموضوع؟ ... وكان يمكن اعتباره لامبالياً ومترفعاً عندما التجأ مجدّداً إلى عزلته. غير أنّ الرجل الذي يسجّل في دفاتره «حتّى لا ينسى» طيبة سيكليانوس الذي ينهض فجراً كي يوقظه، كما يسجل ترقرق دمعة في ساعة وداع، أو بقعة حمراء على كتف امرأة يغازلها، أو حركة طفلة تقدّم له باقة زهور برّية، هذا الرجل الذي يعتبر النسيان بمثابة خطيئة مميتة ومهرباً للجبناء، كان يدوّن عذاب العالم: ظلم وراء ظلم، جريمة وراء جريمة، انتصارات نادرة، هزائم شخصية، كلها تنطبع في دماغه ولاشيء يمّحي.

من ستافريداكي الذي حصده الموت في زهرة شبابه، إلى فارفارانيكولايفينا التفليسّيه، ذات العينين السوداوين الواسعتين على شكل زورق صغير، التي تجرّأت على مطالبته بهجر كل شيء من أجلها، وزيّنَتْ مكتبه، يوم الرحيل، بورود حمراء، لا أشكّ في أنه حملها معه كما لو كانا لوحة زيتية رسمها غوستاف مورو. هو، بعيد، وهما متجاوران، يمدّان إليه يداً، أحدهما أسمر مثل خبز طفولتهما، والأخرى مجبولة من صدف ولؤلؤ، غريبة متلاشية، وغمامة شعرها الطويل،

السوداء طائرة في الريح، ضائعة إلى الأبد، مبتعدة عنه إلى الأبد.

وهذا الصدر الذي يختزن كلّ انفعال، كثيراً ما أوشك على الانفجار بسبب ثراء الذكرى. ومع ذلك فإن رجل الآداب، الذي يكره الأدب، لم يكن ليفتح المغلق إلا إذا توضحت رؤاه من دون إنهاك، وتخلّصت من كلّ مادة معرقلة، تجعلها غير نفّاذة. كثيراً ما يُقارن بفكتور هيغو. لكنه أقرب إلى هوميروس. وعندما ينجز لوحاته بضربات هائلة من الفرشاة يصير أقرب إلى بيكاسو غرنيكا، أو أحد رجال الكهوف.

لقد تضاءل تدريجياً تعلقه ببناء الكلمات حتى وإن شابهت الكاتدرائيات. ولم يعد يثق إلا بـ «الكلمة» المشغولة والناضجة في أعماق ذاته، مروراً بإنبيق القلب والصُّلب.

وغالباً ما تحزنني رؤية أعمال جيدة يلقى بها في سلة المهملات، فأسأله:

– لماذا تعمد إلى التمزيق مرّة أخرى؟

– لقد أفرط الدّماغ في إملائها، يا لينوتشكا، ولم تأتِ من صُلبي بعد.

لذلك لم يظهر عمله «المسيح بعد الصّلب» إلا بعد عشرين عاماً. إنّ بوب (أي الكاهن الأرثوذكسي) غريغوريس – «الآكل وحده» واللاجئين المصلوبين والبوب فوتيس العادل، ومانوليس الثائر الملهم ورفاقه من الحواريين المبشرين، ليسوا حقيقيين، لكنهم صاروا كذلك. وتجمع الصحافة الأجنبية على اعتبار هذا العمل رائعة فنية. ويعلن ألبير شويتزر أنه لم يقرأ شيئاً مؤثراً أكثر منه. وهللت له الكنيستان المسيحيّتان الشقيقتان، الكاثوليكية والاصلاحية (البروتستانتية)، بل وأوصَتا بقراءته. وحدها الشقيقة الثالثة، أي الكنيسية الأرثوذكسية اليونانية[1] اتهمت الكتاب بالتجديف. بل إنها جهّزت عقوبة الحرمان الكنسي وإعلان الحكم. غير أنّ التدخل السرّي للأميرة ماري بونابرت أنقذ الكنيسة والحكومة اليونانية

(١) باستثناء بطريارك القسطنطينية الذي ذهب به الأمر إلى نُصح كنيسية كريت بدفن كازنتزاكي وفق الطقوس الارثوذكسية.

من ذلك الخطأ.

١٩٢٠. بعد استراحة قصيرة في أثينا، التجأ كازنتزاكي إلى جبل البرناس، وأقام في أحد أديرة دلفي، ثم كريت، حيث أقام أيضاً في أحد الأديرة. وهناك عاد إلى كتابة مسرحية «هرقل» التي أنهاها ثم أرسل بها إلى مجلة كريتيّة.

ويسجل في دفتره:

٢١ أغسطس ١٩٢٠. غالباً ما أذهب إلى بيتنا الريفي لرؤية أهلي، أمّي ملفوحة بالشمس، مشرقة، عنيدة، سليمة. ووالدي، مسودّ تماماً، صامت، متقلب، فظ، يراقب العمال الذين يجنون العنب. أنظر إليه منصرفاً إلى مهمته واقول في نفسي: كم يشبهني من حيث المجابهة والعناد والتفانّي! ومع ذلك ما أبعد أحدنا عن الآخر! ويكفي أن يتحول العنب إلى رقصة نساء في فييّنا، أو بيت صغير للتنسّك حتّى انكبّ على مهمّتي بالحماسة ذاتها.

٢٩ أغسطس ١٩٢٠ [دير] فروندیسي. صلاة الستار (العصر). يدخل النسيم من النافذة المفتوحة إلى الكنيسية، ويقلب صفحات كتاب المزامير الموضوع على المِقْرَأ. في السماء، أمام الموقد، يمسك لي حامل المصابيح قنديل الزيت كي يضيء لي أثناء تسجيلي بعض الملاحظات حول «هرقل».

١٩٢١ . لم يعد إلى أثينا إلا من أجل الاستقالة، وكان ذلك أيضاً شأن وزارة فينيزيلوس، يوم ٦ فبراير ١٩٢١. وسوف يسافر إلى باريس، وألمانيا، ثم إلى البندقية، ليعود مرة أخرى إلى بيته الذي لم تعد ناره تدفئه، فيرتحل صحبة كوستا اسفاكياناكي إلى كيفسيا، في سهل أتيكا، تحت ظلال الصنوبر. وهناك يتفرغ للعمل وللمحاورات المثمرة، وزيارات سيكليانوس، والنزهات الطويلة المعطّرة بالمصطكا، والزعتر البرّي والقُوَيصة. وذلك التراب الخفيف الذي ترفعه الريح في غيمة شفافة وعطرة، مناسب للتأمل. كان يمكن للمسيح أن يولد في أتيكا. وهو في ذهن كازنتزاكي على الأقل، يعود إلى العالم ويُصلب من جديد ويبعث في «المسيح» أي المسرحية الشعرية التي كتبها كازنتزاكي في كيفيسيا، صيف ١٩٢١.

وخلال ذلك العام البعيد اخترق كازنتزاكي الذي بلغ ٣٧ عاماً، طاقاته ودوّن

محاورة، جرت في كريت، بينه وبين مانــوليس جيورجياديس، يوم ١٨ أغسطس ١٩٢١:

لا أستهدف الفنّ للفـنّ، بل أريد إيجاد معنى جـديد للحياة والتعبير عنــه. ومن أجل بلوغــه هناك ثلاثة دروب : ١) درب المسيح: متعذّر البلــوغ. ٢) درب القديس بــولس (مـزج الفنّ بالفعل: رســائل شعــرية تَقَــوِيّــة)، لكننا نحتــاج إلى مسيح. ٣) درب الفنّ والفلسفة (تــولستوي، نيتشه). سلكت الــدرب الثالث ولهذا فإن كلّ ما أكتبــه لن يكون كاملاً من زاوية الفنّ، لأنّ نيّتي تتجاوز حدود الفن.

غير أنني أشعر بمزيد من الراحة ... عبر الكتابة، وأدرك جيداً أنَّ ذلك غير كافٍ البتة. ومن أجل بلوغ هدفي يتوجب عليّ أن أقوم بوثبــة. وبعد إنجاز هذه الوثبة – ولا يمكن أن تكون وثبة فنّ، بل هي وثبة حياة – ســوف أتوصل إلى تعبير عن روحي، قد يكون فعلاً وتبشيراً، وليس أدباً.

فهل أكون قــادراً دائماً على تلك الوثبة؟ إنــه لأمر شبه مستحيل. وهنــا تكمن مأساة حياتي.

ولدى وصوله، ذات مرّة، بغتةً، إلى أهله، كتب :

كانت أمّي تستعد للذهاب إلى صلاة العصر. وعندما دخل والدي ورآني فجاة، اضطّر إلى الاستناد على الباب. كان عاجزاً عن الكلام من شدة التاثر.

وبرفقة لفتيريس، عاد كازنتزاكي إلى نزهاته الطويلة :

«صرت أتردد على زيارة أهلي، وكرومنا ...» كما دوّن في دفتره، ليضيف :

٢٢ أغسطس. انفصــال مـؤلم عن والــديّ. لأول مـرة يقبلني والــدي على جبيني. أما والدتي فقد رافقتني حتى الدرب المغبّر. مرارة لا تطاق. أفضل للمرء ألا يولد.

١٩٢٢–١٩٢٣ لم تترك زوجــة كازنتــزاكي الأولى من رســائلــه إليها ســوى ثمانين رســالــة تغطّي بضعة أشهــر من العامين ١٩٢٢ و ١٩٢٣ . ومــا سبق لنا إدراكــه، يتضح جليّــاً من تلك المراســلات : أنَّ كازنتــزاكي مــازال يحبّ زوجتــه ويُعجب بأفكارها اليســارية وأن الحياة الزوجية صــارت مستحيلة، وأنَّ زوجته

كانت تسوق كل أنواع المبرّرات كي لا تسهر على مرضه في فيينّا برغم دعوته إياها بإلحاح.

وقبل أن يغادر اليونان، مرة أخرى، أراد ترتيب وضعه المالي. وبالنظر إلى نجاح كتبه المدرسية الخمسة، فقد اقترح على أحد الناشرين سلسلة كتب تاريخ للمدارس الابتدائية. ووافق الناشر. ونستنتج من مراسلاته أنه ألّف تلك الكتب، بل وأرسلها بالبريد طيّ مظاريف مسجّلة. غير أن زوجته أكّدت أنها لم تتسلم تلك الكتب قطعاً. وهكذا ضاع جهد آخر كبير ومضنٍ، بسبب مصير أعمى.

من ١٩ مايو إلى ١٩ أغسطس، أقام كازنتزاكي في فيينّا. وهناك كتب رواية «عام من العزلة»[١] والصياغة الأولية لكتاب «بوذا» الذي عاد إلى صياغته وإعادة صياغته لمدة أعوام كثيرة.

النساء في فيينّا جميلات جداً. وكان بوذا يحثّه على إنكار الجسد من جهة، بينما تجرّه إلى المتعة، من جهة أخرى، تلك الحفلات، والشوارع، والمقاهي، والمكتبات، والمتاحف، والنظرات الزّلِقَة والمداعِبة. ومن باب المصادفة أو بسبب جموح الروح، كما فسّر له الدكتور شتيكل، تلميذ فرويد، غطت وجهه فجأة حساسية جلدية ومنعت عليه الاقتراب. وها هو عاشق الجمال والمشمئز من المرض، سجينا خلف قناع شنيع. وهكذا ظلّ وحيداً، مرتبكاً عاجزاً – وهذا ما لاحظته ألف مرّة – عن قيس درجة حرارته بنفسه، أو اعداد مشروب ساخن أو ضمادة ... ولا يصرّح إلا بالحقيقة «العارية» عندما يخاطب زوجته :

فيينّا، السبت (١٩٢٢)[٢].

الآن، ومع تصوّرنا الجديد، لا تدركين مدى التاثر الذي يتركه في الناس تحت وطاة الجوع واليأس. ويا له من بؤس، يا إلهي، وكم ترى سيدوم؟ اليوم ذهبت لاقتناء جريدة، دخلتْ بُنَيّة في الرابعة عشرة تقريباً، كانت تحمل على كتفها كيساً كبيراً مملوءاً بالعلب. أردتُ مساعدتها على التخلص من حِمْلها الثقيل فلم استطع رفعه. ابتسمت

---

(١) أتلفها فيما بعد.

(٢) رسالة إلى زوجته.

الطفلة، غير أن جسدها كان معوجاً، وكتفاها منحنييْن، وساقاها هزيلتين مثل قصبتين.

وبالأمس كانت هناك امرأة جالسة على حافة الرصيف، متربعة، بينما يظهر جسمها عارياً حتى السرّة، تحت تنورة رمادية رثّة. كانت في منتهى الحزن والجوع والقنوط. إن الخجل هو بذخ الأغنياء. وهناك فهمتُ تلك «الأخت» المنتمية إلى ديانتنا الجديدة. أفضل للأرض أن تملك! وتتخلّص السماء من خزي الحياة الراهنة.

كنت أتأمل اللوحات الفنيـة، والتّحف المعروضة في الواجهـات. وكانت، حتى السنة الماضية، تبعث فيّ الفرح. أما الآن فقد بـتّ أدرك أنها ليست سوى أقنعة لإخفاء الحقيقة. أقنعة تخدع الجبنـاء. وأصيح في داخلي، وأنا أسير في شوارع المدينـة، : إلٰهي، متى تنزل مثل ريح صَرصَر، مثل ميغاس[1] التي تنزل من ذرى البرناس كي تطهّر الأرض؟

(فيينّا) ٢١ مايو ١٩٢٢[2].

.... أهوال فيينّا المنهارة لايمكن وصفها. لقد تم إعداد شرطة خاصة لمنع اليائسين من الإلقـاء بأنفسهم في الـدانـوب، ليـلاً. والكثيرون منهم يتمكنـون من مغـافلـة الشرطـة وينتحرون، ومنهم، بوجه خـاص، الأمهات مع اطفالهنّ. وفي الليل تتسكع آلاف النسوة كي «يقدّمن أجسادهن» طلباً للأكل. ايـروس (إلٰه الحب) جائع. ما من مرارة أفظع. أول أمس كان هناك اجتماع ضمّ ٨٠٠٠٠٠ شخص. لاشك أنّ هناك ثورة قادمة ...

فيينّا ٢٥ مايو[3]

... يا إلٰهي، كـم أفكّر فيكِ وكـــم تبـــدو لي حيـاتي مأسوية. أنا الآن، كما يقول بوذا، il sempore alzato ، الوقت دائماً، على أهبة الرحيل ...

فيينّا، يونيو ١٩٢٢[4].

عزيزتي،

لـو أنك فتحت باب غـرفتي ورأيتني لـرأفت بي من شـدة آلامي. أنا الآن متمـدّد على فراشي، وجهي مضمّد بكمادات أغيّرها كل نصف سـاعة. لا تستطيعين تصور مدى ألمي. وحيداً في الفنـدق، مع رعونة خرقـاء من شأنها أن تثير شفقتك، أضع الضمادات وأعالج

---

(١) ريح شمالية.

(٢) و(٣) و(٤) رسالة إلى زوجته.

نفسي بـالمضـادات الحيـوية الخ... لا أستطيـع الأكل ولا الخروج، لكنني أتقبل كلّ ذلك بصبر وهـدوء. ولا تثـور أعصـابي بـرغم اشمئـزازي من الأمـراض. لن أرسل لك بهذه الرسالـة إلا بعد شفائي التام، حتى لا تقلقي. أحزن فقـط لأنني أضعت فرصة الكشف، من نظرتك، إنك تحبّينني قليلاً. وفي عينيّ تترقق، هذه اللحظة، دمعة حمقاء. ربما لأنني مريض، ربما لأنني أحبك كثيراً.

فيينّا ١٢ يونيو ١٩٢٢[١]

عـزيزتي، اليـوم سأخـرج، إن شاء اللـه. ما أوسع فـرحتي بـالتنفس، ما أسعـدني بالشفاء، وبعـدم الحقد على أحد، وبوجـود هدف أمامي، وبالتـوتر مثل قوس! إلٰهي، كم تألمت، ولكن بهدوء، لأنني كنت أشعـر أن ذلك الألم ليس سوى مجرّد مـداعبة، مقـارنة بـالبـؤس الـلامتناهـي للعالم. لا ينبغـي لرؤيـة البـؤس الكبير أن تتـلاشى في آلامنـا البسيطة. هـذه الفكرة تـزوّدني بالصبر والتّروي. ارسلي لي ببعض الجرائد. لا أستطيع الانعزال عن اليونان، وعن احتضارها المريع.

(فيينّا) ١٨ يونيو (١٩٢٢)[٢]

.... تعالي! ... ولكن مع صديقاتك. وإلاّ فإنك سوف تضجرين معي ...

بوضوح في الرؤية ونقد ذاتي، يحلّل مزاجه ومزاجها :

(فيينّا) ٣ يوليو (١٩٢٢)[٣]

... ثم أقول في نفسي : إن رفقتي مملّة جداً، فكيف تستطيع غالاتي أن تتنفس بقربي؟ سوق تظل عيناهـا على أثينا ... وتثور أعصابها. وتغدو حياتنا لا تطـاق أكثر، كلّ يوم. وفي النهاية تفضل السفر، وعندئذ تعود شهادات الحبّ عن بعد. هو ذا موتنا.

ماذا يتـوجب عليّ أن أفعل؟ أأقول لك إنني مـريض، ماذا أجني مـن وراء ذلك؟ سوف تأتين وتتألمين معي، وتعالجينني، وعندما أشفى، نعود إلى الحكـاية الأبدية ... «يلقون بنا في الشارع»، البشر يثيرون اشمئزازك، «لا تحسّين بـأية فرحة»[٤] – ومع ذلك تبقين هناك. بسبب الجبن والتخاذل.

حيـاتي هنـا ليست عيـداً، البتـة. عندي هموم لا أحـدّثك عنهـا ... هل لـدينـا مبرّر

---

(١) (٢) و(٣) رسالة إلى زوجته.

(٤) أقوال منتقاة من رسائل غالاتي، إليه.

للانتحار، وتبـديد كل الأعوام التي تبقت لنا كي نعيشهـا؟ أشكُّ في ذلك ... قد لا تصدقّين ذلك. لكن، لو أنني فقدت ذلك الأمل لقتلت نفسي مؤخراً. أعمل منـذ الرابعة صباحاً لأنني لا أستطيع النوم. والصفـاء الذي أتمتع به يحول دون ركضي وراء الأوهـام. لقد تجاوز فكـري وقلبي تلك الحدود المسموح بها، منـذ وقت طويـل. أقول ذلك بكلّ بسـاطة لأنـه صادق.

هل هي مصادفة؟ لقد تحققت توقعات الدكتور شتيكل : اختفى القناع الشنيع ذو الطـابع الجنسي – حسب وصف المحلّل النفسـاني – من وجـه نيكـوس كازنتزاكي، حال مغادرته فيينّا.

نعرف الحال التي كان عليهـا نيكوس كازنتزاكي عندمـا بلغ برلين في خريف ١٩٢٢ : فيينّا، بوذا، النساء الفاتنات جداً، قناع الجنس ... أما دمه العربي – ومن فرط ما كـرّر ذلك لنفسه، اقتنع به – فلم يكن ليتطابق دائماً مع متطلبـات الزهد البيزنطي الصارمة في علاقتها الوثيقة بصرامة العقل الهيليني.

فيما بعد حـدّثني عن «يهودياتـه» وجعلني أحبّهن كلهن : راحيل، إلسـا، ليّا، إيتكا ... كان ياما كان، لم يكن ومع ذلك كان ... حكاية جديدة تبدأ :

مقتطفات من يومياته خلال العامين ١٩٢٢-١٩٢٣.

١-١٠-١٩٢٢ . مـؤتمر المصلحين الـراديكـاليين للتعليـم. ذهبنـا إليـه مع دانييليديس[1] ،حشـد من الشبـاب، من معلّمي المدارس، في ثياب تشبـه ثيـاب العمّال. وثمة عمـلاق أشقر في العشرين من عمره انكـبّ على الأكل قبل أخذ الكلمة. وهنـاك امرأة شاحبة، عرجـاء، بهية الطلعة مثل غالاتي. وأخرى، شقراء، بشعـة، تكلمت بانفعال ثم عادت إلى مكانها وطفقت تلتهم حبة نقانق.

٢-١٠-١٩٢٢ . ذهبت مرة أخرى إلى المؤتمر. عنـدما التفتّ، رأيت فتاة ترتـدي بدلة حريريـة صفراء برتقاليـة، ومن دون أن أنظر إلى وجهها، وقد «سحـرني» اللون، دَنَوْتُ منها ... وبدأت أكلمها : «هل أنتِ يهودية؟ – نعم.» عينـاي شرقيتان رائعتان ... «وأنتَ؟

(١) ديموستين دانييليديس، عـالم اجتماع، ورجل ذو ثقافة عالية، كان يقـود حركة شبابية «يونـانية جديدة» في ألمانيا.

- عربي. - وهـذا الخاتم؟ - خاتم سحـري». وضحكنا. وفي النهايـة قلتُ لها : «أريد أن أهديك كتاباً، وبي فضول لمعرفة أيّ كتاب ستختارين. - إذن ليس لإرضائي بل لإرضاء «نفسك». - طبعاً، بأنانيّة».

اختارت بعض الكتب التعليمية. وقالت : «أنا شـاعرة. وسوف أهديك، بدوري، أحد كتبي».

في الطـريق تحادثنا بـودّ. وكـان يوم عيـد يهودي[1] Verso'hnungstag ويتوجب عليها الصوم كامل النهـار. قلت لها «لو سمحت، اقترفي خطيئة من أجلي، ولتكن الأخيرة، أو بصورة أفضل، لتكن الأولى. تعالي لتناول العشاء معي».

رفضت. ثم قبلت ...

أثناء تجوالنا حدثتها عن الإله، الإله خارجنا، ثقيل، أرعن، كسول. أما نحن (أي الإله الأكثـر تقدّمـاً والأكثر حـريـة) فنسهر ولا نـدعـه ينحطّ. ونكلّمه كما يخاطب الجنـود قـائدهم. نقول : - عليك أن تفعـل هذا : عنـدمـا يجزر البحر (ينسحب)، لا يتبقى مـاء للنـوارس والأسماك والسرطـانـات، فعليك أن تعيـد خلق البحـر. أنـا أصلّي، وعليك أن تنصت. و إذا لم تكن لك أذنان، عليك أن تخلق واحدة على يسار رأسك وأخرى على يمينه.

قرَأتْ لي بعض قصائدها، جميلة جداً. مزامير، أوامر للإله. وأنشدتْ «نشيد الإنشاد». يا لعذوبة الإيقاع! كأنه مزيج من الأسبانية والعربية ...

فـرح، في الشارع كـانت تقفـز وتحتضنني صارخـة. شعرهـا ذو زرقـة ضاربـة في السواد، أنفها معقـوف قليلاً، وبشرتها مبرقشة بالنمش. أنشَدتْ إحـدى قصائدها : «كلّ ليلة من لياليّ نافذة مفتوحة يطلّ منها، دائماً، رجلٌ آخر، على أحلامي».

شيء لا يغتفر! كان بوسعي مجالسة أية فتـاة أخرى. ومن شأن حاجز الجسدين أن يتحطم بالطريقة نفسهـا ويحدث التّعارف بين الشقيقين. حقاً لبضع لحظات (الجنس ليس هدفاً بل وسيلة)، تنكسر الأغلال وتتحـرّر الأرواح، ولا نشعر أنّ الرجل والمرأة كانا شخصاً واحداً، كما قـال افلاطون، فقط، بل، وكذلك كلّ الأرواح، والـرجال والنساء، وكلّ الحيوانـات، كانوا يشكلـون كائناً واحـداً في الماضي... إنّ الحب (أي عبد الجسد) يـوحّد الكائنات. يا لها من فرحة، يا لها من نشوة منذ اللحظة الأولى! الأجساد تنفجر، وشهوتها

---

(١) يوم كيبور، أو يوم الغفران.

تخفّ، والروح تثب فوق الرصيف بين البشر المكتئبين، المعرقلين، الأغبياء، الغارقين في جحيم عدم التمييز.

ليت الإنسان يستطيع المحافظة على تلك النشوة، بلا صراخ أو وثوب ديونيسي، بل بهدوء وانضباط وثبات! وهكذا كانت الشخصيات المغناطيسية. لماذا يجذب المسيح الناس؟ لأن جسده انفتح، وروحه انحنت على كلّ الأجساد البشرية، كمن يمسك بالمفاتيح، ساعياً إلى فتحها بحزم ولطف.

الروح قادرة حتّى على ترويض الدواب. ومن يعلم بما يخفيه الحبّ؟

٣-١٠-١٩٢٢ . في الغد قصدت المؤتمر متأخراً ساعتين. لم أشاهد البدلة البرتقالية. حزن. وفجأة أحسست بعينين تراقبانني على يميني. التفتّ ورأيتها تبتسم لي، وجهها يلمع مثل المرمر في الشمس. كانت تضع شالاً بائساً بلون الزيت المحروق.

تملّكني فجأة شعور بالنّدم من نشوة البارحة، الديونيسية. لم أعد أحس بأي اندفاع نحو ذلك الكائن الذي يلمع بالتأثر. ولم ألتفت مرة أخرى، لرؤيتها. عند ذهابها أعطتني كتابها الشعري الصغير، كانت تضحك، وتمدّد اتحاد الأمس. لكنني متعجّل للذهاب. لاحت غريبة، تماماً، ولامبالية، بالنسبة لي. ولثانية واحدة، عندما انحنيتُ رأيت عينيها تمعنان النظر فيّ – مرتبكتين، يشوبهما ذعر خفيف. انقبض جسدها ... وها أنّ موجة رأفة تهزّني :

– ما هو الـ weltanschauung بالنسبة إليك؟ سألتها وأمسكتُ بها كما العادة، من ظهرها، وعصرت كتفيها الهزيلين.

– Bruder, zerstoren die welt! (أيها الأخ، تخريب العالم!) Bruder, der Hoss! (أيها الأخ الحقد!)

– يا أختي، أجبتها، يا رفيقة الكفاح، ما الحقد في الحقيقة، إلاّ الأب القاسي للحبّ. الحقد هو البداية الحزينة والبشعة، التي تفتح وتهيّىء طريق الحب ...

– إنك تسمو بفكري، وتطهّر قلبي، أيها المجهول! كيف جئت هكذا من الشرق ووجدتني؟ آه، كم تجْلي الأفق، وكم تتوسع روحي.

– أفكّر في كتابة «مأدبة»، قلت، نكون فيها المدعوّيْن الوحيديْن، أنا وأنتِ يا راحيل. نحن، أي الكون. الرجل والمرأة، الزوج الإلٰهي. وسوف نتحدّث عن الحبّ، والحقد،

والإلــه، والحرب، ونحن نحتسي، بهدوء، خمراً مقـدسـة تملأ جسـدينـا المجبـولين من صلصال.

– نستطيع معاً تقويض العالم و إعادة بنائه!

ثم ضحكت وأمسكت بذراعي. وطفقت تنشد بصوت خافت، وباللغة العبرية، «نشيد الإنشــاد». وفي الشارع الصــاخب، بين المنازل العــالية والبشعــة، وفي بهو المترو، كنتُ أنصت إلى النشيد العبراني. إنَّها الكنيسة، زوجة الإله، تخاطب سيّدها.

٦ أكتوبر ١٩٢٢ . جلسنــا في المساء في دكّان حلويات روسيــة. حدّثتني عن التّلمود، وعن وطنها البعيد.

قلت لها :

– ألج حياتك وروحك كما ألج غابــة. خوف خفيف. وأبسط ضجّة تتضخّم. الكلمات تصير مثل القنابل، قـوى مريعة، مختبئـة. ونحن نحرّرها. كلمات: خبز ، إلــه، سمكة، حجر، بحر، تنفجر في قلبينا ... أشعر بـرأسي كالفُلْك. عندما تمطر أو تثلج، وأنا أتجوّل حاسر الرأس، في الجبل أو على شاطىء البحر، أشعــر بأن العالم كله قد غرق، وأن لعنة الإله قد حلّتْ. و إذا هو الفيضــان حتى العنق، بالنسبة لي. غير أن رأسي يطفو على سطح المياه، مملوءاً بكلّ بذارات الخير والشرّ ...

امتلأت عيناها دموعاً. شدت يدي وقبّلتها.

– كم انتظرتك!

وكتب كازنتــزاكي يقول عنها أيضاً في دفتره، إنها قالــت سوف تعود، غير أن مانعاً طارئاً في آخــر لحظة، جعلها تعتذر. فاغتاظ هنيهــة وفكّر في عدم العودة إلى رؤيتها أبداً. وكتب في دفتره :

يا للانعتــاق من مرارات وخيبات قادمة. لقـد قادني صوت، ربّما كان قــادماً من لدن الإله.

وكتب إليها بأسلوب التوراة المزخرف دائماً :

انظــر، إلهي، إلى هذه الفتــاة الفاتنــة راحيل. جبينها يقـدح شرراً مثل فكرة جليلــة،

عيناها عذبتان ومتوحشتان كعيني لبؤة مقدسة تحرس العابد. قلبها مجبول من لحم ودمع وكبرياء. ويداها الرقيقتان، يا إلهي، تمسكان بعالمك العظيم فوق الهاوية.

١٦-١٧-١٨ أكتوبر ١٩٢٢ . قلت لها : أنتِ يهودية، روح كاسرة، سبينوزا شايلوك - تريدين الانقضاض على كلّ معارفي، وعندما لا يتبقّى لديّ ما أعطيك إيّاه، سوف تهجرينني.

تحدّثنا عن تأثير الشهوات الشبقية في الروح. قلت لها : «ليس هناك سوى طريقين للأرواح الباسلة : إمّا أن نفترق في هذه اللحظة وإلى الأبد، وإمّا ألاّ نفترق أبداً. ومن جانبي سوف أستثمر أي قرار تتخذينه. الآن اكتب مؤلّفاً عن بوذا. فإذا توحّدنا جسديّاً سوف أحس بكل مرارة الأجساد الباحثة عن الوحدة المطلقة من دون أن تتوصل إليها، وأدرك حدود اللذّة، ويغدو عملي مرّاً بسبب عبثية كلّ الجهود. وإذا بقينا صديقين فقط، سوف أقهر الرغبة في داخلي، كلّ لحظة، وأحسّ بحدود كلّ سعادة ويصير عملي عميقاً مثل حلم. أمّا إذا افترقنا فإنّ هذه الحياة كلها سوف تكتسي بمرارة لا تطاق، ويتأمل بوذا مرتجفاً مشهد الحياة الرّديء. ومثل النحلة سوف أصنع عسلي من كلّ شيء. أنتِ حرّة تماماً، اختاري الدّرب الذي تريدين، وأنا سوف أثمر دائماً. لن أنسى أبداً فرحتها بهذه الحرّية التي وهبتها إياها.

١٥ نوفمبر ١٩٢٢ . قالت يائسة، إنّها لن تغادرني مرة أخرى أبداً، لأنها لن تنجح في نهْبي نهْباً كاملاً.

١٩ نوفمبر. قالت لي لو اكتشفت أمّها أنّها معي، لماتت كمداً ...

تلك هي الحيلة الجميلة التي استخدمها «يهوه» متنكّراً في إهاب فتاة رقيقة، جميلة ونابضة، وشاعرة ذات رؤيا فوق ذلك، كي يمسك بالكريتي ويمكّنه من كشف بعض ألغاز التوراة. التوراة التي يعرفها جيداً بسبب إعجابه بالشريعة اليهودية، هو القائل في شبابه «إنّ اليهود ملح الأرض!». وعندما كان طفلاً حصل على موافقة والده كي يدخل «الغيتو» ويعلّمه السيد الحاخام اللغة العبرية.

مرّت الأعوام، وعادت الفتاة إلى بلادها، واعتُقلتْ. ولم ننجح في استقدامها إلى اليونان، ثم تزوجت وأنجبت طفلاً ... وفاجأتها الحرب وهي في باريس، فانكبّت

على إنقاذ أطفـال جنسها. وتخلت عن الشيـوعية، ولم تعد تبشّر بـالحقد. غير أنَّ الشاعـر أراد أن يخلّد منها صـورة الشعلة الأولى. وهكـذا في «الأوديسية» كما في «تودا-رابا»، نجد «رالا» ذات البدلـة البرتقالية، تضحّي بكلّ شيء من أجل مثلها الأعلى الثـوري، مفضلـة الموت على التـواطـؤ مع اشتراكيـة أدى بها الـوهن إلى أوضاعها الراهنة.

وتدور عجلة الأقدار بسرعة. وفي حين يبزغ في الاتحاد السوفياتي، عالم جديد ويولد في الدمـاء والحرمان، يتلاشى في آسيا الصغرى عالم قـديم يعود إلى ثلاثة آلاف سنة، أيونيا المزدهرة والكنيسة المسيحية الأولى، مع ما عصف بذلك التلاشي من حرائق ومجازر. وكـانت الحرب العالميـة الأولى قد بلغت نهايتها إلاّ بـالنسبة لليونانيين الذين ظلّوا يقاتلون منذ ١٩١٢. ونظراً لانجرارهم الطائش وراء تفاؤل السيد لويد جورج والوعود الخُـلّبية للحكومة الفرنسية، وبدل التوقف عند ازمير اليونـانية، والقسطنطينيـة، فقد تقـدّم اليونانيـون نحو سـانغاريـوس وأنقرة. وحصل ما حصل. وتغيّرت المواقف السيـاسية والاقتصادية لحلفـائنا حتّى قبل إدراك الملك قسطنطين وقيادته. وتمكّن كمال أتاتورك، وقد سلّحه هذه المرة نفس الـذين دفعوا بـه إلى تحويل حـرب تحريـرنا إلى حـرب غـزو، من كَنْس الجيش اليونـاني ورميه في البحر. وكـان هناك، مع ذلك الجيش، مليـون ونصف مليون مستـوطن يونـاني، ظلّوا يلعنـوننـا محقّين. وهكذا انضمّ إلى الملايين الستّـة من اليونـانيين المصابين بـداء السلّ وسوء التغذيـة، والخارجين لتوّهم من عبـودية أربعة قرون، مليـون ونصف مليون من لاجئي آسيا الصغرى، بعـد أن حالفهم الحظ في النجاة من الأهوال التي مارسها أتبـاع حرب «تركيا – الفتاة»، إلى جانب ما يناهز مئتي الف أرمني، وفلول جيش فرانغيل ...

ولقد حـدّثتنا السيدة هـ.بوارييه، كشاهـدة عيان، عن مأساة ١٩٢٢، في عدة منـاسبـات. كـانت النيران التي التهمت أيّـونيـا تعـود إلى الاشتعـال في عينيهـا السوداوين، وهي تخبرنا :

«تزوجت فرنسياً، كما تعلمون، ولم أشأ مغادرة «بُروسّا». غير أنَّ الفرنسيين جلبوني بالقوّة على متن سفينة حربية. وأعطوني مسدّساً :

– هل تجيدين استخدامه؟

– نعم !

– اطلِقي الرصاص عليهم إذاً !

– أيها الكلاب، أنا يونانية ومسيحية! هل تريدون مِنِّي أنْ أقتل إخوتي؟ ارحموهم! توسّلتُ إليهم مقبّلة أقدامهم. لكنّهم لم يستمعوا إليّ. كانوا يطلقون الرصاص عليهم ... ويحرقون بعضهم ... كان خليج إزمير يعجّ بالجثث ... عندئذٍ فقدت رشدي وطلبت من اللّه أن يعاملهم بالمثل....».

لقد أثرت مأساة آسيا الصغرى، والأجواء الملتهبة، بشكل خاص، في كلّ من فيينّا وبرلين، تأثيراً عميقاً في روح نيكوس كازنتزاكي وأعماله.

وإذا كان المصلحون الجذريّون الكبار للتعليم، مثل كافيرو، وهيلكر، قد نادوا، في مؤتمر برلين، بإصلاح التعليم في المدارس، فإنّ هدفهم الأبعد كان تحقيق الإصلاح الشامل للمجتمع كله. أمّا نيكوس كازنتزاكي الذي كان يكره أنصاف الحلول، فقد هاجم جذور الشرّ :

لا ينبغي البدء من المدرسة، بل من أسس المجتمع نفسه الذي لا ينبثق من المدرسة. ومن أجل مساعدة المجتمع على التقدّم، لابدّ من العزم على قطع جذوره المتعفّنة، وتحرير الناس من العراقيل التي تمنعهم من النموّ.

وهكذا وصل كتاب «الزهد» – وقد بدأه كازنتزاكي في فيينّا، متحدّثاً فيه عن عقيدته – إلى صيغته النهائية في برلين. ولن يضيف عليه سوى فصل واحد، هو الفصل الأخير، وعنوانه «الصمت»، وكان قد حرّره بعد بضعة أعوام، أثناء رحلة إلى سيبيريا.

ولم يكن راضياً عن «بوذا» أيضاً. فقد مزّق ثلاثة آلاف بيت، وأعاد الكتابة كلها بالنثر الإيقاعي. كان يريده أكثر بساطة وقناعة، ويريده «افريقيّاً» أكثر.

وتغيّرت روحه أيضاً. فلم يعد ينتظر كثيراً العثور «عمّن» يبحث عنه، ويكتشفه. يا للأسف! لكنه سوف يتقدّم دائماً، كما لو أنّ أمله لم ينقطع. ليزداد

شعوره بالعزلة.

وفي الوقت الذي أطلق فيه انجيلوس سكليانوس نداء دلفي، آملاً أن يتولّى أبولون، صديق اليونان، إكمال المعجزة، تعرّف كازنتزاكي، وراء القناع العمّالي لدى لينين، على منقذ البشرية القادم. وهكذا لن تكون دلفي سرّة العالم ابداً. ذلك الـ بيثيا[1] الجديدة تستقرّ الآن في الشمال، في عاصمة حمراء ذات أسوار مسنّنة، قرب كاتدرائية مجنونة ذات عمامات عديدة ملوّنة.

ولأنّ كازنتزاكي يحبّ سكليانوس ففي ذلك سبب إضافي كي يخاطبه بقلب مفتوح :

... أفكّر فيك، أنا أيضاً، وأعيش في ترقّب حماسي، منتظراً أصداء نجاحك.

ومع ذلك فقد افترق درْبانا. ولا يعود ذلك إلى حذرك، في لحظة صعبة، من نزاهة حكمي، ولا إلى كونك نسيت قناعاتنا وعدت إلى سلوك الطريق القديم ... بل لأنني أشعر أن إلٰهي يغوص أكثر فأكثر، في الصحراء ويريد تجاوز المعركة الأخيرة، الأمل[2].

ولن تمحي أيام برلين من ذاكرة كازنتزاكي أبداً. ونظراً لانغماسه في الأوساط الثورية، لن يقترب من «الألمان الآريين»، واجداً فيهم، الإنسان المعذب أبديّاً.

وتعرّف، بتوسط د. دانييليديس، على مجموعة من الشباب اليوناني، وبات يأمل في نهوض بلاده وتجددها، لبضعة أعوام. وبفضل «راحيل» لمس بأصابعه جوهر الشغف اليهودي. وكانت لفنون الرسم، والأدب، والمسرح، والموسيقى، نساء يجسّدْنَها، من أجل الاشتعال معاً في مواجهة الظلم المستفحل في العالم.

التعاليم اليهودية، وخاصة دروس الحاخام نخمان، وفروبنيوس مع «ديكاميرونه الأسود»، وراحيل التي كانت تزيّن ركبتها، وهي طفلة، كي تلعب معها مثل دمية، وإيتكا التي لم تكن تملك شيئاً للذهاب إلى حفلة، فباعت جديلتيْها، ثم لِيّا، وروزا، ودينا ... والسا تلك المرأة الجميلة الصامتة في إيينا،

(١) عرافة تجترح المعجزات باسم الإلٰه أبولون في معبد دلفي. (المترجم)

(٢) رسالة نسخها نيكوس كازنتزاكي على دفتره.

والتي جاءت بـالمفاتيح الذهبيـة .. كيف ينفصل عن كلّ هؤلاء كي يذهب لمقـابلة زوربا في صربيا؟

وكما هو شأن الكثير من رسـائل كازنتزاكي، فقـد ضاعت أيضاً رسـائله إلى زوربا. لكنْ، بحـوزتنا رسائل زوربا، وإنها لفرحـة كبرى أن نستطيع العودة إلى قراءتها.

وها هي ذي بعض المقتطفات :

نيش، صربيا، ١٧ يوليو ١٩٢٢[(١)]

... تلقيت رسالتك الأخيرة ووجـدت أنك تفرط في مدحي، لا تسخر من فكـرة امتلاكنا قيمة أخرى، وبحثنا عن شيء أفضل من الآخـرين؟ من جهتي، كل الذين عرفتهم، رأيتهم يقتصرون على المال وحـده، وعنـدمـاينجحون في الحصـول على المال يتـوقفـون فـوراً، يتفادون الأصـدقاء، يبحثون عن مَهـر. يتزوجون، يعيشون رتـابة الحياة الـزوجية، تقودهم امرأة – طيبة أو سيئة – ولا شيء أكثر. وأنا لا أصنّفك ضمن هذا النوع، أنا فقط، – لأنني لم أتزوج إلا مـن باب المزاح. السيّدة زوجتي تـوفّيت، وحسناً فعلتْ، ومـازلت أضحك على أصدقائي الذين أشفقوا على مصيري آنـذاك ... الآن لديّ أطفال. وأنتَ الوحيد الذي تـدرك فكرتي عن أطفـالي، لا يحرّكون فيَّ شعـرة، ولا يمسّونني أو يـؤثرون فيَّ، ولا يبهـرونني ... أحبهم مثل اصدقـائي، وإذا اعطيت عشر دراخمات إلى واحد من ابنـائي، أفرح كما لو أعطيتها إلى شخص آخر، وأشعر بالدرجة نفسها من الفرح.

ليس لي أمل في أي واحـد من أولادي، لأنني أرفض أن يكـون لي ذلك. أعتبر أنَّ تبعيـة المسنّ للشاب أمر خطير جداً، أي أنني أعتبر من البائسين كلّ أولئك المسنّين المضطرين إلى السكن مع كنّتهم، أو مع صهـرهم، مهما كـانت طيّبة، ومهما كـان طيّباً ... لأن العجـوز المسكين لم يحبّ، بل الابن هو الذي أحب الكنّة، والابنة هي التي أحبّت الصهر ...

لابأس! هذا كله تدركه أفضل منّي .. أنـا الآن لا أخشى الإله، لا أخشاه مطلقاً، مطلقاً. ربما يعود ذلك إلى أنني نفذّتُ تعاليمه. لا أخاف الموت لأنه لا يساوي شيئاً. وكما أنني لا أساوي شيئاً بدوري، فأنا لا أخشى أخطـر عناصر الطبيعة، مهما فعلتْ، وحتى إذا جاء

---

(١) الكتابة، والـرسم، واللغة، والتنقيط، عند زوربا، في منتهى الفـانتازية. وهو أيضاً يخاطب نيكـوس كازنتزاكي بإجلال وباستخدام ضمير جمع المخاطب حيناً، وبرفع الكلفة حيناً، وفق مزاجه.

ذَنَبُ مُذَنِّبٍ لِيَضْرِبَنا ويحوّلنا إلى سَلاطة طماطم، *فأنا أضحك* ..

سأسألك حول نقطة أخشاها وتتملك أحاسيسي بقوة. الشيخوخة تخيفني، ولا أجد شيئاً لطرد هذا الخوف، وأجد شقاءً عارماً في الاضطرار إلى القول إنني عجوز، عندئذٍ انحني أمام كل ما أكره، وأفقد حريتي. وأجد نفسي تحت رحمة قرار عائلي يأمرني بمراقبة وحش، طفل صغير، حتى لا يحرق نفسه، حتى لا يسقط ، حتى لا يتعلّم الرّذالات.

كلّ هذا أجده في منتهى الضيق .. أنا الذي أذهب إلى كلّ مكان، ومن دون خوف، إلى غابات جبل آتوس، وروسيا، كما كتبتَ تمدحني ... أنا، أصير حارساً لعدة أحفاد متوحشين؟ فيبلّون ثيابي من دون أن يكون لي حقّ الكلام والقول إنّني أنا البائس الشقيّ، أستفظع كلّ ذلك؟

أكتب إليك كلّ هذه الحماقات، محاولاً التحرّر، ولهذا السبب أجوب الجبال لربْح المزيد من الأموال، لكي تخافني عائلتي وتفكّر فيّ عندما أموت.

أفضل أي نوع آخر من الموت، كأن تلتهمني الذئاب والدببة، ومهما كان نوع الحيوان القادم فأنا أقول له على الرحب والسعة! إذا لم ننْجح في إيجاد مأوانا المنتظر حيث نُعدّ حساءنا، من بطاطا وخضار وما تصادفه أيدينا، فالشقاء حليفنا!

أحيّيكم دائماً بمودّة.

الوفيّ لكم ج. زوربا.

ملاحظة : بالنسبة للعمل، سوف أراسلك مرّة أخرى.

المنجم. قرية غريبفتسا.

١٨-١ نوفمبر ١٩٢٢(١)

«عزيزي السيد كازنتزاكي،

تلقيّت رسالتك المؤرخة في ٢٠-١٠-٢٢ وأجيب.

أنا بخير. أقوم بأشياء. لديّ مشروع فائق الأهمية حتّى بالنسبة إليكم. أي أنه يتوجّب عليك أن تتبع حياتي كي تقتنع بأنّ الانسان الذي يريد، يستطيع أن يفعل ما يريده، بعون الإله.

---

(١) لعلّ المقصود (١٨) أكتوبر (١) نوفمبر ١٩٢٢. (المترجم).

أنا، أدركت، منذ قليل من الوقت، أنني لم آتِ إلى العالم حصاناً أو ثوراً على سبيل المثال. وحدها الحيوانات تعيش لتأكل ... ولكي أنجو من هذا النّوع أعمل ليلاً ونهاراً، وأنا سعيد بذلك، وبالمعركة المريعة للحياة. ومع ذلك أتوصل إلى مواقف في منتهى التعقيد ....

لنتحدّث الآن عن وطننا اليونان. ليس لدينا سوى هدف واحد. اليونان هي دائماً اليونان ... حضرتك تعرف الكثير، الكثيرمن الأشياء الكبيرة، أكثر مني بكثير. أخبركم فقط بما توصلت إليه وأدركته في عائلتي منذ بضعة أيام ...

.... تصوروا إذن، يونانيّاً طبيباً، وهو شقيقي، يحبّ دابّة ... صورة رجل لا قيمة له(١). فكيف تراني، أنا الأميّ البسيط، لا أمارس عبادة الشخصية؟ غير أن العالم من شأنه أن يكون سعيداً لو كان يشبهني مثلاً. فعندما أشاهد، هنا، شجرة كبيرة، كبيرة جداً، شجرة زان أو كستناء، أعجب بها. وعندما أرى الآن احجار التوتيا في الحقل، داكنة الاخضرار، جدّ داكنة، بلون الأوكسيد المضيء، أعجب بها، أو بالأحرى أعجب بخلق الله، وبالطبيعة.

ويستحيل عليّ أنْ أحبّ أو أعبد انساناً فانياً، أدنى منّي، لأني اعتقد أن الإنسان الذي لا يسعى إلى فعل الخير ... واكتشاف أشياء من دون إزعاج جاره، ليس إنساناً.

إنَّ الحزب في اليونان يعني المصلحة والملك هو أداة المصلحة. وكلّ أداة سيئة ينبغي أن تتلف، الأسلحة ، المدافع، السكاكين المدبّبة الخ، .... الخ ...

تصوروا، يا سيد كازنتزاكي، أن طبيباً مقدونياً لا يفهم اللعبة الأوروبية، ولا يدرك أنَّ أوروبا هذه، وجدت شعباً مضطهداً فشكلت نوعين من الشرطة داخل اليونان من دون أن تدفع الرواتب. شرطة ملكية يتوجب عليها قتل أتباع فينسيزيلوس، واخرى فينيزيلية يتوجب عليها قتل الملكيين، أما الشعب فهو يؤكد أن فينيزيلوس صديق الوفاق، وأن غوناريس صديق الألمان ...

فالشعب لم يفهم ... ولم يهتم بإيجاد وزير محبّ لليونان، وقادر على رؤية مصالح اليونان. ومعنى ذلك أنَّ الشعب يبغي الوفاق كي ينجو من المجازر ...

---

(١) ملك اليونان.

عندما نلتقي سوف نتحدّث حول كلّ ذلك. أما الآن فأنا أحاول ضمان وسائل عيشي ... والكتابة إليك كي تأتي، إلى هنا، وتدرك كم هو جميل أن نكون حقاً. فعلى سطح الأرض توجد الحياة، توجد أزهار، وتوجد أشياء جميلة، بكميات كبيرة، لكنها لا تثير بهجتي لأنني أجد أنواع الشرور والآلام مختلطة على سطح الأرض، في كلّ مكان. وفي حين كانت الفأس تحفر وتستخرج كنوزاً، سواء أكانت ذهباً أم فضّة، ويمكن أن تكون حديداً وهذا أجدى، صارت أداة للزرع والحصاد، وتستخرج الفحم من أجل تدفئة بيتك الخ، الخ ....»

نيش ٣٠ ديسمبر ١٩٢٢

عزيزي السيد نيقولا كازنتزاكي

استلمت رسالتكم منذ ثلاثة أيام. وأنا سعيد بقولك إننا سوف نذهب إلى روسيا. عندما أتمكن من السفر معك أكون سعيداً.

سوف نقوم برحلة رائعة، ونذهب معاً إلى بحر آزوف، زوجتي الروسية الأولى تنحدر من تلك المدينة. وهناك سوف نجد عائلتها ... وحتى إذا كانت امرأتي قد تزوجت فإنهم سوف يستقبلوننا. وبصفتي كنت الزوج الأول فمن حقّي أن أكذب بالقول إننا جئنا من أجلها.

بعد ذلك نجوب «بيلاروسيا»(١)، وهناك نجد زوجتي الثانية، الجميلة، وسوف نستغّل كلّ أقاربها وأصدقائها. وسوف يقبلون يدينا لأنهم كانوا يحبّونني كثيراً! كنتُ رجلاً شهماً، ذلك ما كانوا يقولونه عني آنذاك.

بإيجاز، لديّ الكثير من الشغل ... جئتُ إلى نيش لاقتناء أكياس نرسل فيها البضاعة إلى إنجلترا. وحال وصولها إلى المصنع، سوف أفهم أية معجزة ستحدث. ما من شيء خارق، أو قد يكون ذلك نجاحاً كبيراً في أحسن الاحوال. وعندئذٍ يمكن للمشاريع التي أشرتُ إليها آنفاً أن تتحقق.

١٩٢٣ . إذا كانت راحيل قد نفخت على الجمرة آملة رؤيتها تتشكل على هيئة رسول جديد، فإن إلسا«أ» ... الألمانية القادمة من إيينا في موعدها، والمتشبّعة

---

(١) روسيا البيضاء.

بهولدرلين ونوفاليس وريلكة، استطاعت أن تحثّ «تو ايببون ذاخري» الدمعة العذبة، على الانبجاس، كحافز وحيد لروح معذّبة.

أول لقاء بين إلسا ونيكوس تم في يونيو من العام نفسه، في دورنبورغ. وكان يوماً حاسماً، كما دوّن نيكوس في دفاتره. ولقد كتب مفعماً بالسعادة :

يداك في يدي، أتجوّل فوق هذه الأرض، كلّ لحظة، أستأذن الشمس، والهواء، والأفكار، والفراشات، وأغنّي بصوت خافت حتى لا يسمعني الإله، أغنية حب سعيدة...

وزار برفقة إلسا معظم مدن القرون الوسطى التي مازالت في ألمانيا. ثم اصطحب كازنتزاكي محبوبته إلى رافين، في أسيز، قرب قدّيسه المفضّل. وهناك تنتهي علاقتهما الغرامية، لتتحول إلى صداقة دائمة.

دفاتر ١٩٢٣ :

دورنبورغ غوتستشلوس. بونسيون[١] فيشر. يونيو ١٩٢٣.

إقامتي في دورنبورغ ***حاسمة***[٢]**. الليلة الأولى : حديقة، ومطر خفيف، عثرت على جُعَلَ أخضر وصَدَفَة. في قاعة الجلوس هناك نزيلتان، إحداهما «grob» شقراء، رجولية ... والأخرى، هادئة، صامتة : إلسا ...**

١٥ يونيو. ذهبت مع إلسا إلى نومبورغ ... وتحادثنا بشغف، داخل محلّ حلويات. قلت لها «لا تضيعي نفسك، ساهمي في بعض الأعمال الشجاعة، لا تتركي روحك تنطفىء» وكانت تنصت، مذهولة ومرتبكة. فجأة أدركنا ... أننا أضعنا موعد القطار. واضطررنا إلى قضاء الليل في كوسن.

قرأنا هوميروس، بوذا، التوراة. وها هي ذي جملنا المعتادة : «من دون مكافأة!»

... «الإجابة عن غمزة القدر!» ... وكلماتنا الأخيرة : «ما من جواب. فلنترك الإجابة تنضج مثل ثمرة!».

جاءت راحيل. لقاء حادّ. كنتُ في قاعة الجلوس، مع إلسا، أحدثها عن طفولتي. وفجأة انفتح الباب، ودخلت راحيل مع «ل». يا للخشونة التي استقبلتُها بها! (كانت

---

(١) فندق عائلي.

(٢) التشديد من نيكوس كازنتزاكي.

عـائدة من بولنـدة) «ماذا شـاهدتِ؟ كيف تقـدّمتِ؟ هل لديكِ مـا تضيفينه إلى مـا سبق ورأيناه؟» (مثل جنرال يستقبل ضابطاً عائداً من مهمته ....)

يوم ٢ يوليو ١٩٢٣ نسخ كازنتزاكي بيده رسالة بعث بها إلى إلسا :

فليبارك الـربّ تلك الأوقات الملأى والرائعـة، الأوقات التي أمضيناهـا في دورنبورغ، نزهاتنـا في البستان الفاتن، محاوراتنا، الضحك، الصمت، المطر، وفوقنـا ذلك الذي كان يحتضن كلّ شيء، قـوس قزح الملوّن. وفي رأسي المعتم تحوّل كـلّ شيء إلى نور، وشمس، وحبّ. اليوم وأنا أشتغل على كتـابة «بوذا» صارت الكلمات تأتي مثل خيول فـرانزمارك الصغيرة، واضحـة، بسيطة، ذات عيـون شرقية واسعـة، وأعناق حـارقة مثل أعنـاق الصبايا. رائع هـو قلب الإنسان، هذه العضلة الممتلئـة بالأسرار، والتي تلتهم كلّ شيء، من دون أن تشبع، هـذا الحدّاد الخارق الـذي يُشعل معـدن الحيـاة المعتـاد ويطـرقـه ويحوّله إلى سيف لامع، أو إلى كأس ذهبية.

بوذا، هذا الصباح، رقص في حضني مثل امرأة.

وبعد بضع صفحات، نجد رسالة أخرى، إليها :

استعـادت حيـاتي وجهها الـزاهـد. أصـارع الكلمات طوال النهـار، وأجبر الأفكـار الواسعة على الانحباس داخل هذه الأجساد الفقيرة، الضيّقة وغير المكتملة، أهب دمي إلى تلك الأشبـاح، وأتألم كثيراً، وبلا انقطـاع، لأنني لا أحصل غالبـاً إلا على صور مشـوّهة لمشاعري.

.... الفنّ بالنسبة لي هو مخرج الجبناء، خطيئـة كبرى. يسحر قواي، أعطيه دماغي ودمي، وأستمتع بجماله لأنني مازلت لا أقوى على تجاوز الجمال والبشاعة ... أن أراك، ونضحك ونمشي، ونسكت! ما هذه الأرض؟ إلى أين تذهب؟ من أين جاءت؟ لماذا؟ سبحان اللّه، ما من جواب. ونحن نبدع ذلك الجواب، كل يوم، بضحكاتنا، ودموعنا، ودمنا. حمداً لله. نحن أحرار من دون رجاء أو سيّد!

ومن بوتشـو، وهي ضيعة صيادين صغيرة، على سـاحل البلطيق حيث أقام كازنتزاكي ما بين ١٣و ٢١ يوليـو، برفقة راحيل وصديقاتها، كتب إلى المرأة التي يحب :

البحر الممتد بلا حدود، يزمجر أمامي، رماديّاً، تلتهمه الشمس، جزعاً قويّاً، مثل قلب

كبير. لستُ حزيناً ولا سعيداً، ولا هادىء الأعصــاب. ففي هذه الأيام، حيث يغزو البحر نظري من جـديد، التزم العقل البشري الصغير بالصمت، مـرتجفاً، ودخل الإلهام الكبير للكون في جسدي الأسمر الصلب.

«أنتَ أيها الكـون العزيـز بين يديّ المداعبتين!» أشعـر به دافئــاً وغريبــاً مثل جسم بشري. ثمة لحظات لا أستطيع فيها إمســاك دموعي. لا، فكلما دخلت في قلبي أكثر، هنا، على هذا الشاطىء المقفر، ازداد شعوري بأنّ حزناً لا حدود له يغزو دمي.

مبارك هو البحر الـذي يقتل الضعفاء ويهب الأقوياء أفكاراً صارمــة. مبارك هو قلب الإنسان، هذا المصارع العظيم الذي يخوض معـركة ضد الموت كي يكشف سرّه. مباركة هي، ثلاثــاً، كل لحظة هــائلة يتحد فيهــا جسدان - لرجل وامـرأة - ويلهوان على حــافة الهاوية، مثل طفلين على شاطىء البحر.

وينقطع تسلسل الدفــاتر انطلاقاً من ٢٨أغسطس ١٩٢٣ . وفي نهاية نوفمبر تصل غالاتي إلى برلين لتغادرها في نهاية ديسمبر. «هل كان من الضروري القيام بمثل هذه الـرحلة المرهقــة، من أجل رؤية أشيــاء، سبقتْ لي رؤيتها في السينما؟» تلك كانت شكواها.

ويمكث كــازنتزاكي في برلين حتى ٣١ ديسمبر، ولا يغادرها إلى «لايبزيغ» إلّا لبضعة أيام، كي يساعد «المستغرق»[١] كارل ديتريش على ترجمة كتابه «الزهد»، ويرافقه صديقه دانييليديس.

١٩٢٤ . أول يناير من هذه السنة يبدأ كازنتزاكي رحلته. ألا يدلّ ظاهر رحلته على حجّ باتجاه المناطق التي كان فيها سعيداً مع إلسا؟

ثلج في دورنبورغ. وفي السنــة الماضية، في غـوتشلوس، أعطته المديــرة فراش غوته.

دفاتر ١٩٢٤:

---

(١) المستغرق : (على وزن المستشرق) : المتخصّص في الحضارة الإغريقية! (المترجم)

قيل لها إنني كـاتب، فـاعتقـدتْ أنني سوف أسعـد كثيراً إذا نمت في فـراش زميلي ... لكنني لست رومنسياً ، ولا امرأة، ورفضت النوم في فراش «الجبّار» ...

نمت في سريري، الذي نمت فيه السنة الماضية، وفي الحلم شاهدت هذه الرؤيا:

الحرب مشتعلة والجنـرال ينظر إليّ. قال لي : – لا تـذهب! تعال، وحـارب أنتَ أيضاً! وتملكني نوع من الرعب. في أحـلامي عندما أذهب إلى الحرب، أو نحو خطـر ما، تنتابني دائماً رعشة خـوف، بينما، في الحياة، أتصرّف بشجـاعة كلما تطلبـت المناسبـة. ونظراً لكوني غير شجاع في أحـلامي، فأنا أعتقد أنني جبان في أعماقي. ويبـدو أنني أتوصل إلى السيطـرة على خوفي من بـاب الكبرياء، لأنني أخجل من نفسي. وتـواصل حلمي كما يلي : توقفتُ مـرتعداً، لكنني كنت مستعداً للقتـال. ثم فكر الجنرال قليـلاً وقال لي : – لكنك لا تستطيع القتال على اليمين، لأنك تنظـر أيضاً إلى اليسار. لذلك ســـوف تحمـل المؤن إلى اليمين وإلى اليسار لكلا الجيشين ...

يوم ٢ يناير، تجوّل كازنتزاكي في الثلج، ومكث يستريح، مدخّناً، أمام المدفأة، متأملاً تمثالاً صغيراً لنفرتيتي ينوي اهداءه إلى إليسا :

وضعتُ نفرتيتي أمامي ... ومكثت اتاملها بفرح عارم حتى أحسست بان الزمن شيء عميق حقاً، فيما وراء الامتداد الميقاتي، وأنّه غني، ملّـون، مقدّس، منساب، أبديّ، مملوء بمفاجاَت اللمس والسماع – مثل الموسيقى، مثل الماء ...

بعد منتصف النهار ثمـة امرأة [إلسا] ... ألقت بحفنة ثلج على نـافذتي. كيف علمت بمجيئي؟ الأصـوات الغامضـة للأرض تتكلم وتحرّض جسـد المرأة الحار. تبحث روح الرجل عن منفـذ للهروب من هذه الأرض المحـاصرة، والتوجه إلى خـلاصه. فتأتي المرأة، تجسيداً إلهيّاً لكل القوى المعاكسة، وتوقفه وتضمّه ...

... لقد ولدتْ [إلسـا] في قرية ثلجية صغيرة في ألمانيـا، ومع ذلك يلمع فيها حنين إلى الشرق. عندما يتملّكها الحبّ – قالت لي – في الحلم أو في اليقظة، تحلم بأراضٍ استوائية. كما لو أنَّ النـوم والحب من طبيعة واحدة ... ذكـرى وتحرّر مفاجىء. ثمـة فصيلة من الشيـاه تعمد، لـدى اقتراب الانجاب، إلى القفز فوق السياج، وتركض ضـائعة، لمدة أيام، متجهة صوب البلـد الذي وُلدتْ فيه. كـذلك الحبّ يوقظ في هذه المرأة الشماليـة الشابّة، والصامتـة، ذكريات وانفعـالات، وبعد آلاف السنين، ترحل بـاتجاه الجنوب حيث رأى أسلاف الإنسان النّور ...

.... لدى عـودتي هذا المسـاء، وجدت على المائدة ضيفـاً جديـداً. إنَّه بـروسي عجوز، ضامـر، مربّع، منقوش في جـذع شجرة، مستنفد بـالعمل. عندما يتحـرك، يئزّ مثل بيت خشبي متداع. يلتزم الصمت ويأكل بلا فرح، ومن دون مضغ - مثل شخص يرمي حطباً في موقد ...

ارتبكتَ لحظـة. شاهـدت تحول الإنسان إلى بهيمـة، وأكثر من ذلك، إلى مـادة، رأيت الروح تثبت بلا حراك داخل الجسد المنطفىء، بلا نسغ، بلا ذكرى، بلا خيال ...

لو كـان في إمكاني بَعْثُ هذا العجـوز! فجأةً تملكني قلق مريع. كما لـو كنتُ أحاول إنقاذ المادة كلها، ومن ثمَّ الروح، وليس هذا العجوز فقط.

عندما فرغنا من الأكل جـرجر الشيخ نفسه واستند إلى المدفأة وثقل جفناه. تجاوزتُ خوفي واقتربت منه وبدأتُ أتكلم. لكنه ظلّ غائبـاً لا يريد الإنصات. حاولتُ أن أوقظ فيه صورة القرية التي ولد فيها وصـورة زوجته وأحفاده. غير أن كلّ شيء فيه بان منطفئاً : زوجته ماتت ولايكاد يتذكرها. - هل كـان شعرها كستنائياً؟ أم أشقر؟ - كان أبيض! لا يتذكـرها إلا بشعر أبيض. أبنـاؤه كشفوا عن جحودهم وتقـاسموا أراضيه قبل مـوته، وأحفاده يضايقونه ...

- هل سافرت؟

- نعم سافرت.

- أين ؟

- هنا وهناك، كيف أتذكر ذلك؟

- هل تذكر أين احتسيت أفضل نبيذ؟ وأين رأيت أجمل امرأة؟

- هأ هأ هأ !

ابتدأ يضحك بصوت خافت وعيناه تبرقان. وشرع يتذكّر.

وقليلاً قليلاً بـدأ يعود إلى الحياة ... وكل الذين عرفهم - من أصدقـاء وأقارب ونساء وأعـداء - أدرك فجأة انَّهم يثـوون تحت التراب ... مـن دون أن يعي ذلك، وإذا نـوع من الانفصال يلطِّف صوته، ويدفىء ركبتيه. وتضيء عيناه. فيشّع بطيبة لم تكن مِلكَه.

وها هـو ذا الآن ينظر وراءه، ويشاهد كلّ شيء من أعلى، من بعيـد، ومن دون انفعال،

من دون متعة، مثل روح سامية. دام كلّ ذلك ثانية واحدة ثم هوى من عليائه، أحسّ بالارهاق وأراد الاتكاء على المدفأة، والاستغراق في النوم. لكنني منعته من ذلك، أمسكت بركبتيه، أبعدت ظهره عن المدفأة، أمطرته بالأسئلة، سمْتُه العذاب، أبقيته بحَصْر وقلق...

وفي منتصف الليل، تركته، أخيراً. أرهقت أنا أيضاً ونمت. ودائماً أحاول تذكّر أحلامي، لأنها تساعدني كثيراً في يقظتي.

أمامي بحرٌ داكن يغلي، وكانت السماء واطئة وحالكة السواد. نظرت في البعيد إلى مركب مندفع بشراع مثلث تنفخه الريح، ويشعّ نوراً. ولدى رؤيته هتفت بهلع:

– قلبي !

بين ٤و ١٠ يناير، تظهر «السيدة الصغيرة» [١] مجدّداً :

... لم أتعود بعد هذه المعجزة : كائنان بشريان، بالأمس كان أحدهما يحمل الآخر، كائنان من عرق وحياة وبلاد مختلفة، يتقابلان فجاة ويتحدّان جسدياً. ويتعرفان إلى بعضهما أفضل وأعمق من أم وابنة، من أخ وأخت. قالت «ليس لي غيرك في العالم!» هذه الجملة البسيطة جعلتني أرتجف بسبب اللّغز الذي يلفّنا ...

يوم ١٨ يناير ١٩٢٤ . غادر كازنتزاكي المانيا. وكانت ايطاليا لاتزال تجذبه، لذلك قرر العودة إلى المدن التي زارها أثناء سنواته الطالبية.

٢١ يناير – أتسكّع في نابولي ولا أصدّق عينيّ. صياح في الشارع، تين شوكي، قشور برتقال على الأرض، خرق ملوّنة على كلّ الشرفات ... حياة ملأى بالروائح، والأوساخ، والصياح، والشتائم، رجال يبصقون، يُدخلون أصابعهم في أنوفهم مطوّلاً، يُومئون كثيراً، يتكلمون وحدهم مثل مشعوذين، ممثّلون سابقون يتزيّنون بالريش، ويتلفعون ب «بلْرينات» [٢]، ويعتمرون قبعات على طريقة نابليون، جادّين، مثيرين للسخرية، شحّاذون يرسمون «المادونا» [٣] على الرصيف ويلتقطون القروش القليلة التي يرمي بها المارّة، عليها. في منتصف النهار شاهدت امرأة منحنية الرأس إلى الوراء، على كرسي، وأخرى تدعكها ... اقتربت خائفاً ... كانت تمشط لها شعرها!

---

(١) هكذا كانت تدعى إلسا في غوتشلوس.
(٢) Pe'lerine وشاح نسوي طويل الأطراف. (المترجم)
(٣) صورة العذراء (المترجم).

وفيما بعد، عنـدما رأيت أول حمار في الشارع، كـدت أهرع إليه لأقبلـه، كما لو رأيتُ يونانياً ...

يا للمرارة. كم تلمع العيون الواسعـة، ملتهبة، في أسمال، واسترخاء! كلّ هذه الروح تضيع لغيـاب الانضباط. تتـلاشى في ارتجالات متـوهمين، في أغانٍ خفيفـة، مرحـة، في هيجان عقيم ... قـال لي مراهق رائع وشاحب. «لماذا التفكير؟» «كل شيء بـاطل أمام مثل هذا الجمال» ومن شأن التفكير هنـا أن يقطع الإنسجام. أناس الشمال يفكرون بغـريزة دفاع ذاتي، طلباً للهروب من البشاعة المحيطة بهم ... أما الفكر هنا فهو غير مُجدٍ.

حقاً، إنّ هذه المدينة حورية بحر، وهـذا البحر أيضاً. لقد تملّكتني كلّ هذه العذوبة، وسحرتني، فبتّ سعيداً، عاطلاً. يتوجب عليّ الابتعاد بسرعة عن هذا المكان.

وفي السنة نفسهـا ذهب أنجيلـوس سكليانوس كـي يحجّ إلى القدس، وتـذكّر صديقـه، فكتب إليه رسالـة طويلة أرفقهـا بصورة له «كي أذكّـرك بوجهي» كما قال. وهـذه السطور المفعمة بصـور شعرية وحيـوية صوفيـة، تشهد على عمق الصداقة التي تربط بينهما، وعلى اختلاف طبيعة كليْهما، وطريقته، في التوصل إلى الهدف ذاته: «بلوغ ذروة الذات».

صديقي المحبوب،

... في حين كان يتـوجب عليّ، بعد افتراقنـا، أن أترك رأسي يتحـول إلى حجر في مفترق طرق أو في سيل، بحيث ترسم عجلات القرن حـولي شبكة طرقات كثيفة بما يكفي حتّى تعكس، في شكل ذي امتلاء صـوفي، مشكلة حريتي – أدركتُ أنّ قليلاً من المقـاومة، مهما كان ضعف المقاومة الروحية، قادر على امتصـاص انفعالات الكون وتحويلها، بوسائله الخاصة، حتى تنبجس – مثل فجر فوق كلّ موجـات الزمن الأفقية، مثل جسد إله متوّج بالـزّنابق، وممتلىء بإيقـاع جديد لا يُقهـر. تجربتي خلال هـذا الوقت، كما كتبتُ ذلك في مكان آخر، تشبه تجربة فرس القتال الذي كـان الاسكندنافيون القدامى يهدونه إلى ربّة الحرب، فلا يتـوقف، في المعبد البعيد، عن التعـرق و إفراز الزّبـد ما دامت هناك معـركة تنشب في مكـان ما، من الأرض، وهـذا هو السبب تحديـداً الذي يجعلـه أشبه بتجسيـد لسَكينةٍ صـوفيّةٍ لا حدود لها ... فإذا كـان جسدي الروحي بعـد هذه التجربـة، لم يعد مروّضاً مثل إلـه معادٍ ... بل تحرّر تماماً، ببلوغ درجـة الصّفاء التي يغدو العمل الأكبر ممكناً، انطلاقـاً منها وحدها، وهـو العمل الوحيد الذي يستحق أن نسمّيـه عملاً، والذي

يستطيع اجتياز كلّ الطبقات الـرّاهنة للمادة ويسبغ على كلّ فعل أرقى درجات الشرف، إذن، إذا رفض جسـدي الروحي كلّ نـوع من أنواع «الحيـاة المختلطة»، وهي حيـاة كلّ «الناس المفكّرين» بلا استثناء، فإنكَ لن تعْزُو ذلك إلى مبالغتي، بل سوف نستقبله فوراً في عمق تنفّسك. كما تستقبل هواء الفجر الطاهر. وكـان في إمكاني مخاطبة أناس ضحّوا ظاهريّـاً بملكوتهم الغنوصي[1] المزعوم، وبـاتوا يتحـركون بكثافـة حيويـة وروحية، ويجهدون أنفسهم من أجل إعـلاء صرامة كيـانهم الأسمى. غير أنّ مثل أولئك الـرجـال المرتقين إلى تلقـائية ممتلئـة وواعيـة، ليس لهم وجـود، وأنتَ تعرف ذلـك، وإذا كانـوا موجودين، هل يتجاوز عددهم الثلاثة؟ لا أعتقد.

أمّا بـالنسبة للآخـرين، فانا متاكد من أنّ جـذور كيانهم المفكّر معـروضة في منتهى السطحية داخل الـرواسب الراهنة للتـاريخ، وهم أبعد ما يكونـون عن مركز المعـركة، حتى أنَّ الاحجار والأشجار من شانها أن تهتزّ أكثر منهم بتاثير «كلمة» الحياة الأسمى، والحال أنّهم يستطيعون أن يحققّـوا، في ذواتهم، وحدة الفكـر والفعل المطلوبـة على هذا المستوى...

عندما كنت أجهد نفسي لأتمكن من إخراج أدنى حَصَاة، أجعل بها الفضاء حولي يتلألأ مثل زمرّدة، كنتَ[2] دائماً في ذهني. ولقد تشبثتْ بِكَ رغبتي المحتدمة، وظلت تحتفظ *بكَ* دائماً، أودّ، إذا لم يـرهقك ذلـك، أن أعـرف *توقكَ* الأعمـق إزاء *مشكلتكَ* المماثلة، كما قـد تصيغها*أنتَ من أجلي*. تعرف أنني لم *أطلبكَ* بتاتاً، وأنني بقيتَ صـامتاً أمام *صمتكَ*، لكن الوقت حان كي أطلب *منكَ* ذلك. لن تتردد في إجبـار *نفسكَ* على اعترافٍ كامل، يحقّ لتعلقي الكامل وفوق البشري *بكَ* أن يطلبه *منكَ* للمرة الأولى – والأخيرة إذا لزم الأمر».

«دائماً لك»

«أنجيلوس»

هذه الرسالة التي نسخها نيكوس كـازنتزاكي في دفتره، قد تكون ردّاً مناسباً لسكليانوس:

... أفهم *صراعك*. وأعرف أنه يتوجب على المرء في اليونان أن يكون شجاعاً كي يدافع عن نفسه، ولا ينحطّ.

---

(١) نسبة إلى الغنوصية، وهي نزعة فلسفية دينية، تسعى إلى إدراك كنه الأسرار الربّانية. (المترجم).

(٢) تشديد على ضمير المخاطب، في نوع من الإيحاء بالتّسامي (المترجم).

عندما كنت في اليونان، كنت أقول إنّه يتوجب علينا أن نتوحّد، نحن الثلاثة أو الخمسة، الذين نريد الوفاء لمثلنا الأعلى ومحاولة المقاومة، من دون أن نقتصر على المقاومة، إذ يتوجب علينا *الهجوم* أيضا، كي نتمكن من تحويل المادة، وكذلك أحشاء الناس الذين يعارضوننا، إلى روح.

شعرت أنَّ ذلك سابق لأوانه في اليونان. وبالنسبة لنا، نحن الرجال الثلاثة أو الخمسة، ما زلنا في مرحلة الأعْراض، أو الطلائع، وسواء شئنا أم أبينا، سوف نعيش ونصل ونموت معزولين، ليس من العامّة، بل من أتباعنا. أنا أيضاً مثلكِ، وحيد. و إذا كنتُ قد اخترت موقع معركتي في الخارج، فإن ذلك ليس ناجماً عن جبن بل عن معرفة عميقة ومؤلمة بقواي. لقد وهبني الإله غرائز واندفاعات، وذبذبات نورٍ، وظلمات، ومادة وروحاً، وأنا أختار افضل الظروف كي أحوّل المادة إلى روح وأخوض المعركة. بهذا الشرط وحده سوف تكتسب حياتي وشخصيتي - ضمن *الكلّ* - بعض القيمة، التي قد تكون زهيدة، لكنها بمستوى إمكاناتي. إنَّ معرفة العصر الذي كتب علينا أن نولد فيه، وضبط أفعالنا وفق إيقاعه، هما الشرط الضروري لأي انسجام خصب..

هجرني أعزّ أصدقائي، وما من أحد في العالم يهتمّ بي، ولهذا أهتمّ بالجميع. أشعر أنني حرّ وأنني أستطيع التصرّف في حياتي كما يروق لي، من دون أن أزعج أحداً. إنّها الاستقلالية الأسمى، العزلة الأتْقَى، الصمت الإلهي بالنسبة لمن يعملون. أرجو من الله أن يديم هذا الصمت وهذه العزلة طوال حياتي.

فلنأخذْ كلّ ما يمكن أن يُعطيه كلّ بلد. ولننتفعْ بأفضل ما في موارد هذه الأرض الخالدة، المحبوبة...

يوم ٧ فبراير من العام نفسه، سرد كازنتزاكي، في دفتره، لقاءً مع مارينيتي في فندق «لندن» بنابولي:

سألته ما هي المستقبلية. - التعبير عن جمال ونبل المحرّكات، والقاطرات، والطائرات، والحياة العصرية بعامة. لقد كان الإغريقي القديم يتأمل وجه الإنسان باحثاً عن رمز لتخليد جماله. أما أنا، فأرغب في فعل الشيء نفسه، عندما أتأمل محرّكاً.

- إن رسم وجه إنسان، أو محرك، وكل الظواهر بشكل عام، أجبْتُه، ما هو إلاّ الوسيلة التي يستخدمها الفنّ. لكن الجوهر كان، ولا يزال، متمثلاً في ما يستشعره الفنان خلف الظواهر وما يحاول التعبير عنه من خلالها. ما هو جوهر كلّ الظواهر، حسب

المستقبليّة؟ وما الوجه الذي تعطيه المستقبلية للقوة الغامضة والأبدية التي تفعل فعلها في ما هو أبعد من الإنسان والمحرّك؟

- لم تتوصل المستقبلية إلى ذلك بعد. إنّها تصارع. تنظر إلى المحرّكات، والقاطرات الخ.... وتكدّ بأناة، من خلالها، كي تصل (إلى تفسير).

- هذه طريقة العلم وليست طريقة الفنّ! فالفنّ، بالمقابل، هو نتيجة اتصال حَدْسي بالحقيقة الكبرى. رؤيا. ثم، بكلّ بساطة، ومن دون جهد، تأتي التفاصيل وتعبّر عن ذاتها.

مكث مارينيتي متأمّلاً، إنَّه من طبيعة انفجارية، قتالية، ساذجة، شجاعة.... ذهبْنا جميعاً، مع كتيبة من تلاميذه، إلى المسرح. محاضرة لمارنيتي، معرض رسوم (مهمّة). رقصات تعبيرية، مسرحية درامية: قاطرتان[1] inomorate del capostazione . دراما قصيرة لمارينيتي: عذراء على الجدار، مائدة وسلة مهملات.

جهود مثيرة للسخرية، وحدها الرسوم كانت ذات قيمة، الموسيقى عادية، ولا تثير حتّى الضحك. ومع ذلك فإن الشجاعة التي يتحمل بها مارينيتي التهكمات، تثير الإعجاب، صرخات، مقاطعات، تصفير، ضحك - وهو يتابع.... كانت القاعة كلها، هي المسرح، وهذا الرجل هو المأساة. يريد الإتيان بالجديد لأناس يقاومون ويشتمونه. ثمة شيخ خرج عن طوره وصاح: - No vogliamo capire![2]

بعد زيارة إلى بومباي، يوم ١٨ فبراير، نسخ في دفتره رسالة موجهة إلى راحيل:

أقبية بومباي ملأى وغاصة، النساء جميلات، يخرجن من الحمام... عقيمات. الرجال فرحون، شهوانيون، روحانيون، ساخرون ومتعبون، كل الآلهة - اليونانية والآسيوية، مجتمعة في بؤس ديمقراطي، تضحك، وتتقاسم في ما بينها، بكل تخاذل، الهبات والأرواح. والمدينة بكاملها، مستلقية على شاطىء البحر، كانت هناك تتعفّن مثل جيفة.

---

(١) بالايطالية في الأصل ومعناها: قاطرتان عاشقتان لرئيس المحطّة! (المترجم).

(٢) لا نريد الفهم (المترجم)

وتعرّفَت النسور الضخمة، النسور الرائعة، في الهواء، على النتونة. الأرواح الإلٰهية تغلي، ومن بركان، كأنه فمه، تكلّم الإلٰه.

راحيـــل، لم يسبق لمنخريَّ استنشاق مثـل هذه البهجة، طيلة الأعوام الأخيرة، منذ أن صرت أقيس درجـــة تعفّن العـالم. أشعــر أنَّ نسراً إلٰهيَّـاً يسكن جمجمتي، مشرّع الجناحين. إنَّـه جائع ولا يحب بني البشر، ويفكّر في راحيل، ودينا، وايتكـا، كما يفكر في Mitgeherinen (١).

يوم ٢٥ يناير، في أَسيز، سجّل كلزنتزاكي في دفاتره :

... الأجـراس .... تناغم عميق ... صـوت سان – روفـان(٢) الوقور، ثمّ صـوتٌ ناعم وفضي متأتٍ من سانتَا – كلير، يعـانق التموّجات الذكورية الصـارمة، وتتمايز أصوات الأجراس بوضوح ضمن اتّحادها وامتزاجهـا، مثل الرجل ذي البشرة السمراء البرونزية والمرأة ذات اللـون اللّحمي الشاحب. وعنـدمـا تسكت تلك الأجراس، لحظـات، ثم دنغ! سانتَـا كلير تدق مـرّة واحدة، مثل تحد وإثـارة. وبعد قليل، دنغ! مـرّة أخرى. وهـا هو الصوت الثقيل لسان –روفان يخفت، ويصل من بعيد صوت سان فرانسوا. عندئذ تبدأ في الأجواء لعبة فرح وحب، أشبه برقصة.

أبداً لم يسبق لي أن لاحظت بأن الأجراس نفسها لا تفتقر إلى علاقة جنسية..

كنت أقرأ «لي فيـوريتي» أساطير القديس فـرانسوا، الذي عبّر عن مقته الشـديد لهذه الحياة، وحبّه للبشاعة، والتواضـع، والفقر، وتحمّسه للعودة إلى السماء، ومغادرة هذه الأرض البائسة... وفجأة فتحت المختارات اتفاقاً فقرات أغانينا الشعبيّة:

أمسكوني كي أقوم ، امسكوني حتى أجلس،

انصبوا لي غصناً، هنا، كي أستريح،

وهاتوا لي المزهر كي أغنّي بهدوء،

آه، يا لشاربيّ الفاحمين، وحاجبيّ المرسومين بدقة،

وأنتِ يا تسامبا(٣) المزهوّة، مرمية على الظهر!

---

(١) رفيقات النسر.

(٢) أسماء كنائس (المترجم)

(٣) الشعر المضفور إلى الوراء «ذيل الحصان» (المترجم).

أوّاه ، ستلتهمك الأرض السوداء والتربة البائسة!»

لو انتشرت الأفكار الأساسية لسان فرانسوا – الفقر ، العفّة – في العالم كلّه، ولو صار العالم كله فرانسيسكانياً، لذهب إلى خسارته.

ولو أن سان فرنسوا بشّر بفضائل سهلة الممارسة.. لكان تأثيره صفراً.

لا بدّ من تعظيم مثال أعلى يكون دائماً فوق إمكانيات البشر. وهذا ما يوقظ القوة الصوفية والتوتّر المؤلم والخصب، داخل الروح، من أجل بلوغ المتعذّر بلوغه، ومن هنا القلق، والبكاء، وعدم الرضى الأبدي. هكذا فقط، تصير الحميّا أقوى لكي يتوتر الإنسان مثل قوس، ويرفض المساومة ويبلغ المثل الأعلى.

أتجول في أحضان هذا الجمال الأرضي – الربيع، الهواء، الأغصان المزهرة – وأتحسّر على الغرفة الصغيرة التي تسكنها... اليهودية «ل» في برلين – سمكة رنكة على المائدة، فناجين غير متجانسة ومُثَلَّمَة، ملأى بشاي يشربه يهودٌ وروس وهم يدخنون ويتحدّثون عن الإله، والثورة. أما الهدوء، والغزليات، وفصول الربيع الأرضية، فليست من نصيبنا، الروح تتألم وترغب في التفتّح.

ويضيف لاحقاً :

١٣ ابريل . اغادر أسيز . الكونتيسة تبكي[١] :

ويطول توديعه لإيطاليا : بادوفا، البندقية، وأخيراً برنديسي (من ٢٩ ابريل إلى ٣ مايو) وهناك يتذكر إلسا التي فارقها في رافان:

.... أحبّ المرافئ كثيراً، الهواء المالح، العجائز الوسخات، الصبايا اللائي يرحن ويجئن في المساء بفساتين قصيرة، وعيونهنّ مزيّنة، وأصواتهن بحّاء. لست متلهفاً، أجلس على شاطئ البحر، وأتذوق اللحظة، بأناة وعمق. أنظر إلى كل شيء، أفرز، أنظّم، أحس بالإله يثب في داخلي وينتفخ مثل الفقّوس[٢] في البساتين الكريتية، كل شيء يلتهب. القطران، البصل، والرجال البدينون الذين بدأوا يتحلّلون، البحر أزرق، النوتيّةُ ثملون، البيوت الصغيرة مفتوحة على الشارع مع سرير واسع يتوسّطها – ساحة

---

(١) أنظر «موازنة حياة» الذي نُشر بعنوان «تقرير إلى غريكو» كانت الكونتيسة «انريشيتا بوسي» مسنّة جداً لكنها جميلة وغنجة وروحانية، وينزل عندها نيكوس كازنتزاكي عندما يزور أسيز.

(٢) أو «الخيار» ، (المترجم)

المعركـة الوحيدة لـدى العمّال البائسين. لقد ولـدتْ أفروديت ذات مسـاء في مرفأ شرقي يشبه هذا المرفأ، عـارية، عارمة الصدر، مطلية الأظـافر والعينين والشفتين. تلك إحدى تجليات النّوتيّة.

أغادر برنديسي يوم ٣-٥-١٩٢٤

ومثل نشّال هارب من عدوّه خشية أن ينهبـه بدوره، هرع نيكوس كازنتزاكي كي يعهد ببـذرته الجديدة إلى تـربة أجداده. بشارة مستقبليّـة، وقد اتخذ الملاك سمات لينين، ولم تعد الزنبقـة سوى شعلة نار بين يديـه، ثم «المَادُونَا» – كريت بوشــاح الأرملة، ويـداها على بطنها، ذلك الـرحم الذي تختمـر فيه جثث أبنـائها بخميرة أجيال قادمة.

استراحة قصيرة في أثينا . لقاؤنا الأول . يسبر كلانا الآخر ويبحث عنه. القبلة الأولى، محتشمة، قبلة أخ.

ثم في «ليدا». وحـدنا مع البحر. انـزعاج وفـرح ممتزجان. مفـاجأة اكتشاف تمثال أمير من كنـوسوس، أصيل، وراء قناع منقـوش على عَجَلٍ في خشب زيتون ملوي، وانزعاج متأتٍّ من رفضه أن تَحُول أيـة خرقة دون جسديْنا والبحر. ومع ذلك كان ذا طبيعة في منتهى الاحتشـام، وتـوجّب عليّ الانتظار، والعيش إلى جانبه في جزيرة، كان أكتشف دوافع سلوكـه في ليدا وإجلاله للعنصر المجدِّد... furcht-bare Qual – عذاب مريع – كتبتَ في دفترك. لقد تعـذّبتَ إذاً، كي تترك لي فرصة التفتّح. وما زلت أرى وجهي في حـدقتيْك اللتين بلون البندق. مرآتـان سحريتان، تعكسان صورة مُجَمِّلة تهبك قوة وثقة.

هيركليون، ١٩٢٤ [1]

رفيقتي العزيزة، العزيزة،

ذهبت إلى البحـر منذ الصبـاح وبقيت أنتظر. اليـوم تأتي إلسا، وسـوف تبقى بضع ساعـات ثم تذهب. الجوّ غـائم، ، والسماء تمطر رذاذاً، أشعر بـالخجل عندمـا أفكر بأن

---

(١) رسالة إلى ايليني ساميوس.

كريت ستتمَرْأى، تحت مثـل هذا اليوم الكئيب، في عينيْ تلك المرأة الرائعـة. أحيانا أحس بكريت مثل جسدي، وأشعر بمسؤولية شخصية إذا رحت متألقة، مستغرقة في الشمس، ضاحكة، أو بالعكس. ربّما لن نلتقي بإلسا، لأنها قالت لي في رسـالتها الأخيرة بأنها لم تقرر المجيء بعـد. سوف أنتظـر في الميناء إذنْ... وأكتب إليك. إذْ أنك أحببْتهـا، من خلال بعض جملهـا، تلك المرأة المنغلقة، الشغـوفـة والصامتـة. إنَّها لطيفة، سمـراء، وليست جميلة بتاتاً، عنيدة...

«عوليس» يكبر ويلتهم أحشائي. أحاول، أثناء الكتابة، خنق الصوت الصغير المريع الذي ينـادي في داخلي باستمـرار بأن الحياة شيء آخـر، شيء أعمق، أكثر إشراقـاً، وأشد نزيفاً من هذه التمارين بالحبْر.

كيف اقتصرتُ على أن أكون عالماً، على أن أؤلف كتبـاً، وأحوّل هدف جهدي الفظيع إلى مجرد نقل لحرارة الجسد الساخن للإنسان والحيـوان، وتحويل قداسة ذلك الجسد، إلى كتـابة على ورق فـاقدٍ للحيـاة ومفتقر إلى الـدم؟ أنا رجل اللّمس، أنـا الذي لا أصـدق إلا الأشياء التي ألمسهـا، أنا الـذي ركّزت كلّ قيمة الحيـاة في يديّ. وليس في الخيـال الأكّال للحشيش!

رفيقتي العزيزة كان في إمكاني الرحيل بـلا عودة. وهكذا أغادر الأرض، بكل بساطة وهدوء – ليس لأنني لا أشعـر بقيمتها، بل من فرط إحسـاسي بها تحديداً، ولأنني أحسّ بها أكثر ممّا هـو مسموح به للإنسان. مـا من تفاصيل تستطيع الاستحواذ عليّ، وتقييم فكري، أو تجعلني سجين حلقة من العادات المحبّبة إليّ. أنظر بوضوح شديد وبقسوة إلى الحلقـة الـواسعة. إلى الـدائرة الأوسع. ومـا أن أمشي وأرى، لأول مـرة، جبالاً جـديـدة، وأنهاراً، وأشجاراً، وبشراً، حتّى أتراجع وأكفّ عن التعلق بمغادرة الأرض.

أتذكّـر، عندما بدأ الظـلام يخيّم وكنّا متمدّدين على الـرمل الدافىء، أنتِ جالسـة، وأنا مستلقٍ على ظهـري، أتـذكر كم كنت أرتجف محاولاً مـوازنـة قـوى الكون المتنـاقضـة والمخيفـة، وتثبيتها في سكـون خـارجي، تلك القـوى التي التجأتْ، لثـانية واحـدة، إلى جمجمتي، وتجسّدت فيهـا. فماذا كانت تعني؟ هـل هي رجل وامرأة مستلقيـان، مساء، أمام البحـر – لكن هل يوجد شيء آخـر أسمى من ذلك، في الكون كله؟ كنّـا جيشين بعمر القرون، ممتلئين بالحب، والحقد، والفضول، والترقب.

كنتُ مدركاً ذلك، وأحـاول تدريبك، من خلال كلمات بشرية تافهـة، ممسكاً بيدك، في عتمة سراديب الموتى، سراديب موتى الإله.

كانت هناك لحظات تكرهينني فيها، أو تحبينني، أو تريدين الذهاب، وأخرى تريدين فيها البقاء معي إلى الأبد، وهكذا عشتِ بالتّناوب ، كلّ الجوهر المقدّس والمتقلّب لقلق الإله. ثم، عندما تبرز النجوم، ويهدأ الصراع، ويلين قلبك – لأنك، من دون إدراك، كنتِ تتوافقين مع الحركة المقدّسة والمشرقة للسماء، أي للأرض.

أتكلّم، وتحملني فكرة وجودنا معاً أمام البحر، في الصحراء. لقد خيّم الظلام والسماء تمطر برتابة، بيأس، وأنا أتابع كتابة هذه الرسالة حتى أبقى قليلاً معك...

... ظلّت السفينة راسية لمدّة يومين في الميناء ثارت عاصفة هَوْجاء حالت دون الرّسْوّ. واليوم ارتحلت السفينة إلى الاسكندرية. وهكذا لم أرَ إلسا. أنا مقتنع بأن ذلك أفضل ..

هيركليون (سبتمبر ١٩٢٤)(١)

رفيقتي العزيزة

أسكن وحدي في بيت جيورجياديس، قرب البحر. أحياناً ، في هذه العزلة الكاملة، وأنا أتأمل الأمواج، والصخور، وتحليق الغربان، أحس فجأة بالسعادة. أكتب طوال النهار، وفي بعض المرات أبتهج لأنّ ما أكتبه يبدو لي ممتلئاً بالحرارة، والألم والحبّ، صرخة في منتهى الصدق. ينتهي الإله، طوعاً او كرها، بالاستماع إليها.

آه، لو كنت أتمتع ببعض الهدوء والوقت، كي أتوصل إلى ذلك! أوجد الآن في سَمْتِ قوّتي، ولا أريد إضاعة ساعة واحدة. منذ الفجر، أنحني على الورق وأكتب وأصارع كي أنقذ روحي. وسوف أفعل ذلك ما دمت قادراً. ليس من أجل أن يعرف الناس بوجود رؤيا مشبوبة ومتموّجة في هذا الرأس الأسود، بل من أجل إنقاذ روحي حقاً، وذلك بعد اختفاء جسدي الزائل. رفيقتي، كل يوم أحس بفكري يتقدم، وقلبي ينجلي، وبأن عودتنا إلى العيش معاً، من شأنها أن تجعلني أفضل، معك، أهدأ وأكثر حرارة. و إذا متّ فجأة فإنّ عينيّ المغمضتين سوف تمتلئان بمرأى بحر «ليدا»...، وصخرتنا، والأصداف السّاخنة، وأشجار الليمون المحروقة، وجسدك المشيق الصّلب، وشفتيك المزمومتين، الضّنينتين بالكلام. هذه الأرض ملأى بالمعجزات، وقلبنا لغز يحوّل كل جحيم الأرض إلى نشوة مقدّسة. هل تذكرين تلهّفنا على تحويل «ليدا» إلى فردوس؟

أكتب «عوليس» (٢) ، قلبي يذوب، عوليس، هيلينا، نفرتيتي، يا إلٰهي ما أشد قلقي

---

(١) رسالة إلى ايليني ساميوس.

(٢) كتاب «الأوديسة».

لإنقاذهم، و إيوائهم في بيت شعري في منتهى الكمال. إنَّه الكتاب الذي سوف أحمله معي إلى القبر – مثل المصريين القدامى الذين كان بحوزتهم زورق خشبي صغير من أجل اجتياز الجحيم. لو أننا كنّا معاً في الزورق نفسه، فوق المياه الباطنية الدّاكنة، يا رفيقتي! طيلة هذه الأيام، والليالي، أمسك بك في فكري، بقوة هائلة لا يمكنك عدم الإحساس بها، مهما كان عجز الحواس البشرية. أقول لنفسي إنَّه البحر المزمجرباستمرار أمامي، ولهذا تأتي أحلامي هذه الليالي ممتلئة بحضورك، بطريقةٍ غير معترف بها ولايمكن أن تقال.

وهكذا فإنكِ مرتبطة، في قلبي، بعنصر خالد، هو البحر. مبارك هو، يا رفيقتي بحر ليبيا!

... مريض. عدة أيام في الفراش – حمّى وعُسر تنفس. أعرف : أنها صدمة نفسية. أتحرّر من بعض الاشخاص، وخاصة ليفتيريس الذي كنت أحبه، ولا يحدث ذلك من دون إنهاك نفساني. حصل لي الأمر ذاته مع سكليانوس، وفيما بعد، مع اسْفاكياناكيس. جسدي يطيع روحي باهتمام ووفاء. سوف يتوصل إلى الفهم، متأخرا قليلاً، وهو يصارع ليقتفي أثر الرّوح.

اليوم أحسّ بأنني في وضع أفضل، آمل الذهاب إلى البحر غداً. السماء خريفية، سحب خفيفة وبروق مخنوقة، في المساء. معي، في سريري، دفتر أسجّل عليه، باستمرار، ملاحظات حول «عوليس». هناك بضعة أحلام ساعدتني في الليالي الأخيرة. علامات جيدة. هذا يؤكد أنَّ اللاشعور يعمل وأنا أثق به مطلقاً. ولا أثق بالمنطق البائس، الضيق والمتعجرف، لدى الإنسان.

في هذه الأيام والليالي تلمع قبة أفكاري برؤية الحضارات الكريتية والمصرية – لإنهما المرحلتان الأوْلَيَان في رحلة عوليس الثانية. أشعر بسعادة في منتهى القسوة واللا إنسانية. خلال إصابتي بالحمّى كنت أغمض عينيّ وأراني أودع كلّ الأشخاص الذين أحبهم. وكانوا كلهم نساء. إذاً فإنّ النساء، فقط، هنّ اللائي سوف يأتين لتوديعي ويبكين. أعرف، ما من رجل واحد، بمن فيهم والدي – لأنّ عدد النساء سوف يكون كبيراً آنذاك.

رفيقتي العزيزة اكتبي لي مطولاً. إنَّ رسائلك جافة، صارمة، كالتقارير. كما لو أنكِ تخشين أن يقرأها أحدهم. آه، دعي القلب يعوي!

اليوطوبيا الكبرى

1939 - 1924

هيراكليون (خريف ١٩٢٤)(١)

رفيقتي العزيزة،

تسيطر عليّ الروح مرّة أخرى، طائراً دموياً كاسراً. أنحني على الورق، كامل النهار، فأتمزّق وأتعذب بدرجة لا أستطيع وصفها لكِ. «وكما جمجمة تتصدّع، مفرقعة على نار المحرقة، أنصت، في سكينة أفكاري، إلى الأرض كلها تتشقق!»

هذه الكلمات التي كتبتها مرّة في «بوذا» أشعر بها، بألم وعمق. أنا الأرض ونار المحرقة والفكر الرائق ... ليس لديّ أيّ أمل، أو فرح، أو وهم.

أعرف أن لعبة الظلّ والضوء كلها، على وجه الأرض، وكلّ التمظهرات الرائعة : من زهور، ونساء، وبحر، وحشرات، وأفكار، ما هي إلاّ دخان زائل يصعد من مفترق حواسنا الخمس.

ومع ذلك فأنا مسرور، أحبّ كلّ تلك الظلال بعنف، وأهب دمي كي تبعث، وتعيش فيّ، أبديةً، في لحظةٍ، حتّى تستطيع الخلاص من البؤس والانحطاط، والموت. مع أنني أعلم أن جمجمتي، برغم صلابتها وهذيانها، سوف تتحطّم، وتمّر بها موجات الدود السَّبع، فتُفرغها.

أجهد نفسي كي أعيش في آن واحد، كبرياء كلّ جهد وخلود كلّ لحظة. رفيقتي، كم كانت قليلة تلك السويعات التي قضيناها في «ليدا»! متى أتمكن من العيش بقربك مجدّداً – حتى لا تحزني أكثر من صمتي، ولا من كلامي، وتتمكّني من معايشة أحزاني وأفراحي، والإمساك بروحي بين يديك مثل كرة برونزية؟ أعمل الآن على كتابة «الأوديسة». قلبي زورق شراعه أصفر، وممتلىء من الجؤجؤ إلى الكوثل، بـ«عوليس». لقد بدأ رحلته الثانية، ليجتاز كريت، افريقيا، البحر الأبيض المتوسط، ويلتقي بأفكار، ونساء، وأعمال كان يرغب فيها، يتجاوز حدود الإنسان ويذهب – خالقاً الإله بجؤجؤ زورقه.

تعتقدين، يا رفيقتي أنني نسيتك في هذه الرحلة المريعة والأخيرة. ولا ترين نفسك جالسة في المركب، هادئة، صامتة، منضبطة، مسيطرة على قلبك، مضمومة الشفتين، نهمةً، ومزهوّة. إلى أين نذهب؟ لقد وجّهنا الدفّة نحو الهاوية – غير أنّ عيوننا لا تكل من التمتع بهذا العالم. أنظر إليك فيهتزّ قلبي، لكنّ يديّ تمسكان جيّداً بالدفة، وأنا ابتسم

---

(١) رسالة إلى ايليني ساميوس.

إليك كي أشجعك...

أمضيتُ الليل كلـه معك، في الحلـم. واستيقظت على شفتيّ وجفنيّ مـذاق حضـورك الليلي. فهل هذا هو سبب كتابتي إليك اليوم؟ – لست أدري.

إنه المساء. ، لقـد اشتعلت طيلة النهار، أشعر باليأس والصفاء – كل معـركة النهار الفظيعة في خلاص محتدم وملحّ باتجاهك. إنَّها مكافاتي على يوم العمل، أجرتي.

أحمد اللـه، يا رفيقتي، على وجودك، أشكـر يوم١٨ مـايو الذي رأيتك فيـه لأول مرة، وكل أيامنا ولياليا المقدّسة في ليدا...

الماضي مثل سجادة تلتفّ وتتدحرج، يجرني القهقري إلى بلاد الذكرى. لم أعد شجرة، نسفاً تحميـه أعوام اللّحاء، بل نحلة متخبّطـة تحت رحمة عنكب عملاق. مومياء ما زال قلبها يدق.

هل كنت في مـوضعي «على متـن المركب» الـذي حملك إلى الضفـّة الأخـرى؟ وعوض أن نغوص معاً في الرمال السوداء، لماذا تحولت إلى «ديبوك» [1] جديدة؟.

يـا لهذا الاسم مـن فخّ، هـذه الكنيـة التي نـاديتني بها ذات يـوم في «أرض اسرائيل»! اسم تنبّؤي لأنني اليـوم سجينة سـائس عربة لا يُـرى، لكنه يمسك بالعنان جيّداً...

كم مرّة، متناسيةً *الغياب* هرعت إليَّ عائدةً لآتيك بالأخْبار الجديدة:

فأعلمك بأن الراية منكّسة فـوق قلعة أتيب لأنك قضيت نحبك في فريبورغ... ثم رسالة من ألبير شويتزر يعترف بك أخاً، ثم كلمة شجاعة من ألفاريز دل فايو، عندما كانت قبرص تسلك درب كريت الدمويّ...

هل تسمح لك عيناي، ومـا زالتا تتوقفـان عند التفـاصيل، بالرؤيـة، أنت، يا جـوهـر الأشيـاء؟ هل أمتلك، هل أستطيع، أنـا أيضـا، أن أمتلك تيْنك العينين السـحريتين اللتين كانتا تقودانك في عزلة رحلاتك الطويلة؟

(١) شخصية أسطورية لفتاة، في الأدب العبري، يعيش خطيبها الميت في داخلها.

(هيراكليون ٢٧-١-٢٥(١)

رفيقتي العزيزة ،

أفكر فيك كل لحظـة، أتصوّر كلّ متاعبك، وتـرددك، واندفاعـات الرغبة – مغـامرتك الشخصيـة تكبر في متحـوّلة إلى رعـب وعبث كونيّيْن، وإيقـاع الكـون يتجسـد ويشكل ويكتسب صوتا، وعذوبـة، في وجهك الشاحب، المزهو، والجميل. كيف أكتب إليك. كيف أجعلك تشعرين، إلى الأبد أنني لا أنسى شيئاً، وأن نجـومنا الثلاثة تتلألأ دائماً في رأسي، وأني معك – سواء شئتِ أم أبيتِ، وسواء شئتُ أم أبيتُ؟

إذا أراد النـاس، بشكل عام، أن يختبروا إحسـاساً مـا، ويتـوصلوا إلى وعيـه، فإنهم يطلقـون عليه اسماً. أمـا أنا فـلا أبحث عن اسم – لكن مـا أستشعره هـو وحدة سريـة تتضمن كلَّ الـرقّة والقسوة، من دون بـداية أو نهايـة، إنه تعـرّض إلى قوتين بـلا وجه، قوتين رهيبتين تُزَوْبعَان وتصارعان للتحرّر من أجسادنا الزائلة.

وإذا أنت استطعتِ الشعـور بـذلك دفعـة واحـدة، فسـوف تكتسبين قـوة، تجعلك تدركين أن العزلة لم تعد موجودة بـالنسبة إليك، وأن العـالم قد صار له معنى، والحياة صارت لها قيمة لا تُضاهي، قيمة أبدية...

رفيقتي، أيها المحّيا المحبوب، أود، أنا أيضاً، أن أكـون بقربك. لقد تعذبت وخَبِرْتُ من الغمّ والفـرح المتجـدّدين، مـا أظنّـه كافيـاً ليجعلني، أفهم كل أفـراح وأحـزان إخـوتي وأخواتي، سـوف نتحدّث عن ذلك، ومن جديـد سوف أصارع كي أكسر مـرآة فَرْدانيّتك، وعندئذ تشعرين بروعة العيش، والرؤية والسماع، والمشي تحت المطر أو تحت الشمس، والارتجاف من اليأس أو من اللذة، وتشعرين كذلك بكائن بشري يثب، بقربك، على نفس الإيقاع المقدس والجَزِع.

رفيقتي العـزيزة، هل أتمكـن من رؤيتك، ذات مرة، خـارج اليـونان؟ هل نمشي مـرة أخـرى معاً؟ كما فعلنـا على شـاطىء ليدا الفظيع، ونتـوصل، كما حـدث لنا هنـاك، إلى تحويل الجحيم إلى فردوس، بالصبر والمثابرة والحب؟

...أحيانـاً، وأنا أمشي، أشعر بـالريح والمطر على رأسي الأفـريقي، فأرتعش من اللذة. إلٰهي، إنني أعيش، أحسّ بالريح والمطـر، أتعذّب... كل رؤيـا الارض والسماء تنشج مثل ثمرة نـارية بين أوراق وجودي الداكنة...

---

(١) رسالة إلى ايليني ساميوس.

وكتب إلى لِيَـــا :

كاندي، ١٠-٣-١٩٢٥

لِيَـا ، لِيَــا ، رفيقتي – العزيـزة – صاحبة سمـك الرنكة، أيتهـا اليهوديـة الجميلة الرائعة... كم أفكر بعمق. آمل رؤيتك هذه السنة. سوف أذهب إلى فلسطين هذا الصيف – لقد صرت صهيونياً. آه، لماذا لم أكن يهودياً؟ لا أشعر بأية صلة تربطني بشعبي! أشعر أنني في بيتي، وفي مناخي، عندما أكلم يهودياً ويهوديات، وأضحك، وأسكت...

لِيَـا ، أرجوك، اكتبي لي، حدّثيني عن حيـاتك... أنا أخ، رفيق حقيقي يحبّ ويتعذّب. ارسلي لي صورتك. لا تنسي ذلك!...

هيراكليون ٢-٥-٢٥ (١)

... في المســاء، حتى منتصف الليل، أقرأ أي شيء، فلسفـة، كتباً شيـوعية، شعـرا، ولا أعطي أية أهميـة للاختيار، عوليس مـا زال يكبر، ويلتهم قلبي. أرسلتْ لي راحيل بطبعة ألمانية جميلـة من كتاب «غـاندي» للمؤلف ل.رولانـد، وكتبتْ تقول لي: «هـا هوذا رجل لايحبّ الكلمات مثلك» هـذه اليهودية الصغيرة على حـق. لكنها لا تدرك – فهـي يهودية شابة جـداً – إنّه ليس من الجيّد التسرّع في طلب تطوير الـروح. أنضج دائما بصعوبة فائقـة، ذلك أنَّ لولـب روحي المضغوط جدّاً لا يتمـدّد إلا ببطء قاس. تـوصلت أخيرا، في موضوع الايديولوجيا الشيـوعية،، إلى نتائج غير منتظرة، تحيل إلى الوراء كل نظرياتي القـديمـــة. دائما الشيء ذاتــه. فقــد تحررت من زمن العلم الـذي تملّكنـي، ثم من زمن الفلسفة، كذلك سوف أتحرّر من الفنّ – ولـن يتم لي ذلك إلا إذا أحببته حبّاً مميتاً، وعملت من أجله بكل شغف، وانصرفت إليه بكاملي. إنّها، كما أعتقـد، طريقة الإله، إذْ هكذا تحرَّرَ من النبات، والحيوان، وهو يصارع اليوم للتحـرر من الإنسان. لقد حاولت دائماً توحيد عـدوّين متكاملين: الهوى والـوضـوح، الهوى الملتهب، والمنطق في آن واحـد. فلا يعـدّل العقل التهاب القلب ولا يربك القلب صفاء الروح...

هيراكليون ٢١-٥-٢٥ (٢)

... اليوم عيدك ولم أرغب في تركه يمـرّ من دون الحديث إليك. أنا أيضا أبارك اليوم – ذلك المساء في محطة القطار – الذي رأيتك فيه لأول مرة. أرجو من الله أن نبقى رفيقين إلى

(١) و(٢) رسالة إلى ايليني ساميوس

نهاية هذه الحياة الزائلة والمملوءة بالمرارة – مع الكثير من المتاعب والكثير من الأفراح، كما يليق بقلب الإنسان النابض..

(هيراكليون، ربيع ١٩٢٥) (١)

رفيقتي العزيزة

... أحاول هذه الأيام بعث أرواح الأسلاف القدامى في كنوسوس: أعيش رؤياي كلها، أرى الوجوه، أبكي، أضحك، أحب مع كلّ النساء المتبرّجات، ومع كل الرجال المزهوين ذوي الأجسام الضامرة. أما «عوليس» فإنه يمرّ ويخرّب حضارتهم المنحطّة.

هذه النشوة الخلّاقة تملكتني مرتين أو ثلاثاً في حياتي: مرّة في سيفنوس، ومرّة ثانية في جبل آثوس، وثالثة في قرية سويسرية قرب لوغانو، ثم في ألمانيا قرب إيينا. إذن أكثر من ثلاث مرّات بفضل الله، ويبدو لي أنني ولدتُ من جديد ونجوتُ، وسوف أحاول العيش أكثر في هذه النشوة على مستوى بسيط جداً، ويومي ...

كان نيكوس كازنتزاكي يقطع نشوق الخلق، بين فترة وأخرى، ويذهب في رحلة قصيرة إلى اليونان، وأحياناً، إلى بعض البلدان البعيدة. وفي هذه المرّة، بعد شهر أمضاه في أثينا، وأعقبته زيارة قصيرة إلى ايجين، تمكن من تحقيق حلمه في القيام برحلة عبر الجزر اليونانية.

وفي رسائل تلك الفترة نعثر على المذاق الذي حافظ عليه كاملاً، حوالي عشرين عاماً، كي يجعلنا نتذوقه لاحقاً في كتابه «ألكسيس زوربا».

تينوس ٩ أغسطس ١٩٢٥ (٢)

رفيقتي العزيزة جداً،

سبحان الله على كلّ شيء! كان البحر جميلاً في «سيرا» فجراً. البيوت تتلألأ مثل كومة جماجم، بيضاء نظيفة، مطلية بالكلس، مع ثقوب سوداء في النوافذ المفتوحة. في الساعة الثامنة صباحاً تلوح تينوس، الجزيرة الجافة، يونانية بشكل نموذجي، بلا أشجار، بلا ماء، بيوتها مطلية بالكلس الأزرق أو الأصفر الصلصالي ...

لم نعثر على مأوى، فالفنادق ملأى. ذهبنا إلى شاطىء سوف نقضي فيه هذه الليلة.

---

(١) و(٢) رسالة إلى ايليني ساميوس

وسوف يتأخر طلوع القمر فنرى النجوم : حبّات تين بيضاء، رائعة. أنا سعيد بتلقي هذه الهدايا الحلوة من الأرض. في الغد سوف نستقّل زورقاً شراعياً باتجاه ميكونوس. وهكذا نذهب إلى السعادة الصغرى ...

الجبال هنا، كما أحبها تماماً : عارية، ملفوحة بالشمس، مرتمية في أحضان سماء صافية الزرقة. غير أن الناس سمجون. ومع ذلك تعرفْت على صيّادين في الشاطىء وتحدثنا عن المجوفات المعروفة بزهر البحر، والأخطبوط، والساحرات...

أكتب إليك وأنا جالس في شرفة مقهى، في عزّ الظهر، وأشاهد النساء يتجوّلن على الرصيف المشّع، تحت مظلاتهن الصغيرة، صارمات. متبرجّات، ولا يُحتملن. قلبي يتحطم شفقة. ما من خلاص. لو أنني أتمكن ، قبل موتي، من النفخ على المياه اليونانية الآسنة بعنف محتدم!

ميكونوس ١١ أغسطس ١٩٢٥ (١)

رائعة هي ميكونوس يا رفيقتي. نادراً ما تمتعت بهذا العمق، كما في اللحظة التي شاهدت فيها المدينة الصغيرة البيضاء، وكأنها مغطاة بالثلوج، مع شرفاتها المطلية بالكلس، متلألئة مثل مدينة أضواء، فوق بحر ذي زرقة داكنة مخضرّة. وعندما دخلت الأزقة الضيقة شعرت بفرحة لا توصف وأنا اكتشف كلّ زاوية : سلالم ناصعة البياض، أعمدة، أقواس، آبار في ساحات صغيرة، تين، دُلْب، تحيط بكل ذلك طواحين هوائية، تدير أجنحتها بتكاسل. كل شيء رائع : المدينة، الهواء، الألوان، الجبل القاحل، الناس البسطاء، لهجتهم، التين، العنب، الزعتر، النعناع...

(ميكونوس) ١٢ أغسطس (١٩٢٥) (٢)

نمت بشكل رائع. السماء تدور حول رأسي مجدّداً، والمركب الشراعي يتأرجح بهدوء في الميناء بينما كلب ينبح على بؤبؤ سفينة. نازوس لم ينم. أصابه برد... مقاومته ضعيفة. واليوم لم يستطع المشي، وتوجب عليّ الصعود بمفردي كي أذهب إلى دير بانوميريّا. وجدت في الكنيسة خمس فتيات يُزيّن أيقونة العذراء (قطعة خشب متفحّمة لايكاد يسهل تمييزها). ولقد زَخْرَفْنَهَا بزهور من شمع، وقماش رقيق، وزهور برية، وشرائط، وهن يضحكن ويغنّين كما لو كنّ يجمّلن عروساً شابة. أفكر فيك دائما،

---

(١) و(٢) رسالة إلى ايليني ساميوس

أصـارع كي تستعيدي عـافيتك وتجيئي بقـربي. عندئذ تصير الليـالي والأيام جميلـة، وسوف نتحادث بهدوء ونتفسّح. وتكتسي الجزيرة كلها بالعذوبة والروعة...

ناكسوس، ١٥ أغسطس ١٩٢٥

يرتجف قلبي عنـدما أشاهـد قلعة ناكسـوس. أتسكع في الشوارع العتيقة المألـوفة وأتـذكرك – وأتعـرف إلى المظـاهر : بيـوت كثيرة تـداعت، وينابيع جفّت، وأشجـار تين اقتُلعت. والمدينة تموت. ثمـة بضعة شيوخ وعجائز، وقليل من الشبـاب المتوانين. وفي الليل لا تضاء إلا أنوار قليلة، وتنغلق البيوت كلهـا في وقت مبكر جداً، والرجال يشبهون العناكب في العتبات.

شاهدت البيت الذي سكنّا فيه [١]، والمدرسة، ونوافذ بعض الفتيات:

أوغستينا ، كليُو ، جاكوب، الشبابيك منهارة... البعض منهنّ مات، والبعض ارتحل. وفي الليل تضيء الميناء منارتان أشبه بموكب جنائزي.

قلبي ثقيل وفرح في آن واحد، مثل قلب عوليس لدى عـودته إلى ايثاكا. وثمة تفاصيل كثيرة، مما عايشت، ستتضمنها «الأوديسة». أطـوف في الشوارع معانقا كل ما أستطيع من الجثة المحبوبة...

مثل الشمس في حركتها، متماثلة من دون أن تكون هي نفسها، تعكس أفعالنا ورغباتنا الحميمة عوالم متبدّلة.

معلّم وتلميذة، أخ بِكر وأخت أصغر منه، عاشق وعاشقة، كنّا أشبه بشَرْنَقتَيْن، وُضِعَتَا في مفترق طرق العالم، فنختـار ببطء، كلّا على حدة، سجنيْ قَشرتيْنا كي نتوحّد لدى كل ولادة –نَغْفَتَيْن [٢] عاجزتين عن تحريك أجنحتنـا في أمورغوس[٣] المثالية، فراشتيْن شائطتيْن في فلسطين المتأججة.

---

(١) اضطـرت عائلـة كازنتـزاكي، بين١٨٩٧ و ١٨٩٩، إلى اللجوء في نـاكسـوس، هربـا من مجازر الاتراك ضـد اليونانيين.

(٢) طور من تطور الشرنقة عندما تتحول إلى عذراء.... (المترجم)

(٣) احدى الجزر اليونانية.

وصلت إلى أمورغوس يوم ٩ سبتمبر، ميتة أكثر مني حيّة. ووفق ميثاق سرّي، كـان يتوجب علينـا أن «ننتزع» من إلهنـا عشرة أيـام، كل عام، كي نعيش معـاً، «وحيـديْن متواجهيْن». ومن دون اكتراث أبحـرت بـرغم هيجان ريـاح الصيف الشمالية، في بحر ايجه. ولقد اعترف لي نيكوس فيما بعـد، بالرغبة التي تملكته في إلقائي من السفينة إلى البحر، عندما شاهدني على تلك الحال.

أمورغـوس هـي إحـدى الجزر اليونـانية النمـوذجية في عـرائها السماوي... بالنسبة للآخرين. أما بالنسبة لي فهـي رجل ضامر، ذو سحنة سمراء برونزية، ورأس صغير مستديـر – يمكن مقارنتـه بمحارب «المعركـة» في لوحـة أوتشيلو الموجودة في متحف اللوفر. لم ينجح أحد في رسم صورته. لكن أوتشيلو تمكّن من ذلك. في صخب الفرســان والخيول المزركشة، وحده، مكشوف الـوجه، متماسك الأعصاب، منغمس في المعركة بقدميه، لكن عينيه تنظران إلى أبعد من هذه العوالم – وجه ذلك الحشد نفسه، والمفتقـر إلى وجوه، لكنه يقاتل من دون أن يستكشف قدره.

رجل ذو نظرة منكـدّة وملاطفـة عندما يتفـرّس فيك، بعيداً، ضـائعاً في تأمل الكواكب، ذلقَ اللسان أو صموتاً، بقيـة الوقت. فيصطحبك إلى قلب صمته، غزير العصارة مثل ثمرة ناضجة، ويسمح لك باقتفاء أثره، بكل طيبة خاطر، على دربه الوعر.

عنـدما لا ينكبّ على كتـابة «الأوديســة» – أسمعه منـذ الفجر يقطّع الأبيـات ويعدّهـا على أطراف أصـابعه – يترجم طـاغور . وعندمـا أذهب لأستريح، يكتب رسائله، تلك الرسائل المماثلة للاعترافات أمام أكثر المقربين إليه.

أكملتُ[1] جـولتي في جزر بحـر ايجه. هـذه الـرحلة كـانت رائعـة، مـلأى بالنّـور، والألوان، والتناغم. إن اليـونان الحقيقية تلمع في هذه الجزر، بين أوروبـا وآسيا. أعتقد أنني أدركت للمرّة الأولى، عمق الروح اليونـانية أولا، ثم سبب تحول تلك الروح إلى بذخ بعيدٍ جداً عن أرواحنا اليوم. إن هـذا الجمال الإلهي يفعل فعله، مثل الأفيون في أجسادنا

(١) رسالة إلى إلسا ا. نسخها كازانتزاكي في دفاتره.

وأرواحنا المتلهفة. آمل أن أكون قد تخلصت منه أخيراً...

كانت الحرية بالنسبة إليّ دائماً، ثمرة الإدراك الإنساني الأكثر نبلاً. وآخر فعل *الحبّ*. ولا يتمثل زهدي في إنكار الجسد والروح، بل في الانتصار عليهما من خلال إشباعهما.

هذا الزهد في منتهى الصعوبة والخطورة، لأنّ هذه الأرض رائعة وقلقنا عميق.

وتلك العجوز كاليبسو[1]، كم كانت تنصت، كل مساء، على عتبة بيتها الصغير، قرب شاطىء البحر، إلى حكايات عوليس ذي الأرواح المتعدّدة! فأحدّثها عن النجوم، والحشرات، عن الحبّ والإله، وعن الفراشات والنحل، أنا «ديالي» راوية ملاحم أفريقي، وأحب، وأفهم، بعمق، مثل أعمى، كلّ ما هو مرئي على هذه الأرض.

أحيانا أخاف عندما أدرك خطورتي على روح من الأرواح. أحبّ وأفهم بإفراط... وأنا مندفع أكثر من الإيقاع المعتاد، لكني أعرف أيضاً أنني بذرة إلهية كريمة، عنصر خالد، شعلة حمراء فيما وراء منطق الهندسة الكونية. ولولا هذه الشعلات الحمراء لظلّ الإله في النبات إلى الأبد. إن «شيفا» إله الحب والدمار، لدى الهنود، هو وجه قلبي الحقيقي...

يوم ٤ سبتمبر سجّل كازنتزاكي، في دفاتره، أحد أحلامه. وهو حوار مع صديقه، الأستاذ، والشاعر الكريتي ميشال أناستاسيو:

... عندما أرى روحاً باسلة يتملكني انفعال غريب. أضطرب، أفرح، أشعر بالجوع والحب، وينقضّ طائر كاسر على تلك الروح ويرفض تركها. وكلّ روح، مهما كان جنسها، تبدو لي أنثى، بشارة وحشية، حبّاً عاصفاً، أسرع، أصارع من أجل تأجيج الشرارة التي وجدتها في جسدٍ آخر، حتى تتمكن من التهام كل ما حولها، من أجسام، وأفكار، وقوانين سائدة، حتى ترتفع وتتحول إلى شعلة عالية، حتى تتوحّد بنار الجمر العملاقة التي أسميها الإله.

وهذه الحاجة إلى تأجيج الشرارة ليست حساباً بل هي غريزة لاحمة تفترس الآخرين وتفترسني، تفترس ما هو سامٍ فيّ. وأنا لا أهتم بالثروات ولا بالهدف ولا بالخلاص. إنّها قوة لا واعية تنطلق.

هل يمكنني مغادرة أمورغوس من دون التحدّث عن الجليلة ماريوريتسا –

(١) ماريوريتسا، صاحبة فندق أمورغوس، تولّعت بكازانتزاكي وقالت له: «يا سيدي نيكوس حتّى في «سانتورين» لا يوجد فلاسفة في مستواك!».

نعش آخر! – كان كـانتزاكي يصرخ محتجاً على ما ترتديـه من طبقات سوداء – وأنطوناكي، رئيس الطباخين السابق في فنـدق «بريطانيا العظمى» وابنه المصاب بالصّرع؟

ألم يكن انطونــاكي هو الذي يعطي نيكـوس كازنتزاكي دروساً في السبـاحة أليس هو أيضــا الذي كان يـرتدي ثوب اختصاصــه الفنّي ويقدم لنا، بحـركات كهنوتية، سمك المرجان الناضـج في الفرن، أو المقلي، أو الفراخ المسمَّنة على طريقة ميلانـو؟ هل بوسعي نسيـان «الفندق الكبير»، فنـدقهم الضئيل جداً؟ ومشــاهد الغـروب القصيرة في شهـر سبتمبر، معطّـرة بالتين الأبيض، والليـالي الطـويلـة المرصّعة بالنجـوم، واللحظة التي تأتي فيها مضيفتنا لتجلـس منهكة وسعيدة، أمام «سيّدي نيكوس» وتَهْذل بأسئلتها الدائمة:

– هل النجوم مسكونة بالملائكة، يا سيدي نيكوس؟ أليس في سانتورين علماء أكثر ممّا في أثينا، يا سيدي نيكوس؟

عسل وحليب إلى «سيـدي نيكـوس» وحقد وضغينـة على الشــابـة المجهولـة المنتظرة بين لحظة وأخرى.

– لو أنك تكتب إليها وتخبرها بعـدم وجود أي شيء يؤكل، سيدي نيكوس؟ لا يـوجد حليب، مثـلاً، لا تـوجـد حتى حراشف سمكـة، لا شيء؟ ألسنـا في منتهى السعادة من دونها؟

ومع مجيئي تغيّر مزاجها عندما رأت وجهي الشاحب :

– آه، يا طفلتي المسكينـة، يا لـه من شرّير هذا البحـر! انطونـاااكي! انتبه! لا تقدم أكلاً مقليّـاً اليوم! جهّز شيئاً خفيفاً، ومغـذيّاً، تدبّر أمرك. حميـة «أمومية» لملاكنا!

قبل بضعة أشهر من إقـامته في أمورغوس، تعرّف كـازنتزاكي في كريت، على ثلاثة أشخاص مرموقين : عالم آثار إيطالي شاب، صار مشهوراً اليوم، وخطيبته

أنّا وأختـه إدويغ. كنت أنّا مهيبة وجميلة وذات حضـور كبير. وكانت إدويغ ذات شعر سبجـيّ أسود، وبشرةورديـة وقامـة مشيقة. الأولى يـونانيـة ومسيحية، والثانية يهودية، جوهرة إضافية في مجموعته العتيدة من اليهوديات *الرائعات*.

وسوف يرد ذكر الأثينية الجميلة في بعض رسائل نيكوس، العائدة إلى الأعوام ١٩٢٥-١٩٢٧ . ولقد حـاول رؤيتها مجدداً خلال زيارتـه القصيرة إلى أثينا، إذ كان يحبّ الاختـلاء بها والتحدث إليهـا. وكما هي عادته، فقـد قدّمنَـا إلى بعضنا وأعجبتُ بأناقتها وعـذوبة حديثها. أمـا إدويغ المقيمة في ترِيبِيَاسْتـا، فقد تعرفت إليها بعد سنوات عـديدة. وانبثقت بيننا صداقة تلقائيـة، فأذكينا الشعلة الخيّرة معاً.

أثينا، ١٠ أكتوبر ١٩٢٥[١]

صديقتي العزيزة،

خبر سعيد! سأسافر خلال ثلاثة أيام إلى موسكو!

كـان كلّ شيء جاهـزاً من أجل سفري إلى إفـريقيـا، وفي آخر لحظـة سنحت الفرصـة بالذهاب إلى موسكو فتشبّثت بها بسرور ...

هناك يـا صديقتي، مَن يقود مصائرنـا – إنه نحن أنفسنا. كلّ ما رغبت فيـه، في هذه الحياة الشرسة والمتـوحشة، حصلت عليه لأنني طلبته بطريقة شرسـة ومتوحشة. إن الحقيقة – وهذا ما أختبره كلّ يوم – شيء في منتهى السهولة، عديم الوجه، عديم الإرادة، سائل أعمى، أحمق ومتضرّع. وهي تتـوسل إلى إرادتنا، ويتمثل دورنا في إكسـابها وجهاً وطباعاً ...

سوف أكتب إليك من موسكو. أرجوك، لنقاوم النسيان والكسل والموت! ولنحوّل هذا القلب الصغير، الدافئ والزائل، شعلة صغيرة ومشيقة، لا تنوس ولا تساوم.

إلى اللقاء! وليسدّدْ إلٰهي، ذلك البربري المحارب الدمويّ، خُطاك وخطاي. ن.

---

(١) رسالة إلى إدويغ ج. كتبها نيكوس كازنتزاكي بالفرنسية.

١٦ أكتوبر ١٩٢٥[١]

رفيقتي العزيزة جداً،

سافرت يـوم الأربعاء ولم اتمكن، لم أشأ توديعك. لن أنسى السهـرة التي أمضيناها معاً يوم الأحـد – هادئين، حميمين، رائقين، كما قلنا تماماً : لـوزتين في قشرة واحدة. لَكَم وددت البقاء في تلك اللحظة.

هبت عـاصفة كبيرة في البحـر الأسود. ولم يجرؤ القبطـان على الخروج. ربما نطيل المكوث في مرفأ القسطنطينية ...

.. خيّم الليل، والسماء تمطر، القسطنطينية تتلألأ بأضواء إلى اليمين وإلى اليسار، في أوروبا وفي اَسيا. لم يخفق قلبي وأنا اشاهد المدينة التي يحنّ اليها اليونانيو. في البيوت المضيئة تحت المطر، عشـت معركة الرجال بعيـداً عن اتفاقيات القوميـة. أتعذّب وأحبّ وأتمتع معهم بكل الجهد الإنسـاني، أستشعر همومهـم، وعذوبـة نسـائهم وخيبتهنّ، وتنهّدات أتباع حـزب «تركيا الفتاة» واندفـاعهم، أنا مثلهم، مفعم بالقلق والحبّ والأمل ... أتذوق مـرارة هذه الليلـة المطيرة. في قاعة الجلـوس الصغيرة تثرثـر حولي امـرأتان روسيتـان، والـرجال الـروس يحتسـو ن الشـاي، وأنا، منحنيـاً على ورقـة، أكتب إليك وأحاول جعلك تعيشين بقربي، وقهر المسافـة، والإمساك بك في هذه اللحظة أينما كنتِ، واختطافك، لينوتشكا .....

موسكو، ١٠ نوفمبر ١٩٢٥[٢]

كم سنة مرّت، كم سنة، يا رفيقتي العزيزة، مرّت ولم أركِ! حافة العالم، حافة الزمن، هكذا تبدو لي هذه المدينة المحمـومة حيث أتسكع وأعيش. لم اتمكن من فهمها بعد، قباب ذهبية للكنائس، أعلام حمراء ذات منجل، نساء بشعـات جداً، أفسدهنّ العمل والحريّة، والرجال مسكونون *بالفكرة* – كلّ هذا سـديم، وأنا الذي أحبّ السـديم بشرط اكتشاف الإيقاع الذي يعيد النظام، أتمتع وأصارع، ولقد أصبْتُ بالهزال.

كلّ الأيـام أقضيهـا في المتحف، والـــوزارات، والاجتماعـات العماليـة، والجامعـات الماركسيـة، منتبهاً للجهـود الهادفـة إلى ابتكار فنّ جـديـد – هنا أعيش إغـواء *الأرض*

---

(١) و(٢) رسالة إلى ايليني ساميوس.

الجديدة، من أجل الخلق والمحق، ومن أجل العثور على إيقاع و إضفائه إيقاعاً على الحياة كلها. وهذه الحياة الراكضة بلا اكتراث، تضحك وتبكي، وتلعب، وتسلك طريقها، وتسخر من كلّ الذين يريدون إنقاذها. أتذكر جان جاك روسو المسكين، عزيزي. ألتقى فتاة تدعى جُيوليتّا في أحد شوارع البندقية، وأصطحبها إلى بيته من أجل قضاء الليل. وعندما تعرّت جُيوليتّا، دخلا الفراش، وبدأ جان جاك المسكين يَعظُها كي تعود إلى الطريق السويّ! هكذا يبدو لي الشيوعيون المبشرون بالأخلاق والدّاعون جاهدين، إلى بناء عالم شريف، عادل، وطيب.

... أسكن في بيت يدعونه «بيت الحكماء» لأنه لا يستقبل إلاّ العلماء. ويوجد منهم قرابة عشرين، بين رجال ونساء، البيت رائع ... فوق النهر، نظيف، مريح، وهادىء. لم أتعرف إلى أي «حكيم»، أعمَل وحدي في قاعة الجلوس الزرقاء الصغيرة حيث توجد نخلة في أصيص، أمامي. «الحكماء» الآخرون يعملون في قاعة الجلوس الخضراء، الكبرى، ولكل واحد مائدته الصغيرة. لا أكلّمهم بتاتاً، وهذا خطأ من جانبي، فربّما كان بينهم أحد المرموقين.

أول أمس زرت مدرسة رقص ... وكنتُ المتفرج الوحيد. رقصتْ أمامي قرابة ثلاثين فتاة، شبه عارية، لمدّة ثلاث ساعات. وكان الجوّ يعبق برائحة العرق ومسحوق الأرز. تأملّت «إخوتي الأعزاء، أجساد النساء» قلقاً، يائساً ... لن أتمكن من لمس أي جسد منها، قلت في نفسي، كما لو كانت أشباحاً، كما لو لم توجد. كانت الرقصة من نوع الباليه الروسي التقليدي، ما من طارىء، أو جديد. لاحظت ذلك إلى المديرة، بصوت خفيض، لدى المغادرة «وماذا كنتَ تريد، إذاً» فأخبرتها بما أريده من الرقص، فتملّكها الخوف. عندئذٍ ضحكتُ وقلت لها : «إني أمازحك». كنت ثائر الأعصاب، معذباً، فالرقص والمرأة والموت، تثير في ذلك الإحساس الحلو – المرّ نفسه الذي يميّز الحياة ...

موسكو ٢٠ نوفمبر ١٩٢٥[١]

... تلقيت رسالتك للتوّ. فإذا حياتنا تندفع في الثلوج، مفعمة بالحزن، والفرح، والألوان الفاقعة، والألغاز. تحت نافذتي «يمرّ» النهر، متجمداً، وقد توقّفَتْ فوقه، وفي هذه الساعة الغسقية، آلاف الغربان النّاعقة، وعلى الضفة الأخرى، ما بين أشجار البتولا العارية، تلمع قبة ذهبية. وسرعان ما استعادت حياتي إيقاعها، كما لو أنني وُلدتُ هنا،

---

(١) رسالة إلى ايليني ساميوس.

في هذه الثلوج، مع الغربان والقباب الذهبية. أعمل، وأدرس نظام كلّ وزارة ... كما لو أنّ ذلك سيفيدني في اليونان الصغيرة، البائسة والإلهية. هذه الرحلة جاءت في أوانها، في وقت كنت أصارع فيه طلباً للتحرّر من إغراء الفنّ ... متى نتمكن، نحن أيضاً في اليونان، من محاولة تنظيم أنفسنا كي نبلغ ما يتعذّر بلوغه؟ ما يثيرني في روسيا ليس الواقع الذي بلغوه بل الواقع الذي يتطلعون إليه من دون أن يعلموا أنهم لن يستطيعوا بلوغه. وفي هذا الوهم تكمن قيمة الإنسان كلها، ومن أجل نشوة مماثلة يحلو العمل والموت. أن تستمتعْ الجماهير البشرية - من عمال وفلاّحين ونساء - وتأكل أفضل، وتستنير، هو بالتأكيد هدف جدير بالإنسان، أما أنا فأعتبر كلّ ذلك أوهاماً صغيرة، ملموسة وعملية، فُتاتاً بالنسبة لقلبي الذي ما إن يأكل حتى يزداد جوعاً.

رفيقتي العزيزة جداً، هل يتاح لنا الاحتفال بعيد الميلاد معاً؟ أشعر أنني موجود في طرف العالم، ولا وجود لأي جسر. سوف أحتفل بعيد الميلاد وحدي، في كنيسة صغيرة، أعرفها، ذات قباب خضراء صغيرة، بين عجائز ساذجات ذوات عيون زرق..

.. إلهي، يا لها من عزلة، ويا للنشوة القاسية التي تغزو قلبي! أتذكّرك جيداً، أحس في يدي اليسرى، بوجهك كله : الأنف. الفم، الذقن، العنق - كيف يمكن أن تضيع هذه الأشياء؟ وحتى لو ذهبتِ ونسيتني، فأنا سوف أحتضن ذكراك مثلما أحتضن جسداً.

قدّيسة، مقدّسة، غريبة، هي هذه المدينة، ووجهك هنا يكتسب بريقاً جديداً، كما لو كانت تضيئه هذه الثلوج والمشعة، مثل القباب الذهبية أمامي ...

٢٧ نوفمبر ١٩٢٥[١]

هتفوا لي من سفارتنا، للتوّ كي يبلغوني بوجود رسائل لي. أنا قرب النافذة وأنتظر آملاً أن تكون هناك رسالة منك. زوبعة ثلجية فظيعة، كلّ شيء غارق في الضباب والثلج الكثيف. النّهر لا يُرى، بعض «الطنابر»[٢] المحمّلة تمّر متثاقلة، بطيئة، مثل أشباح، والغربان تنقع. الروح تصرخ عميقاً، وكلها حنين ... قلق عجيب يتملك قلبي. والحياة تلوح لي حمّى مؤلمة، بلا هدف، ومضطربة. ويبدو لي أنَّ الوضع الطبيعي الوحيد للإنسان، والحيوان، والإله، هو الموت. فما جدوى هذا الصراع، وما جدوى هذا الولع،

---

(١) رسالة إلى ايلينس ساميوس.

(٢) عربات ذات عجلتين (المترجم).

ولغز الرجل والمرأة ، لماذا تتحرك قلوبنا، وأيدينا ورُكبنا، بهذه الطريقة؟ ...

وعندما وصلتْ رسـالتك وقرأتها، ازداد حزني، ووجد صدى، كم فكَّـرتُ فيك، ملازمة فـراشك، تصـارعين عـدوك غير المرئي، مجدّداً ! آه! لـو أمـرض أنـا أيضـاً حتى يحقّ لي الحديث عن المارض! ذات مـرة، كما أخبرتك أصبـتُ بمـرض في فيينّـا، فما أشـد فـرحتي وكبريـائي عندمـا أدركت أن روحي ترفض الهلع، وإذا كـان لا بدّ أن تموت فإنها سـوف تتقبل ذلك واقفة، من دون شكـوى، ومن دون تمرّد – كما يخرج المرء من اجتماع، يفتح الباب ويكف عن الوجود.

لـو كنت قربك لـرويت لك حكايـات تحبّينها، حتى تمّر الأوقـات الصعبة مسربلـةً بالفرح. هل تذكرين كيف انتصرنا في ليدا؟ ...

موسكو، ٢٠ ديسمبر ١٩٢٥[١]

... أتحدث هنا مع «قادة» عديدين، وحدها أعمالهم واندفاعاتهم ونارهم المقدّسة ذات قيمة، أمـا أفكارهم فتبـدو لي في منتهى السذاجة. لا أشبع من رؤيـة الثلوج، والغـربان، والكنائس الشرقية، والفلاحين الضّخام، والنساء المتزينات – قلبي يتمزّق لأنني سوف أغادر موسكو.

راسلتني راحيل قائلة إنَّها ستأتي ... هذه الفتاة تمزّق قلبي حقّاً. ليتني أستطيع أن أحسن إليهـا! لو أجعلهـا تضحك قليـلاً، على الأقل! ... أتمنى أن تأتي إلى أثينا فتتعـرّف عليها. هل يأتي يوم نلتقي فيه، نحن الثلاثة، في جزيرة يونانية؟

... اليوم في بيت شيخ مسن، وهو رجل ذو قيمة عاليـة، امتلأت عيناي بالجمال. إنَّه رجل متفرّد يعيش وحيداً، وهو نبيل قديم، يملك أجمل مجموعة من الأيقونات. ولا يمكن وصف جمال العذراوات، والملائكة، والقدّيسين الذين بحوزته. لقد ابتكر طريقه خاصة، وهو الآن مـدير متحف المقـدّسات في موسكـو، حيث يطبق طريقتـه ويحصل على نتائج مذهلة. إذ يعمد إلى نزع مختلف الطبقات المضافـة إلى الأيقونات ... فيتوصّل غالباً، تحت ثماني أو عشر طبقات، إلى الأيقـونة الأصليـة. ولقد أراني عـذراء كبيرة تعود إلى القـرن التاسع عشر. وبعد أن نزع إحدى عشرة طبقة لـونيّة اكتشف الأيقونة الاولى العـائدة إلى القرن الحادي عشر. كيف أصف لك جمالها؟ ... مكثتُ أطـوف في قاعات العـالم سـاعات

---

(١) رسالة إلى ايلينس ساميوس.

طويلة، وأنصت إليه يكلمني وصوته يرتعش هياماً بالأيقونات. وهو لايظهر أيقوناته لأحد. لكنه رآني في المتحف وتحادثنا قليلاً – ثم دعاني.

أعتقد أنَّ في حبنا، وشغفنا بشيء خارج ذواتنا، يكمن خلاصنا الوحيد. هكذا يُهزم القدر، فننسى، وتتغلّب على الموت. هذا الشيخ وعدني بالمجيء إلى اليونان في الرّبيع. يريد أن نذهب معاً إلى ميسترا وجبل أثوس. وسوف تتعرّفين عليه. يا إلٰهي، ما أكثر الأرواح الرائعة التي توجد في العالم! أية قوة تمتلكها الأرض التي تلد وتغذّي العديد من النساء الجميلات، والرجال الرائعين!

٢٤ ديسمبر (١)

عدتُ إلى صديقي المسن. أراني اليوم أيقونة رائعة أخفاها عنّي في الليلة الاولى. هناك أسطورة روسية تقول بأن فلّاحاً شاباً كان يتجول في الرّيف، خلال فصل الربيع، فأصيب بصاعقة ومات. ثم صار قدّيساً. أمّا أيقونة القرن السادس عشر. فهي كما يلي: عشب أخضر، أخضر يانع، يتوسطه شاب رشيق مرتدياً بدلة وردية – بنفسجية. شاب جذّاب يقف وقدماه تلامسان العشب لمساً خفيفاً حتى كأنه يرقص. وخلفه، في الظلمة الكثيفة، أزهار ذهبية رقيقة – تشبه النجوم. وفوقه السماء ملبّدة بغيوم مخيفة وممزّقة ومشحونة بالكهرباء. إنَّها روح الرجل الذي يرقص ملامساً عشب الارض المقدّس في حين ترسل السماء صاعقتها المميتة.

لن أنسى قوة الصاعقة واستخفافها اللذيْن علّمتني إياهما تلك الأيقونة.

رفيقتي، رفيقتي العزيزة، كم وددت أن أكون معك هذا المساء! كلّ هذه الصور المرة والإلٰهية تملأ قلبي وروحي بغنىً كبير. كُوني، على الأقل، في صحة جيدة، كُوني سعيدة. وليأتِ العام الجديد طيباً، متروّياً، مع أيامه العشرة(١)....

١٩٢٦ . أصابع غير مرئية تحرّك لي حبّات سبحة الزمن. ١٩٢٤، ١٩٢٥، ١٩٢٦، وما يعادلها من قطرات عسل على يدي المبسوطة. «الأيام العشرة

---

(١) رسالة إلى ايليني ساميوس

(٢) الأيام العشرة التي تواعدنا على تخصيصها لنا، كلّ عام.

التي هزّت عالمي» صارت ألف يوم، عشرة آلاف يوم، ولم تعد تحصى ...

من ٢٧ ينـاير إلى ٢٥ إبريل ١٩٢٦ عاش كـازنتزاكي في أثينـا، في قلب المدينة التجاريـة. وبعد طـلاقه الرسمي التجأ إلى أختـه الثانية، في غـرفة ضيقـة تشبه صومعة ناسك، تكدّست فيها الكتب والأيقونات، مع قناع نيتشه فوق الباب. وفي هذا الملجأ سوف يكتب انطباعاته عن الاتحاد السوفياتي. ويعبّر عن رأيه بصراحة قاسية. فيكشف عن محاسن النظام ومساوئه ويعبّر عنها بكل وضوح. فهو أبعد ما يكون عن النفاق. وبذلك يثير غيظ اليسار واليمين، بينما يمتدح الوسط جمال الأسلوب وقـوته. ومع ذلك تزداد شهـرة كازنتزاكي. ويتـوّج كأبرع من كتب في جنس «دفاتر الطريق».

والمقالات التي نشرت في الصحيفـة الأثينية «إلفتيروسْ لُوغـوسْ» سوف تنشر لاحقاً في جـزءين بعنوان : «ما شاهـدته في الاتحاد السوفياتي». وفيما بعـد وإثر زيارته الثالثة إلى الاتحاد السوفيـاتي، تمّ تشذيب الكتاب من الاحصائيات ونُشر في مجلّد واحد، أضيف إلى سلسلة «الرحلات». وكما عـرفنا، فإن كازنتزاكي كان يكـره أثينا. ومكّنتْـه صحيفـة «إلفتيروسْ لـوغوسْ» من قضـاء عيـد الفصح في «الأرض المقدّسة».

– في إمكـانك مرافقتي، إذا شئتِ! قـال لي ذات يوم، وهـو ينظر إليّ من طـرف عينه.

أذهب إلى فلسطين، وحـدي، بـرفقـة رجل! حتّى لـو كنـت الإلـه، الأب، فإن الأوصياء عليّ سوف يفضحونني!

– حـاولي الحصـول على بطـاقـة صحـافيـة. وهكـذا يغتّر الأوصيـاء عليك، ويباركونكِ، نصحني نيكوس الذي تجعله المحبة ماهراً ولبيباً، أحياناً.

– سوف أكلّم خالتي الطيبة خاريكلي في الموضوع.

– من الأفضل أن تذهبي إلى فلاخوس.

وسُرّ جـورج فـلاخوس، صـاحب جـريـدة «كاثيميريني» وأعطى الفـرصـة للصحافية المرشحة.

– موافق! إذا أعجبتني مقـالاتك فسوف أنشرهـا! مرّي غداً لتأخـذي بطاقتك الصحافية.

لقد حافظت بحبّ على تلك البطاقـة الصغيرة البيضاء، المستطيلة، كانت أخفّ من ريشـة لكنها تعـادل وزنها ذهباً فـوق كفّة قـدري. وها هي ذي الآن مفتـاح سجني! إليّ بعرض البحر!

من بين أفراد مجموعتنا الصغيرة(1) كنت الوحيدة التـي لم تخرج من اليونان قط. هل أعترف؟ لقد كنتُ أتألّم من ذلك كما لو كـانت بي عاهة. وفي المدرسة كنت أبتـدع عواصم سـوريـالية: «في بـاريس قـد أضيع محمـولة فـوق رصيف آلي متدحـرج... ومن قمة برج إيفل يمكن للجميـع التزحلق على مزلقـة من أبنوس... الرجال مقـرفصين بقبعات من قش مربوطة مثل طيـارات ورقيّة... والنساء مثل الأمازونيات بعضـهن يحملن مظلات. المظلات *الباريسية* ذات الطبقتين المتراكبتين، واحدة للشمس، والأخرى للقمر...

لكن ماريكا سرعان ما اكتشفت التدجيل فكتبت لي تقول مغتاظة: «إذا تماديتِ بالكذب فلن تظلّي صديقتي»، وكثيراً ما عاودتني الرغبة. لكن، ماذا أفعل؟...

يوم ٢٥ ابريل امتطينا متن السفينة، في طقس هادئ، قاصدين حيفا.

فلسطين – *الكتاب* صار جسداً لجسدنا، رسالة حب وقتل تتكرر أبداً.

«الغولغوتـا» عارية. مشهد قمري. ما من طـائر في السماء، ما من شجرة على الأرض. ولم يعد للريح شبّابـة تنفخ فيها، والشمس تنضـج ثلاث جثث معلّقة في أشجار بلا أوراق.

وعلى صفحـات الـرق الصفـراء الكبيرة، مبقعـة بقطـرات دم، هنـا وهنـاك، موسومة بآثار أقدام ما تزال طريّة للمسيح، أربع ذبابات صغيرة لا تكاد تُرى، في رفة عين:

ثلاث فتيات ورجل. أيّة ذكرى من تجاربنا يتوجب عليّ اقتلاعها من النسيان؟

---

(1) رافقتنا كاتي وماريكا بابا يُوانّو.

تعقبنا ظلّه في أسواق معطرة بالقرفة لا تقل غرابة عن الوجوه المتحجّبة، ولا تقل رطوبة عن آبار الصحراء... شاهدناه مقرفصاً قرب نار موقدة، على ضفة بحيرة طبرية، يشاطر الصيّادين أكلهم. وراقبنا تحوّلاته العديدة. وتَمْتَمْنا بالنّحيب على شاهدة قبرهِ، وناديناه بأصوات انتصارية، مع المؤذّن، برقبة مشرئبّة وكفّيْن على الأذنين.

نسينا الإلٰه ورسله كي نتعرّف أكثر على رفيق دربنا، مستمتعات بشغفه، متحملاتٍ صمته الثقيل. وأخيراً كتبت لنا رؤية اثنتين من «يهودياته»: في القدس، مع مجموعة من العلماء، كانت إلسا الصامتة، المشغوفة، القادمة من إيبينا. وفي تل أبيب، ليّا، أو «جونون» الرائعة القادمة من بولندة، وقد استقرت على ساحل البحر، في المدينة الناشئة.

وبسبب النجاح الكبير الذي حققته حفلات كاتي وماريكا، أضفنا قبرص إلى جولتنا، وكدنا نتراجع عن زيارتها لشدّة ما أنهك فراق إلسا رفيق دربنا. ولقد كتب كازنتزاكي آنذاك:

قبرص هي حقاً وطن أفروديت. إذ لم تسبق لي رؤية جزيرة أكثر أنوثة منها، أو استنشاق هواء أكثر تشبّعاً بالشهوة الخطيرة. أشعر بالاسترخاء. وفي المساء عندما تغرب الشمس، وتداعب النسمات البحرية المراكب الصغيرة، وتخرج النساء للتنزه على الشاطىء، تسترخي روحي، مثل افروديت، القديسة العاهرة.

هنا، تتغلغل فيكِ عذوبة عميقة، مثل رائعة الياسمين. ويداعب أذنك صوتٌ تنصت إليه مبتهجاً: الفكر اندفاع معاكس لإرادة الحياة. توتر الروح وإشباعها هما من أكبر الخطايا السّلفية. كُلُوا، ناموا، احبّوا، تجوّلوا على شاطىء البحر.. (١).

عزيزتي ، عزيزتي قبرص! لقد غادرت افروديت تلك الأمكنة منذ زمن طويل، تاركة محلها لـ «آريس». نعم لقد تغيّرت الحياة كثيراً في قبرص، منذ ذلك الوقت. وحدها كلمات سلطان الحجاز الهرم، المنفيّ إلى هناك، ما زالت تحتفظ براهنيّتها:

«من بحر يهوذا إلى المحيط الهادىء، قال لنا، سوف يثور المسلمون كي يرموا

---

(١) نص غير منشور لنيكوس كازنتزاكي.

بـاليهـود إلى البحر. و إذا لم يحدث ذلـك في العام القـادم، فسـوف يحصل بعـد قرن!...».

غادرنا أثينا التي عُدنا إليها، وهرباً من القيظ التجأنا، أنا وشقيقتاي، إلى جبل بيليون. وظل نيكـوس بالعاصمـة يعمل بكدّ. وعـرضنا عليه أن يأتي للـراحة في تسانغارادا[1]. ويجلب معه آلة كاتبة لنعلّمه كيف يستخدمها.

(نهاية يونيو ١٩٢٦) [2]

... الآن، أخلي مكتبي من الكتب العبرية والروسيـة الخ. وهو ممتلىء بكتب أسبانية، دون كيشوت، كالديرون، لـوب دي فيفا، سانتا تيريزا. بايديكر اسبـانيا، الغريكو، [3] kultur der Araber، الخ، الخ...

هناك أنـاس مجهولون... يأتـون، أو يراسلونني ليقـولوا لي إنَّهم أحبوا مقـالاتي لو أنني أنشر أشياء جيدة حقاً، فسوف يسكتون كلهم، أو يشتمونني...

أخرج وحدي ليلاً، تحت القمـر الرائع، وأتجول. كلّ شيء جميل على هذه الأرض، وأنا سعيد، لأنني أستطيـع، بحماسة فائقـة، أن أتوحـد بالأرض وبـالسماء، وأجعل لحظة حيـاتي القصيرة، خالـدةً، وبتحـرّري من كلّ أمل وخـوف، متخلياً عن كل طمـوح، وفي منتهى الصفاء والتأثر، أهيم على وجهي، مستأذناً العالم بالذهاب. أفكّر فيك دائما خلال عزلاتي، وأحيانا يرسل جسدي ظلّين نحو القمر. آه، لو تتمكّنين أنت أيضا، في عزلتك، من رؤية هذا القمر بحماسة وصفاء...

(نهاية يونيو ١٩٢٦)[4]

عزيزتي لينوتشكا،

لدي عـدة مشاريع في رأسي ولم أتخذ قرارا بعـد. اقترح عليّ كافـافاكيس أن أذهب إلى حيث أريـد – قلت له: اسبـانيـا، مصر، الهند، ولم يـرفض. سألني عما إذا كنت أرغب في الذهاب إلى رومانيا أولاً. فاحتفظت بجوابي.

---

(١) ضيعة في جبل بيليون

(٢) رسالة إلى ايليني ساميوس.

(٣) ثقافة العرب ، (المترجم)

(٤) رسالة إلى ايليني ساميوس.

... أفكر في الذهاب إلى تسانغارادا في شهر يوليـو القادم. سوف أحمل آلة كاتبة سهلة النقل، إذا استطعتُ اقتنـاءها، حتى تعلِّمْنَني كيف أستخـدمها. قبل مغـادرتي أريدُ رَقْنَ نص كتابي حـول روسيا، من أجل النشر... جمعت كل ما أملك من كتب حول اسبـانيا، والغريكو، الخ،.. رأسي الآن ممتلئة باسبانيـا. أريد إنهاء زيارات هذه البلدان، كي أتمكن من العمل بهدوء، ومن دون إغواء...

أخيراً، ها هـوذا نيكوس تحت سقف بيتنا. كـان فرحاً، وخجـلاً، وحذراً، مثل طفل أُهْدِيَ كرة حمراء.

أول درس في الرقن. لكن ما أسهل إنجاز العمل عوضاً عنه، بينما ينغمس هو «في بحر الأبيـات (الشعرية) الأفقيـة».... فلا أقـاطعه إلا لتقديم فنجـان القهوة وشراب الفواكه - جَوْز أخضر مـن اختصاص دِيَامَنْتُولاَ (١). وأنتظر نـزوله كي نذهب للنزهة تحت أشجار الـزّان والكستناء... والاستراحة في الباحات الصغيرة النّـديّـة للكنـائس، وإرواء عطشنـا من ينـابيع كثيرة، والتـزام الصمت من أجل الإنصـات إلى حوارهـا (الينابيع) مع الحشرات، ونسيم الأغصـان... وشمّ تربـة الغابات والهواء المالح، القادم من البحر... ورؤية حدود جبل سكيروس متمرئية من بعيد، وربّما مرتفعات جبل آثوس أيضاً، مع هبوب الريح...

ونثرثـر في المساء مع ديـامنتولا وفـانّي وأمهما، مشيقات القـوام مثل الماعز الجبليّ، متحفّظات كسائر الفلاحين اليونـانيين. وندرك أن وراء مظاهر الثروة في هذا الجبل السحـري يختفي فقْرٌ محزن حتى ليخجل من الكشـف عن نفسه... وكثيراً ما يقتصر غذاء النـاس، في الشتاء، على طحين الكستناء. وفي أيام الـزَّفَر(٢) يتقاسم كل ثـلاثة أشخاص بيضـة واحدة. فيحنّ المرء إلى استعادة مـذاق الخبز البائت! وتتنهّد ديـامنتولا معترفة لنا: «ليلـة عيد الميلاد أقف أمام بـابنا وأنتظر. فتغضب فانّي والـدتي. أعرف جيّداً أننا لا نتـوقع شيئاً من أحد، لاننـا لا نعرف أحداً من شـأنـه أن يفكّر فينا. لكن ذلـك أقوى منّي... أنتظر ســاعي البريد مثلما

(١) الإبنة البكر لمالكة البيت.

(٢) أيّام يُسمح فيها بتناول اللحوم. (المترجم)

ينتظره الجميع...».

لاقت مقالات كازنتزاكي، حول قبرص وفلسطين، نجاحاً كبيراً. وبالنسبة لرحلة نيكوس التالية، اختار كافافاكيس اسبانيا. ونظراً لعدم تمكن نيكوس من اصطحابي، فقد وضع خطة للقائنا المقبل، قال لي:

- لقد أعجب جورج فلاخوس بعملك. أنا متأكد أنه سوف يقبل بتعيينك مراسلة لصحيفة «كاثيميريني» من باريس. ما أكثر المباهج التي تنتظرك هناك! أي غنى لروحك! لكن، لا تسافري عن طريق مرسيليا، اذهبي عن طريق روما. وهناك سوف أنتظرك لدى عودتي من اسبانيا. ونسير في شوارع روما، اليد في اليد!

(أثينا) ٢٤-٢٥ أغسطس ١٩٢٦ (١)

حبيبتي ! أثينا هادئة اليوم، والشعب المسكين مسرور بسبب الإطاحة بـ «بانغالوس» (٢) وحلول «كونديليس» (٣) محلّه. والجنود نفسهم الذين خدموا النظام القديم يخدمون الجديد، بشراسة وقلة وعي. وهذا يثير اشمئزازي. الشعب، بل كلّ الشعوب، لا تدرك جذور الشر وتفرح بتغيير سيدها، من دون أي فهم أو كرامة.

ربما يؤخر هذا الحدث سفري. أنا جاهز للخير وللشر، بقلب سوي، مستقل. والأحداث الخارجية تسقط عليّ من دون أن تخلّ بالتوازن الصعب والمأسوي لروحي الواقفة، العنيدة. من بين كلّ التعريفات التي سَعَتْ إلى وصف الإلـه، يعجبني هذا التعريف : «الربّ قلب واقف في ساعته».

لينوتشكا الحبيبة ... أحاول توطيد سيرة سلوكي في ذاتي أولاً، ثم في الحياة الخارجية : مغادرة اليونان، تكثيف العمل، إنجاز «الأوديسة»، الانخراط في حركة عالمية خصبة، وتكونين معي لأطول وقت ممكن - يا شريكتي! الحياة في منتهى القِصَر. ولا تقدّر بثمن، ومن العار تبديدها في التفاهات.

(حوالي ١٩ أغسطس ١٩٢٦)(٤)

لينوتشكا الحبيبة، كان كلّ شيء جاهزاً لرحيلي بعد غدٍ، السبت، عندما جاءت غالاتي(٥) لرؤيتي وطلبتْ مني انتظارها حتى نسافر معاً، يوم الخميس ٢١ أغسطس.

---

(١) رسالة إلى ايليني ساميوس.

(٢) و (٣) جنرالان دكتاتوريان تسلّطا على الحكم في اليونان.

(٤) رسالة إلى ايليني ساميوس.

(٥) كانت غالاتي ترغب في السفر إلى باريس وتخشى الذهاب بمفردها.

أوراقهـا ليستْ جاهـزةبعـد. وافقتُ مقتنعاً بأن مغـادرة غـالاتي لأثينا من شـأنها أن تنقذها.

إذا أكملتُ رحلة اسبـانيا ولم يتمكن كافـافاكيس من إيفادي إلى مصر والهنـد، سوف أفكـر في قبول منصب مـراسل في بـاريس ... ثمة ضـواحٍ رائعـة حول بـاريس، وهي في منتهى الهدوء، وقـد قيل لي بانه يمكن العيش فيها بـ ٢٠٠٠ دراخما شهريا. وفوق ذلك فإنّ باريس في هذا الوقت تتحوّل إلى مركـز مهمّ للحياة الثقافية والروحية. وهناك روس يمرّون بها. ولقـد قدّم مسرح موسكـو العبري المعروف، عـدّة عروض فيها، هـذا العام، الخ، الخ ....

٢٤ أغسطس ١٩٢٦(١)

اختفتْ غـالاتي. ذهبنـا معاً لالتقـاط الصـور الضروريـة لجواز السّفر، واشترينـا الأوراق المدمـوغة الخ، الخ ... لكنهـا لم تظهر. مـن المؤكد أنّها لن تسـافر. لقـد قمتُ بما أستطيع فعله بكلّ حبّ ... من دون طائل. المادة انتصرت على الروح.

.... بدأ مطـر ناعـم بالهطول. عـادَتْ لتَتَملّكني القشعريـرة المظلمة التـي تبعثها فيّ الأمطـار الاولى. تمنيتُ لـو كنت معك في هذه اللحظـة العسيرة. أنـا وحـدي في الغرفـة، وللأرض رائحة تربة حديثة الحرث.

... نزلت هذا الصباح إلى بيرّي واقتنيتُ تذكرة إلى مرسيليا ...

الباخرة أتّيكي ٢٩ أغسطس ١٩٢٦(٢)

لينوتشكـا الحبيبة، هذه الـرحلة رائعة، وتشبـه تلك الرحلات التي قمنـا بها معاً : البحر، النداوة، والفرح بمغـادرة اليونـان. الرّكاب لا قيمة لهم، رجـالاً ونساءً، باستثناء يهودية شقراء، أنيقة، ذات يدين جميلتين ... أنا في قـاعة الجلوس حيث تعزف موسيقى شنيعة. وهناك امرأة ترتدي الأخضر، ترقص. شـاهدتها في بيرّي تودّع الرجل الذي كان يرافقها بطريقة جدّ مؤلمة، حتى أنّ قلبي تفتّتَ. وبعد رحيلنا أحاط بها كثير من الرجال، فكانت تضحك، ومع حلـول الليل صعدت، ممشوقة القـوام، مبتهجة، إلى جسر السفينة برفقـة رجل. وتفتّتَ قلبي من جديد لأنني تذكّـرت ليدا(٣). هذه الحياة فظيعـة، غريبة، تتجاوز قوانـا، ومن أجل المحافظة على وحدة روحنـا وسموّها، يتوجب علينـا بذل جهد

(١) و(٢) رسالة إلى ايليني ساميوس.
(٣) «ليدا والأوزة»، في المتحف البريطاني.

متواصل ومرهق. هناك قانون لا-إنساني، فوق إنساني، يحكم الأرض، وإذا أردنا السيطرة عليه وتحمله، يتوجب على قلبنا أن يتحطم. ترى، مقابل أية جهود تمكنتُ، داخل جسدي الفاني، من السيطرة على ذلك القانون المريع. لن أستطيع أن أصف لك ذلك أبداً. يا لينوتشكا. وإذا توصلنا إلى العيش معاً، سوف تدركين الجهد الهائل الذي أبذله للمحافظة على ذلك التّوازن. أحسّ بعزاء كبير عندما أفكر بأنك توجدين، وأنني سوف أراك، ونبقى معاً، نتحادث أو نصمت. كم ستدوم هذه الفرحة؟ أطرح السؤال وقشعريرة لذّة وموت تخترق كياني. ليكن الله معنا، ليحفظ الله روحنا متيقّظة طاهرة دائماً، من دون مساومة غير مشرّفة. ما أقصر هذه الحياة وما أشد تبديدنا لها في الدّناءات! ليس هناك عزاء أكبر من قهر الدّناءة. أحياناً، أتأمل فينوس غاربة، ثم المشتري (جوبيتير) صاعداً في السماء، وبعد لحظة، أريس وهو ينبثق، أرجوانيّاً، من البحر. كلّ هذه النجوم صارت ملكنا، وهي تثبت اللحظات الإلهية التي عشناها معاً. متى تأتي الليلة التي أستطيع فيها تأمل هذه النقاط المضيئة الخالدة من دون أن ترتجف روحي؟ .....

مدريد، ٤ سبتمبر ١٩٢٦[١]

لينوتشكا الحبيبة،

أنتظر أن تتّضح انطباعاتي حتى أتمكن من الكتابة إليك بهدوء. أثناء اجتياز جبال البيرينيه، فجر الأول من سبتمبر، وجدتُ نفسي أمام خطر محدق. إعصار فظيع ....

..... وقد حادت قطارات عديدة عن السكة، وكان هناك العديد من الضحايا. لكن قطارنا نجا. لقد تنبأتْ لي امرأة أرمنية بهذا الخطر، وبأنني سوف أبلغ هدف حياتي، لكن فيما بعد ...

.... مدريد، مدينة أوروبية كبيرة ... متحفها أعجوبة كبرى. كيف أعبّر لك عن تأثّري عندما دخلت إلى القاعة التي تضّم قرابة ثلاثين لوحة للغريكو؟ أتعجل الرحيل لزيارة طليطلة! إلهي، ما أشدّ فرحة العيش وامتلاك عينيْن! ...

... حتى الآن بدا لي الرجال بشعين جداً، والنساء كذلك. العجائز منهّن، أقرب إلى المسوخ، والشابات نشطات، مزغّبات، يضعن وشاحاً على شعورهّن دائماً، ويتزيّن، وهنّ جدّ متوقّدات، لكنني لم أعجب بعد، بأي واحدة منهنّ. ربّما لأنني انصرفت بكاملي إلى الغريكو، وإلى عنف الاتصالات الأولى بهذه الأرض الجديدة.

---

(١) رسالة إلى ايليني ساميوس.

الرجال الذين التقيتهم حتى الآن لا شأن لهم ... ومع ذلك فإن البلاد ذات طابع قاسٍ، تقشفي، زهدي - نشعر أن الفرسان ذوي الوجوه الحزينة وُلدوا هنا، وماتوا من أجل فكرة مجرّدة من الماديات. مرتفعات قشتالة تبعث هلوسة مماثلة للإثارة التي ولّدَتْها فينا جبال أريحا. والقرى الأسبانية تشبه القرى العربية كثيراً - بلا ماء، بلا أشجار، مع حجارة مماثلة في الجبال المحيطة. والبشر قليلون هنا أيضاً، كأنهم مَنْحوتُون في الصخر بدورهم، إنهم أناس ضامرون، بارزو العظام، غائرو العيون، حليقو الرؤوس. لم أكن أتوقع مثل هذا التشابه، وأنا سعيد بالتمكن من الفهم العميق للتاريخ الزهدي، المتقشّف والمأسويّ، في هذه الأرض الشهيرة المتردّية.

أهيم في الشوارع وحيداً، صامتاً، ملتهب العينين، وأتشبّع بهذه الرؤيا الأفريقية ...

مدريد، ٦ سبتمبر ١٩٢٦(١)

فرحة عارمة بالعودة وبالكتابة إليك. اليوم انفعلت بشدّة. إذ تعرفْت على مؤسس متحف الغريكو، المركيز دي لا فيغا إنكلان. دعاني إلى تناول العشاء في بيته. وتحدثنا عن الغريكو كما لو كان صديقاً، جدّ معروف، وجدّ محبوب - وعن زوجته، وابنه، وأعماله، وطباعه، وبعض الطرائف المتعلقة به. كنت أوّل كريتي يأتي لزيارة الغريكو، بعد ثلاثة قرون. فجاة، وعندما كنّا نتناول الفواكه ونحتسي نبيذ مالقا اللذيذ، أشار المركيز إلى الخادمة، وبعد هنيهة، لاح أحد الخدم حاملاً لوحة كبيرة. وما أن رفع الغطاء المخمليّ الذي يغطيها، دفعة واحدة، حتى وثب قلبي : كانت أمامي رائعة أعمال الغريكو : القديس لويس في القدس، وطليطلة في خلفية اللوحة. عثر المركيز على هذه اللوحة، منذ بضعة أشهر، في دير أسباني، فاقتناها. لم تسبق لي رؤية بشرة صَدَفيّة لامعة مثل بَشرته، ولا وجهاً أكثر طيفيّة، ولا عينين زرقاوين أشدّ غوراً، وكانت السماء رمادية وخضراء، مثل بحر هائج.

كان المركيز، بجانبي، ينفخ بهدوء، مثل بهيمة، إذ كانت سعادته عارمة. ولقد وهب الدولة عشرين لوحة للغريكو، لكنّه ينوي الاحتفاظ بهذه، حتى موته. وعندما يسافر يُودِعُها في خزائن بنك اسبانيا، خشية أن تتعرّض للسرقة.

أخال انني سعيد. لقد تعذّب قلبي كثيراً، واستمتع كثيراً، وفهم الكثير من الأشياء، حتى أنه لم يعد، مع التوتّر، سوى طيف، وينتظر الموت بلامبالاة، في أية لحظة.

---

(١) رسالة إلى ايليني ساميوس.

أفكر أحياناً أنَّ قلبي تجاوز الحياة والموت – أرى كلّ الاشخاص وكلّ الاشياء الزائلة في الأرض بشغف عارم حتى يبدو لي أنَّها تتلاشى، وتغوص في عينيَّ.

لينوتشكا، أيتها الروح المحبوبة، والجسد المحبوب، سوف أبذل كلّ جهودي لتثبيت وجودنا، نحن الاثنين، في الأثير السامي والمتلألئ، حيث نتنفّس اليوم. ما أقصر هذه الحياة، يا إلٰهي! فلنبذل قصارى جهدنا كي نصون علاقتنا الإلٰهية. لو كنتِ معي في إسبانيا، لكانت هناك إسبانيا أخرى...

٧ سبتمبر ١٩٢٦(١)

قبل قليل رأيت بريمو دي ريفيرا ... رجل قليل الذكاء يحركه مع ذلك إلهام أسمى منه – إنَّه الإلهام الذي يدفع بالناس اليوم إلى التطرّف، في تنظيمات اليمين المتطرّف أو اليسار المتطرّف...

أعمل بلا انقطاع. أهيم كامل النهار في الوزارات، أدرس القوانين، أسعى إلى معرفة ما أنجز في اسبانيا منذ الحرب، في مجالات الاقتصاد، والسياسة، والتجارة، والصناعة، والزراعة، والعلوم، والفنون الخ ...

أعود إلى كومة من الكتب، ولا أكاد أنام، لقد تملّكني مجددًا هوس الذهاب إلى آخر المهمّة التي بدأتها. فلتحلّ النعمة بوالدي الذي وهبني صحّة سبْع ...

مدريد ١٠ سبتمبر ١٩٢٦(٢)

... الأيام ملأى والليالي بلا نوم. أشعر بهيجان عصبي، ولا أحد بجانبي كي يرعاني، ولا أترك أية راحة لروحي.

أول أمس، شاهدت سباق ثيران. وكانت صدمة لا توصف. لا أريد أن أحدثك عنها حتى لا أعيش هولها من جديد.

عدت الآن من الاسكوريال ... ذهبت إلى هناك لمشاهدة لوحات الغريكو الخمس، بالخصوص ... يا إلٰهي، يتوجب علي المرء رؤية أعمال الغريكو ولمسها ... اللمس، النظر ... هل تتذكرين كم أحبّ حواس الإنسان؟ جسد الإنسان المقدّس؟ هكذا أكون قد لمست ذلك *الكريتي*، اليوم في الاسكوريال وكلّ يوم في مدريد وبعد غدٍ في طليطلة. أنا منهك وسعيد. الغريكو صار درساً بالنسبة لي، قدوةً، يدلني على الطريق التي يتوجب عليّ

(١) و(٢) رسالة إلى ايليني ساميوس.

سلوكها... إلهي، اجعل لقاءنا مثمراً.

... تعرفّت على دون خوان رامون خيمينيث - أكبر شاعر في اسبانيا. تحدثت معه مطولاً اليوم، وأنا أودعّه ... كانت مفارقتي للغريكو في متحف مدريد قاسية، حاولت حفظ ما رسم من وجوه وأجنحة، وملائكة، وبشر، وألوان ... لأنني لن أراهم مرّة أخرى...

طليطلة، الاثنين ١٥ سبتمبر(١)

لقد وصلت حتى المأوى القاسي للغريكو. كان قلبي يدق بقوة أثناء المسيرة بين مدريد وطليطلة. كم تمنيّتُ ، منذ شبابي، إنجاز هذه الزيارة إلى الـ Genosse المدهش! «قدر الإنسان الحقيقي هو أن يحقق في سنّ النضج، ما أراده في الطفولة» وكلّ ما أردته تقريباً حصلت عليه بالكفاح، مع صعوبات جمّة وبفضل اندفاع الروح وحده. عندما تفحصّت طليطلة، ثم عندما بدأت، ببطء وبكثافة، أهيم في شوارع المدينة، وأستعيد حياة المباني القديمة، ثم اجتزت عتبة مسكنه، ودخلت الحديقة، وعندما صعدت إلى البيت، إلى الغيتو - كان الغريكو يحبّ اليهود إلى درجة أنه أمضى حياته قاطناً في حيّهم - باركتُ، مرة أخرى، لحظة ميلادي.

مع ذلك لم يرتبك رأيي : لم تكن طليطلة كما كنتُ أتوقعها - أين هي القدس وميكونوس وموسكو! تلك هي المدن الثلاث التي أدهشتني. ولم تكن طليطلة مشهداً مأسوياً كما تمنيتها، هل تذكرين جبال أريحا؟ هذا المشهد يذكّر بكريت، في نواحي كنوسوس. زياتين وتربة حمراء. والضّيعة تغطي منحدر تلّة يجري في سفحها نهر التاج. هناك فقط، على صخور ضفة النهر، أحسست، وفهمت بعنف، روح الغريكو. هذا أكبر تأثّر حصل لي اليوم في طليطلة. ثم فرحة أخرى وقت الغسق، إذ دخلت إلى الكاتدرائية الغوتية الشهيرة.

كلّ النور تركّز على زجاج القرون الوسطى، فبدت الكنيسة تتلألأ بكاملها والقدّيسون يسبحون في نور قرمزي، أخضر، وأزرق. كانت تلك إثارتي الثانية. والثالثة : في مكتب البريد عندما استلمت الرسائل، كانت هناك رسالة منك، ورسالة من إلسا، ورسالة من ليّا، وثلاث من راحيل.

... اليوم طفتُ في المدينة فقط، زرتُ بعض الكنائس، حاضَرْتُ الغريكو. غداً سوف

---

(١) رسالة إلى ايليني ساميوس.

أراه. بلغت ذروة التعب. أخـال أنَّ جسدي سيتلاشـى، دفعة واحدة، بسبـب الإفراط في التوتّـر. كتبتْ لي إلسا : «Ihren körper sorgen und nicht gonz vergessen, damit noch etwaz bleibt zum tasten»[1] أنا أيضاً أحبّ جسد الإنسان وأشفق عليه – لكنني أعتبره وسيلة. لـذلك أهمله كثيراً. لا أريد إلاّ شيئـاً واحداً : أن يصمـد وأن يحمل الروح، دون أن يخور...

١٦ سبتمبر[٢]

أحد أروع أيام حياتي! ما إن دخلت إلى متحف الغريكو، بعد أن التقطت بنظرة عنيفة كلّ الصوّر، والألوان، واللّمعان، والأيدي الإلٰهية – حتى انطلق قلبي يدق بشدة إلى درجة أنني بدأت أتحدث وأمـزح مع الحاجب الهرم. وهكذا، بـالمزاح، تمكّن قلبي من وقتٍ يبلغ فيه الهدوء. عندئذٍ انصرفت بكاملي إلى كلّ عمـلٍ على حدة. ما من صورة، لا شيء يستطيع التعبير عن كنـه الغـريكـو. الألـوان – زرقـاء، خضراء، خمريّـة – تلمع مثل المعـادن، والجسم البشري رياضي، قـويّ، منيع، وفجاة ها هو ذا الـوجه الضّامر يعلـو ويتموّج مثل شعلة. اليوم، كما لم يحدث لي قط، شعرت بروحي تعيش. هذا اللقاء بين الكريتيّيْن كان في منتهى الحدّة والالتهاب، يا لينوتشكا!

وبعد سحر الغريكو ووجه إسبانيا الزاهد، ها هي ذي ايطاليا :

بيزا، ٢٨ سبتمبر ١٩٢٦[٣]

... جُبتُ المدينـة الصغيرة الفـاتنـة، كـامل النهـار، على طـول ضفـة النهـر، وزرت كاتـدرائياتها الشهيرة، ومقبرتها المتفرّدة بجـداريّات غوزولي وأوركـانيا. ما أبعـد هذه الروائع عن الشعلـة والخشونة الإسبانيتين! كلّ شيء هنـا متناغم، منضبط، وفق روح الفنّ. أتـذكرالغـريكـو. كيف بوسعـي الآن أن أحبّ هذه الـروائع بعـد نشوة الكـريتي الصاعقـة. روحي تـدرك التناغم الـذي توحي بـه أعمال النهضة الإيطـالية ... أمـا أنا فأصرخ مع الكاهن الإسباني الشرس الـذي قال لـ فيليب الثاني : «فلنَشيّـد معبداً يُقال عنّا بسببه أننا مجانين!» الجنون هو القطيعة مع التناغم القديم والسموّ الجنوني الذي

---

(١) اعتنِ بجسدك ولا تنْسَهُ كليّاً، كي يظلَّ شيئاً قابلاً للّمس.

(٢) و(٣) رسالة إلى ايليني ساميوس.

يستبصر ويـؤسس توازنـاً مستقبلياً في أعلى مستـوى، – هي ذي الشعلة التي تـلامس دماغي وتشعله.

أهيم في بيزا، وغـداً فلورنسا، وقلبي يثـب. إنّه يحاول الإفلات من إغـواء هذا الجمال الذي لا ينتمي إلى عصرنا، لكنه من القوة بحيث يستطيع شلّ أشد الأرواح بساطة. ليس من طبيعتي الموافقة على ربطي إلى صـاري السفينة، مثل عوليس، الذي فـرّط في حريته. أريد الإنصات إلى الإنشاد كله، والشعور بالدوار كلّه، ولهذا يتوجب عليّ أن أكون حرّاً كي أحسّ برعشة الخطر الدائم. وهذا ما فعلته حتى الآن في حياتي، وأنتِ تعرفين ذلك، ولهذا السبب كان تطوري على تلك الدرجـة من الألم، والبطء، والتلهّف، وكان، في الوقت نفسه، تصاعديّاً دائماً، من دون مساومة.

إنَّ عـودتي الآن، إلى إيطـاليـا، هي التي جعلتني أعي الطـريق التي قطعتهـا خـلال العامين الأخيرين. لقد باتت إيطاليا، حالياً، ورائي، بعيدة عن تطلّعاتي السامية. أسمع غناء جنّيـات البحر (كما في هـذا المساء) متأمـلاً مياه النهـر القرمـزية، والنّور الـرطب الباهت، فيمتلىء قلبي بالمرارة. وأحياناً أقشعّـر لأنني أدرك تعرضي للخطر. هل تذكرين تلك المرأة في تفليس، عندمـا قالت لي فارفارا نيقـولايفنا في حديقة الحصبـاء والخيزران الأحمر : «ماذا يهّم الواجب، والوطن، والفنّ؟ تعال، نرتحل!».

لو كنت بارد الـرأس، جافاً، عاقلاً، فاقد الحسّ، لما تعـرّضت لأي خطر. لكنني أشعر بالمجـازفة في كلّ لحظة. وأثناء هـذه الرحلة إلى إيطـاليا، غَزَتْني جنّية بحـر أخرى، هي الأعذب والأوفى – الموت – لا أعتقد أنَّ هناك سعادة تفـوق الموت بالنسبة لي، لأنني مفرط في حبّ الأرض، والهواء، والمرأة، والروح، والبحر، ولا أشبع من ذلك الحبّ.

لينوتشكا الحبيبة، من الأفضل أن أكفّ عن الحديث إليك هذا المساء. لم أعد قادراً عل التحكم في قلبي. ربّما، لـو كنتِ قـربي، لما قلتُ شيئـاً، ولَتَمَكَّنْتِ فجأة من رؤيـة عينيّ تمتلئان دموعاً. وبعد ذلك أضحك محرّكاً رأسي...

فلورنسا، ٣٠سبتمبر(١)

وصلت هذا الصباح. «بونسيون سافونا رول».

أنّـا فـوجئتْ وفرحت لأنها لم تكـن تتوقع مجيئـي بهذه السرعة. وكـانت إدويغ قـد

(١) رسالة إلى ايليني ساميوس.

سبقتني إلى هنا.

تجولنا في المدينـة القديمـة، اللّطيفة. عدتُ إلى مشـاهدة أعمال جيوتـو، ماسـاتشو، ميكاييل انجلو... كلّ هذا جميل، لكنه بعيد، بعيد، بعيد... أريد مغادرة إيطاليا بسرعة. يوم ٢٠ أكتوبر سوف أقصد اَسيز...

ودّع كازنتزاكي صديقتيه الجديـدتين اَنّا وإدويغ، وقصد روما حيث حدّد لي موعداً. من خلال رسائله، يمكن أن يبدو، لمن لم يعرفوه، رجلاً قلقاً، ممزّقاً، دائماً، بين رغبتين. وفي الحقيقة كان يبرهن على استقرار رائع. كانت «الفكرة ونقيضتها» تتصارعـان في روحه، من دون انقطاع. غير أنَّ غريـزته أو عقله المحـاجج يختار الطـريق التي يتـوجب سلـوكها ويلغـي أي ندم أو أسف غير مجديين. وحـدهـا الـرسـائل تبيّن الصراع الداخلي. وهي تشكل نـوعـاً من التحليل النفسي الـذاتي، ووسيلةَ تَحُرر تبعث ذلك التوازن المشرق الذي يحسـده عليه كلّ الذين يقتربون منه».

من روما، يوم ١٠ أكتوبر ١٩٢٦، إلى إدويغ :

... حدّد لي موسوليني موعداً بعد غـد. وسوف أسافر إثر ذلك مباشرة. عندي كثير من الشغل في أثينـا... وأشعر بـالخجل لأنني لم أنجـز شيئـاً حتى الآن. جمل قليلة، أفكـار كبيرة وآلام شخصيـة كبيرة – لكن الحيـاة واجب أوسع وأعمق. يتـوجب عليّ القيـام بالهجوم الأخير حتى أكمل واجبي قبل أن أتوارى تحت الثرى.

هل ينبغي توديع كلّ الاشخاص الذين أحبّهم؟ هوذا القلق العارم الذي بات يخنقني في الأسـابيع الأخيرة... أهذا هـو الدرب الـذي ينبغي أن أسلكه؟ هل أتخلّى عن كلّ فـرح شخصي؟ الطريقة الأخصب لتطوير روحي، وأفضل من ذلك، لتطوير روح العالم؟

صديقتي العزيزة، هوذا قلبي ينزف من جديد، ويتردد، ولا يريد، لا يستطيع التقرير بعد.

فليأتِ إلٰهنا المدهش Pietro il martira، لنجدتي ونجدة ذاته...

يوم سفـري رافقتني ماريكا إلى بيرّي. ونصحنا صـديق خبير في السفر : «لا

جدوى من الحضور في الموعد، فالبواخر اليونانية تقوم في منتصف النهار، ولا ترفع المرساة إلا مع قدوم الليل».

لكن الباخرة التي ستقلّني رفعت المرساة في الموعد المحدد ، باتجاه إيطاليا. وتم سحب جسر العبور إليها فعلاً. وعلى الرصيف كان هناك أشخاص مازالوا يؤشرون بمحارمهم مودعين. تملّكني اليأس، لخوفي من ضياع فرصتي الأخيرة. لكن ينبغي الإيمان بالمعجزات. عندئذٍ بدأت الباخرة تهتّز، وتحرّك مروحتها ببطء، وتقذف بالدخان الأسود، وتتأرجح في مكانها. وتمكّن رجل ذو شاربين كثّين من إلقائنا، مثل أكياس، في زورقه، لاعناً أمّه وأباه. جذّف قليلاً واقترب بنا من البهيمة السوداء الهائلة.

يا لفرحة كلّ لقاء جديد! وكما لو ظنّ نيكوس أنْ لن يراني مرة أخرى، أبداً، فقد ابتهج كثيراً وشدّ على كتفيّ يهصرهما بقوة حتى جعلني أصيح من الألم، ورافقني منذ الفجر إلى المتحف، والشوارع والأزقّة الخالية، والكنائس والمعبد، ليقترح عليّ خططاً أخرى، على الفور...

ونظراً لذوقه الرفيع، فقد كان يختار، إذا سمحت له إمكانياته المالية، فنادق من النوع العائلي الخاص، بعدد محدود من العمّال المهذّبين، والموائد المنفصلة، والسجادات الناعمة، والأضواء الخافتة. وكان يوجد فندق من هذا الطراز في ساحة بربريني. وفيه ارتحنا كثيراً. كانت روما متألقة : تيتيان، تنتوريه، ميكاييل انجلو... وأمام عيسى بقرنيه الصغيرين، انتشى نيكوس : «والحال أنَّ طفلة في الخامسة من عمرها فسّرت لنا لغز هذين القرنين!» هتف مكرّراً كلمات ابنة أخته، اَلكا، التي قالت وهي تشاهد بيض عيد الفصح أمامها : «أنا فرحة إلى حدّ الإحساس بقرون تنبت في رأسي!».

يوم ١٣ أكتوبر ١٩٢٦، استقبل موسوليني نيكوس كازنتزاكي. ويرى كازنتزاكي أنّ الخير والشرّ يتعاونان وينتهيان إلى الامتزاج كي يساهما في القضاء على الظلم في العالم، لذلك لم يكشف فوراً عمّا في شخصية موسوليني من جنون، عظمة وضعف.

– ما هي أهمّ سمة تلفت انتباهك في الفاشيّة؟ سألته ذات مساء.

– اشتراكها في عدة نقاط مع الشيوعية.

– كيف ذلك؟

– نفس الإلغاء للحرّية الفردية والإيمان نفسه بمستقبل أفضل. لكن...

– لكن؟

– الفاشية تَتَذاءبُ بين الماضي والمستقبل، وكثيراً ما تستخدم وسائل تجاوزها الزمن، وغير مجدية، كما تحاول إيجاد تعايش بين الذئب وفريسته... وفي كلّ الأحوال يُعتبر موسوليني وجهاً مأسويّاً لتاريخنا. إنَّه مقتنع بمهمته التاريخية، ومستعدّ للموت في أي لحظة.

– ماذا سيحدث إذا مات موسوليني؟

– إذا أخذنا بالاعتبار الفوضى التي ستعقب موت موسوليني، وانهيار الفاشية، واندلاع حرب كريهة، وتلاشي الآمال المبالغ فيها لدى الشعب الإيطالي، في وقت قصير... إذا فكرنا في كلّ الذين يضطهدهم النظام الفاشيّ، وفي الحقد الذي سوف ينفجر بين السادة القدامى وبين الذين سوف يحاولون الحلول محلّهم، عندئذٍ ربما يكون بوسعنا التنبّؤ بأنّ موسوليني سوف يشكل، في الواقع، أفضل أداة لمستقبل ما بعد الشيوعية ...

الباخرة ميكالي، برنديزي، ٢٠ أكتوبر ١٩٢٦[١]

حبيبتي،

... البحر رائع، أعْطِيتُ حجرة حمّام، لي وحدي، أقرأ متمدّداً على المرقد، غير أن روحي معكِ، يا حبيبتي. كوني شجاعة، ولتقتنعي بأنّ للبطولة وللحبّ معيناً واحداً. ولو كان بوسع الإرادة، والعناد، والإيمان بسلطة الروح المطلقة، أن تخترق الجبال والبحار، لشعرْتِ، في كلّ لحظة، أنني أنحني عليكِ وأنفث لك روحي. سوف يتم كلّ شيء كما نرغب، يكفي ألاّ تفقدي الشجاعة. أنا في منتهى المثابرة، وأعتبر الحياة الخارجية في غاية الخضوع للحياة الداخلية إلى درجة أنني لا أشكّ في شفائك، وفي ترتيب وضعك، وفي

---

(١) رسالة إلى ايليني ساميوس.

سفري إلى باريس، وانهماكي في العمل نهاراً، وتناولنا العشاء معاً، في المساء، وتمتعنا بذلك. وبعد ذلك نحدّد لنا هدفاً جديداً - وسوف نبلغه ثم نتجاوزه مجدّداً - ما دامت روحنا حيّة، ونحن نحبّ بعضنا.

أنا سعيد لكونك من طبيعة بطولية، رزينة، صامتة، ملأى بالتفهم والحيوية، وأنا أشعر بك، دائماً تسيرين بجانبي مشيقة وأكثر انسجاماً. لا نحتاج إلى أي شيء آخر كي تتحوّل هذه الحياة الزائلة إلى معجزة، فبالإيمان، والحبّ والإحساس المتبادل بالأنفاس الحارّة، خُلِقَ «الإله» وكتب له الخلاص.

تورفو، الخميس صباحاً (٢١ أكتوبر ١٩٢٦)[١]

لم تهبني اليونان أية بهجة. لقد بدا لي الناس مقلّصين، بشعين، غارقين في السياسة الضيّقة. وفي الشارع يتناقشون أبديّاً حول فينيزيلوس... كورفو، رائعة - لكن الوقت قصير. كلّ شيء رائع: الجبال، البحر، الألوان، لكنها سلبيّة مُرخية .. مميتة بالنسبة لروح تصارع. إنّها تذكرني بنابولي والأندلس. ربما كنتِ لا تعرفين ذلك، لكن، حتّى القدّيسة تيريزا، المحاربة العظيمة، عندما وصلت إلى الأندلس، أحسّت بروحها تتقلص وتتخدّر في ذلك المشهد المفرط في عذوبته ورطوبته وحرارته. فغادَرَتْه.

اشتريت عنباً أسود وأبيض، وتفاحاً رائعاً. جلست على شاطىء البحر، فوق مربط سفينة حديدي وأكلت بهدوء، وبطء، مثل زاهد يأكل، ويشكر ربّه، في آن واحد، على العنب والتفاح والجوع. فكرّت في «عوليس». فغزت روحي صور عديدة. ومن جديد انتفخ الشراع المثلث لمركبه الأسود، في صدري. واستمعت إلى البحارة يشتمون ويجدّفون، وراقبت الصبايا يَحُمْنَ حول المركب الذي وصل للتوّ، شممتُ الثمار المتعفنة وهي تتحلّل في الماء المالح، وتأملت، في عرض البحر، لمعان اللّجة الإلهية. كلّ هذا مقدّس، كلّ شيء يملك روحاً خالدة ويتوجب عليّ إنقاذه. ليتني أتمكن فقط في هذا الجدول العبثيّ القذر، للضرورة اليومية، من كتابة بيت شعري جميل، وإنجاز عمل شجاع، واندفاع مشبوب! منحنيةً فوق كنيسة نورتردام مثل نورس شرقيّ، مثل ميزاب، رأتْ روحي الربيع قادماً معك، يا لينوتشكا، مع متعة العمل الصارم وحبّ الليل.

(أثينا)، «الزنزانة»، الجمعة مساءً[٢]

عدت إلى الحجرة الضيقة، إلى «الزنزانة» بتأثر شديد. كلّ شيء في مكانه - تماثيل

---

(١)، (٢) رسالة إلى ايليني ساميوس.

... بداتُ حـالاً عملي المريع والمتعب. رتبتّ دفاتـر ملاحظاتي، وضعت خططـاً أولية لمقالاتي. والآن حلّ الليل، وانا متعب، وأكتب اليك لاتسلّى قليلاً.

... هذه «الزنـزانة» عزيزة عليّ وهـذا ما بدأ يقلقني. لا أريد أن تحجـزني أية نقطة في الكون. لكن، ربما تجدين لي، في الربيع، ما ينقصني في باريس - زنزانة أخرى؟ أتلهف إلى إغلاق دورة الارتحال وبدء عمل جديد...

أثينا ٣ نوفمبر ١٩٢٦ (١)

وأخيراً، عندما يبدأ حلول الظلام وتتـلاشى صور العذراء في الزنزانة، يمتلىء الهواء الغسقي بحضورك، يا لينوتشكا. أشعر بالإرهاق كلّ مساء، وعندما أكتب إليك أرتاح ...

أحيانـاً أخرج، حوالي منتصف النهـار، وأذهب إلى «الزابيون» لقضـاء وقت وجيز - الشمس متالقة وجبل «الهيمات» عـارٍ مثل إله، والبحر يتلألأ - وانـا سعيد لتمكّني من العيش في أثينا من دون إلقاء التحية على أحد، ولوجودي، بهذه الطريقة، في مدينة إلٰهية ومقفرة...

٨ نوفمبر ١٩٢٦ (٢)

لم تُعرف بعد نتائج الانتخابات، والصحف فقدت صوابها ... أمّا المقالات(٣) فسوف تنشر خلال بضعـة أيام، عندما تهدأ الأرواح اليـونانية قليلاً. اكتب إليك بصعـوبة لأنّ أصابعي تؤلمني من كثرة النسخ...

أثينا، ١٥ نوفمبر ١٩٢٦ (٤)

أكتب كثيراً، ولا أكاد أنام، وقد تملّكني قلقٌ روحيٌ حاد.

كتبت في مجلة حـديثة الصـدور، فصلين حول روسيا، أثـارا ثورة، هنـا، في أوساط المثقفين. وبدأت معركة فلسفية : قال عنّي الشيـوعيون إنني هرطوقي ومتصوّف، وجاء بعض الشباب إلى زنزانتي واعترفوا بأنّ قلوبهم تنشرح لأول مرّة.

وهناك مـاديّون سيردّون عليّ... وانـا سعيد لإحساسي بقـوة هائلـة، وصفاء روحي

(١) رسالة إلى ايليني ساميوس.
(٢) رسالة إلى ايليني ساميوس.
(٣) المقالات التي كتبها نيكوس كازنتزاكي عن اسبانيا وايطاليا.
(٤) رسالة إلى ايليني ساميوس.

كبير، وقوة نفسية وفكرية لا تصدّق.

لا أدري بعد أنْ كنتُ سأسافر. لم أرَ كافافاكي. كتب لي رسالة مهذّبة جدّاً كي يقول لي إنه سوف يتصل بي... جهزّت أربعين مقالــة ولم أسلّمها بعد، لأنّ اليونان الآن مستنقع، والجميع لا يفكرون حالياً إلاّ في الانتخابات والحكومة.

لن أسافـر، وسوف أعمل على الـذهاب إلى باريس قـريباً. وهنــاك أشياء كثيرة يجب إنجازهــا. إذ ينبغي أن أقابل، في باريس، شيـوعيين بالمعنى الواسع الذي أعطيــه لكلمة شيوعية، وأعبّر عن تصوّر جديد للفكرة.

أفكر في الذهــاب إلى كريت بعد ثلاثــة أعوام لأقدّم نفسي كنائب شيـوعي. ولعلّي هكذا أجد الفرصة لمخاطبة الفقراء والجائعين، بكلمات بسيطة. إنّها الطريقة الجديدة للإعلان عن ديانتنا...

١٦-١١-١٩٢٦

الطقس رائع جداً. شمس صيف. وما من قطرة مطـر منذ عشرة أشهر. الأرض قاحلة، ما من زهرة أو ورقة، وحدها أشجار النارنج في الحديقة الملكية انخدعت وأزهرت. الهواء عابق كما في الربيع...

أثينا، ٢٢ نوفمبر ١٩٢٦[(١)]

..... أحسّ بقرابة تـربطني بأفريقيا. لقد حـدّثتك كثيراً عن الأقنعة. راحيل شعرت، لشهور عديـدة، بدماغها يترجـرج – وبمثل هذه الحدّة شاهدنــا، أنا وأنتِ، تلك الأقنعة الأفريقية ...

لا جـديد بـالنسبة لسفـري... صحيفـة «لوغـوس» لا تملك مالاً. وصحيفـة «فيما» رفضت متهمة أياي بالشيوعية.

أتلهّف لإنهاء الأسفار، يـا لينوتشكا، والتمتّع بـالهدوء في باريس. وينبغي أن أذهب لـرؤية راحيـل التي أستلمُ منها رسـائل مقلقـة. ينبغي أن أراهــا. كيف؟ بـالذهــاب إلى بـاريس؟ إلسـا أيضـاً سعيـدة لأنها تامل أن تـراني في الـربيع، في أحـد الكيـوبتـزات. الاسرائيليو ن يراسلونني رسميّاً ويدعونني إلى ذلك.

أرأيتِ يا حبيبتي، إنَّ قلبي يتمزّق في كلّ الاتجاهات. آه، لو كنت عشرة. عشرة أجساد

---

(١) رسالة إلى ايليني ساميوس.

وأرواح. الآن يتوجب عليّ الاستقرار، لمدة عامين على الأقل...

٢٧ نوفمبر ١٩٢٦ (١)

حبيبتي،

أمرّ، كل هذه الأيام، بمرحلة نفسية صعبة، وحرجة جداً. أصابني هزال شديد ولم أعد قادراً على النوم. جاءني، قبل بضعة أيام، طبيب صديق وأبدى هلعه، أراد أن يخضعني للتصوير بالأشعة، الخ.... وأجبرني على تناول زيت السمك، وعلى مزيد من الأكل المغذّي، الخ....

٢٩ نوفمبر ١٩٢٦ (٢)

... عندما أجيء سوف أخبرك بالضجّة التي أحدثتها المقالات عن إسبانيا. لقد اعتبرتُ صوفية وخطرة في نظر الماركسيين الأرثوذوكس هنا. سيردّون، وهم الآن يندّدون، لكن بعضهم يقف إلى جانبي. وفي هيراكليون ما زال لفتيريس يكتب ضدّي... إلهي، يا له من ريف، يا للروح الضيقة، يا لغياب الإلهام الربّاني...

سيُنشر لي، هذه الأيام، مقال حول الأزمة اليونانية الجديدة، وسوف أرسل به إليك. وكما ترين فقد وجدت نفسي في مركز الحركة، من دون أن أرغب في ذلك. آمل أن تنضج اليونان في غضون سنتين أو ثلاث سنوات وتشهد حركة كبيرة. ينبغي أن تشفي لأنّ أمامنا الكثير من الأعمال... قفْ! هذه الكلمة الأخيرة في رسالتك أعجبتني ودعمت قلبي. هناك طائفة بوذية تدعى: «الواقفين دائماً!» لنكن مثلها...

أثينا ١٣-١٢-١٩٢٦ (٣)

انتهيت من بحثي الذي حدّثتك عنه حول ما بعد الشيوعية، لقد أسميته هكذا «الميتاشيوعية» وسوف ينشر فيما بعد - لأنه يشكل خطوة حاسمة في حياتي وعليّ أن أزن كلّ كلمة. وهو قطيعة كبرى مع الشيوعية - قفزة إلى الأمام، لا إلى الخلف. وسوف يغضب أصدقائي الشيوعيون. أما الذين يوافقونني الرأي فسوف يسيئون الظن من جديد.

---

(١) رسالة إلى ايليني ساميوس.

(٢) رسالة إلى ايليني ساميوس.

(٣) رسالة إلى ايليني ساميوس.

... ب. [1] وصف لي حياة أصدقائه في باريس.... واستاَت لاكتفاء أولئك الشباب بالعيش بطريقة في منتهى العقم. كأنهم سلالة عرق خائر القوى. يقرأون، ينتشون، يثرثرون وينمّون، عاطلين، مبددين أوقاتهم في اهتمامات تافهة.... لقد كان شبنغلر محقاً عندما دعانا[2] felahenvolk .

ومن ألطاف اللّـه أننا، نحن الكريتيين، لسنا يونانيين. وأنا سعيد بدمي الافريقي، وأعمل بمثابرة، وكما يروق لي في الوقت نفسه، من دون انتظار مكافأة... لينوتشكا، هناك أيام لا أعود قادراً فيها على تحمّل البشر. وأشعر فقط بوجود بضع نساء إلى جانبي، وعلى المستوى نفسه، وهنّ أيضاً لا يشعرن براحة وجودهنّ.

أول أمس تمشيت من اَليسيدا إلى تاتوي، ثم عدت إلى كيفيسيا، كي أرهق جسدي قليلاً – وأهدأ. كانت الشمس رائعة، والحقول تخضرّ، والجبال تلمع، زرقاء، مرسلة بخارها. تمالكت نفسي، وتمكنت من النوم هادىء البال...

أثينا ٢٠ ديسمبر ١٩٢٦ [3]

... أكتب الآن، أي أصحّح سيرتي الذاتية التي قرأت عليك بعض صفحاتها في سان ستيفان بتسانغارادا ... أنظر إلى الوراء فأشعر بالسعادة متأتية من أيامنا في سنة ١٩٢٦.

١٩٢٧ . عادت فكرة الحصول على دير مهمل، وجعله مجمّعاً للفنون، تسيطر على رسائل كازنتزاكي. وكما حدث له دائماً، من عدم إصغاء الحكومة اليونانية إلى ندائه، فقد يمّم وجهه نحو باريس رغبة منه في الهروب من اليونان والإنعزال من أجل العودة إلى «الأوديسة»:

أثينا ٢ يناير ١٩٢٧ [4]

... أمس، كان اليوم الأول في العام الجديد. انبثق في الحلم القديم مجدّداً: تحويل دير القديس يحيى الصَياد إلى مركز روحي... لقد تملكتني فكرة المجمّع من جديد...

---

(١) الشقيق البكر لكاتي وماريكا.

(٢) حرفيا : «شعب فلاّحين».

(٣) و(٤) رسالة إلى ايليني ساميوس.

٧ يناير ١٩٢٧ (١)

... الكثير من الضجر، ياالينوتشكا، والكثير من الهموم . ينبغي أن أستقرّ أخيراً قرب أشجار وشمس مشرقة، حذو طريق سوي ومستقيم، وأبدأ بالعمل، فأراك في المساء، ونتحادث ونتعشّى معاً، ونتنزّه.

من الضروري أن أفكّر مليّاً وأبدأ بالعمل. لقد هيمن عليّ اليوم حزن فظيع. عندما أجيء سوف أخبرك بالسبب. أحاول التغلّب على هذه الأزمة....

١٨ يناير ١٩٢٧ (٢)

قرّرتْ صحيفة «إليفتيروس لوغوس» فجأة أنّه يتوجب عليّ الذهاب إلى أفريقيا أوّلاً. وهذا لأنه ضروري لـ «الأوديسة»... وسوف يُنجز...

قدمت إلى الناشر «روسيا» وثلاثاً من مسرحياتي، وسوف تصدر في الربيع...

(أثينا) ٢٠ يناير ١٩٢٧ (٣)

صحيح أنّي أرغب في حياة شظف وزهد، غير أنّ القلب البشري الذي يخفق في صدري، نهم جدّاً.

فكرة وجودك في باريس تجعل قلبي يثب، وتقوّي لهفتي. بعد ثلاثة أيام أسافر قاصداً مصر والسودان، حتى الخرطوم. سوف ألقي نظرة سريعة، متلهّفة، على ذلك العالم، وأعود بسرعة لأكون في منتصف شهر مارس، بباريس. ارتجف من فكرة اقترابي من القدس، من دون أن أتمكن من العودة إلى زيارتها. ومن شأن إلسا أن ترتبك لرؤيتي وتتألم لمغادرتي السريعة – ربّما إلى الأبد.

ثقيلة جداً، هي الحياة، وفي غاية العمق، وقلبي لا يكاد يَسعُها. عندما أجيء سوف أعلمك بسبب حزني هذه الأيام. لا تشغلي بالك بهذا الأمر. أنا هكذا. ولقد تألّمت كثيراً في حياتي، حمداً للّه. لكنني أربّي قلبي وأكبحه حتى لا يولول. أحيانا لا أتمكن من ذلك ويلوح حزني.

---

(١) و(٢) »(٣) رسالة إلى ايليني ساميوس.

(أثينا) ٢٢ يناير ١٩٢٧ (١)

سأسافر غداً مع كالموك(٢).... أرجو أن يستفيد مـن لقائنا. سوف أعطيـه بمقدار ما يريد أن يأخذ، وليكن اللّه معه! وإذا صـار شخصية بارزة فلا شك أنه سيتنكّر لي – كما فعل لفتيريس واسفاكياناكيس. أمّا إذا خسر فإن الجميع سوف يقفون ضدي ويقولون إنني حطّمته. أتقبّل هـذا وذاك كمكافأة تليق بي حقا. من دون مكـافأة! من دون مكافأة! هذه صرخة قلبي.

... سوف ألقي نظـرة عنيفة على أفريقيـا، وألتقط ما أقدر عليـه من أجل «الأوديسة» وبعـد جمعي للغنائم الملتقطـة في روسيـا، وفلسطين، وقبرص، وإسبانيـا، وإيطاليـا، ومصر، والسودان، سـوف أذهب للعمل في باريس. آه، لـو أنَّ حضورك يستطيع تلطيف هذا القلب الشرس والمتلهف، قليلا!

القاهرة، أول فبراير ١٩٢٧ (٣)

(The Palace Hotel)

... روحي تمتلىء بـالشرق من جـديـد. كمْ أتحسّر لغيابـك! أنا الآن أزور المسـاجـد والأسواق، هذه المدينة أعجوبة.

القاهرة، ٢ فبراير ١٩٢٧ (٤)

كنـوز المتحف لا يمكن وصفهـا. قبر تـوت عنخ أمـون كلّـه من ذهب.... إنَّ كلّ تلك الزّخـارف، والجواهر، والأواني والأدوات الذهبيـة، وذلك الألق الغريب والمربك... تبعث شعوراً بالهول لأنَّ كل ذلك الجهد الإنسـاني من دون طائل، إذْ تبتلعه الأرض كما سوف تبتلع قلوبنا التي تحب وعيوننا التي لا تشبع من النظر.

تعرفين كم أحبّ الفن المصري – هِمْتُ ساعات عديدة مرتعشاً. أية فرحة، أي ألم، أي جهد في قلبنا لإنقاذ هذه الحيـاة السريعة! تسكعت مثل عوليس وسعيت إلى ملء مركبي بكل هذه الثروات.

لينوتشكا، كنتِ معي دائماً، ولقـد أمسكت بيدك كي أتمكّن من تحمّل كل ذلك. بَدَتْ لي هذه الحياة مثل حكاية باطلـة، سراب صحراوي وأحتاج إلى جسدك الدافىء حتى أتشبث

(١) رسالة إلى ايليني ساميوس.

(٢) تاكيس كالموكوس، رسام، صديق وجار في «إيجين».

(٣) و(٤) رسالة إلى ايليني ساميوس.

به – مثل شخص يسقط في هـاوية ويتمسك بدغل صغير، سـوف أحدثك عن أبي الهول عنـدمـا أراك. الأهرام سخيفـة، لكن أبـا الهول عين مـريعـة، واسعة، تنظـر بـرعب إلى الصحراء. لم أر استحضاراً أكثر أصالة لروح الإنسان الباسلة والضائعة...

الأقصر، ٧ فبراير ١٩٢٧ (١)

آه، يا إلهي، متى نتمكّن من إنجاز هذه الرحلة الرائعة إلى مصر معاً؟ إنَّه الشرق، كما نحبّه، مفعماً بـالضوء والعطـور ورماد أجيـال لا تحصى، مرّت، بعـد أن تألّمت وأحبّت وتلاشت.

النيل ينساب هـادئاً، فيروي ويخصب ما يـدركه. وكلّ مـا لا يسقيه يظلّ عقيماً غير مخصب إلى الأبد. كذلك هو الفكر يجري، يسقي، ويخصب *الهاوية*، لقد أحببتك كثيراً، يا لينوتشكا، هنا – على هذه الأرض القديمة، الحارقة، المملوءة بالجهود والكبرياء. لو كنْت معاً لعشنا هذه اللحظة بعنف وأحببنا بعضنـا – قبل أن نموت. هنا، الاتصال بالموت – وهو اتصـال عنيف وشهواني – يُـرى في كلّ لحظة ويجعلنـا نرتعـد. ما نحن إذنْ. ولِمَ نضيع في التّرهات وفي الانفعـالات الصغيرة؟ مقبرة الفراعنـة الكبار، رائعـة، ورائع هو الرمل الحارّ العقيم، بعيداً عن ماء النيل، رائع هو النيل بخضرتـه وحيواناته وفلّاحيه. وأنا الذي أحبّ الشيء ونقيضه، بعنف، أستمتع الآن بوجهيْ مصر – الأخضر والرمادي.

أعظم ما شـاهدت هو أبـو الهول، وفي البعيد، وراء الأشجار، الصحـراء المتربّصة... أتأمل النيل، عريضاً، بطيئاً، مقداماً، وفي ميـاهه تسبح تماسيح فاتحة أفواهها المخيفة، وفوقهـا تحلق طيور زرقاء ذات بطـون صفراء، أو صفراء كلهـا، مثل الكناري. فأختلج فرحاً لرؤية الطيور الملوّنة تُلهب الهواء.

يا لهذه الأرض من أعجوبة، كم أن كلّ شيء منظّم فيها من أجل متعة العينين والذّهن! لينوتشكـا، لقد تحوّلت المرارة التي أحس بها، لغيابك، إلى حزن عميق من رؤيـة العالم بمفردي. فليكن اللّه معك... وليكتب لنا السعي في الأرض معاً! كم تبقّى لنا من الوقت كي نعيش؟ عوض إحراق الحياة بشحّ وبؤس، لنحرقها من الطرفين!

اعتـاد المصريون القـدامى وضع تابـوت على موائد مـآدبهم كي يتأملوا الموت أثنـاء انغماسهم في الشهـوات. إنّ مصر كلّها تمتـد مثل تابـوت، وأنـا أرتجف من شدة التأثـر واللّهفة...

---

(١) رسالة إلى ايليني ساميوس.

بلاد العرب، مخيّم في الصحراء (١)

١٣ فبراير ١٩٢٧

لينوتشكا الحبيبة، الليل يخيّم، وأنا أكتب إليك تحت خيمة، في الصحراء. منذ ثلاثة أيام ونحن نضرب في الصحراء على ظهور الجمال، وغداً إن شاء الله، نصل إلى دير سيناء. قرب خيمتنا، قام أدلاّؤنا البدو الثلاثة، يساعدهم سبعة آخرون التقيْناهم في الطريق، بإشعال النار، وترتيب الأمتعة في شكل دائري، وربطوا الجمال حولها، ثم بدأوا يعدّون الطعام... الخادم الأسود يجهّز لنا أرزاً باللحم والتوابل. أكتب إليك مستلقياً على سرير ميدان أهداه لي رهبان «رايثو»، وأشعر بالانزعاج عليك.

برد قارس، وقطرات مطر كبيرة تسقط، دخلنا اليوم إلى الجبال الشرسة، الصحراوية، وكلها من حجر الغرانيت. نخلة نصف ميتة هنا، وطائر رمادي هناك. نتقدّم على ظهور جمال كبيرة جداً، وأنظر إلى كلّ شيء بلهفة، أما «كالموك» فهو يغفو قليلاً. ولا نتحدث بتاتاً. في المساء نمكث مع البدو، قرب النّار، وأذكر لهم الكلمات العربية القليلة التي أجيدها، ثم نضحك. مساء البارحة نطقت، فجأة، بالجملة المعروفة في القرآن: *لا اله إلا الله، محمد رسول الله!* وفي الحال لمعت عيونهم فرحاً ورفعوا أيديهم إلى السماء.

فكرت طيلة ثلاثة أيام على إيقاع سير الجمل الرتيب والبطيء... وفي ذهني، توارد شريط حياتي – ما أنجزت وما يتطلب الإنجاز، تألّمت لأنني لم أنجز شيئاً مهماً وقررت أن أتغيّر وألا أموت هكذا من دون إكمال واجبي. أفكر في الناس الذين أحببتهم، وفي الأفراح والآلام التي سبّبتها لهم. لاحت لي إلسا في منتهى الحزن والشحوب، ساكبة دموعها الساخنة، كعادتها، على يديّ آه، لن أراها مرّة أخرى، أبداً! شعرت بذلك في القدس وتمزّق قلبي. دائماً عندما أفكر فيها تتملكني رغبة جنونية في الموت. لينوتشكا، ها أنذا فريسة أفكار سوداء، مرّة أخرى، هنا، في الصحراء، تحت هذه الخيمة الشرقية حيث توقفت في استراحة. أفكّر فيك بقوة وأرغب في حضورك إلى حدّ أنه يتوجب عليّ، هذا المساء، أن أجبرك على التفكير فيّ...

١٨ فبراير (٢)

أكتب إليك من قمة الجبل المقدّس، ٢٥٠٠ متر ارتفاعاً، حيث أملى الله الوصايا العشر

---

(١) و(٢) رسالة إلى ايليني ساميوس.

على موسى. أشاهد شبه الجزيرة العربيـة كلها... اليوم عيد ميلادي. أنا سعيد وعيناي تستمتعان بالـرؤية التي رغبتُ فيها منـذ أعوام عديدة.. بلاد العـرب. البحر الأحمر من جهة، والخليج الفارسي من الجهة الأخرى. والجبال القاسية في الوسط، وفي البعيد تلوح الصحراء، بيضاء، مدخّنة...

البحر الأحمر، ٦ مارس ١٩٢٧ (١)

الحلم المذهل – التنقل على ضفـاف بلاد العـرب، والارتماء في البحر، والتـدحرج على رمل الصحـراء، ورؤيـة النخيل والجمال، بعيـداً جـدّاً، وجمع أصـداف البحـر الأحمر الجميلـة – أوشك على النهايـة... أول أمس، في الصحراء، ومع هبـوط الليل، خيّمنا، أنـا وطعمة البدوي، قرب عين صغيرة، تحت النخيل. أشعلنا النـار، وأعددنا الشاي، وأكلنا معاً، ثم تمددت متأملاً سماء الصحـراء المتلألئة بالنجوم. نجوم كبيرة، معلّقـة، ساكنة وعميقـة، وطعمة بجـانبي سـاجداً، يصلّي، ووجهـه بـاتجاه مكة – وكنت أفكّـر فيك... منصتـاً إلى كلّ الأصوات الغـريبة الخافتـة في الصحراء. فسمعت الجمل يمضغ عشبـة جافة وجدها تحت ظل النخلة، ورأيت النجـوم تدور، وأعدْتُ بناء حياتي كلها في داخلي، وكذلك عنادي، وكثافة روحي، وتـوحشها، وشهوتها، عبر الأرض. آه، كيف بوسع الغبار أن يغمض عينيّ؟

هكذا أحسست، في ذلك المساء، غاضباً، بالمصير المتـواضع للإنسان وكرهتُ تقبّله. لا أريـد لَكِ أن تنطفئي إلى الأبـد، وتـذوي الشعلة التي تـأكلنا. انفجـرتْ في داخلي قـرارات جنونية وأردتُ، تحت تأثير الصحراء الوحشية، تغيير حياتي.

في مساء الغـد توغّلنا في ضبـاب ورديّ مريع – هبّت الخماسين وصـار الجمل يدور ويُزَوْبع في مكانه، والرمل يجلد وجهي ويديّ ويجرّحها. فأبتهج لأنّ عوليس كان ينبغي أن يجرّب هذا الإحساس. كان العذاب مهولاً – وعارمة كانت الفرحة عندما وصلنا إلى دير يوناني، على سـاحل البحر، فرح بالنار، وبشراب الفـواكه، والقهوة، والضحك، والأكل، والأغطيـة النظيفـة، والنوم العميق. أمضيت خمسـة أيـام إلٰهيـة في دير بـلاد العـرب الصخريـة، منتظراً مجيء السفينـة. شرفة فـوق الأمواج، زوارق شراعيـة، أرجوانيـة، نظيفـة، نساء داكنـات، يضعن خـلاخيل فضيـة في أعقاب أقـدامهن، ووراءنـا الرمـال اللامتناهية، وأمامنا البحر الأحمر، الأزرق والأخضر..

---

(١) رسالة إلى ايليني ساميوس.

الاسكندرية ، ٩ مارس ١٩٢٧ (١)

... أغادر مصر يـوم ١٣ مـارس وسوف أبـذل قصـارى جهدي كي أصل بسرعـة إلى باريس هنا، توجد حركة أدبية، وكثير من الأصدقاء الودودين، الخ. أحبّهم كثيراً، لكنني أفضّل أن أكون وحدي. إحساسي بمصر حادّ جداً ولا أريد الحديث عنه، مع الناس.

سوف أكتب إليك قـريبا من أثينـا... لا تحزني إذا هاجمتني الكآبـة مجدّداً. لقد أفلتُّ منها قليلا، بالسّفـر. والآن تترصّدني في أثينا. لكنني سوف أسافر. وعنـدما أعود سوف أحدّثك عن ذلك... فليحفظنا اللّه دائماً متيقّظيْن، سَخِيَّيْن ، ومتألّقيْن...

وبالفعل كـانت الكآبة تترصـد نيكوس كازنتـزاكي في أثينا. لكن، ومن حسن الحظ، في ذلك الوقت تحديـداً، كان بـانديليس بريفيـلاكي، الشاعـر الكريتي ذو الثماني عشرة سنة، يدخل لتوّه، إلى الساحة الثقـافية. وهكذا تحصل كازنتزاكي على «أخ» سوف يظلّ وفيّاً له حتى الموت.

أثينا ، ٢٧ مارس ١٩٢٧ (٢)

لينوتشكا الحبيبة ،

لتكن هذه، إن شاء اللّـه ، آخر رسالة أبعث بها إليك من أثينـا، حيث أقيم منذ بضعة أيام. حلم بلاد العـرب انتهى – وبدأت اليقظة، الآن، وهواء أثينـا الخانق يضايقني من جديد.

أكتب مقالاتي عن مصر وبلاد العرب، لأسافر بعـد ذلك مباشرة... أشعر بفرح شديد لأنني سأراك، يا حبيبتي. أريـد أن أستقرّ وأشتغل. إنّ حيـاتي تتبدّد وعليّ أن أستعجل. وبالنسبة لـ «الأوديسة» ينبغي إكمالها في باريس...

(أثينا) ١٦ مايو ١٩٢٧ (٣)

... أنا آسف... ها قد مرّ شهران وأنا أجـري وأصارع. وعود، وتراجعات. لقد مرضت بسبب ذلك. لم أعـد قادراً على النـوم. أول أمس، كان كل شيء جـاهزاً لسفـري، انتظرت توقيع العقد وفجاة فشل كلّ شيء...

---

(١)، (٢) و(٣) رسالة إلى ايليني ساميوس.

هل في ذلك علامة على أن الرحلة يجب ألا تتمّ؟ تعبتُ وضعفت. سوف أذهب إلى جزيرة بحثا عن العزلة... ربما أبطل بذلك شؤم القدر السيىء...

وسافر كازنتزاكي إلى ايجين، حيث اعتزل وانكب على العمل، في انتظار أيام مؤاتية أكثر.

ايجين، ١٤ يونيو ١٩٢٧ (١)

... أبعث إليك بمقالاتي عن أفريقيا من أجل إدخال البهجة على رتابة حياتك، كما أبعث إليك بصفحتين من إحدى المجلات التي نشرتُ فيها بعض الأبيات. أشتغل ما دمت أخشى عدم الصمود، ساعات عديدة في اليوم مع حمّى شديدة، كما لو كنت سأموت غداً. الأناشيد الأربعة والعشرون في «الأوديسة» سوف تنجو وتكتمل خلال بضعة أشهر، وليس بعد عامين. عندئذ أصير إنساناً حرّاً. هنا، في اليونان، يؤكدون أنني لن أتمكن من ذلك. ولقد كتبتْ إحدى المجلات قبل أيام: «لم يتمكن غوته من إنهاء مشروع مماثل، فهل يقوى كازنتزاكي على ذلك؟».

إن كازنتزاكي يقوى على ذلك، لو أحصل على بعض الهدوء فقط! أحياناً يأتي صديق(٢) لزيارتي، يوم الأحد، ثم يغادر في المساء. لست أدري إذا كان ما أكتبه على درجة من القيمة، إني أكتب لضرورة داخلية، هروباً من الاختناق.

ايجين تشبه أمورغوس قليلا. لكنني لا أتنزّه مطلقا. تفصلني عن البحر مسيرة عشر دقائق ولا أذهب إليه لضيق الوقت. أكتب من الساعة الخامسة صباحاً إلى الليل. في الثامنة مساء، عندها أتوقف عن الكتابة، على درجة عالية من التعب، أخرج إلى شرفتي وأتأمل الجبل المقابل، والبستان المجاور، والنجوم الأولى، فأتذكر تسانغارادا عندما كنّا متمدّدين على العشب، متلهّفين، متنافسين على رؤية أكبر عدد ممكن من النجوم...

ايجين ٣٠ يوليو (٣)

... هذا الصباح، كتبتُ في بداية النشيد الثامن (من «الأوديسة») هذين البيتيْن:
ألْعابُ فكْرنا المُحْتَدمَة الزّائلة، سَحَاباتُ دُخان مُنْبَثقَة من الرّأس، وميضٌ فوقَ

(١) رسالة إلى ايليني ساميوس.

(٢) هو ياندليس بريفلاكيس الذي نشر آنذاك عمله الشعري الأول.

(٣) رسالة إلى ايليني ساميوس.

وشعرت بمرارة شـديدة حتى عشيتْ عيناي، مَا نحْنُ؟ نتعثّـر فوق الأرض، يحافظ الجسـد على دفئه لبعض الـوقت -نصرخ، نتألم نحب، وفي رفة عين، يتـلاشى كلّ شيء. ومع هذه البلية، أفكر فيك بمنتهى الحزن، والسعادة والحميًا حتى تتكثف الحياة كلها، والموت كله، في اللحظـة الوجيـزة التي سوف أراك فيهـا في المحطة، تحت الظل الخفيف، وأشدُّ على يدك...

ايجين، ٢٠ سبتمبر ١٩٢٧ (١)

Daragaya maya(٢).... أكملتُ «الأوديسة» وأشعر بالارتيـاح.... أمل أن تكوني قد استلمت «الزّهد». أشك في وجود ثلاثة أشخاص يتفقون معي في الفكر. السيدة لامبريدي ترجمت الكتاب إلى اللغة الإنجليزيـة وأرسلت به إلى ناشر. من المستحسن أن يترجم هذا العمل إلى الفرنسية حتّى ينشر في إحدى المجلات. عندما أقبل سوف نحاول...

سأكتب، هذه الأيـام، مقالات لـ «إلفْتِيرُو ذاكيس»(٣) عن بوذا، ولينين، وغـاندي، ودوستـويفسكي والغريكـو، الخ.... هنـاك عمل هـائل ينتظرني إذن. عنـدمـا أصل إلى بـاريس ينبغي أن تكـوني في صحـة جيـدة حتى تتمكّني من مسـاعـدتي. لا تنسي أنك «سِكْرِيتيرتي».

أتلهف لرؤيتك مجدداً، كي أنسى، ونتذكّر معـاً، ونبدأ حياة جديدة. ليتني أتمكن من البقاء في بـاريس. اليونـان تخنقني.. كلّهم يعتبرون كتاب «الـزهد» عمـلاً فنيّاً، وليس صرخة بحث وقلق، وذلك لعدم وجود واحد منهم يمتلك هذه *الصرّخة*....

ايجين، ٣٠سبتمبر ١٩٢٧ (٤)

جَدَّ طارىءٌ آخر آخر، بالأمس... فبمناسبة الذكرى العاشرة للثورة الروسية ستنظّم احتفالات متميّزة في مـوسكو، ولقد دعت الحكومة الـروسية شخصاً أو شخصين من كل بلد. ومن اليونـان دعـت شخصاً واحداً، أنا، من باب المصادفة. سـوف أذهب إلى موسكو،

(١) رسالة إلى ايليني ساميوس.

(٢) «عزيزتي» بالروسية لكن بالحروف اللاتينية (المترجم).

(٣) تمكن كازنتزاكي، بواسطة ب. يريفيلاكي، من اختيار المقالات التي تهمّه لنشرها في «موسوعة» إلفتيرو ذاكيس التي كانت في طور الإعداد آنذاك.

(٤) رسالة إلى ايليني ساميوس.

على حساب الحكومة السوفياتية، وأقيم هناك عشرين يوماً، وسوف يرافقوننا للتجوّل، هنا وهناك، الخ.... ولدى عودتي إلى اليونان ربّما أنشر سلسلة مقالات... أنا في غاية التأثر من العودة إلى رؤية روسيا...

... سوف أحمل نسخاً عديدة من كتاب «الزهد» باللغة الإنجليزية، كي أهديها إلى بعض من سأقابل في موسكو. هناك مجازفة في الدعوة إلى «الميتاشيوعية» لأن الشيوعيين يكرهون ذلك... لكنّه أمر ضروريّ.

... أنا غارق في المخطوطات، مع إرهاق شديد وتوتّر عصبي... وأشعر بقلق لا أعرف مأتاه... اكتبي لي كي لا تنسيني من الآن إلى شهر ديسمبر...

إيجين، ٥ أكتوبر ١٩٢٧(١)

Dragaya maya،

سوف أؤلف كتاباً بعنوان «ميتاشيوعية» معك في باريس. كلّ شيء ينضح في هدوء وضنيّ، وأشعر بأنني سوف أراك في ديسمبر، لامحالة. لقد اشتغلت كثيراً وتعذّبت كثيراً هذا العام، وأودّ الاستقرار في باريس بطريقة تجعلني لا أضع قدمي في اليونان لسنين طويلة. أشعر ... أنَّ روحي تكتسي بطلعة ما، وأنّ حياتي تكتسب نوعاً من الوئام.

حالياً يبدو لي الماضي، كله، سائراً في خطّ متعرّج، والبحوث عبر دروب شتّى، تتوصل أخيراً إلى التناغم والتلاقي في نقطة ثابتة ومشعّة. أتمنّى، إن شاء «الإله»، أن أنضج بهذه الطريقة، وأغتني حتى الموت، من دون إنكار أيّ شيء، وأن تصير حياتي كلها، كما يقول المتصوّفة البيزنطيون، «وحدة متنوعة». ما من وهم، ما من جبن، أريد التحديق في السديم من دون اضطراب. ولا أرغب في أي شيء آخر.

٨ أكتوبر ١٩٢٧(٢)

السماء تمطر بغزارة، ومن النوافذ أشاهد السهل ينغمر. الأرض تدخّن والجداول تلمع. أشعر بالسعادة، وببعض البرد، ورائحة التربة تبعث فيّ النشوة... أفكّر فيك بهدوء، ورواق، كما أفكّر في البحر، والأرض، والموت، والخلود.

أرسل إليك بثلاث زهرات كِشْمِشَة كانت أختي قد بعثت بها إليّ من بيتنا الأبوي...

---

(١)، (٢) رسالة إلى ايليني ساميوس.

أثينا، ٢٠ أكتوبر ١٩٢٧[١]

داراغايا مايـا... انتهت «الأوديسة» .أنا (...)[٢] الطقس رائق، سوق تكـون رحلتي رائعة...

بعثت لكِ ببعض النسـخ من كتـاب «الـــزهــد». هنــا، تعـمّ إثـارة كبيرة. إذ نشرت «بوليتيس»، عدداً من المقالات المادحة، وبـدأت «نهضة» غلينوس تنشر سلسلة مقالات. بعضها إلى جـانبي، والبعض الآخر ينتقـدني. المياه اليونـانية الجديـدة تحركت قليلاً، لكنني سأسافـر، لن أرد، ولن أزعجهم... ما من صحيفـة وافقت على مقالاتي التي أعـدّها حول روسيا.

ثمّة ريح عاتية (تهب) ضد الشيوعيّة. تمكنت أخيراً من إقناع «برويا» بالموافقة على عشر مقالات سوف أسلمها عقب عودتي من موسكو.

٢٢ أكتوبر ١٩٢٧[٣]

بلغنا القنطرة اليـونانينة... انغمستُ في قـراءة الآداب الصينية واليابانيـة القديمة، وتـوسّع قلبي، وتأثر بصرخـات الحبّ والألم المتأنّية من القِـدَم. إلهي، ليتني أتمكن من نقل الانفعالات التي شعرت بها، إلى «الأوديسة»، باتقان كامل، من أجل إنقاذها.

٢٣ أكتوبر، الأحد[٤]

وصلنا قبـالة القسطنطينيـة فجراً : مـآذن، آيا صـوفيا، أوروبـا وآسيا مجتمعَتيْن، الضبـاب الصباحي – كلّ ذلك أربك قلبي وفتَنَـهُ بلطف. سنة ١٩١٩ لدى مـروري أمام القسطنطينية، هتفت «بعد أعوام وقرون سوف تعودين إلينا مجدّداً، نعم، مجدّداً سوف تعـوديـن إلينـا!» أمّـا الآن فإنّ ذلك المقطع الخطــابي الـوطني بعيــد عنّي. أستمتع بـالقسطنطينية كما هي، بـلا أي تحسّر وطني، أستمتع بها استمتـاعي بحيوان يتـدفأ تحت الشمس، ولا يهمّني من يمتلكه. يتوجّب علينا أن ننظر إلى هذه الأعجوبة ذات يوم، كما نظـرنـا إلى القـدس. كم عـدد الأشياء التي «تتـوجّب علينـا»!... الحيـاة، الصحـة، البساطـة، الحبّ – كلّها سوف تنجَـز! أخالني مَـرْكَزاً لبعض القوى، زوبعـة عناصر لا مرئية تلتفّ حول إرادتي الثابتة. وهكذا آمل أن يتحقق كلّ ما نرغب فيه.

---

(١) رسالة إلى ايليني ساميوس.

(٢) يبدو أنّ هناك سطراً (أو أكثر) قد سقط من كتاب المؤلفة اثناء الطباعة (المترجم).

(٣) رسالة إلى ايليني ساميوس.

(٤) رسالة إلى ايليني ساميوس.

أوديسا، الثلاثاء ٢٥ أكتوبر ١٩٢٧[١]

أمضيت ساعات قليلة في أوديسا، لكنني تمكنت من رؤية سحنات يهودية محبّبة – عيون سود، أنوف معقوفة، شفاه سفلى ضخمة – والآن أكتب إليك من عربة القطار الذي يقلّني إلى موسكو...

كييف. بلغناها في الصباح المبكّر، وفي القطار تعرّفت على يهودية، لم تكن شابّة، غير أنها ممتعة. خرجنا إلى المدينة وضحكنا وتحدثنا، وعُدتُ الآن لأتابع الرحلة. آه، لو كنّا معاً! هذا ما أكرره لنفسي في كلّ لحظة، يتوجب علينا أن ننظم رحلة كبيرة كي نكون سعيدين. هكذا فقط، بالجمع بين الصداقة والحركة، أتذوّق كلّ وجود الفرح. تأثرت كثيراً عندما وضعت قدمي على الأرض الروسية، السوداء الخصبة، وتنفست الهواء، البارد والثابت، وتأملت حشود الناس الصامتين الصّابرين. الروح تتّسع، وتريد تجاوز حدودها، كي تتّحد مع كلّ هذه الأرواح، وتنفخ على هذا الصلصال البشري الخصب. ما كتبته في زاوية صغيرة من الأرض يبدو لي معيباً وريفيّاً. قليلون هم الأشخاص الذين استمعوا إلى صرختي – ومعظمهم خبثاء، بلا إيمان. وأنا أنظر إلى هؤلاء النساء وهؤلاء الموجيك[٢] مدركاً أنَّ صوتي لن يصلهم أبداً، لأن الوسائل التي أستخدمها في منتهى الضعف.

ما معنى الفنّ؟ هل هو جملة جميلة، ومقارنة جيدة، وبيت شعر رفيع؟ كلّ هذا ضئيل ولا يلامس الأمواج البشرية الكبيرة. وحدهما الإيمان والعمل، المسيح أو لينين، جديران بالعيش، حالياً. أمّا الآخرون فيوجدون كي ينتظروهما أو، في أحسن الأحوال كي يمهدوا لمجيئهما بصرخاتهم الرّيفية غير الملفوظة بوضوح.

آه، هل أتمكن ذات يوم، وهل يتسع وقتي، لتدمير الحدود، لا حدود اليونان فحسب، بل حدود الفنّ أيضاً، كي أتحرّر من الجمال، وأقنّن شغفي بالمرأة، وأتعاطى عملاً وحشياً قاتلاً؟ لست أدري. سوف أخدم الجمال قدر المستطاع وأجعل «الأوديسة» جميلة قدر المستطاع – ليست هناك طريقة أخرى كي أتحرر من الجمال. لينوتشكا سوف أراك مرة ثانية في موسكو...

---

(١) رسالة إلى ايليني ساميوس.

(٢) الفلاحون الروس.

موسكو، ٢٧ أكتوبر (١)

حبيبتي، وصلت إلى موسكو. السماء تمطر، والوجوه تلمع في الهواء الداكن. شاهدت ما أحبّ، بعجلة، وتلهف. تجولت طوال النهار، وأنا الآن اكتب إليك من الغرفة المريحة التي أنزل فيها ضيفاً على الحكومة السوفياتية. غداً سوف أذهب إلى كامينيفا كي أرى إن كانت هناك رسالة منك. وسوف أقابل استراتي وباربوس أيضاً. أمامي الكثير من العمل، عمل كثيف خلال عشرين يوماً، وأريد توديع هذه الأرض الروسية التي قد لا أعود إلى رؤيتها أبداً...

موسكو، ٢٩ أكتوبر (٢)

كنت عائداً إلى الفندق، بعد أن بعثت إليك برسالة، عندما جاءت سكرتيرة كامينيفا بالسيارة آتية لي برسالتك، قدّمتها لي مبتسمة وقالت: «هذا الصباح انتبهت إلى تغيّر لون وجهك عندما قيل لك بأنه لا توجد رسالة إليك وأردت أن أفرحك بجلبها على جناح السرعة. هل هي الرسالة التي كنتَ تنتظر؟» نظرت إلى الظرف وقلتُ مبتهجاً: «نعم، هي ذاتها!»

٣ نوفمبر (٣)

الأيام والليالي تمرّ، ولا أكاد أنام أو آكل. تملكتني رغبة جامحة في رؤية أشخاص، ولم أعد راغباً في التعرّف على الأشياء والمنظّمات. أريد التعرّف على الصّينيين واليابانيين والسويديين والأمريكيين - أرواح متعدّدة، أنقضّ عليها بوحشية خفية وبربرية كي ألمسها وأرى ما الذي تجلبه.

حتى الآن لم أكتشف، عند أي شخص آخر، توتراً روحياً وقلقاً نفسياً، في مستوى ما أعيشه. لكنّهم أنجزوا أعمالاً ومارسوا تأثيراً، لا أدّعيهما.

٤ نوفمبر (٤)

تغيّر(٥) tempo الحياة في الاتحاد السوفياتي، وهو الآن مختلف عنه في العام ١٩٢٥. أمّا الإيقاع الرسمي فهو أهدأ، وثمّة بعض التَّبَرْجُز. الوصوليون وصلوا وكفّوا عن الحركة، والنساء بدأنَ يُشبِعن أدنى رغباتهنّ، والرجال مُتعَبون. ومن حسن الحظ أنّ الصراع الدّاخلي الكبير بين تروتسكي وستالين يذكي جذوة الروح الروسية. تواجه

(١) و(٢) و(٣) و(٤) رسالة إلى ايليني ساميوس.
(٥) هكذا أوردها كازنتزاكي في الأصل وتعني «إيقاع الحياة» (المترجم)

روسيا حالياً وضعاً حرجاً، وفي كلّ يوم تصطفّ طوابير الناس أمام المحلات التجارية من أجل قليل من الطحين...

(موسكو) ٥ نوفمبر ١٩٢٧[١]

تلقيت خبراً سيئاً جداً للتوّ. هناك شاعرة جميلة جداً تعرفت عليها هنا، وتدعى ليليان جورجيفنا خاراسوفا، توفيت منذ خمسة عشر يوماً. أحضرت لها هدية وراسلتها طالباً رؤيتها. فجاءت خالتها لتخبرني أنها ماتت...

في غرفتي الصغيرة، أشاهد عبر النافذة، السطوح المغطاة بالثلج، والرجال بأنفاسهم المدخّنة في البرد. موسكو مزينة بالأحمر لأنّ موسم الحج الكبير يقترب.

أنا سعيد. بتمكّني من مشاهدة هذه الأيام وعيشها. ما هي القوة التي تحّول أشد رغبات روحي إلى واقع؟ أرتجف لأني أعرف أنَّ تلك القوة سوف تبطحني أرضاً بشكل مفاجيء، وتملأ عينيّ النَّهمتين بالغبار. قلبي هذه الأيام، جاهز للانفطار ولا أستطيع حبس دموعي. موت ليليان خاراسوفا يسكنني خفية. ينقضّ عليّ شبح فتظلم عيناي. من المؤكد أنني لم أحبّ تلك المرأة قط، لكنني رأيتها تختلج وهي تقرأ لي قصائدها، كم كانت ترغب في زيارة اليونان حتى تتمتع بالشمس والنّور، وليس كي تموت! آه، يا لينوتشكا، كيف بوسع روح الإنسان ألاّ تتحطّم؟ ها هي ذي الاحتفالات السوفياتية قاتمة بظلّ امرأة ماتت في ريعان الشباب...

كلّ ما أراه، هنا، وأسمعه وألمسه – من ثلوج، وبَرارٍ، وبشر وأفكار – ينبغي أن يتحوّل إلى أبيات في «الأوديسة» وأن يشكّل مادة كتابي عن «الميتاشيوعية»، الخطف، السلب، الوصول في الابّان ، قبل الموت.

إنَّ كتاب «الزهد» الذي كتبته بدمي، هو صرخة مريعة سوف يتم الاستماع إليها بعد موتي. لا يفهم الناس حالياً سوى الشكل الشعري . غير أنَّ الوجه المستقبلي للإله ينبثق بين الصّور والجمل الغنائية، حائراً، أبعد من اليأس والأمل....

يوم ١٠ نوفمبر، في موسكو كانت لكازنتزاكي مفاجأة سارة : لدى خروجه من مجلس النواب برفقة الكاتب الألماني آرثر هوليتشر، تناهى إلى مسمعه صوت

(١) رسالة إلى ايليني ساميوس.

امرأة تناديه. وكانت إيتْكا. وقد دوّن تلك اللحظة في دفتره :

فرح عارم تأثر، اضطراب. عدنا إلى الفندق واحتسينا الشاي وتحدثنا. إنّ حدْس هذه المرأة وأحكامها وأحاسيسها الشهوانية في منتهى الروعة. كلّ القوى موجودة فيها.

حدثته ايتْكا عن حياتها، وآلامهـا الماضية، وطلاقها، وابنتها الصغيرة ايفون.. فكتب نيكوس معلقاً في دفتره :

كم تتفانى في خدمة الحزب! دَرَسَتْ الطب وها هي ذي تتخصص في طب الأطفال. إنّها ماركسية متحمّسة.

يوم ٢ نوفمبر دوّن ثلاث كلمات فقط :

مجلس النّواب. تكلّمت.

كلمات غامضـة. لكن الرسـائل اللاحقـة تبيّن لنا حرارة خطـابه الـذي جعله يخشى أن يُسحب منه جواز سفره، إثر عودته إلى اليونان.

وبعد ذلك يسجل كـازنتزاكي اسماء العديد من الشخصيـات التي التقاها في الاتحاد السوفياتي، والمحاورات التي دوّن خلاصـاتها في كتبه ودفاتره الخاصة برحلاته. لكنه يعود دائماً إلى إيتْكا التي يدعوها : «القسم الماركسي في روحه».

زرت ايتْكا. كانت تلاعب ابنتها – بهجة وعمق أمومي. تأملت، بتأثر شديد، تلك المرأة الرائعة، المتجذّرة في الأرض. ليتني، كنتُ في بساطتها وبدائيتها...

كـان مجلس النواب مفعماً بـالحماس هـذا المساء. ومُنِحـتْ أوسمة إلى كلّ من كـلارا زتكين وبيلا كون، ومارثي، وسـادول، وألماني وصيني. تأثرّ، وصيحات حرب. أمضيت الليلة عند إيتْكـا. مع الفجر حدثتني، مرّة أخرى عن حيـاتها، وكيف أحبّت، وكيف تريد الكتابة...

يوم١٣ نـوفمبر، ذهب كازنتزاكي لـزيارة بانابيت استراتي الـذي استقبله في غرفته بفندق «باساج» وهتـف باليونانية : «موري[1]، مرحباً بك! كيف الحال؟»

(١) «موري» : نداء مألوف في اليونان.

ووصف كازنتزاكي صديقه الجديد : «إنه ممتلىء بالحياة، والمرح، والقوة. نفكّر في البقاء بالاتحاد السوفياتي معاً».

يوم ١٥ نوفمبر دوّن ملاحظة مثيرة :

ارتباك شديد : أمامي إمكانيّتان أو ثلاث للبقاء في الاتحاد السوفياتي.

فهل كان يحسّ بأن نضجه لم يكتمل بعد، للإقامة في الاتحاد السوفياتي، أم كان يخشى العودة إلى اليونان ومَنْعَه من مغادرتها مرّة أخرى؟

لا أريد أن أغلق هذه الدفاتر من دون نقل هذه المحاورة بين كازنتزاكي وأحد الشيوعيين المقتنعين :

هذا الرجل زار القوقاز، صيفاً، وتمتّع، لأول مرّة، بالشمس والهدوء والهواء والبحر. وعاد متغيّراً. قال لي : «الشمال متوحّش، الشيوعية الروسية تزعجني حالياً. ينبغي توظيف الشيوعية وفق مناخ كلّ بلد وكلّ روح. الحياة ليست متوحشة في كلّ مكان بالقدر الذي نتخيله هنا. لقد عشت، واستلقيت تحت الشمس، وأكلت فاكهة... لعبت مع البحر. وتصالحت مع الطبيعة وبدأتْ تتفتح في أعماقي weltanschauung (١) جديدة».

أولغا ماركوفنا ب. أمضت الصيف في القرم بدورها، وتغيّرت ...

(موسكو)، ١٦ نوفمبر (١٩٢٧)

... أفضل مسرح شاهدته هو المسرح العبري. ستانيسلافسكي شخصية بارزة غير أن مسرحه – برغم أداء ممثّليه الرائع – تحوّل إلى «جمال قديم». وكلّ من يعيش في روسيا يدرك أن ستانيسلافسكي، بإلحاحه على الجانب المدهش في مسرحه، بات مُتجَاوَزاً. وأنا أعرف صعوبة الحكم على أفضل ما في عصرنا، لأن هذا «الأفضل» ما زال يعاني من نقائص تقنية، تغلّبت عليها التصورات القديمة...

خاركوف، ١٧ نوفمبر (٢)

قررنا، فجاة، أن نسافر مع بعض المدعوين، ونحن الآن في القطار المتجه إلى القوقاز. أنا و إستراتي، نشغل مقصورة خاصة بنا. ونقضي النهار في استرخاء، نتحدّث نقرأ

---

(١) رؤية للعالم (المترجم).

(٢) رسالة إلى ايليني ساميوس.

وننظر عبر النافذة إلى روسيا اللامتناهة تحت الثلوج. بعد غد، سوف نكون في باكو، ثم في تفليس حيث ينتظرني قبر صديقي الحبيب[1]... ستدوم هذه الرحلة ستة عشر يوماً ثم نعود إلى موسكو... أنا في غاية الانفعال والتأثر لقدرتي على جعلك تأتين إلى موسكو. إسْتَرَاتي لا يريد مفارقتي، ويخطط لعيش مشترك في موسكو، وأنا أشعر بأن حياتي كلها سوف تتغيّر وتتجدّد إذا توصلت للعيش في هذه المدينة. لا أستطيع الحسم الآن، ولم أعد أجرؤ على التمنّي بأن نتجوَل، ذات يوم، على الأرض الروسية، معاً.

القوقاز، ٢٠ نوفمبر (٢)

نجتاز القوقاز، والجبال التي كانت أول من شاهد البشر، تنتصب مغطاة بالثلوج. في العصور البدائية، مرّت الأجناس الذاهبة من آسيا إلى أوروبا، عبر هذه الشّعاب...

باكـــــو

الأمطار تتهاطل. بحر قزوين رمادي، وقلبي مفعم بالحنين لأني أفكر فيك. فرحي الوحيد هو يانابيت إستراتي الذي يرافقني، وأشعر أنه سوف يظل صديقا وفيّاً، ودوداً، ومفيداً، طيلة ما تبقى من أيامي. سوف نسافر معاً، إلى اليونان، حيث أحاضر، ثم ينتقل إستراتي إلى مصر لقضاء خمسة عشر يوماً، وبعدها يعود إلى موسكو.. نفكر في شراء بيت صغير في موسكو... وأعتقد أننا سوف نسعد بذلك، لأنك تصيرين قادرة على المجيء كي تستريحي وتساعديني كثيراً في عملي. وسوف تكون لك غرفة خاصة... وتسير الأمور الأخرى بشكل جيد. وحالما تتجسد الفكرة، غير الواضحة حاليا بالنسبة إلّي، سوف أكتب إليك، يا لينوتشكا، لا تتصورين مدى شوقي إلى حضورك...

موسكو، ٦ ديسمبر ١٩٢٧ (٣)

داراغايا مايا!

... سأسافر غداً إلى كييف حيث سأبقى مع إستراتي حتى ٢٠ ديسمبر، ثم نقصد اليونان معاً، وفي حين يزور استراتي مصر، سأبقى أنا في اليونان – ايجين، حتّى عودته. ونفكّر في العودة، بعد ذلك، إلى موسكو.. أنوي أن أرسل إليك، من أثينا، بالمال الضروري لسفرك إلى موسكو، حيث ستلحقين بي في الربيع... هنا، المناخ رائع، والحياة رحبة وعميقة...

---

(١) و(٢) و(٣) رسالة إلى ايليني ساميوس.

كييف، ١٠ ديسمبر ١٩٢٧ (١)

حبيبتـــي،

الأيام هادئة هنا. استراتي مريض نوعـاً ما، وأنا أقضي معظم النهار إلى جانبه، فأرى عـدداً كبيراً من الناس. كلّ واحـد منهم لديـه حكـايات مأسـوية رهيبـة. هذه العيـون الروسية رأت أهوالاً. وكل روح عـاشت وتمتّعت وتعذّبت كما لا يحدث في أوروبا. ولهذا فإنَّ أبسط إنسان هنا، مهمّ، ومشعّ بوميض حريق كبير.

يوم الأحـد تقصد تقصد أوديسـا. أخشى أن تعترضني صعوبات في اليـونان لأنني نشطت في مجلس مـوسكـو وتحدّثت بـانفعال. إذا منعـوني من الحصـول على تأشيرة لمغادرة اليونان فإن كارثة سوف تحلّ بي...

استراتي يحبّ امـرأة رائعة تـوجد في بـاريس. ستأتي لتعيش معه في روسيـا. ومن المستحسن أن تريْـها... قـال لي إنّها امرأة فـذّة. إذا صرتما صديقتين فسـوف يكون ذلك أمراً مفرحاً جداً...

كييف، ١٥ ديسمبر ١٩٢٧ (٢)

داراغايـا مايـا، أكتب إليك مرة أخـرى من كييف. الشمس ساطعـة، باردة وجـافة، والأنهار متجمّدة، مناخير الناس والخيول تـدخّن، قلبي مملوء بالحزن والتأثر – أرغب في ألف شيء وشيء ولا أشبع، يبدو أنَّ الموت يقترب وأنـا أستعجل، لينوتشكـا، وددتُ لو كنتِ معي، لأن لك روحاً شجاعـة وجسداً يروق لي... أنا سعيد لأنّنـا سوف نلتقي فوق الأرض الـروسية. كـوني على مـا يرام فقط.... هنـا الحيـاة تلتهم البشر، إنّها في منتهى العنف والقسوة – لكننا سـوف نتحمّل معاً. يتملكني الدوار عندما أفكّـر بأن الزمن يمرّ وأنا لم أنجز شيئاً بعد.

صديقـة إستراتي سوف تحدّثك عن كلّ ذلك... هل تريـدين المجيء إلى روسيا؟ هل في إمكانك القدوم إلى أوديسا في شهر مارس؟...

في أثينا سوف أنتظر منك رسالة حاسمة... حياتنا لن تكون سهلة، وأنت تعرفين كم تكون الحياة مضجرة معي، لأنني سوف أعمل طوال النهار ولن أراك إلا في المساء، فأكون حـزيناً وصـامتـاً حيناً، منفتح القلب وفـرحـاً حيناً آخـر، وسـوف تكون لي اتصـالات

---

(١) و(٢) رسالة إلى ايليني ساميوس.

ومراسـلات منتظمة مع أشخاص أحبّهم، وهذا مـن شأنه أن يزعجك. أما الحيـاة المادية فسوف تكـون متواضعـة، فقيرة، كما كانت دائماً، منذ مغـادرتي بيت أهلي. لكنّك لست سيـدة مجتمع، بل بسيطة ومقـدامة، وسـوف تقوّي فيك روسيـا هذه الخصـال، وربّما انعكس عليك عملنا المشترك بشكل جيد...

القسطنطينية ، ٢٤ ديسمبر ١٩٢٧ (١)

اجتزنـا البحر الأسود وهـا نحن أولاء قبالـة القسطنطينية. السماء الغائمـة، المطر النّاعم، أيـا صوفيا، الأسوار البيـزنطية، أشجار السرو، كلّ هذا الحسن القـديم لايغزو قلبي. لكنني سعيد لأنـه كان لي وقت كاف، منـذ سبع سنين، للتمتع بكل ذلك، بكلّ ما في روحي من قوة محتدمـة ورومنسية. أما الآن فأنا أفلتُ منه، وأشعـر أنني تركت جنّيات البحر الساحرات خلفي، ليس لأنني تخلّصت مـن كلّ الجنيات بل لأنني قابلت الجنّيات العصريات، وربّما جنّيات المستقبـل. وبدأت أنصت، محموماً إلى نشيـد الهاوية، الأكثر عصريـة. إنّ الجنيـة الكبيرة، السـلافيـة، ذات العينين الخضراوين، والصـوت الحاد، والعنق النـازف، توجد حـاليا في الشمال، في بـلاد الثلوج. سأعـود إلى اليونـان من أجل الوداع. ومع ذلك ينزف قلبي، فما زال على الأرض اليونانية بعض الأشخاص الذين أحبّ – أختاي، وأمّي، وامرأة أو امـرأتين. أفكر في آنّا ك. وأتعذّب، كيف سأغـادرها؟ لم نتبادل كلمة حب واحدة قط – ولن نفعل ذلك أبداً – ومع ذلك أشعر بمدى تأثرها وفرحها عندما أعود، بعد كل رحلة، إلى رؤيتها. نختلي، ولا يأتي أحد، فنشرب الشاي، ونتحدّث ساعات ثم نفترق بصعوبة، فأتابع، أنـا، تجوالي في النّور، وتغرق، هي، في الصمت والعتمة. أما الآن فقد انتهى كلّ ذلك. وهناك امرأة أخرى سوف تتألم – وأنتِ تعرفينها. عندما كنتُ في روسيـا، راسلتني لتعبّر لي عن مـدى انتظـارهـا لي كي نشترك في عمل كبير، مُلحّـة على مجيئي بسرعـة لأن لها، كما قـالت، مشـاريع كبيرة، ولا تستطيع العيـش بعيـداً عن «الـوحش»، كما تلقّبني. أما الآن فسـوف أقول لها «وداعـاً» إلى الأبد. ستحـزن روحٌ أو رُوحَان – وربما غالاتي أيضا – أما البقية فسوف تسعد بالتخلّص منّي...

إنّ حيـاةً واسعة وعسيرة تنفتح أمـامي. ولنـا، أنا واستراتي، أعمال كثيرة صعبـة سننجزهـا عبر روسيا. مقـالات وكتب، وعمل تنظيمي، ودعـاية في الخارج. وأنـا أعتمد عليك كمساعـدة... وعليك أن تتعلمي أشياء كثيرة كي تسـاعديني، عليك أن تعملي معي وتقاسميني أتعـابي بقدر مـا تستطيعين... اكتبي لي إلى أثينا، وحدّثينـي عن أفكارك من

(١) رسالة إلى ايليني ساميوس.

دون تحفّظ...

٢٥ ديسمبر ١٩٢٧ (١)

ما زلنا قبالـة القسطنطينية... كتبتُ مقالات للصحف، والآن نحضّر، أنا وإستراتي، نص المحاضرة التي سنلقيها في أثينـا. أبْرقتُ إليك من الباخرة. أرجو من اللـه أن يقودنا إلى الطريق القـويم.... أما أنا فكنـت أفضّل العذاب، والجوع، والحب، واليأس... لكنّ كلّ شيء يأتي مريحاً ويثير خجلي. رّبما وهبتْني الحياة في روسيـا قلقاً هائلاً، ربّما حلّت بي كارثة كبيرة وقد آن أوانها...

١٩٢٨ . جرت الأحداث في أثينا كما كان متوقَّعاً.

استُقبل يـانـاييت إستراتي بلهفة وفضـول. وقـدّم عنه كـازنتـزاكي، لمن لا يعرفونه، صورة حيّة، في مقالـة صدرت في آخر أيام السنة. وهكذا لاحت ١٩٢٨ مكرّسة للعمل الذي يطمح رفيقا السلاح إلى إنجاحه.

وتمّت المحاضرة في مسرح الحمـراء حيث احتشد جمهور كبير. وكـان المنظور مغرياً: إيجاد ناطق رسمي يتعرّض بدقـة وشجاعة، إلى البؤس المموّه لدى القسم الأكبر من الشعب اليوناني، ويدين الظلم المستفحل في البلاد.

وهكذا اختـار الصديقان المواجهـة، وبلغ الحماس بالحاضرين حـدّ الهذيان. وكان ردّ الفعل متوقعـاً من الزّاعمين أنّهم حرّاس الإله والعائلـة والحرية، في هذه الأرض. وهكذا استُـدعي ديميتري غلينوس للمثول أمام القضـاء، لأنه ارتكب، في نظـرهم، خطأين في منتهى الخطورة: وضع تلك المحـاضرة تحت رعايتـه، ونشر كتاب «الزهـد» في مجلة «النهضة»، كما استدعي كـازنتزاكي بعد اتهامه بـإهانة الدولة والدين. أما يانابيت إستراتي فقد أبلغ بضرورة مغادرة البلاد في أقصر مدة ممكنة. وفي الوقت نفسـه كانت البرجوازية الكبرى توفد مبعـوثيها في مهمة جلب «ذلك المتوحش» الذي يثير فضولها بزيّـه المضحك وحذائه الرمادي، الطويل ذي اللفّافات، وبنطاله الأخضر الزيزفوني كسراويل الصيادين.

---

(١) رسالة إلى ايليني ساميوس.

في الأثناء كانت هناك مفاجأة تنتظرني في مودون: بيليلي!

ومن عسى تكون الصديقة التي اختارها صديقنا المدهش إستراتي؟ كنت أنتظر بوهيمية جامعة ومبرقشة بالزينة والألوان فإذا بي أمام سيدة أشبه بعذراء خارجة من كنيسة قروسطية: الابتسامة الرصينة ذاتها، والنظرة النفّاذة ذاتها، والصوت ذاته، وكأنها خارجة لتوها من تراتيل عن آلام المسيح، مستقيمة، مزغّبة، عميقة وشفافة، «هل تريدين استخدام حمّامنا؟» اقترحتْ عليّ ذلك، بعد لحظات قليلة من لقائنا الأول. شعرت بالقلق وبدأت أتفحص نفسي. هل يبدو عليّ الإهمال؟ فقالت بيليلي مازحة: «إني أمكّن كل الأصدقاء من هذه الرفاهية الصغيرة التي كثيراً ما يُحرم منها المرء في باريس، أليس كذلك؟».

بعد الحمّام والشاي والحديث عن يانابيت، كاتباً وإنساناً، وعن مشاريعه، وآمالنا المشتركة، لم يعد يذهلني شيء:

– متى نسافر؟

– في أقرب فرصة.

– اتفقنا يا بيليلي. سوف تجدين فيّ رفيقة طريق وأكثر من ذلك: أختاً. أعِدُك بذلك.

لدى وصولنا إلى مرسى يرى شاهدنا يانابيب يؤشر، واقفاً على متن زورق خفيف، ويصيح فور تعرّفه علينا «إلى الاتحاد السوفياتي! بسرعة إلى الاتحاد السوفياتي!» رافساً مثل ممسوس. أما نيكوس فكان يحاول المحافظة على التوازن. وبدا صاحب الزورق، ضاحكاً وشاتماً في وقت واحد، بينما شرع الركاب ينظرون إلينا بحذر...

كان هناك سببَان يدفعان بي نحو العودة إلى فرنسا: الاستشفاء في بلومبيير، وخيبة أملي من مواصلة التّعاون مع صحيفة «كاثيميريني». وفي المقابل وافقتْ بعض الصحف والدوريات الفرنسية على أن أراسلها بمقالات من الاتحاد السوفياتي.

كيف سنعيش في الاتحاد السوفياتي؟ كان ذلك همّي وانشغالي. هل أصبحُ عبئاً على الرّجل الذي يحبّني؟ وهل يتطلب الأمر «التزاماً» مع الاتحاد السوفياتي؟

أثينا، ٣ يناير ١٩٢٨ (١)

كيف سنعيش في الاتحاد السوفياتي؟ في استقلالية تامة. ذلك أن إستراتي سوف يحصل على ما هو ضروري وأكثر، بفضل كتبه المترجمة والمنشورة باللغة الروسية، وكذلك مقالاته. وأنا، سأحصل على المال مقابل المقالات التي سوف أبعث بها إلى «موسوعة» إلفتيرو ذاكيس... وإلى الصحف الروسية، التي طلبت منّي ذلك، وهي تدفع مكافآت جيدة. وثمة رغبة في ترجمة كتبي هنا، كما أنّني وافقت على كتابة سيناريوهات مع إستراتي، للسينما السوفياتية.

وهكذا نحصل على المال الضروري، مع الاحتفاظ بحرّيتنا.

أفكاري حول الشيوعية تعرفينها جيداً، ولقد عبّرت عنها بطريقة قاسية، لكن واضحة، في كتاب «الزّهد».. لست سطحياً، ولا ضيق الأفق، ولا ماركسياً. عندما تاتين إلى موسكو سوف يكون من المستحيل ألا توافقيني.. إن عملنا لا يُخضعنا لأية عبودية ولسنا أدوات أحد. وقد نلاقي بعض الصعوبات لأننا لسنا ماركسيين تقليديين. غير أن هذه التحفظات الفلسفية تأتي في المرتبة الثانية؛ والواجب شيء آخر، وهو ما نقوم به.

إستراتي كاتب مهم جداً ـ اقرأي «*العم أنغل*» (ولاسيما «كوسما») و«كودين». فهي أعمال تعجبني. أحكامك قاسية وصحيحة.. إنّه رجل رائع، في منتهى البساطة، والحيوية، والاندفاع، والطيبة، والطهر. ويتمتع بمزايا أحبها.

أثينا، ٨ مارس ١٩٢٨ (٢)

لينوتشكا العزيزة، لقد حُدّدت المحاكمة(٣) يوم ٣ أبريل. وثمة اتجاهان: فالقضاة يريدون من باب الإشهار، جعلها محاكمة مدوّية، وإدانتنا في نهايتها. والسياسيون يريدون إنهاءها بسرعة لأنهم منزعجون. فأي اتجاه سيتغلّب؟ سوف نرى. نحن مستعدان، ولن نمر إلى الهجوم مهما كان المبرر، أمّا إذا تم استفزازنا فسوف نعبّر عن

(١) و(٢) رسالة إلى ايليني ساميوس.

(٣) المحاكمة المتعلقة بنشر كتاب «الزهد» الذي أرادت الكنيسة الأرثوذكسية بسببه، معاقبة كازنتزاكي بالحرمان الكنسي، وظلت تتأمل مطوّلاً، حتى نُسيت لبعض الوقت.

قناعاتنا من دون لفّ ودوران.

... ماريكا ستسافر يوم ٢٧ مارس، متأسفة على عدم حضور المحاكمة.

أثينا ١٤ مارس ١٩٢٨[(١)]

لينوتشكا الحبيبة، أشعر بفرحة عارمة عندما تصلني رسالة منك. فكم تدوم تلك الفرحة؟ سوف أبذل قصارى جهدي حتى تظل دائماً. أعرف حدود البشر، ومدى ضيقها، وأعرف قانون الزرع والإزهار والإثمار والتلف، لكنني أعرف أيضاً قوة الروح التي ليس لها سوى هدف واحد، هو الأسمى: ولا يتمثل في إكمال الطبيعة بل في «التغلب» عليها.

ياعزيزتي لينوتشكا، يتوجب علينا بذل ذلك الجهد، كي نحافظ، نحن الاثنين، على الحماسة في أعلى مستوى، سواء في الروح أو في الجسد، أو في القلب!

أنا أقبع هنا مثل أسير حرب. سوف تجري المحاكمة بلا شفقة لأن القضاة، كما يقال، يريدون ضربنا، أنا وغلينوس، بلا رحمة، لترهيب الآخرين. ونحن نعدّ مرافعاتنا واضحة، حيوية، بلا ضعف أو وقاحة. وهذه المحاكمة التي تشبه محاكمات القرون الوسطى سوف تكون شيقة ومهمة كما يبدو.

وقد يُلقى بنا في السجن لمدة ستة أشهر، في أكثر تقدير؛ أما إذا حوكمنا بثلاثة أشهر فقط، فيمكنني عندئذ الحصول على تأجيل التنفيذ.

.. الجزء الثاني من كتاب «روسيا» سيطبع خلال عشرة أيام، وبعد عشرين يوماً يكون كتاب «المسيح» منجزاً، بعد ذلك أبدأ العملية مع «عُوليس» «كِ»[(٢)]. أنتظر انتهاء خدمتنا في روسيا حتى نتمكن، بعد ذلك، من اللجوء إلى صومعة هادئة، وسط الأشجار الكبيرة، مع طرقات مستقيمة، قرب مدينة عملاقة! كم أحس باستعداد كبير لبدء الصياغة الثانية لـ«الأوديسة»!

.. اشترى وكيل النيابة كل ما نشرته، لأن حديثه يتمثل في البرهنة على أنني أريد تخريب الدين، والأخلاق، والوطن، الخ.. إنّه لمن العار أن يعيش المرء مع أمثال هذا الشخص.

---

(١) رسالة إلى إيلين ساميوس.

(٢) يتعلّق الأمر بتراجيدياتين شعريتين. «المسيح» و«عوليس» «ي» لأن كازنتزاكي قرر إهداءه لي.

(أثينا، بلا تاريخ)(١)

تلقيت بالأمس رسالة من باربوس يلحّ فيها على مشاركتي بالكتابة في صحيفة «لوموند».. إذا ما أرسل لي بمكافآت، احتفظي بالنصف، واعطي النصف الآخر للمترجم.

.. ما يسمى «المجد» بدأ يحوم حولي، في اليونان؛ أستلم رسائل، وهناك كتابات نقدية عني، كما أن الكثير من الشباب يأتون لرؤيتي. إلٰهي، ما أبعد روحي عن كل هذا البؤس! لا أحتاج إلى أكثر من العزلة، والعمل الشاق، وبعض الأرواح الباسلة متجسدة في المرأة..

إيجين، ١٤ أبريل ١٩٢٨(٢)

حبيبتي لينوتشكا

أكتب إليك من بيتي الصغير في ايجين، النوافذ مفتوحة، وثمة نسيم عَطِرٌ يهبّ، إذ أن الحقول المجاورة غاصة بالزهور ـ زهور لؤلؤ كبيرة صفراء، بابونج، قُوَيْسة، زعتر.. ـ بريفيلاكي جالس قبالتي، يقرأ «المسيح». فجر الغد سوف نذهب إلى معبد «أفي»، لقد أشرق وجه كيرا زُوئي عندما رأتني، وسألتني عن أخبار السيدة ايليني. أطفالها بخير، وقد حملتُ إليهم بيض «الفصح» وألواح شوكولا وعصافير يابانية. لعبنا وضحكنا معاً. صباح الاثنين نعود إلى أثينا. فلتشرق ايجين دائماً في ذاكرتي، على الرغم من سوء ضيافتها لك. هنا عشت بعمق نادر، كتبت أشعاراً جيدة، وخَبِرْتُ سعادة الإنسان المنعزل وهو يبدع.

١٥ أبريل، عيد الفصح(٣)

عدتُ وبريفيلاكي من معبد «أفي». قصدناه فجراً، وكانت الجزيرة تتضوّع بأريج البابونج وأزهار الوزّال. تمدّدت نصف عارٍ على رخام المعبد الساخن ونمت بضع دقائق. ولقد سعدت برؤيتك في الحلم. حلمت أنك كتبت قصيدة جميلة جداً عنوانها: «كيف نمتُ معه». مازلت أتذكر كل التفاصيل التي سوف أحدثك عنها عندما نلتقي. رأيتك بطريقة في غاية الروعة والحيوية حتى استيقظت متأثراً، كما لو فاجأتني رؤيا.

على متن الباخرة لينين، ١٩ أبريل ١٩٢٨(٤)

هاأنذا أخيراً في عرض البحر المحبوب. أوجد الآن قبالة معبد سونيون، والبحر رائع وهادىء، والنّداوة تلامس صدغيّ، وقلبي منقبض كأنه يتوقع شؤماً. غير أن الروح

---

(١) و(٢) و(٣) و(٤) رسالة إلى ايلين ساميوس.

تدفعني بعيداً عن اليـونان وأرجو من الله ألا أراها قريبـاً جداً.. أبرق لي استراتي أمس، يسألني عن أخباري ويعلمني أنَّـه سيسافـر إلى كييف، وفي انتظار ذلك فهو مـوجود في يالطا، جزيرة القرم الرائعة، حيث ينتظر غوركي.

يجب أن أنجز السيناريو في شهر مايـو، وأعتقد أن استراتي سوف يُسَرّ بالتحاقي به إلى يالطا.. ومع ذلك يتوجب عليّ إنجاز أعمال كثيرة هـذه السنة: سيناريوهات، رحلة في نهر الفولغا، وكتاب عن «الاتحاد السوفياتي» باللغة الفرنسية. وفي الربيع القادم أذهب إلى سيبيريا، وربما إلى اليابان، وأخيراً إلى ألمانيا، حيث أكتب سيناريو «بوذا» الذي أعتمد عليه لضمان معاشنا المادي وطمأنينتنا. سوف أقيم قرب فيينّا بالنسبة لـ «الأوديسة».

تلك هي خططي.. كيف ستتحقق؟ سوف نرى.

إزمير، ٢٠ أبريل(١)

رحلة رائعة! أمامي ساحل ايونيا، ازمير، شمـس دافئة وجبال متناغمة، كل الوسائل لسحر قلب الإنسـان الساذج. خفق قلبي لحظة، ثـم سرعان ما كشف «الـزيف» واندفع نحو الأعالي، مثل سهم كاتدرائية.

كييف، ٢٧ أبريل ١٩٢٨(٢)

لا ينبغي أن أكتب إليك كل يـوم، حتى لا أكتب إليك كل سـاعة، وكل لحظـة. الخطط تتغير من فينـة إلى أخرى. ويعـود السبب إلى الـوضع، هنا، وإلى طبع إستراتي. في هـذه الظهيرة جدَّ قرارٌ جديد: لن يسافر باناييت استراتي إلى باريس؛ ربما سافرنا بعد عشرة أيـام، وربما بقيت في كييف، إذا لم أعـد إلى أوديسـا، لإكمال السيناريـو، وربما قصـدت موسكو، وأخيراً ربما نذهب كلنا إلى ألمانيا! يالهي، متى تنتهي هذه الدوّامة؟

٢٨ أبريل(٣)

تحقق اليوم بعض الاستقرار المؤقت. سنبقى في كييف أربعة أيام أخرى، كي نشارك في احتفالات أول مايو، وفي تكريم أوكرانيا لشاعرها الأكبر: شفتشنكو.

هاهي ذي خطتنـا الجديدة: رحلـة إلى سيبيريا لمدة ثلاثـة أو أربعة أشهـر، وعوض الكتـابة عن روسيـا (هنـاك كتابـات كثيرة تُنجـز عنها الآن) سـوف نـؤلف كتابـاً عن

(١) و(٢) و(٣) رسالة إلى ايلين ساميوس.

سيبيريا.

أكتب إليك في غرفة الفندق، الساعة السابعة مساءً، ضوء كثيف. مائدة تتوسطها سَمَاور[1] طويلة، عالية مثل قبة، تغلي. على يساري بيليلي تدير الحنفية وتجهز الشاي، هادئة متألقة.. وعلى يميني استراتي يدخن ويشرب قهوة وشاياً، وأمامي التشيكي الحبيب الذي يروي لنا «حكايات». سنشاهد في الثامنة والنصف شريطاً ذائع الصيت، وغداً نذهب إلى الريف.

منتصف الليل. عدنا من قاعة السينما. هذا الشكل الفني صار يثير اهتمامي كثيراً، الآن. وأدرك صعوبة كتابة السيناريو. سوف أعمل مع سينمائي روسي إذا لزم الأمر..

.. سوف تتملكك مشاعر عنيفة في روسيا، لأن الحياة هنا تعاش على مستوى راقٍ، وهي قاسية وبطولية. ويمكن لجسدك أن يتقوى أيضاً ويخضع للروح.

دنيبر، ٢ مايو[2]

لينوتشكاي، سنستقل الباخرة فجراً، لنصل بعد ست ساعات في البحر، إلى أوكرانيا، لحضور الاحتفال الخاص بشاعرها الأكبر: شفتشنكو..

نجتاز الآن ضفاف الدنيبر الرائعة برمالها البيضاء وصفصافها النابت في الماء، وقراها الواطئة، وكنائسها، ذات القباب الخضراء المدبّبة مثل رؤوس البصل. كل هذا سوف نعود إلى رؤيته معاً، وبطريقة أفضل أثناء نزول نهر الفولغا.

بعد الظهر

استلقينا على العشب حول تمثال شفتشنكو.. وشرعنا نتأمل الناس، والأزياء الأوكرانية الرائعة، ونتمتع بالشمس.. نضيع وقتنا في الحديث عن الحياة، والحياة تمر كما لو كانت بلا غاية! مساءً: انتهت الاحتفالات، الخطابات، الأغاني الأوكرانية، وفرحة اللقاء بعدد من اليهوديات. أتلهف إلى العزلة والعمل.

٣ مايو[3]

سافرنا عبر النهر، طيلة الليل، عائدين إلى كييف. استراتي مرهق جداً. اليوم مُمْطِر، والنهر ممتلىء بالطين والأمواج، والطقس بارد. هذه الحياة سوف تأتي على استراتي،

(١) غلاّية شاي روسية ـ «المترجم».

(٢) و(٣) رسالة إلى ايليني ساميوس.

لأنــه مـريض ولا يسعى إلى الـراحــة. عليــه أن يخفف من التنقل وأن يكتب، ويعـود إلى الأرض، ويسترجع حياة الفلاحين البسيطة التي من شأنها أن تجدد خلاياه.

كييف، ٥ مايو ١٩٢٨(١)

.. أنا متعب جداً. يوم رحيل استراتي كان بـرنامجنا.. مانهاية كل ذلك؟ لست أدري. استراتي تنقصه الإرادة وتتغيّر رغباته باستمرار.. صارت الحياة لا تطاق بسبب تبديد استراتي لها. ينبغي تنظيم كل ذلك وإلاّ ضعنـا. بيليلي تـرى الأمـور بوضـوح لكنهـا، مَرَضياً، أعجز من أن تتدخل، إنها تنقاد مثل النائمة مغناطيسياً.

٦ مايو(٢)

أكتب بهدوء في غـرفتي، لا أكلم أحـداً، ولا أرى أحـداً. لقـد استرجعت إيقـاعي أخيراً. السينـاريـو يتطور تـدريجياً. إنــه أصعب مما قـد يُتصور، إذ يتطلـب كثافـة بصرية، ومنطقاً يطوّر الأحـداث. آمل، مع ذلك، أن يكون جيداً، لأبدأ بالثـاني، الذي أضع فيه كل آمالي: «بوذا».

كييف، ٨ مايو(٣)

استعـادت حيـاتي السكينة منـذ رحيل استراتي.. لقد صـارت غرفتي مثـل الشـارع. يأتي الناس ويخرجون بلا انقطاع، ويأكلون ويتحدثون بأصوات عالية، ويزعجونني. أما الآن فالزم الصمـت طوال النهار، وأكتب، من دون رؤية أحد. لسـت سعيداً، لكن هذا الإطار، يعوّض السعادة قليلاً. السيناريو ليس تاريخياً، مثلما تخوّفْتِ، بل يأخذ طابعاً إنسانياً، درامياً.. والعناصر التي تشكله هي الإنسان المكافح، والمرأة العاشقة، والبحر، والشمس..

٩ مايو(٤)

تهب اليوم ريـاح ساخنة من الجنوب، مـن تركستان، لم أخرج طيلـة النهار. بقيت أنحني على النـافذة وأتحسس أنفاس الشرق.. و«برعب» أعيش ما يسميه الناس «عزلة» وأدعوه «غبطة». في هذه اللحظـات أحس بعمق أنني حرّ. وأعترف أنني لا أرغب في رؤية سـواك: فضلاً عن شخصين أو ثـلاثة آخـرين ولكن هـؤلاء، لوقت وجيـز فقط. حبي لكِ يُؤنْسنـي، أعني أنني أصير جسماً يختار ويقـول: «أريد هذا الشخـص، ولا أريد ذاك».

---

(١) و(٢) و(٣) و(٤) رسالة إلى ايليني ساميوس.

عندما أكفّ عن الحب أحصل على استقلالية لا انسانية. أرجو من الله أن أحتفظ بك حتى مماتي، كما الآن، وأن توحّديني بالدفء الإنساني - حتى لا أضيع. أحبك وأستغرب إحساسي بالحنوّ، تجاه ذاتي، وبالشفقة أيضاً، خليط من الغمّ الذي لا يطاق والفرح، في آن واحد؛ إنني أستجيب لطبعي البشري الذي طالما صارعته، وأمسك بوجهكِ بين كفيّ مثل شيء دافئ، زائل ثمين، ومحبوب، وأرتعش عندما أفكر في موتي، لأن أصابعي لن تتمكن عندئذ من لمس فمك، وأنفك، ورفيف جفنيك، وعنقك.

كييف، ١٥ مايو ١٩٢٨[1]

حبيبتي. أودّ أن أرسل إليك بالسيناريو حتى تطلعي عليه. هذا التدرب سوف يعود علينا بفائدة كبيرة. أعتقد أن الأسلوب العصري سوف يتأثر عميقاً بالسينما.

لابدَّ من قوة رؤيوية كبيرة، ممتزجة بالمنطق، وبالجنون في الوقت نفسه. إنَّ العقل الاستدلالي من شأنه جعل الفيلم مضجراً، والجنون وحده، هو الذي يجعله فوضوياً. لو كنت أعرف التقنية جيداً لأنجزت أشياء مهمة، لأنني أمتلك عنصرين أساسيين، لكنني سأكتفي بشحذ قوتي لتكون أكثر مضاء في «الأوديسة».

تلقيت منذ قليل بطاقة من استراتي. قال إنه لن يعود، وسوف يظل ثلاثة أشهر في موسكو. يريد أن يتعرف «على بعض الناس كي ينجح» ولا أعرف ماذا يقصد بـ «النجاح». إذ أن كلمة «النجاح» عندي ذات مضمون مختلف وداخلي تماماً. وله المضمون نفسه عند استراتي لكنه لا يعرف ذلك. إنَّ استراتي ذو طبيعة مفعمة بالأحاسيس والصور، مع روح بدائية ونبيلة.. وما ينقصه هو الدماغ، والانضباط الشديد، والتوازن في أرقّ مستوياته.

يجب أن نقطن في موسكو أو لينينغراد، لأن كل ما عداهما ريف. في موسكو ثمة صعوبات كبيرة في السكن، لكننا سوف نوفق في الضواحي. يكفي أن تتقبلي هذه الحياة وتتمكني من العيش مع شخص مثلي. أنتِ تعرفينني جيداً ويمكنك التقرير على ضوء ذلك. عمل، هدوء، ضحك، إيناس، سفر.. عندما نقدر على ذلك، حياة بسيطة، عزلة في معظم الأوقات، حياة بطولية وبسيطة.

كييف، ١٨ مايو[2]

.. حزين جداً اليوم، وأحدثك عن ذلك كي أرتاح قليلاً. إنّه الغسق، ولم أخرج طوال

---

(١) و(٢) رسالة إلى ايليني ساميوس.

النهار، مكثت أطالع كتاباً رائعاً لموسيناك حول السينما. بعض الفصول تفتح آفاقاً واسعة فأقول في نفسي.. ينبغي أن أعمق هذا التعبير الجديد عن الروح. إنَّ قدرة الإنسان على خلق شخصيات وأفكار وأهواء، ثم القضاء عليها، بواسطة الضوء والظل، بدأت تؤثر فيّ. وكانت فكرة بوذا الذي يخلق العالم، بشكل مماثل، من خلال الضوء والظل، داخل تلافيف روحه الندية، قد غزتني قبل ذلك.. وأنا أتطلع الآن إلى تحويل الأفكار المجردة إلى صور بسيطة، واضحة. وينبغي أن تكون «الأوديسة» غنية بالصور، وتكون عين عوليس آلة تصوير، تعيد خلق الكون في غرفة مظلمة.

كتبت رسالة حاسمة إلى استراتي، أمس، وتتوقف حياتنا المشتركة المقبلة، على رده..

لكن الطريقة التي يرى بها ب.استراتي، الحياة في الاتحاد السوفياتي كانت تزعج كازنتزاكي.

كييف، ١٧ مايو ١٩٢٨

عزيزي باناييت!

في بطاقةٍ أرسلت بها إليّ، كررت كلمة «النجاح» ثلاث مرات، وهكذا أشعرتني بأنك تعّرض نفسك لخطر كبير. «النجاح» عندي يعني: «ابتكار عمل كبير». وهو كذلك، عندك أيضاً. لكنك تبدد ذاتك في أنشطة زائلة ومؤذية. لم يعد أمامنا، أنا وأنت، وقت كافٍ لتبديد قوانا في مطاردة أهداف أدنى من هذا العمل الكبير، كما يمكننا أن نضيع أيضاً. مقابلة شخصيات بارزة، وتعلم الروسية، والكلام، والانتظار، والاستسلام، تدريجياً ولا شعورياً، لأساليب متعارضة مع هذا التصور للحياة وسيرها ـ هذا ما توحي لي به بطاقتك الصغيرة.

إنَّ حبي القوي لك، ياباناييت، هو الذي يدفعني إلى بذل المستحيل من أجل إعادتك إلى «الغابة» أي إلى روحك. حتى الآن لم ننجز شيئاً ـ باستثناء بعض التمارين لتعلم السحر: التعبير بالكلمات عن القوة الفظيعة، الغامضة والرائعة، التي التي تلتهمنا. ونحن الآن جاهزان: لقد أحببنا وتألمنا وتمتعنا، ونقف الآن على ذروة الخط البياني للإنسانية ـ فلنتخلص من السقوط!

هذا الجهد من أجل «الخلاص»، هو الهدف الوحيد لصداقتنا. وأنا شخصياً قررت تركيز كل قواي لتحويل الخط المنحني إلى سهم. فإذا تركتني وحيداً سوف أحاول «النجاح» وحيداً، أما إذا حاولنا معاً فإن المهمة لن تغدو أسهل، بل أعمق وأغنى.

بوضوح غير بشري أرى الدربين اللذين يتفرعان أمـامنا، في هذه اللحظة من حياتنا ومن صداقتنـا. والآن، وأنا أكتب إليك، أحس أنني أمسك بـذراعك وأدفعك، وأنا في منتهى التأثر.[1]

يوم عيدك، ٢١ مايو ١٩٢٨[2]

حلّ الـربيع اليـوم في كييف ــ شمس، ريح سـاخنة، والنسـاء ارتـدين فسـاتينهن البيضاء المطـرّزة.. وفي هذه الآونة انفجـرت أمطار قـوية، دافئة معطـرة.. مطر الصيف يثير فيّ حنواً عارمـاً. معنى الموت يتغلغل في روحي بهدوء كبير.. الحب، الموت، الأباطيل، الألم الفظيع المتأتي من اللحظـة الزائلـة ـ آه، قلبـي يختلج بقوة. أتـذكر مـرتين هطلت فيهما أمطـار صيفيـة على الأشجـار المزهرة. مـرة في «مـاني» وأخـرى في «أسيـز». آه لا أستطيع الموت في مثل هذه اللحظـات! لم يسبق أن لاح لي توحّدي بالأرض أكثـر بساطة وإغراء. العودة: أن يستيقظ المرء من تحت التراب لثانية واحدة، ويلقي نظرة على النور، والبحر، والمرأة، والـرجل، ثم يعود إلى الارتماء في التراب. أنـا وحيد هـذا المساء، والسماء تمطر، وثمة شجرة قبالتي، مـزهرة قبل أوانها، والموت يشير إليّ بهدوء ساحر، ولا أدري لماذا لا أقـوم وأتبعه. لينتـوشكا، لا يستبقيني سـوى أمي، وأنت، وشخصين أو ثلاثـة، آخرين.

كييف، ٢٦ مايو[3]

... لا أعـرف مشـاريع استراتي، لكنني أعتقـد أن ميله يـزداد لـلانخـراط في الحزب والتحول إلى رجل ممارسة. لو أن قريحتـه نضبت لكان ذلك هو الحل الأمثل.. أما أنا فقد اتخذت قراراً قطعيـاً بالابتعاد عن كل تلـك الممارسات الزائلـة ـ حتى الشجاعـة منها ـ وعدم خيانة قائدي الكبير عوليس ـ بوذا.

من الطبيعي أن تكفّ روسيا عن تزويدي بـالانفعال الأول المحموم للتماس البكر، أ ـ لأنها لم تعد، هي ذاتها، في مـرحلتها البطوليـة، وقد بدأت تتقـدم تدريجياً نحـو توازن اعتيـادي، هو جـوهـري لا محالـة لكنه لا يثير حماسـة روحي؛ ب ــ لأنني لست رجل ممارسة ولا أستطيع الاهتمام الدائم بتطوير نظام اجتماعي. أحب النزول الأول للروح،

---

(١) رسالة كتبها نيكوس كازنتزاكي، بالفرنسية مباشرة.

(٢) رسالة إلى ايليني ساميوس.

(٣) رسالة إلى ايليني ساميوس.

ذلك النزول العنيف الذي يقتبس النار. أما البقية، أي كيفية تجميع اللحظة المريعة في ضرورة يومية عاقلة، فهي لا تهمني بافراط. فرحي الأعمق هو رؤية القوة الغامضة التي تستولي على الإنسان وترجّه، مثل عاشق، أو مصروع، أو مبدع. إذ أنني، كما تعلمين، لا أهتم بالإنسان بل بمن أدعوه، بطريقة ناقصة، الإلٰه.

بدأت بالعمل على سيناريو جديد ــ «لينين».. رؤيا لا تدوم سوى هنيْهة.. آه، لو أنك تتصورين اللذة التي أشعر بها عند التفكير في قدرتي على توضيح تلك الومضة بواسطة الصور، وتمكن الملايين من مشاهدتها. لكن لابد من إيجاد سينمائي كبير. ربما في موسكو. أدرك جيداً معنى الفيلم الناجح، غير أن التقنية تنقصني. أما الومضة فأمتلكها.

كييف، ٢٩ مايو ١٩٢٨[١]

ليتني أستطيع التحرر من اليونان! ينبغي ذلك. أما العيش مطولاً هنا، فلا أريده، لأنني لا أعرف اللغة، ولن أتعلمها، وهكذا يستحيل عليّ الاتصال المباشر والعميق بروسيا. ما من صحيفة، أو كتاب، أو حوار ــ لا شيء. أشعر بالكآبة. سوف أطلع على أكبر قدر ممكن من الاتحاد السوفياتي ثم أرحل. أين وكيف سنعيش، سوف نرى.. «اذهب، واختر طريقك» كما يقول الكريتيون. وكلانا كريتي، بفضل الله.

في بيكوفو الكائنة في ضواحي موسكو الكبرى، عاد كازنتزاكي إلى العيش مع باناييت استراتي وبيليلي، في بيت خشبي وجدته لهم ايتكا. وإلى «ليًا» كان قد اشتكى، في نوفمبر ١٩٢٧، من القانون القاسي الذي استعبد ايتكا. وبعد عام واحد، كانت ايتكا التي تسكن أيضاً في بيكوفو تتردد على زيارته وتترجم له الصحف والكتب الروسية، وتناقشه حول المشاكل الساخنة في الأحداث الثورية. وكتب نيكوس، آنذاك إلى ب. بريفيلاكي:

..هنا التقيت مرة أخرى إحدى صديقاتي اليهوديات في حلقة برلين اللاهبة.. إنَّها مسكونة بالحداسة والاندفاع، والقوة والإيمان، وفي منتهى التعصب للحزب. هذا اللقاء مفيد لي، لأنه يثلج صدري.

غير أن باناييت استاء من زيارات إيتكا المتكررة. لقد خاف على مستقبلي مع

(١) رسالة إلى ايليني ساميوس.

نيكوس، وراسلني ليخبرني بذلك. ولم يكن يعرف «ميثاق الأيام العشرة سنوياً».. إذ لم نتوصل بعد، أنا ونيكوس إلى إدراك ما يختلج في قلبينا إدراكاً جيداً.

وسوف يقول لي نيكوس حال وصولي إلى موسكو: «إذا وافقت على أن تصيري زوجتي، فإني أعدك بوضع حد لماضيّ. ولن تكون هناك امرأة أخرى».. ولم تكن هناك امرأة أخرى فعلاً، غير أننا تمكنا من الاتفاق على الربط بين الماضي والحاضر والمستقبل، بالمحافظة على صلات وثيقة بأصدقاء الماضي.

بيكوفو، ١٤ يونيو ١٩٢٨(١)

من الضروري أن نقوم هذه الأيام برحلة مضجرة إلى يالطا.. حيث يوجد استراتي.. وسوف نعود بعد عشرة أيام. ابقي بضعة أيام، إذن، عند إلسا، واستريحي.. ولولا خوفي من تقاطع قطارينا لذهبت إلى مينسك لاستقبالك.. لينوتشكا الحبيبة، في هذه اللحظات الأخيرة التي تسبق لقاءنا، أحس برجفة خفيفة. فليقدنا «إلـهنا» في هذا الوقت الصعب.

بيكوفو، ١٥ يونيو(٢)

..أنا الآن في بيكوفو، مسافة ساعة عن موسكو، في غابة صنوبر واسعة. وهناك عيبان في هذا المكان: الرطوبة والبعوض بأعداد هائلة. استراتي يعاني من بعض التوعك بسبب التغير المستمر في درجة الحرارة، وهو يفكر الآن في السفر إلى القرم.. استلمت البارحة رسالة من اللجنة التي وافقت على السيناريو واعتبرته أفضل ما أرسل إليها.. سنذهب اليوم إلى موسكو وسوف نقترح على جمعية أخرى مواضيع لثلاثة سيناريوهات أخرى.. اثنين من وضعي، والثالث مقتبس من «العم أنغل».

نشرت بعض المقالات في البرافدا حول المشاكل العمالية في اليونان، وأستطيع أن أرسل إليكِ ألف فرنك، لكن بصعوبات كبيرة.

عندما تأتين، وسواء رحلنا أو بقينا هنا، سوف نعمل معاً، وآمل ألا تعرقلنا المسائل المالية.

لينينغراد، ٢٦ يونيو(٣)

إقامتنا هنا كانت في غاية الأهمية. أمضينا ليالي بيضاء في البداية، ثم شاهدت في

---

(١)، (٢)، (٣) رسالة إلى ايليني ساميوس.

الارميتاج لـوحات أحبهـا: رامبرنت، الغريكو، الأيقـونـات، والتقيت شخصين أو ثـلاثة، ومن بينهم شـاعر صـوفي مسيحي، كبير[1] أهداني أيقـونة جميلـة وتحدثنا عن القلق الإنساني.

تحاورت مطولاً مع استراتي، قبـل أيام، في إحدى الغـابات، حـول موضـوع قدومك. أوضحت له الوضع ببسـاطة، لكن بطريقة حـاسمة. وهو يخشى أن نواجـه صعوبات مالية. غير أنني أوضحت له كيف سنعيش معاً بتواضع، وبساطة، وانصراف إلى العمر. أما هو فالفشل من نصيبه دائماً بسبب طريقة عيشه.. وسوف ننفصل عنه إذا لزم الأمر.

٣٠ يونيو ١٩٢٨ [2]

باتت الرحلة الآن شبـه مؤكدة: الفولغا ـ اليـابان. وسوف نبعث بمقالات إلى «المجلة الفرنسيـة الجديدة» وإلى صحف ألمانية وروسيـة. ينتظرنـا عمل هائل، لكنني تحملت مسئـولية كل ذلك للمسـاهمة قـدر المستطـاع، في العيش المشترك مع استراتي. وعندمـا تنتهي هذه الـرحلة سوف نعود إلى باريس.. ونـؤلف هناك، ثلاثة أو أربعـة كتب حول رحلتنا، وألجأ، أنا، إلى عزلة صارمة كي أعـود إلى كتابة «الأوديسة». وإذا بقيت تريدين العيش معي، حتى ذلك الوقت، يالينوتشكـا، سوف نتقاسم العمل، وتشرعين في الكتابة معي، ومساعدتي ونقوم حين نشاء، بـ «رحلات» إلى اسبانيا أو غيرها. أما إذا لم تعودي تـريدين استنشـاق الهواء الذي أستنشق، فسـوف تفارقينني، حـرة، مرتـاحة البـال، وأنغمس وحـدي في عزلـة مطلقـة. أنا قـوي جـداً وأستطيع مقاومـة كل شيء. كما أنني مستعد دائماً لمواجهـة أي طارىء. وهكذا لا أجبر أحـداً على أن يداريني. ستراسلك بيليلي لتطلب منك أن تُحضري لها مسدّسها وبعض الأشياء الأخرى.

العيش مع استراتي يسير نحو الأحسن. غير أن بيليلي ـــ التي تعتبر رفيقة منـاسبة لاستراتي ـ تتبرّم أحيـاناً. واعترفت لي بـأنها تحقد عليّ، في بعض الأوقـات، حقداً قـاتلاً. لكنني أتفهمهـا وأوضح لها الأسباب. آمل أن يكـون تأثيري إيجابياً في استراتي ـــ وهذا عزائي.

لينوتشكا الحبيبة، مصيرنا مدهش. إذا تحقق الحلم المتعلق بسفرنا، فمعنى ذلك أن هذه الحياة تعطي أكثر ممـا نطلب منها. وعندما تعارفنا لم أكن أحلـم بالنجاح الراهن.

---

(١) انظر «تقرير إلى غريكو» (نيوقلا كليؤويف الذي ترجم له كازنتزاكي بعض القصائد: «الفرح، قافلة الحرير..» انظر تو داد رابا.

(٢) رسالة إلى ايليني ساميوس.

لقد نقرنا الحياة نقرة قوية فانطلقت باندفاع إلٰهي. اتمنى، بمشيئة الإلٰه، ان تقاسميني أفراحاً كبرى ومرارات كبرى، وليس الرداءة أو الضجر.

دوّن نيكوس في دفاتره الهلع والاحترام اللذين أوحى له، بهما، مرة أخرى، كفاح الإنسان. ذلك الكفاح غير المتكافىء ضد عناصر الطبيعة، الكفاح العنيد والمميت.

«إلٰهي لا تقتلني! هذه هي الصلاة الوحيدة التي يتوجه بها أقوام الإسكيمو إلى ربهم».. وكتب في موضع آخر: «في المتحف، شاهدنا أسراب الكلاب المربوطة لذلك الإلٰه، ملطخة بدم كثيف».

لو طُلب مني وصف السا «أ»، لكرَّرت مع الآخرين: «المرأة الصغيرة الصامتة»، لمقدرتها الفائقة على «خلق» الصمت. صمت أحلام، وأعماق بحرْية، ثريّ وساحر. ومع ذلك فإن السا تتكلم، بكثرة، لكن بصوت أبحّ، بل خفيّ وبَاسِم. وكانت عيناها وشفتاها المجعدتان تشدّدان على هذه الكلمة المعبّرة أو تلك. فتحني رأسها قليلاً وتسعى إلى التعبير عن فكرتك الحميمة، أو إكمالها. فتشعر كأنك تناجي روحك.

وكانت الأيام القليلة التي قضيتُها في بيتها، بين باريس وموسكو، في منتهى الأهمية بالنسبة لي.

لقد سُرَّت بالعثور على آذان صاغية فتحدثت بطلاقة عن أعزّ ذكرياتها. ولم يكن حبها يقتصر على فصل الربيع، بل يغطي كل الفصول: بالطريقة الفريدة التي «يحب» بها المرء، من دون المطالبة بمقابل.

أوضحت لها وضعي، فشجعتني «نعم، يمكنك أن تثقي به، ياإيليني، فبرغم النار التي تلتهمه، يحافظ على توازنه وحالته السوية. سافري ولا تندمي مهما حصل. سوف أرافقك بأفكاري، وأكون معك في الأوقات العصيبة. إنَّه عارٍ وأعزل. ويذكرني بالقديس سيباستيان والسهام توشك على اختراقه. عليك أن

تغطيه وتحميه من هذه السهام».

ثم اقتربت أكثر من ذلك «الاقتران الغني»، تلك الفكرة التي تسعى إلى التجسد:

– هناك أيضاً بعض التناقضات، طبعاً.. لكنه أول من يعترف بها، ويصارعها. في استطاعته أن يكون أنانياً، بالكامل، لكنه ليس كذلك إلاّ إزاء عمله. وكان في استطاعته أن يكون قاسياً، وهو ليس كذلك إلا تجاه نفسه.

– إنه يجازف بتدمير ذاته! صحتُ قلقة. وحسبما عاينته وعرفته قد يدمر نفسه لفرط سعيه إلى التسامي بروحه. ومع ذلك، فإن الأمر الغريب هو شعوري بالراحة إلى جانبه، كما لو كنت في مأمن، تحت سنديانة كبيرة، قرب نبع.

– هل تتذكرين ذلك الكريتي الهرم الذي أثّر فيه كثيراً، ياايليني؟ أراهن أنه حدّثك عنه كثيراً. كان ذلك الشيخ منحنياً على جدول متأملاً حياته، مائة سنة، تمر.. وعن سؤال طرحه نيكوس أجاب:

– الحياة، يابني، تشبه كأس ماء بارد.

– فهل تحس أنك ارتويت، ياجد؟.. واصلت سؤاله ضاحكةً.

– اللعنة على من يرتوي! صاحت إلسا وعيناها تتقدان، ياصديقتي ايليني، ستمسكين بكأس الماء البارد بين راحتيك. فلتحلّ بك اللعنة إذا تركت قطرة واحدة تضيع.

وبعد أسبوع أمضيته عند السا أ. في دوسلدورف، ركبت القطار إلى موسكو، متسلحة بالمسدّسين اللذين طلبتهما بيليي، وكأنني أقصد الاتحاد السوفياتي لأمارس أعمالاً فوضوية. ولم نكد نجتاز محطة مينسك حتى استقبلتنا «بَالاَلاَيْكا»[1] بأنغام الترحيب.

---

(١) آلة موسيقية مثلثة الشكل وذات أوتار ثلاثة «المترجم».

كنت أقترب من جهد الإنسان الساعي إلى تجاوز ذاته، والتخلص من الأنانية، والاستماع إلى شكوى الجائعين، وتدعيم قلبه لمواجهة آلامه الخاصة، كنت أقترب منه لمشاطرته نجاحه، غير المنتظر، وفشله المحتوم.

«إذا كان لكَ قميصان، بعْ واحداً واشترِ وردة!» يقول الصينيون.

«ماذا تحملين ياسيدتي، في ذلك الصندوق الضخم، سألنا رفيقة رحلتنا، وهي امرأة لاتزال تحتفظ بجمالها، وقد استقلّت القطار من باطوم قاصدة لينينغراد «سبعة أيام بالقطار». لماذا يبدو عليك القلق؟

– إنها هدية لصديقة مسنّة.. كانت غنية في الماضي، وصارت تعيش حياة البؤس.

– برتقال ومندرينة، طبعاً!

– كلا.. بل مائتا وردة بيضاء.. لأنها تحبها كثيراً!..».

«إلى بيكوفو؟ يستحيل عليك الذهاب بمفردك! إذا لم يأت أحد لاستقبالك حتى المساء، سوف أرافقك، ارسل من يرافقك!».

ابتسم رئيس المحطة من تفسيراتي المرتبكة «نيتشيفو! اشربي شاياً، وكُلي قليلاً من «البليني» وانتظري بهدوء. لن أنساك!».

جلست على حقيبتي، كما لو كانت صخرة تتدفق عليها موجات متقاربة، من الرفاق ذوي الجزمات المصنوعة من جلد الخرفان، والأوشحة الحمراء، والأثواب البيضاء، ومكثت أعدّد التوقعات، عندما لاح في مجال رؤيتي، رجلٌ هزيل، وملوّح البشرة، يؤشر لي، ويضحك بصوت عال، ويشد بيده كتف امرأة مسنة، مندهشة، وربما كان يروي لها حكاية، وحده الله يعرف ماهي، وبأية لهجة اخترعها. وكان نيكوس فعلاً، وقد جاء إلى المحطة ليطلع على مواعيد القطار، فلمّا لمحني، أراد أن يكسب الوقت قبل أن يهرع إليّ، وقد بدوت له مثل رؤيا.

كانت بيكوفو كما وصفها تماماً: داتشا ـ شاليه، أو بيت خشبي على الطريقة الروسية ـ في غابة صنوبر معتمة. وهناك مستنقعات سوداء، كان باناييت

وبيليلي يأمــلان السباحــة فيها ذات يــوم.. بعوض، ومطــر لا يتوقف، ثم ايتكــا، والعدوّ غير المتوقع، تلك الحشرات التي كنتُ ضحيتها الوحيدة.

أعجبني كل شيء في نيكوس كـازنتزاكي ولم أعد أخشى إنذاراتـه التنبؤية عن «الاتصالات والزيارات التي قد تزعجني». كنت أخشى أمراً واحداً: أن أكون أدنى من المهمة الموكولة إليّ. غير أن فرحنا لدى كل لقــاء جديد، وحزننا لكل فراق، كانا يمناً وبركة.

كنتُ قد أحببتُ بيليلي، وبدأت جاذبية بــانابيت تفعل فعلها. لم يكن هناك من يماثله عندما يشرع في سرد حكايــاته عن «بَرايْلاَ وبلوست».. لكنني لا أنفي تألمي من تقلب مزاجه، إلى حد توتر أعصابي!

كنا نتحلق كل ليلة، حول غلاية السماور، فنشرب الشاي، ونعد خططاً دقيقة. ولا نكاد ننام حتى يبدأ بيانابيت بتمزيق تلك الخطط، مبتهجاً بفعلته. ومع الفجر ينادينا، وهــو في قميص النوم، إلى غرفته، من أجل إعــادة التخطيط. فنتوصَّل إلى خطط تفصيلية جديدة، وقرارات جديدة «نهائية» لا يحترمها إلا برهة من الزمن. وحدها بيليلي كانت تحافظ على ابتسامتها التــي تشبه ابتسامة صورة عذراء من القــرون الوسطى. وكنت أحــس بــ «ثعبــان» الغضب ينســاب على امتداد ظهــر نيكوس، لكنه يحافظ على هدوئه، ولا يُظهر شيئاً.

أذكر أيضــاً، ذات يوم في تفليس، عندما هــربت من الفندق في منتهى السّخط، وقد أردت وضع نهاية لكل شيء.. وفي مرة أخرى ــ وهذا ما ظل يُضحك نيكوس حتى نهاية حياته ـ ضقت ذرعــاً بدوري، وبقيت أصرّ على أن البطاطا «في بلادنا» تــرفض الماء أثناء طبخهــا. وكــاد بانــابيت يختنق غيظــاً لعجزه عن رفع يــده في وجهي.

لقد تهوَّر نيكوس في أمــر مهم: كان يخشى قدراته العمليــة ـ ولم يكن ليتحلى بها ـ فعينَّ بــانابيت أمين مــال. لكن بانــابيت لم يكن قادراً على الاحتفــاظ بفلس واحد في جيبه. فكان يقدم مساعدات مالية لكل قادم جديد. فيستلم أحدهم مبلغاً ليركِّب طاقم أسنان، والثاني لشراء نظارات، والثالث لاقتنــاء تذكرة سفر بالقطار

كي يلتحق بنا من أقاصي الاتحاد السوفياتي. وهكذا رأيت ذات يوم، شخصاً بائساً جاء من أوديسا:

«هاأنذا ياتوفاريتش بانابيت! أنت منقذي! لن أغادرك أبداً!» صاح مقبلاً بانابيت على خديه.

وإذا بـ «ابننا الضال» يفتح كتاباً ويقرّبه من ضيفه، العامل مثله، والمصاب بالسلّ مثله:

– توفاريتش نيقولاي فاسيليفيتش، عندما تحدّثنا في أوديسا، كنا في هذه الصفحة. والآن، انظر جيداً. الأوراق تدور بسرعة، ونحن اليوم نوجد في هذه الصفحة!

أحتاج الى مجلدٍ كامل على الأقل، كي أصف رحلاتنا في الاتحاد السوفياتي، ونزولنا عبر نهر الفولغا، وتنقلاتنا عبر جورجيا وأذربيجان وأرمينيا، وفوق قمم القوقاز، وإقامتنا على شاطىء البحر الأسود، المشمس والساحر.

بعد تبديد المال الذي وفره نيكوس بصعوبة فائقة، واختلاسه تدريجياً، انتهى حجّنا إلى الاتحاد السوفياتي نهاية مثيرة للشفقة. ذات مرة في تفليس، وبين وجبتين باذختين مع تشيمادان[1] وشاشليك وناباويولي[2] وتشينانالي[3] متدفقة بإفراط، تملكت البهجة بانابيت، بحضور نخبة من الشعراء الشباب المتحمسين، فضحك ضحكة صفراء وسدّد لنا لطمة:

«أصدقائي، FINITO LA MUSICA[4] هوْ هوْ هو! كنت أريد أن أعلمكم بذلك قبل فترة.. ها ها ها! لم يعد في حوزتنا فلس واحد! وإذا لم نرجع إلى موسكو هذه الليلة، يتوجب علينا التقشف والحمية.. وجبة واحدة في منتصف النهار، صحن شربة كثيفة فقط، وفنجان كاكاو مساء. بُولشي أُوغُوتْشَات نتْشَامْ![5]»

(١) شخص يتولى إراقة الخمرة وفق تقاليد جيورجية قديمة: الساقي.

(٢) و(٣) نوعان من الخمرة الجيورجية.

(٤) «انتهت الموسيقى» والمقصود بها: انتهى الأمر «المترجم»

(٥) «لا استطيع ان اقدم لكم اكثر».

وداعاً أيتها الأحلام الجميلة! كم بكيتُ خفيةً، ونحن نفقد بطاقات التنقل الصغيرة التي وهبتها لنا الحكومة السوفياتية، وتمكننا من استخدام كل السفن والقطارات الروسية!

وحده نيكوس تمكن من إتمام تلك الرحلة التي بدأت تحت رعاية سعيدة. أما باناييت وبيليلي وأنا فقد غادرنا الاتحاد السوفياتي في بداية يناير ١٩٢٩، ولم يكن باناييت يشك طبعاً، في أنه لن يعود إليه أبداً.

كانت إصابته بالسلّ في مرحلة متقدمة، ويرفض الاعتراف بذلك، وينجح في خداعنا بمقاومته الخارقة وهو يذكرني بكاتب آخر، مشهور وصاحب نزوات مثله، وقد توفي في الفترة نفسها تقريباً: د.هـ.لورنس.

كان محباً للسفر، ومبشراً بلا انقطاع، وساعياً الى جعل العالم يضحي بمصالحه الخاصة من أجل القضية الكبرى، ومنقاداً لنبوات غضب ضد أصدقائه وضد فريْدا[1] وأعدائه، ناسجاً علاقات صاخبة مع الجميع، لا ينقصها النبل والسخاء والحميّا، لا يعكرها النفاق ـ شخص لا يطاق لكنه يُحب، في الوقت نفسه.

كان ينتعل جزمته الطويلة ذات اللفافتين، وقد صنعت من جلد رمادي اللون، ويرتدي بنطال فروسية وسترة عسكرية سيئة التفصيل، متعددة الجيوب، ويتنقل منحنياً تحت وطأة آلة تصويره التي تشبه آلة مصور جوّال، وجيوبه محشوة بالأقلام والسكاكين والمقصات والكلاّبات والمبارد ـ إذ كان مهووساً بنظافته ويحب الاعتناء بيديه الرقيقتين والسجائر، والليمون، والفلفل الأحمر نصف المقضوم، وقناني زيت الزيتون الصغيرة، من دون أن ينسى علبة الأقراص المُحَلاّة والمعطرة، التي كان يمصها ثم يبصقها، ويقدم منها للحاضرين.

ياويلنا إذا فُقد الليمون ساعة تناول الشاي. كنا نترك الشاي الساخن يبرد ونركض في اتجاهات المدينة بحثاً عن ذلك النوع اللعين من الحمضيات..

---

(١) زوجته فريْدا.

– يَسْتْ ليمون، توفاريتش؟

– نْيَاتْ!

– لماذا «نيات»؟ ألا توجد ليمونة واحدة في الاتحاد السوفياتي؟

كم مرة اجتزنا جسر غابة نيجني ــ نوفغورود تحت المطر الغزير؟ كم مرة جُبنا كازان، واستراخان، وباكو، وباكوم؟ وراء مطاردة الليمون دائماً، وأسناننا تصطك من البرد، وجباهنا تنزّ عرقاً. بينما يزمجر باناييت مثل بحار ملتهب الدماغ، متذكراً كل شتائم والده: «سوف.. أمك وأبيك! سوف.. شاربيي عمّك الأكبر!.. سوف.. روسيا السوفياتية!» ثم يتمالك أعصابه، ويبحث في جيوبه، ويقدم لنا أقراصه التي بصقها مرات، كي يهدىء من غضبنا العادل.

ومثل الألعاب التي تمنعها شحنة رصاصة من الانقلاب، لم يكن باناييت يترك المجال لشيء، أو لشخص، كي يقلبه. كان يجبرنا على تعقبه، قلقين غالباً، مرهقين أحياناً، ومدهوشين لدى كل تمرد جديد لمزاجه. وبعد جولة فروسية طويلة على الحدود التركية، أتعبتنا كثيراً حتى أثقلت حركاتنا، رأيناه يحاذي خطر الموت مرتين، لكنه يعود منتصراً في كل مرة، مُلوِّحاً بعلبة «الأسبيرين» العاشرة، صارخاً بأعلى صوته: «علبة كاملة في ليلة واحدة! لا شيء أفضل من هذا لمقاومة ـ النزلة الرئوية ـ أؤكد لكما ذلك!».

وهكذا كان يستعيد قوته مجدداً، بإدمان الأسبرين، والشاي والقهوة، والمشاحنات العنيفة، في حين كنا نشفق عليه كل مرة ونظنه أشرف على الهلاك.

يضاف إلى كل ذلك، تلك الضجة التي تحيط به من الصحافيين، والمصورين، والسياسيين والفلاسفة الاشتراكيين.

كان ذات مرة عائداً من لينينغراد وقد تملكه الغضب بسبب الإساءة إلى عائلة مناضل بلشفي قديم، فتناول الهاتف منددا بما حصل لعائلة كومبرون، ثم انهار في فراشه خائر القوى، منتظراً صواعق أولئك «السفلة» في الكومسمول. كانت لعبته خطرة، قاطعها صحافي شاب عندما سأله بنبرة مازحة:

«عزيزي تـوفاريتش استراتي، هل سمعت بالكارثـة التي حلّت بمجموعة من الصحافيين الغـربيين، في عرض البحـر؟.. يالها من مأسـاة شنيعة!.. عـاصفة، عاصفة ملعونة، ولم يُسعف أحد.. اختفوا من دون أن يتركوا أثراً..».

وإثر جولـة شملت موسكو، بعد الفـولغا، واذربيجان، وجورجيـا، والقوقاز، استأذنت نيكوس كي أذهب إلى برلين، وأنتظره هناك، عند ماريكا[1]. أما بانابيت وبيليلي فقد قاما بـزيارة خاطفة إلى برلين ثم توجّهـا إلى فيينا، وهناك انفصلا إلى الأبد.

كان شتاء ١٩٢٩ قاسياً.. نزلت الحرارة إلى ٤٥ درجة تحت الصفر. ولم يكن بانابيت يقاوم البرد إلاّ بمعطفه الخفيف ذي اللـون الرمادي المخضّر. أما نيكوس فكان يرتدي «الماتيوشكا»، وهي عبـاءة مبطنة بالفرو ظل يحتفظ بها منذ إحدى زياراته السـابقة إلى الاتحاد السوفياتي. وكنتُ أكثـر حساسية تجاه البرد، مني تجاه السخرية، لذلك جبتُ الشوارع مرتـدية معطف ضابط قيصري سابق، بعد أن جردنـاه من شرائطه ونجـومه. ونظـراً لصعوبة الحصـول على جزمـات، كنا ننتعل أحذيتنا البائسة التي تجعلنا نتزلق على الثلج. ولم تكن ماريكا بجانبي كي تدفىء حـذائي، باستبـداله، كلّ خمس دقـائق بحذائها، كما فعلـت ذلك لاحقاً في شوارع برلين الجليدية.

ومن حسن الحظ أنّ القطار الذي أقلّ نيكوس لم يختفِ في ثلوج سيبيريا، كما أخافه بذلك بانابيت. فقد أصر نيكوس على المراهنة، ونجح فيها، كما نجح معطف الماتيوشكا الذي كان يقيه. وحده بنطاله الذي يشبه بنطال الوَقّاد، رفض خدمته، وأجبر مالكه على رتقه كما اتفق، بِعُقَدٍ بحرية كبيرة.

وكانت تلك الرحلة في الحقيقة، أشبه بـرحلة داخل كاسحة جليد، عبر الاتساع «القطني» في سيبيريـا، كما كان لها تـأثير استشفاء بيـاتي، أو إسفنجـة ناعمـة ومنعشة، مسحت صخب الأشهر الأخيرة من ذاكرة الشاعر.

---

(١) كانت ماريكا آنذاك تعيش مع صديقتنا السيدة فانيا ليبمان، التي اختفت في «بوفنوالد» مع ابنها جوني.

وعوض التعرّف على الشعب الروسي المكافح من أجل التغلب على مختلف أنواع القهر والبؤس، لم يتعرف نيكوس، مـرة أخرى، إلاّ على قلبه. ولا شك أنَّه تمكن في امتداد بياض البراري الروسية الفاتنـة، من تصور نهاية «عوليسه» ذي الأرواح السبع، وإغمائه في جبال الجليد العائمة في القطب الشمالي..

أيتها الروح، لا مجال للموارية هنا، فما عادت تنطلي الحيل.

حوّلي، إذا استطعت، تلك الضرورة المريعة إلى كبرياء

بشجاعة، لا بضعفٍ أو بسالة ساخرة.

لنمتطِ صهوة الفيل الأبيض الذي تقدّم، لنذهب

بلا انذهالٍ، بلا مقاومةٍ، إلى حيث يقودنا.

في طريق المنفى، تماماً كما لو كنّا اصطفيناه.(١)

بيرم، ٤ فبراير ١٩٢٩، ليلاً(٢)

لينوتشكا العـزيزة، أنا الآن على سفح جبال الأورال، عند مـدخل سيبيريا.. وحيداً في مقصورة.. والصمت الإلٰهي الـذي يطهّر الروح البشرية، ويغذيها، يغـرقني في سكينته ويخصبني، مثل نيل مصر. من بين كل مقصـورات سيبيريـا، هناك واحـدة فقط ليست دافئة جيـداً، وكانت من نصيبي. ولقـد عُرض عليّ تغييرهـا.. لكنني فضلت العذاب على فقدان عزلتي. في الليل يصير البرد قـاتلاً برغم وقايـة «الماتيوشكا» غير أنَّ ذلك لا يهمني مادام ثمناً لعزلتي.

أطالع وأكتب شعراً، وأتأمل.. ما أروع هذه المعالجة بالصمت! المشاهد رتيبة: ثلوج، صنوبر، ضيعات صغيرة، زلاجـات، جزمات «فالنكي»(٣) و«شوبا»(٤).. وهذه الرتابة هي نوع من صمت خفي ومريح. غداً ندخل إلى سيبيريـا، وسوف أكمل هذه الرسالة التي تغريني، لأنها توهمني بحضورك يالينوتشكـا، فيلمع وجهك الحبيب شاحباً ومزهواً في زاوية «المقصورة».

---

(١) الأوديسة، النشيد الثالث والعشرون، الأبيات ٦٨٤ ـ ٦٨٩ من الترجمة الفرنسية التي أنجزتها جاكلين مؤاتي ـ فين.

(٢) رسالة إلى ايليني ساميوس.

(٣) جزمات مبطنة بالفرو.

(٤) عباءات من جلد الخروف مبطنة بالفرو.

٧ فبراير كما أعتقد(١)

كراسنويارسك

..بعد كرسانويارسك صارت الأرض وعرة، وجميلة جداً. نهر جينساي في غاية الروعة. مشاهد أخرى جميلة: شروق الشمس وغروبها في سبيريا، شروق وغروب لطيفان، ناعمان، طاهران.. اليوم تكلمت لأول مرة، جلست في المقطورة المخصصة للمطعم مع مبشر فرنسي عاش خمس عشرة سنة في منشوريا. حدثني عن الحياة والروح، وآلام البشر. وهناك كان قلبي يخفق. لست أدري لماذا يبدو لي الناس الناؤون أكثر قرباً و إخاءً.

إركوتسك ٨ (فبراير) ليلاً(٢)

ليل وحوذيّة، أجتاز الأغارا، نهر متجمد، بارد، محبط، ثم فندق صغير، دافئ جداً، شاي، أتجوّل، ظلام، بيوت واطئة، نساء قويات وحمراوات، دور سينما، أضيع طريقي، برد قارس، أخيراً وجدته، والآن مستلقياً على الأريكة المخملية (لا شك أنها تعجّ بالبقّ) أكتب إليك وأتذكرك بحب. أتلـ ` ، إلى طلوع النهار حتى أقرأ برقيتك.

ذهبت إلى مكتب البريد. لا شيء. سوف أعود اليه. البرد فظيع هنا. الحليب يُقطع بالسكين. وهو متماسك مثل الجبن. الحياة عذاب. النهر رائع، بعد تجمد أمواجه. المتحف رديء. والمدينة لا قيمة لها.

١٠ فبراير ١٩٢٩(٣)

..فجأة أُعلمتُ بأن القطار سيغادر، ركضت، والتحقت به منطلقاً، والآن أكتب إليك من المقطورة.. سوف أبذل المستحيل كي أكون معك في بداية أبريل. ينبغي أن نشاهد معاً إحدى العجائب: أشجار الكرز المزهرة قرب برلين، في فيردر، إنَّها واحد من أجمل الكنوز التي شاهدتها في حياتي، يوم ١٣ أبريل ١٩٢٣، وسوف أستمتع برؤيتها مجدداً، معك.

تشيتا، مانشوريا، ١١ فبراير ١٩٢٩(٤)

..كلمة حول هذه المدينة الصينية الصغيرة. بحيرة بايكال جميلة، لكن بحيرة سيفان أجمل. وخلف البايكال تبرز جبال رائعة.. ذاب الثلج كله تقريباً، وبدأت القطعان ترعى.. «تشيتا»، مدينة صينية لطيفة جداً. صاحب الفندق يوناني، غداً صباحاً أقصد هاباروفسك.

---

(١) و(٢) و(٣) و(٤) رسالة إلى ايليني ساميوس.

١٢ فبراير ١٩٢٩(١)

فجراً. في انتظار القطار الذاهب إلى هاباروفسك.

مساء البارحة فرحت فرحاً لم أكن أتوقعه. يوجد هنا في تشيتا مائة وخمسون يونانياً، وعندما علموا بقدومي اجتمعوا في أحد البيوت ودعوني إليه. فتحدثت إليهم بحماسة واهتمام لمدة ساعات عديدة. رجال بسطاء، خبّازون، اسكافيون، ماسحو أحذية، وهم يجتمعون كل مساء لكسر العزلة. ولديهم، كما قالوا لي، أسئلة كثيرة لا يستطيعون الإجابة عنها. ما الشيوعية؟ لماذا انهزمت اليونان؟

لماذا خُلق الانسان؟ ما معنى الشرف؟ هل ستنشب حرب أخرى؟ إلى أين نحن ذاهبون؟

لو كنت المسيح لكان أمثال هؤلاء، أتباعي. حب، حماسة، ثقة. المثقفون عقيمون، لئيمون، وملعونون. كنت مرهقاً، حزيناً. ومع هؤلاء البسطاء، استعدت ثقتي بالإنسان! تشيتا! مدينة صغيرة في منشوريا! لم تكن موجودة حتى البارحة. أوّاه، ريزَنْ، ريزنْ، ريزنْ! كما قال ريلكة!(٢)

منشوريا، ١٤ فبراير ١٩٢٩(٣)

نحن الآن نجتاز حدود منشوريا، ونحاذي نهر آمور. مناظر رتيبة، سهول قفراء، مغروسة بأشجار بتولا صغيرة، وأحياناً تلوح قرية، فينزل الجميع، ويركضون نحو «الكيبياتوك»(٤)، ويملأون أباريق الشاي بالماء الساخن، ثم يعودون راكضين إلى القطار. بالأمس سجّل ميزان الحرارة ٣٦ درجة تحت الصفر، لكن عربات القطار جيدة التدفئة. فبدأ عذاب آخر: الاختناق. النوافذ مسدودة، وتحت العنوان المعروف: «تعقّب النجم الأحمر»، سوف يكون الجزء الأول بعنوان «الإنسان البلشفي» والثاني بعنوان «الإنسان ما بعد البلشفي». لديّ حالياً خطة متكاملة مع تفاصيل كثيرة.

(١) رسالة إلى ايليني ساميوس.
(٢) يوضح نيكوس قول ريلكه، محوّراً اياه، من «ريتن، ريتن، ريتن»: الذهاب على صهوة حصان، إلى «ريزن»: السفر أو الارتحال.
(٣) رسالة إلى ايليني ساميوس.
(٤) ماء ساخن للشاي، وهو موجود بوفرة في كل محطات الاتحاد السوفياتي.

١٥ فبراير، هاباروفسك(١)

وصلت مبكراً جـداً، في الصباح، مدينة جميلـة، والبرد لايزال فظيعاً، ومامن غـرفة في الفنادق. سـوف أنام في الممـرّ.. أجوب الشـوارع المزدحمة بالصينيين، والثلـوج، وجهي يؤلمني كثيراً. قبل لحظات توقفت فـلاحظ لي شخص أن أنفي قد ابيضّ، أخذت قليلاً من الثلج وفركته مطولاً.

١٦ فبراير(٢)

تأخر القطار أربعاً وعشرين ســاعة، سأبقى سجيناً هنا يوماً كامـلاً. مساء البارحة ذهبت إلى السينما لمشـاهدة شريط جنكيـز خان. شاهـدت المقاطـع التي رأيناهـا معاً في موسكـو وقد ازداد إعجـابي بها.. كانت العشيـة رائعة. الثلـج أزرق، ونهر آمور أزرق وواسع، وفوقـه بدأت تتلألأ نجمـة خضراء. أحاول التخلص من الحزن، بـاحثاً عن كل ماهو جميل، لأتشبث به حتى لا أسقط. نمت في الممر. الحمد لله، خَبِرتُ شدائد أكبر.

فلاديفوستوك، ١٨ فبراير ١٩٢٩(٣)

..بحثنا، أنا ورفيق طريق روسي، عن غـرفة، حتى منتصف الليل؛ كلها «زانيتا»(٤). نمت مرة أخـرى في ممر فنـدق صيني بائس، غير أنني حصلت اليـوم على غرفـة جميلة جداً.

ريح، ثلج، بـــرد، المحيط الهادىء متجمــد، مغطى بــالضبــاب. والمدينـــة تغص بالصينيين، وبالمحلات الصينية. كوميسيون(٥) لكنني لم أعثـر فيها على شيء، لا شيء، *ومع ذلك أؤكد لك*(٦) أنَّه يوجد هنــا تبذير كبير في الشاي والزبدة وكـل ماهو مطلوب، ولاسيما الخبز! أؤكد لك أيضــاً بأنني لو استطعت لبقيت هنا إلى الأبد.. مــايزعجني هو عـــدم وجـــود أي كتـــاب في حـــوزتي، ولا أستطيع الحصـــول على واحـــد، حتى في فلاديفوستـوك.. حاولت اشتراء كتاب في النحو الصيني حتى أطلـع على سر هذه اللغة، فما وجدت.

إنَّها المرة الأولى التي أرى فيهــا مثل هـــذا العـدد الكبير من الصينيين، وهم ينظرون بعيونهم الصغيرة، الحادة المحتـالة، الساهرة، مع استعـداد للنشل، والصراخ، والقفز،

---

(١) و(٢) و(٣) رسالة إلى ايليني ساميوس.
(٤) محجوزة، بالروسية.
(٥) محلات تجارية روسية كبيرة.
(٦) اتفقنا على أن كل جملة تبدأ بـ «مع ذلك، أؤكد لك» تعبر عن معنى معاكس.

مثل القرود. ومن الواضح أنَّهم قساة، أجلاف، لصوص، أذكياء، من دون أي غنى داخلي. قبل بضعة أيـام، عندما كنت أتأمل في هـاباروفسك، غروب الشمس على جليـد نهر أمور الشاسع، سمعت شيخاً صينيـاً مقرفصاً، يغني بصوت خافت وهـو يتأمل النهر، أغنية رتيبة، تشبه هدْهدة طفل، مفعمة بالولع.. وفجاة أدركت أنه أخي البعيد، ووثب قلبي.

بقيت أنظـر اليه ــ كان أشبــه بقرد مسلول ــ وعندمـا استدار ورآني، انحنــى أكثر وسكت.

سيبيريا ٢٠ فبراير ١٩٢٩[١]

لينوتشكا الحبيبة،

أجوب سيبيريا مـرة أخرى، في الاتجاه المعاكس. ولقد تقلصت الثلـوج في أيام قليلة. وضعتُ أمتعتي في المقصورة لثمانية أيام ـ حتى كراسنويارسك. أنا الآن وحيد وصامت. أنظر حيناً إلى السهوب اللامتناهية، وأصحح «الأوديسة» حيناً آخر، أو أتامل وأدخن. في فلاديفـوستوك لم أجـد أي كتاب. فمكثت مختليـاً بنفسي. لا ينبغي أن يتملكني الضجر والكآبـة. ولتمر الأيـام والليالي من دون أن تتعكر الـروح. أفكر في أشيـاء كثيرة، وأترك قراراتي تنضج، أخطط للعمل وللسلوك الحياتي، يبـدو لي أن هذا الانعزال الثقيل، وهذا الصمت، سيعودان عليّ بنفع كبير.

٢٣ فبراير[٢]

لم أنطق بكلمة واحدة طوال النهـار، وظل فمي طاهراً، مقدساً كما لو تنـاولت قرباناً للتوّ. أعتقد أنه لا يوجد أسمى من الصمت.

مساء ٢٣ فبراير[٣]

انقضى هذا النهار أيضاً. بقيت وحيـداً في المقصورة واشتغلت على «الأوديسة» آه لو كنت قادراً على بدء الأربعة والعشرين نشيداً، فـوراً! أشعر بفرح عارم يجعل النهار يمرّ مثل ومضة. هل تتـذكرين كيف كانت ساعـاتنا تمر في موسكو، عندمـا كنّا ننقّح بعض القصائد قبل النوم؟ متى أراك، ومتى ننقّـح الأبيات الجديدة معاً، فتمر السـاعات بيننا

(١) رسالة إلى ايليني ساميوس.

(٢) رسالة إلى ايليني ساميوس.

(٣) رسالة إلى ايليني ساميوس.

خاطفةً؟ كل شيء سوف يحصل، كل شيء سوف يسير على مايرام، أملي كبير.

كراسنويارسك، ٢ مارس ١٩٢٩ (١)

مـدينة لطيفـة لكنها غير مهمـة. إنَّها الرتـابة الـروسية أينما حللت. لقـد أزيلت كل الخصائص المحلية، الجذابة والخالدة، وحلّت الرتابة محلها: نوادٍ وتعاونيات الخ. كان يوجد في فلاديفوستوك مسرح صيني رائع. أردتُ الـذهاب إليه. «رومنت!» لقد «رمّموه» أي أنهم حولوه إلى مسرح سوفياتي، على الطريقـة الموسكوفية. أخشى أن أجد الأمر ذاته في تركستان.. لقد تعرفنا على روسيا متأخرين جداً.

فولوديا، ٦ مارس(٢)

دخلت إلى روسيا القـديمة المقدسة. وفي المحطة أخـذتني يهودية بولـونية إلى بيتها، بالقوة؛ لديها سرير مخصص للأجانب. وهكذا مضيت الليل مع عائلة يهودية، وتكلمت بالألمانية. واسترحت جيداً. المدينة رائعـة، كثيرة الكنائس والقباب على شكل حبة التين، خضراء، زرقاء، ذهبية. وعلى اليمين جـدول صغير يخترقها، وكذلك على يسارهـا، توجد أديرة جميلة جداً، وعالية جداً، وهي تشبـه أديرة نوفغورود، لكن تأكدي أن نوفغورود أجمل.

ياروسلاف(٣)

مدينة لطيفة، لكن لا شيء فيها غير مألوف. هناك كنائس كثيرة، ويوجد بالخصوص دير في وسط المدينة، يشبه الكرملين. لقـد حوّلت الكنائس إلى مخازن، وحُطمت الأعمدة، وخلعت الأبواب. وعلى الجدران الخارجية تلوح رسوم جـدارية جميلة مخفية بالثلوج، ونصف ممحوة. إنَّ رؤية الفولغا متجمداً، في منتهـى الروعة، وثمة برج أجراس، صغير جداً على هيئة بصلة، ذو لون أزرق رائع.

٩ مارس(٤)

افتقدتك اليوم كثيراً. لقد شـاهدت شيئين رائعين؛ كنيستين تغطيهما، من القاعدة إلى

(١) ، (٢) ، (٣) و(٤) رسالة إلى ايليني ساميوس.

القمة، لوحات جدارية في منتهى التألق والوضوح، وتشبهان تلك التي رأيناها في نيجني – نوفغورود، غير أن الألوان خارقة. ذكّريني، فيما بعد، كي أحدّثك عن هاتين الكنيستين، لأنهما أجمل ما رأيت في روسيا.

روستوف، ١٠ مارس(١)

مدينة صغيرة وجذابة. أمضيت النهار بكامله في زيارة الكنائس ـ ذات الطراز الروسي الخاص، مع ايقونات جميلة، ورأس ملاك رائع. لكن لم أبلغ حد الاثارة.. كان الطقس رديئاً: ريح وثلج وجليد..

موسكو، ١١ مارس ١٩٢٩(٢)

..ما أن وصلت إلى موسكو حتى قصدت بيت ايتكا. وهناك وجدت رسالتيك.. لقد فرحت بقراءتهما وباطمئناني على صحتك وعدم نسيانك لي.. جبتُ موسكو كلها بحثاً عن فندق.

قالت لي ايتكا، خارجة عن طورها، إن استراتي تحدّث إلى مجلة «لي نوفيل ليتيرير» في مقابلة بائسة، فأثار عداء الجميع هنا، وباتوا يؤكدون على ضرورة مراقبة أمثاله.

ظل كازنتزاكي، بين ١٣ و٢٠ مارس، ينتظر في موسكو، الترخيص الضروري من أجل زيارة تركستان. وعندما لم يتمكن من الحصول عليه، قرر التغاضي عنه.

موسكو ٢١ مارس(٣)

حبيبتي، سأسافر غداً إلى تركستان، ولا يهمني إذا أعادوني! لكنني آمل مع ذلك، أن تسير الأمور على مايرام.

..إن ستيفان زويغ ناقد ممتاز. أما القصص التي قرأتها له، فليست كذلك. أسعى إلى قراءة كتاب ج.روث:(٤) Die Flucht ohne Ende. وهناك كتاب آخر أحتاج إليه، هو: «كاليبان يتكلم» للكاتب غيينو.

أفكر في «الأوديسة» ليلاً ونهاراً. إلهي، ما أكثر نقائصها! ما أفظع أبياتها! ياللعار!

---

(١)، (٢)، (٣) رسالة إلى ايليني ساميوس.

(٤) «هروب بلا نهاية».

إنه عمل رهيب، قاس ومنهك. لقد عشت مشكلة البيت الأول، ورأيت كم تعذبت للوصول إلى صياغته النهائية؟ ثم أدركت كم صار ممتلئاً، ناضجاً، وموحياً، الآن. ينبغي أن أتعذب بالطريقة نفسها مع الأبيات الـ ٣٣٣٣٣التي تشكل «الأوديسة». لهذا السبب أحتاج إلى الهدوء وراحة البال، في جبل - وإلاّ لن تكتب لي النجاة.

لينوتشكايَ، مازلت أفكر أنك سوف تساعدينني ونتعذب معاً من أجل تلك الأبيات.

أورنبورغ، ٢٤ مارس ١٩٢٩[١]

الثلج في كل مكان، وأحياناً تلوح مناظر لطيفة جداً، وزرقاء. الفولغا متجمد. وصار لسمارا التي مررنا بها من قبل مظهر مختلف[٢]. لا يصدّق المرء أنَّ هذه الأرض المقفرة والثلجية يمكن أن تنتج البطيخ والشمام، والرمّان، كما رأيناها خلال السنة الماضية.

دخلنا إلى كازخستان. ثلوج - لكنني شاهدت فارساً يسرع على صهوة حصانه الأسود بين الثلوج، وكأنه في صحراء رملية. فجأة، لمحت في قرية على يميني، قبة مسجد خضراء اللون. وثب قلبي فرحاً - نحن في بلد إسلامي.

رأيت جملاً رائعاً، في السهل الواسع المغطى بالثلوج، يجر طنبراً. بدأت البيوت الخشبية تختفي تحت الثلوج، فتبدو بيضاء رائعة الجمال، في الثلج. إنَّه الشرق: امرأة في المحطة ترتدي «سرفاراً»[٣] أصفر، وهناك شيخ دخل للتوّ إلى المقطورة، وقد بدأت أسمع صوته الشجي الموقع يردد أغاني شرقية بصوت خافت، ينبغي أن أدخل إلى بخارى مهما كان الثمن.

٢٥ مارس[٤]

أدركنا الفجر في الصحراء الرملية المبقعة بالثلج. كثبان تتموّج، وأشجار ورد قصيرة ومصفوفة تجاهد كي توقف تموّج الرمال كما في صحراء استراخان — هل تذكرين؟ — الهواء معتدل، إنَّه الربيع. بيوت ذات شرفات واطئة، جِمَال، رجال بقبّعات تَتَرِيّة ملونة - لقد بلغنا عالماً آخر، متوغلين في آسيا.

(١) رسالة إلى ايليني ساميوس.

(٢) كنّا قد زرنا سمارا في عز الصيف.

(٣) يقصد الشروال التقليدي العريض الذي ترتديه النساء.

(٤) رسالة إلى ايليني ساميوس.

٢٦ مارس ١٩٢٩(١)

توقفنا في مدينة صغيرة على حدود تركستان. لدى نزولي من القطار، شاهدت رجالاً بشعور مستعارة طريفة، ملتفين في عباءات مبطنة، خضراء وحمراء. وكان هناك أفندي يجلس منثني الساقين ويرتل القرآن ويشحذ، وقد غطس حتى ركبتيه في البطاطا والبصل والتفاح والنقود.

هذا المساء سنصل إلى طشقند، وهناك يتقرر مصير رحلتي. لقد قررت الوصول مهما كان الثمن.

مساء ٢٦ مارس(٢)

وصلنا إلى طشقند وبدأنا نتقدم نحو سمرقند. لا أحد طلب مني الترخيص. آمل أن يكون الخطر قد انتهى، غداً، حوالي منتصف النهار، سوف أضع قدمي في المدينة الشهيرة، مدينة الإسكندر وتيمور لنك. أنا في غاية التأثر لكنني حزين أيضاً، لأنك لستِ معي.

نزلت هنيهات في أول محطة بعد طشقند، وهي مشهورة بالتفاح. كان الليل مخيماً، غير أنني ميزت تفاحات جميلة. ركضت. وما أن امتلأت يداي حتى انطلق القطار فتشبثت به وركبت لاهثاً. تفاحات رائعة كبيرة. وأتمنى عليك مجدداً ـ إذا متّ ــ أن تفرحيني، أنا عاشق الثمار، بجلب أكداس منها، حتى أودّعها.

سمرقند ٢٧ مارس(٣)

..أنا الآن في مدينة أشبه بمدينة خرافية، مدينة ألف ليلة. فتحت ستارة المقصورة فجراً. وفي الخارج شاهدت السهل وأشجار اللوز المزهرة! شمس مشرقة، حرارة، أشجار مبرعمة، بساتين ومياه، مسلمون يرتدون جلابيب ملونة، وعباءات مختلفة الألوان، حمير مستكينة، جمال. انتصف النهار وأنا أهيم ـ السوق رائعة، ذات طابع إسلامي، حشود من البشر في أثواب مبرقشة، ووجوه مغولية، نساء مبرقعات بـ «الفيريتجي»(٤) السميك، وفي الأنحاء تبدو آثار كثيرة رائعة، ذات ألوان خضراء وزرقاء كما في يريفان. قبرا تيمور لنك، وبيبي خانم، يوجدان في وسط المدينة، قرب السوق.. وأحياناً تلوح

(١) و(٢) و(٣) رسالة إلى ايليني ساميوس.

(٤) الخمار.

مئذنــة رائعة أو قبة فيروزية. وفي كل الجهـات رجال يرتدون أسمالاً ملـونة، وصخب، ووحل، وأريـج يتضوع من أزهار اللـوز، وهناك في الوقت نفسه رائحة عفـونة لا تطاق، متأنيــة من الميـاه الراكـدة والبـول. الطقس حــار جداً وقـد خلعتُ سترتي. تعـرفت إلى الخوجة مـرادوف وهو تاجر اصطحبني إلى منـزله: بيت ظليل مبني بالآجـرّ، ومفروش بالسجـاد الجميل، وفي جهاته الأربع تـوجد أربعــة أقفاص موشحــة بالدنتيـلا وملأى بطيور الكناري. هناك صناديق عتيقة، كثيرة العـدد، وأباريق عربية. احتجبت النساء في الخدر. فتح التــاجر صنـدوقـاً وأراني قطعاً نقـديــة تعود إلى عصر الإسكنـدر، الخ.. اشتريت منه سماطــاً قديماً مطـرزاً من طراز هنـدي، وتحفة رائعة من قبر بيبــي خانم، واشتريت أيضاً قلنسوات مطرزة.

سمرقند، ٢٨ مارس(١)

..تجولت طوال النهــار ـ جــوامع، قيصريات(٢) ، شــوارع ـ وأكلت البطيخ الأصفـر والعنب، وقد اعتمـرت قلنسوة صغيرة مطرزة وتمتعـت بمشاهد عجيبــة لا توصف. إنَّ أجمل مسجد هو مسجـد عمر(٣) الذي مازال سليماً، وهنـا توجد مساجـد كبيرة متعددة لكنهـا منهارة, فهنا نصف قبة ذات لـو ن أخضر رائع، وهناك أعمدة محطمة، وتشــاهد أحياناً مآذن مائلة كما في يريفان.

لكن المدينة، بطابعها الآسيوي، أجمل بكثير من القدس. هنا قلب الشرق. ويرى المرء أشياء غريبة جداً مثل تلك العباءات المبطنة الملونة، والجلابيات، والعمامات الخضراء، البيضاء، والصفراء، وأحــذية البابوج الحمراء والملتويــة من الأمام مثل جندول صغير، وهي تشبه تلك التي تزخر بها المنمنمات الفارسية.. كم تمنيت أن تكوني معي!

بخاري(٤)

عندما وصلت ـ تـوجد المحطة بعيدة عن المدينــة مسافة ١٣ كيلـومتراً، حتى لا تفقد النساء صوابهن(٥) ـــ كان الليـل مخيماً. خفت الحرارة وهبت نسائم رقيقــة. وجـدتني مباشرة وسط بخــارى: جمهور كثيف من المسلمين المتنـزهين بعد الغـروب. تصوريهم

(١) رسالة إلى ايليني ساميوس.

(٢) أسواق.

(٣) في القدس.

(٤) رسالة إلى ايليني ساميوس.

(٥) أي لحجب النساء بعيداً عن الأنظار.

مكسوين مثل رؤساء الأساقفة ورؤساء الأديرة وعلى رؤوسهم تيجان أسقفية عالية.

وهناك الكثير من آلات «الزُّوْرنَا»[1] وأصوات نادلي المقاهي، وباعة الحمص المملح، والشحاذين، و«السنتوري» يتوسطها المغنون: شَابٌّ جميل جداً، وثلاثة شيوخ لهم أصوات حادة، والروائح المتمازجة: بهارات وياسمين وبول.. والمدينة القديمة مسقوفة بالخشب، حتى ليخيل للمرء أنَّه يتجول في بيت كبير. وثمة فندق وحيد، كريه. تجولت حتى منتصف الليل واكتشفت الجوامع الكبيرة اللامعة، المقفرة.. ولم أنم جيداً.

ومنذ الفجر عدت إلى التجوال.. وباختصار يبدو لي أنَّ بخارى شرقية وصحراوية أكثر من سمرقند. والبيوت منخفضة أكثر، وأمامها مصاطب، وكلها مبنية بالآجرّ، أما الجدران فلا تخترقها سوى نافذة واحدة أشبه بكوّة حصن. وعندما تهب الريح حارة مثل اليوم تتفتت الجدران بغبار لا يطاق. والناس هنا ليسوا ملونين مثلهم في سمرقند. كل شيء رمادي كالغبار. وفجأة تبرز من تلك المساحة الطينية، عجائب فيروزية: قباب جوامع رائعة مع حلمات ناتئة مثل ثدي جميل. هنا تدركين كيف ضحى الأفراد من أجل إعلاء الفكرة، في أبرز عصور الحضارة. وهذه الديار الخاصة المجبولة من طين جاف وقش، ضحت بنفسها من أجل إعلاء بيوت الله بينها. ما أجمل مسجد بخارى! وفي حين يبدو مسجد يريفان (وحتى مسجد عمر) قصيرين نسبياً، نجد المساجد هنا، فارعة بقبةٍ مستندة إلى حزام دقيق، يزيدها رونقاً ورشاقة.

أما سوق البازار فلا قيمة لها، بعد أن أُضفي عليها الطابع السوفياتي، بحثت النهار كله عن خاتمك[2] سدىً. والصاغة الآن إما من الروس أو من القوقازيين، وتخيلي التفاهات التي يبيعونها.

والنتيجة: كانت سمرقند بالنسبة لي، اكتشافاً لشرق ساخن، وملوّن. وتتمتع بخاري ببعض الملامح الشرقية التقليدية: الخطوط، الألوان، الاحتشام. إنها فاتنةٌ، ثلاثاً بالنسبة لروح تحب الصحراء. ومن سوء الحظ أن كلتيهما تسيران نحو الانحطاط: إذ بدأتا تتحضران، أي تفقدان روحيهما، وتقلدان موسكو التي تقلد أوروبا، التي تقلد أميركا.

---

(١) آلة نفخ موسيقية.

(٢) كنت أتمنى الحصول على خاتم فيروز.

سأزور مـرْو، تلك المدينـة الكبيرة التي ابتلعتهـا الصحراء منـذ قـرن، إنَّها بومباي الصحراء، لا أريـد الإطالـة في بخاري لأنني أعرف أنَّ التفـاعل الذي أحسست بـه سوف يتلاشى.

٣١ مارس[١]

زرت مَرْو ولم أتوقف فيها سوى ساعـة واحدة. ذلك أنَّ المدينَة الشرقية عندما تتلف لا تحتفظ آثارها بقيمة تذكر. فالبيـوت مجرد جدران من آجر تمتد في الصحراء، ولا تكاد تتميـز عن الأرض. وحـده الجامع يحافظ على بقيـة من جمال. أمـا في مـرْو فـلا وجـود لجامع.. قصـدت أحمد آبـاد كي ألتحق بـالقطار الـذي سيقلني إلى طشقنـد.. صحـراء مريعة، هي «كـاراكوم» حرارة لا تطاق، وقـد شعرت بالاختناق داخل القطـار. فالغبار ينفذ إليه أيضاً، فأستنشق التراب. وأتخيل الآن كيف يكون الصيف عندما تبلغ الحرارة ٨٠ درجة، والسكـان المحليون هنـا، مثل البدائيين، يلبسـون ثيابـاً ثقيلة، مـع جوارب ورديـة سميكة، وقلنسـوات كبيرة من جلـود الخرفـان، أكبر من قلنسـوات القوقـازيين بثلاثة أضعاف. على يساري تلمع جبال فارس على بعد مسافة قصيرة، لو مشيت بضع ساعات لوصلت إليهـا. ليتني أستطيع تسلق الجبل ورؤية السهل تحت سفحه! غيوم، حرارة عالية، بضع أشجار، والمحطات ملأى بالأزهار..

بحيرة آرال، ٤ أبريل ١٩٢٩

حاصرتني مئات الأفكـار خلال الساعات الطويلة التي أمضيتهـا في القطار: فكرت في الوقت الضـائع الذي لم أنجـز فيه مـاكان يمكن إنجـازه. ولو متُّ غـداً، لما خسرت هذه الأرض شيئاً. لقد بـددت قوتي في طرقٍ شتى، عوض تـركيزها في نقطة واحـدة، بالعناد والحماسة اللذين أقـدر عليهما. لقد آن أوان التركيز. إذ هدأ تعطشي للسفـر، بعد الافراط فيه، منـذ عام. وعليّ أن أستفيـد من هذا التشبع وأفكـر ملياً. ولابـدَّ من البقاء بعيـداً عن اليونان مهما كلف الثمن. ينبغي أن أؤلف الكتابين (عن الاتحـاد السوفياتي) وأن يُنشرا. وبعـد ذلك «الأوديسـة».. ومع ذلـك، فحتى هـذه الأخيرة لم تعـد تشـدني كثيراً، أحسّ بمرارة لا توصف. ما أريده شيء آخر. ما أريده أستطيع بلوغه إذا ركزت جهودي على هذا الهدف. إذاً، عليّ الافتراض أنَّ كل الأعـوام التي مرت، كـانت تحضيراً واستعداداً؛ فلينتـه الأمر أخيراً. مازالت أمـامي أربعون سنة أعيشها وهـذا كافٍ. لكن يتوجب عليّ ألا أضيع

---

(١) رسالة إلى ايليني ساميوس.

مجدداً وراء ماهو زائل وخارج عن هدفي. «ليس البشر هم الذين يهمونني بل الشعلة التي تحركهم» هذه الجملة التي فرضت نفسها عليّ مؤخراً، تُسلط الضوء على روحي وتساعدني كثيراً على الحسم في اختيار هدفي. كل ماهو وحشي ولا إنساني في ذاتي، وكذلك القوة الإلهية التي تقودني ـ Damanisches ـ يتوضحان من خلال تلك الجملة. تماماً مثل اقترابي من الناس والأفكار، أو ابتعادي عنهم. وهكذا أميّز، عبر التفاصيل الكثيرة، في حياتي وفي الكون، ذلك *الخط الأحمر* الذي أتعقبه ويتعقبني.

٥ أبريل(١)

مساء البارحة حادَ القطار عن سِكّته قليلاً. ولقد انزاحت المقطورة التي أوجد فيها عن السكّة تماماً، وانعزلت عن بقية العربات، وتعالت ولولات النساء وبكاؤهن، الخ.. لكن لم يُجرح أحد.. وهكذا كادت كآبتي تنتهي إلى الأبد.

مازالت عودتي تتواصل مع بعض الصعوبات.. أتحمل كل شيء ماعدا الرائحة.. ومنذ أن حددت طبيعتي وفق الجملة البسيطة التي كتبتها لكِ، لم أعد أدري لماذا صرت لا أستطيع ربط أية صلة خارجية بما نسميه الشعب والشعبية، والمساواة. ليس هناك أي حافز شيوعي يقود جهودي كي أحس بالراحة؟ وإذا كنت أتلاءم فإن ذلك يعود إلى قدرتي على فعل ما أريد بجسدي، وليس إلى تمتعي بوجودي مع الشعب. وهكذا يأتي حلمٌ أحياناً (وكان ذلك يحدث بكثرة خلال فترة الشباب) أو جملة (كما هو الشأن حالياً) لشرح روحي دفعة واحدة، ورسم خط، مستقيم، من دون تعرجات، ومن دون سفسطة، أخيراً، فنسير عليه ـ أنا، وفكري، وعملي.

هذا الشعور لا ينبغي خلطه بما ندعوه «الأرستقراطية» الخ.. فأنا لا أحس باتصال عميق بالشعب فحسب، بل باتحاد معه أيضاً. وهذه الوحدة في منتهى العمق إلى درجة عدم توقفها على الاتصالات الخارجية. بل هي نقيضها. تماماً مثل الماسة التي تعتبر تبلوراً ألفياً لروح الفحم من دون أن تكون ذات صلة به. بل إنَّ مظهرها هو النقيض تماماً. ومع ذلك فإن الماسة هي جوهر ـ عرق، أو دمعة الفحم كلّه.

لينوتشكاي، هذه الرسالة تأخذ نبرة اعتراف ومناجاة، لأنني أكتب إليك وأنا أمرّ بأزمة.

أدركت أن الثلوج، منذ أورنبورغ، لاحت من جديد، لا متناهية والأنهار متجمدة مع

---

(١) رسالة إلى ايليني ساميوس.

برد شديد، وفي المحطات هناك أوحال مرعبة.

١٩٢٩. ما أن وصل نيكوس إلى برلين ونسي الكرز المزهر في فيردر، حتى تفرغ إلى همٍّ واحد: الوفاء بديونه إزاء *روسيا المصلوبة*، كي يتمكن من العودة في أقرب وقت إلى دحرجة حجر سيزيف.

لم يحاضر سوى مرة واحدة في برلين أمام جمهور منتخب، وتحدث بلا تحفظ كعادته. لكن هذا القادر على جذب انتباه أية مجموعة صغيرة من المستمعين، لم يكن موهوباً منبرياً.. وما أن شرع يتكلم حتى ضاقت حنجرته وخفت صوته، والأسوأ من كل ذلك أنَّه لم يستطع الارتجال. وهكذا أدرك حدوده ورفض إعادة الكرة. وعبثاً حاول بعض الأصدقاء، مثل هيلين ستوكر، وآرثر هوليتشر، وايغور كيش، استبقاءه في العاصمة الألمانية. ذلك أنَّ صخب المدن الكبرى ينهكه. ولا يغذّي قريحته الإبداعية سوى الاتصال بالعناصر الأولى — التراب والماء والنار والبحر.

وهكذا ركبنا القطار، ذات ليلة، باتجاه *مكان ما* في تشيكوسلوفاكيا. فهل أُصَدَّق عندما أؤكد أننا لم نكن نعرف أين سننزل؟

ظل كازنتزاكي مستنداً إلى زاوية مقعده، يدخن الغليون في ضوء مغبش داخل مقصورة الدرجة الثانية، غير مبال ببقايا روائح الثوم والجعة غير المهضومة في أنفاس الآخرين. وفجأة انحنى، هو المتحفظ، نحو راكب مجاور، وقدّم له كيس تبغه، وبدأ الحوار. وإذا القدر يتجسد في فتى تشيكي أفادنا كدليل:

– لا تذهب إلى براغ. انزل معي في يواكيمستهل. ولا تخش مقبرتنا الواسعة.. لأن الراديوم[١] المشع لا يرحم.. غير أنك تستطيع بعد مسيرة ثلاث ساعات، أن تبلغ مرتفعات غوتسغاب التي يبلغ علوها ١٢٠٠ متر. وكل من يراها يتمنى ألا يموت.

(١) تعرف يواكيمستهل بغزارة مصادرها من الراديوم المشع.

«غـوتسغاب.. غـوتسغـاب.. هبـة من السماء، همس نيكـوس وهو يلكـزني بمرفقه. حبيبتي لينوتشكا، هل مازلت تؤمنين بالمعجزات؟»

تأملنا مليـاً مقبرة يواكيمستهل المؤثرة: كـان الدرب وعراً، ووصلنـا إلى طرف قـرية غـوتسغاب مع قـدوم الليل، منهكين من التعب، فلجأنا إلى أول فنـدق. وفي صباح الغد جرني نيكوس عبر درب طويل ضيق، من دون استكشاف القرية:

– أعتقد، يالينوتشكا، أنَّ المعجزة تنتظـرنا قابعة مثل حيوان صغير. وعلينا ألا نعود خائبين.

كنت أثق به دائماً عنـدما يتعلق الأمر بالبحث عن مأوى جـديد. وفي تلك المرة أيضاً، سلك أقصر درب كي يكتشف المكـان الذي سيتحول لدينـا رمزاً للسعادة. فرجة غابية مضاءة بنور الشمس ومزينة بالصنوبر والأرز. وهنا، وهناك، تزهر مثل زهور اللـؤلؤ في الحقول، بيوت فـاخرة، مطلية بالكلس. استمع إلينـا السيد القصير، كراوس، وزوجته آن..ن..نا، باحترام:

– تفضل من هنا، سيدي المدير! تفضـلي سيدتي المديـرة! تكرما بزيارة بيتنا.. لن ينقصكما شيء.. سوف نعتني بكما!

«مديـر» و«مديرة» الـريح، هكذا تحصنَّا في معسكرنـا الجديد. وبدأنـا حياة جديدة على إيقاع مشمس.

كانت لنـا غرفتان في الطـابق الأول مزودتان بعـدة نوافذ، ولحافـات سميكة مبطنة بـالريش، نكافح كل ليلـة كي نغطي بها الأقدام والأكتـاف في وقت واحد. وكان كل شيء نظيفـاً. كُلُّ ذلك، إلى جانب الخدمـة، بسعر زهيد جـداً. وفي الطابق الأرضي يوجـد الإسطبل الذي ينظـف مرتين في النهـار بالماء الساخـن، وعين ماء متـدفقـة، والمطبخ الـذي لا تنطفىء ناره.. ولم تكـن هناك الـروائح المعهـودة في المزارع بل دفـء أبقار تتنفس وتشخـر معنا. وكان ثمـة ديك يشبه كل الـديكة في العالم، وبعض الدجاجات البيضـاء، ومعزاة شقراء. وتحت أشجار الزان المحيطة بنا تتجول الظباء، بينما تقفز أسماك «الترويت» في مياه جدول يجتاز مرْجنا. ولا يتبادل سكان الغـابة زيارات كثيرة. وحده الخيط اللامرئي لسـاعي البريد يربط

بين تلك المزارع كل صباح.

في ذلك الهدوء المطلق، وضع نيكوس كتابه عن الاتحاد السوفياتي. وكان قد خطط في قطار سيبيريا المتجه به نحو فلاديفوستوك، في تأليف عمل من مجلدين، يضم من ثمانمائة إلى ألف صفحة، تحت عنوان منفّر: Homo bolchevicus الإنسان البلشفي، و Homo métabolchevicus الإنسان مابعد البلشفي. فلم يخرج من ريشته إلا كتاب صغير، «غنيّ ورؤيوي» حسب تعبير الناشر غراسيه، ويتوسط الرواية وأدب الاعتراف، مع عنوان مازال يثير الاستغراب حتى الآن: Toda - Raba. لماذا تودا - رابا التي تعني شكراً بالعبرية؟ لا لشيء إلاّ لرنين الكلمة الجميل في الأذن.

وكتب كازنتزاكي على الصفحة الأولى من مخطوطته:

هذا الاعتراف على شكل رواية ليس فيه سوى بطل واحد. إن أزاد وجيرانوس وسوكي وراحيل وأناندا والرجل ذا الفكين الكبيرين، ليسوا سوى وجوه مختلفة لمضير واحد عايش الواقع وعكسه — وهو واقع معقد، غامض، ومتعدد الوجوه — في الاتحاد السوفياتي. وحده «الزنجي» يوجد خارج البطل وفوقه.

والزنجي المقصود هو تودا - رابا. أما خالقه فهو نيكوس كازنتزاكي الذي توقع منذ سنة ١٩٢٩ نهوض أفريقيا استجابة لنداء لينين، تماماً مثلما توقع سنة ١٩٢٧ ذلك الدور الذي سوف تلعبه مصر في العالم الإسلامي، وانهيار الإمبراطورية البريطانية والحرب الآيديولوجية التي ستندلع بين الشيوعيين القدامى «الواصلين» والشيوعيين الشباب في بداية معركتهم. ويصف نيكوس كازنتزاكي انطباعاته واستخلاصاته حول ما تمكن من رؤيته في الاتحاد السوفياتي إلى ميشال أناستاسيو[1]:

..صار الثوريون أناساً مستقرين في *الرفاهية*، ومتحولين بسرعة إلى محافظين، وإلى رجعيين تدريجياً.

---

(١) اعتاد م.أناستاسيو قراءة رسائل كازنتزاكي المطولة في حلقة أصدقاء مشتركين.

لا أقصد الثلب من وراء هذا الخط البياني الضروري، والمفيد أحياناً، لتطور الإنسان. فمن طبيعة الأرواح أنها لا تستطيع الاستقرار أبدياً في حالة توتر، وتسعى إلى الراحة، وبحبوحة العيش، مثل النبات حتى يدركها النسيان. والروح لا تتميز كثيراً عن المادة.. وباختصار، أكرر: إنّ أغنى وأخصب مرحلة من مراحل تطور الإنسان ليست مرحلة تحقيق مثله الأعلى بل مرحلة الهجوم.. وفي الاتحاد السوفياتي تتطور الروح نحو المادة بسرعة مفرطة. ذلك أنّ الحركة العمالية الروسية ذات عمق كوني، وأي سقوط مبكر يعتبر في منتهى الخطورة بالنسبة إلى الرفاق الذين مازالوا في مرحلة العنف والتهور التي تسبق الهجوم.

ولعله من المفيد أن نعود إلى دفاتر نيكوس كازنتزاكي ورسائله التي تغطي الأعوام ١٩٢٢ ـ ١٩٢٩ كي ندرك مدى معاناته من أجل لجم اندفاعات قلب متحمس دائماً.

كان العالم القديم ينهار في الاتحاد السوفياتي فاسحاً المجال أمام ولادة عالم جديد. ويتمثل واجبنا، حسب كازنتزاكي، في مساعدة العالم الجديد على التشكل والازدهار.

ولقد جاهد، تحت تأثير غالاتي ثم «يهودياته» فيما بعد، من أجل تقليص روحه التأملية وتوسيع مجال الفعل والممارسة. وكان الشاعر فيه يتمنى التحول إلى رجل ممارسة ذات يوم. وبوضوح الرؤية الذي يميزه، أدرك منذ رحلته الأولى إلى الاتحاد السوفياتي سنة ١٩٢٥، أكبر عائق أمامه:

أن تستمتع الجماهير الشعبية ـ من عمال وفلاحين ونساء ـ وتاكل افضل، وتستنير، هو بالتاكيد هدف جدير بالانسان، أما انا فاعتبر كل ذلك أوهاماً صغيرة، ملموسة وعملية، فُتاتاً بالنسبة لقلبي الذي ما ان ياكل حتى يزداد جوعاً. (٢٠ ـ ١١ ـ ١٩٢٥).

ما كتبته في زاوية صغيرة من الأرض، يبدو لي معيباً وريفياً. قليلون هم الأشخاص الذين استمعوا إلى صرختي ـ ومعظمهم خبثاء بلا ايمان. وأنا أنظر إلى هؤلاء النساء

وهؤلاء الموجيك مدركاً أن صوتي لن يصلهم أبـداً، لأن الوسائل التي أستخدمها في منتهى الضعف (٢٥ـ ١٠ـ١٩٢٧).

لم يُرضه المضمون المادي البحت للشيوعيـة. وعبثاً حاول البحث عن تصور أوسع لدى الموفـدين الكثيرين الذين زاروا مـوسكو بمناسبـة الذكـرى العاشرة لثورة اكتوبر:

تملكتني رغبـة جـامحة في رؤيـة أشخــاص (....) أنقضُ عليهم بـوحشيـة خفيـة، وبربرية، كي ألمسهم وأرى ماالذي يجلبونه. حتى الآن لم أكتشف، عند أي شخص آخر، توتراً روحياً وقلقاً نفسيا، في مستوى ما أعيشه. لكنهم أنجزوا أعمالاً ومارسوا تأثيراً، لا أدّعيهما ٣ـ ١١ـ١٩٢٧[1]

ثم يكتشف المنحنى البياني الذي مازال غير واضح، لكنه محتوم مع الأسف:

تغير إيقاع الحياة في الاتحاد السوفيـاتي. ثمة بعض التبرجز.. ومن حسن الحظ أن الصراع الداخلي الكبير بين تروتسكي وستالين يذكي جذوة الروح الروسية.. (٢٤ ـ ١١ـ ١٩٢٧).

وفي حين يندفع الثـوري فيه نحو الحيـاة النضالية، يتألم الشــاعر من نقص الممارسة ويتنهد:

قلبي لا يحس بأي فرح. ما أتمناه الآن، قبل كل شيء، هو التمكن من الاعتزال والتفرغ للعمل.. (١٧ـ ٤ـ١٩٢٨).

..آه لـو أتمكن من إيجاد الهدوء في مكان مـا، وأبدأ بالإبحـار في «الأوديسة»! (٩ ـ٥ ـ ١٩٢٨).

هذه الأمنية الأخيرة سوف تتحقق. وفي غـوتسغاب تمكن كازنتزاكي من إنهاء عمله حول الاتحاد السوفيـاتي، بفضل الهدوء والتأمل. وما أن أرسل بـ «تودا ـ رابا» إلى الناشر «ريدر» حتى انكب على كتابة روايـة أخرى، بالفرنسية «القبطان ايليـا» وبطلهـا هو والــده. ثم هيأ حــالـه، بقليل من الاضطـراب، كي ينغمس في

---

(١) سبق ورود هذه الفقرات في موضع آخر من الكتاب، والمؤلفة توردها بتصرّف، الآن «المترجم».

مغامرته الكبرى «الأوديسة».

أما أنا فقد غادرت غوتسغاب للاستشفاء في بلومبييرد وظل نيكوس بمفرده يمر أحياناً بأزمات كآبة قصيرة. غير أن غوتسغاب سوف تتألق في ذكرياته اللاحقة إلى حد التساؤل عما إذا وجدت في الواقع أم في الحلم فقط..

ما فعله «استراتي» من رفض كامل للشيوعية الروسية، ودور فكتور سيرج في الدفع بذلك التمرد، لم يتركا نيكوس كازنتزاكي لا مبالياً. واذا كان استراتي لا يمتلك سوى «دماغ عصفور» فإن فكتور سيرج بالمقابل كان ثورياً محنكاً. وكنا قد سكنا في بيته بلينينغراد، قبل نفيه إلى سيبيريا. لقد ترجم تروتسكي، وعرف لينين ورفاقه الأوائل، ويمكن الوثوق به. لكنه كان حذراً من الشاعر كازنتزاكي الذي يضيع وقته في محاورات *ماورائية* مع الشاعر الروسي نيقولا كليؤويف.. وبعد أن صارت كتابات بانابيت استراتي تحرّض على كره الاتحاد السوفياتي، ازداد أسف كازنتزاكي لأنه لم يكلّف نفسه عناء ربط علاقة أفضل مع فكتور سيرج. وهنا تظهر نبرة المرارة، النادرة في مراسلاته، كما في هذه الرسالة:

غوتسغاب، ١٠ أغسطس ١٩٢٩

عزيزي سيرج،

تمتزج المحبة التي أكنّها لك بالم حاد جداً. لم نتوصل إلى الاتفاق دائماً، وأسباب سوء التفاهم كثيرة توافق في بعض المسائل. هناك سبب يمكن الاعتراف به وهو: لستُ ماركسياً وبالتالي، فانا في نظرك غير قادر على إدراك الواقع المعاصر. وإذا لم أكن ماركسياً فإن ذلك يعود إلى عمق حسي الميتافيزيقي. إذ أنني لا أرضى بالتعميمات والتبسيطات في مجالات النفي والإثبات؛ ويعود ذلك أيضاً إلى كوني لست رجل ممارسة. ولو كنت كذلك لكانت الماركسية ملائمة لي، وأصبحت قاعدة فعل صارم وخصب، وحيدة.

لم تعتبرني سوى متصوف! أو Büchevwurm! لقد كتبت اعترافاً حول الاتحاد السوفياتي، في شكل رواية، شخصيتها المحورية زنجي يُدعى تودا ـ رابا. آمل أن تقرأ هذا الكتاب لتكتشف في ذلك الزنجي، وجهي الحقيقي، وكياني العميق، ونهمي الإسكندري.

أما الأقنعة الأخرى ـــ أي الشخصيات السبع التي تتحرك في هذا الكتاب، فليست

سوى أقنعة مناسبة أضعها كي أتمكن من التحرك داخل المجتمع، والاتصال مع الناس، مع بعض التهذيب والمنطق والهدوء.

لم ترَ مني سوى الأقنعة الأكثر سطحية، ولهذا، عندما أفكر فيك ياعزيزي سيرج، أشعر بمرارة كبيرة لأنني أدرك قيمتك، وأتمنى أن أحبك مثل رفيق في السلاح، وأعرف أنَّ ذلك بات مستحيلاً[1].

«ن»

وبخصوص بانابيت:

الخميس[2]

قرأت منذ قليل مقالة بانابيت. فظيعة!.. إنَّ صياغتها جميلة، حية، ملفتة، وغنية في جانب التحقيق. غير أن كل ما يقوله عن روسيا، وطريقته السطحية في التعميم، تجعل تلك المقالة استفزازية ومتجهمة. لا شك أنَّ ما يقوله بانابيت صحيح، غير أنه وجه واحد من الوجوه العديدة للحقيقة. إنَّ أي شخص يعمم الخير أو الشر، يكون إما سطحياً، أو لئيماً. أما بانابيت فهو بكل بساطة، مسطح، مثيرٌ للعاطفة ومشبوهٌ في آن واحد. وهذه المقالة سوف تسيء إلى روسيا. وباختصار، أقول إنها استفزتني، لأن بانابيت ركز على حالة خاصة، ونسي كل ما رآه جيداً وايجابياً في روسيا.

كتاب ويتمان[3] مفرح! إنَّه عمل عظيم، وسوف نقرأه معاً عدة مرات. كتاب يعجّ بالريح، والبحر، والضوء، والفرح.

كان نيكوس يبالغ في نجاعة توسط قدّيسه «مار جرجس الأنثى» كما كان يدعوني مازحاً. إذ أنَّ هيلين ستوكر لم تتوصل إلى نتيجة تقريباً، في برلين. لقد أعجب الناشران الألمانيان غريهتلين ودري ماسكن بكتاب «تودا ـ رابا» لكنهما لم يتجرآ على نشره. وفي المقابل نشرت بعض المقالات حول الاتحاد السوفياتي، في صحف ألمانية، كانت من حسن الحظ، تدفع مكافآت جيدة، الأمر الذي يسّر لنا تمديد إقامتنا في الجبل. وفي فرنسا ظل «روبيرفرانس» الذي راهنا عليه، يماطل

(١) رسالة كتبها نيكوس كازنتزاكي بالفرنسية مباشرة.

(٢) بطاقة إلى ايليني ساميوس.

(٣) «كتاب العشب لويتمان».

مطولاً.

كان نيكوس يحترم كل نقد موضوعي لكنه لا يستسيغ السخرية الفرنسية كثيراً. وكنت مجبرة على إعلامه بالتطورات ولا أوفر عليه مرارة بعض النتائج.

وكمثال على ذلك أذكر طريقة استقبالي من السيد أوبييه» مدير منشورات «مونتاني»، إذ قدمتُ إليه، بطريقتي الخرقاء دائماً، رسالة مفرطة في المدح من ناشر أجنبي، يتحدث فيها عن عبقرية كازنتزاكي، برفقة المخطوطة..

وبعد أسبوع عدت في الموعد، وطرقت الباب.

- ها ها ها! عبقري! دعيني أضحك! مَنْ هو هذا السيد الذي يكتب بضمير المتكلم؟ من يظن نفسه؟ طيب، خبريه على لساني بأنه لن يُقرأ أبداً في فرنسا!

غوتسغاب ١ سبتمبر ١٩٢٩(١)

صديقتي العزيزة جداً،

آه ما أجمل الحديث معك! مكثت وحيداً، طيلة شهر، ولم أنبس بكلمة واحدة تقريباً. أحس بأني سعيد وحزين وحرّ مثل أرنب برّي يرقص تحت ضوء القمر. أشعر أن الحياة فظيعة وبسيطة وأن البشر وحدهم أدنياء ومعقدون. بإمكاني العيش في هذا الجبل المقفر سنواتٍ وأجيالاً. يوجد كل ما يلزمني: الهواء، الريح، الغابات، بعض الأبقار، ورأس ممتلىء بالمناظر الطبيعية، والأحلام والأزهار، والوحوش. وكذلك بالـ nuova etantica pazzia (الجنو ن الجديد والقديم).

أحياناً تغزو ظهري، في هذه السعادة، قشعريرة صغيرة، وهذا الحب الجامح للعزلة يملأني برعب مقدس. أذكر.. كنت ذات مرة على قمة جبل آخر في تايغيت، وكنت وحيداً مع بعض أشجار الصنوبر العالية في الباحة؛ وفي كل مساء، عندما أضع المزلاج الحديدي وأوصد الباب، وأسمع أزيز المزلاج، أقشعر من السعادة؛ ولقد وعدت نفسي، عندما أموت، بأن آخذ معي ذلك المزلاج وأحاول إدخاله، هو الآخر إلى الجنة..

حبّ جامح للعزلة.. عزلة قاسية.. مقدسة.. لا ترحم.. هذه الأناشيد لا تني

---

(١) رسالة إلى إدويغ ج. كتبها نيكوس كازنتزاكي بالفرنسية مباشرة.

تتردّد في مراسلات نيكوس كازنتزاكي. وكذلك: لا أنام جيداً.. تنتابني الكوابيس.. لست أدري لماذا تخنقني كآبة شنيعة.

بعد نزول الوحي، وتَشكُّل العمل في صورته الأولية على الورق الأبيض، تأتي مرحلة الحُمّى والإنهاك.. ولا يمكن أن تتجدد قواه آنذاك إلا بحضور كائن محبوب، معجزة اللوزتين في قشرة واحدة التي يُنشدها رَاوِية الملاحم القديمة في كريت، مدهوشاً:

ماهذه المعجزة إذن
الغريب مع الغريبة
يصيران أهلاً
وحبيباً لحبيبة!

غوتسغاب ٢٩ سبتمبر ١٩٢٩[١]

أتحاشى مراسلتك ولا أعلم السبب. إذ، ما أن أبدأ بالكتابة حتى تتملكني مرارة لا تطاق، شيء لا يفسر، لكنه في منتهى العمق بحيث لا أقدر على مقاومته. وهكذا فإنَّ من شأني أن أجعلك تتالقين بلا داع.

تمضي حياتي هنا بهدوء، من دون تغيّر. أستيقظ باكراً، أتمدد على سريرك، أصحح «الأوديسة» يؤتى لي بالحليب، أتناول طعامي.. الطقس ـ فليذهب إلى الشيطان! ـ رائع، وأنا مضطر للخروج، فاذهب بعيداً وراء الغابة، وأبقى هناك أربع، خمس ساعات، ثم أعود.. آكل.. ولا أشرب الشاي في الخامسة، لأنه كما تعرفين، مبّرر لي كي أستعيد كائناً أحبه، لا أكثر. وكثيراً ما أذهب إلى فيزانتال[٢] حتى أرهق جسدي وأتمكن ربما، من النوم.. أعود إلى البيت فانام بشكل مزعج، برغم النوافذ المفتوحة وهبوب ريح إلهيه. تنتابني الكوابيس، أنتظر بفارغ صبر، كما أخشى، لحظة انبلاج الفجر لأبدأ العمل.

---

(١) رسالة إلى ايليني ساميوس.

(٢) اوبسرفيزنتال التي يستغرق الذهاب إليها والعودة منها خمس ساعات.

غوتسغاب، الاثنين صباحاً[1]

استلمت كتباً هذا الصباح.. منذ الفجر كنت أنسخ وأصحح «القبطان ايليا» وفجأة وجدتني أمام كومة من الكتب. تركت المخطوطة ولم أعرف من أين أبدأ. تسمعين بحمار بوريدان. ذلك ما حدث لي. تصفحت تلك الكتب بتهيّج، وفي الأخير اخترت «الحيوانات التي ندعوها وحشية».

أريد أن تكون صورة كريت متكاملة لذلك ينبغي ترك «القبطان ايليا» يستريح لأسابيع عديدة.. راسلت «الناشر» روبير فرانس، وشكرته وطلبت منه أن يحسن إشهار كتاب «تودا ـ رابا» حتى لا يضيع بين أكداس الكتب المنشورة حول الاتحاد السوفياتي.

الاثنين مساء[2]

هل ستسافر ماري إلى الكونغو؟ كيف نستطيع قضاء شهر هناك، نحن أيضاً؟ شهر واحد يكفي كي أمتلك الرؤية التي أحتاجها لـ «الأوديسة». هل ستتخلى ماري عن منزلها الصغير؟ خسارة، لسنا متأكدين من إمكانية العيش في باريس، وإلاّ كنا احتفظنا به. هناك مئات الأشياء تشغلنا حالياً: كتبك وكتبي، الناشرون، خطط باباندريو، الكونغو، الهند، كالموك القادم، رحلة قصيرة إلى إيطاليا من أجلك، «الأوديسة»، «القبطان ايليا»، «فياراموسكا»[3].. بدأت الحياة تكتسب مذاقاً وأنا سعيد لشعوري أنك دائماً بقربي.

١٩٣٠.. الصياغة الثانية لـ «الأوديسة»، وقد بدأها كازنتزاكي منذ أول أكتوبر ١٩٢٩، تشرف على النهاية. وكذلك ما وفرناه من نقود. وبدأت محاولاتنا من دون أمل كبير في النجاح وكان بريفيلاكي يبعث بالصحف والمجلات والكتب إلى نيكوس، بطريقة منتظمة، فيقرأها ويرد بنبرة مازحة حيناً، وفي شكل اعتراف حيناً آخر.

كان يدرك أنّه وصديقه الشاب يمتلكان المؤهلات لتمثيل اليونان في باريس، لدى معهد التعاون الثقافي. لكنه يعرف أيضاً أن صديقه باباندريو ليس متنفذاً ولن يحط بثقله كي يقنع وزير المالية «ماريس»، وهو كريتي أيضاً **وصديق**

---

(١) و(٢) رسالة إلى ايليني ساميوس.

(٣) رواية كنت أكتبها آنذاك، وكانت تضحكنا بطريقة جنونية.

كازنتزاكي» بالتدخل لصالحه. ويعـرف فوق ذلك أنَّ فينيزيلوس لا يحبه. إذاً ما العمل؟ كيف يجد عملاً يجعله مفيداً لبلاده ويمكنه من متابعة أعماله؟

في بداية هذه السنة كان بريفيـلاكي يستعد لتأليف كتاب عن الغريكو. فتبناه صديقه الأكبر الذي يعيش في أحد الجبال ويسكن بيتاً يخيّم عليه «سكون فوق ـ أرضي»، وبـدأ يزوده بـالنصائح والتشجيع، ومـع ذلك لم يتخلّ كازنتـزاكي عن مشروعه القديم المتعلق بتأليف كتاب حول الرسام الكبير ذي الأصل الكريتي.

غوتسغاب، ١٥ مارس ١٩٣٠(١)

..البارحة رأيت حلماً جميلاً عن الغريكو. أمضينا الليل معاً، أكلنا وتحدثنا باللهجة الكريتية، استيقظت ثم عدت إلى النـوم، فتابعت الحلم. ومن المؤكد أنني لا أستطيع سرد هذا الحلم بالكلمات، لكنني أتذكر تفاصيل كثيرة، وقد وضعت خطة كي أروي فيما بعد محاوراتي مع الغريكو. كان ذلك أمراً مبهجاً..

كان يجلس إلى مـائدة الكتابة صيفـاً، ويفضل السرير، شتـاءً، مع قفازين لا يغطيان الأصابع، حين تبلغ الحرارة درجتين تحت الصفر. وينغمس هذا العازف الشيطاني في العزف على دفاتره ـ ملاحم، روايات، مسرحيات كوميدية ـ بسحنة عاتية، ومزاج بشوش، من دون أن يحتدّ عندما أقاطعه لأمر تافه.

يرفع ساعده، والقلم في يده، ويرفع رأسه مبتسماً ثم يدندن مازحاً:

«مرحباً بكِ كِ كِ كِ!» ويضيف «إلى متى؟»(٢)

عنـدئذ أضع فنجان القهـوة، أو الفواكـه، أو الصفحة المصححـة، على المائدة سعيـدة بسعـادتـه. وأجيب «حتـى مـابعـد الموت!» من دون أن أتصـوّر الموت موجوداً!

كـان يحب الضحك والإضحـاك، والاستلقـــاء تحت أشعــة الشمس، وتأمل النجوم. ويفرح، إذا كان أول من يراها، لأنني أغضب.

---

(١) رسالة إلى ب. بريفيلاكي.

(٢) ضمنياً: «إلى متى تدوم سعادتنا؟».

وكانت النزهات الطويلة على طرقـات مستقيمة توقِّع أفكاره. وكان يحتاج إلى الكلام لإنشاء مـواضيعه: «الإنجليز يدخنون غليـونهم: يَسْ، يقولون، متأملين. يَسْ. ويتمهلون، فينضج الحل في الصمت. أمـا نحن فنبدأ بالكـلام. وكلمة لا، أو نعم، عندنا، تشغل فكرنا. فتتشكل فكرتنا أثناء كلامنا..».

«تودا ـ رابـا»، «القبطان ايليا». «الأوديسة» في صيغتهـا الثانية التي تتضمن اثنين وأربعين ألف بيت، «تـاريخ الأدب الـروسي».. وعشرة مشاريع أخـرى.. كل ذلك يتطلب عدم إضاعة الوقت.

غير أن أقوى الأجســام وأقسى الأرواح تحتاج بدورها إلى تغيير المنــاخ. وبعد الجبل أغرانـا البحر. بحرنا، الأبيض المتـوسط الرائق، والمعطّـر برائحـة البطيخ الأحمر.

دقت ساعة الـوداع. وعلى عتبة بابنا غيّر نيكوس رأيه وفتح حقيبتـه باحثاً عن النسخة الوحيدة من مخطوطة «الأوديسة» ليسلمها إلى فيليب كراوس الأب:

«ياصديقي أعهد اليك بعملي. حافظ عليه، أرجوك، حتى عودتنا!»

– ألم نقرر الذهاب نهائياً؟ قلت له.

– لقد قـادنا الإله إلى هـذا المكان. لنترك لـه المبادرة مرة أخـرى. إنّ دروبه لا يُسبر لها غور..»

وكنا نـريد الإقـامة في باريس لبعض الـوقت، حتى يتمكن نيكوس من كتـابة سلسلة جـديدة من المقالات لموسوعـة إلغْتيروذاكيس. إذ كنّا نأمل الكثير من تلك المقالات. ومن أجل حصر النفقـات تمكن بعض الأصدقـاء من العثور على غـرفة مريحة لنيكـوس في الدائرة الخامســة عشرة، كائنـة في شارع بلبلـو. أما أنـا فقد قررت ابنة عمي ماري استضـافتي عندها.

لكن صعوبات غير متوقعة كانت تنتظرنا في باريس.

باريس ١٣ شارع بلبلو
١٩ ابريل ١٩٣٠[١]

أخي العزيز،

أنا في باريس منذ بضعة أيام، ولا أشعر بأي فرح.. والأسوأ من ذلك: أنني مضطر إلى اعـادة المقالات التي بعثت بها إليّ، لأنـه يستحيل العمل هنـا. مامن مكتبـة تضم الكتب المساعـدة التي أحتاج إليها: في المكتبـة الوطنية لا توجـد أعمال ماير وبـروكهاوس، ولا حتى الموسوعـة البريطانيـة! غداً سوف أزور السفـارة الألمانية لعلني أجـد فيها بعض القواميس. زرت المكتبات من الصباح إلى المسـاء، بلا طائل. ذهبت إلى مؤسسة «لاروس» تـوسلت إليهم، وجئتهم برسـائل توصيـة من سفارتنـا حتى يسمحوا لي بـالاستعانـة بالكتب التي لديهم. مستحيل. رفضوا من حيث *المبدأ*.

وفي رسالة إلى ادويغ:

أجول ببصري في شتى أنحاء الأفـق ولا أعرف أين أثبته آه! l'isola nostra[٢]! كريت! كم تشبه بـاخرة تسوطها الرياح! حلت سنة ١٩٣٠ ونحن بعيدون ومتباعدون! أحيانـاً يستبد بي الشـوق للعودة إلى كريت، والاسترخـاء على شاطئهـا، والإنصات إلى الأمواج المالحة، أو الارتحال بعيداً جداً، باتجاه جزر الماركيز، تاهيتي، ساموا.. في داخلي شيطان بحري يمزقني ويأكلني، مد وجزر، ولا أريد الإنصات إليه، وأنصت إليه، وأعرف اسمه فأرتعش وأبتسم. هل هو الموت مرتدياً جلباباً من وراء البحار؟

بعد ثـلاثة أعوام من الحريـة يتوجب عليّ العمل[٣] أحسد دورو[٤] المقيـم في *وطني* بغداد، وأرثي لحال أنّا المنفية في أثينا. باريس تضطهدني وتضنيني، روحي فيها تشعر بالضآلة، مثل حيوان مفترس مُلاحق..[٥]

وصدر في اليونان قانون يتعلق بترجمة كلاسيكيات اللغة اليونانية. فارتفعت صيحات نيكوس المتفائل دائماً: «لنطلب منهم تكليفنا بترجمة أفلاطون![٦].. ولكن

---

(١) رسالة إلى ب. بريفيلاكي.
(٢) جزيرتنا «المترجم».
(٣) لكسب القوت.
(٤) دورو ليفي، شقيق ادويغ، عالم آثار شهير.
(٥) رسالة كتبها كازنتزاكي بالفرنسية مباشرة.
(٦) هناك فرق شاسع بين اللغة اليونانية القديمة واللغة اليونانية المستحدثة «المترجم».

لماذا نقتصر على الترجمة فقط؟ فلنعدّ قـاموسـاً فرنسياً ــ يونـانياً. ولنترجم من اللغتين: الديموتيكية والكاثاريغوسا. لا وجود لقاموس من هذا النوع، ومن شأنه أن يسهل عمل المترجمين..»

وكأن ذلك غير كاف، فيواصل: «لننشيء سلسلة «كتب زرقاء»[1] ولنترجم كتباً جيدة مخصصـة للجمهور العـريض» وكذلك: «لنترجم سلسلة كتب لـلأطفال وننتقي أفضلها، من دون استثناء ذلك الشيطان الكبير: جول فيرن..»

وبدأ كازنتـزاكي يراسل الناشرين فيما سعى صديقه الشـاب بريفيلاكي إلى إقناعهم بإلحاح. وأسفر ذلك عن توقيـع عقدين. أحدهما من إلفتيروذاكيس الذي كلّفـه بترجمة كتب لـلأطفـال. والثـاني من ذيميتراكـوس الأب، ويتعلق بترجمة القـاموس الفـرنسي ــ اليـوناني العتيـد. وتم بعـد ذلك تقـاسم هذه المهمـة بين كازنتزاكي وبريفيلاكي. فترجم كـلاهما أربعين ألف كلمة تقريباً، وراجع كلاهما عمل الآخر.

وهذان العقدان أعادا إليه الشمس: «سـوف أذهب إلى أحد الشواطىء؛ لابد أن نجد على ساحل البحر ما يعادل غوتسغاب.

– دعني أرافقك. لقد تألمت كثيراً خلال الأشهر الأخيرة.

– أنا؟.. تألمت؟ كيف عرفت ذلك؟ أنتِ، يالينوتشكا، لا تتذكرين سوى الأشياء السيئة، أما أنا فلا أفكر إلاّ في الفرح الذي عشته».

ثم ضحك وشد كتفيّ، وشرع يردد ثرثرة مـالكة البيت في شارع بلبلو: «كانت أستـاذة غناء ــ قالت ــ وكان لها تـلاميذ كثيرون. لم أر منهم أحـداً، باستثنـاء هكتور، كلب «الكانيش» الـذي يؤنسها عندما تجلس إلى البيـانو. في اليوم الأول، أردت أن أكون لطيفاً، فحاولت مداعبته.

– حـاذر أن تفعل ذلك! صاحت العجـوز. كلا. كـلا، لا تقترب، أرجوك.. إنـه

---

(١) أي كتب خرافات وأساطير «المترجم».

غيور، هكتوري الصغير، إنَّه عُطيل حقيقي!.. انتبه! يغار حتى من المرحوم زوجي! وكلما زيّنت صورته بالزهور شرع هكتور في البكاء.. وهل تعرف اسمي؟ السيدة عندليب! أفضل مغنية محترفة في الدائرة الخامسة عشرة!»

ساناري، ١١ يونيو(١)
منتصف النهار، على مقعد.

لينتوتشكا الحبيبة،

وصلت للتو. أودعت أمتعتي في مستودع الأمانات وأسرعت إلى الوكالة العقارية، كان الوكيل يتناول غداءه، فجعلته ينزل من الطابق الأول: «كل البيوت مؤجرة في ساناري، ياسيدي، ابحث في مكان آخر!»

ودلّني على طريق «ادروسك» التي تتطلب مسيرة ساعة على القدمين، لكن هناك ترامواى حتى منتصف الطريق. فاتجهت صوب المرفأ، ووجدت المحطة. وبقيت أنتظر على مقعد. الميناء لطيف، والحرارة مرتفعة جداً، لكن ثمة نسمة بحرية منعشة..

مقاطعة البروفانس جميلة جداً، وتشبه اليونان تماماً: سَرْو، صنوبر، شقائق النعمان.. أما ساناري فتشبه ايجين.. وفيها زوارق ومراكب شراعية، وسمك مقلي (وصل الترام، وقد ناداني صياد لينبهني. ليكن الله معي. إني ذاهب!).

الساعة الثانية ظهراً

لا شيء! كل الغرف محجوزة، لقد تأخرت في القدوم.. القرية جذابة، هادئة، على ساحل البحر. كآبة. سأعود وأقصد «لاساين» ومنها إلى «السابليت» ثم «فابرغا».. وهكذا أجوب القسم الجبلي الداخل في البحر «الرّعن» بكامله. حرارة مرتفعة والأرض تتضوّع، الوزّال مزهر، وكذلك الرّتم والزعتر. أشجار تين كثيرة. كربت تماماً.

ساناري، السابعة مساء(٢)

عدت بعدما جُبت الرّعن كله، منهوكاً، جائعاً، ملفوحاً بالشمس، ظمآن. لا شيء.

---

(١) و(٢) رسالة إلى ايليني ساميوس.

من حسن حظكِ أنك لم تسافري معي وإلاّ أُنهكتِ كثيراً. أما أنا فاقاوم. وكثيراً ما أفكر بأننا لـو كنا من الأغنياء لـربحنا الكثير، وخسرنـا الكثير أيضاً؛ أنا سعيـد بهذا العذاب بحثاً عن متر رمليّ نستلقي عليه معاً.

مساء السبت، «كَانْ» واحسرتاه[1]

لا شيء في سان رافـائيل.. عدتُ إذن إلى كـان.. تخيلي شاطئـاً بعرض مترين، يحاذيه طريق مزدحم بالسيارات كما في شارع الشانزيليزيه..

الشاطىء الـذي نبحث عنه، مثل غـوتسغاب بحريـة، لا وجود لـه. لا شك أنَّ هناك واحداً في مكان ما، من فرنسا، لكن أين؟ كل شيء هنا متحضر، ويتعذر الاقتراب منه.

صباح الأحد

نمت هنا «جـوان لي بان» على هذا الشـاطىء المشهور.. ليلة رهيبـة. إذ أن الشاطىء يعجّ بالبعـــوض والحـرارة القـاتلة. عندمـا سألت فتاة الفندق عن سبب شهـرة هذا الشـــاطىء، أجابتني: هنا، كلــهم تقريباً يتكلمــون الإيطالية ! E la reclama, Signore.[2]

الأحد، بعد الظهر[3]

فيلغرانش..

بعد خيبتي في كَـانْ وجوان لي بانْ، وصلت إلى هنا. إنَّها مـدينة صغيرة ولطيفة، ذات طابع إيطالي بحت. عدد الفرنسيين قليل. وعلى شاطىء البحر المقفر تقريباً، يوجد نخيل، وزهَور، وغـار، الخ. وجدتُ فندقاً ممتـازاً، وأنا الآن جالس في الحديقـة وأكتب اليك. غداً سأبحث في كل الاتجاهات. أرتدي القميص الأصفـر الفضفاض (اتسخ كثيراً وغسلته).. وبجبين أسود لفحته الشمس، أطوف طوال النهار، باحثاً عما سيكون مأوانا.

١٦ يونيو[4]

عثرت على فيـلا رائعة ذات حديقة.. طبعـاً ليست الأفضل، لأنها ليست على شاطىء البحر، ومثل هـذا الشرط لم يعد قابـلاً للتحقيق.. أتلهف لرؤيتك ولمسك. إن شـاء الله،

---

(١) رسالة إلى ايليني ساميوس.

(٢) «والدعاية، سيدي!».

(٣) ، (٤) رسالة إلى ايليني ساميوس.

ربّنا الشرقي العظيم، سوف نقضي شهور الصيف الأربعة[1] كما نشاء: نبقى وحيدين، نعمل، نتحدث، نسكت، لكن معاً دائماً. الحياة رائعة لأننا *رائعان* ونحب بعضنا.

..تعالي في أقرب وقت ممكن. بيتنا جميل، هادىء. وفي الحديقة ورود كثيرة، وشجرتا درّاق مثمرتان، وأشجار ليمون وبرتقال الخ.. كل شيء لنا.

تأتي الأشياء دائماً *بطريقة أخرى*. ففي ثلوج غوتسغاب كنا نحلم باليوم الذي نحرق فيه باطن أقدامنا على الرمل الملتهب حتى البياض، كي نسرع بعد ذلك من أجل بلّها بالموجة. لكن القدر قرر غير ذلك. لا شاطىء، ولا رمل، ولا سباحة.

وعوض ذلك: حديقة متوسطية، حديقة دير لا ترانا فيها سوى القطط، وتغصّ بالثمار المحبوبة التي سحرت شبابنا: طماطم، باذنجان، فلفل، عنب أبيض، درّاق وردي.. ودفلي..

قبيل مغادرتي باريس، تلقيت نبأً سعيداً.. لقد أُعجب جان كاسو بـ «تودا ـ رابا».. وهذا الكاتب الجيد الذي كان رجلاً كريماً أيضاً، أراد مساعدة زميل مجهول، وعرض كتابه للنشر في دار «فوركاد».

تملكني الفرح، وأسرعت إلى محطة ليون، من دون أن أنسى إرسال برقية إلى نيكوس. غير أنَّ برقيتي لم تصل. «نذير شؤم» زمجرتُ مغتاظة. «بل بشيرخير، أجاب نيكوس المتفائل دائماً، وأضاف: أتمنى من الله، أن أسمع الأنباء السارة من فمك، دائماً!».

كان نيكوس قد استقر حذو طماطم «ــــه» عاري الجذع في الشمس، وبدأ بترجمة كتب الأطفال. وقد بدا ملوّح البشرة، مستعيداً نوعاً من الفتوة والإشراق.. غير أنَّ الإغواء الكبير جاء من «نيس». وعلى الرغم من تعوّد نيكوس عدم مقاطعة عمله في الصباح فقد صار يختلق المبررات كي يذهب للتنزه بين الزهور والخضار. ولو كنّا أغنياء لغطتنا أكداس من الفواكه. ولأننا لم نكن كذلك، فقد

---

(١) هكذا في الأصل، تجاوزا.. «المترجم».

كان يعود ومعه ***البطيخة الحمراء الأكثر طقطقة في حياته، والبطيخة الصفراء الأضوع عطراً وبالتين ذي قطرة العسل السائلة***. ونذهب مشتبكي اليدين بحثاً عن السمك. وكنا في موسم سمكة الرّنكة الطازج الذي نحبه منقوعاً في النبيذ الأبيض. نعم، لنا ثروة طائلة: قبو لخزن الخمور!

وخلال تلك الأشهر الصيفية الأربعة ترجم نيكوس أو اقتبس عشرين كتاباً للأطفال، اختارها بعناية من الآداب العالمية: «شوز الصغير» لدوديه، «كوخ العم توم» لبيشر ستو، «كاري الفيل» لموكيدجي، «النحلة» لبونسل، «اوليفر تويست» لديكنز، «رحلات غيلفر» لسويفت، الخ..، الخ.. ووضع أيضاً مخططاً تفصيلياً لروايته الجديدة «يوم ممطر» رؤية حياة كاملة، مكثفة في يوم واحد.. وموقعها بين حلمين ـ زيارة الغريكو وتجلّي بوذا.

حوالي نهاية سبتمبر أعلن بريفيلاكي أنّه سيأتي إلى باريس لاستكمال دراسته. فهل سننتقل للإقامة في إحدى الضواحي الباريسية كي يتمكن الرجلان من العمل معاً في إعداد القاموس؟

كنت آمل ذلك. وكانت لابنة عمي ماري خطة بدت لنا قابلة للتحقيق. فبدأتُ أرتب الحقائب قبل انتقالي إلى باريس مستكشفة.

بقيت لحظة أتأمل بابوجيْنا التَّتريْن اللذين اشتريناهما في كازان وقد لمعا بكل ألوان الأرض الروسية.

– لقد اهترأ كثيراً تنهّد نيكوس، لينوتشكا، هل سـ...

– لندفنهما في الحديقة، اقترحتُ عليه، كي أقول شيئاً ما.

– مثل قطة؟ إذا لم تقرري أخذهما حقاً، فلنعدَّ لهما جنازة لائقة أكثر.

وتم ذلك فعلاً. إذ فتش نيكوس في أدراجه واختار أفضل سماط صغير طرّزته أخته هيلينا، وبعض الورق الحريري الذي صقله بكفه:

– هذا المساء سوف نذهب لرمي زوجيْ حذاء البابوج في البحر! قال بعد أن حزم الرزمة.

– يجب أن نضيف حجراً كي لا يقذف بهما المدّ إلى الشاطىء.

فذهب يقطف آخر حبة رمان في الحديقة وأعاد فتح الرزمة ثم وضع الثمرة الصلبة في حضن الحذاءين العجوزين:

– هبة لقارون! قال بنبرة حزن، ومن دون هدية، لن ينقلهما إلى الضفة الأخرى..

ومازال يرن في أذني صوت الارتطام المكتوم بالأمواج. فأسترجع خيالاً طويلاً مرتسماً في خلفية معتمة، لذلك الرجل الذي كان يجيد إضفاء مذاق خاص على كل الأشياء. وحدها النجوم اللامبالية، وصديق ذو قوائم أربع، كانت شاهداً على هوسنا.

وفي انتظار الأحداث التي ستقرر مصيرنا بدأتُ باجراء سلسلة مقابلات صحافية في باريس مع بعض الشخصيات المنتمية إلى الوسط الأدبي، ولاسيما الكونتيسة دي نواى، وجورج دوهاميل، واندرية موروا الخ، الخ.. وفي نيس حاول نيكوس إيجاد حلول لمشاكل عديدة يتوقف عليها حضور بريفيلاكي إلى باريس، وتعاونهما في مجموعة من الأعمال على نطاق واسع. لكن المال الذي لم يعد كافياً أجبر نيكوس على العودة إلى اليونان.

بعد ظهر الأحد[١]

(نيس، ١٩٣٠)

قديستي جرجس[٢]

أتلهف لسماع حكاية مقابلتك للكونتيسة دي نُواي.. ينبغي، يالينوتشكا، أن ينتهي هذا الوضع. حياتي صارت تافهة مثل الآخرين. عندما أفرغ من عملي مع بريفيلاكي سوف نتخلص من كل هذا البؤس ونذهب للتمتع بالجبل، والهدوء والمراسلات النادرة، من دون أعمال. لا أنا، ولا أنت ولا «الأوديسة»، نستطيع مواصلة هذه الطريقة في العيش.

(١) رسالة إلى ايليني ساميوس.

(٢) سبقت الإشارة إلى أن كازنتزاكي يعتبر ايليني بمثابة القديس جورج أو جرجس. «المترجم»

وفي انتظار ذلك يتوجب علينا الاكتفاء بـالقليل، وتقبل الضرورة مؤقتاً، مع اجبارها على اعطائنا أفضل ما تستطيع. ثم نتخلص منها.

نيس، مساء الثلاثاء(١)

قرأت البـارحة في صحيفة «لـوتون» مقالاً عن المعهـد. وقد سافـر فاليري إلى جنيف لتقديم تقرير حول التعاون الثقـافي. ربما تمكنا من الحصول على ذلك التقرير؟ أرجوك، ياقديستي جورج، أن تهتمي بذلك.

حاولي الحصول على ثمن جيد مقابل العاج(٢)! سوف نجهز من ذلك، غرفة في بيتنا، وأخـرى مع الفتيروذاكيس، وثـالثـة بفضل القامـوس. ينبغي أن نحصل بـدورنـا على Home!(٣) ، أنه لمن الضروري أن يكون المرء ساكناً في مكان ما.

كنا نحلم ببناء بيت، مـرة في سالزبورغ، وأخرى في نيقـولاسي، قرب برلين أو حتى في مودون، أو فَانْتني ـ أو ـ روز، لذلك يتابع نيكوس:

حتى الآن، مازال بيتنا «الطائر» مَبْنياً بالضباب والإرادة والسيف. لكنه سوف يتدعم، لأنك معي وأنا لا أخشى شيئاً.

نيس مساء الأربعاء(٤)

May May gwan(٥)

هذه آخر ليلة أقضيها في نيس، فيـلا دي بيرفانش. لا أريد توديعها من دون أن أكتب إليك كي أعبّر لك عن مدى وجـودك معي في هذه اللحظـة، وعن حياتنا التي كـانت ودية عميقة، وسعيـدة، هنا. ولـولاك لصار كل هـذا الجمال، والشمس، والبحر، والعـزلة، في منتهى الإنهاك بـالنسبة لي، وصـارت حياتي لا إنسـانية. لأنك أنتِ التي تضفين عليهـا العذوبة.

في داخلي نزعـة لكره البشر.. قوى قطيعـة، مظلمة. ولا أكـاد أحافظ عليها متـوازنة. أعتقد أنّه لا يـوجد في العالم سوى أناس قليلين أحسوا مثلي بـرعب الحياة والموت. مامن وهم يخدعني، ومامن سـذاجة تجعلني أنسى، أعيش بـلا أمل. وحتى عندما أبـدع بيتاً

(١) رسالة إلى ايليني ساميوس.

(٢) منمنمة بيزنطية منقوشة في العاج كنّا نأمل بيعها.

(٣) بالانجليزية في الأصل: البيت. «المترجم»

(٤) رسالة إلى ايليني ساميوس.

(٥) بطلة رواية وايت «مطاردة في بلاد الصمت» وكان نيكوس منغمساً في ترجمتها.

شعرياً جميلاً، يسخر أحدهم في داخلي، ويتهكم، ويذكِّرني من أين جئت، وإلى أين أذهب، وبأنه لا يوجد خلاص. لكن، عندما أرفع عينيّ ـ وكم حدث لي ذلك هنا، في فيلا دي بيرفانش! ـ وأراك ترقنين بالآلة الكاتبة، أو تنصرفين إلى شؤونك البسيطة، البشرية، في أعمال البيت، تغسلين صحناً، أو تعدين شاياً ـــ عندئذ فقط أعزّي نفسي، وإذا باللحظة الزائلة تكتسب نوتر الأبدية وامتدادها. فأقول لنفسي: ربما كانت هذه اللحظة البسيطة جداً، والإنسانية جداً، جديرة بأن تجعل الإنسان يتحمل مشقة الولادة من دون اكتراث بالموت.

مرسيليا، ١٧ أكتوبر ١٩٣٠(١)

لينوتشكا الحبيبة،

ذهبت أمس إلى الوكالة.. عُرض عليّ مقعد في الدرجة الثانية، لرحلة «بيري»، مقابل ٧ إلى ١٠ جنيهات، لكنني لا أملكها. ولا تكاد نقودي تكفي لمحل في الدرجة الثانية، الاقتصادية.

تلقيت رسالتك، وأشكرك عن كل ما ذكرته من أشياء جميلة. ليتني أستطيع الانكباب على «الأوديسة»! لنأمل! ولأنك معي، فأنا آمل ذلك.

قصائد آنا دي نواي جميلة جداً، ولكن كيف أترجمها؟ سوف أحاول.

ميناء مرسيليا القديم رائع جداً، مثل صقلية تماماً. وهناك وفرة في الفواكه، والسمك، والأصداف.. نساء متبرجات، ماجنات، وشوارع ضيقة؛ وبيوت مدعومة حتى لا تنهار. ألوان، صياح بالأسبانية والإيطالية، نظرات ماكرة. أتناول عنباً، وقطعة خبز، وزيتوناً أسود.

لدى العودة إلى اليونان التجأ نيكوس إلى أمه. وأمضى شهراً في حياة نباتية، وحنان لا يكاد يظهر، وكلمات لا تكاد تُنطق، معطرة بأكباش القرنفل، والعسل، والقرفة.

ثم انكب على عمله من جديد. وقبل سفر بريفيلاكي إلى باريس وقّع الصديقان

---

(١) رسالة إلى ايليني ساميوس.

عقداً نهائياً مع ديمتراكوس. ثم سافرنا إلى ايجين حاملين في أمتعتنا أربعين ألف بطاقة سيملأ نيكوس كل واحدة منها بكلمة فرنسية وما يناسبها باللغة اليونانية الديموتيكية، والكاثاريفوسا.

استضافنا انفِيلاكي - في بيت ريفي قديم يتوسط أشجار الزيتون والفستق والتين والعنب. وكانت هناك، تحت الشرفة، شجرة مصطكا، نستعمل رَاتِنْجَهَا طيباً لحلوياتنا، ونخلة، وصنوبرة رائعة تغطينا بظلها.

ويتلألأ البحر عبر أوراق الزياتين. ومع ظهور النجوم الأولى، يرتفع صوت حرّاس السجن - ليذكّرنا بأن بشراً يحبسون بشراً آخرين في تلك الأقفاص.

ومن الشرفة الخشبية التي كان نيكوس يعدّ فيها القاموس، كنا نتأمل غروب الشمس ساكبة شلالاتها التي من ذهب وفضة مذهّبة. وما أن يتلاشى الموكب الملكي حتى تلوح افروديت شاحبة مثل عرق اللؤلؤ.

١٩٣١. كان نيكوس يمضي الوقت، من الفجر إلى الليل، غاطساً في بطاقات القاموس من دون كلل. وأثناء نزهاتنا المسائية على شاطىء البحر، أو داخل الجزيرة، كثيراً ما يتنهد قائلاً «ما يحزنني أكثر هو تبديد أفضل سني حياتي.. وعدم قدرتي على التغلغل في الغنى الداخلي..»

ويحاول إفادة بريفيلاكي، الموجود في باريس مع همومه الخاصة، ببعض تجربته:

الصقر الذي اختطفنا من الجمجمة، يشرب دمنا كي لا يموت. وينبغي أن نتركه يفعل ذلك، لأننا إذا طار من هذه الأرض، سوف نضيع بدورنا..

ووصلت أخبار «المعرض الكولونيالي» حتى ايجين. فمن جهة، كانت باريس تجمع في غابة فانسان، كل الروائح القادمة من شموس مختلفة، سوداء أو صفراء، من الرمل أو من الغابة، من ريح السموم أو من الأمطار الاستوائية، بينما من جهة أخرى ذلك الجبل الشاهق — تُورَّاهِرْهُوهي - الذي حدّثتنا بيليلي عن روعته بمناسبة زيارتها لأثينا. ولم يكن نيكوس ينتظر المزيد كي يرفع المرساة

«أنا طائر مهاجر، يالينوتشكا، لست فلاحاً ولا صياداً. ضعي يدك على صدري لتحسيّ كم يرتجف منتظراً رياحاً مؤاتية..»

كان يتكلم ومنخراها ينبضان. لكن مازالت هناك المحاكمة بسبب كتاب «الزهد» الذي اعتُبر مناهضاً للدين والوطن. تلك المحاكمة التي لن تحدث أبداً، غير أنَّ التلويح بها يعود من فترة إلى أخرى، مهدداً. لقد طلب غلينوس من نيكوس أن يجهز دفاعه.

بحث نيكوس بين أوراقه عن نصٍ كتبه في اليونان سنة ١٩٢٥، يتضمن كل شيء حول القضية. فأضاف إليه بعض الكلمات ثم أعاده إلى أحد الأدراج[١] ومن أجل تغيير وجهة مزاجه المتعكر، حاول استخلاص الجانب الفكاهي من القضية فصاح: «ياإلهي، ماأغرب أطوار البشر! في جوّ حار وخانق.. سيزدحم القضاة، والمحامون، والنائب العام، في قاعة ضيقة، فتثور أعصابهم، ويرشح عرقهم ويصرخون متّفقين!.. وهكذا يشعرون بالزهو، لأنهم خدموا.. العدالة!»

ويضحك ضحكته الكبيرة المنقذة.

في باريس ظل بريفيلاكي يرافقنا قدر استطاعته إلى منتزه فانسان، كأننا النحل يدخر العسل، من الصباح إلى المساء. كان الطقس حاراً، بل حاراً جداً. والأنواع المستجلبة إلى المعرض الاستعماري، من خيزران، وبرديّ، ونيلوفر في البرك، فضلاً عن الأجسام البشرية، تتضوّع بعطور الجنوب. ويدوّي في النهار والليل، قرع الطبول والطبلات الأفريقية، وعزف المزامير الحاد. وفي كل منعطف يلوح قناع، أو أسد، وحش نصفه حيوان ونصفه إنسان، عمود أحمر أو أسود، كوخ أو معبد.. بعد مرور أعوام عديدة، استطعت بمفردي أن أتأمل «أنغكور فات» الحقيقية، تلك الزهرة التي لم تقطف أو توضع في مزهرية. غير أن فرنسا وفرت لنا في ذلك المعرض الكولونيالي رؤية ما يشبه الحلم.

وأراد نيكوس أن يوفر عليّ أتعاباً غير مجدية، فسافر وحده إلى النمسا، بحثاً عن ملجأ هادىء في الجبل.

(١) يوجد النص في آخر هذا الكتاب.

تُوّراهِزْهُوهي، الجمعة ٣٠ـ ٦ـ ١٩٣١[1]

قديستي جرجس،

لا شيء! ذلك ما حققته بعد مسيرتي الفظيعة..

غداً أذهب بالأوتوبيس إلى بريدليتز، وسان ميكائيل ثم لينز. جولة قاسية، ومصاريف، وتعب. سوف أقترب من تشيكوسلوفاكيا. وإذا لم أجد شيئاً سوف أعود إلى غوتسغاب. عزائي الوحيد أنك لست معي وأنني وفرت عليك هذا التعب.

أفكر مجدداً، وبارتياح، في بيت آل كراوس الجميل. فهم يعرفوننا، ويتحلون بخدمة ممتازة ورصانة فائقة.. سوف أطلب منهم تهيئة مدفأة لنا..

حبيبتي أنا متعب، متعب.. تورّمت قدماي من تسلق الجبال، والذهاب من فندق إلى آخر تحت المطر. لذلك أعتبر غوتسغاب بمثابة واحة.

وهكذا تعود إلينا، هناك، حياتنا المقدسة: عمل، راحة، متعة مسائية بعد الجهد.. إنّ أناساً فقراء مثلنا، عندما يجدون شيئاً رائعاً، مثل ذلك البيت على قمة تشيكوسلوفاكيا، والسعادة، ينبغي أن يعوا بأن كل ذلك هبة لا تتكرر من القدر.

وفي الأثناء سوف ننظر صوب ايجين، لنتخيل بيتنا «المستقبلي» على شاطىء البحر، والصخور.

أنا سعيد بوجودك وأطلب من الإله أن يميتني قبل تلاشي هذه السعادة.

مساء الأحد، في بيتنا[2]

(غوتسغاب، يونيو ١٩٣١)

كلما إقتربت من البيت ازداد خفقان قلبي. الطبيعة تلمع تحت الشمس، والفلاحون يحصدون، يتضوع أريج ناعم، بينما يلوح زغب رؤوس النباتات الشوكية مثل أجداد شائبين، وبعضها لم تتفتح براعمه البنفسجية المستديرة.

مررت بالدروب نفسها وشعرت بالحنين إليك بجانبي. اجتزت الجسر الصغير فقفزت سمكة فوق الماء. بشير خير. فوثب قلبي مثلها.

---

(١) و(٢) رسالة إلى ايليني ساميوس.

كانت هيلدا، الأولى التي تعرفت عليّ. ومن أعلى المنور حيث كانت تملأ المستودع بالعلف، مثل علم أحمر، صاحت «مرحى! مرحى!».

وكان كراوس يحصد بمنجل كبير «هِرْ ديركتور! سيدي المدير!» وأسرعت العجوز تضحك وتبكي: «وأين السيدة المديرة؟»

صعدت إلى غرفتي.. وطلبت للعشاء حليباً، وزبدة، وبطاطا. وأنا الآن جالس على أريكة غرفتي وأشعر بالسكينة والعذوبة والغبطة. الطيور تغرد، والبيت يتضوع برائحة العلف والصنوبر والسهل. والشمس بدأت تغرب.

الأربعاء، الخميس، الجمعة، السبت، الأحد، لم أتوقف في الليل ولا في النهار. نمت ليلة واحدة، أما بقية الليالي فقد أمضيتها في القطارات على نحو فظيع.. بالأمس، في لينز تمددت قليلاً على مقعد عريض، على ضفة الدانوب ونمت. كنت لا أكاد أغمض عينيّ قليلاً، ولو في الطريق، حتى أحس بأنني سأنام..

وهذا، هو أول يوم أشعر فيه بالهدوء والراحة التامة. مامن مشهد طبيعي يعادل هذا المنظر.

حدسي يشعرني بأشياء جيدة.. ففي الأفق عمل جاد، وهدوء، وسكينة، وسعادة، عندما نتحدث معاً، مرة أخرى، كل مساء، مثل روحين محظوظتين، لا تشوبهما شائبة، ومثل جسدين يتحابان ويتبادلان الاشتهاء..

وكتب إلى ب. بريفيلاكي:

١٧ يوليو ١٩٣١

غوتسغاب، إرزجبيررج..

أخي العزيز،

لن أنسى سهراتنا في باريس أبداً. أحتفظ منها بذكريات في منتهى العذوبة..

راسلني، أرجوك، كثيراً، وسامحني إذا كنت متحفظاً في كلامي وفي رسائلي، أريد ولا أستطيع، كسر القشرة الصلبة التي تلف قلبي.. وهكذا أعددت قناعاً، خدع كل الذين عرفوني تقريباً. وسوف أترك أسطورة مختلفة تماماً عن وجهي الحقيقي، الجامع بين

القسوة واللين، بين العناد واليأس.

بعد استشفائي في بلومبيير كـان الاتفاق أن ألتحق بنيكوس في الجبل. غير أن سـالزبـورغ كانت في طـريقي، وكان الإغـراء كبيراً. وبفضل بطاقتي الصحفيـة حصلت من غير تعب، على كـل الـدعـوات الضرورية لحضـور «نصف شهـر الموسيقى». لقد مرت أكثر من ثـلاثين سنة ولم أنْسَ فرحي ولا خيبتي من رفض نيكوس المجيء لمشاركتي سعادتي. ولم يحسم أمره حتى بإمكانية رؤية ستيفان زفيغ الذي كان يريد التعرف عليه، وسماع موزارت، وبرونو والتر، ورينهاردت، وموييسي. وكتب:

إلى القديس جرجس صاحب الآلة الموسيقية،

من سوء الحظ، لا أشعر بأيه رغبة أو متعة، في التعرف على أحد.. أسف على ما أسببه لك من حزن، وعلى عـدم رؤية كاتي[1].. أشتغل على «الأوديسـة» من الفجر إلى السـاعة الثـالثة بعـد الظهر، أشرب قليـلاً من الحليب البـارد وأترجم جـول فيرن. ولا يسمح لي استعداد روحي حالياً بتذوّق مباهج الموسيقى المرغوبة. إلى العام القادم.

صبر.. وصريـر أسنان.. وعـام قادم.. لازمـة مؤلمة لا تخدع أحـداً حتى وإن ترددت بلامبـالاة أو مرح. عندما لا نتمكن من تحقيـق أي فرح صغير! رحلة، أو حفلة، أو ثياب جديدة، أو زيارة الأصدقاء، نؤجله إلى العام القادم! وعندما يغطس نيكوس في «أوديسته» لا يبلغ اليابسة إلا برحلة إلى بلاد بعيدة، شبه متعذرة.

ولأول مرة لم تـدوِ ضحكة نيكـوس المجلجلة عنـد لقائنـا. جاء يستقبلني في يواكيمستهل بسحنة كئيبة «لا شك أنَّ روحـه لا ترغب في الكلام». ولحسن الحظ أنه من طبيعة مرحة، إذ سرعان ما استعاد بشاشته.

مازلنـا في شهر أغسطس ونيكوس قلق: «مـاذا سأفعل عندما أُنهي الصيـاغة الثالثة لـ «الأوديسة»؟ ولم يكن يتكلم كثيراً عندما ننحدر من الدرب الوعر المؤدي إلى يواكيمستهل، عائدين منه صعوداً محملين بالأجاص والتفاح وبعض أسماك الرنكة المدخنة، لكنه في الطرقـات السوية المستقيمة، على المرتفعات، يترك العنان

(١) كاتي بابايوانو.

لأفكاره، بارز الصدر ورأسه إلى الوراء، فنتعقبه بصعوبة، مأخوذين بقوة اندفاعه.

ويتنهد نيكوس قائلاً: «آه، لو كانت لي عشرة سواعد، أو أفضل من ذلك، لو كان يتبعني اثنا عشر مريداً. فلديّ أفكار كثيرة، أفكار كثيرة كان يمكن أن تتحقق..»

يوم ٤ ديسمبر ١٩٣١ اكتملت الصيغة الثالثة لـ «الأوديسة». وكنا معزولين عن العالم بسبب عاصفة ثلجية عنيفة، وبعد يومين احتفلنا بعيد القديس نيقولا، كان الثلج والصقيع في الخارج، والدفء الإنساني داخل البيت. «دفءٌ فوق أرضي».

ولو كنا قادرين لسافرنا إلى أراض بعيدة. لذلك دعا نيكوس «أخاه» الأصغر بريفيلاكي ليقضي عيد الميلاد برفقتنا. وفي الأثناء كان يتساءل عن نوعية عمله الجديد.

لم يكن يحب تبديد جهده في أعمال صغيرة. حتى رواياته صارت بعد عشرين عاماً، تكتسي بُعد ملحمي.

يقال إن لينين عندما يريد الاستراحة كان يترجم قواميس أو يتعلم لغة جديدة. أما نيكوس فكان يترك روحه تتغلغل في بئر، أو في لجة الروح الإنسانية التي لا يسبر لها غور.

وينصحني قائلاً: «اختاري روحاً عظيمة، وكرّسي نفسك لها بالكامل. انظري مدى الفرح الذي يتملكك وأنتِ تؤلفين كتابك عن غاندي. عندما تنتهين منه سوف أساعدك على اكتشاف روح أخرى عظيمة.

- وأنتَ، في أي عمل ستشرع؟

- لست أدري بعد. هذا لا يدعني أنام.. أن أتخلى.. أن أتخلى عن كل شيء... بي رغبة لكتابة مسرحية في سبعة فصول. تكون الفصول الستة الأولى معبّرة عن مواقف زهدية مختلفة.. ثم تأتي رؤيا بوذا.. لست مستعجلاً. أترك الموضوع

ينضج في داخلي.. المهم هـو تقـديم نفسي طعـامـاً لحيـوان مفترس من الحجم الضخم. هكذا فقط أتخلص من الحشرات الصغيرة.

كانت السنة توشك على النهاية. وبعد خزن العلف والوقود والبطاطا والبصل، انصرفت عائلـة كراوس لشغل الدنتيلا، وتـزويد المدافىء بالوقـود المدخر. وتغير المشهد الشتائي أمامنا، إذ اختفت الغابة تحت محيط ثلجي أبيض بلا ضفاف.

وكان الصمت عميقـاً إلى درجة أننـا كنا نخفض أصـواتنا خشيـة أن تهشمنا صرخةٌ مثل كـأس بلور. لقد تغير كل شيء، المذاق، الشـم، البصر، اللمس، وصولاً إلى خفقات القلب.

أعارتنا عـائلة كراوس خشبتيْ تزلج فلم ننجح في استخـدامها. وكنا نمكث في بيتنا الشبيـه بكاسحة جليد تنفث الـدخان الكثيف، وننتظر وراء النـافذة مجيء سـاعي البريد كي يضع بين أيـدينـا جمراتٍ متقدة، أخبـاراً جـديدة من العـالم الخارجي:

– لينوتشكا، سيأتي بانديليس!

فرح. وتعليقات على الحدث.

وفي طنبر تجره أجمل بقرة، نزل نيكوس إلى يـواكيمستهل لاستقبال صديقه. وفي حين انصرفتُ إلى الفرن، هيأ كـراوس الابن المفاجأة. وهـرعت هيلدا مـرحبة لتضيء شجرة عيد الميلاد.

كان كليؤويف على حق. «فالفرحة قافلة حرير ومطرّزات تأتينا من الشرق».. وذكرتني أول شجرة عيد ميلاد بملـوك المجوس. وكان فرح لا ينسى: الصديق، وما جلب معه من عرق الروم والنوافذ المزينة، الخ...

١٩٣٢ بدأت سلسلـة من المصائب التي لم يسبق لها مثيـل تحل بنا وببعض الأصدقاء الذين حاولوا مساعدتنا، أيضاً.

وهكذا أفلس الناشر «فوركاد» الذي اقترح عليه جان كاسو نشر «تودا ـ رابا»، وتلاه الناشر «هومنت».. وأفلت رينودي جوفنال الذي كان ينوي بدوره نشر «تودا ـ رابا» من موت شنيع، في آخر لحظة، لكنه لم يفلت من آلام الحادثة، إذ اشتعلت النيران في استوديو «أفضل سينمائيي فرنسا» الذي أقنعته مادي سوفاجو بسيناريوهات نيكوس. وأخيراً فإن روبيرفرانس الذي كان يأمل نشر «تودا ـ رابا» ضمن منشورات «ريدر» أو غيرها، اختفى في ريعان شبابه.

وفي الأثناء تعاون الصديقان الكريتيان من أجل إنجاز خطتهما الخمسية. وبدأ نيكوس بمراجعة سيناريوهاته. لينتهي بعد أسبوعين من «دون كيشوت» و«بوذا». وأعقبهما سيناريو ثالث أجدّ، بعنوان «كسوف الشمس» يتعرض إلى عبثية الحياة المعاصرة، وأهوال الحرب، وضرورة سعي الشعوب إلى التآخي.

وفي موازاة ذلك «وتلك عادة نيكوس»، انكب على مراجعة «بوذا» «في شكل مسرحية» وقال لي ذات مساء وهو يحشو غليونه بتبغ خشن: أودّ أن أكسبه جناحين، ياالينوتشكا، جناحين ملائكيين كما يفعل الغريكو مع رسوم ملائكته.. لكن ذلك يتطلب مني التسليم بأنه لن يُقرأ أبداً.. وهكذا أكتب بحرية».

ومن اليونان جاءنا خبر كارثة جديدة: تراجع ذيميتراكوس ولم يعد راغباً في القاموس، ولا في الكتب التي طلبها سابقاً. وارتاب نيكوس فيمن يختفي وراء مثل ذلك القرار المُنْحّط. لكنه لم يسمح للكارثة الجديدة بأن تدمره. وبعد إنجاز السيناريوهات الثلاثة بدأ يفكر في «مدام بوفاري» و «الديكامرون» وهذا الأخير بدا له اكتشافاً «سيخرجنا من المأزق بلا شك».

يوم ١٥ مارس ١٩٣٢، وفي تلك الأجواء الشبيهة بأجواء «الأحرار المحاصرين»(١) ـ وكان فوركاد قد أشهر إفلاسه ـ أعلن لغتيريس عن قدومه. تأخر الشتاء، وذهبنا لاستقباله على الحدود الألمانية، بواسطة الطنبر الذي تجره أجمل بقراتنا، دائماً. ومن جديد ذهل السيد كراوس، وغيره من أناس المحطة،

(١) العنوان الذي أعطاه الشاعر اليوناني الكبير ديونيزيوس سولوموس لقصيدته حول محاصري ميسولنغي.

أمام مشهد التدفق الكريتي: العناق، والضرب على الأكتاف، والضحك الصاخب، وما إلى ذلك.. حتى فكرت مبتهجة: «هاهي ذي كريت! هاهي ذي كريت! هاهو ذا البُعد الكريتي!».

كان لغتيريس سعيداً. إذ أرهقته السنوات الثلاث التي أمضاها في ألمانيا. وفرح بالمجيء للراحة، ورؤية أخيه الأكبر، وسرد تجاربه علينا، وقراءة آخر ما كتب.

واستمع إليه نيكوس متهللاً: روايته جيدة، وكذلك المسرحيتان والترجمة الأمينة لـ «الإنْيادة»[1]. إذ كان نيكوس يحرص دائماً على تشجيع الكتاب الذين يعرضون عليه أعمالهم. وعندما أستغرب تسامحه المفرط إزاء الشباب، يجيبني: «أنا أيضاً، عندما كنت في سنهم، كنت أكتب بشكل رديء. لا ينبغي إحباط الذين يتعبون من أجل الكتابة».

أراد لغتيريس أن يمتّع السيد كراوس بمشاركتنا في الاستماع إلى ثلاثية بتهوفن الموسيقية التي أتى بها، فدعاه إلى سهرة موسيقية. وظل فيليب كراوس ينصت في صمت عميق. سأله لفتيريس.

– موسيقى رائعة، أليس كذلك أيها الصديق؟ ألا تشعر بأنك إنسان آخر؟

– نعم، نعم، سيدي المدير.. لكنني أثناء عزف الموسيقى كنت أتساءل أين سترمي بكل تلك الابر؟ في المرج، هه؟ وإذا ابتلعتها بقراني!

وتواصل الانسجام حتى اليوم الذي اغتاظ فيه لغتيريس ومزّق مخطوطاته فطارت مع الريح الشمالية فوق البيت.. وظل نيكوس يـ[illegible] شفتيه بينما انفجرت بالبكاء، مدركة أن لفتيريس قد مزّق [illegible]به للتوّ.

لقد تتالت المحن الصغيرة على نيكوس. غير أنّ [illegible] والدنه[illegible] [illegible] أن يدركها مرض أو [illegible]، أثرت فيه بعمق.

أشعر هذه الأيام [illegible]زن لا يُشفى. لقد حلّت بي إحدى [illegible] [illegible] تمزيقي. أقمع نفسي [illegible] حتى لا أصرخ. مع أني أدرك أن [illegible]

---

(١) إذا لم تخنّي الذاكرة.

بتعزيتي..

ذلك ما كتبه إلى بريفيلاكي من دون أن يذكر سبب ألمه. لأن في ذلك اعترافاً بالموت، وتقبلاً له. لقد أكثر من الحديث عن الموت في رسائله. لكنه، موته الشخصي، فالمرء، قد يتقبل الموت لنفسه، وليس لمن يحب.

كنت أراقبه من طرف خفي، وأطرح على نفسي ألف سؤال وسؤال: ماذا بوسع السنجاب أن يفعل، وكذلك شجرة اللبلاب، أمام مشهد سنديانة مصعوقة؟

وبدأت الرسائل تأتي بإلحاح متزايد من باريس: بريفيلاكي يحضر لامتحاناته، وصديقتنا المجهولة مادي سوفاجو لم تعد قادرة على إدارة أعمالنا بمفردها. وصار ذهاب كازنتزاكي إلى باريس ضروريا، إذ، كما يقول المثل اليوناني «الوجه قاطعٌ مثل الشفرة».

لكن نيكوس كان في أمسّ الحاجة إلى العزلة. ومن أجل ربح الوقت طلب مني أن أستبقه إلى باريس. واتفقنا على التوقف في الطريق كي أزور رومان رولان، وأقدم له مخطوطتي حول غاندي، لأن كتابه، هو الذي عرفني على المهاتما وجعلني أحبّه. وبسذاجة، ذهب بنا الظنّ إلى أنَّ رسالة التوصية التي أعطاني إياها ستيفان زفيغ كانت كافية. لكنها لم تكن كذلك. إذ رفض رومان رولان استقبالي، وأعلمني أنه لا يقرأ المخطوطات مطلقاً.

٦ مارس، صباح الجمعة(١)

قديسي جرجس الجريح، الحبيب

تلقيت رسالتك منذ قليل وخرجت عن طوري. يجب أن تكتبي رسالة إلى رومان رولان، من دون أن تكون رسالة متوسلة، كما لو كنت [illegible]. عليك أن تُوردي هاتين الجملتين اللتين بعثت بهما إليك طيّ الرسالة، حتى يفهم الضمير الكبير أنه جرح كائناً حياً وتصرّف بطريقة غير مشرفة.. وسوف تكون هذه المرة الأولى التي يتلقى فيها رسالة على درجة عالية من الكبرياء والنبل، ولن ينساها [illegible](٢)..

---

(١) [illegible] إلى ايديني [illegible].

(٢) [illegible]

ثم وصل كـازنتـزاكي إلى باريس بـدوره في اليـوم الأول من يـونيو، متأبطـاً «الأوديسـة» كي يعـرضهـا على بـريفيـلاكي (ألف وتسعمائة وأربع وثمانـون صفحة: أربعون ألف بيت شعر مخطوط بيـده). وعرضت علينا ماري ابنة عمي، استضافتنا في بيتها الشاهق، في بولونيا ـ سور ـ سين. وجاء بريفيلاكي ليسكن قريباً منا. وأقترح اقتباس «كالاندريا» للكردينال بيبيانا، و«ماندراغور» لمكيافلي. وسرعان ما أُرْفِقَ القول بالعمل.

تدهـورت حالتنا الماليـة واضطررت إلى بيع ما نملك من قطع ذهبيـة بسيطة. وفي حين كنت أتهمك في شغل البيت كان نيكوس يـذهب، والتمثال الصغير لدانتي في يده، للتنزه في غابة بولونيا. ولابد أن «يخطىء» طريقه دائماً ويدخل إلى المقبرة، ويضيع، ثم يعود منهكـاً. فهل كان يخطىء حقاً، أم أن القبر الذي حُفـر في كريت مؤخراً، كان يجذبه إليه من دون معرفته؟

وعندمـا لا يكتب يقرأ فاليري ومـالاراميه، والمختـارات الشعرية التي أعـدّها بنفسـه. وإلى تلك الفترة تعود هـذه القصيـدة القصيرة لموريا‌س، في تـرجمة غير منشورة:

أنا الذي أحمل أبولون على أطراف أصابعي العشرة

أنا خرافة السوقَة المبتذلين.

إتاوة كانت، ولاتزال واجبة

اليوم، وفي سالف الزمن، ومنذ عهد قريب.

عُثر في إحـدى المجلات اليونانيـة على ترجمة سيئة لـ «اسطـورة حبّ وموت كورني كريستوف ريلكه»:

– اللغة الديموتيكية لا تنجح في استيعـاب مثل هذه النصوص، قال لي متأملاً بصوت خفيض. تـذكري: «البحـر، البحر، المتجـدد أبداً» حاولـت مراراً، من غير طائل..

– وماذا عن: reiten, reiten, reiten,

– ترجمة ذلك حرفياً لا تجدي نفعاً باليونانية. ربما: خبباً، خَبَباً، خَبَباً؟ ربما..

ثم انتقلنا إلى ذكر اسم «الفلورنسي.. العظيم. فتحمس نيكوس وقرأ لي الأبيات الأولى من «الكوميديا الإلهية» لدانتي، التي شرع في ترجمتها إلى اليونانية الديموتيكية ببراعة فائقة، ولن ينهيها إلاّ بعد أعوام كثيرة، ليقدمها هدية لا تضارع، لليونان.

كان صبوراً جداً أمام مخطوطاته، لكنه لا يعرف مثل ذلك الصبر في المدن الكبرى. إذ أنهكته أربعة أشهر في باريس برغم جهود بريفيلاكي، ومادي الرائعة، ووالدتها، وبعض أصدقاء نيكوس، وأصدقائي. لقد ظلت الأبواب التي طرقها أصدقاؤنا محكمة الإغلاق، كما ظلت الآذان صماء. بينما حرّض غونغورا، وسرفانتس، والغريكو، ناسكنا المتوحد، على رفع المرساة. وفي نهاية سبتمبر ودّع صديقه مكتئباً وسافر وحيداً إلى اسبانيا:

الأربعاء، مدريد، كال سان فرناندو[١]

يونسيون أبيلا (أكتوبر ١٩٣٢)

سافرت من دون توقف، ليلتين ويوماً. كانت الأمطار غزيرة في بايون بحيث تلاشت كل رغبة في الإقامة.. شاهدت المحيط الأطلسي لأول مرة؛ كان بارداً، أصفر اللون، موحلاً، كريها. ولم تعجبني بياريتز مطلقاً. عندما بلغت ايرون تعرفت إلى رفيق طريق، وهو فرنسي يمتلك أراضي في المغرب. هنا تختلط الأصوات والنساء والأطفال والمؤن والأغاني. ولقد أيقظني شخص منذ منتصف الليل، نافخاً في مزماره، وتبيّن أنه شحاذ يريد نقوداً. وصلنا إلى مدريد حوالي السابعة والنصف مساءً. وذهبتُ للتبضّع مباشرةً. ولقد ركضت مدة خمس ساعات وزرت خمسين فندقاً عائلياً ـ بونسيون ـ أرخَصُها لا يليق بنا، وأغلاها لا نقدر عليه؛ وفي الختام وجدت فندقاً رائعاً، مثل الذي نزلنا فيه أثناء زيارتنا لروما، وربما كان أفضل.. قد أكون متعباً بعض الشيء، لكنني لا أشعر بذلك.. فأنتِ حاضرة في كل لحظة؛ لا تتركيني من دون رسائل مطولة وملأى بالتفاصيل..

أول ما فعلت في مدريد هو شراء كيلوغرام من التين الشهي. ولقد التهمته في الشارع. كانت حبات التين تتغلغل في أحشائي، باردة حلوة. وهكذا تلاشت، تدريجياً، كل متاعب

(١) رسالة إلى أيليني ساميوس

السفر. العنب يباع بثمانين سنتاً أسبانياً (فرنك واحد وستين سنتيماً) وهو شهي أيضاً. وثمة كميات وافرة من البطيخ الأصفر، والموز.

مدريد ٨- ٩أكتوبر ١٩٣٢(١)

..استعادت حياتي إيقاعها، كما لو كنت أعيش هنا منذ أعوام. ومع ذلك لم أشرع في الكتابة بعد؛ أقضي النهار في زيارة المتاحف.. لم أرتبط بصداقة مع أحد، ولا أتكلم، راسلت روبيو(٢).. ولم أر خيمينيث(٣) بعد، أريد، قبل ذلك، أن أشبع بمدريد وشوارعها ومتاحفها وناسها.. حضرت أول أمس سباق ثيران: مشهد رائع وفظيع. يستحيل عليك أن تتحملي ذلك، ياالينوتشكا، أما أنا فسوف أعيد الكرَّة لأن تلك المشاهد تهمني لأسباب عديدة.

ألَّف أكبر مسرحي إسباني، يدعى بينافنتي، مسرحية بعنوان «روسيا، القديسة روسيا» وقد عرضت البارحة لأول مرة. وقبل رفع الستار رتّل المؤلف (ويبلغ من العمر حوالي سبعين عاماً) *صلاة لروسيا*، مفعمة بالدفء، والحب، والتفهم، والشغف. ولحسن الحظ، فقد تم نشرها في الصحف، فاقتنيت نسخة، لأترجمها إلى «كيكلوس»(٤) وتتمكني من قراءتها.. إنه يقول ما أقوله تماماً، ويتحدث بدوره عن روسيا «المصلوبة».

مدريد، ٩اكتوبر ١٩٣٢(٥)

ذهبت مساء البارحة إلى المسرح الذي يرتل فيه بينافنتي صلاته إلى روسيا. انتظرته طويلاً أمام المدخل. كانت السماء تمطر رذاذاً، والريح تعصف؛ وأخيراً وصل، نزل من سيارته فعرفته من خلال الصور الكاريكاتورية التي نشرتها الصحف؛ هرم، نحيل، نَضِر بعد، أنيق، ذو لحية صغيرة، قصير، لطيف. أرسلت له ببطاقتي مع رسالة؛ وبعد بضع دقائق جاءت سكريتيرته وحدّدت لي موعداً في بيته، غداً، الاثنين، بين الثانية والرابعة..

مدريد، ١٤أكتوبر ١٩٣٢(٦)

..آمل أن أشرع قريباً في ترجمة نيسافور فوكاس(٧). إذا لم يربطني شيء هنا، وعندما

---

(١) رسالة إلى ايليني ساميوس.

(٢) تيموتايو بيريث روبيو، رسام، ومدير متحف الفن الحديث في مدريد.

(٣) دون خوان رامون خيمينيث، شاعر غنائي أسباني كبير.

(٤) مجلة أدبية تصدر في أثينا.

(٥) و(٦) رسالة إلى ايليني ساميوس.

(٧) نيسافور فوكاس، مسرحية شعرية لكازنتزاكي انكب على ترجمتها للفرنسية مع تحويرها لتصير درامية أكثر.

أشعر بأن وجودي ليس ضروريا، سوف أذهب إلى الجنوب وأختار مدينة صغيرة هادئة. فربما تمكنت من العمل هناك. إن مدريد جميلة وفيها متاحف كثيرة. لكنها تفتقر إلى الهدوء. في المساء، بين السابعة والتاسعة، أذهب إلى السينما. ولقد شاهدت فيلماً رائعاً: شانغريلا، الحياة في الغابات الأفريقية، حسب رحلة جونسون الشهيرة. وهذا المساء سأشاهد فيلم روني كلير «إلينا بالحرية»..

أنفق أقل ما يمكن. وأفقد صوابي عندما أرى الفواكه. تصوري البطيخة الصفراء الواحدة ـ هناك أكداس على الأرصفة ـــ ذات الكيلوغرامين تباع بثلاثين سانتيموس، وكذلك البطيخ الأحمر. أما الموز الرائع فهو لا يكلف سوى فلسين. غرفتي تغص بالتفاح والتين والأجاص ولا أتوصل إلى أكلها.. لو كانت هناك نقود! لنأمل أن ينقذنا «غاندي».

الشوارع الرئيسية تكتظ بالبشر كما لو أنهم يشاركون في تظاهرة، بعيون متقدة، واسعة، سوداء، لدى الرجال والنساء. أصوات وضحكات كما في معرض. الناس طيبون دافئون خدُومون.. وهذه المرة ترك عندي غويا انطباعاً قوياً. أما الغريكو فلم يتطوّر في داخلي، وظل في المستوى ذاته. لكن بعض لوحات غويا، وخاصة الأخيرة، احتلت مكانة عالية في روحي.

أطلب منك معروفين آخرين؛ قبل إعادة «فاليري» إلى بريفيلاكي اسحبي نسختين من «نخيل» ومن «المقبرة البحرية» سوف ندرجهما في الانطولوجيا الشعرية.

مدريد ٢٠ أكتوبر ١٩٣٢[١]

..ماأخبرتني به ليس مفرحاً، لكننا سوف نصمد قليلاً، وربما تغيرت عجلة القدر. أقتصدُ قدر الإمكان؛ ولا أنفق سوى بيزيتتين يومياً.. وهكذا أستطيع المثابرة حتى شهر ديسمبر، وحتى ذلك الوقت قد تتطور الأمور نحو الأفضل. زارني خيمينيث مساء البارحة: هو ذاته دائماً، سيد عظيم، مهووس بمشروعه الإبداعي، عميق، جاد، هادىء، متحفظ وودود. وعدني بإعلام أصدقائه..

أنا متأكد من أنه سيبذل قصارى جهده، وربما نجحنا.

زرت بينافنتي، قليل الكلام، هرم، أنيق، لكنه بارد. لا أدري كيف استطاع كتابة تلك «الصلاة» الجميلة. شاهدت أيضاً مسرحيته «روسيا، روسيا المقدسة»: رديئة، مقاطع

---

(١) رسالة إلى ايليني ساميوس.

طويلة، حيل قديمـة، لكنها عادلة وحارة. أما من الناحيـة الأدبية فهي ضعيفة. سأقابل هذه الأيام، في بيت خيمينيث، أورتيغا إي غاسيت (وهو أكبر مفكر هنا).

أطالع باستمـرار كتباً أسبانية مفيدة. لكن ذلك لا يكفي. ينبغي أن تكـون مخطوطة «نيسافور فوكاس» جاهزة عندما أسافر إلى باريس. سنحاول مع «بيتوف» موت روبير فـرانس صدمني. هل يعـود الذنـب إلى «تودا ـــ رابا»؟ صرت أتسـاءل عما إذا كان هـذا الزنجي يؤذي بالسحر. أرجو من الله ألا يؤذينا نحن أيضاً.

لا أدري مـاذا أفعل مع «ذ»[1] كيف أتصرف مع مخلـوق سيء يريد نقـل القضية إلى المحاكم؟ يقيناً ليست هناك وسائل أخرى أمـام أي رجل شريف للدفاع عن حقوقه. علينا أن نتحلى بـالصبر والمثابـرة قدر المستطـاع.. آسف لعدم وجـودي معك حتى أخفف من همومك اليومية. صبراً، صبراً، صبراً فوق الأرض..[2]

٢٦ أكتوبر ١٩٣٢ [3]

تحدثنا مطـولاً مع روبيو. رجل دافىء، عاطفي، يعجبني.. يتحدثـون هنا عن مجيء «هيريو». هل أبعث إليك بمقال تقـدمينه للنشر في «لوموند» أو «لي نـوفيل ليتيرير»؟ ما العمل للحصول على المال؟ هل أكتب إلى رونو بخصوص مكافأة المقال؟ عندما ينتهي كل ما لديك من نقود (وأخشى أن يحصل ذلك قريباً جداً) سوف أتجاوز انزعاجي وأراسله.

إلهي، كم أسعى إلى إخفاء القلق النـاجم عن صعوبات حياتنـا المادية! أتشجع، أشد على أسناني، ولا أنبس بكلمة. لكن فراقنا ينهكني.

٣١ أكتوبر ١٩٣٢ [4]

ألف شكر على الرسـالتين. لقد فرحت بهما كثيراً على الرغم مـن مضمونهما غير السارّ كثيراً. لكن الجوهري موجود: وجودنا في توافق وثيق[5] وما تبقى ظلال تمرّ ولا تلطخنا

(١) الناشر اليوناني الذي كلّف كازنتزاكي باعداد القاموس الفرنسي ـ اليوناني، وسلسلة كتب الأطفال.

(٢) تصرّف في بيت شعر لبول فاليري.

(٣) رسالة إلى ايليني ساميوس.

(٤) رسالة إلى ايليني ساميوس.

(٥) بالفرنسية في الأصل: (notre existence si unie)

بالسواد.

قرأت رسالــة «غراسيه» بهدوء. إنَّه على حق: «كتــاب زاخر ورؤيوي»[1] وخال من الزّنا. سوف أكاتب «ريدر».

تلقيت خبراً مـريعــاً من الإسكندريــة، أمس: تـوفي واحـد من أفضل أصـدقائي، هـو ج.بتريذيس، كان سليماً قوياً ورائعاً.. ما أبشــع هذه الحياة، وما أشد عبثيتها وهولها. بقيت، طيلة النهار، أرتجف سخطاً، والآن لا أستطيع الحديث عن ذلك..

لم أنتقل بعد إلى بيت روبيو، لأنه لا يريد أي مقابل. إنَّه فقير ولا يمكن التصرف بهذه الطريقـة. كيف أحصل على المال قبل وصولي إلى بــاريس؟ كيف أتوصل إلى المحــافظة على هدوئي مع هذه الحاجة البائسة؟

علم نيكوس بوجود شهود في أثينا مستعديــن للإثبات بأنه لا يجيد الفرنسية وأن ترجماته ليست جيدة، فكتب إلى بريفيلاكي.

مدريد أول نوفمبر ١٩٣٢

..هاهي ذي جهـودنا على الصعيد العملي تذهب أدراج الـرياح، اتحد الجميع من أجل افتراسنا. أحيانــاً يتملكني هاجس: أن أصعد إلى الجبل ولا أعود للنــزول منه أبداً. ليس لدينا ما نتقاسمه مع البشر، ولا نحتاج إلى ذلك، وهم لا يحتاجون إلينا، بل يحاصروننا ـ حتى الأفضل بينهم ـ بطرق عديدة، كـي يجعلونا نستسلم، كما لو كنا عينات أولى من نــوعٍ مستقبليّ، وحتى الظــروف الطبيعيــة المحيطــة بنــا، تعــادينــا؛ فـلا الهواء، ولا الطموحات، ولا الفكـر الإنساني، تشكل «مناخنا» وهـذه ليست رومنسية، ولا تمرداً ولا ضعفاً، ولا حتى قوة. أحس أنها شيء أعمق، وأكثر تصوفاً وعضوية. سوف نرى!

وكتب إلى صديقه الشاب رينو دي جوفنال:

..إنَّ القطبين المتضاديــن في الروح الإسبانيــة، «نادا» (لا شيء) والهوى، يمنحــانني المناخ القاسي الذي يلائمني؛ أتنفس هنا براحــة تامة. لو كان في استطاعتي لأقمت هنا في قشتالة، كما لو كنت «في بلادي» (الغريكو) أحب وضوح العِرْق الفرنسي وعقله الذي لا

---

(١) هكذا وصف الناشر غراسيه «تودا ـ رابا» ورفض نشره.

تشويه شائبة، وأُعجب بهما؛ لكنني أحس بالاختناق بعض الشيء، في ذلك الأفق المحدد. إن مواجهة «نـادا» هي ما أحبه، وما أجده هنـا، في التراب، والهواء، والطواحين الهوائية لسيدنا دون كيشوت(١)

(مدريد، بلا تاريخ)(٢)

لينوتشكا الحبيبة،

..المساعي هنـا تسير وفق حماسة ولا مبـالاة يتميز بهما الأسبان.. لأول مـرة تتلبد السماء، اليـوم، بالسحب، وينـزل الرذاذ. لكن هنـاك حرارة معتـدلة. منـاخ مدريـد من المناخات الأكثر جفافاً في العالم.

..أنا بدوري أفكر كثيراً في بريفيلاكي، هل سنبقى دائماً ميمّمين شطر «الأنانغي»(٣)؟ لقد بذلنا ما في وسعنا. ماذا نضيف كي نجلب الحظ؟ لم أعد قادراً على النوم، وبدأت أهزل من جديد.. الهموم تأكلني خفية. ماذا أفعل حتى لا أعود إلى اليونان؟ كم أتمنى أن أوافيك بخبر سارّ من هنا! أجبتُ «غراسيه» بأن عليه أن يعذرني على بقائي وفياً لأصلي.

ومن تـرياست كتبت ادويغ تخبره بأنها أصيبت بكسـور في الذراع، وتـلازم الفراش.

مدريد، ٦ نوفمبر ١٩٣٢(٤)

Amica cara(٥).. حدّثتني عن المصـادفة والفضيلة الشخصيـة ومختلف وجوه تداخلهما وانتظـامهما ـ تلك أشياء غـامضة لا أستطيع الإجابـة عنها بدقـة. ومن خلال حياتي الشخصيـة أعرف ما يلي: ثمة أمـر فظيع في الروح البشرية، رُمْحٌ من نـارٍ ونور، يخترق كثـافـة المادة والظلمات. وثمـة ضحكة صغيرة سـاخـرة واستفـزازيـة تخرج منتصرة دائماً من كل تجربة. لم أجد *السعادة* مطلقاً إلاّ في قمة اليأس الأكبر.

لماذا؟ لأنني ثابرتُ (مزمـوم الشفتين، ممتلىء القلب بالحقد على الموت) من أجل بلوغ القمة. وكـان كل شيء منظماً، حولي، ضـدي. وعندمـا رأيت كل هؤلاء الأعـداء، أحسست

---

(١) رسالة كتبها كازنتزاكي بالفرنسية.
(٢) رسالة إلى ايليني ساميوس.
(٣) الحاجة، الضرورة.
(٤) رسالة كتبها كازنتزاكي بالفرنسية
(٥) صديقتي العزيزة، بالايطالية «... حم»

بالاستعداد والنشاط والحقد والصمت ــ وأخيراً، بالنصر. ويحسبني أصدقائي سعيداً لأنهم يجهلون الصراعات التي سبقت النصر، لأنهم لا يعرفون أن سعادتي هي الزهرة الأسمى ليأسي وكراهيتي لكل الأشياء *الأرضية*. لست متمرداً رومنسياً، ولا متصوفاً يتنكر للحياة، ولا سفيهاً يصارع المادة. احب الحياة والأرض *والانسان* والحيوان والأشياء الزائلة. أدرك قيمتهم، وكذلك حدودهم. لا يخالجني أي وهم، ولم أسقط في أي فخ - مع المرور بكل الفخاخ - مثل جرذ مرن يدخل إلى الفخ ويلتهم الطُعم المُعدّ لاقتناصه - ثم ينطلق إلى فخاخ أخرى، مدركاً أنَّ الأخير - فخ الموت - ينتظره، وعندما يدخل إليه، لن يخرج أبداً.

صديقتي العزيزة.. الكلمات الخائنة تفرط في تبسيط كل شيء؛ لهذا أزدري الكلام دائماً. لكنك نبيهة وقادرة على فهم الهالة التي يصعب التعبير عنها، والمتموجة حول الكلمات. لهذا السبب أيضاً (وليس لإصابة ذراعك بكسور فقط) أحدّثك وأكشف لك قليلاً عن *سري*.

وفي الشهر نفسه، كتب إلى لِيَا، من مدريد أيضاً:

عزيزتي، العزيز لِيًّا،

أخيراً استلمت رسالتك الطيبة. كم مرة جبت الأرض من أجل مقابلتك! بحثت عنك مثل أعمى خلف الجبال والبحار. آه! أنت الآن في البلاد المقدسة التي لا أريد ولا أستطيع نسيانها. متى أرى محيّاك الجميل؟ أحياناً تبدو لي الأرض في منتهى الاتساع والرحابة، وأحس أنَّ روحي المتعددة قد دُمرت إلى الأبد. لكنني متأكد أن ضحكاتنا وأصواتنا سوف تدوي معاً من جديد، سعيدة برغم كل شيء.

أنا سعيد تقريباً.. وهذا يعني أنني لم أعد في حاجة إلى السعادة. أرى، أسمع، أفكر، أكتب شعراً جيداً، أتذكر، ألتهم الحياه الرائعة العميقة بنهم، كعادتي. وفي كل لحظة أودّع كل شيء. في كل لحظة أرى كل شيء لأول مرة. أدرك العذوبة جيداً وأحبها. أعرف الهوى جيداً وأحبه. كل شيء مقدس وأنا لا أشبع قط. لا ألعب كما تؤكد راحيل، بل أتقدم حتى حافة الهاوية، وهناك أدرك أنَّ كل شيء حكاية جنيات، بلا هدف، رائع وعجيب، يتجاوز أية غاية. وليست ايثاكا بالنسبة إلى عوليس، تلك الجزيرة الصغيرة، بل هي السفر إلى الجزيرة الصغيرة التي لا وجود لها.

..لا أعرف شيئاً عن حياتك، صدّقيني، أرجوك، أحبك كثيراً، وأنا صديق طيب. يقول

باناييت استراتي إني قوي؛ لست أدري. ما أعرفه هو قدرتي على أن أفرح وأتعذّب مع كل الذين أحب. لا أنسى شيئاً، وأحس بأنني وثيق الصلة ببضع أرواح أحبها.

توفي روبير فرانس وعاد ريدر بعرض جديد: طلب منّا أن نشتري مسبقاً خمسمائة نسخة من «تودا ـ رابا» (وهو الذي سينشره) بخمسة عشر فرنكاً للنسخة الواحدة. وهذا يتطلب سبعة آلاف وخمسمائة فرنك، وهو مبلغ لا نملكه. وهكذا تبخر أملنا مرة أخرى في طبع هذا الكتاب، في فرنسا، لدى ناشر كبير.

ومن حسن الحظ أنَّ المشاكل المالية لم تتسبب في نضوب قريحة الشاعر، ففي يوم ١٥ نوفمبر أخبرني نيكوس:

أكملتُ اليوم نشيد دانتي. ويتكون من مائة وسبعين بيتاً. أطول قليلاً مما كنت أرغب. سأرسل به إليك بعد بضعة أيام طالباً منك أن تطبعي منه خمس نسخ، وتقدمي نسخة إلى بريفيلاكي من أجل رحلته. ولسوء الحظ لا أستطيع حالياً أن أودّعه بهدية أخرى.

..سأذهب بعد قليل إلى «الأتينيو» وهناك سألتقي بعض الأصدقاء، وأقابل أونامُونُو.. جاء بوريبا في آخر لحظة واتفقنا.. إنَّه متفائل، كما أنَّ مدير السينما أبدى إعجابه بـ«دون كيشوت» وحدد موعداً لمناقشة الموضوع بعد.. خمسة عشر يوماً! وهكذا يمر الوقت ولا أدري إن كنت سأقدر على مواصلة العيش هنا..

مدريد ١٨ نوفمبر ١٩٣٢(١)

..ثمة امرأة مجدداً، تسعى إلى إيجاد وسيلة تمكننا من الاستقرار في مدريد.. الآمال ضعيفة لكنني أفعل ما أستطيع.

شاهدت البارحة Mädchen in Uniform. إنه أجمل فيلم في حياتي. رائع الإخراج والسيناريو. بسيط، عميق، لاذع، إنساني، رصين، مؤثر.. توقفت الآن عن أكل الفواكه واقتناء الكتب. وعندما أسكن عند روبيو سوف أتوقف عن الأكل أيضاً. أعرف أنَّ النجاح هنا يتطلب الصبر والمكابدة.

الأحد، منتصف الليل(٢)

..غادرت ماري غرفتي منذ قليل. كانت مرتاحة، نضرة، مبتهجة. سلمتني رسالتك

---

(١) و(٢) رسالة إلى ايليني ساميوس.

وفرحت كثيراً لرسالة غاندي(١). فليصدر أخيراً! فرحت أيضاً بإكمال بريفيلاكي امتحاناته. كان ذلك يقلقني كثيراً.

بلازا دل بروغريسو (٢)

حاشية؛ انتقلت إلى الغرفة الجديدة، وهي واسعة ومشمسة.. استلمت للتوّ رسالة من أنغيلاكي تجدينها طي الرسالة. قال إننا ربحنا قضية الكتب(٣).. هذا جيد، برغم انه لن يساعدنا مالياً حتى الآن.. وحتى عندما نستلم النقود، لن تكون هناك قيمة للدراخما. إنه مكسب معنوي..

٣ ديسمبر، مساءً(٤)

..أدركت من خلال أغنية شعبية سمعتها أول أمس أنني عشت حياتي سدى. ولو عدت إلى هذه الأرض لاخترتُ، بالتأكيد، طريقاً آخر. لكنني لا أتمنى العودة إليها. عندما أشم رائحة التربة المبلولة، ينقبض قلبي وتملأني العودة إلى حضن الأرض بفرح مرّ. أتذكر أنني التفتّ، عند منعطف الشارع، أثناء توجهي إلى الميناء، ورأيت أمي ـ لآخر مرة ـ واقفة على العتبة تبكي. وهي الآن موجودة في الضفة الأخرى وتناديني. ولم تعد الأرض تزدريني. لا يمر يوم من دون أن تتملكني هذه الرؤيا، ولا تمر ليلة من دون رؤية أمي في الحلم. لقد اكتسب الجحيم تألقاً غير معهود، وأعتقد أنك الوحيدة القادرة على استبقائي في هذه الأرض.

ليس ذلك ما أريد التحدث عنه.. أحتاج إلى «الأوديسة» أكثر من أي وقت مضى، كي أمنع قلبي من التفتّت, إنها تشبه الخمرة التي تزوّد بالنسيان. لكنني لم أتوصل إلى الانتشاء وفقدان الذاكرة مطلقاً.

مدريد، ٨ديسمبر(٥)

حلمت الليلة الماضية بأنني أتحدث عنك إلى شخص آخر، ولم أتذكر بعد استيقاظي سوى هذه الجملة: «ايليني عندما تكون بجانبي تغمرني بالنور، أما الأخرى (لا أدري من هي) فتلقي بي في الظلام» فرحت لأن ذلك صحيح.

---

(١) راسلني غاندي بخصوص موضوع كتابي.

(٢) ساحة التقدم. رسالة إلى ايليني ساميوس.

(٣) الكتب التي ترجمها أو اقتبسها كازنتزاكي ورفض الناشر اليوناني دفع مكافآتها.

(٤) و(٥) رسالة إلى ايليني ساميوس.

على هذه الـورقة تجدين التصـويبات الضرورية التي طلبتها مني. بعض المقـاطع أعجبتني كثيراً، وكذلك الخاتمة الهادئة. صحححي وسوف نرى فيما بعد.

..أول أمس كان يوم عيدي[1] فقررت الذهاب إلى المطعم، ما ألذّ الأكل الساخن! أتناول عادة، وجبتين في المطعم أسبوعيـاً، والبقية في البيت: شاي، كاكـاو، زبدة، زيتون طيب، سردين مملح، وفواكـه.. وهكذا سمنتُ. ولم يعـد جسدي مـرهقاً[2] كما في الفندق. فـلا تقلقي. ذلك أنني أنفق أقل، وآكل أفضل..

قرأ بوريبا «ليديو» على مدير المسرح لكنـه وجد المسرحية غامضة.. وهو أكثر تفاؤلاً بالنسبـة لـ «دون كيشوت». لا شك أن «ليـديو» ستحقق نجاحـاً كبيراً إذا تمت الموافقة على عرضها. تذكري «توبار»[3].

«كالاندريا»، «دون كيشـوت»، «ديكامرون» بوكاتشي، مانـدراغوري (ليُيُو ـ ليديـا) لمكيافلي، «كسوف الشمس»، كـرسي تدريس اللغـة اليونانيـة الجديدة في جامعة مـدريد، والجائزة الأدبية التي كانت ستتوج كتابي عن «غـاندي»، عرض ريدر الجديد لنشر «تودا ـ رابا»، «نيسافور فـوكاس» الذي أراد جوفينال عرضه على بيتوف، كلها آمال، انهارت مثل قصر من ورق.

لـو كنتُ مع رفيق درب، آخر، لَلَعَنْتُ يـوم ميـلادي. غير أن نيكوس الـذي لا يـرقص مثل زوربا، كـان يتمتع في أحرج الأوقـات، برد فعل غير متـوقع، فيمط شفتيه اشمئـزازاً، أو ينطق بكلمات مؤثرة، أو يتحـول إلى «خيميائي» منكبّ على تحويل المعادن الخسيسـة إلى ذهب، فتتقبّله فـرحاً بمتـابعة الصعـود في الدرب العسير. عندئذ يصرخ «مبارك هو العائق» منتشياً بتعاقب المصائب، «مباركة هي المحنة التي تمكننا من محاكمة روحنا، والحكم بأنها تتمتع بالجدارة!».

ومع ذلك كان يعرف بـدوره، لحظات حزن عميق؛ كتب لي بعد موت عـزيزته الكونتيسة أنريشيتا بوتشي:

الموت يطوّقني من كل جانب، ما من يوم، أو ليلة تمر من دون أن تظل روحي خرساء،

---

(١) «عيد الاسم» الذي يصادق عيد قديس يحمل الاسم نفسه. وهنا القديس نيقولا «المترجم».

(٢) إرهاق الإفراط في الأكل!

(٣) «توبار» مسرحية لمارسيل بانيول عرضت في مسارح كثيرة قبل الاعتراف بها.

مُسَمَّرة على الموت الأول الذي ضربني في مارس، وشق قلبي[1]

لقد ظل القبطان ميخاليس وحيداً، يصرف وقته في إطعام الطيور واحتساء العرق، وكان يجلس في مكانه المفضل، أمام النافذة، ويقطع الخبز قطعاً صغيرة، يضعها على منديل فوق ركبتيه.

وتقلق أنستازيا. ذلك أنَّ والدها لا يكاد يأكل. ويكتفي بارتشاف بطيء لعرقه، بحركات رتيبة، ولا يدرك أحدٌ ما نوع الأفكار التي تدور في رأسه.

لقد راهنت انستازيا على تعلقه بأحفاده فحاولت إقناعه بالإقامة في بيتها. وكانت حفيدته كليُو، الأثيرة لديه، هي الوحيدة القادرة على إخراجه من صمته المطبق. وحكت لي، ذات مرة، بتأثر شديد:

«يكنّ لي جدي مودة خاصة. عندما أذهب إليه أجد دائماً الفواكه وخبز «الفرانزولا»[2] الذي أحبه، كما أجد صابونة معطرة على صندوق الخزنة.

– وبعد ذلك؟

– بعد ذلك رفض الإقامة معنا، وفضّل العزلة والطيور والعرق.»

ولا تشبه أيام القبطان ميخاليس الأخيرة، أيام بطل «الحرية أو الموت» في شيء. ذلك أنَّ القبطان ميخاليس الحقيقي، مات على فراشه، في غبطة كثيراً ما تحدث عنها الأطباء. ففي أيامه الأخيرة صار يتهيأ له أنه يرى ابنه الذي مات صغيراً أثناء ليلة هروب من الأتراك. فهل أفرطت ماريغو، بسبب الذعر، في إعطاء يورغاكي الصغير مغلي الأعشاب *المنوّمة* الذي كان يقدم للأطفال الرّضع حتى لا يبكوا ويجلبوا بنادق الأتراك؟ ذلك ما تتهامس به العائلة من دون أن يؤكده أحد.

وهاهوذا قارون يأتي الآن، كي يأخذ القبطان ميخاليس أيضاً. نادى القبطان ميخاليس ابنته: «انستازيا، اجلبي كراسي، مزيداً من الكراسي! ألا ترين؟ لقد جاء

(١) إشارة إلى موت أمه.

(٢) خبز على الطريقة الفرنسية.

الأقارب والأصدقاء ليسلموا على ابني يورغاكي العائد..» ثم يخاطب شبح ابنه الميت: «مرحبـــاااا.. مرحبـــاااا!» متمتماً بفرح لا يوصف.

وفي مدريد صعق نيكوس بالخبر. ولكـي لا يسقط بدوره في العدم، فقد اختار الهروب. ولم يقدر على مـراسلتي خلال الأيام الأولى. فقلقتِ كثيراً. وكـان يعرف ذلك. فكتب معتذراً عن صمته:

بالادوليد، ٢٧ ديسمبر ١٩٣٢[١]

حبيبتي لينوتشكا

أكتب إليك من بالادوليد. أجوب شمال اسبانيا آملاً إرهاق جسدي. أول أمس كنت في سالامنْك، وغداً سأذهب إلى بـورغوس، وبعد غد، إلى سرقـوسة، وبعد ذلك.. لست أدري. أشاهد بشراً آخرين، كاتدرائيـات، متاحف، تماثيل للمسيح، لوحات، ولا أكاد آكل. وآمل أن أُرهق كما ينبغي، خلال الأيام القادمة، لأن ذلك يـلائمني. افكر فيك كل لحظة، لم يعد يوجد أحـد في العالم. متى نلتقي؟ أعرف أنني سأجـد رسالة منك حالما أعـود إلى مدريد، وهـذا أمر مفـرح. كل ما أشـاهده حـالياً في منتهى الجمال، لكن روحي كتيمـة[٢]، وغير منفذة، أميّز الأشياء بصعوبة، وفمي مملوء بالرماد.

ميرندا، قرب البيرينيه، ٢٩ ديسمبر[٣]

غادرتُ بـورغوس في الرابعة والنصف، ويتـوجّب عليّ انتظار قطار سرقوســة ثلاث ساعات، هنـا. كاتدرائية بورغـوس قلعة حقيقية، ذات اندفـاع وروح حربية. لا تتحلّى بنُبْل نوتـردام لكنها ذكورية، متـوحشة، عدوانية، وقـد أعجبتني. أعجبني كذلك قصر قديم ورائع يعـود إلى القرن الخـامس عشر. وفيـه استقبل الملوك كـريستوف كـولمبوس لدى عـودته من أمريكـا، وهو أقرب إلى بيت اقطـاعي قديم في منتهى البساطـة والقيمة. أضع واقي الرقبة الصوفي الذي أعطيتني إياه ويجمع بين الرمادي والأحمر والأزرق، ولا أشعر بالبرد بتـاتاً. ربما أنزل، بعد سرقـوسة، إلى اليكانتي.. لم يُرهـق جسدي بعد كما أريد، وكما ينبغي. لم يسبق لي التفكير فيك بمثل هذا الحب والحماســة. لم يعد يفرحني شيء غير رؤيتك.

---

(١) رسالة إلى ايليني ساميوس.

(٢) بالفرنسية في الأصل Opabue.

(٣) رسالة إلى ايليني ساميوس.

سَرَقُوسَة ٣٠ديسمبر(١)

برد قارس، أجوب الشوارع جيئة وذهاباً، بلا هدف، المدينة رائعة على النهر، لكنها لا تهمني. كاتدرائيتها الشهيرة، ضخمة غير متناسقة، وسخيفة. وتمثال معجزة العذراء المكسوة بالذهب، محاط بالشموع، والقناديل، والقساوسة، والنساء. أولئك النسوة يتعبّدن لآثار قدميها على الرخام ويبكين بجانب طبق القرابين الفارغ. ومن بين كل الناس الذين رأيتهم يدخلون ويخرجون ويصلون (نساء كثيرات يمددن أذرعهن مثل المصلوبات، طيلة ساعات) هناك رجل واحد بدا لي مؤمناً حقاً: فلاح دسّ يده في جيبه، وأخرج منه فلسين ثم وضعهما في الطبق.

شاهدت أزقة ضيقة، كما في نابولي، غسيلاً على السطوح، فتيات بشعات مع شرائط على شعورهن، حشوداً من القساوسة والشحاذين، أسواقاً على الأرصفة. شاهدت كل ذلك مراراً، لكن قلبي ظل متحجراً..

سَرَقوسة، ليلة ٣٠ديسمبر(٢)

تلقيت للتوّ خبراً مفرحاً بعض الشيء.. خصصت لي وزارة الخارجية الإسبانية مبلغ أربعمائة بيزيتا شهرياً حتى أكتب مقالات عن الحركة الفكرية في إسبانيا.. لا شك أن مبلغ أربعمائة بيزيتا ليس كبيراً لكنه كافٍ للعيش في مدريد وسوف يمكننا من التجول في إسبانيا خلال فصل الربيع.. أنا سعيد لأنك سوف تتمكنين من مشاهدة الغريكو وطليطلة ومدريد والاسكوريال.. فليشرق النور أخيراً! ولتغربْ سنة ١٩٣٢ من دون أن تتكرر! ولنتمكن من العيش معاً، بعيداً عن اليونان!

وفي حين كان نيكوس يتلقى ذلك العرض «المفرح بعض الشيء» في مدريد، عُرِض عليّ في باريس الذهاب إلى إنجلترا لتعلم اللغة الإنجليزية، مع وعد بالعمل حال رجوعي بعد بضعة أشهر من التدريب. تقاطعت رسالتانا. وكثيراً ماكنا نطلب من الله أمراً فيهبنا الكثير. ولعلّه يتسلى بارتباكنا في الاختيار.

وطلب مني انغيلاكي الذي عمل محامياً لنا، أن أحضر إلى اليونان كي.. أحسب بدقة عدد الكلمات في كل مخطوطة من مخطوطات كازنتزاكي!

---

(١) و(٢) رسالة إلى ايليني ساميوس.

مدريد، الأربعاء، منتصف الليل[1]

٥ يناير ١٩٣٣

١٩٣٣. حبيبتي، عدت لتوّي من السفر ووجـدت رسائلك، وكذلك البرقية. لا ينبغي، طبعاً، إضـاعة فـرصة الـذهاب إلى إنجلترا وتعلّم الإنجليـزية. أقول لك ذلـك بكل هدوء و إقتناع.

سوف أرى غـداً ما يتـوجب عليّ عمله بـالنسبة لما كُلفت بـه، هنا. أنـا الآن آسف على قبولـه. لكنني فعلت ذلك كي أتفادى اليونـان. سوف نرى. ربما انفتحت أمامنـا طريق أخـرى. أية طـريق؟ عملي الوحيـد هـو ألا أرى أحداً، وألا أعيش بين البشر. كل اتصـال مضنٍ ـ وأسوأ ـ إنه غير مجدٍ.

أواه ياقلبي اتبع دربك، مثل الكركدنّ[2]!

..اعذريني على التأخر في الكتابة. كـان الألم لا يطاق.. كما لو أن نصف جسدي سقط في هاوية، كما لو غـاص نصفي في الأرض، قبل دنوّ ساعتي. لذلك فضلت الهروب. جبتُ مسافة ألفي كيلـومتر من دون أن أتوقف تقريباً، مع أكل ونـوم قليلين جداً، وكوابيس لا تنتهي. حاولت إلهاء روحي حتى لا تعوي، و إرهـاق جسدي حتى أدجنه. وبالأمس، في أليكانني أحسست بـالانفراج لأول مـرة، قرب البحـر وتحت الشمس. والآن عاد الهدوء. وما أريده هـو عدم رؤية أحد، وعدم التكلم عِـدّة أعوام، والجلوس على الأرض، إذا أمكن، قبـالة البحـر، وتأمل الصحراء. لكـن أين وكيف؟ كيف أهرب من النـاس؟ كيف أصير لا مرئياً؟ الوقت حرج وليس لديّ متسع من الوقت أضيعه في التفاهات. لقد بدأت الجذور، كما ترين، تشدني نحو الأرض.

لدى عودتي، وجدت، هنا، بطاقة من بانابيت. وهأنذا أنسخها لك:

«ديـر نمتز، كاربات مولدافيا، ٥ ديسمبر ١٩٣٢. عزيزي نيكوس، ماهي أخبارك؟ أنا قلق عليك، مريض جداً ولا أستطيع نسيان وجهك المتفرد! إذا كنت لاتزال غاضباً، سامحْ، وخبّرني بأنك مازلت حياً. صديقك بانابيت».

سوف أكتب إليه هذه الأيام.

---

(١) رسالة إلى ايليني ساميوس.

(٢) بالفرنسية في الأصل .

غداً صباحاً أضع هذه الرسالة في البريد.. لم يصبني شيء. هذا الجسد لا يتصدع، ماذا ينبغي أن يحدث له كي يتهشم؟ حالتي حسنة. لم أضعف، ولم أشعر حتى بالتعب، على الرغم من مختلف أنواع الحرمان التي تكبدتها عمداً. من المؤكد أنَّ جسدي سوف يتحطم ذات يوم، بشكل مفاجىء. سوف نرى. بدأت أنتظر ذلك ببعض التلهف. أنتِ الجذر الوحيد الذي يحافظ عليّ واقفاً.

٥ يناير ١٩٣٣(١)

حبيبتي. كنت خارجاً لوضع هذه الرسالة في البريد عندما تلقيت رسالتك الرابعة.. عزيزتي لينوتشكا، أفهم ما تقولين لي، لكنني لا أستطيع، لا أستطيع.. صوت صارم في داخلي يمنعني من العودة إلى كريت للتأكد من الميراث الذي تركه لي والدي. كيف أفسر الأمر، مادام خارج أي منطق. أشعر بالخزي من إنجاز هذه الخطوة. أشعر بالخزي ولا أريد.. هيلينا(٢) لديها الكثير من الأقارب الأوفياء وسوف يحمونها.. لعلنا نجد شيئاً ما، بالنسبة إليّ، أنا أيضاً، في إنجلترا ـ مثل تدريس اليونانية القديمة أو الجديدة في بعض المعاهد، الخ... وربما وجدنا، هنا، شيئاً دائماً لكلينا..

حالياً لا نستطيع العيش في باريس. ومن يدري؟ ربما، فيما بعد، لأنه يتوجب الاستقرار في النهاية.

هنا، كان يتوجب عليّ التوقف.

كانت هذه الرسالة مثيرة إلى درجة أنني أجّلت إتلافها باستمرار. وعندما عدت إلى قراءتها بعد عشرين عاماً، شعرت بأنني في حلٍ من الأمنية التي تعبّر عنها، والتي اعترف بها نيكوس في «تقرير إلى غريكو» وتُسلِّط عليها هذه الرسالة ضوءاً أسطع:

مدريد ٥ يناير، مساءً(٣)

.. تأثري بموت أبي يصعب وصفه. لم أحدّث أحداً بذلك، حتى روبيو، وأجبرتُ نفسي على الاحتفاظ بالهدوء، الأمر الذي زاد في إنهاكي. لم أستطع الحؤول دون انفجار روحي إلاّ بالصمت، والهروب، والتطواف كما فعلت، عبر اسبانيا، والصوم، كما فعلت، مطولاً.

---

(١) رسالة إلى ايليني ساميوس.

(٢) شقيقته الصغرى.

(٣) رسالة إلى ايليني ساميوس.

أكرر لكِ، ليس الحب هو ما يربطني بـوالدي، بل هو جذر كبير، سميك وعميق، وقد قُطع الآن. ترنحـت الشجرة كلهـا. وسوف تكون لهذه الـواقعة عـواقب وخيمـة على حياتي. والآن، وأنا أشعر بعودة الهدوء، أرى تلك العواقب تلوح الواحدة تلو الأخرى. ويأتي في مقدمتهـا ذلك الشعور *بالتحرر*. كـان هنـاك كابـوس يخيم على حيـاتي، والآن بـدأت أتنفس.. وأسترجع قواي، وأعلن استقلاليتي، حريتي الذاتية. وأفعل ما أريد من دون أن يحاسبني، في داخلي، أحـد. أحسبني الآن نِسْراً كـاسراً تحرر من قيـوده. وتـلاشى الظل الذي كان فـوقي، هبط وغاص في التراب.. الآن وقد غاب الـذي أتى بي إلى العالم، أولد في العالم.

هـذه الكلمات شنيعة، وأقـولها لكِ وحـدك، لأنك أحسستِ بذلك منـذ أعـوام عديـدة عشناها معاً، وأتمنى أن تحرقي هذه الرسالة، أرجوك، حتى لا تبقى شاهدة، فما من أحد يستطيع فهم هـذه العقدة كما أحـس بها حقاً. لقـد تعـزيت، وتحررت، وسوف تتقـوى روحي. لم أعد أخشى شيئـاً، أو أحداً. وهذا التحـرر زعزعني ومزقني، كـان الألم الناجم عن موت أمي مطبوعاً بالمرارة العاطفيـة، شكوى طفل مهجور في العتمة، وقد أفلتت يده من الكف الأمومي الحبيب. أما خسارة الأب فهي عـزاء ممزِّق: حرية، تنفس عفوي، مثل رضيع يولد وتؤلمه رئتاه، إذْ تتمددان من أجل التنفس.

..يستحيل الكلام، كنت قـادراً على الصراخ فقط، لكنني لم أشأ ذلك. سامحيني لأنني أتعبتك. لكنني لن أشعـر في المستقبل بمثل هذا الـزلزال الـذي يغلق فمي. أكتب إليك كل شيء، لكنـه لا شيء، ولا يعني شيئاً، غير أنك سـوف تفهمين مـا لا يُقال، وتضفين عليـه المضمون الذي ينقصه..

لا أجد أي مبرر للعودة إلى كريت، كما أسلفت القول إليك.. كان ينبغي أن أكون هناك قبل النهايـة المشئومة، وحتى في ذلك الوقـت، لدي قناعة بأن تلك العـودة غير مجدية.. و إذا لم يتم العثور على بعض الأموال، فمعنى ذلك أنها مدفونة في مكان ما، تحت الأرض. ذلك مـا فعله والـدي، ذات مـرة عنـدما مـرض مـرضاً خطيراً، ثـم عاد إلى نبش الأمـوال المردومة. ولا شك أنَّه فعل الأمر نفسه حالياً. إنها غريزة كهفية مظلمة، بصرف النظر عن هوسه الـدائم بالتأكد من أن أبناءه لن يستفيدوا بعـد موته، ولن يفرحوا بمـوته. غرائز غول ضاربة في القِدَم.

وكتب في اليوم نفسه إلى ب. بريفيلاكي:

..لو لم توجد ايليني لاتخذت القرار الحاسم: لا حـاجة بي للمدن والأحاديث. عزلة،

عزلة وصفاء!

وجدت مساء البارحة رسالتيك. تزعزعتُ بسبب أثينا، وأنا أقرأ الرسالتين، قرفاً وفرحاً أيضاً بوجودنا وحيدين، مجهولين. وما نسعى إليه، يبدو للجميع لا عقلانياً وعتيقاً.. لأنه خالد.

اعذرني على عدم اتباع نصيحتك. ما قلته لي صحيح، عقلاني وضروري. غير أن صوتاً داخلياً يزمجر ويستوقفني. وأحياناً أنصت إلى هذا الصوت المزمجر برغم لا عقلانيته ومطالبته لي بأشياء، ربما تكون فوق طاقتي، إذ يريد جعل حياتي لا تطاق، ممتلئة بالقلق، والارتياب.. وجعلها في الوقت ذاته بطولية أكثر. أقول بطولية لأنني لا أجد كلمة أخرى. ربما كانت كلمة «الصفاء» أو «الكبرياء» أدق بكثير. هنا، وفي هذا الظرف قد تزداد الزمجرة نمواً بسبب ازدرائي لذاتي، لو أنني هرعت إلى قبر أبي، ليس من أجل تناول حفنة تراب وذرها على رأسي، بل من أجل فتح خزنتِه ورؤية ما تحتويه. أدرك كل البراهين التي تمنعني من التصرف على ذلك المنوال. إن العظمة اللامرئية للإنسان الذي يسمو بنفسه فوق تلك البراهين، تشير عليّ بألا أفعل.

(مدريد) ١٠ يناير ١٩٣٣[١]

حبيبتي

قصتك أعجبتني كثيراً، برصانتها ومرارتها.. وهذه القصة ليست عملاً أدبياً فحسب، بل أكثر من ذلك، إنها وثيقة إنسانية، وهذا سبب إعجابي بها.

وكما كتبت لك بالأمس، مازلت ألحّ وأعتبر أنه من الضروري أن تذهبي إلى انجلترا.. إن الفراق يحزنني ويرهقني؛ فليكن الأخير! وإذا لم ترتاحي في إنجلترا تستطيعي العودة آنئذٍ، والمجيء إلى هنا. آمل أن أنجح في الاستقرار بشكل مريح. كل شيء يتوقف على إيجاد صحيفة في أثينا، مستعدة لنشر مقالاتي عن إسبانيا، لقد راسلت في هذا الشأن كلاً من «الفيتيروس لوغوس» و«كيكلوس».

..إن يوم سفرك يقترب وأنا أراسلك بكثرة حتى تسافري من دون أي تردد. يحزنني طول غيابك لكن من المفيد أن تتعلمي الإنجليزية وتطّلعي على أشياء جميلة (لندن، المتحف البريطاني، الخ..) تخلصك من حياتك المتعبة في باريس. فرحت بما قلته عن بريفيلاكي. أتمنى أن يتجاوزني، تلك هي الوسيلة الوحيدة لنبلغ الخلاص معاً.

(١) رسالة إلى ايليني ساميوس.

حبيبتي تخلصي من كل القلق السابق. إن سنة ١٩٣٣ سوف تكون أفضل.. شجاعة، هدوء، إيمان، وفرح بوجودنا معاً وبهذا القدر من الاتحاد.

مدريد، ٢٧ يناير ١٩٣٣[١]

إلى قديس جورج انجلترا،

أخيراً استلمت رسالتك وقفز قلبي. تأملت طابع البريد الانجليزي مطولاً وفكرت أننا مجانين بسبب طريقة عيشنا مثل السيّاح. من دون نقود، لكننا نتمكن من مشاهدة بلدان جديدة بإقدام لا يصدقه أحد، حتى أن الجميع سوف يقولون بأننا نحصل على أموال من جهة ما، تُيسر لنا السفر.. ونحن وحدنا نعرف، منذ أعوام، بأن تلك الجهة هي الروح. Time is Soul! [٢]، ولا شيء آخر. لم أحلم قط برفيق أكثر اقداماً منكِ! هناك كلمة واحدة يمكن أن تعبّر بدقة عن نوعية إيقاعنا: Ortsa [٣]، إننا لا نخشى شيئاً. ولا يعود السبب في ذلك إلى عمق صلتنا فحسب، بل إلى نوعية طبيعتينا أيضاً، حتى قبل أن نلتقي. أنا شخصياً، ولاسيما بعد موت والدي، أشعر بحرية وجرأة لم أكن أتوقعهما. وعندما تصلني رسالة لتبلغني - وهذا يحدث كثيراً - بوجود محنة جديدة، أبتسم بازدراء للقدر المعادي وأقول: «لن تُصيبيني!».

هكذا أفكر فيك، بعيدة جداً - تبدو لي انجلترا في نهاية العالم لأنني لا أعرفها - وأتمنى لو تتمكن الروح من تأكيد حضورها حتى عن بعد. عندئذ ترينني بقربك، جالساً أمام المدفأة الإنجليزية، صامتاً، هادىء البال، باسطاً يديّ باتجاه النار، مبتسماً لك. ليكن الله معك، ياحبيبتي، خلال أيام الفراق الصعبة.

هنا، الطقس بارد جداً، والثلج ينزل بكثرة، أول أمس كانت مدريد بيضاء بكاملها. وفي الأثناء ألازم غرفتي، وأسجل بعض الملاحظات حول المقالات التي سأكتبها عن إسبانيا، أطالع، وأترجم الشعر الإسباني المعاصر. ولقد أرسلت بما ترجمته من شعر خيمينيث إلى صحيفة «كيكوس» لأنها وافقت على أن أراسلها بما أستطيع وأريد، كل شهر. وهكذا أتمكن من سداد بعض ما يتوجب عليّ.

---

(١) رسالة الى ايليني ساديـ...

(٢) «الوقت من روح» معـ رضة للمثل المعروف Time is money.

(٣) «إلى الأمام!».

وستنشر كيكلوس أنـاشيد دانتي الثلاثة. سـوف أبعث لها بنشيدي[1] أيضاً، الذي تحمس له بـريفيلاكي، ولست أدري إذا كان محقـاً. أفكر في كتابة نشيـد آخر، لأنشره في نهاية ترجمتي «للكوميديا الإلهية»، ويتحدث عن انبعاث دانتي.. وعندما ينضج سوف أكتبه في بضعة أيام. الوقت! الوقت! آه لو كـان الوقت كله ملكي، تسعة أشهر من العزلة معك، وثلاثة أشهر في السفر السريع بصحبتك!

كيف أعيش هنـا؟ حتى أنـا لا أعـرف. إنها معجـزة حقيقية: تكـاثـر أرغفـة المسيح الخمسة.. كتب لي بـانـاييت رسـائل مطولـة: هو الآن في ديـر، ملازمـاً فراش المرض، ولا يستطيع الكـلام، ولا المشي. زوجته جميلة جـداً، وتبلغ من العمر اثنتين وعشريـن سنة (طـالبـة كيمياء).. وصـف لي، بمنتهى الانفعال والحيـويـة، سلـوك بيليلي.. لكن كيف أصدّق؟ نحن نعرف بانابيت جيداً. وأخيراً عرض عليّ أن نؤلف كتاباً معاً، ليسلمه إلى دار «غراسيه» للنشر، فنستلم عشرة آلاف فرنك، فوراً.. ثم نفكـر في سفر جديد.. إنَّه مجنون حقاً. لكنه لم يختلف عن باناييت ذي الأرواح السبع، الدافئ، الممتلئ بالحياة.

(مدريد) أول فبراير ١٩٣٣[2]

..استلمت رسالـة متحمسة من صحيفـة «كاثيميريني» تطلب مني أن أرسـل كل ما أريد من مقالات.

قابلت اليوم وزير التربيـة القومية، وهو شخص في غاية اللطف. وسـوف أقابل هذه الأيام، شخصيات عـديدة. سوف أصير متخصصاً في الاسبانيـة، لكثرة ما أعمل. لا أرى سوى روبيـو. مامن خطـر إذا ارتبطت ببعض العلاقـات، لا تقلقي فأنت آخر فـرحة في حياتي. Schluss- Fin بعد ذلك ـ الموت.

مدريد، ٧ فبراير[3]

كتب لي بريفيـلاكي يائساً، ويقول لي إنـه يختنق في اليونان، يريـد السفر، ولا يدري كيف؟ يشتغل على كتابة «الغريكو» ويشعر ببعض الراحة من ذلك.

لا جديد من كـريت. لكن الجرائد تحدثت عن بعض مآثر الشجاعة عنـد والدي، وإننا أجهلها. وقد يؤلف أحـدهم كتاباً كي يمجّد بطولته. أما أنا فـلا أعرف الكثير عنه لأنه لم يكن يتكلم كثيراً. وهناك بعض المسنين في كاندي مازالوا يتذكرون ويحكون.

---

(١) نشيد كتبه كازنتزاكي عن دانتي.

(٢) و(٣) رسالة إلى ابليني ساميوس.

لم أتلق شيئاً من بانـاييت منذ أيام عديـدة. بعثت إليه برسالة حـارة. وقلت له انه يستحيل علينا أن نـؤلف كتابـاً مشتركاً عن الاتحاد السوفيـاتي، وربما فكرنـا في كتاب آخر، يتناول محاوراتنا، على سبيل المثال. سوف أكتب إليـك حالما أستلم رسالة منه. أنا أيضاً أشفق لحالته وأتمنى أن أراه مرة أخرى.

وخوفاً من حدوث الأسوأ فقد أكثر نيكوس من رسائله إلى باناييت، مخفياً قلقه ضمن نبرة مازحة:

مدريد، ٨ فبراير ١٩٣٣

عزيزي بَانَايْتَاكي[١]

عندما كـان الزاهد المسلم الكبير أبوالحسن راكعاً يصلي إلى الله، سمع صـوتاً يقول: «يـاأبـا الحسن، ياأبا الحسن، لو كشفت للنـاس كل ما أعرفـه عنك، لرجموك حتى القتل بالحجارة!» فأجـاب أبوالحسن: «أي، إلٰهي! حذار! لو كشفت للنـاس كل ما أعرف عنك، فالـويل لك!» عندئذ سُمع صـوت الإلٰه: «هـه، هه! ياحبيبي أبـا الحسن! احتفظ بسرك وسوف أحتفظ بسري، ياأخي!»

يعود هـذا الحوار إلى ذهني كلما فكـرت في حياتنـا، وكلماتنا، وأفعـالنا، وفي لقـائنا، وذلك الهوس بـروسيـا، فأضحك سعيـداً، بعينين تبرقـان طيبـةً ومكشراً مثل غُـولِك «كوسماس» الـذي أحبه. يقيناً بعـد نحو ثلاثين عـاماً (كتبت «عشرين» ثم أدركت أنها قليلة جـداً).. عندما نقـرر مغادرة مكاننـا في الأرض، سوف نَجِدُنـا ـ هزيلين، مـاكرين، ثـرثارين جـداً (شيخين) بلحيتين بيضـاوين طـويلتين ـ في مقهى شرقـي، أنت مدخنـاً نارجيلتك، وأنا، غليوني، وسوف نحاور ـ بكلمات أبي الحسن وضحكة كوسماس ـ ذلك الإلٰه ـــ سرَابَنَا الشرقي، أوّاه! مـا أجمل الحياة وما أقصرهـا، ما أجحدهـا وأحلاهـا، وما أجدرها بنا، ياأبا الحسن ـ باناياتاكي! كلا لن تذهب قبلي، سوف ندخل إلى الكواليس معاً ـ كما في تلك الليلـة المشهودة في باكو، عنـدما قفزنا إلى المسرح متخـاصرين، ثم وثبنا إلى الكـواليس كي نتفـرج عن قـرب، ونلمـس بأصـابعنـا الخبيرة تلك المعجـزة الخارقـة والبسيطة في آن واحد، تلك الفتاة التي كانت تـرقص مكسوة بالذهب مثل مطران: زهرة *البترول*. سـوف نفعل الأمر ذاتــه، ونثب إلى الأرض كي نجسَّ هـذه الـراقصة العجيبـة بدورها، والتي أغرتنا كثيراً على المسرح ـ الحياة، الغانية الصغيرة.

---

(١) صيغة تصغير باللغة اليونانية. وكانت تروق لباناييت.

هل مازلت تذكر بن يهودا؟

الطبيب: «لم يبق لك من العيش سوى شهرين!»

بن يهودا: «أنا؟ ولكنني لا أستطيع أن أموت، لديّ فكرة كبيرة»

أما أنتَ، يـاباناياتـاكي، فلديك شيء أكبر: أنت فكـرة كبيرة، طبعاً ولحسن الحظ، من دون أن تدرك ذلك، آه، أيها الجاهل الكبير! أنـا واثق بك، ولا أخافك. سـوف أموت في سن الثـالثـة والثمانين، خلال شهـر مـارس؟ تعـال معي إذا أردت، فنهـر الفولغـا الأسـود ينتظرنا.

كم سأكون سعـداً برؤيتك في مـدريد! لن آخـذك إلى المتاحف ـ اطمئـن. بل إلى أماكن صغيرة في هذه المدينة نصـف الأفريقية، لترى اسبانيـات صغيرات بخصلات شعر على الصدغين وهزّات خصر قاتلة، ولديّ أشياء شيطانية كثيرة تحب سماعها.. رأسي الأسود يعجّ بأشياء جميلة وسوف أعطيك إيّاها، كلها. لكن رومانيا بعيدة جداً، وديرك حصين، وزوجتك تسهر عليك، فإذا استيقظت في منتصف الليل كي تهرب، تمسك بك من قميصك، أواه يـادون كيشوت الجديـد، رفيقتك دولشينا هـذه، واقعية جـداً، وسوف تعيـدك إلى الطريق السويّ ـ فراشك.

أفكر بقضاء الصيف في أحد الشـواطىء المقفرة على الأطلسي. وسأكتب «الأوديسة» في صياغتهـا الرابعـة. آه! لماذا لا تجيد اليونـانية! وإلا كنت اكتشفت روحي كلهـا، في هذه الملحمة. مَنْ سيفهمها في اليونـان؟ بريفيلاكي فقط! الصراخ، الصراخ في الصحراء يهبني فرحاً لاذعاً، في منتهى الصفاء والمرارة ـ ذلك هو الفرح الوحيد الذي أحب. إنَّه لا إنساني، وحشي، متوحد ـ كل ما أحتاج اليـه. تعرف (أنت لا تعرف شيئاً) كلمة بوذا: «اتبع دربك وحيداً، ياقلبي، أيها الكركدنّ العجوز!»

إلى اللقـاء، ياشقيقـي! اعتنِ بجسدك ـــ فليس لـروحنـا حمارٌ آخر على هـذه الأرض. عالجه ولا ترهقه كثيراً، غـذِّه جيداً، لا تقدّم له خمرة (ولا كونياكـاً، ولا عرقاً، طبعاً) ولا تجعلـه يـدخن كثيراً (منـذ متى صـارت الحمير تـدخّن؟) لا تفكـر، افتح عينيك، انظـر ببساطة، تنفس بهدوء، قلْ: أنا نبتة! أنا نبتة! وسوف تتطور فيما بعد وترتقي إلى درجة أخرى، فتقول: «أنا حيوان! أنا حيوان!» ثم درجة أخرى أيضاً ـ وهكذا تُشفى وتستعيد هيئة الانسان المفكر الذي يشرب ويدخّن ويسافر ـ فنلتقي.

أخي العزيز، مرة أخرى، إلى اللقاء. ن.(١)

مدريد ٢٠ فبراير ١٩٣٣(٢)

أنا سعيد لتمكنك من رؤية أشياء جميلة. لكن هل نسيت الروائع الفارسية والبوذية في المتحف البريطاني؟ إنها مذهلة. هناك أيضاً توجد «ليدا» اليونانية المحبوبة. ينبغي أن تريها، وكذلك حصان البارثنون. تأمليها جيداً، وبعينيّ أنا. إذ قد لا تحين فرصة لأزور لندن قريباً.

سأرسل إليك كتاب باناييت غداً.. إنّه كتاب جيد جداً، نقي، صادق، مدخله متّقد، مثل باناييت الحقيقي؛ لكن، لم يكن يتوجب عليه الحديث عن بيليلي بتلك الطريقة. تلك المرأة التي أفرحته كثيراً وضحّت بالكثير من أجله. غير أنَّ باناييت غير مسئول.. وهو مثل المجنون، نغفر له كل شيء. إنّه مادة بشرية تغلي بلا مراقبة وبلا شكل.

تلقيت رسائل عديدة من خاريلاوس، رسائل مؤثرة، مُرَّة، مفعمة بالحنين. وهو بدوره يضع تحت تصرفنا بيته في ميسارا (بيت إقطاعي واسع مع بساتين، وأقبية، وحمّام، الخ..) ووصلتني كذلك رسالة من صديق ناشر في الإسكندرية، وهذه الرسالة تنضح مرارة أيضاً، ويطلب مني المساعدة المعنوية. ورسالة أخرى من متحمسة ونبيلة من باترا.. أنوى أن أبعث إليك بنشيد دانتي.. احتفظي به في حقيبة يدك من أجل قراءته..(٣)

يوم الاثنين(٤)

كرنفال، طبول، أقنعة، قصاصات ورق ملونة، هنا. كل ذلك يبدو لي تافهاً، لأنه يفتقر إلى الفرح الحيواني الحقيقي، وكل هذه الطقوس فقدت مضامينها. فصارت أسوأ من الصلوات الدينية. أحياناً تحدث أعمال تَعَصبٍ في الكنائس يقشعر لها البدن. مازالت الكنيسة تحتفظ بمكانتها بسبب هذه الأرواح الظلامية المتخلّفة. لكن الكرنفالات صارت قشور بطيخ بلا بطيخ.

---

(١) رسالة كتبها نيكوس كازنتزاكي بالفرنسية.

(٢) رسالة إلى ايليني ساميوس.

(٣) نسخ نيكوس هذا النشيد في مفكرة مصغّرة ليهديها لي.

(٤) رسالة إلى ايليني ساميوس.

الثلاثاء، ٢٨ فبراير[١]

قلت لك لا تقلقي من المستقبل. فلا قيمة عملية لذلك. وكل ما نفعله هو إفساد حاضرنا. فالمستقبل قد لا يأتي، وقد يحدث أمرٌ ما، فيتغيّر كل شيء. من الأفضل استغلال اللحظة الراهنة حتى النخاع. ينبغي أن تفكري في كيفية الاستفادة القصوى من إقامتك في إنجلترا، وليس في شيء آخر. وأفضل وسيلة لخدمة المستقبل هي العمل الجيد في اللحظة الحاضرة. ولو فكرتُ بدوري في وضعي، غداً وبعد غد، لخسرت اليوم كل شيء. وما أنا عليه اليوم ـ بعملي الشاق ـ يجعلني لا أخشى المستقبل. انّها فلسفة بسيطة لا تقتصر على المشاعر وحدها بل تغتني بمنهج مكتسب.

لم يكتب لي باناييت بعد، وأنا قلق لذلك. كم أشتاق إلى رؤيته! لأنني أخشى رحيله أيضاً، ولا أجرؤ على مراسلته، مرة أخرى، حتى لا يفهم أنني قلق بشأنه.

مدريد، ١٣ مارس ١٩٣٣[٢]

لم تصلني أية رسالة من باناييت.. سأكتب إليه اليوم مجدداً. أنا في منتهى القلق.

في انتظار ذلك، أفكر هذه الأيام في النشيد الذي سأكتبه عن الغريكو: يزور القصر، فيُبَلَّغ بأن الملك لم يقبل رسمه للقديس موريس. منتصف النهار. يمسك في يديه بكُرةِ راتنج بلسميّة. ثم تفاصيل كثيرة.. إلى حين قدوم الملاك الذي رسمه خلال أعوامه الأخيرة في طليطلة، فيرفعه، ويتضوع جناحاه بالراتنج البلسمي ـ ويعيده إلى طليطلة.

سوف يكون النشيد ناجحاً إذا حافظتُ على سكينة روحي. وأنوي جعله على مستويين، كما فعلت في «دفن أورغاز».

لا أدري إن كنتِ قد قرأت الصحف. الحرب تقترب. والخطر موشك. ينبغي اختيار المكان الذي سيفاجئنا فيه الإعصار.

العزلة! العزلة! «الأوديسة» في صياغتها الرابعة طالت كثيراً، وصارت تنخر دماغي.. أطلب منك هذه الخدمة، اكتبي لي وصفة إعداد المربّى. حاولت البارحة صنع مربّى البرتقال فحصلت على مغلّي برتقال. وضعت كمية كبيرة من السكر من دون نتيجة. ماذا حدث؟

في موازاة اطلاعه على الشعراء المحدثين عمّق نيكوس كازنتزاكي، في مدريد

(١) و(٢) رسالة إلى ايليني ساميوس.

دائماً، دراســة الكتّاب القـدامى ـ مـن فلاسفـة وشعراء وروائيين ومتصـوفين: غارسيلازو، فـراي، لوي دي ليون، غونغورا، رويت، ســان خوان دي لاكروث، كويفيدو.. وشاهد، الاستعـداد للحرب الأهلية، وأنصت إليها وأستنشقها. فكتب «رائحـة البـارود في كل مكـان»، «وفي القرى الصغيرة تـوجـد مصـانع للمـواد المتفجـرة، وهنـاك قنـابل تنفجــر وتجرح، ولاسيما في الأنـدلس.. لكن المدينـة الجامعية رائعة، والطلاب يتدفقون حيوية وحماســة. ثمة اسبانيا جديدة تكافح للخلاص من الملكيين والفوضويين جميعاً..»

أما «الأناشيـد» فكانت ذات طبيعة انفجارية. كان كـازنتزاكي يتألم من رؤية الوقت يفلت من بين أصابعه، فصار ينادي، في داخله، تلك الأرواح التي يحبها كي تزوده بالشجاعة.

ذلك أنَّ ما يهم الشــاعر هو الإمعان في المغامـرة الكبرى، وإنجاح العمل الهائل الذي يسكنه: «الأوديسة».

فكتب إلى بريفيلاكي بتاريخ ٦ فبراير ١٩٣٣:

الحياة قصيرة. وعلينا ألا نبدد طاقتنــا. ينبغي أن نترك أعمالاً عظيمة عندما نُوارَى التراب أخيراً، وتبدأ الفراشة الهائلة ببسط جناحيها، كما قال خيمنيث.

ثم استشهد بأبيات غونغورا المتعالية، والتي تناسب مزاجه:

Ven Muerte, Quando Quieras; no Me Espanta
La Tronadora Voz De Tu Eloquenzia
Porque, Frente A Su Fallo, Se Levanta
El Sereno Latir De Mi Conciencia (١)

وكتب إلى صديقه المحتضر باناييت:

عزيزي باناَيْتَاكي،

أخيراً تلقيت رســالتك وعرفت أنك مـوجود في بـوخارست. كم أتمنى أن أكـون فجاة أمامـك وأشرب معك مجدداً، ولبضعة أيــام، قهوة الحيــاة السوداء ذات النكهـة الطيبة!

(١) تعال أيها الموت متى شئت؛ إنّ صوت فصاحتك المدوّي لا يخيفني؛ ففي مواجهة حُكمك يعلو خفقان ضميري الرّائق.

اعْطِ الإله والشيطان اثنتين أو ثلاثاً من أرواحك السبع واحتفظ بما تبقى لك، لصديقك الذي يحبك، وللطرقات الهائلة التي يسلكها الجوّال الكبير. إنَّ حياتنا الحقيقية ستبدأ الآن. لأننا صرنا بؤرتين حقيقيتين للحكمة. كنا لا نفقه شيئاً كما يقول شاعر شرقي آخر أحبّه، هو ميرزا عبدالبيدر. والآن سنبدأ بجَبْل الطين الذي جمعناه، وباللعب على شاطىء العالم. أفكر فيك بنهم هائل حتى أنك لن تستطيع الرحيل وحدك أبداً. ربّما كان هناك نهر فولغا آخر تحت الأرض نستكشفه معاً.

قرأت كتابك دفعة واحدة؛ وأحببته كثيراً — حيوي، عميق، إنساني. لكن أكثر ما أعجبني هو المدخل - الذي يعبّر عن باناييت الحقيقي - وهو محتدم، وقح، نبوئي، متعطش للعدالة و... للظلم. الظلم إزاء بيليلي، لأنك كنت قاسياً جداً، أو إذا شئت، فقد أفرطت في العدل، وهو ما يشكل تجاه النساء منتهى الظلم. فالنساء، كما تعلم جيداً، لهن عالم آخر - مادي ومعنوي وفكري — وروحهن مشحونة، ومترقرقة بالشهوة. وهن بريئات حتى في ذروة خيانتهن، (ولاسيما في هذه الحال)، لأنهن يستجبن لقوة دافعة خفية، تحت — أرضية، قبل - إنسانية، في منتهى العمق. إنهن وفيّات دائماً لتلك القوة الدافعة - وفي ذلك تكمن فضيلتهن العظيمة والحزينة. يستطيع الرجل أن يكون حراً أحياناً، في لحظة بطولة ونشوة، أما المرأة فلا تستطيع ذلك مطلقاً. ومثل هذه الحرية - التي تشرّف الرجل — تبدو لها عصياناً لقدرتها - عيباً. لهذا السبب وجدتُ غضبك علي بيليلي غير عادل. وفوق ذلك: ألا يتوجب علينا الصفح الكامل على امرأةٍ وهبتنا لحظة سعادة؟

إلى اللقاء أيها الصديق العجوز! اكتبْ لي ولو كلمة واحدة، إذا أحسست بأنك مازلت ضعيفاً. لكنني سأكتب لك دائماً، رسائل مطوّلة، آملاً قهر المسافة والغياب، قليلاً. ن.[1]

في عيد الفصح جاء نيكوس إلى باريس، حسب الاتفاق، من أجل لقاء سريع. واستضافته ابنة عمي ماري، مجدداً، في شارع إرلنجر، بالطابق السابع؛ حيث توجد غرفتان صغيرتان وشرفة مشمسة. كانت ماري بعيدة، فأقام نيكوس وحيداً، منتظراً وصولي من لندن. اشترى قليلاً من الطماطم والفواكه والخبز. وبدأ بكتابة «نشيد الغريكو» حتى لا يشعر بالضجر.

---

(١) رسالة كتبها نيكوس كازنتزاكي بالفرنسية.

كان لقاءً قصيراً، قصيراً جداً. بـارقة عشرة أيـام لم يتعب فيها نيكـوس من الكلام: «آه، يالينوتشكا، مـا إن تسافري حتى أكمن في زاوية، في تجويف شجرة، وأشرع مثل نحلـة، في صنع العسل. لكن، عندمـا تكونين مـوجودة، أشعـر أنني عسل بكاملي، وأبارك يوم ميلادي..»

وأخيراً دقت ساعـة عودة نيكـوس إلى اليونـان. لكن أين سيجد العـزلة التي يتطلع إليها والتي سيلتحق به إليها «شقيقـه» المحبوب. ومن حسن المصادفة أنَّ ابنة العمّ مـاري حصلت لتوّهـا، بالمراسلة، على بيـت ريفي جميل في ايجين، قرب الشـاطىء. وهناك استقـر كل من بـريفيـلاكي وكـازنتزاكي وعـادا إلى عملهما بحماسة.

ايجين، ٢٣ ابريل ١٩٣٣(١)

حياتنا بسيطة جداً، كما قد تتوقعين: المنزل مريح، جديد ونظيف؛ وقد أنفقنا بعض الأموال لجعله أنسب للسكنى.. جلبتُ مكتبي والكتب والمقاعد، الخ. أمامي توجد صورة كبيرة لكِ، وفوق سريري لوحة جسم عـارٍ للفنان كالموك، وعلى اليسار إلسا، والصحون الإسبانية الأربعة معلقة على الجدران مع بعض الأيقونات. أستيقظ في الخامسة صباحاً وأكتب «الأوديسة». لم أجد إيقاعاً بعد، لكنني سوف أتوصل اليه.

ايجين، ٧ مايو ١٩٣٣(٢)

وصلت إلى النشيد السـابع للأوديسة، لكنني تركتـه منذ يومين حتى أتفرغ لكتـابة المقالات المطلوبة مني. أكتب من الصباح إلى الليل، يدي تعبت كثيراً، لأنني أنسخ المقالات كي أرسل بنسخ إلى صحف أخرى، في مصر وكافالا، الخ..

ايجين، ٣٠ مايو (٣)

لينوتشكا الحبيبة،

أول أمس ذهبت إلى أثينا.. تهربت من بني البشر وطفت بالمتاحف.. ومع ذلك التقيت بعض المعارف.. كلهم مبتهجون بمقالاتي عن إسبانيا، ويقولون إنها رائعة، مذهله الخ.

---

(١) و(٢) و(٣) رسالة إلى ايليني ساميوس.

كل ذلك يحزنني ويبين أن الكتابة الجيدة تتجاوز مداركهم؛ فهم يفهمون التفاهات فقط ويتحمسون لها. لو كنت أقل قسوة وتطلباً إزاء نفسي، أو ضعيفاً أمام إغراءات النجاح، لاكتفيت بهذه الأكاليل السهلة للنجاح.

الحياة في ايجين لم تتغير ـ البحر، الرياح، العمل، محاورات حول الغريكو، ثم حنيني إليك. لم أستطع البقاء في أثينا لأنني لم أجد الهدوء الكافي للتفكير فيك، وأفرح كثيراً عندما يخفق قلبي بهذه الطريقة عندما أفكر فيك. تكتسب الأشياء معنى وتحاط بهالةٍ من الكآبة.

(ايجين) ٨ يونيو ١٩٣٣[١]

عاد بريفيلاكي صباح اليوم من أثينا، يائساً. لا وجود إلا لأعداء.. هجمت عليه ديخاميني[٢] بأسرها: لماذا يسكن معي؟ لماذا يعيش منعزلاً؟.. كلهم ناقمون علينا. نميمة وافتراء على ماريكا لأنهم علموا بإقامتها عندنا ذات يوم. أما ل.ن. فقد سكب (سكبتْ؟) الزيت على النار. وضع مثير للشفقة. فقد عاد بريفيلاكي مشمئزاً.

أعمل كثيراً في كتابة «الأوديسة» وتنقيحها. وبالأمس تركت العمل قليلاً لأقرأ الجريدة بلهفة. تعلمين طبعاً أنَّ الملكيين حاولوا قتل فينيزيلوس.

طارد القتلة، داخل سيارتين، سيارته، مسافة خمسة كيلومترات، وأطلقوا نيران مسدساتهم وبنادقهم ورشاشاتهم! لم يصبْ فينيزيلوس لكن زوجته أصيبت بجروح قليلة الخطورة، من أربع رصاصات، في حين مات مرافق كريتي، وتحوّلت السيارة إلى ما يشبه المصفاة. الفوضى عارمة وكريت تتململ. وأنا، على الرغم من عدم تعلقي بفينيزيلوس أشعر بالقرف والعار من مطاردة ذلك الشيخ المسن بتلك الطريقة، وهو الذي ضاعف مساحة اليونان! اليونانيون وحوش!

١٣ يونيو[٣]

الوضع في اليونان مريع، وطننا يسير نحو الهاوية. أشعر بالقرف والغضب. ثمة بالتأكيد يُونَانَانِ، والالتحام لم يتم، وربما لن يتم قريباً. ثمة روحان مختلفتان جداً، وليست احداهما طيبة والأخرى سيئة، بل إحداهما سيئة والأخرى أسوأ. أشعر بحزن

(١) رسائل إلى ايليني ساميوس.

(٢) الحيّ الذي يوجد فيه بيت غالاتي.

(٣) رسائل إلى ايليني ساميوس.

كبير من رؤية الغباء والشراسة والانفعال، التي تنقضّ بها يونانٌ على الأخرى.

(ايجين) ٤ يوليو ١٩٣٣(١)

لم استلم رسالة منك بعد. لعلّها تتعطل في ثيسالونيكي حيث تجرى انتخابات. تشهد اليونان فوضى عارمة، وحقداً عنيفاً ما بين الملكيين وأنصار فينيزيلوس غير أن الفينيزيليين انتصروا في النهاية. وهذا أفضل، لأن الآخرين يريدون إعادة النظام الملكي. كلّ ذلك يثير اشمئزازاً مميتاً. لكنّ التزامي بالعزلة، وتفرّغي لأعمالي الإبداعية، يجعلانني في منأى عن كلّ ذلك القرف، فلا يكاد يمسّني إلا بشكل سطحي..

(ايجين) ١٢ يوليو ١٩٣٣(٢)

..حرارة شديدة، أستحم في البحر حوالي الساعة الثالثة بعد الظهر، أحترق، أعمل كثيراً.. الأبيات القليلة التي أبعث بها إليك تعبّر عن صفائي. إلٰهي كم أنا قادر على العمل لو توفّر لي قليل من الرفاهية!

أتلهف إلى استكمال الحُراس الخاصين بـ«الأوديسة» (أكملتُ ذلك بالنسبة إلى دانتي والغريكو) وسوف أحاول كتابة نشيد لكِ، ياقائدة كل الحرّاس الخاصين، كي أعبّر لكِ عن حبي الغني المتعدد الأشكال، والدائم. فهل أتوصل إلى ذلك؟ صعب، لأنني أعيش كل هذا الانفعال، ولو لم أكن تحت تأثيره لكان الأمر ممكناً. لكن عيش الانفعال أفضل من رؤيته يتحول إلى ذكري.

ايجين ٧ أغسطس ١٩٣٣(٣)

تأخرت في مكاتبتك لكثرة الزيارات هذه الأيام. كل هذا الصخب لا يلائم روحي. ما جدوى المحاورات والصراخ، وكل هذه الاستعراضات الطاؤوسية؟ في هذا العالم، لا أطلب سوى أمرين يملآن قلبي: كتابة *الأثر* (٤) OBRA، وأنتِ، وكل ما تبقى باطل، ضجيج مرهق. كنت أستمع إلى الحديث وأتحدث أيضاً، لكنني لم أكن أفكر إلاّ في شيء واحد: العودة إلى البيت، وكتابة رسالة طويلة وحادة إليك، فتح كلّ الهويسات(٥) حتى تتدفق مياه الحب بكل حرية. كلما أحببتك أكثر قلتْ جدوى العالم عندي.. لأنني أستطيع استبداله بعالم أفضل، أكثر دفئاً، وبساطة. تماماً كما كنت سأخلق حياتي

---

(١) و(٢) و(٣) رسائل إلى ايليني ساميوس.

(٤) الأسبانية في الأصل «المترجم».

(٥) هويس القناة يستخدم لرفع السفن أو خفضها من مستوى إلى آخر «المترجم».

كلها، لو كنتُ الخالق.

عدت إلى الاهتمام بترجمة «الكوميديا الإلٰهية» لـدانتي. وأنا الآن أصححها بيتاً بيتاً، وقد صـارت أفضل بكثير، وأدق. آه لو أستطيع نشرهـا! لكن، أين أعثر على ثـلاثين ألف دراخما؟ وهو المبلغ الذي يتيح نشرها خلال شهرين.

نضج البطيخ الأصفر والأحمر، والتين، والعنب. قطفنا البارحة حبتي التّين الأوليين في «المزرعة *ماري*» إنها أفراح صغيرة، لكنها كبيرة جداً بالنسبة إليّ، كما تعلمين.

أرسل إليّ لفتيريس بترجمته للنشيـد الأول من «الكوميـديا الإلٰهية» لـدانتي. فظيعة ومع ذلك يزعم أنَّها أفضل، بما لا يقـاس، من ترجمتي. سوف يجد نفسه أمـام مبرر آخر للكآبة والحقـد عندما يدرك الحقيقة. وسـوف يظل وجودي سبباً لعبوديتـه وارتباطه، وحقده أيضاً. لكنها ليست غلطتي فأنا أسعى إلى مسـاعدته، قدر المستطاع، كي يتحرر. غير أنه لا يتمكن.

ايجين، ١٥ أغسطس ١٩٣٣[١]

..أتممت في عشرة أيام، أناشيد «الجحيم» الثلاثة والثلاثين، وغداً أدخل إلى «المطْهَر». الترجمة في تحسن. أريـدها في مستوى تـرجمة باليـس لـ «الإلياذة». وسـوف أنجح في تحقيق ذلك، بـالتأكيد، إذا عشت. يكفي أن يتـوافـر لي متسع من الوقت، لبضع سنـوات أخرى، كي أترك أثراً راسخاً بصلابة في الأرض اليونانية، أي الأرض الكريتية، ولا أعتقد أن النضج هو ما ينقصني. كل هذا اليقين، والحيـوية والفرح، أدين به سراً ومن دون أن تعلمي، إليك ياحبيبتي..

لقد حاول نيكوس اللعب على عنصر الزواج لكنه لم يوفق، فأضاف:

إنَّ حياة المرأة مـع الرجل تـآزر ومغامـرة وتجول في بلدان مجهـولة، نشـوة، حياة يومية وفي الوقت نفسه، حلم لا يصدّق، يثير فيك دموع عرفان الجميل والانفعال المؤثر. هل تذكـرين كم مرة تعجبنا أثناء نـومنا معاً: «مـا هذه المعجزة، ما هـذا الشيء الغريب الذي يجعل الغريب والغريبة، قريبين وصديقين في ذروة التوحد»؟

عناقيد الدالية بـدأت تنضج؛ أنزل كل يوم قبل شروق الشمس؛ أقطف عنقوداً كبيراً، وألتهمه. وأبـارك، مثل عوليس، الأرض، والكـرم، والشمس، والمطر. كل القـوى تعاونت

---

(١) رسالة إلى ايليني ساميوس.

لإنضاج هذه الأعجوبة ذات الحبات الجميلة

نحو الثامنة والنصف، تصعد باغونا ـ الأرملة المرحة التي تخدمنا ـ آتية بالحليب. أظل منكباً على أوراقي، ولا أرفع رأسي، أهمهم بتحية الصباح، ثم تذهب. وحده الله يعرف أية فكرة كوَّنتها عني! لم ترني إلاّ وأنا أكتب، مستغرقاً، أخرس، ولا أضحك. وفجأة يأتي أحدهم فيدوّي الجوار بقهقهاتي!

..في الليل أنام على الشرفة وأتأمل النجوم. كم وددت لو كنت معي، في تلك اللحظة. إذ يخونني التعبير كما يقول دانتي li tacer è bello الصمت جميل. لكن سوف تأتي ليلة أمدّ فيها يدي و... يالها من معجزة! عندما ألمس جسدك. عندئذ لن أقول شيئاً لأن قلبي يشرع في خفقان مجنون. فأدرك أنها السعادة الكبرى. يقول القديس فرنسوا: frate leone, inscrive che il questo e perfeta le tizia أيها الأخ ليون، دوِّن، إنَّ في ذلك، تكمن السعادة المطلقة.

ايجين، ٢٠ أغسطس ١٩٣٣[١]

اليوم جاء خاريلاوس بغتة. تصوري فرحي! قطفنا تيناً وعنباً، وضحكنا. حاولت تنشيطه قليلاً. لكنه هرم، ومثقل بالهموم. ولم يعد يعمل. إذ طرده الملكيون من عمله ولم يعد يعرف ماذا يفعل. تأثرت كثيراً لحالته. ولقد بذلت قصارى جهدي، فنشط قليلاً، لكنه سيسقط في الهاوية حال رحيله.

الأجواء فظيعة في اليونان. ولا يمكن وصف دناءة الحاكمين، وبؤسهم، ولؤمهم. مامن ضوء في الأفق. لو لم يكن معي دانتي وعوليس وأنت لأختنقتُ قرفاً وغضباً. أما الآن فلا شيء يمسّني «نضج خبزي»! خبز الملائكة وليس الخبز الآخر.

أنتظر سكوريوتيس بعد غد.. وقد طرده الملكيون هو الآخر. وسوف يجد نفسه في الشارع. إنّه أفضل وأشرف موظف في اليونان.

أما يوم الأحد فسوف يأتي خاريتاكيس[٢] الطبيب.. وهو الآن فقير بدوره، ويسكن قرب «دافني»، في بيت صغير بناه بين أشجار الصنوبر، ويكافح من أجل قوت *المخلوقتين*[٣]. يتلهف لرؤيتي وفتح قلبه بصراحة، كما قال.. ليتني أقدر على مساعدة

---

(١) رسالة إلى ايليني ساميوس.

(٢) أحالت الحكومة الملكية كل أتباع فينيزيلوس، وخاصة الكريتيين إلى الاستيداع.

(٣) زوجته وابنته.

أصدقائي بطريقة أنجع.

ايجين ٢٢ أغسطس ١٩٣٣(١)

إذا كُتب البقاء لرسائل الأشهر الأخيرة، فإن الذين سيتصفحونها، في المستقبل، لإتمام سيرتي الذاتية، سوف يقولون بأنني لم أحب أحداً باستثناء الفتاة التي يبدأ اسمها ولقبها بالحرفين إ. س. وهي يقيناً ايليني ساميوس، وينطقون باسمك. وبالتأكيد إنّهم سوف يضيفون: مؤلفة كتاب «غاندي» الشهير و.. أول امرأة أدخلت الاختزال الكتابي إلى اليونان(٢). ولا نعرف شيئاً عن طباعها، إلا أن تمكنها من العيش، حتى آخر حياتها، مع رجل مثل شاعر «الأوديسة»، يدل على تحليها بمزايا كبيرة مثل الصبر، القدرة على التحمل، والشجاعة. ذلك أنّ الحياة لم تكن سهلة، بالتأكيد، مع ذلك الرجل الذي حاكمه معاصراه لفتيريس ألكسيو، والأديبة الشهيرة، السيدة غالاتي، محاكمة في منتهى القسوة.

ولن يدرك أحد ـ إلا اذا أُنقذت هذه الرسائل ـ أنك «سبع نساء، بل سبع عشرة امرأة» عندي، وآخر فرحة في حياتي.

(ايجين) ٢٨ أغسطس ١٩٣٣(٣)

Ocoz, coz, coz, O my pretty little coz!(٤)

..مرّ هذا العام، باستثناء نجوم مارس العشرة، مظلماً، مرّاً. فليرحل بلا رجعة! تعرفين غايتي المثلى: ثمانية أشهر للعزلة والعمل، وأربعة أشهر للسفر. وربما تمكنا من العيش بهذه الطريقة إذا حصلتُ على نصيبي من تركة والدي. وفي الأثناء أمر بشهور عصيبة لأنني لا أملك مالاً.

جاء سكوريوتيس(٥) لرؤيتي هذا اليوم. وأفرحني كثيراً. ولقد عرض عليّ أيضاً قبول أحد المناصب (منصب مدير المكتبة الوطنية الذي سيصبح شاغراً).. إذا أُسقطت الحكومة..

شيء رائع أن تطالعي كتباً إنجليزية.. تتمتع هذه اللغة بتناغم مثير، مثل ماء

(١) رسالة إلى ايليني ساميوس.

(٢) كان نيكوس يمازحني، إذ أنني تعلمت الاختزال في تولميرس بارك وفكرت في إدخاله إلى اليونان.

(٣) رسالة إلى ايليني ساميوس.

(٤) «كما يروق لك». شكسبير.

(٥) بانايس سكوريوتيس، صديق وفي لنيكوس كازنتزاكي، ومصلح لنظام السجون في اليونان.

يجري، اقرأي أشعار كيتس الرائعة، وكذلك براوننغ وتينيّسون.. وهذه الجملة لشكسبير: Ocoz, coz, coz, my pretty little coz that thaou didst know, hou many fathom deep Iam in love.. يالها من لغة إلهية! ياله من تناغم! كم تعبر هذه الجملة تعبيراً دقيقاً عن اختلاجات قلبي!

أثينا، ٢ سبتمبر ١٩٣٣(١)

حبيبتي لينوتشكا،

أمضيت نهار الأمس بكامله مع رينو وزوجته اللذين قدما من اليونان.. واليوم سنذهب إلى الاكروبول والمتحف، وفي الغد نسافر إلى دلفي، ثم بعد غد، إلى ميسين، وأخيراً إلى أولمبيا.. سيقيمان ثمانية أيام، وأنا مضطر إلى مرافقتهما. لكن همومي تزداد لعدم تمكني من العمل، وافتقاري للمال اللازم من أجل استضافتهما. اقترضتُ ألف دراهما، وأنفق بلا حساب. لا أتركهما يدفعان شيئاً، وأشعر بالأسف لعدم قدرتي على دفع ثمن إقامتهم في الفندق. (لقد نزلا ـ اللئيمان! ـ في «فندق بريطانيا العظمى» بـ ٦٠٠ دراخما في اليوم!!)

ايجين، ٨ سبتمبر ١٩٣٣(٢)

عدت بالأمس إلى ايجين، وعاد الزوجان جوغينال على متن سفينة أخرى. تناولنا الغداء وتحادثنا وأحضرنا قليلاً من التين والعنب والعسل والحلوى والجبن والزيتون الخ، الخ.. لقد ابتهجا كثيراً. وأثناء غروب الشمس تنزهنا معاً ثم افترقنا في الحادية عشرة ليلاً. وفي تلك الليلة فكر جوفينال في تأسيس دار نشر يونانية في أثينا.. وقد يتحقق هذا المشروع خلال العام القادم. لكني لا أريد المساهمة فيه لأنني لا أحب خلط الصداقة بالأعمال.. أهديت السيدة جوفينال تحفة جميلة من جلد وكذلك عذراء الورود(٣).. إنَّها امرأة يهودية مفعمة بالحيوية والذكاء.. إذا سكنا في باريس سوف نذهب إلى زيارتها ماماً..

رأيت باباندريو، بالأمس، وقال لي بأنه حال استلام السلطة سوف ينشيء كرسي أستاذية للأدب اليوناني الجديد ويعيّنني فيه.

---

(١) رسالة إلى ايليني ساميوس.

(٢) رسالة إلى ايليني ساميوس.

(٣) أجمل أيقوناتنا.

ايجين ١٠ سبتمبر ١٩٣٣[١]

..هاهوذا الخريف. طقس منعش في النهار، وبارد في الليل. البحر مزبد، لا مجال للسباحة. مازالت توجد ثمار كثيرة، غير أنها توشك على النهاية. الأرض تتعرّى، والغيوم تلوح تدريجياً فوق الجبال. نحتاج إلى مدفأة في المكتب. وينبغي كذلك تصليح الأبواب والنوافذ مرة أخرى، حتى لا يتسرب الماء والريح. سوف يُنجز كل ذلك عندما تجيئين، و إلاّ فلن أكترث برفاهيتي.

ايجين ١٨ سبتمبر[٢]

عندما *يتحد الرجل والمرأة تبتهج السنوات*. ربما كان ذلك هو أكبر فرح للإنسان على الأرض، والسعادة الوحيدة التي ليست وهماً مادامت مستمرة. وكل ما تبقى باطل، أو ريح، ويثير اشمئزازي بعمق. فليحدث الأفضل لنا. يروق لي الاستسلام أحياناً لأيدي القوى المريعة التي ندعوها حظاً، ومصادفة، وقدراً، وأثق بها. فلتبتسم لنا أخيراً.

الآن، بعد ذهاب بريفيلاكي بت وحيداً، السحب تمرّ بيضاء، وأحياناً تنزل قطرة مطر. أخرج إلى الشرفة، أبسط كفيّ مثل بوذا، أستلم جرايتي في كفي، وأفكر فيك.

الجيران.. ذهبوا، مامن صوت يعكر الهواء. وفي البعيد قليلاً، بيتان أو ثلاثة، كلاب تنبح وطاووس يزعق.

غداً أنهي الصياغة الثانية لدانتي وأبدأ بالشروح. أعتقد أنّه سيُطبع قبل عيد الميلاد. لقد اشترى ميلاخرينوس[٣] ورقاً ممتازاً، ونامل الحصول على المال في أقرب الآجال.

ماأرغب فيه، هو أن يحدث شيء في اليونان. وربما صرت أستاذ آداب أجنبية في الجامعة.

إذا تحقق ذلك سوف نمتلك home «مسكناً» ونضمن سفرة أكيدة كل عام. وآمل في الأثناء تسوية مشاكل الميراث.. على أية حال أنا أعمل جيداً هنا، والمناخ يحييني، والمعيشة تكلفني مائة وعشرين فرنكاً في الشهر.

---

(١) و(٢) رسالة إلى ايليني ساميوس.

(١) أيوستولوس ميلاخرينوس، شاعر رمزي، صديق نيكوس كازنتزاكي. صاحب المجلة الأدبية «كيكلوس» ومحرّرها. وكان رجلاً في منتهى الاستقامة.

ايجين ٤ أكتوبر ١٩٣٣(١)

استلمت مجلة «لي نوفيل ليترير»(٢) محتضنة رسالتيكِ مثل حبتي لوز في قشرة واحدة.

فرحت كثيراً ونزلت مباشرة لأغطس في مياه البحر الدافئة الشفافة، ثم استلقيت على صخرة حتى أنشف. واستسلمت لنعاس خفيف، لأنني لن أعمل بعد ظهر اليوم، مستمتعاً بفرح قادم. سوف تأتين وترين هذا البحر وتفرحين برؤية إلٰهية لـ «سارونيك». هنا الوحدة السامية والهدوء: كما لو كنّا نوجد في طرف الأرض فلا يأتي أحد لإزعاجنا؛ إنَّ أثينا في آخر العالم كما كتبتُ إليك. وبعد أن جاء الناس مرة أو مرتين وأدركوا أن القلعة لا تشكو من أي صدع، عادوا إلى ديارهم بهدوء وانكبّوا على مشاغلهم الصغيرة. لم يسبق لليونان أن كانت على هذا القدر من الطيبة والتلاؤم والاستضافة، بالنسبة إليّ. إنَّ أسلوب حياتي وقدرتي على العيش سعيداً، بلا حقد، بعيداً عن بني البشر، يجرّد الناس من أسلحتهم فيتركونني أعيش بسلام. وعندما تجيئين سوف تزداد متانة القلعة المحمية بأسوار ماسية. وسوف نُدخل إليها، أحياناً، منْ نحبّ، فيغادرها بهدوء، محتفظاً بصورة عن حياتنا الرائعة، لأنها في منتهى البساطة والطيبة وسط الشراسة والتعقيدات البشرية.

ثمة أسباب عامة، بصرف النظر عن الأسباب الشخصية، تضطرك إلى المجيء هنا.. فمع هتلر دبت الفوضى في العالم، وأخشى أن تنفجر كارثة كبيرة، فجأة، وتكوني في بؤرة النار.

أرجوك لا تنسي الكتب المدرسية.. لابد أن تؤلفي أنتِ أيضاً، وأعتقد أنك سوف تنجحين أفضل مني، لأن أسلوبك أبسط.. سوف أعطيك بعض الأفكار وتؤلفين كتاباً. وإذا أجيز أحدها، يكون ذلك مدعاة للسرور، لأهميته.

لو كانت مجلة رينو تدفع مكافآت لراسلتها. لكن هل تدفع؟ كتب إليّ مراراً طالباً مخطوطات. أما «صامويل» فإنها بلا مقابل.

لا أريد شيئاً من باريس. لدينا هنا كل هبات الإلٰه: زيتون، عسل، جبن، شمس وبحر..

---

(١) رسالة إلى ايليني ساميوس.

(٢) «المستجدات الأدبية» «المترجم».

ايجين ١٥ أكتوبر ١٩٣٣[١]

..نستعد لقدومك. قبل بضعة أيام حاولنا مع كالموك تسوية الدرب المؤدي إلى البحر، حتى لا تُجرح قدماك. اشترينا خيوطاً مزودة بصنانير وقصبات حتى تذهبي إلى الصيد والاسترخاء. طَيَّنْتُ الجدار الخارجي لأنه كان متصدعاً قليلاً. طلبت مؤونة حتى تكون الخزانة ملأى. أفعل كل ما أستطيع. وثمة عنقود عنب مخبأ في مكان ما ينتظرك.

كم وددت لو كنتِ هنا للتمتع بالشمس وجمال بحر «سارونيك».. هناك زوارق صيد ذات أشرعة حمراء وبيضاء تمر في البعيد، والأسماك تنطّ وتلمع، أما الجبال فتشبه لوحات مرسومة على الزجاج. إنه لأمر مؤسف أن أتأمل كل ذلك من دونك. لكنك سوف تأتين وتجدين الشمس وكنوز الحياة الأرضية كلها.

متأثر جداً لاقتراب يوم لقائنا. أصابعي العشر ترتعش. اقبلك، ياحبيبتي، على كتفيك وكفّيك.

ايجين ٣١اكتوبر ١٩٣٣[٢]

..أنتظرك ولا أرغب في العمل. ذلك أنّ فرحتي بلقائك قريباً، تستل مني قدرتي على التركيز. وكما في شهر مارس، بباريس، عدتُ إلى كتابة نشيد جديد كي أتسلى. وهو يشبه نشيد الغريكو، عن جنكيز خان. لست أدري إن كان ناجحاً. إنه كثيف، ممتلىء بالرنين والقوة. أتمنى لو أدرك مدى جودته! سوف تخبرينني بذلك عندما تُقبلين.

باتت العزلة ثقيلة الوطء الآن، لأنني أنتظرك. وهذه الأيام الخريفية ذات عذوبة لا توصف، عذوبة ناعمة وشهباء.. البحر هادىء، وبين الفينة والأخرى تنزل قطرة مطر. وفرة من السفرجل، ومكتبي ممتلىء به.

لو كنتُ يابانية وخطاطة لعمَدتُ، بعد الاستحمام والصوم لتطهير جسدي وروحي، إلى ارتداء أحلى كيمونو عندي وأمسكت بالريشة كي أسجل في «كاكيمونو»[٣] أو اثنين، خيباتنا ونجاحاتنا المتعددة، المختلطة، والمتموجة في الضباب الخريفي، كما تتلاشى من ذاكرتنا.

---

(١) و(٢) رسالة إلى ايليني ساميوس.

(٣) لفّة يابانية تستخدم للتخطيط والرسم.

نباتات معترشة، ثعابين متموجة، شلالات مياه عمودية، صور متحركة حبلى بالنّسغ، أثيريـة لا تكاد تدرك، انعكاسـات هاربة في مـرايا قصديريـة أتى عليها الزمن، حالات مزاجية، حميّا جسدية، وكل ما تسطّحه كتابتنا الغربية وتعلّبه.

لم يجد «الغريكو»، كما اكتشفـه بريفيلاكي، من يشتريه، بـرغم أصالته. ولم أنجح بدوري في إدخال الاختزال إلى اليونان. ولم يستول باباندريو على السلطة، وبـالتـالي لم يستطع تـوفير منصب لنيكـوس. ولم يـؤدّ الاكتتـاب من أجل نشر «الكوميديا الإلٰهيـة» مترجمة إلى توفير المال الضروري. ولم يمثل المسرح الوطني المسرحيات المترجمة التي طلبهـا. وفي فرنســا أفلس ناشران، ومـات ثالث، وتخلى رابع عن وعـوده بسبب حادث دنـا بـه من الموت. وفي اليونـان لاح بعضهم قليل الأمانة.. وفي النهاية تخلى نيكـوس عن نصيبه من ميراث والده إلى أخته الصغرى التي كان يحبها. ولإكمال هـذه السلسلة السوداء أذكر أنني تعـرضت إلى حادثة سرقة في بـاريس، فحُرمت من آخر ورقة نقـدية بألف فرنك، وكنت أنـوي اقتناء بطاقة العودة إلى اليونان بذلك المبلغ.

في لفة «الكاكيمونو» الثانية، وجهٌ كأنه مرسوم على الماء، وجه صارم وباسم في آن، ذو جبين واسع، وعينين متقدتين. وفي الخلفية سلسلة مـوجات متعاقبة، هي البلدان التي زرناها معاً: فلسطين، الاتحاد السوفياتي، تشيكوسلوفاكيا، فرنسا، إنجلترا، إيطاليا، اسبانيا، الصين، اليابـان، وعزيزتنا ايجين، نصف الشفّافة، مثل الطحالب البحـرية، والبحـر أيضاً، البحـر الشاسع، والجبـال والغيوم والسماء المرصعة بـالنجوم، وزيـارات أصدقائنـا الدامين، سـواء الذين التقينـاهم في هذا الكتاب أو أولئك الذين لا يتسع المجال لذكرهم جميعاً.

حيـاة عذبـة، هادئة بـرغم اضطرابـاتها، كانت تكتسب إيقـاعها من الموجـة العظيمة المؤدية إلى الهاوية.

بقيت في باريس مفلسة تماماً، وبعد تردد طويل تجرأت على الاعتراف بالكارثة إلى نيكوس:

ايجين ٨ نوفمبر ١٩٣٣ (١)

حبيبتي لينوتشكا،

عندما عـدت مساء البارحة من أثينـا، وجدت الرسالـة التي تخبرينني فيها بعملية السرقة.. لا تهتمي، ياحبيبتي، فكل ذلك لا شيء. سوف نتدبـر الأمر ونسدد ديوننا. تلك محن صغيرة تزول، من دون أن تترك أثراً. المهم، أن لا أحد يستطيع زعزعة وجودنا معاً. إن لحظة نقضيها معاً تمحو كل البؤس والحقد في المصير اللئيم، الأعمى.

أعتقد أنّك سوف تتخلصين من كل ما يضغط عليك الآن، مثل ضباب تبدّده الشمس، عنـدما تأتين وتسترخين على الكـرسي الهزّاز (الـذي سيعطينا إيـاه كالموك) مُنْصتـةً إلى همسات البحر الـرائق، مغمضة عينيكِ وأنا بقربك، أحدّثك. أنـا الآن لم أعد أخشى شيئاً أو أحداً ـ بشرط واحد ـ هو أن أشعر بك قريبة مني.

بعد الظهر ٨ نوفمبر ١٩٣٣

جاء كالموك فانقطعتُ عن كتابة هذه الرسالة. تناولنا المجرفة ومهدنا لك درباً يُمكّنك من ارتياد البحـر على أرض صقيلة. اشتغلنا كثيراً وتعرّقنـا، ثم عدنا. فأشعلتُ بـابور «البريموس» وقليْت سمكـاً، وأعددنا سلاطـة طماطم بالثوم، وشربنا قـدحاً على نخبكِ. وبعد ذلك تناول كالموك الصنّارة وذهب للصيد. يومٌ جميل وهادىء. وأنا سعيد باقتراب اليوم الذي ستتنزهين فيه هنـا.. لا تفكري في شيء، لا تقلقي، نمتلك مالا يمتلكه الملايين: اليقين بأن كل ما قد يصيبنا لن يتمكن من بلوغ سعادتنا.

أقبّل يديك، وقدميكِ اللتين تعبتَا من السير، وعينيكِ الواسعتين اللتين بَكَتَا، وركبتيك اللتين أحبّ، والكتفين الضامرتين اللتين طال حملهما لهذا العبء، وشفتيك اللتين أتلهف إليهما. أقبّل جسدك الحبيب كله.

ايجين ١٢ نوفمبر ١٩٣٣ (٢)

ايلينا كونستانتينوفنا،

استغرقتُ النهار كله في تهيئة غرفتك وكنت سعيداً جداً. كل شيء هنا ينتظرك بفارغ الصبر.. هذه الحياة معجزة كبرى، غير مـؤهلة. فلا نحتاج إلى أية حياة أخـرى قادمة أو أي فردوس. هذه الحياة تكفينا، بل إنها أجمل من المطلوب!

---

(١) و(٢) رسالة إلى ايليني ساميوس.

أنام حـالياً في غـرفتك، كي أعيش فرحة حضـورك، مسبقاً. أتطلع في الفضـاء الفارغ وأتخيلك، رائحة غاديـة، في المساء، مقلداً تلك الحركات الحبيبة. وأعـرف أنَّ الفرح الذي أشعـر به الآن، سـوف تزداد كثـافته، ألـف مرة، في مـواجهة الـواقع.. علقت على الجدار أيقونة للعذراء، وصحنين اسبـانيين، وعلقت حبّات رمان، ووضعت على طاولتك بعض الكتب والبطاقـات البريدية، ومجلة «لي نـوفيل ليتيرير» وحبّات سفـرجل. إنَّها لحظات مقدسة، ملأى حناناً، هذه التي أعيشها وحيداً، مهيئاً غرفتك. ومع ذلك أشعر، ياحبيبتي لينوتشكا، ببعض القلق: فهـذا الفرح يتجاوز ما يحق لـلإنسان امتلاكه. أحيـاناً أقول ربما كنـا على درجة مـن الطيبة مكنتنـا من امتـلاك الحق والقوة لتحـويل هـذه الأرض الخائبة إلى فـردوس. لقد امتُحنا كثيراً في الـرزايا والأفراح وخـرجنا منتصرين. فليحفظ «الإله» قلبيْنا، هكذا دائماً، صامدين، طاهرين، لا يقهران.

١٩٣٤. كان الإغريق القدامى يحبون ايجين لجفـافها. ويقال إنَّ أريستوفان وُلد فيها، وأن أفلاطـون يؤمها للراحة. أما معاصرونـا فيحبونها لجودة جرادها، وفستقها، وسمكها[١] المتفـرّد، واسفنجهـا. ولقـد عَمد اللّصـوص الـدوليـون، المتخصصون في علم الآثـار، إلى نهب معبد «أفي» في ايجين، كما في إلْجين، وتفكيك الأفاريز والواجهات المنحوتة التي تعاني من التحلّل والجفاف في ميونيخ، بعد أن حُرمتْ من مـلاطفة الصّنوبر والنسيم البحري. وتشهـد على النهب تلك الأعمدة المجرّدة في رقصها المهشم، قبالة سونيون.

قطعة من أرض أتيكا، استيقظت ذات يوم مقطوعـة الحبال، غيمة ساقطة من السماء، مثقلة بوعـود خُلَّبية، جانحة بين الأمـواج. صغيرة، لكنها ليست صغيرة جداً، بعيدة، لكنها ليست بعيدة جداً[٢]، شعبية لكنها ليست مزدحمة، ولقد نجت من السياحة Made in Europe المصنوعة في أوروبا. مينـاؤها جميل، عاصمتها مثل «قريب من العائلـة فقير»، هضابها موشاة بشجر اللـوز والكنائس المنهارة، جبلها أجرد، أراضيها الكلسية مزروعة بكروم العنب. سكانها مبتسمون محبّون

(١) سمك ذهبي مسطّح ذو لحم رقيق، يصعب نقله بعيداً، ويسّميه أهل ايجين «كاتسولا».
(٢) توجد «ايجين» على بعد ثمانية عشر ميلاً من «بيري».

للتورية، والكسل. قاحلة من جهة أثينا، مغروسة بالزياتين من ناحية أبيدور، أفريقية باتجاه الجنوب.

شهدتْ في الأزمة القديمة مجد الانتصار، ودمار الحروب. ومنذ حوالي مائة وأربعين عاماً اختارها اليونانيون أَكَلَةُ الثّوم، ومطاردو الأتراك بالسكين والمقلاع، عاصمة لهم، ليفضلوا عليها أثينا فيما بعد، ويحوّلوا أول مدرسة فيها إلى سجن من سجون الحق العام.

وهكذا فإن المسافرين إلى ايجين بحراً يمكن أن يصادفوا في السفن بعض رجال الدرك بصحبة لصوص، معظمهم من الشباب، يدخّنون والقيود في أيديهم أو يتحدثون مع جلاديهم أو يلتزمون الصمت. وخلال السنوات الأخيرة من الاحتلال الألماني، كان يُشاهد أيضاً سجناء سياسيون في الأصفاد، لأنهم أرادوا كسر قيودنا.

ومن كان يدري أنَّ قلبي سيخفق لإيقاع آلة «السانتوري» بعد مرور كل تلك السنين، وأنا أتذكر تلك الرحلات البحرية القليلة؟ ومن الذي مازال يذكر ذلك الرجل السمين الذي كان ينشد آلام جزيرتنا، برأس مائل وعينين ثابتتين؟ كانت أنغام السانتوري الخافتة أشبه بمطر خفيف يبلل الجسر. في ذلك الوقت كانت الموسيقى لاتزال تعبق بطابعها المحلّي، تماماً مثلما يتمكن المرء من تمييز آهته من ألف. أما الآن فيكفي أن تدير زرّاً فيخرج ماهب ودبّ. سمعت بنساء شرسات خنقن أزواجهن بسكب حساء فولٍ خاثر. وهذا الحساء الجديد، حساء الموجات، يمكن أن يقتل اليوم حيواناتٍ أقوى من الإنسان.

كان من الطبيعي أن يختار كازنتزاكي كريت، لأنه كريتي لحماً ودماً، لكنه مجرد إنسان في نهاية المطاف، فكان يخشى الاستسلام لمداعبات الأهل. لذلك أختار ايجين الجزيرة المعزولة تماماً، ولاسيما بعد ذهاب آخر سفينة: عزلة قريبة من العاصمة.

كنتُ أفضّل آتيكا، لخوفي من تلك الصخرة العائمة، في البداية. ثم أدركت **أنَّ** الحب يمكّن العاشقين من العيش حتى فوق عمود.

لا أسعى إلى تجميل زوجي كما أنني لا أسوّده، ولم يكن من السهل دائماً، استنشاق الهواء المضطرم حوله. لكنه لم يكن ليفرض رأيه على الآخرين. وعندما وجد نفسه أمام خيار التنازل المريح أو الكرامة، لم يتردد. فرفض الكراسي المريحة بكل كبرياء.

أحببتُ ذلك الرجل الفاتن الحكيم، وأعتقد أنني أينعت تحت فيء شجرته المعرفية، بمقدار ما سمحت لي طبيعتي.

«عشتِ ثلاثين سنة معي ولم تتعلمي شيئاً!» اشتكى ذات مرة خلال أيامنا الأخيرة في فرايبورغ لأنني تذمّرت من تهوّرنا المدمّر.

ــ عمَّ كنّا نبحث في الصين؟ لِمَ وافقنا على ذلك الطعم اللعين؟

رفع عينيه المدهوشتين، كعادته، ويداه النحيلتان مستندتان إلى مُتّكأيْ الكرسي المريح، وقال:

«ما جدوى النظر إلى الوراء، يالينوتشكا؟

ــ لأنك.. لأنك تعذبت كثيراً..

ــ ما أغرب أطواركم أنتم، بني البشر! همس وهو يهزّ برأسه. أنا لا افكّر إلاّ في الفرح الذي نلته، أما ما تبقى فلا يهمني كثيراً!»

أحببت ذلك الرجل لأنه لم يسعَ قط إلى إثبات تفوقه وترفعه، ولم يلحّ على تحويلي إلى «مُتفلْسِفة» كنت بسيطة، فتركني كذلك، محترماً طبيعتي.

غير أنه حررني من عُقدٍ زرعها فيّ أوصياء عاثرون. علمني ألا أخجل من ضعفي. ولم يمكني من الحصول على الشهادات الجامعية التي كنت أطمح اليها. لم أصر عالمة إلى جانبه. لكنه وهبني الحب، الثقة، الحنان، الحقول والغابات، الجبل، البحر، والأنهار، والأسفار الطويلة التي لم أكن أحلم بها، والحكايات الكريتية أو الأفريقية، وتَعرّيه الكامل والنموذجي أمام الإله. وحدهما، غاندي وهو، كانا يستطيعان العيش والحكم بأبواب مشرعة: ***الإنسان الذي يحكم مدين بالحقيقة كلها لشعبه. ومن حق الشعب أن يطّلع على فكره، وعلى حياته، كما لو كان***

يطالع كتاباً.

لم يكن «صمتنا» أمام البحر سوى تورية وتلميح. ففي الصيف كانت هناك ألف شبابة تصدح، غير مرئية. وفي الشتاء، كانت الليالي تمر مسكونة بالقلق، أحياناً. إذ تنقضّ الريح الشمالية على الصخور وترش الأمواج بيتنا الذي يصمد أمامها، وكأنه صخرة مأخوذة من البحر، بدوره. وتطقطق النوافذ، كما لو أن قافلة عربات من نوع «الطنابر» العتيقة تمرّ تحت نوافذنا.

لو كنتُ وحدي لتملكني الذعر. لكنه كان هناك، هادئاً، تحت نوسان فتيلة مصباح النفط، يلاطفني ممسكاً بيدي، وهو يقرأ بصوت عالٍ حتى يوفر الإرهاق على عيني الهشتين:

«اليوم سأعلمكِ الفلسفة..

ـ أليس من الأفضل أن تروي لي حكاية كريتية؟»

أما «الفلسفة» فكانت مجسدة أمامي في شخص رفيقي: الطيبة، عدم الحسد، امتلاك الحد الأدنى الضروري (أيقونة، قطعة عاج، أو أية تحفة آتية من آخر العالم..)، رسم صورة ذاتية مثالية وتثبيتها على الجدار من أجل التطلع فيها ومحاولة التماثل معها.. العفو عن المسيئين.. التمتع بالأرض، والسماء، والبحر، الخرفان والأبقار، الخبز الأسمر والزيتون. quanto perdrices, perdrices,[1] quanto oraziones oraziones وعدم السماح للرفاهية أن تخدّرك. فإذا جاع طفل في أطراف الأرض فإنها مسؤوليتك، وعليك أن تجعل روحك متأهبة دائماً.. وتظل واقفاً حتى دنوّ ساعتك، بدماغ غربي وقلب أفريقي.

نعم، كان قلب «الفلسفة» أفريقياً. فكانت تجيد الضحك والمداعبة.. «كانت تدخن» الغليون، وتستمتع بحساء السمك، وتسبح، وتجف في الشمس، وتنزل إلى المدينة لتسوّق، فتعود وجرابها زاخرٌ بالحكايا.

«صباح الخير، ياستراتيس! متى تتزوج؟

---

(١) «عندما يكون الحجل، يكون الحجل، وعندما تكون الصلاة تكون الصلاة» (القديسة تيريزا دافيلا).

ـــ ماذا تقول يا«كير»[1] نيكوس؟ ألا تعرف بأن المرأة تطالب بزوجيْ حذاء؟ كان ستراتيس، مجنون القرية، يعلق زوجيْ حذائه حول رقبته. ويتنهد سعيداً لإصابته بالتيفوس «الحمّى الصفراء» في طفولته، ونجاته من الالتحاق بالمدرسة.

لا يوجد إنسان يستطيع الادعاء أنَّه طرقَ بابنا وعاد خائباً، كان نيكوس يتفرغ للضيافة والصداقة أكثر من تقديسه للعمل. لكنها صداقة قنوعة ومتحفّظة، بعيداً عن المقاهي والاجتماعات العامة، ومن دون معارك صاخبة.

وكان يستمع إلى اعترافات الأرواح أيضاً، فيأتيه المهانون والمضطهدون طلباً للنصح:

«كير نيكوس، فاجأني زوجي.. وسوف يطردني إذاً..

ذلك أن كيريا ماريّا عجوز فقدتْ أسنانها. وأضرّت بها الولادات العديدة. وزوجها يتهمها بكونها خليلة عشيق ابنتهما.

ـــ إذاً.. ماذا، كيريا ماريا؟

ـــ إذا لم أصطحب «الخطيب» في زورق..

ـــ في زورق؟

ـــ نعم، في زورق.. لكن بشرط..

ثم وضعت في كف نيكوس رزمة ديناميت[2] صغيرة ملفوفة في ورق جرائد.

ـــ هل أفعل.. أم لا أفعل؟.. ما رأيك كير نيكوس؟»

السعادة تفتقر للحكايات عادة.

من ١٩٣٣ إلى ١٩٣٧، أوتنا ابنة عمي ماري، مرة أخرى. وهذه المرة في لسان أرضي صغير يلامس البحر، شمالي الجزيرة، قبالة سالامين وميغارا. وفي الغرب

(١) كير، اختصار «كيريوس»، السيد، باليونانية. ومؤنثها كيريا، السيدة. «المترجم».

(٢) كثيراً ماكان الصيد يتم بالديناميت آنذاك، ويُنعى العديد من الضحايا.

توجـد قناة كورنثيـا، وإلى الجنوب قليلاً، ترتفع جبـال البيلوبونيـز مُشرِفةً على «إبيـدور» و«ميثانـا».. وإلى الشرق تـوجد عـزيـزتنـا تلة «هيمات» ذات الظهـر المحدودب والوجه المستأنس. وكانت لنا داليـة أيضاً، و«مصطبة بحرية» خاصة تحاذي الأمواج، وشجرة تين، ومقصورة عالية على شكل برج عاجي.

عمل مكثف في النهار، شـاي في الساعـة الخامسة، ونزهـات مع محبي الليل. يقظة وردية، منتصف نهار عنْبري، غروب قرمزي، وليل مرصّع بنجوم من ذهب نوم مُهدْهَـد بأمواج مالحة. رياح شماليـة في الشتاء، وجنوبية صيفـاً، ثم غربية تذكرنا بهدأة السعادة.

وعدد غير قليل من الزوّار المخالفين للمألـوف: من رسامين ونحاتين وشعراء، شباباً وشيباً، وروائيين، من الأصدقاء القـدامى أو من المبرعمين حديثاً، يونانيين وأجانب.. وكثيراً ماكنا نستبقيهم كي يشاطرونا طعامنا البسيط.

وفي سنـة واحـــدة، هي ١٩٣٤، ألّف نيكـــوس، بـالتعـاون مـع البرفيســور بانيتسوس، كتابين مدرسيين، وثالثاً ساهم فيه بقسط كبير. وكتاب أبجدية، وأعدّ صياغة جديدة لـ «الأوديسة»، تسعـة أناشيد أهداها إلى «الحرّاس الخاصين» بـ «أوديست» ـه: لينين، دون كيشوت، هـو ذاتـه، محمـد، نيتشة، بـوذا، عيسى، القافية، وهيلينا. وترجم كذلك «الآلة الجهنمية» لكوكتو، بطلب من المسرح القومي اليوناني.

في شـهر ينـاير ١٩٣٤ دوّن نيكوس في دفاتـره، بأسلوب بَرْقي، حلماً أثّـر فيه كثيراً. وبعد ثلاثة وعشرين عاماً تذكره وأورده في «تقرير إلى غريكو»:

شفتـان مرتعشتـان، شفتـا امرأة، لاحتـا معلّقتين في الهواء، بـلا وجه: ثم تحرّكتـا، فسمعتُ صوتـاً: «من هو ربّك؟ ــ بوذا!» أجبتُ من دون تـردد؛ غير أنَّ الشفتين تحرّكتا مرة أخرى: «كـلّا، إنه ايبافوس!.. ايبـافوس إله اللمّس الذي يفضـل الجسد على العتمة والذي كما الـذئب، لا يشبع من الأخبار السعيدة. فـلا يثق بالعين، ولا بالأذن، يـريد أن يلمس، ويمسك بالأرض والإنسان في يده، ويحسّ بحرارتهما تمتـزج بحرارته، فيتوحّد بهما. ثم يجعل من روحـه جسداً كي يتمكن من لمسهـا. إنّه الإلـه الأكثر وثـوقاً بـذاته، والأكثـر انكبابـاً على العمل، ذلك الذي قَـدَمَاه على الأرض، ويحب الأرض، ويـريد إعـادة

خلقها على صورته وهياته. ذلك هو إلهي.

أشجار التّين ترسل أوراقها الأولى، أيادي صغيرة شفافة مبسوطة نحو السماء، والمرج يموج بشقائق النعمان وبأزهار اللؤلؤ الكبيرة الصفراء، والسوسن الأزرق والأبيض. فيما البنفسج البرّي يتشبث بالصخور معطر الشاطىء.

ولم تنته القضية المعلّقة بالناشر. وترجّى انفيلاكي، نيكوس كي يأتي إلى أثينا لمقابلة الناشر: *فالحضور هو السلاح الأكثر مضاءً*! قال له مستشهداً بالمثل الشعبي. لكن نيكوس أبى أن يكلم شخصاً لم يعد يحترمه. فذهبت إلى أثينا بدلاً منه:

ايجين، الأربعاء (ربيع ١٩٣٤)[١]

ربما علمتِ بأن «لي نوفيل ليتيرير» قد نشرت نقداً مطولاً بقلم فينبرغ، مدح فيه كتابك «غاندي»[٢]. لقد فرحت كثيراً. إذ أن ذلك النقد سوف يخدم الكتاب.. أما بالنسبة إلى «ذ» فأنا أقبل بالتسوية.. لأننا نحتاج إلى المال..

ايجين، الأربعاء[٣]

جاءتكِ رسالة من الناشريْن وسمحتُ لنفسي بفتحها، لأنني متلهف.. سيترجم «غاندي» إلى الألمانية أيضاً.. تعالي بسرعة لتتفرغي إلى كتابك «شليمان» وسوف يصير أفضل:

إلى الأمام، يالينيو! لن أتركك بلا رعاية مادامت الريح

تحرّك شعري، سوف أمسك بيدك.

ونتجول معاً على اليابسة، فلا تتذمّر

لقد كتبتُ اليوم، هذه الأبيات لـ «الأوديسة» وفكرتُ فيك كثيراً.

في نهاية يوليو شعرت بآلام حادة بينما كنتُ أسبح في البحر: مرض مجهول

---

(١) رسالة إلى ايليني ساميوس.

(٢) صدر ضمن منشورات دالشو ونستلي، نوشاتال، باريس.

(٣) رسالة إلى ايليني ساميوس.

يعلن عن نفسه. تأهبت للذهاب إلى أثينا من أجل العلاج. لكنني أخضعت نفسي للعلاج في ايجين أولاً، ثم اضطررتُ إلى لزوم الفراش والسفر إلى أثينا.

ايجين ٨ أغسطس ١٩٣٤[١]

حبيبي القديس جورج المريض،

في وقت مبكر من هذا الصباح توقفَ جحش أمام بابنا ونزلتْ عن ظهره سيِّدة، تتبعها خادمة، حاملةً أغطية. أسرعت لأفتح الباب: «مِسْ مازيورا![٢] آه، ايليني ليست هنا!»

جاءت لتصطحبنا، وقد هيّأت غرفتين في منزل السيد وِلْتر[٣] لنقيم فيهما حتى شفائك.

لقد تأثرت شديد التأثر بطيبتها. امرأة نادرة...

دون جوان[٤] تناول قرص الدواء الثالث، وحاولتُ أن أناوله زيت الخروع بالقطارة. فتبين أن ذلك مستحيل. اشتريت قليلاً من «القطايف»[٥] وخلطتها بالمسهل، فالتهمها كلها، لاعقاً شواربه.

ليس هناك ما أضيف. كتبت نشيداً جديداً وقررت جعله افتتاحاً للأناشيد الاثني عشر السابقة.

ايجين ١١ أغسطس ١٩٣٤[٦]

قرأت رسالتك مرات عديدة بحزن متزايد.. أفكر فيك كل لحظة. ولا يمكن التعبير عن مدى حبي وغمّي. أخجل من العودة إلى تكرار كلمات دافعت عنها سابقاً. لكنني عندما أفكر فيك، أشعر بأنني لا أمتلك شيئاً آخر في العالم.. الكتابة حاجة لا تجلب لي أي فرح لأنني لست مثقفاً جافاً ولا يتملكني الغرور بأن ما أكتب ذو قيمة. وهكذا فإن الكتابة ليست عزاء. أنتِ الوحيدة في العالم تستطيعين منحي فرحة الحياة، ومبرر الوجود. لقد

(١) رسالة إلى ايليني ساميوس.
(٢) عالمة آثار أمريكية شابة كانت تعيش في ايجين.
(٣) الم آثار ألماني لعب دوراً خلال احتلال الألمان للجزيرة.
(٤) قطنا.
(٥) هكذا في الأصل. «المترجم».
(٦) رسائل إلى ايليني ساميوس.

تملكني من جديد أسًى من عدم قدرتي على تبيان مدى قيمتك عندي. وعلى العكس، كنت ألجأ إلى إخفاء عواطفي في لحظة الحنو الأكثر عاطفة تحديداً، فأتظاهر بالخشونة إزاءك من دون التوصل، أو الرغبة في التوصل إلى معرفة السبب. آه، عودي في صحَّة جيدة إلى ايجين ولن أعيد الكرة أبداً..

ريح وطقس منعش. أذهب للسباحة. أنجزت النشيد، وأطالع رواية «الطِّباق» لهكسلي. إنَّها رواية جيدة، غنية جداً وحاذقة، لكنها مفرطة في الذهنية..

ايجين ١٥ أغسطس ١٩٣٤[١]

أخبرتني مس مازيور بأنها رأتكِ، وبأنك مازلت مريضة. أمشي وأجيء في البيت يائساً لا أستطيع التفكير ولا العمل. والنشيد الذي أكتب، كي أهديه إليك، يخرج قطرة قطرة مثل الدم.

أُجيزَ أحد كتبنا المدرسية، وهكذا سنكون في منأى عن الهم المادي لبعض الوقت. اذهبي، بعد شفائك، إلى بعض المحلاّت المتخصصة، واستعلمي عن مذياع ببطاريات.. أمل أن نتمتع بالموسيقى في عزلتنا الشتوية.

هنا، ما من جديد.. وصلتكِ فقط مجلة من مصر، نُشرت فيها بعض المقتطفات من كتابك عن «غاندي» ولم يَردْ شيء عن «تودا ـ رابا». يبدو أنَّ مصيره ليس كمصير كتابك الذي نُشر حوله الكثير. وهكذا أتحرر من إغراء الكتابة بالفرنسية مرة أخرى.

ايجين ١٨ أغسطس ١٩٣٤[٢]

أبعث إليك بخاتمة نشيدك[٣]، ولا أدري إن كان سيعجبك؛ والآن هل تستطيع الكلمة أن تكون نداً لقلب الإنسان؟ وكما يقول متصوّف بيزنطي: الإلٰه آهة ودمعة وديعة» فذلك هو الحب. ولا يمكن أن تستوعبه إلا الدمعة الوديعة والتنهدة. والعمل.

من حسن الحظ أن هيلينا شقيقة نيكوس جاءت للإعتناء به في ايجين. لكنه تعب في تجاوز الكآبة التي تملكته من فراقنا. فكتب لي، يوم أول سبتمبر: «أبذل جهداً فظيعاً كل مساء كي أبادل هيلينا الكلام».

وفي ذلك الوقت الصعب أعلن صديقانا مادي وبيار سوفاجو عن مقْدمهما:

(١) (٢) رسالة إلى ايليني ساميوس.

(٣) «هيلينا»

الجمعة (سبتمبر ١٩٣٤)[١]

كل شيء على مايـرام وضيْفانا مبتهجـان.. يقضيان ساعات على الشرفـة ويكتبان أو يقـرآن، ذهبنا اليـوم إلى المدينــة، واشتريت سمكاً وفـواكـه كثيرة. المائدة تعجّ بالغـذاء البسيط والطيب.

ايجين الأحد[٢]

..قرأنـا قصائدك مـرة أخرى: رائعـة. ولاسيما قصيدة «موسيقـى»، إنها واحدة من أفضل مـا كتبت، نغمة جـديـدة، عميقة، فـاتنة. أنـت واحدة من أعمق وأفضل شعـراء اليونان. بلغت القمة دفعة واحدة، من دون تعثر أو تلمس.

غنتْ مادي قليلاً، اليوم، بصوت تشوبه بحّة لكنه جميل.

ايجين، الخميس (سبتمبر ١٩٣٤)[٣]

وصلتني قصائدك، كلهـا جميلة. تـرجمت بعضها إلى الفـرنسية وأعطيتهـا إلى بيار سوفـاجو. وسوف أتـرجم المزيد.. يبدو لي أننـا صرنا أصـدقاء مع بيار. قـاومتُ كرهي للنظـريات الإشراقيـة وآمال التنـاسخ التي يبشر بها سدىً، وتعلّقت بـالرجل الـرائع، الذكي، الدافئ المختفي وراء كل تلك الحلويات البوذية.

أمضيت سبعـة أشهر مـريضة في الفراش وتسليـت بكتابـة قصائد قصيرة. وكنت أبعث بواحدة في كل رسالة إلى نيكوس. لتهدئة ألم الفراق. فكان يبالغ طبعاً في تقييم شعري. ولحسن الحظ أنني بقيت أتـذكر حكاية علي بـاي الجميلة التي رواها لي ذات يوم:

«كان علي باي شيخاً تركياً هرماً يبيع التوابل والبهارات في دكان صغير كائن في «ميغـالو كـاسترو». وذات يوم جلس أمـام دكانـه يروّح عن نفســه في الظل، منتظراً زبائنـه النادرين، وغالبيتهم من الأطفال الذين يأتـون إليه لاقتناء القليل من الفلفل أو القـرفة بقيمـة فلسيْن. كان يـروّح عن نفســه ويشعر بأن الحيـاة جميلـة. وفجأة توقـف أمامــه صـديق: ـــ من أين جئت، أيها الصـديق؟ ـــ من اسطمبـول، يـاعلي بـاي. ـــ وعمَّ كنت تبحـث في اسطمبـول؟ ـــ ذهبت لـزيـارة

(١) و(٢) و(٣) رسائل إلى ايليني ساميوس.

السلطان.. ـ الباديشاه؟ ـ فديتُك ياعلي باي، نعم إلى الباديشاه! وأراد الباديشاه، صاحب النّعم الكثيرة، أن يعرف أخبارك. فأمرني قائلاً: «أخبر علي باي أنني أحبه كثيراً، وارسل إليه مع سلامي، بحمولة أكباش قرنفل وقرفة.. مائة أوقية من القرفة، ومائتي أوقية من الفلفل الأسود، وثلاثمائة أوقية من...

فوقع علي باي مغشياً عليه، ونسي الترويح عن نفسه. وظل الزائر يتكلم، ويتكلم، والأوقيات تزداد، وتزداد، حتى غرقت ميغالو كاسترو في القرفة وأكباش القرنفل.

وفي الأخير همهم علي باي متلمّظاً:

– تكلم، تكلم دائماً، ياصديقي. تكلم، أعرف أنها أكاذيب لكنها تَروُوووقُ لي!»

ايجين ٣ أكتوبر، الأربعاء(١)

..البارحة.. لدى عودتي في ساعة متأخرة من الليل فرحت فرحاً شديداً: اقتنى الزوجان سوفاجو ـ الغورغوني(٢) ـ رأس الجؤجؤ الذي كنا نشاهده في الورشات، وجَاءَا به إلى بيتنا (٣). إنها الآن في المدخل تنظر إلى البحر. وسوف تصير عذراءنا «نوتردام» التي لا تفارقنا. ليت كل ما نتمناه يتحقق، فتشفين، ويساعدنا بيار على الذهاب إلى باريس، ثم نبني فيما بعد، بيتاً صغيراً في ايجين!

يقيناً صرناً، أنا وبيار، صديقين.. تلقيت برقية من مينوتيس(٤) لكن ما من نقود. لحسن الحظ أنك بعثت لي بالألف دراخما، لأني دفعت للبقّال أكثر من خمسمائة دراخما هذا الشهر. غير أنني سعيد فالضيافة تامة.

وقبل أن يغادر نيكوس بدوره، ايجين، تلقى رسالة من روجيه مارتن ذي غار، وهو إلى جانب جان كاسو وجان هيربير ورينو دي جوفينال، من الأدباء

(١) رسالة إلى ايليني ساميوس.

(٢) زخرفة هندسية تشكل رأس امرأة مفتوحة الفم وشعرها من الثعابين، وتزيّن بها مقدمة السفن أو الجؤجؤ «المترجم».

(٣) صار بيتنا في ايجين، آنذاك يعرف بـ «بيت الغورغونيا» والآن يوجد ذلك الجؤجؤ في متحف الدراسات التاريخية في اليونان.

(٤) تدخل الممثل الكريتي أ.مينوتيس لدى إدارة المسرح القومي من أجل تكليف كازنتزاكي بترجمات مسرحية، ولم يتم تمثيل تلك الترجمات لاحقاً.

الفرنسيين القليلين الذين أعجبوا بـ «تودا ـ رابا».

أشكرك بصدق على التكرّم بإرسال كتابك لي. قرأته دفعة واحدة باهتمام كبير، واستفادة مستمرة. إنه يُقرأ باندفاع. كما كُتب تماماً. كتاب مُربك وعنيف، يزخر بالقوة المكثفة والإيمان، كتاب إنساني، مؤثر، يدفع إلى حبّ المؤلف..

١٩٣٥. كثيراً ما تعجبنا من «المعجزات» التي كانت تأتي لإنقاذنا، من وقت لآخر. لقد لزمت الفراش مطولاً حتى بدأت أفقد الثقة في جسمي، كما في آلهتنا الحامية، عندما اتصل مدير صحيفة «أثينا اكروبوليس» بنيكوس كازنتزاكي كي يكلّفه بإجراء تحقيق في اليابان والصين، أي بالتحديد، في ذلك الشرق الذي كان يحلم به بقوة شبه مؤلمة، قال لي مقبّلاً عينيَّ:

«سوف أنظر بأربع عيون، يالينوتشكا، وأعدك بأن نزور اليابان والصين معاً، ذات يوم. أما هذه الرحلة فهي من باب التعرّف..»

وقبل رحيله إلى الشرق فكّر في أكثر أصدقائه «شرقية» أي باناييت، وكانت رسالته الأخيرة إليه مشرقة بالتفاؤل:

أثينا، ٦ فبراير ١٩٣٥

عزيزي باناياتاكي، عزيزي أليعازر الذي لا يحتاج حتى للمسيح، أنت ياالأعلى من اليعازر، سلاماً!

ما أجمل العيش على هذه الأرض الصغيرة والقدرة على الحب! حبّ ذلك «الهايدوك» ذي المؤخرة الرصاصية الذي يسقط واقفاً، دائماً! سلاماً ياأخي، يارفيق المهارات، ياعوليس الخالد!

بعد ثلاثة أيام أسافر إلى الصين واليابان. وأنا سعيد برؤية الوجه الأصفر للإله، والعينين الشبيهتين بعيني قرد، وتلك الابتسامات الماكرة، والأقنعة العجيبة لأسيادنا في المستقبل. وسوف أعود بعد خمسة أشهر. وفي انتظار ذلك، أضع تحت تصرّفك بيتي الصغير (ثلاث أو أربع غرف، مطبخ، فيرندا، مصطبة، دالية عنب، بئر، وشجرة تين) في ايجين، على شاطىء البحر، إنه ساحل رائع! تعال ياعزيزي باناياتاكي، وسوف تشعر بالسعادة هنا، مع هذه المرأة الشابة ذات الجمال المذهل، والضحكة والأسنان الخطرة! نحن الاثنين، سعيدان.. السعيدان الوحيدان في العالم لأننا نلعب بالنّار ولا نحتاج إلاّ إلى

قلبنا الجميل، النَّهم والنازف. نلتهمه في النهار فيبعث ليلاً. نحن بروميثيوس وأجنحة بروميثيوس في آن واحد: نحن كائنان تامان.

أرسلت إليك بنسخة من «تودا ـ رابا» قبل سبعة أشهر، مع إهداء في غاية الرقة (عندما أفكر فيك يخنقني الحنّو). تستطيع التصرّف في الكتاب كما تشاء، واذا أردت أن تقدّم شيئاً للمؤلف، فما عليك إلاّ أن تشرب نخباً على صحتي، وصحتك، وصحة زوجتك، وبيليلي وايليني..[1]

على متن الباخرة «قبرص» ١٨ /٢ /١٩٣٥[2]

لينوتشكا الحبيبة، ياقديسي جورج!

أخيراً لاح الساحل المصري، في البعيد. ومن كوّة الباخرة أميز خطاً غامقاً غير محدد. أنا المسافر الوحيد..

أنا مستلق في قُمرتي. اليوم عيد ميلادي, أفكر فيك وأراجع حياتي متوصلاً إلى قرارات جديدة. أحاول تطهير ذاتي وطرد عيوبي ودعم كل ما هو جيد، حتى أصعد، أخفّ وأنظف، نحو قمتي المتحركة دائماً.

وأنت معي، ياحبي الكبير، وأنا أرتعش من الفرح واللذّة والزهو.

بورسعيد، ٢٠ فبراير[3]

تعرفتُ على شخص كريتي يعمل مديراً للجمارك (يعتمر طربوشاً ويتكلم العربية) ويعرفني من خلال «كتب» غالاتي: «هل أنت زوج السيدة غالاتي؟ ـ نعم!» ولا يمكنكِ تصوّر ماحدث: قدّم لي كرسياً مريحاً، وقهوة وترحيباً و... وسيأخذني بالقوة لتناول الغداء في بيته.. أخشى أن تكون السيدة غالاتي معروفة في طوكيو أيضاً، بالي كالا![4]

بورسعيد، مساء، ٢٠ فبراير ١٩٣٥[5]

ذهبت مع اليوناني إلى بيته وأكلنا لحم طائر التّدرج. كيف أصف لك قاعة الجلوس؟ خفتُ وانقطعتْ شهيتي للأكل: كانت الزوجة، قبل زواجها تتعاطى الرسم. ولقد نسخت بطاقات بريدية صارخة الألوان كبيرة الأحجام، وألصقتها على الجدران. وهناك دُمَى

---

(١) رسالة كتبها كازنتزاكي بالفرنسية مباشرة.

(٢) و(٣) رسالة إلى ايليني ساميوس.

(٤) كان يمكن أن يحدث الأسوأ.

(٥) رسالة إلى ايليني ساميوس.

شنيعة فوق وسائد زرقاء، وزنوج مصنوعون من مادة السلّولويد، وموزعون على الزوايا الأربع، أصص صينية مرعبة. ثم جاءت السيدة، باردة، متكلفة، لا تعرف هل تتصرف معي كمتشرد، أو كمتوحش، أو كإنسان سامٍ. وكان المذياع يزعق *بالأمان أمان*(١) ـ وقالت لي السيدة، فيما بعد إنها تدمن الاستماع إلى الموسيقى الراقية! جلسنا إلى المائدة: سمك «روجي» (السلطان ابراهيم)، ولحم التّدرج العتيد.. الخادم كاتينا من أصل كريتي، وفي الغرفة المجاورة شرعت حجلة تغرّد فهرع السيد وعاد بها؛ هي أيضاً كريتية. جاء بها من كريت كي يتذكر جبالها. وضعها على المائدة، وبينما كنا نبدي إعجابنا بها لطخت السماط. فقفزت السيدة وأعادتها إلى القفص. وتابعنا الأكل، فاحتسينا نبيذاً كريتياً، وجبْناً كريتياً. وسرعان ماذاب الجليد بيننا، فسألتُ السيدة «عن هدفها في الحياة»، وسألتني إن كان يوجد إلٰه. قلت لها «ليس بعد، ياسيدتي» وطلبت مني وصفة في الحياة لإيجاد السعادة. قلت لها: «تطهير الضمير، والتعلّق المتحمّس بشيء ما في الحياة، مهما كان نوعه، وعدم اللجوء إلى جرح قلب كائنٍ بشريّ، أبداً» فرحتْ كثيراً ووعدتني بأن أجدها سعيدة، لدى عودتي بعد أربعة أشهر. عندئذ أغلقنا المذياع فشعرت بارتياح لا يوصف.

في الرابعة والنصف خرجت وطفت في الشوارع حتى السابعة. ملأت جيوبي بالمنْدرينة الحلوة. وأكلتها في الشوارع. مع حلول الليل، اقترب منّي زنجيّ وكلّمني بالإيطالية. أخرج من جيبه صوراً فاحشة جداً وأراد بيعها لي. ثم عرض عليّ مرافقته إلى البيت أين توجد أخته الجميلة. قلت لا أريد نساء، فعرض عليّ أخاه. قلت لا أريد رجالاً. عندئذ نظر إليّ مذهولاً وتركني.

٢١ فبراير(٢)

وصلتْ «كوشيما مارو»، وثمة يابانيون قصار القامة، صامتون. الباخرة كبيرة. طباع الصينيين غريبة. خصّني القبطان بقمرة رائعة، لي وحدي، فوضعت كتبي وأمتعتي لأستقر مدة شهر.. نحن الآن في قناة السويس حيث سفن كثيرة، وأشجار نخيل على امتداد الشارع أمامنا، وفلاحون في زوارق مملوءة بالصندرينة، والخبز، والزيتون، والسجائر، وغلايين الحشيش. يسافر معي يابانيون ويابانيات بشعات جداً، وهنود مسلولون وفرنسية كريهة.. هناك فلاح يقفز، ويعيد الكرة، من الجسر إلى البحر، فيضحك الجميع، ويجر المسكين نفسه مبللاً ثم يطلب البقشيش. أما أنا فاشيح

(١) هكذا وردت في الأصل. «المترجم».

(٢) رسالة إلى ايليني ساميوس.

بوجهي لاشتمئـزازي من كل ما يحط بـالإنسان.. أدخن غليـوني وأفكر في الـرحلة التي بـدأت. أشعر ببعض الخوف من الـرجال الصفْـر. هل أتوصل إلى حِبّهم؟ كيف سيكـون قلبي إثر العودة؟

ليلة ٢١ فبراير(١)

مازلنا في قناة السويس الشهيرة. على يسارنـا صحراء العرب، رتيبة بلا أشجار، ولا حتى بيت واحد. وعلى يميننا الأرض المصرية منبسطة بنخيلهـا وقراها. وهكذا ننزل إلى البحر الأحمر، بين أفريقيا وآسيا.

تعرفتُ إلى ياباني مسيحي! تحدثنا مطولاً عن الدين. تحمّس وبدأ يؤلف كتاباً سوف يحمل عنوان «كـوكو رومـان» (كوكـورو، باليـابانية، تعني «قلب») لأننـي سمّيتُ له المسيح بذلك الاسم. لقد فتنتْه الفكرة وهـاهوذا يشرع، منذ الآن، في تأليف كتاب ليتحدث فيه عن رؤيـة اليابانيين للـديانـة المسيحية.. إنَّ البشر في كل مكان متعطشـون للكلمة الطيبة، وكثيراً ما تكون الكلمة الطيبة خصبة..

تجلس إلى المائدة، بجانبي، تلك المرأة الفـرنسية السّمجـة، لم أكلّمها ولن أفعل ذلك. نتنـاول وجباب نصف أوروبيـة، نصف يابـانيـة. والفرنسيـة تشم وتشمشم، وتمطُّ شفيتها اشمئزازاً، فالأكل لا يروق لها. أما أنا فآكل بنهم، لقد بدأت أتاقلم..

البحر الأحمر، ٢٢ فبراير، مساءً(٢)

آتْزُومَا هَا يَا!

ما زلنا في البحر الأحمر، تجاوزنا مكة التي توجد على يميننا. والحبشة على يسارنا .. جبال رائعة، وردية، منيعة، كما أحبُّها. أحس أن جدودي ولدوا هنا، رجالاً صحراويين. وعندما أرى الرّمال اللا متناهيـة يخفق قلبي القديم كأنه يرى وطنه الأوّل. إلٰهي، كم أنا مختلف عن بقية اليونانيين الذين ولد أسلافهم بين الخُضرة والمياه!

بدأت أتعلم القليل من اللغة اليابانية. «آتْزُومَا هَا يَا» هي الجملة اليابانية الشهيرة التي تعني «زوجتي!» وعندمـا أعود سوف أحكي لك حكـايتها(٣). وهذا هـو اسمك منذ اليوم. كم أفكّر فيك، يـا حبيبتي! فوق هذه الجبال الورديـة كلها أرى شبحيْنا غيمتيْن، تمرّان متخاصرتين أبداً. أي حتّى موتنا.

---

(١) و(٢) رسالة إلى ايليني ساميوس.

(٣) تحكي الأسطورة عن زوجة محارب نبيل، ألقت بنفسها في البحر كي تنقذ زوجها من الغرق.

كتبت مقالتين أو ثلاثاً .. أفكر في النشيد الذي سأكتبه عن «الصُّفر» .. لي أربع عيون وأربع آذان وقلبان – ونحن نسافر معاً يا حبيبتي.

٢٤ فبراير (١)

أقرأ وأكتب، تكلّمت مع الفرنسية، رأيتها ضجرة فعرضتُ عليها كتاباً جميلاً عن الصّين. فردّت ملسوعة: «ولكن، يا سيدي، ما حاجتي للقراءة عن الصين، ما دمتُ ذاهبة إلى الصّين؟»..

٢٥ فبراير(٢)

أحياناً يثب دلفين، وحولنا تطير النّوارس، وفي هذا الصباح جاء طائر أحمر من الحبشة. غرّد مرة أو مرتين ثم طار. هذا المساء ندخل إلى المحيط الهندي. المسافرون يتململون من شدة الضجر. لا أحد يطالع. يشغّلون الفونوغراف (الحاكي) ويرقصون. في البداية كان كلّ واحد بمفرده، ولا يتحدّث إلى أحد، والآن بدأ الجميع يتبادلون الحديث، وحيثما كنت يقترب منك أحدهم محاولاً التحدّث بتعلّة السؤال عن الساعة .. وبهذه الطريقة تعرّفت إلى إنجليزية ثريّة، حيوية، ثقيلة الفكّ، تسافر إلى الصين برفقة زوجها .. ألعب «الدك – غولف» أحياناً .. لكنني أمضي النهار كله تقريباً في القراءة .. خلال ثمانية أيام نبلغ كولومبو .. وتبقى لنا خمسة عشر يوماً لبلوغ شانغهاي .. إنّها رحلة طويلة مضجرة، ولا سيما الآن، لأننا لم نعد نرى اليابسة، ولا شيء غير البحر، بلا نهاية ولا فائدة..

صارت الرحلة رتيبة، والمسافرون يفقدون صوابهم .. فيلعبون الألعاب نفسها ويعيدون الدعابات نفسها، لكنهم يَضْحُون أقل..

أطالع، يوميا، كتابين أو ثلاثة من المكتبة الفظيعة التابعة للباخرة، وأعيد قراءة قصائدك فأعدّل قليلاً، لكن بشكل مُجْدٍ.

كنت أودّ كتابة نشيد جديد غير أن الأجواء غير مناسبة. حرارة عالية .. كل يوم نقدّم ساعاتنا بقدر نصف ساعة. حبيبتي، أنت الوحيدة التي توجدين، وحتّى السّفر في المحيط الهندي ما هو إلا أسطورة..

---

(١) و(٢) رسالة إلى ايليني ساميوس.

أول مارس(١)

آتْزُومَا هَا يَا !

كل آمالنـا باتت معلقة على كـولومبو! الصّيني الجالس قبـالتي، إلى المائدة، شاحب جداً، لم يعد قادراً على الكلام ولا على المثابرة. ويبدو الإجهاد على الانجليز والانجليزيات، وهم يقضون النهار على مقاعدهم الهزّازة ويشاهـدون البحر الهائج. وعندما تمرّ باخرة يـركضون إلى منـاظيرهم ويتفـرجون بـاهتمام. والفـرنسية تسعى إلى تجاذب أطـراف الحديث، لكنها لا تطـاق. والفينيّة تغازل يابـانياً سميناً مثل شمبانـزي. عازف الكمان المجـري يعزف أو يلعب الـورق، ويتحرّك نصـف عارٍ، بينما ينتظـر الألماني مشاهـدة أسماك ا لقرش سدىً..

كتب الياباني المسيحي اسمي بالصينيـة وهو يعني ما يلي؛ نيكوس = Soft Merci-ful Light وكازنتزاكي = Flower mountain caps. وهو الآن يحلل اسمك سوف أسعى إلى ختم الاسمين على العاج إذا استطعت.

بعد الظهـر حلّت عاصفـة كبيرة. تأملت البحـر ساعـات عديدة. كـان الزّبـد ينبثق مشكّلاً أقواس قزح، وأسراب الغيوم تتطاير وتلعب في السماء. شعرت بفرح عارم.

٣ مارس (٢)

مســاء البارحـة لاحت نجوم النصـف الجنوبي من الكـرة الأرضية، في قبـة السماء. كانت كبيرة، صافية، وشكلها كالتالي: × ×⁺×× وكنت سعيداً جداً.

كَتبَ الياباني اسمك بالرموز الصينية التي تعني:

Pretty little night thou only choiced.

فكرت أمس في تأليف كتاب بالفرنسيـة على غرار «تودا – رابا». وآمل أن يكون جيداً. تجري أحداثه بسرعة، خلال خمس دقائق..

٦ مارس(٣)

آتزوما ها يا!

قضينا نهار أمس كله في كولومبو. مشاهد رائعة، هنود بأجسام إلٰهية ضامرة، لونها

---

(١) و(٢) و(٣) رسالة إلى ايليني ساميوس.

كالشوكولاتة الغامقة، ووزرات ملونة، وعيـون لامعة واسعة، ترقّ عذوبة. وصلوا منذ الفجـر في زوارق عاليـة ذات مجاذيف طـويلـة يجذّفون بها واقفين، نصف عُـراة. وعلى أرصفة الميناء تنتشر بنايات بشعة، فنادق، بنوك، جمارك، مخازن، وكلّ ما هو رديء .. لكنني ابتعـدت بسرعة وامتطيت مـركبة جـرّ. وبسرعة، وصمت، سلكنـا شوارع كبيرة حتى وصلنا إلى المدينة القديمة – دكاكين صغيرة تغصّ بـالفواكه (موز، أناناس، مَنْغَا، وعنب وفير) فاقتنيت الكثير.

فرحي عارم برؤية الأجسام والألوان. وما رأيناه في الصورة يتجسد الآن أمامي. لكن الحرارة فظيعة وأنا أذوب. روائح عفـونة وعرق ومسك. والزهـور في كلّ مكان، حمراء، بنفسجية، أو نـاصعة البيـاض. وهناك معبـد بوذي في وسط الطـريق. وامـرأة تقدم زهوراً حمراء وتشبك يديها متأملة تمثال بوذا.

عُلِّقَ حديثاً إرسال برقي في الباخرة: لقد اندلعت الثورة في اليونان. وأنا قلق جدًّا(١)..

جـاء قرابـة مـائة هنـدي ومكثوا على جسر البـاخـرة، صـامتين. نساء جميـلات لا مبـاليات، نظيفـات، متحليات ببراقع بنفسجيـة وبـرتقاليـة، وقد رصعن منـاخيرهنّ بأحجار كـريمة، وشعورهن بـالحلي، الرجال يطبخـون، ويلعبون الورق، ويـدخنون ويتحادثون، متربعين، هادئين، مع شعلة متناهية النّعومة في أجسامهم..

٨ مارس (٢)

نحن الآن قبالـة سومطرة، جزيـرة واسعة، كثيفة الغابـات؛ تلبّدت السماء، وبدأت أمطار استوائية غـزيرة تنهمر. لون البحر معدني عجيب مثـل الحديد السائل. الغيوم كثيفة، ثقيلة..

أتعذّب يا حبيبتي. بـرقيات الباخرة عن اليونـان مثيرة للقلق .. وأنا بعيد من دون تفاصيل .. رأيتك في المنام هذه الليلة. كنت ترتدين كيمونو، وكنّا معاً سعيدين..

بحر سيام، ١٢ مارس ١٩٣٥(٣)

آتزوما هايا!

توجـد سنغافـورة على خط الاستواء. وصلنا إليهـا في الساعة الـرابعة بعـد الظهر وسرعان ما نزلت إلى اليابسة..

---

(١) تمرّد فينيزيلي سرعان ما قُمع.

(٢) و(٣) رسالة إلى ايليني ساميوس.

مشهد رائع: شوارع مكتظة بالصّينيين وباللافتات الصّينية: رموز بيضاء كبيرة مرسومة على خلفيات سوداء، أو مذهبة؛ أو خضراء وسوداء مرسومة على خلفيات بنفسجية غامقة. والصينيون يعتمرون قبعات مخروطية معروفة، ذات حواف عريضة، والصينيات يرتدين سراويل وسُترات سوداء طويلة مصنوعة من القطن أو وبر «الألْبَاكَا»[1] أو الحرير. قاعات حلاقة ومطاعم في الشوارع .. رائحة لا تطاق من الدكاكين والمجاري (لا يمكن التمييز بين رائحة المجاري ورائحة الناس). فواكه غريبة جدًا .. أطفال في المزابل، وأشجار رائعة، في كل مكان، خضراء، مُزهرة، ذات عناقيد حمراء، تشبه الأشجار الوستارية (غليسين). أدخّن غليوني وأمشي على مهل مستمتعاً بهذه الرؤية الفريدة.

وما أثار اهتمامي كثيراً هو الأناقة غير المتوقعة للمرأة الصينية: منامة بسيطة، جيدة التفصيل، خالية من الزينة، والشعر مجدول أحياناً في ضفيرة طويلة .. أو ملفوف على شكل كعكة صغيرة (لدى المتزوّجات)، أما وجوههن .. فكأنها مرسومة على خشب لمّاع بلا عُقد، وهن يمشين بخفّة وعزم مثل الفتيان..

شعرنا بالجوع فجلسنا في مطعم، في الهواء الطلق، ازدحام حول الموائد، وكلّ شخص أمام صحنه، يأكل ويلعب بعوديْن مثل المشعوذ. صمت ورائحة كريهة .. الأرز يعبق برائحة «الصيني» .. البيض فاسد، وفي وسط صفار المحّ يلوح جنين الطائر الصغير .. طلبت شاياً فأحضر لي سائل مركّز، يقع في منزلة وسطى بين الشوكولا والشاي،.. وحلاوته لا تطاق. غادرنا المطعم خائبين ومن حسن الحظ أننا وجدنا مخبزة. فاشترى كلّ واحد منا خبزاً معجّناً، وموزاً، وهكذا تعشينا سائرين.

وصلنا إلى منتزه الملاهي Amusement Park العتيد حيث كان المذياع يصدح وبعض أصوات «الغايدا» Gaida الصينية أشبه بقطط في حالة نَزْوْ. ما العمل؟ لقد دخلنا..

كان هناك ابتهاج متأتٍ من الجمهور الجالس، أو المتجوّل في المتنزّه؛ بوجوه عجيبة ونظرات ملتهبة، قاسية، وذكية جدًا. رائحة صابون رخيص، ضجة خفيفة، مستمرّة، أشبه بدودة حرير منصرفة إلى القضم.

خيم الليل حوالي الساعة العاشرة، وظهر الهلال أخضر في سماء استوائية. جلسنا أمام الملهى الليلي لنشاهد الفتيات الصينيات يدخلن. وكان ذلك مشهداً مربكاً، وأقوى

(١) من الحيوانات الثديية، يستخدم وبرها في النسيج (المترجم)

رؤية في بداية هذه الرحلة. تصوّري كائنات ناعمة، طويلة، كالثعابين، واقفة ومكسوة بحرير بسيط، من تزويق، ومشدّات خضراء، برتقاليَة، زرقاء سماوية، أو سوداء. ولم تسبق لي رؤية الجسد الإنساني شبيهاً بالسيف، كما في هذه المرة. وتحت الفستان المشقوق جانبياً يلمع النَّصل الأصفر من الساق إلى العانة، مع كلّ خطوة، فيلوح ناعماً، قوياً، منيعاً. وتخيلي، على ذلك الجسد الثعباني المتحرّك ببطء، قناعاً مدهشاً؛ مسطّحاً، معفرًاً بالمساحيق، مع حاجبين دقيقين كخنجرين، وفم برتقالي ثابت. والعينان ثابتتان أيضاً تنظران إليك من دون اكتراث، باردتين، فاسيتين، مثل نظرة الحَيَّة. كنت أشاهدهنّ يختفين الواحدة تلو الأخرى، ببطء، وراء باب الملهى، كما ثعابين في جحورها. أو رجل وامرأة، فوق منصة مضاءة، بينما يقود رقصهم ايقاع ناي خفيّ. عرض عجائبي يقشعر له بدنك .. إنَّها الشهوة مصعَّدةً نحو نقطة مميتة من الهلوسة الناجمة عن الأفيون والمرأة.

مرّ الوقت مثل رفّة عين، وكان القمر قد احتجب عندما قمنا للخروج. شعرت في الوقت نفسه بالتعب والفرح والقرف – إحساس مضطرب وكثيف كما لو دخّنت الحشيش، واستيقظت مع شعور بالحنين والذعر، متذكراً ذلك الفردوس المضطرب وشوارعه العابقة بروائح المجاري وعطر الياسمين، وفواكهه المقرفة والمعطرة، ونساءه الفاتنات المصابات بداء الزهري – فردوس ينادي روحي ويطردها في آن. هكذا تخيلت حوريات البحر أمام روح باسلة وشريفة، لا تريد فقدان أي إغواء في الأرض، لكنها لا ترغب في السقوط أيضاً. من بين الطرق الثلاث التي اكتشفها الإنسان: أن يعطي نفسه كلّ شيء ويفسد، أو لا يعطيها شيئاً ويصير قدّيساً – تظل طريقة عوليس هي الأفضل..

١٩ مارس ١٩٣٥(١)

.. لا شيء يفرح. تَوَارَتْ اليابسة من جديد. بحرٌ لا متناه. والآن يخيّم الضباب والباخرة تُشغّل «قرن الضباب» كي تتفادى الاصطدام. اليوم كتبت مقالاً حول الضجر الخانق على متن الباخرة. لقد فقد الركّاب نشاطهم. وفرحتي الكبرى هي رحيل الفرنسية (ستنزل اليوم) .. وهكذا أتنفس قليلا. كانت تصرّ على الجلوس بجانبي وقت الطعام.

ماذا أقول الآن عن قلقي إزاء اليونان؟ جاء في إحدى البرقيات أن المتمرّدين قد هزموا وسيتمّ نفيهم(٢).

(١) رسالة إلى ايليني ساميوس: (ورد في الأصل تاريخ ١٩ مايو ١٩٣٥. خطأ يؤكده السياق، المترجم).
(٢) نفي فينيزيلوس إلى كورسيكا.

منذ عشر ساعات ونحن متوقفون في البحر ولا نتمكن من التحرّك. ضباب كثيف يجعلنا لا نميّز على بعد متر واحد، والقبطان لا يجرؤ على التقدّم.

حبيبتي لينوتشكا، حلمتُ بك البارحة: كنا ذاهبين إلى بيت نازوس كيفيسيا؛ وفي الطريق قدمت لنا فتاة جفنة مرمرية شفافة، وفي قعر الجفنة كان يلوح بوذا في نقش خفيف ضئيل البروز.

مياه اليابان، ٢٤ مارس ١٩٣٥(١)

.. البحر هائج منذ شانغهاي لكنني لم أصب بدوار البحر .. هذا المساء ندخل إلى البحر الياباني الداخلي. وهو يشبه بحيرة، وتنتشر فيه الجزر.

غداً سألقي بنفسي في المجهول؛ من دون إجادة اللغة – وقليلون هم اليابانيون الذين يتكلمون الإنجليزية – ومن دون مال طائل. وسوف أعيش قلق البحث عن فندق بثمن بخس، مرة أخرى، وكذلك البحث عن مطعم، والاستقرار، لكنّي آمل الإطلاع على أشياء رائعة تنسيني القلق. لقد شكلت رؤية الصين بداية تعويض كبير حتى الآن. ما أشد اختلاف هذا العالم، من أية طينة مغايرة خُلق هؤلاء الناس .. ما من توافق. لكن هناك ما يوحّدنا بالتأكيد: الغناء، الحب، الألم، وخاصة الموت. فما أبعد الفوارق التي جئنا منها كي نلتقي حول تلك النقاط الخالدة..(٢)

كوبي (٣)

... مطر خفيف يوحي باليأس. برد فظيع، وحلْ. خرجتُ وتجولت ثلاث ساعات .. دخلتُ إلى إحدى الحانات. كانت هناك ثلاث نساء من الجايشا(٤) متحلقات حول طاولة، في انتظار الزبائن، تافهات، قصيرات، بشعات .. كل النساء هنا يَلُحْنَ لي بشعات وطيّبات على العكس من الصينيات اللائي يتمتع بعضهن بجاذبية مميتة، مع إيحاء بالشؤم.

نَارَا، ٢٦ مارس ١٩٣٥(٥)

بدأت الجولة صعبة جدًا لأنني لا أجيد اللغة. انطلقت من أوزاكا هذا الصباح ..

(١) رسالة إلى ايليني ساميوس.
(٢) فيما بعد تخلى كازنتزاكي عن هذا الانطباع الأولي، كما يتبيّن من مقالاته التي نشرت في «أكروبوليس» بين ٩ يونيو و١٩ أكتوبر ١٩٣٥، وكذلك في كتابه عن اليابان والصّين الذي صدر تحت عنوان عام: أثناء السفر، اليابان والصين (منشورات بيرسوس، أثينا، أكتوبر ١٩٣٨).
(٣) رسالة إلى ايليني ساميوس.
(٤) الجايشا: مغنية وراقصة يابانية (المترجم).
(٥) رسالة إلى ايليني ساميوس.

فجأة، في ضيعة بائسة .. شجرة كَرَزٍ مزهرة.

وصلنا إلى نارا .. أردتُ الذهاب إلى فندق ياباني حتى أختبر مدى قدرتي على التأقلم. كانت ثمة امرأتان أو ثلاث يرتدين الكيمونو ويتدفآن قرب موقد من برونز. لم يفهمن ما أريد إلا بعد وقت طويل. وفي النهاية توصلن إلى الفهم .. خلعت حذائي وانتعلتُ خفّين. كانت مثل قفص خشبيّ معطّر، وتلمع من شدّة النظافة. وضَعْنَ وسادةً أمامي فجثوتُ وجثون مثلي ثم بدأن يحادثنني. فتحت دفتري ودوّنتُ بعض الجمل ثم قلتُ: «أنا جائع!» فأتين لي ببعض الأرز، وبأشياء أخرى مشكوكٍ فيها، ذات لون زعفراني ورائحة عقاقير .. يستحيل أكلها .. تناولت حقائبي وقصدت الفنْدق الأوروبي الوحيد في نارا..

أكثر من ألف غزالة في المتنزه .. زرت كلّ المعابد، أشعلت شموعاً، قرعْتُ الصنّاجات، أشعلت عود طيب باسمك – متمتماً بصلاة إليك. فليستجبْ لي بوذا .. أنا متعب، ولم آكل، طيلة النهار، سوى تفاحتين، لأنني لم أجرؤ على الدخول إلى مطعم ياباني .. لست أدري لماذا لم تكسبني هذه الرحلة أية متعة حتّى الآن. ربما لأنني لم أستلم رسائل منك كلّ هذه الفترة. أنا قلق، ولا أتوصل إلى استعادة رشدي، نحن متباعدان كثيراً، فكيف أستمتع؟

٢٧ مارس [١]

من نارا ذهبت إلى دير هوريو–جي الشهير. رائع، مشرق، معابد «ياغود!»[٢]، طقس ربيعي عذب، تماثيل لبوذا ضاحكاً في الظلّ،رسوم على الحرير، راقصات، وفوق كلّ ذلك ربّة الرحمة «كوانون». أجمل تمثال شاهدته في حياتي .. تهت في متنزه نارا الشهير بالغزلان. ممرّات رائعة على جانبيها قناديل حجرية. ما أجمل المشهد عندما تضاء خلال مواكب الطواف الكبرى..

كيوتو، ٣١ مارس ١٩٣٥[٣]

حبيبتي،

وصلت مساء الأمس إلى هذه المدينة الجميلة. كنتُ مع صديق ياباني، وهكذا تمكنت

---

(١) رسالة إلى ايليني ساميوس.

(٢) الياغود: معبد أو هيكل، صيني أو ياباني متعدّد الأدوار (المترجم).

(٣) رسالة إلى ايليني ساميوس.

من العثور على فنـدق يابـاني جيد(١). سوف أقيـم فيه ثلاثـة أيام. ألجأ إلى التخـاطب بالإشارات وبوساطة قاموس صغير .. بدأت بالتأقلم والأكل في مطاعم يابانية..

في الليل تصير المدينة أبعد ما تكون عن الـواقع. فتمتلئ بقناديل مختلفة الأنواع كما في موكب، ولا يُسمع سوى وقع القباقيـب في الشوارع المبلطة (اشتريت لك زوجَيْ قبقاب كرزيّ اللون، في منتهى الجمال) واشتريت لك أيضاً مظلّة ورقية زيتية..

في أوزاكـا ذهبت لـزيارة مطـابع الصحف وشـاهـدت الآلات العملاقـة. لقـد أعلنت الصحف عن قدومي وذكرتْ ما قلتُه عن اليابان، من دون استشارتي.

يبدو اليابانيون مهذّبين جدًّا ولطفاء حتى الآن. وفي حياتهم جاذبية ناعمة، شرقية. أما النساء فيُلحْنَ لي في منتهـى البشاعة، لكنَّهن لايفتقِرْنَ إلى نوع مـن الجاذبية والفتنة: يبتسمن دائما، ينحنين، يمشين راقصات..

(كيوتو) أول ابريل ١٩٣٥ (٢)

زرت في النهار معـابد بـوذية ومتـاحف. وأعجبت بلوحـات زيتية رائعـة ذات قيمة فائقـة، ولا سيما ذلك الستار العائد إلى القـرن السادس عشر، وقـد رسم عليه صفٌّ من أشجـار الخيزران فـوق المياه. لـون واحـد رمادي – فضّي؛ للصـورة وللخلفية. وحـده التدرّج اللوني مختلف. رسم بسيط جداً، لكنني لا أعتقد أنني رأيت أجمل منه.

عـدتُ مرهقـاً إلى الفندق. أحضرتْ لي الفتـاة بعض الشـاي، فوراً، وجهّـزت الحمام، فطلبت منها الأكل (بالإشارات دائما). استرحت ودخنت غليوني، وعندئذ التفتَتْ حياتي وروحي إلى لينوتشكا: أسمى من كلّ شيء، أحَبّ من الخيـزران، أعذب من السّفر، فرحتي الكبرى، أكبر فـرحـة في حياتي، أملي كلـه، لا أخشى شيئـاً لأنها معي، لا أرغب إلا في أمـر واحد: أن تبقى بجانبي .. بفـرح وعذوبة وخلود – عندما أفكّـر فيك يخفق قلبي وتزهر أفكاري بفرح عارم..

وفي الوقت الـذي كان كـازنتزاكي يقـوم فيه بـرحلته إلى الشرق الأقصى، كـان هناك مراسل جريـدة يونـانية أخـرى يقوم برحلة ممـاثلة. ولقد خاف أن يتفـوق عليه زميله المشهور، فوشى بـه إلى السلطات اليابانيـة واصفاً كازنتزاكي بـالإرهابي الخطير الذي

---

(١) أي من طراز ياباني.

(٢) رسالة إلى ايليني ساميوس.

جاء إلى اليابان في محاولة لاغتيال .. الميكادو[1]..

لذلك فإنَّ «الصديق الياباني» الذي تحدّث عنه كازنتزاكي في رسائله لم يكن سوى مُخبر سرّي، مكلّف بمراقبة شاعرنا. وهكذا تمكن بفضل ذلك الملاك الحارس ذي العينين المشدودتين – تذكّروا قَلَقَهُ في كوبي، أمام البلاد المجهولة – من التعرّف على ما هو جوهري، وتفادي الإرهاق، والإنفاق غير المجدي.

«في البداية، روى نيكوس، كان الوضع شاقا. فلا أكاد أنام حتى يأتي من يوقظني ويكلمني باللغة الروسية، ويطرح عليّ ألف سؤال وسؤال.. في محاولة لجعلي أناقض نفسي. ثم هدأ رجال الأمن تدريجياً. وتمكنت من النوم مرتاح البال. وتحوّل حارسي الأمنيّ إلى ملاك حارس. كان رفيق طريق ممتازاً، يحبّ بلاده، وقادراً على مساعدتي في الاطلاع على ما لا يتمكن السائح العادي من اكتشافه...»

طوكيو، ١٨ ابريل ١٩٣٥ (٢)

أرتاد مسرح كابوكي كثيراً، وكذلك عروض الرقص. أستمع إلى الكثير من الموسيقى، وأشاهد لوحات رائعة. ولقد اشتريت كتاباً رائعا يتضمّن رسوماً يابانية جميلة..

٩ ابريل (٣)

ذهبت إلى كاماكورا اليوم. مطر ناعم وشفاف. كرز مزهر، ممرّات طويلة كلها زهور، نساء يحملن مظلات ملونة، مصنوعة من الورق، ويمشين صامتات، عذوبة، صمت، مشاعر يتعذّر وصفها تمالكت نفسي من البكاء، بصعوبة، لشدّة ما رغبت في حضورك. تابعت سيري بهدوء، كما لو كنت أنظّم خطوتي على إيقاع خطوتك..

١٠ ابريل، مساءً (٤)

لم أتمكّن بعد من تنظيم مكاسبي الجديدة، في داخلي. ما زلت أشاهد، وأتجول، وأتعب. الربيع يهبني بهجة عارمة، حياة الشارع، الرسم، بعض المعابد، المصابيح الورقية .. عالم آخر، أعمق صمتاً ونَمْنَمَةً من عالمنا. مسرح، رقص، نساء بعيدات، نائيات، من كوكب آخر. فتنة ولا مبالاة، كآبة غريبة، رتابة مثيرة. ورؤية التحف

---

(١) الامبراطور الياباني – (المترجم).

(٢) رسالة إلى ايليني ساميوس.

(٣) و(٤) رسائل إلى ايليني ساميوس.

الغريبة تصطدمني في كلّ لحظة. ينقبض قلبي؛ عندما أشاهد أشجاراً – قزمة، أشجار سنديان في أصص، أشجار كرزٍ مزهرة أشبه ما تكون بالحبق، صنوبراً لا يتجاوز ارتفاعه عشره سنتيمترات..

١٥ ابريل ١٩٣٥(١)

تلقّيت الصحف، والنبأ المروع عن موت باناييت! أنتظر بفارغ صبر رسالة منك حول التفاصيل. الحياة فظيعة ونحن لا نشعر بذلك، ونبدّدها في تفاهات بائسة. ولا نكتشف سيرنا نحو الهاوية إلا عند موت عزيز. أتلهف إلى العودة كي أراك ونمشي متشابكيْ اليدين. ذلك هو العزاء الوحيد .. تندلع في الصين حروب جديدة، لكنني آمل رؤية بيكين ثم السفر من شنغهاي يوم ٦ مايو..

١٧ ابريل (٢)

مطر، مطر، برد. أمضيت نهار الأمس بكامله في نيكو .. جبال رائعة، أشجار عملاقة – كريبتوميريا – معابد قديمة مذهلة، تماثيل، رسوم، مماشٍ ذات قناديل حجرية .. أنا الآن في غرفتي، وهي غرفة طويلة، ضيقة، وأمامي موقد برونزي جميل. وعلى الجدار علّقتُ بوذا الذي اقتنيته .. أول أمس ذهبت مع صديق إلى دار جايشا. يستحيل عليّ أن أصف لك طهارة الأجواء وبشاشتها. بيت خشبي كغيره من البيوت. وفي المدخل يوجد مصباحان من ورق. طرقنا الباب فأسرع عدد من الفتيات لاستقبالنا. كما لو كنّا نعرف بعضنا من زمن طويل.

انحنين لنا، ملامسات الأرض بجباههنّ، ثم خلعنَ أحذيتنا، وقدْننا إلى قاعة الجلوس. الأرض مفروشة بالبُسط والخشب يتضوّع برائحة طيبة. ولم يكن هناك أثاث، باستثناء مائدة واطئة وموقدين من البرونز، وبعض الوسائد. وعلى الجدار لوحةٌ «كاليموني» تمثل مشهداً دينيًّا، جلسنا متربّعين وحولنا فتيات الجايشا. تكلمتُ قليلا باليابانية فضحكن. جلبن لنا فستقاً وبعض الحلويات، والساكي(٣) الساخن .. فشربنا. تناولت إحداهنّ آلة الشاميزن وبدأت تعزف، ثانيةً ساقيها. وقامت أخرى قصيرة جداً، وشرعت في الرقص. نعمة، لطف واحتشام. وكنّ يرتدين الكيمونو الصّارخ الألوان، وعيونهنّ مرحة، بريئة. ولم تسبق لي مشاهدة ذلك في أية عائلة أوروبية. كان

---

(١) و(٢) رسالة إلى ايليني ساميوس.

(٣) شراب كحولي ياباني يصنع من الأرز المخمّر (المترجم).

صديقي يجيد اللغة اليابانية بشكل رائع. لذلك تمكّن من ممازحتهنّ، فكن يضحكن مثل بُنيّات في السابعة. لم أحس ببراءة المرأة كما في هذه المرّة .. كنت أنظر إليهن بهدوء، مكتوف اليدين، مثل بوذا. لم أمد يدي كي ألمسهنّ، خوفاً من تلاشي الرؤيا الساحرة..

غادرنا متأخرين .. فانحنين مودّعات .. وساعدْننا على انتعال الأحذية ثم انحنين لنا مرّة أخرى، مزقزقات كالعصافير:

شكراً جزيلاً! شكراً جزيلاً!! Arigato Kozaimas! Arigato Kozaimas!

٢٠ ابريل (١)

البارحة تناولت العشاء برفقة سفير ياباني سابق في أثينا. ومرّة أخرى جاءت فتاة لاستقبالنا عند المدخل، ثم انحنت حتى لامس جبينها البلاط. صعدنا سلّما نظيفا جدًّا، ثم جلسنا على الوسائد. ولكلّ زبون الحق في حجرة خاصة. وهي مجردة من الأثاث تماماً. وفيها «تاتامي»(٢) على الأرض. وثلاث وسادات وثلاثة مواقد برونزية. وعلى الجدار لوحة كاكيمونو تمثل بعض القصب وثلاث زهرات في أصيص. ولا شيء آخر. جاءت النادلة مرتدية كيمونو بنفسجيًّا، وشعرها مصفف بطريقة هندسية عجيبة. انحنتْ وبدأت طقوس الأكل..

.. يصعب وصف جمال هذه الطقوس .. إنها أقرب إلى الطقوس الدينية الصامتة. تقبع الفتاة النادلة، في زاوية، وتظل تراقبك. فتسبر كلّ حركة من حركاتك وتسرع من دون ضجة لتأتي لك بالساكي، أو الكبريت، أو الشاي، أو المناديل، أي كلّ ما تفكّر فيه.

لقد اشتريت لك اللؤلؤة! رائعة... وأنا سعيد. غداً أغادر طوكيو. «لن أعيدها». أودّع الأرض اليابانية بهدوء.

لا أنام جيداً، وقبل ليلتين استيقظت هلعاً، وكأن صوتاً يقول: «أنت جالس على الصوّان ولا تعرف أنّه هواء».

هنا يحدث زلزال خفيف، كلّ يوم تقريباً. وبعيداً عن طوكيو، تعجّ الجبال بينابيع المياه الحارة والدخان المتصاعد. يقيناً إننا نقيم على بركان ما يزال ناشطا. غير أن الصوت الذي استمعت إليه ليلاً ذو معنى ما ورائي منسجم مع رؤيتي للحياة...

---

(١) رسالة إلى ايليني ساميوس.

(٢) نوع من البُسطَ.

البحر الأصفر، ٢٤ ابريل ١٩٣٥ (١)

التفت إلى الوراء متأملاً ما رأيته وما أحسست به خلال الأشهر التي قضيتها في اليابان. لا أستطيع التوصل إلى نتائج منسجمة، بعد. مباهج ومرارات كثيرة، إرهاق، حماسة، حنين، حرية، ألوان رائعة، رسوم، تماثيل، مسارح، نساء، غابات، معابد، بحار – كلّ ذلك يعتمل في صدري ولا أستطيع التعبير عنه. لكنني سوف أتوصل إليه بالقوة من أجل كتابة المقالات، في حين يظلّ الجوهري لـ «الأوديسة»، إذ أنني تحمّلت هذه الرحلة المضنية حبّاً في «الأوديسة» وأتمنّى إنقاذ أروع ما رأيت بكتابته في بعض القصائد.

... التقيت بعض الصينيين في الباخرة. إنَّهم كريهون جداً. ومن المؤكد أن هناك أشخاصاً رائعين – مرهفين، من كبار السادة – لكن، أين أجدهم؟ في السفينة أم في الشوارع؟ أتلهف لرؤية بيكين، المدينة العجيبة...

٢٧ ابريل (٢)

... تتواصل الرحلة رتيبة. لقد بلغنا أخيراً خليج بيكين الكبير، وغداً نصل إلى ميناء تيانتسن، ضباب وبرد. أقضي النهار في المطالعة، مسترخياً. لو تمكّنتُ من كتابة بعض القصائد لأحسست بالراحة. لكنني أفتقد الراحة. وحولي أصوات وزعيق راديو، وضجة تافهة تنفّر روحي التي ترفض العمل. وفوق ذلك فإنّ الطبخ الياباني، على متن السفينة، يثير القرف...

تيانتسن، ٢٨ أبريل (٣)

إنَّه الفجر، وصلنا إلى تيانتسن للتوّ. وننتظر المدّ حتى ندخل إلى الميناء.. الطقس غائم ومعتدل... أميز الساحل الصيني بصعوبة. زوارق «السامبان» ذات الأشرعة «القشّية» الغريبة تجوب البحر... أجهز أمتعتي، وكتبي، وعينيّ، كي أضع قدمي على هذه الأرض الجديدة...

بيكين، ٢٩ أبريل (٤)

حبيبتي،

أخيراً، أعتقد أنني سعيد، اليوم. بيكين مدينة لا توصف، إنَّها نظيرة موسكو. طفت

---

(١) و (٢) و (٣) و(٤) رسائل إلى ايليني ساميوس.

الصبـاح بكاملـه في «المدينة المحظـورة»... ولا يمكن التعبير عمّا تزخـر به من ثـروات، وألـوان، ولطف، وكنوز. الأعشـاب تنمـو فوق السطـوح، والـرسوم الجداريـة تتفتت، والقرميد الخزفيّ الأصفر يتحطم ويسقط. لم أكن آمل رؤية مثل هذه الأعجوبة. لقد عدت لتوّي، وما زالت عيناي مبهورتين...

... شاهـدت أعمالاً فنية رائعة – رسومـاً على الحرير في منتهى البساطة، بـلا ألوان، لكنها ذات مهـارة لا تُضاهى... ينبغـي أن يكون «كـالموك» هنا! أصص، وأوانٍ خـزفية رائعة، لم أشاهد أجمل وأرق منها. ولم أشعر بمثل هذه المتعة في لمس المادة... ينبغي أن يأتي «فروسّو» إلى هنا. وقبل ذلك يتـوجب أن ناتي نحن إلى هنا، يا حبيبتي، معاً، لأنني أشعر بالخجل ولا أستطيع تحمل هـذا المشهد بمفردي. ممرّات لا متناهيـة من الأكاسيا والغليسين المزهرة.

مســـاءً

ذهبت رفقة سكرتير السفارة البلجيكيـة، وهو صديق هيربر[1]، لزيارة بيت نبيل: كان هناك احتفـال بعيد ميلاد الجدّة البالغـة ثمانين عاماً. بيت واسع، وباحتـه مزينة بشرائط حريرية حمراء كُتبتْ عليها تهانيء الأصدقاء والأقارب متمنين لها العيش مائة سنة. موائد مجهّزة وحشد كبير من الحضور... ولقد دُعي المسرح الصيني لتقديم عرض في السـاحة الـرئيسية... وثمـة أطفال يمثلـون بعض المسرحيات الـدرامية والهزليـة. أصوات مثل المواء، بدلات فاخرة، مواضيع بدائية وموسيقى صينية ممتعة لكنها رتيبة. سلّمنا على العجـوز – كائن جذّاب ومتعفّن – وتنـاولنا حلـويات فاقعـة الألوان. مكثت أدخّن وأتفرّج، وأنصت وأتساءل متى تشبع عيناي...

٣٠ ابريل (٢)

... عـدت من زيارة معـابد رائعـة وقد امتـلأت عيناي بـاللون الأزرق لأنّ أجـرّ تلك المعابد من الخزف الأزرق الغامق. لكنني عدت سعيـداً، إذْ وجدتُ، لدى مروري بـالبريد، ثلاث رسائل منك.

«توم[3]، صرختُ، بسرعة، !let me home».

---

(١) أعطى جان هيربر رسائل توصية كثيرة لكازنتزاكي، في اليابان كما في الصين.

(٢) رسائل إلى ايليني ساميوس.

(٣) «توم» اسم الشخص الذي يجرّ العربة: عُدْ بي إلى البيت!

٣٠ابريل ، مساءً

عدتُ من بيت الأميرة. بيت رائع لنبلاء صينيين: حديقة مسوّرة، قاعات جلوس، ذوق غير منسجم: فإلى جانب لوحة صينية رائعة هناك تفاهة فرنسية. ودخلت الأميرة – تبلغ حوالي الخمسين من العمر – ضامرة، رشيقة، أنيقة، غَنِجة. قامتها مشدودة في فستان جميل مطرّز بالذهب، وتضع في أذنيها قرطين طويلين من اليشب واللؤلؤ. ذاوية لكنها متأنقة. وهي راقصة، وتدمن الموسيقى. وتريد تأليف سلسلة كتب على غرار ألكسندر دوماس، «الفرسان الثلاثة».

ومع ذلك فهي ذكية وممتعة. رأت كثيراً وعاشت طويلاً. تحدّثنا مثل صديقين قديمين. سوف أعود إلى رؤيتها بعد غدٍ ونزور القصر المغلق الذي تحظر زيارته... شاي بورق الورد، حلويات، الخ...

أثينا، ٥-٦-١٩٣٥ (١)

وصلت يوم ٣ نوفمبر. لكن، مجرّداً من أي فرح، لأنني لم أجدك في أثينا(٢). أجواء لا تطاق. أهوال لا توصف، بؤس، وحشية. أتلهف للاعتصام بـ «ايجين» حتى نقرّر مصيرنا...

أثينا، ٨ يونيو ١٩٣٥ (٣)

عمّا قريب أذهب لتناول العشاء عند باباندريو، وسوف أهديه إحدى التُحف. وهكذا أعطي ما أملك وانتظرك كي أعطيك ما تبقّى... أقرّ بأنّ تأخرك في المجيء سوف يجعلني كئيباً...

غداً، انتخابات! يا للبؤس! أصدقائي طُردوا كلهم. لا أقرأ الصحف. ولا أكترث لهذه الانتخابات، ومع ذلك أستنشق هذا التحلّل وأتضايق منه...

١٢ يونيو (٤)

حبيبتي،

أشعر بالضيق. أثينا تضطهدني، ولم أعدْ أتحملها. وهذا سبب المرارة التي تملأ رسائلي...

---

(١) رسالة إلى ايليني ساميوس.

(٢) بأمر من طبيبي، توجّب عليّ السفر إلى فرنسا، للعلاج.

(٣) و(٤) رسالة إلى ايليني ساميوس.

يجرّوني من عشاء إلى عشاء، ولا أرغب في ذلك. أجاهد للمحافظة على قناعي. كم وددتُ يا لينوتشكا، أن أكتب إليك رسالة حارّة، مفعمة بالفرح، تقرئينها في الخارج فتبهجك قليلاً! لكنني لا أستطيع. أنا حزين جداً، ولا أتمكن من قهر حزني. هناك أسباب عديدة من بينها أجواء أثينا المحبطة، المذلّة. كنت أفضّل عدم الكتابة إليك وانتظارك، صامتاً.

١٣ يونيو(١)

مقالاتي حول اليابان تترك انطباعاً جيداً لما فيها من جديد... عندما أصل إلى ايجين يتوجب أن أكتب عن الصين أيضاً. هناك عمل كثير في الأفق، لكنني سأتمكن من إنجازه. لا أرغب إلا في الهدوء وراحة البال.

وهذا غير متوافر حالياً. لكنك ستأتين ويأتي معك كل شيء...

لو كانت علاقة نيكوس برفيقةٍ في صحة جيدة، لما خطر بباله كلّ ذلك الحنان والصبر والسحر. ولو كنا مع رفيق دقيق العناية لعالجت جسمي بطريقة أفضل، بل ربما شفيته «من حسن الحظ أنك مريضة»، قال لي ممازحاً «لو كنت في صحة جيدة لقلبتِ العالم!»، لم أقلب العالم. لكن بمعاشرة ذلك الشيخ الروحي تقوَّت روحي واستطَاعت النَّهل، ملء الكفين، من أفراح هذه الأرض ومن أتراحها.

ايجين، ٢٢ يونيو ١٩٣٥(٢)

ما أن وضعتُ قدمي في ايجين حتى تحولت إلى إنسان آخر: فرح، سعادة نسبية، بحر، عزلة. ليس هناك مناخ أفضل لروحي. أتمشّى في البيت وأفكر باستمرار في قصيدتك الجميلة، مع تغيير بعض النعوت فقط: «عندما تبتعدين يا حبيبتي... يظلّ بيتنا الصغير مسكونا... يظلُّ مسكوناً بخيالك الحبيب. ولا أتجرأ على لمس شيء إذ يخيّل لي انني ألمس يدكِ، فأرتجف من حضورك اللامرئي»(٣)

وتثيرني الأشياء الأليفة لديك، بعمق، لأنها ظلت كما تركتها... عدت إلى المطبخ بنفسي والكتب مكدّسة على المائدة الكبيرة. أطالع حول الصين. وأتأمل في «الأوديسة» وأجهّز الكتب الدراسية. ومنذ الغد سأبدأ بكتابة المقالات...

---

(١) و(٢) رسالة إلى ايليني ساميوس.

(٣) يستشهد نيكوس باحدى قصائدي.

النهار طويل، أنام على الشرفة والنجوم معلقة فوقي. برج العقرب الرائع يدور فوق رأسي. أستيقظ في الفجر فرحاً، ويبدأ كدّ النهار.

من الأفضل ألا يأتي كوكوشكا وزدِنْكا... وليكن ذلك في العـام القادم، عندما نكون في بيتنا...[1] أما الآن فإن زيارتهما سوف تكون تشريعاً وتكليفاً[2].

أيام رائعـة: أسبح وأجفف جسمي على الصخرة، وقد بدأ يسمـرّ اكثر تحت الشمس، أشاهد مرور الزوارق، أدخن تبغاً يابانيـا وأتذكر كل ما رأيت منتظراً قدومك حتى تعود المحاورات المقدسة والمداعبات الإلٰهية...

ايجين، ٥ يوليو ١٩٣٥[3]

أرجوك أن تبعثي لي.. بكلّ الخطب التي ألقيتْ في المؤتمر المناهض للفاشية. لقد دعيتُ للمشاركة. لكنّ الذهاب مستحيل.

قرأت مقالتك الثانية وهي ممتازة وحيوية.

(ايجين) ١٥ يوليو[4]

... أنا مُنكبّ على تأليف «كتـاب الأبجديـة» أكاد أفقد صـوابي. أكتب وأعيد الكتـابة. جاء كالموك وتعاونّا ، فعدتُ إلى إعادة كتابة ما أعدتُ كتابته. وينبغي، فوق ذلك، أن أعدّ كتابيْ قراءة للصفّ الثاني...

... أعجبتني قصائدك الجديدة من حيث الجوهر لكنّ شكلها ليس عفوياً ولا بسيطاً.

ينبغي إعـادة صيـاغتهـا إنها شـديـدة التكثيف. فإذا لم تتـوصلي إلى أعلى درجـات البساطة (ناخمان) تصير قصائد غير قابلة للفهم. تحتاجين إلى البساطة التي تأتي بعد التعقيد. عمل جبّار، طموح في غاية السموّ، يتطلب منك عذاباً شديداً. إنه مرتَفَع وعر...

عوّضت أفراح اللقـاء كلّ آلام الفراق. ولقد حدّثني نيكـوس بخبث بريء عن تفاصيل حيـاة العزلـة مركَـزاً على الجوانب المتعـة، صارفـاً نظره عن الجوانب المستهجنـة أو الكئيبة: ففي يوم كـذا... كان لون البحـر متفرّداً، وفي يوم آخـر أزهر الصبّار مثل الأسهم النارية، وفي الليل وعده أحد الأصدقاء بأمر استثنائي، والقطة اشتبكت مع الحيّة، وثمة مواضيع جديدة تتصادم، «في صُلبه» وتطالب بالأولوية... ويكون هو أول من يضحك،

---

(١) البيت الذي كنا نحلم به.

(٢) كان نقص الرفاهية يدفعنا إلى عدم استقبال الضيوف البارزين الذين لا تربطنا بهم صلات وثيقة.

(٣) و(٤) رسالة إلى ايليني ساميوس.

راوياً لي مغامراته أو بعض .خطائه غير المقصودة...

كان الشتاء على الأبواب وبدأت قشعريرة تشبه انسياب بعض الزواحف تجوب ظهرينا، ولاحت أولى بوادر تشقق الجلد.

ذهبت إلى أثينا لرؤية بعض الأصدقاء الناشرين، ورؤساء التحرير الذين وعدونا بالعمل، وأصدقائنا في المسرح القومي، ودوراس، مهندسنا المعماري العزيز الذي كان يعدّ تصميماً لبيتنا القادم. إذ أنني نسيت ذكر قطعة الأرض الرائعة، على سفح متداخل مع البحر، ذات الثمانية آلاف متر مربّع، والتي تمكّن كالموك ونيكوس من اقتنائها معاً.

ايجين، الثلاثاء، ٥ نوفمبر ١٩٣٥ (١)

لابدّ أن نتمكّن من سماع الموسيقى شتاءً. صرت أنام في السادسة، نوماً قليلاً مزعجاً. أعاني من الأرق ولا أرغب في القيام مع منتصف الليل والانغماس في العمل. إنَّ وجود مذياع قد يساهم في إسعادنا...

اشتغل على «الأوديسة». وسوف أكتب «والدي» عندما أشعر بقوة دافعة. لكنني سوف أكتبه، بكلّ تأكيد، من أجل إرضائك...

(ايجين) ٦ ديسمبر ١٩٣٥ (٢)

حبيبتي لينوتشكا،

عرفت أنَّ اليوم هو يوم عيدي، بالحادثة التالية: جاء السيد كاتسيمنغو (٣) مبكراً هذا الصباح لتهنئتي، وكان يرتدي بدلته السوداء الخاصة بالأعياد، مع منديل أزرق سماوي نظيف ملفوف حول عنقه.

لذلك قررت، أنا أيضا، أن أحتفل بوضع قليل من حبوب البن في المطحنة، على خلاف العادة. وهكذا شربت قهوة وتمنّيت لنفسي سنة أفضل.

وقت مشهود وما من فرحة في قلبي، ومع ذلك أردت القيام برحلة في الجزيرة. مررت بـ«ايجين» حيث كانت تنتظرني، في مركز بريدها، هدية - طبعة أنيقة لكتاب «هاملت»، باللغتين الفرنسية والانجليزية، أرسل بها إليّ بريفيلاكي. فرحت وسلكت الدرب المؤدي إلى ميساغرو. وهناك استلهمت بداية رائعة لكتابي عن «والدي» فدوّنتها... ثم عدت.

---

(١) و(٢) رسالة إلى ايليني سامـ[illegible]ن.

(٣) بقّال ايجين الذي علق لافتة فوق صندوق الدكّان مكتوبة باللغة اليونانية القديمة: «اخْشَ الذين بعتَ لَهم بالدَّيْن»

وأثنـاء مـروري بيروكوبي اشتريت ثـلاثـة أقـراص حلـوى معتبراً إيـاها هـدايـا من الأشخاص الثـلاثة الذين يحبّونني أكثـر: أنْتِ، وأختي هيلينا، والمجهول «س». يـوجد لـديّ، في البيت، منذ البـارحـة، قليل من الهندبـاء البريـة ونصف سمكة رَنْكـة. قلت في البداية: «ينبغي ألا أسخّـن الهندباء» – وتعرفين كم تكون كـريهة إذا أكلتْ بـاردة! – ثم تذكرت عيدي فقرّرْتُ تسخينها، طلباً للمتعة.

لا يمكن أن تتصـوري كم تلـذّذتُ بأكل الحلـويـات، وبعـد ذلك احتسيت قليـلا من مشروب اَنّا، على نخبها. وهكذا انتهى يوم ٦ ديسمبر...

(ايجين) السبت (١٩٣٥) [١]

وضعتُ خطة لكتـابي «وأنا أدخّن...» لكنني لا أدري متى أبدأ بكتـابته. قلبي كئيب هذه الأشهر، من دون معرفة السبب، ولا أستطيع الدخول في الأجواء المتألّقة والضرورية للإبداع... تجري الحكاية في اليابـان حيث تُشْعِلُ إحدى فتيات الجايشا غليوني وتضع فيه حبة صغيرة سوداء، قليلا من الحشيش، وفجأة تنبثق الفكرة التي طالما احتضنْتُها فأستعيد طفولتي في كريت مع والـدي، إلى أن ينطفىء الغليون وأسمع ضحكة الجايشا التي أدركتْ، عندما نظرت إليّ، أنني نسيتُ للحظةٍ، مكان وجودي.

الحشيش يـوضّح هـروبي بشكل جيـد، هروبي الكـامل، ويفسّر أسلـوب الكتـاب، المتقطع، العنيف والطافر، وكثرة الصور الهلوسية: الشرق الأقصى وكريت مشتبكين بلا فكاك، مشاهد، عيون مائلة، وكريتيون كريمون، إنّه تشابك صعب ومذهل...

كلّ شيء جـاهـز في ذهني، لكنْ تنقصني اللحظـة الإلٰهيـة، الجامعة بين الـلامبـالاة والنشوة. وسوف تأتي بدورها في الشتاء، خلال عـزلتنا... لقد أرهقْتُ من كثرة الزيـارات والمحاورات وهموم الحياة. أرجو ألّا تخرجي غداً، وألا تحزنك أجواء أثينا ..[٢]

---

(١) رسالة إلى ايليني ساميوس.

(٢) بعد تمرّد أتباع فينيزيلوس (مارس ١٩٣٥) الذي قمع بشـدة ونفي فينيزيلوس على إثره، إلى كورسيكا، تسلّط اليمين المتطرف على اليـونان. ويمكن القول بـلا مبالغة إن الشعب اليـوناني لم يعـرف يوماً من الحريـة منذ ١٩٣٥، أي منذ انقلاب الجنرال كونديليس ذلك الرجل الفظّ والأميّ.

أول ما قـام به كونـديليس هو إلغـاء الجمهورية. واسـتـدعى الملك جورج للحكم مجدداً بعـد استفتاء شعبي مزوّر. إذ كان عـدد المقترعين لصالح عودة الملك أكثر من عدد المواطنين اليـونانيين الذين تسمح لهم أعمارهم بالتصويت. أمـا ما أعقب ذلك : من ديكتاتورية ميتاكسـاس الفاشية والحرب، إلى الحربين الأهليتين، وتعيين انصار النازية في أهمّ المناصب، وملاحقة أنصـار الديمقراطية، كل ذلك كان من المرارة بحث يصعب تلخيصه في بضع كلمات، ويستحق أفضل من هذه الملاحظة المختصرة.

(ايجين) ٢٤ ديسمبر ١٩٣٥ (١)

الأيام في منتهى العذوبـة واللطف والنّداوة.. أشعر بالهدوء. لقـد مرّت أوقات الكآبة. وربما كان سببهـا يعود إلى القلق الذي خنقني قبـل أن أبدأ بكتابـة «وأنا أدخّن..» كنت أثور لأتفه الاسبـاب، ويجرحني أبسط اتصال. لقد استعـدت هدوئي الآن وبدأت أعمال الولادة.

١٩٣٦–١٩٣٧ . ستكون السنتـان التاليتان عصيبتين جـدّاً. وما لم تستطع المحن تحطيمه، كاد أن يـؤدي به تبلورُ حلم : «من لم يزوّج ابنـةً أو يبنِ بيتاً، لم يختبرْ هذا العالم» كنّا نعرف المثل لكننا نجهل العناء الذي يتحدّث عنه.

ولم يتأخر ظهور الصعوبـات. كنا نرغب، حسب زعمنا، في بيت ريفي صغير، متناغم مع نمط جزيرتنا. يكون بـلا قرميد، ويكفي سطح بسيط تدفئه الشمس، أو تبلّله الأمطـار، فيبدأ بـالرشـح فوق مـرقدنا... بيـت منسجم بلطف مع البحر وظهر جبل هيمات المسطّح...

وأردنا أيضـاً أن نجعل للبيت خزّانـاً تحته، نظـراً لأننا نبني فـوق الصخور، وسلّماً خارجياً من الحجـارة، تكون درجاته منحوتة في الصخـر، طلباً للبساطة، وقاعـة جلوس في الطـابق الأرضي تكون بطـريقة أقرب إلى سفينـة، وغرفـة نوم، وبعض الغرف الإضـافية. أما السطح فيكـون مصطبة محاطة بالشرفـات : وَكْر النّسر.

اقترحتُ شكل (n) (٢) متضمّناً باحة محميـة من الرياح. لكن المهندس اعتبره مؤديـاً للافـلاس، وبتَرَ إحدى سـاقيْه. وتهلل نيكـوس : «حظّنا رائع! الْغَـامّا (٢) تعجبني أكثر من الْبي TT. وتبين أن الشكل الجديد جميل ومنسجـم مع البيوت المجاورة. ثم إنّـه لا يمثل أي حرف من حـروف الأبجدية بل «غـامّا»، أي الحرف الثالث... ثـلاثة، ثلاثة وثـلاثون، ثلاثـة آلاف وثلاثة وثلاثـون.. الرقم المفضّل لديّ!»(٣)

---

(١) رسالة إلى ايليني ساميوس.

(٢) حرف بي Pi وهو الحرف السادس عشر الأبجدية اليونـانية. ويلي في النص، حرف غاما = غ الحرف الثالث (المترجم).

(٣) حتى أن كازنتزاكي كتب الأوديسة في ٣٣٣٣٣ بيتاً! (المترجم).

وعلى الـرغم من قلـة أموالنــا، بـدا لنا التصميم الأول مختـزلا وضيقـاً. لكن التصميم الثاني أثـار اعتراضات جديدة. كنـا نريد أن «تدخل الطبيعـة إلى بيتنا» غير أن نيكوس كان يفكّر في قلعة منقوشة في الصخر. ولقد خطط المهندس لأربعة أبواب «متّصِلة بـالطبيعة» فطلب نيكوس إلغاء ثـلاثة أبواب منها. وبقينـا نطالب حتى باتت «الفيرندا» «مقطوعة» عن بقية البيت. لكنني ربحت معركة المطبخ.وما أن هدأت عاصفة الأبواب حتى ثارت أخرى : عاصفة السلّم الداخلي. أصّر نيكوس : «دَرَج واحـد يكفي. لا أحبّ هـذه الثقوب الكثيرة في البيت... سـوف نـدخل من الخارج» وعندما توسّلنا إليه اقترح... باباً أرضياً على شكل كوة تفتح من فوق!

وجـاءت مشكلة النـوافذ لتـزيد الطين بلّـة. فرحنـا، في التصميم، بالفتحـات الواسعة المتراوحة بين ٣,٦٠ و ٦ أمتار. لكنني عندما غبت بسبب سفري إلى أثينا. ووجد البنّاؤون – سوف أتحدث عنهم فيما بعـد – أنفسهم أمام فتحات واسعة، ارتبكوا وقـالوا لنيكـوس : «كيرنيكوس، مهنـدسك مجنون! فهـذه الفرجـات لن تسمح لنا بصبّ طبقات الأسمنت، وسوف تنهار».

ولدى عودتي وجدت نوافذ صغيرة مرّبعة. ومتتابعة.

بناء ، فهدم، فإعادة بناء، فإعادة هدم... وطال العذاب سنتين كنّا نقطع فيهما رؤوس الوحش فتنبت من جديد، أكثر قوة... ولا يمكن لأحد أن يدرك مدى قلقنا عندما تأتي أيام السبت لدفع أجور العمال الذين يحدّقون فينا، جائعين، محطّمي الظهور.

كانَ البنّاء ان ثيودور واغناس عملاقين من لاجئي آسيا الصغرى. وقد أدرك أكبرهما، وهو ثيودور، أنّ أموال «المعلّم» قليلـة. فقرر الاقتصاد في كل شيء: «لقد حددنا ثمناً ولن نتجاوزه، يا سيـدي نيكوس!» أعلن ذلك وهو يرفع قدمه ليشرب نخباً مع معلّمه. «ومتى نبدأ؟» – فوراً!»

ثم وقف واصطحب اغنـاس إلى طرق الحقل حيث وضعـا قضيبين حديـدين فتنا ولا هما، وقصدا البحر. ثم عادا وكلاهما يحمل صخرة كبيرة. وطفقا ينحتان الصخرتين المالحتين، حتى لاحتا عاجيّتين مع التماعة وردية.

وتمكن ثيـودور، بطريقتـه، من حلّ مشكلة الـرمل :« لماذا تشـتري يا سيـدي نيكوس؟ ها هو ذا الرمل تحت أقدامنا. سـوف نغسله بالماء العذب وييسـر كلّ شيء على مايـرام!» فيما بعد، سوف يؤدي هـذا التفاؤل إلى ظهور رغوة بيضـاء تشبه الثلج، على الجدران، وتتلف كتبنا المسكينة...

لدى قدوم العاملَيْن مـن ايجين، لا ينسيان، كشرقييْن حقيقين، أن يجلبا سمكاً وفواكه وبعض اللوز الطازج من أشجارهما...

وعنـدما حـان وقت التبليط طلب مني ثيـودور أن أذهب إلى بيري مع أوامـر قطعية: «لا تنخدعي يا سيدة ايلينيتسا! نريد بلاطاً جافّاً، من النوع الممتاز».

وعـدت في زورق يغصّ بمواد مختلفـة، بينهـا البـلاط العتيد. عضّ ثيـودور بلاطة فانكسرت قطعتين. وكان شكّه في محلّه. وفي كتاب «الحرية أو الموت» هناك شخصية آكل الجصّ. وهو شخص حقيقي ما زال يعيش واسمه الفعلي كوكيس. ويمكن لثيودور واغناس أن يدخلا كتاب «القبطان ميخاليس».

وكما فعل في «تودا – وابا» و «الاتحاد السوفيـاتي»، أراد كازنتزاكي أن يقدم جوهر تجربته في اليابان والصين ضمن كتاب «بستان الصخور». الذي قال عنه كاتب سيرته عزيز عزّت[1]: «إنَّه نوع من مختبر تخضع فيه كلّ تجارب المؤلف إلى اختبار قـاس، ولا شك أن كازنتـزاكي أراد تقريب كتابـه «الزهـد» من القارىء، واختبار صلابة النتائج التي توصل إليها في زهده الخاص.

وبـالتزامن مع «بستـان الصخور» ألّف كـازنتزاكي كتـاب قراءة للمـدارس اليونـانية في مصر، بإلحاح من صـديقه مارسيلـوس الذي كـان يمتلك مكتبة في الإسكندريـة. وسمّاه «المشروع الكبير» ثم طلب مني أن أوقعه بـاسمي فقط، مع أنّي لم أساهم فيه مطلقا.

---

(١) عزيز عزّت : «نيكوس كازنتزاكي، سيرة حياة» منشورات بلون، باريس ١٩٦٥.

(ايجين ٢٢ يناير ١٩٣٦ [١])

... تلقيت مخطوطة الكتاب المخصص لمدارس مصر، وقد أعاد مارسيلوس كتابته بالقلم الرصاصي: فوضى جديدة وعمل متعب، عليّ تصحيحه وإعادة نسخه، منذ البداية.

أعمل النهار كله على تأليف «بستان الصخور» وأتلهف لمجيئك كي تُعلميني إنْ كان جيداً أو تتوجّب إعادة كتابته... أرى أحلاماً غريبة، وهناك خبر واحد سعيد: مات ملك انجلترا...

ولم يكد نيكوس يكمل «بستان الصخور» حتّى تدهورت حالتي الصحيّة. وللمرة الأولى، يستسلم الرجل المفتقر إلى رفيقة قوية مثل الصخر، شاعراً باليأس. وفي رسائلنا الكثيرة لا تشهد على ذلك سوى رسالتين. إذ أنه لم يجعلني أشعر البتّة بأنني أتسبب في عذابه، لا شفوياً ولا كتابياً.

(ايجين) الجمعة مساء [٢]

حبيبتي لينوتشكا،

لم أتمالك نفسي بعد، ولم أعد قادراً على تحمّل فكرة مرضك، بعد العملية الجراحية، والاستشفاء في يلومبيير... عزائي الوحيد أن أمرض بدوري. ولعلّي بذلك أنصرف إلى آلامي وأرتاح، وربما ارتحت أنت أيضا...

تمنيت لو كنتُ قادراً على البكاء، فهو أمر بسيط في متناول الكثير من الرجال، لكني لا أستطيع. عيناي جافتان وقلبي منقبض، مثل كرة رصاصية ثقيلة الحمل...

(ايجين الخميس ٧ مايو ١٩٣٦ [٣])

لا تنسي أن تخبري دوراس بألا يضع باباً للمطبخ مهما كان المبرّر. فلتذهب الرفاهية إلى الجحيم (تذكري كاريل): «داء الزهري، وإدمان الكحول والرفاهية ستقضي على حضارتنا»...

---

(١) و (٢) و(٣) رسائل إلى ايليني ساميوس.

تلقيت، يوم سفرك، رسالة مـن مدير ايرثيلا[1] في التشيلي يقـول لي فيها إنّـه أعجب بكتاب «تودا–رابا». وعرض عليّ تـرجمته ونشره ودفع عشرة بالمائة من سعر النسخة. وطلب مني أيضا أن أبعث إليه بـ«بستان الصخور»...

خلال ثلاثـة أيام أنهي الصياغة الأولى لكتاب «والدي». وبـدأتْ تتملكني فكرة كتاب جديد. لكنني أفضـل السفر إلى اليونان، لأنّ التأليف في وقت متقـارب قد يستنفذني، من دون أن أشعر.

(ايجين) الخميس (٢)

انتهى «والدي» منذ أول أمس. لقد أنجزته في وقت أسرع مما كنت أتوقع. والآن سوف أهمله لبعض الوقت داخل أحد الأدراج... وسأذهب أيضاً إلى كريت لقضاء بضعة أيام...

أنـا الآنَ قلق وبـلا عمل. أفكـر في الكتاب المقبل: «ديْـر الصخـور». ينبغي أن تـدور أحداثه في الهند (كما جرت أحداث «بستان الصخور» في الصين)... سوف نرى... إذا جاء هيربر... وإذا ... وإذا.... ربما أبـدأ، غداً، بكتـابة نشيد عن هيـديوشي، البطل اليـاباني الذي أحبّه.

هنا، لا جديـد، إذا استثنيْنا زهور الصبَّار التي ستتفتــح قريباً. لو كـان عندي عرق لسقيتها، من أجل تأخير تفتحها.

لا شيء آخر ، يا حبيبتي. ليكن اللّه معنا!.... ومهما حدث فإن شعارنا:

High thinking - hard work - adventurous excitement.

(ايجين) ٢٠ مايو ١٩٣٦ (٣)

حبيبتـي لينوتشكا

ليكن اللّه معك، ومعي، غداً عيـدك. تأثرتُ كثيراً عندما اكتشفت أن نبتـة الصبّار قد أزهـرت قبل ليلتين، في الذكـرى الثـانية عشرة للقـائنـا. فأل حسن. ولتكن هذه السنـة مواتيـة – صحة، بيت ، كتـب أبجدية، كِتـابك عن «الحاسـدية» اليهـودية[4]، روايات بالفرنسية، كتب أطفال بالفرنسية، الخ، الخ....

---

(١) دار نشر تشيلية.

(٢) و (٣) رسائل إلى ايليني ساميوس.

(٤) كنتُ قد بدأتُ العمل على حركة المتدينين اليهود وبعض كتب الأطفال، بالفرنسية.

(ايجين الخميس (١)

كتب لي رينو يقـول إنَّه لم يقرأ سـوى الصفحات الأولى من «بستـان الصخور» ولم يرض عن العمل، لأنني مع اليابان، أي... معَ الفاشية! أما هو... الخ، الخ... فأجبته بأنه حكمٌ سطحي، من رجل ممارسة، على عمل فني. والمستويان مختلفان. ومع ذلك فقد وعد بالاعتناء.... لا أملك مالاً، ولست أدري كيف سنتوصل إلى إتمام الطابق الأرضي على الأقل، والانتظار أكثر بالنسبة لبقية البيت...

(ايجين) الأربعاء مساء(٢)

أرهق نفسي كثيراً، أقضي النهار بكامله في ورشــة البناء. لا آكل، ولا أنام. كل الجدران بُنيت تقريبا... هذا ليس بيتاً بل هو قصر محصّن. سوف يصير رائعاً، قصراً حقيقياً. أنا متأكد من ذلك، ومبتهج لأنك ستفرحين بـه أنت أيضاً. ويكفي أن يتنازل دوراس قليلاً في مسألة الفرجات الكثيرة..

صرت أزعجك بمشاكل بنـاء البيت، لكن بوذا على حقّ: فـالذي يبني بيتاً يصير بـاباً ونافذة...

(ايجين) ٢ يونيو ١٩٣٦(٣)

لم أعد قادراً على العمل بسبب هموم البيت. لقد جاء بيراندّلوا(٤) في الوقت المناسب.

لم أكتب سـوى بعض الأناشيـد: عن شكسبير وليونـاردو وهيديـوشي .. ولنأمل أن يتقبّلـوا الكتب المدرسيـة. هكـذا فقط نتمكن من إتمام بنـاء البيت. يستحيل، مع الفقـر المنتشر في اليونـان، بيع أية قطعة أرض.

وفي مقـــابل هموم البيت التي أجبرتنــي على التنقل بين أثينـــا وايجين، شكّل الأصدقاء القدامى والجُدُد، مصدر فتوة بالنسبة لنا.

ومــا زلت أذكر فـرحـة نيكوس بـرؤيـة جـان هيربر، للمـرة الأولى، على متن البـاخرة، وأسئلـة نيكوس حـول بـوذا، وفيفكاننـدا، والهند، والأشرام. وكـذلك محـاوراتنا المطـولة مع صديقيْنـا الجديديْن هلمـوت فون دان شتاين، وكـونراد

(١) و (٢) و(٣) رسائل إلى ايليني ساميوس.

(٤) ترجمة طلبها المسرح القومي.

وستبفاهل – وكلاهما يهودي – وهو الأمر المفرح لنيكوس، أحدهما كاتب من تلاميذ ستيفان جواج العالم المتخصص في هوميروس، والثاني رسام، وموهوب في كتابة الشعر... فكان النقاش يتناول ريلكه، وهولدرلين، وشكسبير وفاليري وكلوديل، من دون نسيان الشعراء الصينيين واليابانيين والعرب، ومتصوفة كلّ البلدان وكلّ العصور.

ولقد سكنا ذات مرة عند انغيلاكي كي نسمح لـ رين بليسترا، الكاتب الهولندي، وزوجته الشابة ماري، بتمديد إقامتهما في ايجين لبضعة أشهر، في بيتنا. وكان هناك كلب مشرد يلعب دور ساعي البريد بيننا.

«تعاليا كي تذوقا مربّى التّين الجديد!» فتصل الرسالة إلى وجهتها بعد تعليقها في عنق ساعينا ذي القوائم الأربع. «نأتي يوم الخميس في الساعة الرابعة!» فيعود الكلب القهقرى مخترقا الجزيرة من طرفها إلى طرفها الآخر، وفي الساعة المحدّدة يكون الشاي جاهزاً على المائدة.

ولم تكن أجهزة الترانزستور والهاتف، والسيارات والدراجات النارية، موجودة آنذاك في جزيرتنا. كانت هناك عربات خيول، مغطاة، وبغال وحمير... وأقدامنا. وعندما يأتي بعض زوّارنا على متن السفينة، يُبوّق القبطان ستاماتيس ثلاث مرات ببوق السفينة ويقربها من صخرتنا حتى نميّز وجوه أصدقائنا بالعين المجردّة. وإلا فإن المنظار المقرّب، لدى نيكوس، هو الذي يسعفنا:

«انظري! هذا ميخاليس اناستاسيو وزوجته ايليني! هذا ميناس ديماكيس[1]، فروسو، يونغو لولاكاكيس!».

ثم نقصد الميناء لاستقبالهم.

وذات مرة تنهّد الشاعر الغنائي تيلوس أغراس الذي مات خلال المجاعة الكبرى: «كم أتمنى المجيء للعيش بقربكما... لقد تأكد لدي أنَّ نيكوس يعرف كيف يعيش بكفاف يومه. كم أود أن أتعلم العيش على طريقته...»

(١) شاعر كريتي ممتاز.

لكن نيكـوس كان يعطي أولويـة الترحاب للشبـاب. فيشجعهم، ويحثهم على استلام مقاليد العالم بين أيديهم، وخاصة مستقبل اليونان.

وأذكر في هـذا المجال، مجمـوعة شعراء وروائيي ثيسـالونيكي الـذين جاؤوا دفعة واحـدة ذات يوم صيفي. وفي حين كان نيكـوس يحلق لحيته كي يستقبلهم بمظهر لائق، جـاء أحدهـم، وهو أكبر مَنْ في المجمـوعة، وقـدم لي كتابـه الممهور بإهداء قائلاً: «أرجوك، أن تعطيه للمعلم» ثم استدرك «اعيدي لي الكتاب، أرجوك، لقد أخطأت... كتبت الإهداء بصيغة المضارع، مع أنني ميت...»

وجاء آخر، وهو حفيد أحد أكبر شعرائنا في القرن الماضي، وكان في مقتبل العمر ويتمتع بالصحة والجمال، ليقول لي بلا قلـق إنَّه «فيلسوف محبّ للموت»! وأمام اندهـاشي أوضح لي أنَّه يـؤثر... الموتى! وهـؤلاء الشباب مـازالوا على الـرغم من نزواتهم، يكتبون قصائد رائعة...

(ايجين) السبت ١٩٣٦[1]

لم افهم جيداً ما قلتِه لي عن الأكاديمية. هل يتعلق الأمر بجائزة؟ إذا كانت مكافأة عن دانتي فسوف أقبلهـا. لأنني قدمت الترجمة العام الماضي آملاً الحصـول على الجائزة. أما إذا أسندوا الجائزة إلى أعمالي كلهـا فإنَّ الأمر يتطلب تفكيراً، وربما كـان من الأفضل عدم قبولها.

أتفرغ الآن لكتابة الأناشيد. صراع مرير. غداً أُتمّ «الإسكندر الأكبر». أتلهف إلى صدور «فاوست» في صحيفة «كاثيميريني». ذلك ضروري حتى يعرف الجميع أنَّ هذه الترجمة أفضل بكثير من تـرجمة «هــ» وسـوف يرتبك المسرح القـومي ولن يقـدر على ارتكـاب مظلمة...

لكن المسرح القـومي ارتكب المظلمـة. فأرسل كازنتـزاكي مقـالة احتجـاج إلى صحيفة «كاثيميريني»:

من بين المحاولات السِّتْ لترجمة «فاوست» إلى اليونـانية... استفدت من واحدة فقط:

---

(١) رسالة إلى ايليني ساميوس.

وهي ترجمة هـاجوبـولوس. إنَّها الأفضل – برغم نقـائصها. فـالبيت الشعري ضعيف يفتقـر إلى الإيقـاع، واللغـة ضعيفة، وهنـاك مقـاطع كثيرة ثقيلـة الجرس (ولاسيّما إذا استُمع إليها في المسرح)، وهي صعـوبات كثيرة أمـام أي ممثل يتناول ذلك النصّ. وعلى أية حال، فإنّ هاجولولوس نفسه اعتبر عمله، محاولة بسيطة في الترجمة، وكان محقاً.

لقـد استخلصت أكثر عـدد ممكن من الملاحظـات مستفيـداً من جهود المترجم الـذي سبقني. وحاولت من جانبي، قدر المستطـاع، تقريب محاولتي من الأصل الخالد، بفضل بيت شعـري أحسن إيقاعـاً، ونقلٍ أكثر وفـاء للنص، وأكثر صفـاء، ولغة أغنى، وأكثـر انتشاراً على الصعيد اليـوناني، عسى أن يأتي بعدي مَنْ يستطيع الاستفادة بـالطريقة ذاتها كي يتقدم أكثر.

ابتداء من اليـوم، وكل يوم خميس سينشر العمل تبـاعاً في صحيفـة «كاثيميريني»، وأترك الحكم للقارىء على نجاحي أو انعدامـه. وسوف أكون سعيداً أو ممنوناً إذا لاحظ لي القراء وجود بعض الأخطاء مع تدعيم ذلك بحجج مقنعة، وبذلك يقدمون لي يد العون في إنجاز هذا العمل الضروري والشاق...

أهدي هـذا العمل إذن إلى ضمائر هذا الـزمن، ومنهـا أنتظر العدل. ولا يمكـن لإنسان شريف في «سدوم» البائسة هذه، حيث تدهـور العقل حالياً، أن يضع أمله في مكان آخر. نحن أمام محكّ الزمن : السادة كارثـايوس وبستياس ورونديريس من جانب، وأنا من جانب آخر.

أستعيد تلك الأعـوام السعيدة ولا أكـاد أصدق أنها كـانت على درجة من القسـوة. يا إلهي، كم كافحنا وكم استغثنا بأصدقائنا حتى يتمكن نيكوس من العيش بقلمه!

(ايجين) أول يوليو ١٩٣٦[١]

... تمرّ الحياة هنا، هادئة... أنجزت الفصل الثـاني من «وكالة الزواج»[٢] ويبدو لي جيداً.

وفي حين كـان كازنتـزاكي ينكبّ في ايجين، على إبـداع أعمال تصمد بـرغم كل العقبات، كان ميتاكسـاس، بمساعدة مَنْ باتوا معروفين، يخرّب اليونان.

---

(١) رسالة إلى ايليني ساميوس.

(٢) ضاعت هذه الكوميديا.

فصار كلّ إنسان تقدّمي شخصاً مشبوهاً. وخبر البسطاء الذين «بلا وجوه» معنى المسألة البوليسية: فتم نفي الأساتذة الجامعيين، ذوي التأثير في الأوساط الطلابية، إلى الجُزر الموبوءة حقاً. ذلك أنّ الجزر غير الصحية، ذات الماء الموحل، خصصت للمتشددين.

والأسوأ من ذلك هو عملية «تطهير» الجيش من الضباط الفينيزيليين، أي الأحرار. وعندما غزا الإيطاليون منطقة إيبير طلب أولئك الضباط تمكينهم من خدمة الوطن. فطُلب منهم أن يقدموا خدماتهم إلى جلالة الامبراطور هايلي سيلاسي. ولم يبقِ من كوادر الجيش سوى الضباط ذوي الميول الألمانية.

وفي إسبانيا كان الألمان والطليان يختبرون أسلحتهم الجديدة. وحاولت حكومة بلوم في فرنسا مساعدة الجمهوريين، فمنعتها إنجلترا.

لكننا كنا نعيش بين اليابسة والماء، في صفاء مؤذٍ على المدى الطويل، معنوياً، أكثر من الوجود في إحدى المدن الجهنمية في أوروبا أو أمريكا.

حلّ الخريف. واقتربت عودة صيّادي الإسفنج. وكما في كل عودة، لابدّ من نعي الموتى، والأسوأ منهم، أولئك «المتضررون» جسدياً الذين يصابون بالشلل ويضطرون إلى التنقل على ظهور الحمير...

في تلك الأزمنة كانت ليلة الانطلاق هي اللحظة الأكثر بهجة عند الصيّادين يودعون «الكايماني كوسمي» (العالم العزيز) وينفقون في ليلة واحدة جلّ مدخرّاتهم. وفي «الدوديكانيز»، روى لنا مانغليس أن الغطاسين يتنافسون في التظاهر بالثروة حتى أنَّ بعضهم يثبت ليرات ذهبية في عقب الحذاء... وفي ايجين المتأثرة أكثر بالخشونة الإسبرطية، يكتفون بآلتي الكمان والسانتوري، والمازة وإدمان الكحول. كان يوم الذهاب يتم في أجواء الفرح، أما فرح العودة فلا يظهر إلا في عيون الأمهات والزوجات اللائي أنهكن الانتظار.

وها هي ذي يانولا قد تزوجت من غطاس مثالي ذي مستقبل مشرق. سألنها هل أنتِ سعيدة يا يانولا؟ هل احتفلت بعودة زوجك؟»فأجابت : «طبعاً، يا كيرا

لينيتسا، أنا سعيدة». وكان في صوتها سرّ تتكتّم عليه فزاد فضولي.

«إذن تعجبك الحياة الزوجية، يا يانولا؟»

– تعجبني... لكن ثمة شيء يقلقني...

– وما هو؟

– البُعد، يا سيدة لينيتسا.. لم يعد ثمة بُعد بيننا، إذا فهمت ما أقصد...»

لا يمكن وصف فتنة أكتوبر في جزيرة يـونانية. بعد أغسطس المحمّل بالبطيخ الأحمر والأصفر، والعنب والتين، وبعد سبتمبر الغـارق حتى الركبتين في براميل النبيذ، عاشق الضحك والفكاهات الملّحة، هـو ذا اكتوبر الساحر. فهل هو الذي ينوّم الرياح ويجعل الشمس تنوس، ويحول البحر إلى بساط صَدَفيّ لامع؟

تكفي مُـزْنـة واحدة كي تجترح المعجـزة. فتخترق بتـلات الـزّعفران أرضنـا القاسية التي سميناها «حقلنا» تجاوزاً، في صمت الليل، رغم عجـز فؤوسنا عن اختراقهـا. وبعد الـزعفران يأتي البنفسج متسلقّـا الصخور، ثم تنمـو الهندبـاء متشابكة مع العليق.

طمأنينة، هواء خفيف، ظلال خفيفة. كل شيء يبعث على السعادة. لكن اسبانيا تصيح طالبة النجدة، وزيت قنديلنا يشرف على النّضوب.

ما مِنْ أمل في الأفق الذي انسدّ دون «الأعمال»، وأمامنا جدران بيت لم يكتمل بناؤه وقد ينهار بأمطار ديسمبر.

وأمام البحـر الداكـن الذي تجوبه زوارق الصيـد المضاءة بـالمصابيـح، كنّا نستسلم، أنا ونيكوس إلى لعبتنا... لعبة الهضم:

«لو كنّا نملك ... لو كنّا...

– عجّة بأربعين بيضة...

– وتشيك، طبعاً (هكذا كان نيكوس ينطق كلمة «شيك») [1]

– وحينئذٍ يحلو السّفر! مع صحنٍ فيه شريحة لحم بقرْ...»

وفي ذلك المساء لم يجد نيكوس متسعاً من الوقت كي يرقص رقصة «شريحة اللحم» [2] إذ أقبل شاب على ظهر حمار، ليلاً :

– إيه، كير نيكوس! أتيت لكَ ببرقية!

وكانت البرقية تحمل توقيع جورج فلاخوس، مدير صحيفة «كاثيميريني» الذي طلب من نيكوس القدوم فوراً، من أجل السفر إلى اسبانيا التي اندلعت فيها الحرب، وإجراء تحقيقات.

وكان فلاخوس بذيئاً وذكيّاً ويحبّ كازنتزاكي، فاستقبله بابتسامته الماكرة :

«أعرف أنك تفضّل زيارة «الحُمر»... لكنني أرسلك إلى «السود» كما تسميهم.

– لماذا، أنا تحديداً؟

– لأنك سوف تقول الحقيقة. فيبغضك أصدقاؤك وأعداؤك، وأفرح أنا بذلك. هل تذهب فوراً، أم لا؟

وذهب.

مرسيليا، ٩أكتوبر ١٩٣٦ [3]

حبيبتي لينوتشكا،

إن الحاجة وحدها، والرغبة في رؤية هذا الجرح الجديد في العالم – اسبانيا – هما اللتان أجبرتاني على مغادرة ايجين. أدفع الثمن غالياً. لكنني أعتقد أن ذلك لن يدوم أكثر من شهر. وسوف يمرّ بسرعة ويتحول كل شيء إلى ذكرى تحت زنجار الزمن...

---

(١) الصكّ، وكلمة «تشيك» كما ينطقها كازنتزاكي تؤدي أيضاً معنى «التشيكي» (المترجم).

(٢) «بفتيك» في الأصل (المترجم).

(٣) رسائل إلى ايليني ساميوس.

مساء، ٩أكتوبر(١)

الفرنسيون، بسخريتهم وتهذيبهم، لا يطاقون... ولا يسهلون مهمتي. في كلّ خطوة أخطوها يغيظونني. لا يكاد المرء ينطق بشيء حتى يرشقوه بنظرة حقد ولؤم... غادرت السفينة وقصدت دكّاناً صغيراً لاقتناء قليل من التبغ. نظر إليّ صاحب الدكان ضاحكاً وقال: «على بعد ثلاثة كيلومترات يا سيدي!» وسخر مني كل الفرنسيين الموجودين الذين كانوا يحتسون مشروبات ملوّنة. لماذا؟ لأنني طلبت تبغاً، ولا يوجد تبغ...

أسبانيا لا تغادر ذهني. أرثي لها وأتألم معها، كما لو كانت كائناً حيّاً. أتلهف لمعاينة آلامها ومكابداتها وخسائرها. وسوف أتمكن من الكتابة بنزاهة قاسية، ويغضب الطرفان. لكنني لا أستطيع عكس ذلك. بدأت لا أكترث – وهذا آخر تطور توصلت إليه – بأفكار اليسار واليمين، أمر واحد يهمني ويجعلني أفرح أو أحزن: الإنسان، الدودة البشرية الرائعة، والتي تزحف وتصارع من أجل اكتساب أجنحة «الفارفالا أنجيليكا» كما قال دانتي...

لشبونة، ١٦ أكتوبر ١٩٣٦(٢)

تعبت نهار أمس بكامله حتى تحصلت، في النهاية، على تأشيرة دخول إلى اسبانيا. تعرفت على أشخاص عديدين. وحصلت على رسائل توصية. آمل أن أنجح. أكثر مشكلة هي إيجاد وسيلة نقل. لا توجد سكة حديد ولا سيارات ولا فنادق. لكنني سأوفّق...

وفي ورقة مزدوجة، مقتلعة من دفتر، وجدت:

كاسيرس، الأحد، ١٨-١٠-٣٦

شرفات، أبواب مزينة بأعلام إسبانية، حمراء وصفراء. وعلى الكثير مها، قلب يسوع يخترقه سهم، والدم يسيل، أو كتابة تقول: «فيفا خاسوس! (عاش يسوع).

مشهد رائع: بيت صغير وفقير، باحة مبلّطة، حديثة التنظيف. ظلّ ثلاث عجائز في لباس أسود، جالسات على شكل هلال. إحداهنّ تُقرّب مَحرمة من عينيها الباكيتين بلا شك، وإلى جانبها شيخ يرتدي الأسود بدوره. وثمة امرأة ترتدي السواد، واقفة على العتبة، تتكلم بصوتٍ هادىء واحتفالي في آن، والآخرون يستمعون إليها مُنحنين. كما في

(١) و(٢) رسالة إلى إيليني ساميوس.

مسرحية جيدة.

كلب أسـود يقوده شيخٌ شُرِطَ أنفـه بصليب عميق، مدمّى. والكلب يتبعـه، شاهـداً حزيناً على اسبانيا.

أجواء حرب : ضجيج، فرح، مصابيح، نساء فـرحات، مقاهٍ مزدحمة، حانات، جنود برفقـة نساء، والمغاربـة صامتون، بِلَحَـى سوداء، وجلابيَّـات، ومسدسات، وخنـاجر، يذهبون ويجيئون، صامتين، أو يتوقفون ويتحادثون ويغازلون الإسبانيات الواقفات على عتبات الأبواب...

سيغوليا، ٢٢ أكتوبر ١٩٣٦(١)

حبيبتي، عـدنـا للتّو من الجبهـة. أمضينـا سـاعات كثيرة في الجبهـة مع الجنـود «صعدت إلى إحـدى القمم مع بعض الضباط، وشـاهدنا مـدريد، وبعدهـا بقليل، جبهة الأعداء: البقاء هنا خطر. قال أحد الضباط. ولم يكد ينهي كلامه حتى سمعنا أزيز قذيفة فوق رؤوسنا. فانبطح الجميع أرضاً. مكثـتُ واقفاً لبرهة حتى أرى القذيفة – سقطت في مكان قريب مرسلة دخاناً كثيفاً، وترابـاً، وأشجاراً. وأعقبتها قذيفة ثانية فثالثة، ولكن، من حسن الحظ، لم يُصب أحد...

أردنا الذهاب إلى طليطلة، لكن هناك صعوبات... أما هنا فقد انتهت الأعمال الوحشية والأحـــداث الكبرى، الخ، الخ... ولم يتحقق الحدث الكبير، الآخـــر، أي الاستيـــلاء على مدريد... هناك صحافيون كثيرون (خصوصاً من الألمان) ينتظرون في سالامنكي...

٢٦ أكتوبر ١٩٣٦. بورغوس(٢)

حياتي هنا زاخرة بالمشاهد التي تعتبر جائرة بالنسبة إلينا، وأنت تفهمين ما أعني. جُبْتُ الحدود الشمالية طيلة أسبوع في سيـارة. وذهبت إلى الخطوط الأمامية تحت وابل من القذائف والـرصاص، وجازفت كثيراً لأن بعـض القنابل سقطت بقربي. وفي البـداية كنت أمكث واقفاً ثم اعتـدت الانبطاح مع الآخرين حـال سماع الصّفير... زرت الخنادق، وشاهدت «الحُمر» أمامي.

عشتُ أسبوع حرب. قـرى مدمّرة، أمهات يبكين، أناس يرتـدون ثياب الحداد، كلاب

(١) و(٢) رسالة إلى إيليني ساميوس.

وفية، حمراء العيون، على العتبات.

سأعود إلى سالامنكي قريباً حيث يوجد معسكري. وسوف أمكث هناك قليلاً ثم أقوم بجولة في جبهة طليطلة الجنوبية...

١٩٣٧ . لم تعد «الهدايا» الإسبانية تفارقنا : ذلك العلم الأحمر الصغير الملطخ بدم شابٍ كان ينبض حياة فقُتل لأنه آمن بحرية ممكنة. والصورتان اللتان وجدتا مع جثة فرنسيسكو لوبيث، صورة زوجته، وصورة كارمنتشيتا، ابنتهما، ورسالة البُنيّة التي كتبت لوالدها تطلب منه أن يأتي ليرى كيف ولدت القطة أربع هُريْرات... وذلك المفتاح الكبير العائد إلى إحدى الكنائس المنتهكة والمتروكة للعصابات المتعطشة للانتقام.

لقد قيل كلام كثير عن أهوال الحرب الأهلية في إسبانيا، ولم يُفعل الكثير لتداركها أو معالجتها. «سمكة السردين» الصغيرة التي رفعت رأسها، في منام نيكوس، خارج مياه البحر كي تتضرّع إلى الإله : «إذا كنت طيباً، يا إلهي، لا تهب القوة للكبار، هبها للعادلين!» صوت سمكة السردين الصغيرة لم يُسمع مطلقاً...

كانت ايجين جزيرة حصينة تخضع للرقابة العسكرية. لكن ذلك لم يحل دون انعقاد اجتماعات هائجة منذ عودة نيكوس!

«هل توافق على ما قاله لك أونامونو؟[1] هل يتوجب علينا حقاً إخفاء الحقيقة عن الشعب؟ وهل كان أونانومو محقاً في استشهاده بالعهد القديم: «مَنْ يتكشف على وجه الإله يَمُتْ»؟

– لقد ماتت الأساطير القديمة. وواجبنا أن نخلق أساطير أخرى جديدة.

– وفي الأثناء

(١) صدر تحقيق نيكوس كازنتزاكي عن اسبانيا الحرب الأهلية في كتاب بعنوان «اسبانيا» (سيمون أند شوستر، نيويورك).

- هناك جانب عملي في قول أونانومو. كيف تُكشف الحقيقة إلى عشرات الآلاف من الشابات أو العجائز اللائي تركهم الكهنة والحكومات المتعاقبة، في جهل مطلق؟ إن ابناً أو أباً أو شقيقاً شيوعياً، بالنسبة إليهنّ، هو الشيطان.

- وما حاجتهم إلى حرق الكنائس؟

- لا تنسوا أنَّ «الحُمر» أحرقوا كنائس، بينما أحرق القساوسة الكاثوليك الكنيسة... وباسم المسيح سمحوا بارتكاب آلاف الجرائم أو رغبوا فيها. لقد وقفوا إلى جانب الشيطان بلا تردّد.

- هل هناك أمل بالنسبة لاسبانيا؟

- لا أعتقد. فكلّ قوى الشر تضافرت ضدها.

- لا شك أن دورنا سيأتي أيضاً.

- سوف يأتي، يقيناً!» قال نيكوس بالشعلة التي لا تفارق عينيه: «أقول وأكرّر: نحن نجتاز قروناً وسطى جديدة. وسوف تطول. ربما مائتي عام... أنا متشائم جداً بالنسبة للمستقبل القريب...

- لكن الشعوب سوف تستيقظ... فهل كانت الأمهات اللائي تحدثت عنهن منذ قليل، راضيات عن رؤية المرتزقة الأفارقة ينهبون ديارهّن ويقتلون ابناءهنّ، ويرسمون الصليب بحدّ السكين على أنوف أزواجهنّ؟

- كان دليلي الضابط معجباً بهم: «يسمعون الأصوات التي لا ندركها... ويرون في الظلام الأشد كثافة، مالا نستطيع تمييزه... هم نسور أكثر منّا، لا يخافون شيئاً، ويحاربون أفضل من أيٍ كان... - أليس من الخطر تعليمهم قتل الإنسان الأبيض؟» سألته مذهولاً من عدم اكتراثه. فهزّ الضابط كتفيه. أما أنا فقد أدركت أنَّ حكم التاريخ قد بدأ يفعل فعله وعرفت أنّ الغزو الوحشي قد بدأ من إسبانيا.[1]

---

(١) انظر كتاب نيكوس كازنتزاكي «اسبانيا»

كان الصيف يقترب بسرعة كعادته في اليونان. ولم يكن في بيتنا باب ولا شباك ومع ذلك اضطررنا إلى السكن فيه، لأنّ ضيفينا الهولنديين لم يتركا البيت الصغير الذي أعرناه لهما. واضطررت مجدّداً للسفر إلى أثينا لاستكمال لوازم الأبواب والنوافذ الخ، الخ...

(ايجين، يوليو) الثلاثاء (١٩٣٧)[١]

حبيبتي لينوتشكا،

جاء ن. منذ قليل، وأعطاني رسالتك، لكنه لم يجئني بمجلة «أوروبا» خوفاً من التفتيش... أتمنى أن تسند لي الجائزة على كتاب دانتي... لكنني أشكُّ في ذلك.

أمس جاء بليسترا في وقت مبكر. تجولنا قليلاً وتناقشنا حول المسرح الدّرامي وأعطيته فكرة أفرحته.. وانا بدوري بدأت اليوم أراجع مسرحية «عطيل يعود» توصلت إلى حبكة تبدو لي مشوقة.

أنجزتُ نشيد الاسكندر، وأعجبني.

تجرأت السيدة فوتيني[٢] وعرضت أن تشتري لي... بعض الزبدة! «زبدة؟» قلت لها مدهوشاً، فسكتت المسكينة. ثم عادت بعد قليل: «هل آتي لك على الأقل بقليل من الأرز بالسبانخ، للغداء، يا سيد نيكوس؟» وافقت فرحاً فذهبت بسلام.

(ايجين، صيف ١٩٣٧) الاثنين[٣]

هذا الصباح امتلأ البحر شمّاماً. إذ تحطم زورق محمّل بالبطيخ الأصفر فوصل حتى بيتنا. ولقد هرع حشد من النساء والأطفال وبدأوا يجمعونه. واقتربت مراكب كثيرة، فقفز منها الصيادون. حملت «صوفي» كيسين كبيرين مملوءين، وجاءتني بواحد كبير... فرح عارم، عراك، قراصنة حقيقيون! تخيّلت ماذا يحدث عندما تُنهب مدينة كبيرة.

أنهيتُ «النشيد» وبدأت أدرس مأساة «الأم ماري»...[٤]

(١) رسالة إلى ايليني ساميوس
(٢) والدة يانولا.
(٣) رسالة إلى ايليني ساميوس
(٤) تراجيديا ضائعة عن ماري بيكت إيدي.

ايجين، أول أغسطس ١٩٣٧(١)

وافقت بالأمس على المساهمة بالكتابة يوميا في كاثيميريني(٢) – ثلاثة آلاف دراخما شهرياً – وها أنذا غارق في العمل. وأمل في الأثناء أن يُعاد تنظيم المسرح القومي وأحصل على المنصب الذي أريده. وإذا تم ذلك فإنَّ حياتنا اليومية سوف تكون مضمونة...

٢ أغسطس ، مساء (٣)

أمامي سبعة كتب جديدة ألفها شيوعيون عادوا من روسيا خائبي الأمل. مثل بانايبت تماماً. ولهذا أرى أن كتابك عن بانايبت سوف يجد ناشراً. فهو مواكب لأحداث الساعة. وكذلك «بستان الصخور» حالياً، بالنسبة للصين واليابان..

أثينا، ١٧ اغسطس ١٩٣٧ (٤)

قديسي جورج الحبيب ،

ذهبت اليوم إلى أثينا للاتفاق مع كاثيميريني حول الجولة في مقاطعة البيلوبونيز التي سأقوم بها في سبتمبر مع عشرين فرنسيّاً من جمعية «بودي». لا أكتب مقالات لكاثيميريني بل أشارك فيها بمسلسل روائي، وبدأت كذلك سلسلة مقالات عن جيد، وسيلين، وروسيا، الخ...

ايجين، ٢٣ أغسطس ١٩٣٧ (٥)

أدّى يريفيلاكي القسم وتقلّد وظيفته ، وهو الآن في أوج مجده (٦) وأنا أيضا بطريقة غير مباشرة، إذ أنَّ الجميع يراسلونني ويطلبون مني التوسط لهم، الخ...

٢٤ أغسطس (٧)

اشتغلت طيلة نهار الأمس، وفي الليل، بينما كنت أشرب كوب الحليب وأتهيأ للنوم فاجأني وصول سيارة ! نزلتْ منها امرأة ذات قبعة عريضة من القش... «جئتُ طالبةً اللجوء عندك!» قالت ضاحكة: «مَنْ أنتِ؟ – ألا تتذكرني...» أليكي! كانت ابنة كيفالي(٨).

---

(١) رسالة إلى ايليني ساميوس
(٢) كتب نيكوس حكايات روائية غير موقّعة.
(٣) رسالة إلى ايليني ساميوس
(٤) و(٥) رسائل إلى ايليني ساميوس
(٦) عيّن يريفيلا كي مديراً للفنون الجميلة لدى وزارة التربية القومية.
(٧) رسالة إلى ايليني ساميوس
(٨) كيفالي ، ممثلة يونانية مشهورة.

جلستْ على أريكـة المكتب وبـدأت تتحدّث عـن أشياء مختلفـة، وفي الأخير قـالت لي: «لكنك لم تسألني لماذا جئتُ؟ - كان الإغريق القدامى لا يسألـون ضيوفهم إلا بعد ثلاثة أيام. وأنا اغريقي - أما أنـا فمستعجلة. جئت لأنّ مسرحي في ورطة، لم نعد نملك فلساً، وقد تراكمت علينا الديون، وكان من المفترض أن أقـدّم عرضاً هذه الليلة، غير أنني تركت كلّ شيء فجأة، ومن دون أن يعلم أحـد بوجهتي، حتى زوجي، أردت الانتحـار، ثم فكرت فيك فهرعت إليـك. دعني أعيش بضعة أيام بقـربك، سوف أستعيـد الشجاعـة وأختار طريقا جديداً، - تعالي نتناول الطعام عند ماريني! قلتُ، لا يوجد عندي شيء، هنا!

ذهبنا إلى ماريني وأكلنـا قليلا من الطمأطم والجبن، إذ لم يكن هناك غيرهما... هيّأتُ لها فراشـاً على أريكة «الستـوديو»، والآن، الساعـة التاسعة صبـاحاً، ومـا زالت تنام. سأنزل لأجهّز لها الحليب (لا تجيد إعداد شيء، حتى بيضة، قالت لي).

.... أحضرتُ الحليب، أعددت المائدة وتناولنا فطـور الصباح. لم تُحْضر شيئاً معها، فما من مشط، أو صـــابـونـــة، وحتى منشفـة... أعطيتهـــا بعض الكتب، وهي الآن في «الستوديو» تطالع، لا تتكلم، ولا تتحرك، ولا تعرف، كما قالت، كم ستمكث هنا... تبدو يائسة وأنا أشفق عليها، تهب ريح قوية، إنّه الخريف...

ايجين، ٢٦ أغسطس (١)

تواصل أليكي الإقامة في بيتنا. لحسن الحظ أنها لا تزعجني البتة، إذ تلزم الهدوء في الستـوديو وتنـام أو تقرأ. أطلب الأكل من مـاريني فيرسل لنا بـالطماطم والباذنجـان والفاصوليـا، الخ.... نأكل ثم أصعد للعمل. نتناول شاي الساعـة الخامسة ثم أعود إلى العمل. وفي المساء نتحدّث عن المسرح وعن حياتها، الخ. إنها هادئة وطيبة. لم يكن لديها قميص نـوم فأعْرتُها أحـد قمصـانك. جاءت بقبعـة قش فقط. واليـوم نشرت الصحف بعناوين كبيرة: *اختفـاء أليكي! مصيرها مجهـول! الشرطة تبحث عنهـا من غير طائل!* الخ. نصحتها بأن تتصل بالهاتف فرفضتْ... ومن جانبي أتهيأ للسفر يوم أول سبتمبر، وعندئذ سوف تضطر إلى الذهاب بدورها. إنها لطيفة ورصينة جدّاً.

سافر الهولنـديان أمس ووعدا ببذل الجهـود بالنسبة لمخطوطـاتنا... لم أنجز «الأم ماري» بعـد، لأن كاثيميرينـي والإعداد للسفر أربكـا الأجواء. لكـنّ التراجيديـا ستكون جيدة. ويفضل عدم التسرّع.

---

(١) رسالة إلى ايليني ساميوس

٢٨ أغسطس (١)

مغامرة أليكي فظيعـة! ولا يمكن وصف حملة الصحف حول هـذه القضية. الشرطة مستنفرة... وثمة تخوّف من لجوئها إلى الانتحار، مقـالات، الخ... امتلأ البيت منذ مساء البارحة بالصحافيين والمصورين... وأخيراً جاء زوجها اليوم... بكاء، تفسيرات، الخ.... ثم مغـادرة... كانت إقـامتها هنـا لطيفة. أنـا متأكد بأن تصرّفني كـان إنسانيـاً، وذلك بالإشفاق عليها، وحسن استقبالها...

٢٩ أغسطس (٢)

امتلأت الصحف اليـوم بالشرح والوصف: ... «ها هي ذي الفيـلا التي اختبأت فيها أليكي»... «هذه نافذة الغـرفة التي كانت تنام فيها...» «وهذه نافـذة الغرفة التي كانت تشرب فيها كأس الحليب، وهذه «الغورغونيـا» التي كانت تسترخي بقربها، على كرسي هزّاز، وتتأمل البحر...».

٣٠ أغسطس (٣)

جاءتنـا السيدة انغيلاكي، أمس، بهدية للبيت، تتمثل في بسـاط أخضر جميل مطرّز بـالأبيض... ولـك أن تتخيلي الحماسـة التي طـرحت بها أسئلتهـا عن أليكي. كثيرون يظنـون أنها... عشيقتي... ما أكثـر الشـائعات حـول اسمي من دون مبرر. اتّصلتْ بي صحيفـة «كاثيميريني» تلـومني على عدم إعـلامهـا بأن أليكي في بيتي، من أجل تحقيق سبق صحفي. أجبت بأنني صحافي سيىء، و إنسان شريف.

لكن «كاثيميريني» مبتهجة... لأنّ أروع أعمالي ما كـانت لتحقّق لي مثل هذه الشهرة، في رأيهم، الخ، الخ...

باتراس، ٦ سبتمبر ١٩٣٧ (٤)

... تعرفين بـاتراس. ريف. أتسكع النهار بكـامله مثل *كلب الكاهن*، أشرب فناجين قهوة، آكل راحـة الحلقوم، أشاهد راقصة متبرجـة على منصّة المقهى الرئيسيـة. الرجال بشعون، وأحاديثهم فظيعة. والشباب أسوأ. لم أسمع كلمة روحية واحدة. فقط: الأكل، الغزل، ربح المال...

---

(١) و (٢) و (٣) و (٤) رسائل إلى ايليني ساميوس

– نعم . – كازنتزاكي أليكي؟ – نعم» ومهما صرت كاتبا كبيراً لن أشتهر بهذه الدرجة.

٦ سبتمبر بعد الظهر ، كافاسيلا (١)

سلكت الطريق وحيـداً، ولم أعد أتحمل باتـراس... وها أنذا أتقدم بـاتجاه أولمبيا ... أكتب إليك من محطـة ضيعة بـائسـة، حيث أنتظـر... القطار الـذاهب إلى كيليني. ومن هنـاك، أصعد إلى قلعـة هليمـوستي... هـذه القرى البـائسـة، كانـت رائعة في القـرون الوسطى، وفيها فرسان ومباراة، وبذخ، وألوان...

مستنقعات، يـوكالبتوس ، سرو ، كـروم عنب، أراض سوداء خصبـة، هواء كثيف، حرارة، بعوض. والأحاديث.... كئيبة بلا فكاهة، بلا روح، النساء ذوات مؤخرات واطئة وسيقان قصيرة، يعشين مثـل الاوزّ وعلى وجوههن كـآبَة وبـلادة كوَصْمتيْ عبـودية... عزائي الوحيد الآن، هو غليوني. الرّيف جميل، جذّاب ، هادىء.

كيليني ، ٧ سبتمبر (٢)

وصلت ليلاً إلى شاطىء ينتصب فيـه كوخان أو ثلاثة. – هل يوجـد فندق؟ – لتذهب إلى نيكوليتا، قـال لي رئيس المحطة الخدوم والثرثار – هل يكثـر البقّ؟ – لا تنتج قريتنا سوى العنب والبقّ. – وهل هناك بعوض؟ – نعم. – وحمّى مستنقعات؟ – يوجد الكثير من المستنقعات المؤهلـة لذلك. – هيّـا بنا ، قلتُ وأنـا أزمّ شفتيّ بلغنا فنـدقا صغيراً على شاطىء البحـر. نيكوليتـا بدينـة، شاحبـة، حفيّة. جـاءتنا بسمك مطبـوخ و «أيولي» وزجاجـة نبيذ. يـوجد خمسـة أو ستة متشردين وحمالين ورجـال درك. قال لي أحـدهم بصوت خفيض: «خبّىء خاتمك، فالجميع هنا هاربون من القانون أو لصوص. أريد أن أستشيرك...» وشرع يحكي لي قصة زوجتـه التي تكرهه وتـرفض النوم معه، وتتـذكر خـالها الذي كـانت على صلـة به... حكـايـة لا تصـدق، ذات تفاصيل مثيرة. هـاجمني النعـاس بعـد الأكل – هل تـريـد أن تكون بمفـردك أم بـرفقـة شخص آخـر؟ سألتني نيكـوليتـــا. – وحـدي. – إذاً عليك أن تنـام في فـراشي... لكننـي لا أضيء النـور بسبب البعوض.

دخلت ... فإذا أرضيـة خشبية تئـز صـاخبة، وكلهـا ثقـوب... والسـرير ذو رائحـة

---

(١) و (٢) رسائل إلى [illegible]

غريبة، ومنخفض لان نيكوليتا قصيرة. تشجّعت فخلعت ملابسي، ونمت.

في الصباح وجدت الفراش نظيفا جداً، وقاعة الجلوس مملوءة بالصور، وبحاملات المناشف وتماثيل الجبس للملك قسطنطين، والزهور الورقية، والأصص الخضراء والمطرّزات.

صعدت إلى قلعة هليموستي الشهيرة... وفي هذه الظهيرة أجلس بجانب الماء، ونسمة رقيقة تهب. وأشاهد آثار غلارنتسا حيث كانت ترسو سفن الإفرنج، في القرون الوسطى، محمّلة بالفرسان. رمال ناعمة، قصب، دفلى، مصطكا و آس...

٩ سبتمبر (١)

وصلت إلى أولمبيا. احتفال كبير. سوق شعبي. آلاف البشر، يبيعون الخيول في الدرجة الأولى... قيل لي في الفندق إنهم ينتظرون مجيء اثني عشر فرنسياً. فهل هم أصدقائي؟ سوف نرى... ذهبت إلى المتحف. شعرت بفرح عارم لمشاهدة النقوش، مرّة أخرى.

نهار إلٰهي رائع، أتسكع مع غليوني وأتأمل السهل، حتى البعيد. لا أعرف بعد ماذا سأكتب، لكنني أشعر بنوع من الحركة في داخلي، وثمة مواضيع تختمر.

أثينا، ٢٠ سبتمبر ١٩٣٧ (٢)

عدت من جولتي للتوّ... لقد استغرقتْ سبعة عشر يوماً. شاهدت مناظر جميلة واستمتعت برؤية القلاع والقصور، وخاصة قصر مونيمفاسيا. لم يأت الفرنسيون... وفي الطريق رحّبت بفرنسيتيْن، شقيقتين – إحداهما من طراز ايتكا، والأخرى من طراز إلسا – (٣) بقينا اسبوعاً، معاً، ثم تركتهما في ميسترا.

لا أعرف الآن ماذا أكتب، اليونان موضوع صعب ولا يمكنني التعبير بحرية. اتصلي بفكتور سيرج. المهمّ أن تسمح له حكومتنا بالمجيء إلى ايجين والإقامة فيها كما يشاء... بلغيه سلامي الحار، وعبّري له عن حبّنا.

... ينبغي أن نكفّ عن السفر كلاً على حدة... امتلأت بالصور والأحاسيس

(١) ايفون ولوسيان ميتاير، وصارتا لاحقا: السيدة ميترال والسيدة فلوري، من أعزّ اصدقائنا.

(٢) و (٣) رسائل إلى ايليني ساميوس

والخيبات، وعدت مغتنياً بها. سوف تعودين، بدورك، ممتلئة، ونتبادل بضاعتنا..

ايجين، ٥ أكتوبر (١)

أربكتني رسائلك التي تدعوني إلى باريس وقررت استشارة «كاثيميريني» في الذهاب... شخصياً لا أرغب في السفر إلى باريس، على الرغم من إمكانيات الاستمتاع وأهمية السفر من أجل الكتب...

أما بالنسبة للعمل في لجنة المسرح القومي، فقد قررت إيجاد وسيلة للرفض، بعد قراءة رسائلك. ذلك أن قبولي يعود إلى رغبتي في تحقيق بعض الرفاهية لك. وما دمت تزدرين ذلك سوف أبحث عن مبرر مقنع لرفض المنصب...

أكتب مقالات عن مقاطعة البيلو بونيز. وسوف يكون عددها عشرين. وهي صعبة برغم كلّ شيء، لأنني لا أريد كتابة أشياء معتادة. ولا يمكن كتابة أكثر من مقالة واحدة في اليوم... (٢)

عندما شاهدت لوحة غرنيكا لبيكاسو، في باريس، لم أعد أقدر على النوم. أحسستُ فيها بكلّ ما أحبّه في أعمال نيكوس، مكثفا. فماذا أفعل كي يتمكن المتوحد في ايجين من رؤيتها، هو الآخر؟

لدى عودتي إلى اليونان سعيت إلى إيجاد المال الذي يسهل سفر نيكوس إلى باريس. ونجحتْ جهودي هذه المرة.

وفي انتظار الباخرة التي ستقلّه في إحدى ليالي اكتوبر، مكثنا نتبادل الوداع، وفرحة الأيام القادمة. فسمعنا ثلاث طرقات على الباب البلوري.

– مرحى ، يا وستفاهل! هتف نيكوس الذي يرى في الليل مثل وَشَق.

– اسمع النبأ السعيد! سيذهب نيكوس لرؤية «الغرنيكا»!

(١) رسالة إلى ايليني ساميوس

(٢) هذه الرحلة عبر مقاطعة البيلوبونيز، صدرت عن «سيمون أند شوستر» في نيويورك، وبرونو كاسيرر في اكسفورد، وعن منشورات «بلون» الفرنسية، سنة ١٩٥٨، بعنوان : «من جبل سيناء إلى جزيرة فينوس».

– الغرنيكـا ... تنهّد الـرسـام... غـرنيكا... كم أود مشـاهدة أعمال بيكـاسو مجدّداً، لأنني أمرّ الآن بمنعطف...

– بعْ بعض اللوحات و «هوبْ»! قلتُ متفائلة.

وبدأنا نتناقش حول إجراءات البيع عندما تدخّل نيكوس.

– هل تعرف بيكاسو شخصيّاً؟

– تقريباً ... أعرف أعماله جيداً... يا لها من حافز بالنسبة لي!

– هل تودّ فعلا مشاهدة غرنيكا؟ سأله نيكوس متأثراً بما سيفعل لاحقاً.

– طبعاً ! قال وستفاهل.

– اذاً، لا شيء أبسط من ذلك! سوف تذهب إلى باريس !

وإذا بـه يخرج تذكـرة سفره التـي حصلنا عليهـا بشق الأنفس، والقليل من العملات الاجنبية الضرورية للسفر.

١٩٣٨ : حلّت مثل خرافـة جنيّات. كان ياما كـان، لم تكن، ومع ذلك كانتْ... امرأة أميركية ثرية، ذكية وخارجـة عن المألوف، كرست جهودها لأعمال سوامي فيفيكانندا. وعمل معها جان هيربير لنشر بعض أعمال سوامي في أوروبا، وكُلِّفتُ شخصياً بترجمة كُتيِّبيْن إلى اليـونانيـة. وكان جـان هيربر قـد تحدّث مطوّلاً عن نيكوس لـ «تانتين»، أي الآنسة ماكليود، كما يتحبّب إليها المقربون.

– لا تهمني الحجارة مطلقاً! قالت لي في أول لقـاء بيننا في أثينا. لا الأكروبول، ولا متـاع الـدنيـا. أحبّ التعـرف على بشر، على كائنـات حيـة. من هـو نيكـوس كازنتزاكي الذي تعاشرينه؟

كانت مشيقة القـوام برغم تقدمها في السن. وقفزت من مقعدهـا: «هيا بنا إلى ايجين حالاً. أتلهف لمعرفته!

– سوف أنام كل ليلة في غرفة مختلفة، نبهتنا تانتين لدى وصولنا إلى ايجين. وأرجوك أن تتركي كل الأبواب مفتوحة. أحب معرفة ما يدور حولي:

لم تغيّر فراشها لكنها تفحصت البيت طولاً وعرضاً. وتسلقت سلّم الشيطان الصغير كي تصعد إلى أعلى مصطبة وتتمتع برؤية بحر سارونيك. ورفضت أية مساعدة:

– لم تتعرفي إليّ إلا منذ البارحة، وتزعمين أنك قادرة على مساعدتي؟ أعرف نفسي منذ ثمانين عاماً، وأعرف كيف أتدبر أمري، بمفردي.

ولما جلسنا إلى المائدة لم تأكل تانتين سوى بياض البيضة.

– ايليني، هذا المُح (صفار البيض) نظيف، لا ترمي به.

– طبعاً، يا تانتين، قلتُ، من دون أن أفعل ذلك.

– إيلين، هذا المُح نظيف. هل سترمين به؟ كررت بنظرات قاسية.

ابتلعتُ المح دفعة واحدة، فأعطتني تانتين أول درس في الاقتصاد، قالت:

– عندما كنت صغيرة، كنت أخبىء ما أدخّره من نقود قليلة فوق بابي، أيام التنظيف... لا أحب التبذير، وحتى اليوم مازلت ألتقط علبة كبريت، إذا سقطت. اقتصدي يا ايليني ولا تبذّري. لكن تعلّمي كيف تعطيني وتساعدين القضايا الكبرى. عندئذٍ يتوجب عليك العطاء بملء اليدين! وليبارك اللّه!....

ثم التفتت نحو نيكوس :

– ما تلك المخطوطة الضخمة التي رأيتها منذ قليل على طاولة مكتبك، يا نيكولو؟ سألته. هل هي «الأوديسة» التي حدّثني عنها جان هيربر؟

– نعم... طفلنا، يا عزيزتي تانتين...

– حدّثني عمّا تقول فيها! لماذا لا تنشرها إذا كانت جاهزة؟ ماذا تنتظر؟

وطفق نيكوس يسرد الحكاية الخارقة لقرصانة... الرحلات، النهب والسلب، حرائق القصور، الهجرات، تشييد المدينة الطوباوية، الخراب، الخ....

وكانت تانتين تنصت مذهولة. وحلّ الليل وهما جالسان متقابلين،

كـالمتـواطئين، و«الأوديسة» على ركبتيهما مثل غنيمـة صَعُبَ الحصـول عليهـا فازدادت قيمتها.

وجئت أقطع خلوتهما :

– تعالا، لتجديد قواكما. المائدة جاهزة.

– أنتِ أمـرتني تـانتين غاضبـة تقـريبـاً، اذهبي واجلبي محفظتي. إنها على السرير. وعودي بسرعة!

– ما المبلغ الذي تحتاج إليه، يا نيكولو، لنشر «الأوديسة؟

– اجِمْ... الف وخمسمائة دولار تقريباً!

فوقعت صكّـاً بالمبلغ. وبذلك تمكنّـا من طبع ثلاثمائة نسخـة ممتازة – وهي الطبعة الأولى من «أوديسة» كازنتزاكي باللغة اليـونانية. أما الثانية فكانت طبعة أبسط. ولقـد وضعتهـا على نعش نيكـوس، يـوم رحيلـه الكبير. فلم يتمكن من ملامستها والتربيت عليها كما كان يحبّ أن يفعل.

وبعد أن قدمنا الصَّك إلى الناشر ترجّاني نيكوس كي أهتم بالتصحيح.

ولم يسبق لي ممارسة مثل ذلك العمل. فقبلت وطلبت مسـاعدة هيلينا أخرى، زوجة ميخـاليس أنستاسيو. ولم يكن يسمح لنـا إلاّ بإجراء تصحيحين على كلّ تجربة مطبعية. فكانوا يجلبـون لنا الأوراق، ونصحح أخطاءها، ثم تُطبع. ونعود إلى رؤيتها، في اليـوم نفسه، خلال السحب النهـائي، في المطبعة. وعملنـا أكثر من ثماني ساعات يومياً، إذ قيل لنا بأننا إذا لم نحترم ذلك الإيقاع فسوف تزداد كلفة الكتاب.

وعنـدما تعترضنـا بعض الصعوبـات نتصل بنيكوس في ايجين، فيستغـرب «وهل يصعب عليكِ تصحيح بيت من الشعـر، بنفسك، وإضافة تفعيلـة أو إلغاء أخرى؟ أو تغيير كلمة بأخرى؟».

(ايجين الاربعاء[1])

فرحت برسالتك. فلتُعرض «ميليسا»[2] وسوف يشجعني ذلك على كتابة مسرحيات أخرى. وإلاّ...

لا آكل الحلويات الآن. ولا أفعل ذلك كي تجديها [لدى عودتك] بل لاختبار قوتي. أعيد قراءة «الأم ماري». أتعب لكني لم أبدأها بعد. أنتظر مصير «ميليسا». المسرحية تختلف تماما عن القصيدة. أستطيع كتابة قصائد من دون أن تنشر، ومن دون أن يقرأها أحد. أما العمل الدرامي فهو أشبه ما يكون بتجسّد للفكر، كما يتم تحقيقه في التّيبت، إذ يغدو جسماً مستقلاً عنك، ويرغب في العرض. وإذا لم يعرض في المسرح تتلاشى قوتك الخلاّقة، ولا تتمكن من الكتابة مرّة أخرى...

(ايجين) الأربعاء[3]

أحرر يومياً كتاب القراءة للصف الثاني [المدرسة الابتدائية]. وعندما تقبلين سوف يكون جاهزاً. بالنسبة لـ «الأوديسة» أرجو أن تجلبي لي ما أعادته لك الرقابة، أي الأناشيد ٢٠و٢١و٢٢و٢٣و٢٤. هنا، هدوء وطقس رائع.

تفادياً للرّذاذ الملحي، توجب علينا إعادة تطيين جدراننا.

(ايجين) الاثنين(١٩٣٨)[4]

أجرجر الماء يومياً من البئر، أملأ الخزان، أساعد في عملية التطيين. رياح قوية، وبرد قارس. ولحسن الحظ أنه لا يوجد مطر، وسوف يُنجز كلّ شيء عما قريب...

قرأت كتابك الإسباني عن باناييت استراتي[5] مرتين. مدهش. مكتوب بحيوية وجودة فنية. كان من الصعب استخلاص حكاية واضحة، حيوية ومشوقة من كل تلك الأحداث... وأنت لم تكرمي ذكرى باناييت فقط، بل ألّفت كتاباً جميلاً، أيضاً. فلننتظر الآن كتابك الثالث...

---

(١) رسالة إلى ايليني ساميوس

(٢) اكد لي مينوتيس أن المسرح القومي سيمثل «ميليسا» قريباً جداً. ولقد عرضها فعلاً، بعد اكثر من ٢٢ عاماً، وبعد وفاة المؤلف. (في اطار مهرجان أثينا، بمسرح هيرودس أتيكوس، تحت الاكروبول. وحققت نجاحاً كبيراً).

(٣) و(٤) رسالة إلى ايليني ساميوس

(٥) «مأساة باناييت استراتي الحقيقية» تأليف إ. ساميوس. منشورات ارثياد، ١٩٣٨ سانتياغو، تشيلي.

... وشيء آخر بغيض : غادر بيتر غراي(٢) ايجين. وبتعبير أدقّ، طردتْه الشرطة بوصفه أجنبياً، الخ... واضطر المسكين أن يلجأ إلى بوروس. ولدى رحيله ترك لي بعض الكتب الجميلة: كيتس، شلّي، لِفْكاديوهيرن... وكان في منتهى التأثر والحزن... إنهم متوحشون. أرأيت ما يحدث في ألمانيا؟ ألستُ محقّاً؟ إننا نسير نحو قرون وسطى جديدة. بل وصلنا إليها. وكل الأعراض موجودة. ما العمل؟ نحلم، نخطط، نعمل من أجل حضارة المستقبل. إننا نمسك بشمعة صغيرة مضيئة، وعلينا ألاّ نترك شعلتها تنطفىء...

إنه لمن حقّ الفنّان، في أوج انهياره العصبي، أن يكره جيرانه، عندما يكون منصرفاً للعمل. وهو حق إنساني تماماً.

«عندما تشاهدان أصيص حبق على عتبة بيتي، تستطيعان زيارتي» هكذا نبّهنا صديقنا كالموك «وإلاّ فإنّ عليكما الامتناع عن زيارتي لأنني أكون آنذاك في أوج العملية الإبداعية».

وفي الواقع كان كالموك يمضي لياليه في احتساء الكحول بحانة ماريني، ويعود في الفجر، عندما يكون نيكوس جالساً إلى مكتبه. وكان ينام طيلة النهار. موصداً نوافذ بيته. ولقد تألمنا كثيراً لعجزنا عن إخراجه من تلك الأزمة، لاسيما وأننا كنا نحب رسمه كثيراً.

وكتب لي نيكوس يقول إن كالموك قد رفع أسواراً عالية – حواجز واقية – حول شرفة «الفيرندا»، حتى لا يرانا.

وأكد لي مينوتيس، مرة أخرى، أن مسرحية «ميليسا» ستمثل، فأخبرت نيكوس الذي احتفل بالخبر السعيد، محتسياً «شامبانيا» الفقراء :

(ايجين، ١٩٣٨) الاثنين(٢)

ما إن قرأت رسالتك حتى هرعت إلى الخزانة وأكلت ملء ملعقة صغيرة من الكرز

---

(١) كاتب امريكي شاب، كنّا قد آويناه في بيت ابنة عمي ماري.إ

(٢) رسالة إلى ايليني ساميوس

الأربعاء[1]

صرت ماهراً في الطبخ بعد أن طبقت طريقتك... وأكل بطريقة أفضل عندما تكونين غائبة...

أرسلت لي السيدة لامبريدي نصّ المقال الذي قرأته في الإذاعة. إنها ترفعني إلى السماء السابعة. وقالت بانني، وسكليانوس، أكبر حقيقتين في اليونان. يا إلهي كم سأرتاح بتصديق ذلك. لكنني لا أصدق شيئاً مما يقال عنّي. كنت أرغب في شيء آخر. كان يتوجب عليَّ ممارسة شيء آخر، ربما كان بوسعي أن أعمل شيئاً آخر، ولقد ضاعت حياتي. كلّ ما أكتبه، أكرره، إنه مادة بديلة.

وتابعنا، أنا وهيلينا، تصحيح التجارب المطبعية لـ «الأوديسة». وكانت زوجة تيموتيو روبيو، الشاعرة الإسبانية روزا شاسل روبيو، موجودة في أثينا. واشتركت مع نيكوس في ترجمة «الأوديسة» شعراً.

الأربعاء

أنا سعيد بمجيء روزا. هذه المرأة نادرة بالتأكيد. ونادر ما تكتبه، ولا سيما إيقاع كتاباتها. كان في إمكانها إنجاز أعمال بارزة...

ايجين، ٥ ديسمبر ١٩٣٨[2]

حبيبتي،

يوم رائع. جلب الشاب س. ثلاث شتلات زعرور، وغرسناها. أتمنى أن تنمو. ترجمتك لبيتر غراي ممتازة. ونشرت في الصدارة. بعثت بها إليه ولا شك أنّه سوف يفرح. لغتك جميلة.

غداً يوم عيدي[3] وسوف أستيقظ في منتصف الليل، للعمل معك. أعمل بضراوة لأجهز المخطوطات...

ايجين، الجمعة[4]

أتلّهف إلى الذهاب لرؤيتك. لقد انتهيتِ من تصحيح «الأوديسة» كلها، من دون

---

(١)و(٢) رسالة إلى ايليني ساميوس
(٣) عيد القديس نيكولا، ومن يحمل اسمه (المترجم).
(٤) رسالة إلى ايليني ساميوس

تدخلي. وربما أحضر في الوقت المناسب بالنسبة للـ «أوميغا»[1].

(ايجين) ٨ ديسمبر ١٩٣٨[2]

أكتب، في الليل، عن حياة آل هـابسبورغ[3] ضمن شكل روائي. أريـد إنهاء أكبر جزء ممكن كي يتبقى لي متسع من الوقت للأعياد. لذلك لن أذهب إلى أثينا إلا وقت التوقيع[4].

أوقدتُ مـدفأتكِ لأول مرة، اليـوم. وعندما ارتفعت حـرارتها طبخت فوقهـا قليلاً من الفاصوليا، فشعرت بطمأنينة غريبة لسماع غليانها...

أنتظـر نص المسرحية التي كلفني المسرح بترجمتهـا. هـذا العمل سقط من السماء. بدوره...

(ايجين) ٩ ديسمبر (١٩٣٨)[5]

... نبتـة الصبّار المريضـة التي أخذتها إلى سـاكيوتي، بـدأتْ تتعافى... لقـد أصيبت بضربة شمس. علينا أن نضعها تحت الشمس مع مظلّة...

حاشيـة : نسيت أن أخبرك بأنني ارتديـت، في عيد القديس نيقـولا، تلك السترة التي فصّلْتِها لي من معطفك، وتَبَخْتَرْتُ مثل طفل...

---

(١) أوميغا: هي الحرف الرابع والعشرون في الابجدية اليونانية، والنشيد الرابع والعشرون في «الأوديسة» ايضاً.

(٢) رسالة إلى ايليني ساميوس

(٣) سيرة اليزابيت امبراطورة النمسا، في شكل روائي ينشر مسلسلاً.

(٤) كان الكتّاب اليونـانيون يضعون توقيعهم على كلّ نسخة من كتبهم، بمثابـة صيانة لحقوق التاليف والنشر. ومازالت هذه العادة سارية في اليونان، وتتسبّب في بعض العقبات بالنسبة للكتّاب المعنيين.

(٥) رسالة إلى ايليني ساميوس

هدم الأساطير

1939 - 1946



١٩٣٩ . صار ذهابنا، منذ الفجر، إلى المطبعة المحاطة ببساتين الفواكه في مدخل أثينا الجنوبي الغربي، احتفالاً يومياً بالنسبة إلينا. فهل كان يعود إلى رؤية أول شجرة لوز مزهرة؟ أم إلى الأريج البري المتضوّع من الهندباء المرّة ممتزجاً بالعطر النفّاذ الذي تفوح به أزهار البنفسج غير المرئية؟ أم هي فرحة إنجاز العمل في وقت قياسي؟

كنت وهيلينا مزهوتين بالوليد الجديد[1] على ركبتينا، متلهفتين كي نعرضه ليعجب به الجمهور. عندئذٍ أدركنا وجود الأخطاء الأولى. ارتبكنا، ودعونا نيكوس لنجدتنا.

– أخطاء مطبعية؟ أخطاء بالغة؟ لا تفزعا... طبعاً سأجيء... وفي الأثناء أرجوكما استشارة كالموك!

– ثمة حل وحيد، قرّر كالموك، محو الحروف الدّخيلة واستبدالها بالحروف الصحيحة، لكن بخط اليد. وهي أخطاء كما علمت، أقل من تسعة آلاف...

وجاء اليوم المشهود. وخصص صديقان[2] من بائعي الكتب واجهة كاملة لتنصيب *الوحش*[3] وحش بأتم معنى الكلمة، «موبي ديك» تائه في مياه البحر الأبيض المتوسط...

– بعني مائة غرام، من فضلك، طلب م.أ. وكان أشدَّ النمّامين حقداً، مع

(١) اي «اوديسة» كازنتزاكي.

(٢) هما السيدان غانياريس وديامنتاراس

(٣) كتاب الاوديسة، مع تشبيهه بالحوت «موبي ديك»، في رواية ملفيل الشهيرة التي تحمل العنوان نفسه. (المترجم)

ابتسامة لطيفة وخادعة.

- وأنا أريد ٣٥٠ غراماً، رجاء ! وأنا، أريد رطلاً!

وانتشرت اللعبة. ذلك أنَّ الذين كانـوا يتقيأون «المنشّق» الرجل الذي لم يُجارِ عصره، هم أنفسهم الذين كـانوا لا يقرأونه. غير أن أكثر المدن بـلادةً لا تنجو من الشعـر. ولقد أهـدى نيكـوس نصف عـدد النسخ الثلاثمائة. وكنـتُ مفرطـة في التشاؤم فقـدّرت وجود خمســة مشترين. لكنهم تجاوزوا المائة. وتمكّن الشباب من قراءة الملحمة - النّهر بالتناوب على مطالعتها، متمنّين نشرها في طبعة شعبية.

وشمّر الأصدقاء عن سواعدهم. فانكبّ واحد من أفضل رسامينا، هو نيكوس حاجيكيرياكوس - غيكاس، على ترجمة مقاطع من الملحمة التي أراد أن يرسم لها بعض اللوحات. ومن هذا المشروع انطلق ر. لافيسك في ترجمته التي صدرت فيما بعد ضمن «حضور اليونان»[1]

ونشرت الصحف الأثينية في ذلك العام مقـالات متحمّسة ضد «الأوديسة» أو معها. وكـان حاييـم خورموزيـوس أول من نشر تحليـلاً وافياً «لـلأوديسة» في سلسلة من أربعة وعشرين مقالا. ولعبت دراسته دوراً أكيداً في حسم تردد بعض القراء أمام «أطول ملحمة للعرق الأبيض».

ولم يعد نيكوس يفكر، بعد الإثارة الأوليـة، سوى في السفر. لكنّ فكرة تنبّؤية خطرت بباله قبل الرحيل:

«أودّ اقتناء جرّة طينية كبيرة، يا عزيـزتي، جرّة كبيرة. - لماذا؟ لأملأها بزيت الزيتون... لنقلْ، قرابة خمسين لتراً من زيت الزيتون!».

ولم يمنعه استنكـاري من تنفيذ فكرتـه. وكنت أعلم أن الخبز لم يكن لينقطع في بيت والده. لكنه كان يشتري الكثير كي يوزعه على أفراد العائلة والأقارب حتى صــار يلقّب بالقبطـان بسومـي (قبطان الخبـز). وفكرت بأن نيكـوس سيصير قبطان الزيت.

(١) «دفاتر الجنوب»، ١٩٤٨.

ومن حسن الحظ أنَّ نيكــوس لم ينتبــه إلى تــذمّــري. وبفضل ذلـك الـزيت استطعنا النجاة من استسقاء المجاعة. كما تمكنا من إنقاذ بعض أطفال جيراننا.

وكان في أثينــا، خلال تلك المرحلة المضطــربة دبلومــاسي إنجليزي «جنتلمان» حقيقي، يدعى سيدني واتــرلو، تعرف عليه نيكوس مصادفــة. ويتميز بحضور الشخصية، والثقــافة الواسعــة، والاهتمام بالماورائيــات، وحبّ اليونان القـديمة والمعاصرة. وهو أمر لم نعتده.

وصار الرجلان يلتقيان بحبور ويتناقشان في السياسة والفن والدين. وأدرك الإنجليزي النّبيه ذلك الخطــر المحدق بالشاعــر اليوناني المتوحــد في «فردوسه»، ووعده بسفرة إلى إنجلترا. ونظراً لاهتمام السر سيدني واترلو بأفكار صديقه فقد انصرف أيضًــا إلى ترجمة كتاب «الزهد».

لم يثمــر شيء من وعـــود المسرح القــومي[1] والكتب المدرســيـــة، والترجمات الموعودة. وحده الإنجليزي وفى بوعده.

ايجين، ٦ يناير ١٩٣٩ (٢)

صديقي العزيز،

أنا سعيد بــوجود أشخاص يستمتعون بقراءة مــا حاولت إنقاذه من أعماق روحي، بجهود جبــارة، وذلك في قالب الكلمات. لا أرغب في مكافــآت أخرى: فليس هناك مكــافآت كبرى لرجل ناسك.

لقد كان عدد الذين اقتنــوا نسخاً من «الأوديسة» أكبر مما توقعت بكثير. ويفضل أن تقــوم «بيرســـوس» ببعض التسهيــلات في البيع بـــالتقسيط لمن يــرغــب... إنَّ هــدف «الأوديسة» هــو أنْ يقرأها الشباب، مهما كــان الثمن، وهذا العمل لم يكتب للمسنّين، بل كتب للشباب وللذين لم يولدوا بعد...

---

(١) كان يدعى «المسرح الملكي» أنذاك.

(٢) رسالة موجهة إلى ستاموس ديامنتاراس، صاحب مكتبة شاب، كان كازنتزاكي يقدره ويحبّه كثيراً.

ايجين، ١٧ فبراير ١٩٣٩ (١)

... تفتّحت أزهار «المنثـور» (جيروفلي)، بألوان بنفسجية وبيضاء. وغـرسنا خمس عشرة زيتـونة... واليـوم، شمس رائعـة، هدوء، طمأنينـة، وأنـا سعيد. النهـار ممتلىء بساعاته. أعمل، أعمل، أعمل.... والشمس لا تغيب. للزمن، هنا، عمق فريد، فلا يمرّ هرماً وأحمق، كما في أثينـا. أنا الآن متمـدّد على أريكـة «الستوديـو» مفتـونـاً بجمال منزلنـا، وهدوئه، وبسـاطته، وامتـلائه بالضوء. البحـر يشبه البلور، والجبـال ساكنـة، آمنة، والأرض مغطـاة بالخضرة. أنـا مدين بكل شيء للعـزلة. ولـولاها لما فعلت شيئـاً، أو لما حققت ذاتي، «سوليداد، سوليداد»، كما يقول خيمينيث.

.... أطالع طوال النهار باللغة الإنجليزية وأخطّط لألف مشروع من أجل «الهروب». فهل نتوصل إلى التشبث ببعض الصخور الإنجليزية، لبضعة أعوام؟!...

ايجين، ٢٠ فبراير ١٩٣٩ (٢)

... استلمت الهدايـا الثمينة (بمناسبة عيـد الميلاد) ليوم ١٨ فبراير، وأشكر الجميع: أنتِ، وروزا، الخ، الخ.... هنـا يخيم الهدوء والطمأنينـة. أجهّـز «نيسـافور فـوكـاس» للمسرح، وأدرس الإنجليزية(٣). راسلني واترلـو بمناسبة عيد ميلادي وختـم رسالته بالقـول «ينبغي، قطعاً، أنْ نلتقي في القريب العـاجل». (كرنفال.) جاءت أقنعـة أخرى اليـوم، طـردت الجميع قـائلاً إنني في حِـدَاد. فسألـوني قلقين: «أيّ حِـدَادٍ؟». لكنني لم أخبرهم بأنّه على إسبانيا.

ليكن اللّه معك يا رفيقتي الحبيبة، الغالية. لولاك لضعت.

سـافـر نيكوس وحـده إلى لنـدن. وتـوقف في بـاريس لـرؤية سغـريـداكي وأصدقـائنا الأسبـان المنفيين. ومن بينهم ابْنَا فـال إنكلان. وأعجب نيكـوس بـ ماريكوينا الرقيقة، الجميلة، والجذّابة بشكل متميز. وبرفقتها شعر أنه في إسبانيا التي يحبها. وصلتُ بدوري إلى باريس. وكنّـا آنذاك، نعيش بوادر الحرب العالمية الثانيـة. وكان لقـاؤنا بمانوليس سغـريداكي من أكثر اللحظـات المفرحـة خلال

(١) و(٢) رسالة إلى ايليني ساميوس.

(٣) كان نيكوس كازنتزاكي يجيد الإنجليزية لكنه يتكلمها بشكل رديء.

إقامتنا في باريس. وهو تاجر عاديات (آنتيكا) من كريت، يتميز بالقوة وبأخلاق الفلاحين، بالمعنى الإيجابي للكلمة، وبالتفاؤل العارم. جاء إلى باريس قبل حوالي ثلاثين عاماً، حافي القدمين، وتوصل للتوّ إلى فتح إحدى أجمل قاعات الفنون، في باريس. قال لنا: «ذات يوم شاهدت شارع ريفولي في بطاقة بريدية، فصمّمت على مغادرة قريتي لمعاينة تلك الأعجوبة عن كثب!».

وكان سغريداكي يتحلّى بكرم فائق فإذا جاء لتوديعك في محطة القطار لابد أن يجلب صندوق فواكه من الحجم الكبير، يكفي ركاب المقطورة كلها. وبعد تحرير فرنسا، كنت أطلب منه مشطاً فيرسل لي بما يمكن أن يعمّر دكّاناً، وكان، حسب التقاليد اليونانية قبل الحرب، يفكر في المقرَّبين منه أكثر من التفكير في نفسه. فيضحّي كي يتمكن أبناء إخوته وإخواته، من استكمال دراستهم، أو ليزوّج بنات العشيرة.

كنّا نحسبه غنياً. وبعد انتهاء الحرب أرسل، من نيويورك، أثواباً كافية لقرية بكاملها. وفي الوقت نفسه كان يسجل الدولارَيْن، أو الخمسة دولارات، التي يستدينها كي يتمكن من اقتناء فنجان قهوة وسندويتش.

لسوء الحظ إنَّه مات فجأة، خلال زيارة إلى مسقط رأسه. وبكيناه بحرقة.

كم مرّة وصف لنا نيكوس، في الماضي، دهشته من عبور الحلم إلى الواقع، وتوصله إلى أن «يمسك في يده»، كما كان يقول، بفلسطين، ومصر، وسيناء، والقدس، ويريفان، وموسكو، وبخاري، والقاهرة... كما يمسك برمّانة فَلَقَهَا النضج...

وفي هذه المرة جاء دور لندن، دور إنجلترا التي سيطّلع عليها جيداً، في أدق فترات وجودها.

أحس كازنتزاكي بنيران الجحيم تلفحه، لكنه انصرف في الوقت نفسه إلى التمتّع برؤية الأراضي المخضوضرة التي أثرت فيه، وإلى تأمّل اللوحات التي يشاهدها لأول مرة، فيحلم بآسيا أمام المنمنمات العربية والهندية والفارسية، في المتحف البريطاني..

ساحة بدفورد، حديقة راسل،
لندن W.C.I
٢٣ يوليو ١٩٣٩

أفكر فيك يومياً وأقول: هنا يجب أنْ نولد، ثريّيْن، صامتيْن، ماجديْن، منعزليْن – مثل السادة الذين تعرّفت عليهم ويعيشون في الريف الانجليزي البعيد، في قصور قديمة، مريحة، مع صور عائلية تخلّد أسلافهم... عندما أموت سوف يدّعي أحد مؤلفي سيرتي – يا له من أحمق – أنني كنت زاهداً، قليل الشهوات، رجلاً يستمرىء العيش في الإهمال والفقر. ولن يدرك أحد أنني اكتفيت بحياة «الزاهد» لأنه استحال عليّ العيش وفق طبيعتي الحقيقية، ولأنني *فضلت العُري على الزيّ الموحد، الحقير، والمهين الذي ترتديه البورجوازية*.(١)

(٢)Be strong and play the man!. هذه الكلمات التي ينطق بها الكاهن وهو يتوّج ملك انجلترا، توشّح جبيني مثل تاج. كنت أعرف تلك الكلمات، لكنني سعدت بوجودها هنا مكرّسة في احتفال بهيج...

هاينشنبروك، هونتيفدن
أول أغسطس ١٩٣٩ (٣)

حبيبتي لينوتشكا،

أكتب إليك من قصر ساندويش الشهير وعندما تأتين سوف أزودك بكلّ التفاصيل. ثراء لا يصدّق، أروقة زاخرة بأعمال سيزان، وفان غوخ، وداران، وكورو، وموديلياني، وهناك تماثيل لبوذا في حدائق المصابيح الحجرية المجلوبة من اليابان، وخصوصاً تلك المستنبتات الحارة بكرومها المحصّلة بعناقيد العنب الأبيض والأسود، وأشجار الدُّراق، والأجاص، والتّين، الخ...

القصر يعجّ بخدم يرتدون زيّاً موحداً. والجدران مغطاة بلوحات الأسلاف. والريف هادىء، جميل، تتناوب عليه الشمس والمطر. غداً أذهب إلى لندن مع الكونتيسة

(١) أنا التي شدّدت على هذه الميزة في حياة نيكوس كازنتزاكي.
(٢) «كُنْ قوياً وتصرّف كإنسان!»
(٣) رسالة إلى ايليني ساميوس.

العجوز.

الغرفة التي استُضفتُ فيها واسعة وأثـاثها ثمين.. السرير من طراز القرن السادس عشر، وهـو مغطى بلحاف عتيق مطـرز بـرسوم تمثـل موسيقيين من العصر الـوسيط يعزفـون بكل أنواع الآلات. الحوض والأبـريق من الخزف القديم الـذي نشاهـد مثله في المتاحف.

البستان رحب. وتحيط بالقصر غابة، ونهر فيه زوارق صغيرة. مكتبة كبيرة....

٢ أغسطس (١)

عدت إلى لندن وهي المكان الوحيد الـذي نستطيع العيش فيه إذا كان لابدّ من مغادرة ايجين. هدوء، طمأنينة، عشب أخضر – الطبيعة – كنّا نتمتع بذلك في اليونان أيضا.

أطالع باستمرار... وأدوّن ملاحظـات، تحضيراً لكتابي عن إنجلترا.. وهو أمر صعب جداً. ما عسى أنْ يكتب المرء في موضوع جدّ مطروق؟

... تهطل الأمطار من دون توقف. طقس رتيب، رمـادي، كئيب. أنتظر مجيء الغيوم الكبيرة لأتمكن من رؤية شيء جديد...

برمنغهام، ١٤ أغسطس ١٩٣٩ (٢)

حبيبتي هذه المدينة من أبشع مـدن العالم، دخان، ريف، قوم بـلا فرح، فقر وغنى لا حدود لهما. كانت أكسفورد بالأمس مقاطعة جميلة ذات طابع يعود إلى العصر الوسيط. طقس رائع، شمس، دفء. أرهق نفسي لأنني أريـد رؤيـة كلّ شيء حتى الشبع ثم أذهب صباح الغد إلى تشستر، وبعد غد إلى ليفريول، وهناك آمل الإقامة عند فلاستوس(٣)... لم أستفد كثيراً من الجانب المعنوي أو الفكـري، ولم يثب قلبي مرة واحدة. لكن، ينبغي أن أرى... أتمنى أن نستمتع في اسكتلندا.

تشستر، ١٥ أغسطس ١٩٣٩ (٤)

مدينة صغيرة رائعة، كاتدرائية جميلة، بيوت قديمة، أقواس، نزهات فوق الأسوار.

---

(١) بطاقة إلى ايليني ساميوس.

(٢) بطاقة إلى ايليني ساميوس.

(٣) بنـزوس فلاستـوس، تاجـر وأديب يونـاني من المدافعين عن اللغة اليـونانيـة الشعبية، وقـد ألّف «قامـوس مترادفات».

(٤) رسالة إلى ايليني ساميوس.

وصلت هذا الصباح، وأكتب إليك الآن قبل مغيب الشمس... وبعد برمنغهام الفظيعة، أشعر بالسعادة هنا. النساء بشعات جداً، وهَرِمَات قبل الأوان بسبب الفقر. ما من ضحكة في أي مكان... الوجوه مهمومة... ستنتهي رحلتي عما قريب، أسرع مما كنت أتوقع...

ليفربول، ١٦ أغسطس ١٩٣٩[1]

أنا الآن عند فلاستوس في متنزه كبير، وغداً أغادر كما لو كنتُ مطروداً مثلما قال فلاستوس. بيت إقطاعي، الزوجة ذكية ولطيفة، والابنتان جميلتان.

ليفربول مدينة كبيرة، كريهة وفحمية، وحده رواق الفنّ يحتوي على لوحة أو لوحتين إيطاليتين، وبعض لوحات كراناش، وأعمال رسامين ألمان من القدامى سأقصد مانشستر، ثم شيفيلد وبترسبوروغ، وأخيراً أصل إلى لندن يوم ١٩و ٢٠ ... صحتي جيدة برغم التعب...

شيفيلد، ١٨ أغسطس ١٩٣٩[2]

زرت مانشستر وجبتُ المدينة طيلة النهار ثم غادرتها مساء قادماً إلى شيفيلد. مدن فظيعة، معفرة بغبار الفحم، وجوه عابسة، بيوت متشابهة كالثكنات. أطوف في هذا الجحيم ولا أريد أن يفوتني شيء. أرغب في التمتع بكل هذه البشاعة، كي أتوصل إلى المعرفة. كل مدينة تمتلك رواق فنون يضمّ عملين أو ثلاثة أعمال جميلة من إبداع الإنسان، معششة في حضن البشاعة، وهي بذلك تؤثر فيك أكثر... سأقصد بترسبوروغ غداً، حيث توجد كاتدرائية جميلة.

لندن، ٢٣ أغسطس[3]

تعالي في أقرب وقت لأني أخشى نشوب الحرب. وقد ازدادت مخاطرها نتيجة التحالف الالماني الروسي المفاجيء . هنا يعتبرونها مندلعة لا محالة. ومن الأفضل أن نكون معاً في هذا الوقت المروّع. وسوف ننظر في القرار الذي ينبغي أن نتخذه.

اقتصدي قدر المستطاع لأنني أخشى أوقاتاً عصيبة...

غداة الحرب العالمية الثانية، أراد كازنتزاكي في كمبريدج، تأليف كتاب عن

---

(١) و(٢) و(٣) رسالة إلى ايليني ساميوس.

مثقفي إنجلترا الكبار في مرحلة ما بعد الحرب. حاول لكنه لم يوفق. ولم يكن السبب في ذلك يعود إلى تدنّي أهمية الأدباء الذين التقاهم، بل لأنه لم يتمكن من فهمهم. هو «المنشق» الكبير. فلم يرتاحوا للاستجواب الذي قدّمه لهم. ولم يوافق على الردّ سوى عدد قليل، كانوا، في غالبيتهم، لا مباليين أو غاضبين. فتذكّر كازنتزاكي كابوس الزحف الصناعي الذي لاحظ بدايته منذ مرحلة ما قبل الحرب. تذكر مضارّه ووصفها، هذه المرة، في شكل رسالة موجهة إلى عشيقة خيالية. ضمن كتاب لن ينشر تلبية لرغبة المؤلف[1].

يا فرحتي وصديقتي النائية،

لن أصف لك ما شعرت به أثناء تجوالي في هذه المدن الإنجليزية السوداء. كنت أعمى واستعدت البصر، تحررت من الأشياء الروحية، فرأيت أجساماً تعمل، وأرواحاً وثيقة الالتصاق بالأجسام، تتألم وتتمسك بمصير العالم بين أيديها. ويدفع الخزي بدمي إلى رأسي، عندما أرى هؤلاء الرجال يكدّون مُنكبين على آلاتهم في المصانع، وفي السفن، وتحت الأرض، ثم أتذكر أولئك المثقفين..... الذين دفعتْني سذاجتي إلى أن أشكو إليهم همّي...

أتذكر الكاتب الصامت الذي كان يجلس بلا حراك متربعًا في مفترق ممفيس، منذ آلاف السنين، متأملاً بعينين شاخصتين وبمشاعر شفقة وحنق، تلك المدينة العظيمة الخاطئة. فيقصده الفقراء والنساء اللائي هجرهنّ أزواجهن... فيدوّن، كل يوم، بلا انقطاع، هموم البائسين، بينما يمّر أمامه السادة البدينون ذوو العيون المرهقة بسبب الإفراط في الأكل وقلة النوم، مستلقين على محفّاتهم التي يحملها العبيد.

كان الكاتب يحملق بعينيه. وينظر، من الصباح إلى المساء، من دون أن ينسى شيئاً. ومازالت صرخته المدوّية محفورة في الصخر: «رأيت! رأيت! رأيت!».

فليأتِ عصرنا الصناعي، بمثل ذلك الكاتب، قبل أن نندفع إلى الهاوية...

وصلنا إلى برمنغهام يوم الأحد، كان كل شيء مغلقاً، شاهدنا وجوهاً كئيبة يرتسم عليها تعب الأسبوع الذي انقضى وتعب الأسبوع الذي سيبدأ...

أشرقت الشمس، اليوم، فانكشفت البشاعة أكثر، في الشوارع. أسرعت إلى متنزه

(١) هذا المقطع الذي لم يخضع إلا لتحويرات بسيطة، يوجد أيضاً في كتاب «إنجلترا» منسورات بيرسوس، أثينا، ١٩٤١.

أستون لأفرّج عن نفسي. أزهار مختلفة الألوان والأنواع، قرنفل هندي... روائح تذكّر باليونان. إنَّ الوردة التي تزهر في قلب الجحيم هي أقسى رؤيا لا إنسانية تبيّن للملعونين، كيف كان يمكن للحياة أن تكون، ولم تكن.

وفي صباح الغد، الاثنين، بكّرتُ في النزول إلى الشوارع مرة أخرى. ولحسن الحظ أنَّ الشمس غابت. وكان ضباب كثيف يغطي الجدران ويستر البشاعة. فتحول كلّ شيء إلى رمزٍ للأساطير الشمالية، وبالنسبة لرجل وُلد في بلدان تعّري فيها الشمس كل شيء بوقاحة، كان هذا النهار المبرقع في منتهى الغموض والغرابة.

عمّال وعاملات يحملون رزماً صغيرة ويهرعون، كالقطيع، نحو أبواب عالية سوداء تبتلعهم. ومن المعامل ترتفع أغنية فرنسية أشبه ما تكون بشكوى جنائزية تخنق القلب.

تحتاجون، كي تحكموا،

إلى سترةٍ ووشاح،

فننسج لكم ذلك،

يا سادة الأرض،

أما نحن، النساجين البائسين،

فنُدْفن بلا كفن...

أنتقلُ من معمل إلى آخر فينقبض قلبي أكثر. لقد فقدت إنجلترا «السعيدة» فرحتها، وطفقت العجلة تدور ولم يعد هناك من يقدر على إيقافها. انتصرت الآلات، واندفع إنسان اليوم، بأمل عريض وتفاؤل ساذج، لغزو المادة، مبتهجاً بعبيده الحديديّين الجدد. ويعتقد أنّه بذلك يحصل على الحرية ويحرّر الروح. لكن نبل الإنسان يكمن في صراعه الأبدي من أجل استبدال قوانين الطبيعة اللاإنسانية بالقوانين التي يمليها عليه القلب. لقد أوجد مُثلاً إنسانية عليا، كتعبير عن عن طموحه الأعمق إلى العدالة والمساواة. والسعادة للجميع. ولا يوجد شيء مثل ذلك خارج تطلعات الإنسان. وللغابة التي نسميها الأرض والسماء قوانين أخرى مناقضة تماماً – ظلم، عدم مساواة، وسعادة للأقلية، لكنها سعادة لا تدوم.

غير أنَّ الإنسان يقاوم قوانين الطبيعة ويزدريها. يبدو له العالم أدنى مما يريد قلبه

فيرغب في بناء عالمه الأفضل، فيعترض العقلاء والأثرياء ويصيحون: «العالم جميل فلا تحطّموه!» لكن الشعلة التي تتقد في أحشاء الإنسان لا تدعه ينصت إلى صوت هؤلاء. ذلك أنَّ مَنْ يرتحل عبر مسيرة الإنسانية يكون متعجلاً، يجوع، يعطش، يرى سراباً منعشاً في الصحراء - عدالة، مساواة، سعادة - فيسرع. لكنه يتأخر في الوصول وتبدو له الخيول التي تحمله بطيئة جداً، فينفد صبره. عندئذ يصنع خيولاً جديدة من الحديد، تجوب الأرض، والبحر، والسماء، بسرعة. لقد امتطاها كي يبلغ أوهامه. فجأة، كما يحدث في الكوابيس، تصير الخيول هي التي تمتطي فارسها. وها هي ذي تتوخّى اتجاهاً معاكساً وتركض. ونحن نركض معها.

سرت في شوارع برمنغهام،، ثم في ليفربول... شاهدت الآلات والمعامل وسيقان الأطفال الضامرة، والأسمال المعلقة في النوافذ، أحياء العمال المعتمة، الرطبة. حاولت أن أضفي نبلاً ومعنىً على البشاعة، وأملاً على اليأس. وأن أضع الهول الراهن في دائرة الكون مع تحويله إلى فرح...

غابة خطرة لا تسكنها سوى الخنازير البرية والثيران والذئاب، هكذا وصف أحد مدوّني الوقائع القدامى، الامتداد الذي تنتشر عليه اليوم برمنغهام المضنية، الشاسعة. هكذا كانت، وهكذا هي اليوم. إنها وجه حضارتنا الصناعية الوحشية، المجردة من كلّ رقة إنسانية، ورحمة، والتي لا تبعث إلا على المرارة. تنظر إلى أفواج النمل البشري، تصعد وتنزل في الشوارع، كئيبة، متعجّلة، مجردة من الفرح، فيتملّكك الحصر والقلق. ألستَ في كابوس؟ ألا تعيش الإنسانية في كابوس جماعي؟....

إذا أرادت الروح الإنسانية الخلاص، فما عليها إلا أن تستجمع كل قواها وتروّض البهائم التي تغفو في المادة، والتي أيقظْتها. إنَّنا نوجد اليوم في اللحظة الحرجة بالضبط....

شاهدت، ألف مرة، في مدن عديدة، مراهقات يلصقن وجوههن بالواجهات وعيونهنّ ملأى بالاشتهاء والطمع. غير أن المشهد نفسه ملأني بمرارة لا توصف، أمس، في شيفيلد، كانت هناك طفلة فقيرة تلصق وجهها الطفولي بواجهة مَقْصَبَة (ملحمة) زاخرة باللحوم. وكانت تنظر إلى أنواع اللحم وعيناها تلمعان بالرغبة. ويمكن لتلك اللحوم المريعة أن تتحول، بمعجزة تحويل سري، لتصير شعراً أشقر، ونهدين مكوّرين، وشفتين قرمزيتين... لكن أين ستجد تلك البنيّة الجائعة نقوداً، حتى تحاول تحقيق ذلك التبدّل الإلٰهي؟ فتذوي الطفلة وتتعفن اللحوم ولا تتحقق المعجزة.

كـان هنـاك فرح وحيـد، غير متـوقع، ينتظـرني أول أمس في مـانشستر: دخلت إلى المتحف... وفجأة توقفت. كـان أمامي تمثال صيني رائع، منقوش في الخشب: كـوانون، ربّة الرحمة. كانت تجلس جذّابة، متربعـة على ظهر أسد يجرّه خادمٌ من زمامه. تبتسم، هـادئة، طيبة، رحيمـة. وتمكث مطمئنّـة، خارقـة، وسط جلبة مـانشستر الـدخانيـة، منتظرة دورها.

فجأة تـلاشى قلقي، إذْ خيل إليّ أنني رأيت، في تلك الـربـة الصغيرة، روح الإنسـان ممتطيةً الأسد الذي تحقق ترويضه أخيراً...

ذات يـوم، روى جورج زوربـا – زوربـا الحقيقي وليس بطل الروايـة – إلى «معلّمه» كيف اندلعت الحرب العالمية الثانية في نظره:

قرأ بعض الشباب الطـائشين كتباً وطنية متطرفة (شـوفينية) فصاروا وطنيين، ثم قرأوا كتباً اشتراكية وصاروا اشتراكيين، ثم كتباً فـوضوية فصاروا فوضويين. فصمّموا على القتل. لكن مَنْ يقتلون؟ لم يعرفوا.

سافر أحد هؤلاء المراهقين، واسمه برنسيب[1] ، إلى سارايـيفو ، جلس على رصيف أحد المقاهي. فـأسرع إليه النادل – مـاذا يطلب سيدي؟ – أردت استشـارتك: مَنْ أقتل حسب رأيك؟ الحاكم أم رئيس الأساقفة... لا أدري بـالضبط. وأنت، ما رأيك؟ أليس من الأفضل قتل وليّ العهد؟ سيأتي عمّا قريب.

– طيب ، ليكن وليّ العهد!

كمن برنسيب في طريق ولي العهد، مرّت العربة أمامه. رمى بقنبلة. فأصابت العربة. لكنها قتلت شخصين آخرين. فسأل برنسيب معلم مدرسـة كان واقفا إلى جـانبه: – هل هو ولي العهد فعلاً؟ كلا، أجابه شمّاس، بل شخصان آخران.

عندئذ ذهب ولي العهد إلى الأسقفية لإقامة قدّاس شكراً للرب الذي أنقذ حياته، وبعد انتهـاء القدّاس خـرج وليّ العهد من الإسقفيـة كي يعود إلى بيتـه. كان الـوقت منتصف النهار وقد أحس بالجوع.

وهنـاك طريقـان يؤديـان إلى بيته. – نسلك الطـريق الذي على اليمين، أم الـذي على اليسـار؟ سألـه السائس. – على اليمين! قـال ولي العهـد، لكن السـائس لم يسمع – على

---

(١) «مبدأ» حرفيا (المترجم)

اليمين؟ سأل مرة أخرى، وقد أوقف العربة. ولقد أوقفها - هكذا وسوس الشيطان – أمام برنسيب بالضبط. فأخرج برنسيب مسدسه من جيبه.،. طلقة، طلقتان، ثم سقطت زوجة وليّ العهد. – صوفي، صاح هذا الأخير، صوفي، عيشي من أجل أطفالنا! بمْ! طلقة اخرى، وإذا بوليّ العهد هو الذي يسقط هذه المرة. ثم نُقلا إلى المقبرة. وعندما علم والد وليّ العهد بالخبر – هل كان والده أم عمّه؟ اغتاظ وسلّ سيفه. وغضب أحد أقارب المرحوم أيضاً، وسلّ سيفه بدوره. ثم سلّ الجميع سيوفهم. وهكذا اندلعت الحرب الأوروبية، لتحلّ عليها اللعنة!

لتحلّ عليها اللعنة! لقد هاجمتنا للمرة الثانية، بينما كان نيكوس يتنزه بين الأعشاب الخضراء أو في جحيم انجلترا الصناعي. وحيداً، من دون زوربا ولذاعته المتبّلة للقضية.

لقد دعتْه القنصلية البريطانية، فتمكن من التعرّف إلى عينات نادرة من الأرستقراطية البريطانية وعدد كبير من رجال الآداب والفنون والعلوم. كان يكره الجمود وحانت الفرصة كي يرى «روبن هود» الذي أخمده البذخ، يستيقظ من جديد.

لا يرغب الإنجليز في شن أية حرب هجومية. فما جدواها؟ ماذا ينقصهم؟ حتى أنَّ شعارهم القديم «العمل قبل كل شي» صار الآن مثلاً للشعوب التي تعيش الحرمان وتحاول الخروج منه. لكن، ها هو ذا الخطر قد لاح. ورآه الإنجليز فشدّدوا على نواجذهم وقبضاتهم، وشعروا أنَّ الوقت قد حان للمراهنة على مصيرهم قليلاً، لكنّ ذلك هو إيقاعهم.

ودوّن مثلاً إنجليزيا أعجبه:

«لا يمكن للمرء أن يعبر الجسر قبل بلوغه».

– ماذا ستفعل إنجلترا؟ سأل كازنتزاكي شخصاً كان بجواره أثناء حفل استقبال نظمّه أحد اللوردات، على شرفات البرلمان.

– الثعالة[1] الماكرة؟ سوف تتبع مصلحتها، أجاب البروفسور ضاحكاً. وتفعل ما فعلته دائماً، فتتحرك وفق مصلحتها.

---

(١) انثى الثعلب (المترجم).

– وما هي مصلحتها الآن؟

– الحرب!

وسقطت هذه الكلمة المريعة بيننا، قال نيكوس كازنتزاكي، مثل جثة.

– هل أنتَ خائف؟ سألني رفيقي عندما رأى بصري يغيم.

– روح الإنسان لا تفزع بسهولة. بل تواجه الضرورة وتكف عن الخوف، لكن قلبي هو الخائف.

– أنا أيضاً خائف، قال رفيقي، لأنني أعرف ما تعنيه الحرب. لكنها ضرورية... ابتسم البروفسور.

– هل يبدو لك ذلك غريباً؟ ألا تعرف أن الإنجليزي بشكل عام، وإنجلترا الرسمية بشكل خاص، لا يحبان البرامج الآيدولوجية والمبادىء الغامضة.

إنَّ «الحقيقة» عند الإنجليزي، لا تنتمي إلى المعرفة بل إلى الفعل. ونحن نعتبر أن الحقيقي هو كل شيء خصب، أي نافع للمجتمع. ولهذا يستغرب الأجانب رؤية إنجلترا مستعدة دائماً لعمليات خلط الأوراق ومصادقة عدوّ الأمس.

... إن إنجلترا تدرك ما تريد، وهي في هذه التعرجات الظاهرية، تتبع خطاً مستقيماً، خطاً واحداً: مصلحة إنجلترا. ولكن تصرّف إنجلترا يتغير أيضاً مع تغيّر الواقع...

– سيأتي يوم، بلا شك، تكفّ فيه أخلاق الإنجليزي الفردية عن التطابق مع الأخلاق الرسمية لإنجلترا، وعندئذٍ؟

– الإنجليزي يلعب دور الذي لا يفهم، أجابني البروفسور. أو انه يشعر بالأسف لذلك ويحاول يائساً أن يقنع الآخرين – وأن يقنع نفسه في الدرجة الأولى – بأن سياسة بلاده شريفة، تمليها مصالح الإنسانية العليا، وتسير وفق الوصايا العشر. ذلك أن الإنجليزي لايزال طهرانياً في العمق، ويعذّبه شبح الأخلاق بطريقة واعية ولا واعية. عندئذٍ تبدأ الجهود المضنية لإيجاد المصالحة والتوافق. لكن العديد من الإنجليز – الأشدّ حساسية أو الأشدّ عنفاً – ينهضون ويحتجون ويدينون تدنّي الأخلاق. لذلك تجهد حكومتنا كي تغطي، بقناع الأخلاق، كلّ الأعمال اللا أخلاقية المجبرة على فعلها (مكرهةً، لا تنسى ذلك) من أجل مصلحة إنجلترا العامة. ذلك أنَّ حكومتنا تتعذّب أيضاً، فهي متكوّنة من إنجليز أي من طهرانيين. وتخشى الصوت الداخلي كما تخشى الرأي العام.

وهكذا تنادي بالأخلاق صادقة. لذلك يصفوننا باننا منافقون. ولو كنا أقل أخلاقاً لما كنّا منافقين. هل فهمت؟

– فهمت جيداً، قلتُ، ويعجبني هذا التحليل النفسي. لكن هذه الحرب إذا نشبت؟

– سيكون الإنجليـزي سعيداً، إذا سمحتُ لنفسي بهذا القول، ومتصـالحاً مع نفسه. لأنه، في هـذه المرة، وبقبولـه الحرب، يشعر بانه كـان على حق. فهو يـدافع عن مصلحة وطنه، وعن مصالح العالم بأسره، في آن...

لم يُخْفِ نيكوس كازنتزاكي، في كتاب «إنجلترا» احترامه للطابع المدني بمعنى «حسّ المواطنية»، لدى الإنجليز. وقد تأثر بمشاهدة أغنياء يستضيفون العشرات من أبناء العمّال، ويهتمون بهم، أثناء عمليات إجلاء المدن.

عندما وصلنا إلى لندن أرا نيكوس أن يقدّم لي «أكـريتاس» ورفاقه في المعركة، الحكماء والموسيقيين الذين سيرافقونه في مغامراته الأسطورية.

وأمـام مـدفـأة لا تعمل إلا بـالقطع النقـديـــة، أطلعني نيكـوس على عشرات المنمنمات الفارسيـة والعربية والهنـدية. ودلّني على التي سيستلهمهـا لتجسيد بطله أكريتاس ورفاقه.

وفيمابعد حدثني عن صفارات الإنـذار التي دوّت في سماء لندن، وعن تخوفه من مستقبل العالم. وفي الغد ذهبنا إلى متحف لندن :

– انظري، قال لي، هذا المبنى الذي يضم المتحف، هو ملك تانتين. وقد عرضت علينا ابنـة أختها الليـدي سانـدويش أن نذهب إلى ستراتـدفورد لقضـاء بضعة أسـابيع في منزل سـوزان، ابنـة شكسبير، وهو منـزل يعـود إلى تانتين أيضـاً. وسألتني الليدي ساندويش عن عدد الخدم الذين سنحتاج إليهم...

كنت أعـرف المتحف البريطاني جيـداً، وأردت أن أطلع نيكوس على الـزوجين

الأتروريين[1] الجالسين على قبرهما يتأملان العالم : «عندما نصبح أغنياء سوف نقتني نسخة منهما!» صاح نيكوس مبتهجاً «أتمنى أن أرانا جالسين أمام جبل هيمات، وبحر سارونيك عند أقدامنا، ونحن نتأمل إلى الأبد».

لم يترك لنا هتلر فرصة زيارة اسكتلندا حيث كنا سننزل ضيفين على عالم جليل. وعقّد اطفاء الأنوار حياتنا في لندن. فلم نعد نقدر على تمييز بيتنا في راسل سكوير. وحدث أن دخل نيكوس إلى بيت مجاور، وصعد الدرج حتى بلغ «بابه» قبل أن ينتبه إلى خطئه.

– لنستقل الحافلة، اقترح نيكوس ذات يوم، أنها تمّر أمام بابنا.

– وهل أنتَ متأكد من اتجاهها؟

– متأكد تماما، لأنني أتنقل فيها كل يوم. ثم التفت إلى جانبي :

– ساحة توت عنخ آمون، من فضلك.

– آسف ياسيدي! لا أعرفها!

وبعد ثالث محاولة فاشلة انفجر نيكوس ضاحكاً :

– بل هي توتنهام كورت، يا عزيزتي، آسف لقد ذكّرتني بـ ... وقهقه من جديد، بحثاً عن الشخص الذي سيعرّفني بالسينمائيين الأسبان؟ ذهبت ليلاً، ووجدت البيت بسهولة، طرقت الباب ففتَحتْهُ عجوز نصف صمّاء :

– السيد غودونوف، من فضلك.

– «أوستد » مخطىء. لا يوجد غودونوف هنا.

– أؤكد لك أنني لم أخطىء، والسيد غودونوف ينتظرني.

– أكرر إلى «أوستد» بأنه ما من غودونوف هنا!

ثم صفقت الباب في وجهي.

---

(١) نسبة إلى أتروريا التي كانت تقع قديماً غربي ايطاليا. (المترجم)

وكان نيكوس آنذاك يبحث عن بوريس... بوريبا.

كنت أحلم بأن أعيش حكاية من حكايات الجنيات من دون أن أعلم بأن تانتين ستمكننا من ذلك، في غير وقته، أي في الأيام التي بدأوا يغتالون فيها آخر الأساطير.

كانت هولز كرفت أكثر من مسكن شكسبيري قديم، كانت متحفاً تحت تصرّفنا، بكامله. فكنا نتنزّه ونتناول طعامنا أمام مدافئ تشتعل فيها جذوع كاملة، عدة أيام.

وكان نيكوس يتخلّى عن وجبة الغداء ليكتب تراجيديا جديدة : «جوليان المارق» لكنه كان يحب التنزه على ضفة الآفون. حيث يسبح الأوّز الأبيض، وتنبت الورود، أو في الازقّة القديمة العائدة إلى القرون الوسطى، حيث يمكن مشاهدة أشخاص يشبهون أبطال روايات ديكنز، يتحدثون أمام عتبات بيوتهم.

وكان يعجب بالريف الإنجليزي وأبقاره الجميلة المبقعة بالأسود والأبيض. وكنا نزور مزارع الساده الانجليز الذين لا يتحصنون وراء أسوار عالية. وخلال إحدى تلك الزيارات توصلنا إلى الإعجاب بروح المواطنية لدى الإنجليز عندما يكونون في إنجلترا.

إذ كانوا يضعون صناديق ملأى بالبطاطا من أجل الأطفال النازحين، بينما يترك بعضهم سلالاً تمكّن الأطفال من نقل الثمار التي كتبت على صناديقها : «هذه الثمار مخصصة للأطفال».

وشاهدنا أمامنا صبيين صغيرين، في الخامسة والسادسة من العمر تقريباً، وقد ملأ جيوبهما بتفاح أحمر، كانا يتأهبان للذهاب عندما قرأ أكبرهما، بصوت عال، تلك الكتابة التي تقول: «هذا التفاح مخصص...»

– ليس من حقنا الأخذ من هذا التفاح! قال للأصغر. تعال، يا جون، لنفرغ جيوبنا!

ستر تفورد أون أفون (سبتمبر ١٩٣٩)[1]

لا يوجد لوردات محظوظون وفقراء مثلنا. وها نحن أولاء في مركز الإعصار مرة أخرى، وفي أشد الأوقات حرجاً، وسط شعب مدهش، متمالكٍ نفسه، وواثق منها، فلا ينسى كلمة السّر التي زوّده بها أحد شعرائه: «كن قوياً وتصرف كإنسان».

لاشك أن ايليني قد حدثتكِ عن نوعية البيت الذي نقطنه. إنه بيت يزخر بأشياء نادرة: تماثيل، لوحات، خزف، أسرّة تاريخية... ويا لها من مدافىء! وفي هذه اللحظة تنتعل ايليني خفّين رائعين، وتضع شريطاً صغيراً على شعرها الذي غسلته لتوها، وها هي ذي تجلس على مقعد سلفيّ (لا يعود إلى أسلافنا «نحن») وتبدأ بحياكة سترة بصوف إنجليزي غليظ، توتيّ اللون... وفي المدفأة الكبيرة تفرقع النار. إذ يحترق جذع شجرة وترقص ألسنة اللهب على الجدران والموائد الثمينة، وعلى جبيني الذي لم يسوّده الدخان بل شمس إيجين. وأنا أكتب مسرحية – وأي شيء آخر أكتبه في ظلّ زميلي شكسبير؟ أكتب إذاً، تراجيديا شعرية. بينما العالم يعيش تراجيديا نارية... أنظر إلى نفسي من بعيد، كما من كوكب آخر، منكباً على الورق، مرصّفاً كلمات، باحثاً عن إيقاعها، وساعياً إلى تجسيد أنفاسي قبل أن تنطفىء.

أحياناً ترفع ايليني رأسها، أثناء قراءة «التايمز» (وهذا شغفها) وتقول لي :

«هتلر... ستالين... هاليفاكس... – مَنْ؟ مَنْ؟ أصبح مذهولاً» فتدرك أنني *لست بشرياً* ولا تجيب. أو أنها تقول بشفتين مضموتين : «لا شيء، لا شيء!» وتعود إلى الانغماس في صحيفة التايمز.

تلك هي حياتنا. معجزة غريبة، لا تصدّق. وتتلألأ ايجين، طبعاً، وسط البحر. إنّها نقطة الكون الثابتة. متى أعود إلى رؤية هذه الجزيرة؟ متى أتمكن من فتح نوافذ بيتنا لأحسَّ بالبحر يصبغ أفكاري باللون الأزرق؟ الله وحده يعلم. وسوف ينفرج الوضع عاجلاً أو آجلاً. لم أعد أعرف ماذا أتمنى. كلّ شيء يلوح لي رائعاً في هذا العالم. لكن أليس فيه ما هو بشع؟ أقول لنفسي باندهاش. لا شيء؟ أشكرك يا إلهي لأنك جعلت قلبي لا إنسانياً.

من أفضل «الأشياء» في هذا العالم، بلا شك، أنتِ وكاتي. وكثيراً ما نتنزه على ضفة

---

(١) رسالة إلى ماريكا بابايوانا، التي صارت بعد الزواج: السيدة خورموزيو.

الأفون حيث يمر الأوز الأبيض، فنقول: لو كانت ماريكا وكاتي هنا! ونتنهد كلانا...

الريف المخملي الأخضر، التفاح الأحمر، الأوز الأبيض أو الأسود، أريج الورود الناعم، شكسبير والكنوز المتراكمة في بيت ابنته سوزان، معالم جمال أتت عليها الحرب. ومثل غيرنا تجنّدنا، لكننا كنا أعجز من أي وقت، بلا مورد، أجنبيين بين الأجانب. فكيف ننخرط في عمل مُجدٍ؟

وبعد استشارة نيكوس راسلتُ تانتين التي كانت في نيويورك. فإذا استطعنا البقاء في لندن شهرين أو ثلاثة أشهر أخرى، قد نجد حلاً للمشكلة.

لكن تانتين لم تجب. وصادر الجيش «هولز كروفت». فجمعنا أمتعتنا. رفض نيكوس التأخر في باريس، وتردد، مرّة أخرى، بين الممارسة - النزول إلى المعمعة التي يطمح إليها فكره - والارتماء في نهر الشعر العميق. ومن جديد رأيت بهيمة القيامة.

قبل الحرب كتب إلى صديقه الشاب، الكتبيّ ستاموس ديامنتاراس :

(يونيو ١٩٣٩) ساحة بدفورد، راسل سكوير...

... بدأ القلب يفيض، مرة أخرى، والصدر ينتفخ. ويتشكل «اكريتاس» في أحشائي مثل جنين فظيع. ينبغي أن أسافر! لم يبقَ أمامي وقت أضيعه.

إن هدفي ليس المجد، أو الشهرة، ولا حتّى الرفاهية والثرثرة المطمئنة - بل هو تحويل الطين إلى صرخة...

١٧ يوليو

بدأتُ هذه الرسالة منذ قرابة الشهر. وأكملها لأنني أفرح بمخاطبتك. إنَّ السفر جميل، لكن ينبغي أن يمّر مثل رؤيا، مثل حب سريع، أو جرعة نبيذ.

أتلهف إلى الارتماء في أحضان الصمت من جديد، إنه ينبوع الإبداع الصارم.

شاهدت أشياء رائعة، تعرفت إلى عدد من الناس، شاهدت أحجاراً جديدة، جمعت غنيمة أخرى - سوف يظهر بعضها في «دفاتر الرحلات»، ثم في بعض أشعار حول «أكريتاس». ولا شيء أكثر. أوروبا لا تناسبني... والغنيمة في منتهى الفقر والهزال. أتطلع إلى الشرق، إلى التجوال على ضفاف دجلة والفرات، إلى تسلّق التيبت، والسفر إلى

إفريقيا الوسطى. هناك يغفو الغنى المتنـوع. هناك تنتظرني ملايين الديدان في الأعذاق، مثل الموز. يجب، يجب أن أذهب...

عنـدما وصلـت إلى باريس جثـوت أقبّل التراب. وقلت في نفسي إن الإلٰـه خلق لندن، تلك العانس البريطانية، كي يجعلنا نحسن تقـدير هذه الفاتنة المغناج التي تجيد الابتسام حتى في الطوفان.

هنا أيضاً طُبِّق قانون اطفاء الأنوار، لكن بما يحفظ جدارة الإنسان. ولا يسرع رجال الشرطـة لإطفاء قـدَّاحتك قبل تمكنك من إشعال سيجـارة غولـواز. وكان الباريسيـون على الرغم من أكاذيب الصحـافة والإذاعة، واعين بـالخطر، غير أنَّ مدينتهم ظلّت تحتفظ ببهائها.

لقد سكنتْنـا، فيما بعد هـذه المعضلة : هل نعلـن باريس مـدينة مفتـوحة؟ أم ينبغي التضحيـة بها إلى جـانب رومـا وأثينـا، مـع عشر، أو عشرين، أو الف ستالينغراد، لبلوغ النصر ذات يوم؟

لقد رفض القلب متطلبات العقل *العادل* : أوروبا محترقة، مجزرة «أورادور» كبرى – وبين الأنقاض المدخنّة بأجمل مـا أبدع الإنسان، وعلى الأرض المنبسطة، الخالية من الطيور والأعشـاب، والسحب والسماء، كانت جثث بني البشر تتعفّن في بشاعة...

صممتُ على البقـاء في بـاريس مهما كلف الثمن، والقيـام بأي عمل حتى لا أكتفي بالفرجة. وبعد عدّة محاولات لم أحصل إلا على عرض بالذهاب إلى ألمانيا... للتجسس على النازيين، كما ورد في سخرية مديـر الإذاعة الفرنسية آنذاك، وكان جنرالاً سيء الصيت.

١٩٤٠ . بلغ نيكوس كازنتزاكي ٥٧ عـاماً. وظلّ مستقيماً مثل منارة على جبل إيجين، حادّ البصر، ناعـم الشعر الذي بدأ يخفّ، رشيق الجسد والـروح، متأهباً

لكل المجازفات.

عاف سياسة الكبار : «لقد ولجنا عصراً وسيطاً، سوف يدوم مائتي عام» - وظلّ متفائلاً مأسوياً، أي لم يكن متشائماً: «نعرف أن المستقبل ليس مرتهناً بنا، ومع ذلك علينا أن نتصرّف كما لو كان مرتهناً بنا» ومبشراً في الختام بـ «الإنسان خالق إلٰهه».

سلاماً، أيها الإنسان، يا ديك الصّياح!

إذا لم تَصِحْ، لن يطلع الصّباح! [1]

هكذا صاح متأكداً من وجود الصباح لأنّ ضمير الإنسان موجود.

كانت «رائعته» [2] قد تمت منذ ١٩٣٨. وبعد أن قلَّصها نيكوس من ٤٢٠٠ إلى ٣٣٣٣٣ صار يتلذذ بالمرونة شبه الإعجازية لذلك الجيش العرمرم: ٣٣٣٣٣

وإذا كان قد استغرق أربعة عشر عاماً في تشكيل عوليسه «إنسان المستقبل» ، فإنَّ عوليس بدوره استغرق أربعة عشر عاماً كي يشكل كازنتزاكي المستقبل. وعندما قُطع الحبل السرّي، تقدّم رجلان ناضجان، يسيران بيدين متشابكتين، نحو الهاوية. وسوف يكتمل تنافذ الحياة والموت بهدوء *وكرامة*، وعينين مفتوحتين. ذلك أنَّ الثمرة الناضجة منذورة للتربة الندية التي سوف تستقبلها. كان يعرف ذلك. وهو سبب إضافي لتحويل كلّ شعاع من أشعة الشمس إلي لحم نابض.

كان مكتبه يشبه طاولة بائع كتب قديمة : كتب، دفاتر، بطاقات بريدية، ظروف معنْونة تنتظر كتابة الرسائل الموجهة للأصدقاء، دفاتر مدرسية. - كان مهووساً بها - مخطوطات منجزة أو ناقصة، وبين كلّ ذلك، صحن منقوش من «سكيروس»، وجفنة صغيرة من خشب أحمر وذهبي مصدرها «نيجني نفوغورود»، في الأولى، أقلام من كلّ الألوان والأحجام، وفي الثانية زبيب وجوز

---

(١) تقرير إلى غريكو، ص ٥٠٩

(٢) المقصود «الأوديسة» والأرقام تتعلق بعدد أبياتها الشعرية (المترجم).

ولــوز. ذلك أن نيكوس كــان يكــره اللحم ويفضل قضم ثمار طفـولته. وفي أحــد مخابىء مكتبه يخفي أحياناً قطع البسكوت المصنــوع بالزيت والقرفة، أو حبات تين بين أوراق الغار.

وكان يحتفظ ببعض الكنوز في علب صفيح، مثل الـراتنج البلسمي الذي كان يسحقه بأصابعه ليعطّـر الغرفة، ومَدَرة التربة الكريتيــة، والمقصات، والكلّابات، وشفرات الحلاقة، والكثير من القناني الصغيرة الفارغة أو المملوءة بزيوت نباتات مستجلبة، والمماحي، والأزرار، والنظـارات القديمة... ومــازالت إحدى تلك العلب تعطّر خزانتي، مملوءة بالقرفة وأكباش القرنفل وجوز الطيب.

أمامه، وإلى الجهة اليمنى، لفّة كاكيمونــو» عمرها ستة قرون، وتمثال ياباني لبوذا، ومُنمنمة من القرن السابع عشر تمثل فارساً فتّاكاً تحت ضوء القمر. وإلى اليسـار مجموعة أيقونات ضئيلــة القيمة تحيط بمسيح مصلوب. إذ كان نيكوس يهب أجمل تلك الأيقونات إلى الزوّار الذين يعزّهم.

وراءه، عُلّقتْ على المكتبة لوحتان منقولتان عن لــوحة «سان فرنسوا» للرسام جيوتــو، وأخرى عن لــوحةٍ تمثل دانتي. وفوق المكتبــة صورتــان لمريم العذراء، إحداهما من جبل سيناء، والثانية من جبـل آثوس، وقد نقلهما تقليداً للأصل، كلّ من كالموك وكوندوغلو[1]. وفوق سلّم ذلك البرج العاجي صورة «بورتريه» تمثل إلسا ذات الشفتين المكتنزتين...

«أكــريتــاس»، و «والــدي» سيرتــان في شكل روائي خُصّصتــا للنشر ضمن حلقات، وأناشيـد جديدة، وكتابان للشباب، أعمال لم تُهّدىء طـاقة ذلك الحطّاب من عصر البرونز. ومنذ إقامته في ستراتفورد بات شكسبير هو النمر الذي يقلقه.

– أرغب في تـرجمة إحــدى مسرحيـات شكسبير. لكن، أيـــة مسرحيــة؟ قبل تحديدها يتوجب علينا أن نقرأ كلّ ما ترجم له...

فطلب نيكوس من ديامنتاراس أن يمدّه :

---

(١) فوتيس كوندوغلو، كاتب ممتاز ومؤرخ للقدّيسين.

... أرجـو أن تمدّني بـــ «هـــاملت» تـرجمة روتـا، وكـــذلك «الملك لير»، و «روميـو وجولييت» بترجمة كارثايوس.

وأضاف :

صحتي جيدة، أعمل كثيراً. وأتأمل خارطـة العالم بحثاً عن مكان أسافـر إليه. الهند تغريني كثيراً، فهل أتمكن من زيارتها ذات يوم؟ «هُوزاين بيرُويت»!

هوزاين بيرويت! لقد روى ستاموس ديـامنتراس الذي ولد في روسيا، حكاية خباز طفولتـه الذي كان يعمل ويكد طيلة شهـر من دون انقطاع أو راحة، إلى أن تملكه شيطان المتعة ويمسك به من عنقه... فيرمي بأدوات العمل، ويطفىء فرنه، ويذهب للاحتفال بعد أن يعلّق على باب مخبزته كتابة تقول : «*هوزاين بيرويت*» : المالك يتسلى.

أنسى المخبزة التي فتحتهـا والخبز الذي عجنته. أخطّط أنـا أيضاً، بحروف حمراء كبيرة *هوزاين بيرويت* وأعلقها على البـاب، لأعيش كما أشاء. أضحـك، أستخدم كلمات فظة، أحيي أمواتاً أحبهم، أعزف الكمنجات والنايات الداخلية.

آه! فلأتسلّ قليلاً، أنا أيضاً! ليبتسم ثغـري، ولتُشحْ روحي عن الهاوية، ولو للحظة واحـدة، ولتنظـر إلى العـالم من فـوق، أخضر، مطـرّزاً بـالبشر والأشجـار والحشرات والممالك، ولتتمرّغ بدورها مثل جحش على عشب الربيع الأخضر. وعندما استريح، أعود إلى فتح مخبزتي، أشعل نيران الفرن، وأواجه الهاوية.

في مقدّمة الكُتّاب اليـونانيين النادرين الذين يحبّون أعمال كازنتـزاكي، يوجد ج.م. بانايُـوتُوبُولوسْ. وكان يـدافع عن اللغة اليونانيـة الحديثة، ويحبّ السفر، ويعمل أستاذاً ومـديراً في المدارس الثانـوية. لكنـه يجد متسعاً من الوقت لكتـابة سلسلة حلقات أدبيـة. كان قصير القامة، أسـود الشعر والعينين، كثير الضحك، حسن الضيافـة، ويحبّ كازنتزاكي الأكبر منه سنـاً، ولا يخشى التصريح بذلك. أما نيكوس كازنتزاكي فكان يعامله بالمثل ويعتبره أحد «حرّاس الأوديسة».

إيجين، ٣ مارس ١٩٤٠[١]

أشكرك على رسالتك وأعتذر عن التأخر في الردّ. فأنا غارق في بحر [الحِبْـر].

تلقيت المقالتين النقديتين اللتين كتبهما باناياتوبولوس، وسعدت بطريقته الذكية في الحديث عن الرقم ٣٣٣٣٣ . إن الأوديسة» الآن تعيش حيـاتها المستقلة بعد قطع الحبل السّري. صارت كيانـاً حرّاً، فلا تحتاج إليّ، ولا أحتـاج إليها. وعليها أن تواجـه إلٰه الزمن الذي يلتهم أبناءه، وحيدة، ولتبقَ إذا استطاعت. أمّا أنا فلم أعد أتدخل...

أنجـز نيكوس كتـاب «انجلترا». وظلّ «والـدي» في طور الحمل. كـان كلّ شيء جاهزاً وكامناً، لكن لمعة البداية لم تأتِ. وربما كانت اللغة الفرنسية هي السبب :

إذ قرّر كـازنتزاكي تأليف الكتاب بـاللغة الفرنسيـة التي يجيدها لكتـابة أي موضـوع، وربما باستثنـاء كريت. إذ يحتـاج إلى أداة الأسلاف، تلـك اللغة ذات النفس الطويل والأصـوات الحَلقية وإيقاع الأمواج الإفريقيـة. عجيب أمر الشعب الذي يضيق بلغته ويسعى إلى توسيعها بـإضافة حروف علّة إلى بعض الكلمات، أو استبدال صيغة المؤنث بصيغة المذكر لتصير الكلمة أكثر فحولة...[٢]

صـار نيكـوس يتلهف للعودة إلى كريت من أجل تنشيط ذاكـرته، كما أوضح، وكأنه يعتذر ، «ليس في مـا يخصّ الناس، فأنا أتذكـر كل التفاصيل المتعلقة بهم، بل من أجل رؤية الأمكنة من جديد... ووطء أرض أجدادي...»

تشانيا، ٩ ابريل ١٩٤٠[٣]

... تشانيـا تعيش حالـة رعب وفوضى بعـد الإعلان عن احتـلال الألمان للدانمارك. والجميع يقولون بصوت واحـد: «إنهم يستاهلون ذلك لأنهم [الشماليون] تصرفوا مثل الجبناء عنـدما رفضوا نجـدة فنلندا!» أما أنـا فراضٍ بالحسّ الكـريتي السليم. وأشعر بالقلق من سفرك[٤] في أوقات عصيبـة. وأعتقد أنّ مرحلـة جديدة من الحرب قـد بدأت،

---

(١) رسالة إلى ستاموس ديامنتراس.

(٢) أمثلة على ذلك: بـاليونانية تو بـوذي (الرِّجْل، الساق) بـالكريتية أو بوذاسْ»، وكذلـك توخييري (اليد) تصير بالكريتية «إي خِيارا»، وتوماتي (العين) تصير بالكريتية «تو أماتي».

(٣) رسالة إلى ايليني ساميوس.

(٤) توجّب عليّ السفر آنذاك إلى باريس و «سالي دي بيارن».

وهي أكثر كثافة وخطراً...

تشانيا جذابة- أزقة ضيقة، دكاكين تركية، نخيل، شواطىء، صخور، أناس أذكياء، جوامع، برتقال، قلق واهتمام إزاء المشاكل الدولية، حس سليم، ضجر ريفي، نساء بدينات، أغانٍ تكرر «أمان، أمان» ورائحة لا تطاق من زيت القلي في الحانات...

كاندانوس سيلينو، ١٤ ابريل ١٩٤٠[١]

عزيزتي ماريكا،

حبستني الأمطار هنا في كاندانوس[٢]، في الوقت الذي كنت أتهيأ للذهاب إلى أومالوس ومنها إلى سفاكيا. عاصفة قوية ليلاً، ومطر غزير منذ الصباح. أسمع صفير الريح وأبتلّ برذاذ المطر المتسلِّل من النافذة التالفة، مستلقياً على سرير هش في فندق صغير بائس. لابد من الصبر لأنّ الله وحده يعلم متى تعود الشمس وتفتح الطرقات... جئت أمس إلى هنا، إلى بانايا خريسوسكاليتسا، في أقصى الغرب الكريتي، حيث قضيت ساعات رائعة مع الراهب الهرم غريغوار وراهباته الأربع (إحداهنّ جميلة جداً، شابة، كئيبة، وتنشد التراتيل بشغف).

سرتُ كثيراً وعلى ظهري جراب جبلي ثقيل... كنت وحدي وتُهت، فجاء بعض الرعاة وسألوني قلقين «ماذا حدث للنرويج؟». أما الآن فقد عرقلتني الأمطار ولا أعرف متى أواصل طريقي... كان يُفترض أن أكون في ... «أماري» حيث أقيم بضعة أيام، آملاً أن تلتحقي بي، ثم نذهب إلى فايتستوس، عند صديقي خاريلاوس، للاحتفال بعيد الفصح.

سَفَر إيليني، أمس، السبت. أرجو أن تراسليني وتخبريني كيف جرت الأمور. إنَّ كريت تثير مشاعري... لكنني أشعر بالضيق والمرارة كثيراً. ويبدو لي الضحك هو صمّام الأمان الوحيد، فإذا لم أضحك، أختنق، وأرغب في الموت.

لم أحمل معي سوى كتاب دانتي و «سونيتات» شكسبير. ولن أطالع غيرهما، طوال النهار، لطرد العاصفة، لكن قلبي لا يجد إلى العزاء سبيلاً. إنّه لا يكتفي بشبح من لحم...

---

(١) رسالة إلى ماريكا بابايوانو.

(٢) شهدت كاندانوس مجزرة نازية شبيهة بمجزرة أورادور (في فرنسا).

دير توبلو، السبت[1]

... لن أنسى الأيام التسعة التي قضيناها معاً. كان كل شيء رائعاً، مفعماً بالفرح والعذوبة والقوة. قبل مجيئك كانت مسيرتي قاسية، لا إنسانية مفتقرة للعذوبة. ولدى افتراقنا في لاسيثي تأثرت كثيراً لكنني تمالكت نفسي وحاولت الضحك كي أتوصل إلى احتواء قلبي الطافح.

توبلو دير معروف يوجد في الطرف الشرقي من جزيرة كريت، بين جبال بدائية. وفيه أيقونات رائعة. ويحزنني أنك قد لا ترينه أبداً... لكن الحياة طيبة بشكل غير متوقع... من يدري؟ ربما سرْنا معاً، مرة أخرى، على دروب المرتفعات الكريتية...

اخبريني إذا تلقيت رسالة من ايليني... أخشى ألا أراها مجدّداً. الأوضاع السياسية محملة بالخطر، ولا أحد يعلم إذا كانت تستطيع العودة. تسودُ كريت كلها عندما أفكر في ذلك الجسد الضعيف، المحبوب ...

قبل الحرب العالمية الثانية، لم يكن الكُتّاب اليونانيون البارزون يكسبون شيئاً من كتاباتهم تقريباً. وكان كازنتزاكي المنعزل في إيجين يهب كتبه للناشرين أكثر مما يبيعها. وحتى عندما يبيعها يتضايق من المطالبة بحقوقه:

ايجين، ٢ أكتوبر ١٩٤٠[2]

عزيزي ستاموس

... أكملتُ روايتي عن كريت، وجاءت في حوالي خمسمائة صفحة، لكن باللغة الفرنسية. هذا ما اضطررت إليه، أنا، عاشق لغتنا المتحمّس؛ الكتابة بلغة أجنبية: ففي اليونان ليس لي ناشر واحد، أما خارجها فلديّ ثلاثة...

هذا الصباح كتبت نشيداً قصيراً عن دراغوميس[3]. وانوي أن أبدأ غداً بكتابة تراجيديا صينية، جاهزة في ذهني...[4] لا أستطيع التوقف عن العمل لحظة واحدة لأنني أشعر بالاختناق وأخالني أموت.

وكتبت إلى س. ديامنتاراس أيضاً، يوم ٧ أكتوبر ١٩٤٠:

---

(١) رسالة إلى ماريكا بابايوانو.

(٢) رسالة إلى ستاموس ديامنتاراس.

(٣) ايون دراغوميس كان وطنياً متحمّساً، وكاتباً، وصديقاً لنيكوس كازنتزاكي. قتله اتباع فينيزيلوس انتقاماً.

(٤) يانغ- تسي، وهي مسرحية صدرت بعنوان «بوذا».

... أما بخصوص كتاب «اليابــان» فقد أخبرني [السيد] ث. بأن بيرسوس [الناشر] سوف يسدد لي المبلغ حالما يسترجع التكاليف. أما إذا نسي فأرجو ألاّ تذكرّه بذلك.

فهل يمكن تفسير ذلك الاستسلام للانخـداع، بنزعةِ قداسة كـامنة؟ لا أعتقد. ذلك أنَّ الدفـاع عن الحقوق يتطلب خـوض صراع، مما يـؤدي إلى إضاعـة الوقت والروح. والحال أن الوقت، هو من الروح، كما كان نيكوس يكرر بإعجاب Time is soul. والأفضل أن يخسر ما تبقى ويربح الوقت والروح.

كيف كان ذلك الرجل الذي لم ينفك مسكوناً بمـزاج والده العكر، وقداسة أمه الصارمة - يتوصل إلى تحقيق التوازن الذي يمكنه من التنفس على إيقاع أشعاره، وضبطهـا، وفق الحركـة المستمـرة للكواكـب، وإيقاع البحـر النَّـزِق، والأشعـة الشمسيـة في تناوبها مع الظلمات، تنـاوب الشفق الأخضر المزرق والغسق المائل إلى الزرقة؟

عندمـا أذكر إيجين وَرَعْنَ(١) جبلنا، أدهش بـدوري للطمأنينة الدائمـة سواء وقت المدّ أو وقت الجزر. كـان رجلاً بسيطـاً في تعقيداتـه، يكرس النهـار للعمل، والليل للنوم، ويهرع إلى مخطـوطاته حـالما يستيقظ من النوم، ويكفي أن يمسك بقلمـه ويتمتع بـالهدوء حتى يكـف عن التطلع إلى أي شيء آخـر. كـان صفـاؤه يوشّحنا فيحمينا من عصف العالم الخارجي...

كـان الأرق يصيبني أحيانـاً فيلعب نيكـوس - شهـرزاد دور الدواء المنـوّم. ويروي لي، كلّ شيء، كلّ ليلة، حكاية جديـدة، متأتية من طفولته دائماً، مع خلفية كريتية. وكنت أفضّل حكاية «الجيران» التي تتعاقب أحداثها كلّ ليلة :

- إلى أين وصلنا إذاً، يا لينوتشكا؟

- وصلنا إلى طقطقة درجات السلّم ووثوب والد الفتاة العاثرة من فراشـه...

- نزل من السلّـم قافزاً فـوق درجاتـه وأمسك بابنتـه من جدائلهـا... يتابع نيكوس الحكاية لفترة طويلة.

(١) رعْن الجبل أو شِناخُهُ: الجزء الخارج منه والداخل في البحر. (المترجم)

فنـدخل بـالتنـاوب، متسلليْــن مثل سارقيْــن، إلى بيت «الجيران» العتيـد، ونفاجئهم يصلّـون، أو يحسبون نقودهـم، أو يراسلون القيصر وملكـة ألمانيا، بأسلوب مؤثر، حتى يسرعا إلى نجدة كريت المسيحية...

وعندما أبـدأ بالنعاس يخفض نيكوس صوته ويـربّت على كفّي الممدودة، فلا يتوقف إلا مع انتظام أنفاسي التي تدل على استغراقي في النوم.

حلّ الخريف وهجم مـوسوليني على اليـونـان. ما من أسلحـة، أو ذخيرة، أو قيادة عسكـرية. وقـاتل جنودنـا المشاة في شمال ايبير، حيث استفحلـت حالات تجمّد الأقـدام والسيقان. وكان الحلّ السريع هـو بترها عوض معـالجتها[1] وفي مجال الطيران الحربي لم تكن اليونـان تملك سوى ١٦ طـائرة عصرية مقـاتلة، و٢٦ طائرة مطاردة. وقد أدان الجنرال باباغوس، في مذكراته، تلك الحالة المزرية لعتادنا الحربي: «معظم طائراتنا مـن طراز قديم فلا تسرع أكثر من ١٢٠ كلم في الساعة! أما الأسلحة والذخائر التي أمـدّنا بها حلفاؤنا فكانت من الرداءة بحيث تتفجر بين أيدي الجنود الذين يعالجونها...» وعلى الرغم من تلك النقائص، وكذلك ميول هيئـة الأركان الجرمـانية، تحت حكـم الدكتـاتوريـة في اليونـان، استطاع الجيش اليوناني نقل الجبهة إلى عمق ٦٠ كلم بعد الحدود الألبانية، من بوغرادتز إلى خيمارا. فلماذا منعت قيادة الأركان جيشنا من الاستيلاء على ميناء فالونا؟ لا أحد يعرف...

وكفّت الســـفن عن الربـط بين بيري وإيجيـن فاضطـــررنا إلى التـزاحم داخل مراكب سيئة ذات محركـات بالية ومتعفنة، تتعطل بخـاصة مع اضطراب البحر.

ولقد اضطررتُ للذهاب إلى أثينا فظلّ نيكوس وحيداً، قلقاً في إيجين.

---

(١) عملت أختي الكبرى ممـرضة متطـوعة أثنـاء الحرب وفقـدت صوابها من رؤيـة عشرات الجنود الـذين بُترت سيقانهم.

(نهاية) نوفمبر ١٩٤٠[١]

عزيزتي[٢] تولبيتسا[٣]،

ما أن غادرتِ حتى أعلن عن سقوط كوريتسا[٤]. تملكني فرح عارم...

هذا الصباح شاهدت كالموك يرفع العلم اليوناني على شرفته... آمل أن تكوني قد وصلت سالمة على متن «البنزين»[٥]. بدأت أحصي الأيام، وفيمابعد سوف أبدأ بعدّ الساعات. أرجو أن تذهبي إلى بيرسوس. وحاولي التوصل إلى تسوية: لابدّ من الموافقة على صدور الكتاب قبل عيد الميلاد...[٦]

٧ ديسمبر ١٩٤٠[٧]

عزيزتي[٨] تولبيتسا،

... بالنسبة لتصليح أخطاء [الكتاب] «انجلترا» أنتِ على حق. افعلي ذلك ما دمت موجودة هناك. راسلت غانياريس طالباً منه أن يضيف الجملة التالية فوق الإهداء إذا وافقت الرقابة :

ليُعتَبر هذا الكتاب بمثابة صرخة،
صرخة الفكرة العظيمة الجديدة :
أنْ تتّحد اليونان مع انجلترا.

حلمت قبل البارحة بإلسا، أخشى أن يكون قد أصابها مكروه، والبارحة رأيت دوسلدورف تقصف بوحشية...

من المفارقة أن نيكوس كازنتزاكي اتخذ إزاء اليونان فكرة مماثلة لفكرة تشرشل تجاه فرنسا: الاتحاد مع بريطانيا كي لا تظل اليونان معزولة في مكافحة

---

(١) رسالة إلى ايليني ساميوس.
(٢) بالانجليزية في الأصل Dear (المترجم).
(٣) انظر تولبا Tulpas لالكسندرا ديفيد-نيل : والمقصود كائنات يتوصل أهل التبتّ إلى خلقها بالفكر فتقوم على خدمتهم.
(٤) سقطت كوريتسا يوم ٢٥ نوفمبر ١٩٤٠.
(٥) هكذا كنا ندعو المراكب الشراعية المزودة بمحركات.
(٦) كتاب «انجلترا» الذي صدر عن منشورات بيرسوس، أثينا، سنة ١٩٤١.
(٧) رسالة إلى ايليني ساميوس.
(٨) بالانجليزية في الأصل (المترجم).

البرابرة. لكن الرقابة تدخلت ولم يعلم أحد بتلك الفكرة، مما وفّر على نيكوس استهزاء الآخرين به، إثر التدخل العسكري البريطاني في اليونان، لاحقاً...

إذا كانت انجلترا لم تتردد في تحريك أسطولها ومحاصرة اليونان دفاعاً عن مصالح شخص واحد من مواطنيها[1] فكيف تتردد في الإسراع إلى نجدة حليف صار عضواً في الكومنولث؟ ربما كان ذلك هو تحليل نيكوس، المثالي، دائماً، والذي كثيراً ما ينسى الدوافع الدنيئة وراء بعض التحركات.

مرّت أعوام وأعوام من دون أن يلتقي سيكليانوس وكازنتزاكي. وكانا يعملان بلا انقطاع، ويعبّران – حسب اعتقادي على الأقل – عن رغبة متبادلة في الالتقاء مجدّداً، من دون أن يبادر أحدهما إلى ذلك.

وجاء اليوم الذي التقيتُ فيه سيكليانوس في أحد جبال البيلوبونيز، ما بين نباتات الزعتر و «السّيست»، ويده في يد آنّا التي كنتُ أعرفها منذ أيام المدرسة. وكانا يشعان بعلامات السعادة.

– هل تعتقدين أن نيكوس يوافق على الذهاب معي إلى ايبير؟

فوثب نيكوس على الفرصة السعيدة :

ايجين، ٢٧ ديسمبر ١٩٤٠

أخي العزيز،

أنا مستعد إلى مرافقتك حيث تشاء. وإنها لفرحة عظيمة أن تدوّي ضحكاتنا معاً، مرّة أخرى...

ولأسباب مجهولة، لم يردّ سيكليانوس... وبعد مرور بضعة أشهر حدّثنا

---

(١) في عيد الفصح سنة ١٨٤٩، حدث تفاهم بين شرطة أثينا والجمهور، أدّى إلى نهب منزل ديفيد باسيفيكو، أصيل جبل طارق، الذي أقيل من منصبه كقنصل برتغالي بسبب قلة أمانته. فاستغلّ جنسيّته البريطانية التي حصل عليها حديثاً، وانتهز بالخصوص معاداة باركر، البريطاني الأول، لحكومة اليونان آنذاك لاتهامها «بحبّ فرنسا» فطالب بتعويضات مُبالغ فيها تصل قيمتها إلى ٨٨٦,٧٣٦,٦٧ دراخما ذهبية.
حاصرت بريطانيا اليونان التي اضطرت على سبيل الكفالة، إلى دفع مبلغ ٤٣٠٠٠٠ دراخما ذهبية. بعد عامين من الأخذ والردّ، والوساطة، وإثر تقديرات قامت بها لجنة إنجليزية – فرنسية مشتركة – في أول حالة تحكيم دولية – دفعت اليونان مبلغ ٣٧٠٠ دراخما ذهبية إلى ديفيد باسيفيكو. وأغلق ملف تلك القضية الكئيبة.

فاسانوس وكان يعمل سائساً في ايجين، عن سيكليانوس:

– سيدي نيكوس، مساء أمس أمرني السيد سيكليانوس أن أوصله إلى بيتك. وما أن وصلنا أمام الباب جتى رفض الدخول وأمرني بالعودة...

بعد هدوء خادع، ثارت البحار والرياح وتملّك نيكوس هيجانٌ غير متوقع قبل بضع دقائق وبالرغم من هدوئه واسترخائه، في الطقس الجميل، كما في الطقس الرديء، صار يهتزّ مثل فلّينة فوق الأمواج. توتّرتُ بدوري وانزلقتُ لأنني حاولت بعناد، أن أواجه العنصر العدواني الثائر. التهب منخراي من الملح البحري، فألصقتُ أنفي بالزجاج المغشّى بالبخار، حالمة بهواء نقيّ أعرفه جيداً، وهو خليط من تضوع العسل والرّاتنج. فأدرك صديقي حقيقة أفكاري، ومع أول وابل مصحوب بالبَرَد في شهر مارس، غادرْنا صخرتنا في زيارة قصيرة إلى أَتيك.

وكان ينتظرنا بردٌ قارس في كيفيسيِّا. فلم نتمكن من إعادة جولتنا الأولى، جولة الخطوبة. ومكثنا قرب المدفأة بصحبة بعض الأصدقاء المبتهجين بوجود كازنتزاكي من دون عبور البحر. الأصدقاء القدامى، والأصدقاء الجدد الذين جاؤوا لملامسة «الوحش».

أحياناً تندلع شرارة فيعلو الضحك وتنشرح القلوب... وأحياناً يصعب التواصل، كما في حالة الأستاذ الفرنسي روجيه ميلياكس وزوجته الشابة تاتيانا غريتسي، تلك المرأة الجميلة ذات العينين اللاّزَوَرديّتيْن، والقامة المشوقة، والبشرة السمراء مثل زيتونة. وكانا أديبيْن جيّديْن وزوجيْن ناجحين، وحليفين رائعين. ويعجبهما من الكتّاب شارل بيغي وكافافي وسيكليانوس. وما هَمَّ إذا كان نيكوس لا يلامس شغاف قلبيهما؟ المهمّ أنهما كانا يلامسان شغاف قلب نيكوس. إذ أنه وجد نفسه أمام زوجين «أصيليْن» كما يشتهي.

إثر العودة إلى ايجين، أحال كازنتزاكي مخطوطة «والدي»على أحد الأدراج، لأنَّه لم يرضَ عن صياغتها. وسعى إلى التخلص، بعض الوقت، من الهموم المالية

بإنجاز روايتين متسلسلتين للنشر في الجرائد، كما أضاف بعض التنقيحات على مخطوطة «أكريتاس»، وترجم «عطيل» عن الإنجليزية، شعراً. وراجع الصياغة النهائية لـ : «الكوميديا الإلٰهية»، ثم كتب مسرحية جديدة، توخّى فيها النثر الإيقاعي، بعنوان «يانغ – تسي» وهي المسرحية التي مدحها لي قائلاً:

– اقرأي ، يا عزيزتي! إنَّها أفضل وأصعب مسرحية كتبتُها. آه، لو كان عندنا جان لوي بارو ليتعامل معها! أنا متيقّن من جودتها، إنّها تشبه الأيقونات التي نحبّها، وتدور على مستويَيْن: في الأسفل، هناك الأرض والتاريخ الأرضي، وفي الأعلى، توجد السماء والتاريخ الماورائي... أنتظر رأيك حتى أعرف قيمة ما كتبت.

– مسرحيات، مسرحيات جميلة جداً، همست متضايقة بعض الشيء. تعرف جيداً أنني أحبها... لكن ألا تستطيع، حتى وإن كان ذلك لإرضائي، كتابة عُشْر حكاية «الجيران»؟ أو جزء من مئة، من «زوربا» الرهيب؟

– الرواية تتطلب مني إيقاعاً مختلفاً عن إيقاعي الراهن. لا أمتلك الصبر الضروري.

– بل عندك أكثر مما تصور. ويكفي أن تنكبّ على العمل.

– أتقدّم بوثبات متقطعة، لقد ولدتُ كاتبا مسرحيّاً. ولن أتمكن أبداً من الكتابة على غرار «آنا كارينينا».

كان نيكوس يشكُّ في قدراته الروائية. لكن المستقبل سوف يكذّبه.

طوال اللّيلة الفاصلة بين ٢٦ و ٢٧ ابريل ١٩٤١، تابعنا، مع كاتي وماريكا، خلف ستائر النوافذ المغلقة، رحيل حلفائنا تتعقبهم المصفحات النازية، وحاولنا إنقاذ الحلفاء الذين أخفيناهم في منازل الأصدقاء، فجبنا السفارات مع يانِس مانغليس. ولم يقبل أحد بأن يسلمهم بعض الوثائق التي تيسّر لنا ترحيلهم إلى تركيا، أو لبنان، أو مصر.

خــلال اليوم الأول من قــدوم الألمان، يوم ٢٧ ابريل الـذي صادف يــوم أحد مشمس، ظلّ سكّان أثينا معتصمين ببيوتهم. ولم تحدث حالات انتحار مشهودة كما حصل مع الجرّاح الشهير مارتال في باريس. وخرج الجمهور في الغد، من باب الفضول، كي يرى، فرأى نازيين في دكـاكين الحلويات يتناولون الكعك والحليب إلى حدّ التخمــة. وكان النّادل في محلّ «زونــار» يصيح: «ثلاثــة أكواب من شراب الشوكولاته... خمسة بقلاوة.... خمسة حليب...» ولحسن الحظّ أن اللعبة انتهت قبل بدء الانتقام.

يوم ١٥ مايو تلقيتُ رسالة من نيكوس الذي كان يوجد في إيجين:

حبيبتي لينوتشكا

.... أرجوك ألا تقلقي بخصوص المستقبل[1]. وربما لن يكون له وجــود. هنا صارت منطقتنا، خطرة، خلال الأيام الأخيرة من الحرب: قنابل قرب حانة ماريني – كاد يُقتل – أصوات رشاشــات على بعد أمتار من بيتنا. شاهدت الطــائرات تمرّ فوق رأسي، وشعرت بكلّ شيء مشدوداً بخيط واهن، أفكـر في مغادرة هــذه الأرض عما قريب، وها أنــذا أنتظر بهدوء، واستعداد تام. فلا تفكّري في المستقبل، ولنحــاول العيش بأعصاب هادئة خلال هــذه اللحظات الفظيعــة التي تمرّ بها الإنســانيــة، ونحن أيضا، بــالضرورة. لابــدّ من التجمّل بالصبر والحبّ كي نتمكن من العيش بكـرامة في هذا الــزمن الحرج. وأنا متيقّن من امتلاكي لهاتين الخصلتين الضرورتين. آمل أن تتحلّي بهما، أنتِ أيضاً، ففي مثل هذه الأوقات تتجلّى قيمة الإنسان.

افتقدك كثيراً. ولم أعد قادراً على فراقك. أنهك نفسي كثيراً... تعالي!

عدتُ بسرعة لأكون بجانب نيكوس، وشاهــدت ظلال قاذفات القنابل الألمانية ترتسم على حقولنا مثل وحوش قياميــة. وسمعت أزيز المحرّكات القاتلة. وهمهم نيكوس:

– الأرض تثير فرحــة الحياة بينما البشر يسعون فيهــا مجدّين لزرع الموت... ماذا بوسعنا أن نفعل لوقف هذه المذبحة؟

---

(١) كنا نتمنّى الذهاب مع يانيس مانغليس إلى مالي أو كريت ظنّاً منّا أن الجزيرة لن تسقط!

وتجدّدت المأساة التي حـدثت في شمال اليونـان، مرة أخـرى، في آخر معتقل أوروبي ظلّ حراً.

لم يكن تحت تصرف الجنـرال الإنجليزي فريْبيرغ، قـائد كريـت العسكري، سوى ٣٦ طائرة، يوم ١٠ مـايو. وخوفاً من إصابة طـائراته التي كانت من طراز «لوفتويف» بقصف مكثف، أجلاها إلى مصر. وهكذا حلّ يوم ٢٠ مايو الذي نزل فيه أول المظليين الألمان، ولم يبقَ في كـريت إلاّ ٨ طـائرات ومـدفع واحد مضـاد للطائرات.

أما الرجال، من بريطانيين ويونانيين، فكانوا مجرّدين من الأسلحة والذخائر، فدافع كلٌ حسـب إمكاناتـه، وساعـدهم السكان المدنيون الـذين دخلوا المعـركة بالسكاكين والهراوات. ومن أصل ١٦٠٠٠ مظلي من الذين انتخبهم هتلر ودربهم تدريباً خاصاً لغزو انجلترا، اضطر ٧٠٠٠ إلى «عضّ التراب» بتعبير عجائز كريت الـلائي شاركن في المعـركة متحسرات «يـا للجمال الذي سيأكلـه التراب! وكم أمّ ألمانية ستبكي ابنها فريتز!» وفيما بعد تحدث أحد الناجين، بأعجوبة، من فصيلة الإعدام ، فلم يُخفِ دهشتـه وإعجابه إثر تـلاشي الحقد: «أمرونا بـدفنهم، هناك، قرب البحر... لكن القبور التي حفرناها كـانت ضيقة جداً، قسناها على أحجامنا ثم حاولنا نقلهم، يا إلٰهي! كانوا بثقل الحجارة! وصعب علينا رفعهم» ثم روى لنا الإجراءات الانتقامية التي طبقت في كريت المسكينة.

ذات يـوم بعـد تـوقف المعـارك في كـريت، اختفى العلم النـازي من فـوق الأكـروبول. فـدبّ الهلع في حكومـة الكيسلنغ، واستشـاط المحتلون غيظـاً. وفي صباح ٣١ مايو قرأ سكّان أثينا إعلان القيادة النازية على الجدران[١]:

«١ – قام مجهولون خلال الليلـة الفاصلة بين ٣٠و ٣١ مايـو باقتلاع علم الحرب الألماني الـذي كـان يخفق فـوق الأكـروبـول. وسـوف يعـاقب المذنبـون والمتواطئون بالإعدام».

(١) ذ. غاتوبولوس : «الشعب يبدأ المقاومة».

«٢- مازالت الصحافة والرأي العام... يعبّران عن تعاطفهما الواضح مع الإنجليز المدحورين من اليونان».

«٣- أحداث كريت والفظاعات التي مورست ضد مساجين ألمان (هكذا!) لم تثر الاستنكار بل استُقبلتْ بالرضا».

«٤- برغم الحظر الصارم، جرت عدة تظاهرات متعاطفة مع المعتقلين الإنجليز (تقديم هدايا ، زهور، فواكه، سجائر، الخ.)

«٥- صار سلوك أوسع الدوائر، في مدينة أثينا أكثر عداء للقوات المسلحة «الألمانية»... وأعلن منع التجول بدءاً من العاشرة ليلاً.

ولم نعرف اسمي الطالبين مانوليس غليزوس وأبوستولوس سانتاس إلاّ يوم ٢٥ مارس ١٩٤٥ ، ذكرى العيد الوطني، وهما اللذان قاما بتلك المأثرة الخطرة، في أول فعل مقاومة للغازي.

كانت أعداد الألمان والطليان والبلغار أكثر مما تتحمّل بلادنا الفقيرة. وبعد أيام قليلة لم يتبقّ ما يؤكل. وقضى أكثر من ثلاثمائة وخمسين ألف يوناني جوعاً. وبعد التحرير علمنا أن شعوباً أخرى عانت من المشكلة نفسها.

لقد عانت كريت الأمرّين بسبب ضيق مقبرة «القديس أوستراتوس». ولم يعد ثمة مكان لدفن الموتى. فصار يُلقى بهم من فوق سور المقبرة. وكان الأطفال يتنقلون بوساطة عكاكيز، منتفخي البطون، مجروحي الوجوه، مع لحى صغيرة ورؤوس صلعاء تغطيها الطبقات القشرية والحشرات. وأذكر هذا المشهد:

كان هناك، أمام الميناء، طفل بارز العظام، ينبش صندوق قمامة ألمانياً. اقترب منه شاب نازي وركله بجزمته فتدحرج الطفل وصندوق القمامة معاً.

- لِمَ هذه القسوة المجانية؟ سألت الجندي النازيّ. لو كان هذا الطفل ابنك هل كنت تصرفت بهذا الشكل؟

- لو كنتُ أنا أنتِ لسمّمتُهم جميعاً!

ولقد سألت عن اسم ذلك الفظ فقيل لي إنه يُدعى كونيغ.

ومع ذلك حالفنا الحظ في إيجين. ذلك أن عـالم الآثار الألماني غابرييل ولتر لم يلعب دور النـازي إلا بضعة أشهـر. وعنـدما علم بأن هتلـر بـدأ بالهجـوم على الاتحاد السوفياتي، أسرع إلينا متوقّعاً سقوط الرايخ الثالث.

وكان لنـا في الجزيرة أيضـاً قائد عسكـري وديع، يتحدّر من الـرّاين. ويعمل تاجر غـلايين مزعوماً. فيـدّخن نهاراً ويحتسي الكحول ليلاً، في مقـرّ قيادته، ولا يخالط أحداً.

وعنـدما عمـد رئيس بلـديتنا الأخير، ذلك الثمانيني ذو الشـاربيّن الكثَّين، إلى دعوة بعض عنـاصر الاستخبارات النازيـة، قبل التّحرير ببضعـة أيام، من أجل اعتقال كازنتزاكي وعـدد من أصدقائنا، تدخّل ذلك الألماني وأنقـذ حياتنا بتقديم أجـود أنواع خموره للنـازين، كما أهداهم، بعض الأقـوال، تحفاً من أجمل مـا في متحف إيجين.

تقلصت الأيـام وقلّ القـوت. ولزمنـا الفـراش حتى لا نفقد قـوانـا. واستغل كازنتـزاكي تلك الأيام الحالكة لكتـابة أكثر روايـاته تغلغلاً في المغـامرة والتشرّد «ألكسيس زوربا».

«كيرا لينيتسا، افتحي لي الباب!»

كنت أتوسل إلى نيكوس ألا يفتح إذا كان الصوتُ لأحد المسنّين الأحبَّاء. أما إذا كان صوت طفل فنهرع لنملأ فمه بملعقة من زيتنا.

ولولا مسـاعدة أصـدقائنا في ايجين لمتْنـا بدورنا. وكـان هناك بـالخصوص، الزوجان ثـراسيفولوس أندرولينـداكي المحامي ومديـر سجون ايجين، وزوجته دسيونيـا، وكذلك الزوجان يـانيس مانغليس، تاجر الإسفنج والكـاتب، وزوجته نوتا. ثم علاقة في آخر لحظة: ايلي غيولمان.

وكثيراً ما كان الـزوجان أندروليذاكي يقـاسماننا، قدر المستطاع، مـا تحتويه طناجرهم الفقيرة. ولم يكن يـانيس مانغليس يدعونا إلى تـذوق فطائر «الكريب» فحسب، بل بدأ منـذ ربيع ١٩٤٢ يتعـاطى التهريب. وسـاعده عدد مـن غطاسي الإسفنج الأقوياء. فكان يقصد جنوب البيلوبونيز، على متن مركب شراعي صغير،

ويصل أحياناً إلى كريت، ثم يعود محملاً بالبطاطا والزيت. وإمعاناً منّي في تقدير بسالـة صديقنـا أذكر أنـه لم يكن يمتلك سوى كليـة واحدة، وكانـت تلك الكلية مصابة أيضاً.

إن إلحاحي على المجاعة يعـود إلى كوني أعتبرها مسؤولة عن آلامنـا اللاحقة. وإذا كنّا نتمتع ببعض السعة فإنَّ نيكوس استنـزف جسمه الرائع بإخضاعه إلى تضحية قاسية وإنكار كامل للـذات. وعندما أصابه المرض للمرة الاولى في أنتيب خـلال عيـد الميلاد سنـة ١٩٤٨ سألني الأطبـاء عمّا إذا كان أحـد النـاجين من معسكرات الاعتقال النازية. إذ كانت له الأعراض نفسـها.

لم أعد أذكر متى تعرّفنا على إيليني[١]. لقد استنفرت لحالتنا، وصارت تتظاهر بالضجر من العزلة، وتختلق كلّ أنواع المبرّرات كي تأتي من أجل «تبادل الحديث الوديّ» معنا. فتلـوح قادمة، مع الغروب، عبر الدرب الحجري، بمشيـة لامبالية، ومظلة تدور فوق رأسـهـا، بينما تتأرجح صرّة بيضاء على ذراعها اليسرى. ولدى مرورها يـرفع الفلاحون رؤوسهم لتحيتها وقد داعبت أنـوفهم رائحة «الأيولي» والسمك المقلي، الآتية بهما إلينا. وأضـافت إلى تلك النزهات المباغتة لعبـة جديدة: ادّعت أنها تخاف من النوم وحيدة في بيتها. وكانت آنذاك تهيم بسارتر وبرغسـون وبيرانـدلّو، فتنطلق محاورات طـويلـة حول مـائدتها حتى تنتهي السهـرة على أصوات حراس السجون وإيقاع جزمات النازيين، في نغمة سوريالية.

– هلاّ فسّرتِ لنا، يا إيلّي، لماذا تضعين دائماً تلك الأواني المملوءة بالفستق قرب سريرنا؟ هل تعتقدين أننا قادران على تناولها ليلاً؟

فتحمّر إيلّي خجلا:

– كلاّ . لاَ . لاَ ، ليس ذلك بالضبط... (وكانت تلثغ بحرف الراء) لكنني أخجل من امتـلاك الكثيل.. تقْـدلانِ الأكل بقـدل مـا تستطيعان، وبـذلك تقـدّمـان لي معلوفاً![٢].

---

(١) ايلّي غيولمان، السيدة بابافيسّوا بعد الزواج.

(٢) «معروفاً» (المترجم).

لماذا لم يلجأ النازيون إلى مصادرة أشجـار الفستق والتين، وكروم الجزيرة؟ لقد أنقـذنا تلهفهم على تذوّقها، قبل النضـج، من كـارثة حقيقية. كانـوا يقطعون العناقيـد بخناجـرهم، ويقطفون التين والفستق قبل الأوان، فتـورّمت شفاههم، وكشطت أَلْسِنَتُهم بحيث اعتبروا تلك الثمار غير صالحة للأكل.

وفي الجوار كانت تعيش أيضا امرأة اميركية متـزوجة من يوناني، هو جورج ليفاس. وكان السيد ليفاس يمتلك مذيـاعاً، فيزوره نيكوس كلّ مساء للاستماع إلى «صوت فرنسا». وكنّا نأمل الكثير من تشرشل وديغول.

ومع حلـول الغسق يترك نيكـوس عمله. وذات مسـاء كنـا نحتسي ما يشبـه «الشاي» تجاوزاً، ونتحادث حـول مستقبل العالم، عندما دق انـدروليذاكي على زجاج النافذة. كان في منتهى الكآبة والإرهاق فانهار على كرسي.

– أمضيت وقتاً شنيعاً، قال ماسحاً عرق جبينه. عندما دقت الساعة منتصف النهار وُضِعَت القـدر المعدنية الكبيرة في باحة السجن، وتحلّـق حولها المساجين. وفجأة تملك الجنون أحد الرّجال فرمى بنفسه في قدْر الحساء الساخن. سحبناه لكن نصف لحمـه ظلّ في الحساء. صرختُ بأعلى صـوتي: «لا أحد يلمس حسـاء الفاصـوليا! أعـدكم بتناول الأرز بعـد ثلث ساعـة فقط!» فهجم بعض المعتقلين وغرفـوا من الفاصوليا فـاضطررت إلى الاستعانة بحـرّاس السجن. – وماذا عن المحروق؟ – مات بعد بضع ساعـات... هل تسمحان لي بإشعال سيجارة؟ قلبي ينهار.

ولم يكن الألمان وحـدهم، هم الـذين يحاصرون نـاسك ايجين. إذ أن المسرح القومي رفض مسرحياته المؤلفة أو المترجمة. فاقترح نيكوس على بريفيلاكي إحالة مسرحيتهما «كالانـدرا» (مقتبسة مـن مسرحية الكـاردينال بيبيـانا) على مسرح آخر، مسرح كاترينا مثلا، فوافقتْ هذه الأخيرة لكن الرقابة تدخّلت واعترضت...

لم يغضب نيكوس «أنا مضطهد بشكل مستمرّ، قـال ضاحكاً، ما من حكومة تتحملني، وهذا موقف عادل لأنني، بدوري، لا أتحمّل أيّاً منها...».

وكما كـان شأن ب. بريفيـلاكي، أراد س. ديامنتـاراس أن يساعـد صديقـه الكبير، وكـان يعمل لـدى نـاشر ثـريّ جـدّاً، في أثينـا، متخصص في نشر الكتب القانونية، ويرغب في توسيع نشـاطه ليشمل الآداب. فاقترح عليه ديامنتاراس أن ينشر لكازنتزاكي، أو يكلفه بسلسلة ترجمات جديدة. ولا يستطيع كلّ منْ لم يقرأ مراسلات كازنتزاكي – ديامنتاراس، وكازنتزاكي – بريفيلاكي، تصديق المكافأة المذلّة التي عُـرضت على نيكوس كازنتزاكي، بخصـوص النشر، وكذلك المسرح... قلّـة تفهّم؟ أم لا مبـالاة وأنـانيـة تمخضت عنهما الحرب؟ أم نـوع من التهيّج الجنونى الخفي إزاء رجل شامخ لا ينحني؟

ولاحت الصعـوبات ذاتها مع تـرجمة «عطيل» التي كـان نيكوس فخـوراً بها ومبتهجاً. وعلى الرغم من تشـوقه لرؤية ردود فعل الجمهـور على ترجمته الأولى لشكسبير، فقد اضطر إلى رفض *شروط المجاعة* التي عُرضت عليه.

فكتب إلى بريفيلاكي :

«لولا وضعي الحرج[1] لـوَافقْتُ على استغـلالي، أمـا الآن فما من مبرّر... ينبغي أن نعيش. لكن ذلك لا يكفي. فما جدوى حياتنا مـن دون تلك القوة الفعلية التي تقتات من الإنسان وليس من الكلمات؟ لقد عيل صبري!».

نعم، لقد عيل صبر كـازنتزاكي! وصـارت متابعة الكتـابة، منكبّـاً على مكتبه، بعيداً عن العـدوّ المشترك، عذاباً لا يطـاق. وعاد مجدّداً إلى الثورة على مـا يسمّيه «عدم الممارسة» وبات يتحرّق للنزول إلى المعمعة.

وكان ث. انـدروليذاكي يستعد للـذهاب إلى الجبل. فكلّفه كـازنتزاكي أن يُعلم الأنصار باستعداده للالتحاق بهم. واتّفقَا على استخدام بعض الرموز الشخصية كي يصل الردّ في أقرب وقت ممكن.

كان نيكـوس يدرك جيداً حذر اليمين منـه، ومعاملته له كشيـوعي . كما كان

---

(١) اوقفتْ صحيفة «كاثيميريني» دفع المكافآت أيضا.

يعلم أن تصوّفه ينفر اليسار. لذلك لم يشك في رفض قادة المقاومة استقباله مع قذفه بتهمة العميل السرّي للاستخبارات البريطانية.

وفي الأثناء أرسل انجيلوس سيكليانوس بإحدى قصائده إلى نيكوس، بخطّ يده، فشكره نيكوس على الفور :

(ايجين) ٢٤ ديسمبر ١٩٤١.

أخي الحبيب،

تلقيت مخطوطة قصيدتك الثمينة. وكنت قد استمتعت بقراءة القصيدة المنشورة في «نيا استيا». إنَّ القديس ذيميتريوس والقديس جرجس[1] أقرب ما يكونان من بعضهما بعضاً في هذه الأوقات الحرجة. عندما كلّفْتَ ايليني بأن تسألني عمّا إذا كنت أريد مرافقتك إلى ايبير، كتبت إليك على الفور معبّراً عن فرحتي بالدعوة. وراسلت بريفيلاكي أيضاً. لكنني لم أتلقَّ رداً. ثم مررت في يناير كي أراك فلم أجدك في البيت. وكنتَ قد جئتَ ذات مرة إلى ايجين، واقتربت من بيتي لكنك لم تدخل. أعتقد أنَّ الوقت قد حان لنلتقي. وربما توجب ذلك في هذه اللحظة المصيرية التي تمرُّ بها اليونان. لكن، كيف؟ عليك أن تقرر أنت.

أرجو من الله أن تكون ١٩٤٢ سنة نشاط لكلينا، وأن يحارب الجوادان الأبيض والأسود، جنباً إلى جنب...

١٩٤٢ . في مستهل السنة، دعا بريفيلاكي نيكوس إلى زيارة بيته في اثينا. وجهّز له مفاجأة رائعة: لقاء مع سيكليانوس. وهكذا وُضع قليل من البلسم على الجرح الذي فتحته في روح الكريتي، قلة ثقة الجناح اليساري في المقاومة.

ايجين، ٢٥ فبراير ١٩٤٢[2]

لن تمحي من ذاكرتي أبداً، تلك الأيام التي قضيتها عندك، كانت أياماً دافئة، ناضجة وغنية. وكانت سعادتي القصوى في ترافق شعوري بغنى تلك الأيام وعذوبتها، مع عيشها...

---

(١) في مرحلة لقائهما الأول، كتب انجيلوس سيكليانوس قصيدة جميلة جداً، يرمز فيها للصديقين بالقدّيسيْن جرجس وذيميتريوس.

(٢) رسالة إلى ب. بريفيلاكي.

وكتب في اليوم نفسه، إلى سيكليانوس الذي استعاد صلته به :

أخي العزيز أنجيلوس،

عدتُ (إلى ايجين) مع أزهار اَنّـا، وأعلنتُ النبأ السعيد (إلى ايليني): عما قريب تشرق هذه الأمكنـة بحضورك. وبعـد حوالي عشرة أيـام سأسافـر إلى اثينا لمدة ثمان وأربعين ساعة، وأتمكن من رؤيتك. الرّب معنا لأننا معه:

عمل، ضحك، محاورات مسائية قبـالة البحر، السماء فوقنـا، والأرض تحت أقدامنا، واللحظة الزائلة. تكشف عن جوهرها الحق لتتحول إلى لحظة خالدة.

في الربيع كانت أزهار الزنبق في جـزيرتنا الصغيرة أكثر من السمك في بحرها. وكان الميناء اَنذاك يتحول إلى ما يشبه البلاط الملكي المزيّن احتفالاً بزواج أميري. فتكاد الزوارق تغرق تحت ثقل الأزهار، ويثقل الجوّ بـرائحتها اللّجوجة. وترجّل انجيلوس واَنّا سيكليانوس بين الزنابق، متألقين في ربيع حبّهما. فأعارهما كالملوك بيته. وصرنا، أنا واَنا، امرأتين محظـوظتين. نذهب برفقة ابنة عمي زيزي[1] التي كانت ضيفتنا، وكلّ أصدقائنا في ايجين، لنشرب من نبع الفتوّة.

كان كل من يزور سيكليانوس في شقته الجميلة في أثينا يُفاجأ بأسد في قفص، أما في الـريف، قبالة البحـر، فقد وجدت قوتـه وضحكته وصوتـه المجال المتسع للانتشار بحُرية،

ذلك الرجل المُفـرط في كل شيء، ذلك الرجل القـوي المعتدّ بنفســه، رأيته كيف يتألم مثل شخص ضعيف، حالما تبتعد عنه صديقته.

سيكليانوس وكازنتاكي! كائنـان مختلفان ظاهرياً، متشابهان في تطلّعهما إلى المطلق، وفي إنعـاش مَنْ يقترب منهما! فكـلاهما يحبّ الضحك والنكتـة، ويكـره الكلمات الكبيرة وقلة الأدب، كما كان الأمـر دارجاً في أثينا. كان الشـاعر الأيوني الغنائي يجمع بين الهدوء والانفعال، ويحرص على أناقته، مرتدياً قميصاً حريرياً

---

(١) السيدة زيزي بسنيكيذيس.

واسع الكُمَّين، كما كان منتظم الحركات مع صوت جهـوري... أما الكريتي فكان ابن فلاحين، يجمع بين الزهـد والصّلابة، ويوقّع كلامه بحـركات متقطّعة قليلاً. كلاهما يحافظ على أريحيته أمام الأقوياء. أو أمام فقراء الأرض. وكلاهما يتجاوز مستوى ما هو سائد.

نظّم الحزب الشيوعي اليونـاني (شتاء ١٩٤١-١٩٤٢) احتفالاً تضـامنياً في أثينا من أجل مواجهة المجاعة. وشارك في التظاهرة أساتذة جامعيون، ومعلمون، وبورجوازيون من كل الطبقات والميول. وكـان هدفهم الأساسي مساعدة عائلات المعتقلين السيـاسيين وكـذلك المنفيّين خـارج اليـونـــان، وكـانت غـالبيتهم من الشيوعيين الذين سلّمتهم دكتاتورية ميتاكساس السابقة إلى الألمان والطليان[١]. يوم ٢٧ سبتمبر ١٩٤١ وبعد محاورات عديدة وعقيمة مع ممثلي الوسط وأقصى اليمين، أعلن الحزب الشيوعي عن تأسيس جبهة التحرير الوطنية.

وبدأت الأخبار تأتي شحيحة إلى ايجين، مع تأخير مـزعج، وخلط بالأكاذيب. فكان نيكوس يعود فـرحاً ، أحياناً، بعد زيارة السيـد ليفاس واستماعه إلى إذاعة البي - بي - سي تتحدّث عـن بسالة أنصـارنا. وفيما بعـد صارت هيئـة الإذاعة البريطانية تسكت عن الأعمال البطولية الخارقـة للشعب اليوناني. ولاحت بوادر الخلاف داخل المعسكر البريطاني - بين المدافعين عن حقـوق الإنسان وكرامته، وأولئك الذين توخوا سياسة قصيرة النظر.

في ربيع ١٩٤٢ التقى كازنتزاكي يانيس كاكريذيس[٢] المختص في هوميروس وأسفر اللقـاء عن صداقة حميمة، أدَّتْ، بعـد تعاونهما لمدة ثلاثة عشر عـاماً، إلى إنجاز عمل رائد: ترجمة «الإليـاذة» إلى اللغة اليونانية الحديثة، في أبيـات شعرية تعتمد سبعة عشر مقطعاً لفظيّاً (تفعيلة).

وكانت مراسلات كازنتزاكي وكاكريذيس جدّ مؤثرة:

---

(١) لعلّه من المفيد الاشارة إلى ان حركة التضامن الوطني التي ساعدت الكثير من الكتّاب خلال المجاعة وبعدها، لم تهتم بنيكوس كازنتزاكي مطلقاً.

(٢) يانيس كاكريذيس أستاذ ورئيس جامعة ألّف العديد من الكتب حول هوميروس.

«علينا أن ننسى مشاريعنا الشخصية.. ولتكن الأولوية لهوميروس، حتى يتمكن الشباب من الاطلاع عليه بطريقة أفضل، ومن دون اللجوء إلى القواميس... وتغتني اليونانية العصرية برائعة أدبية...»

وطلب كازنتزاكي من كاكريذيس :

«كن قاسياً، اطلبْ منّي المستحيل. لابد أن تتحلّى بصبر الحمير، وسوف ننجح في ذلك! ونتجاوز الصعوبات، الواحدة تلو الأخرى. إنَّ هوميروس يستحق كلّ هذا الكدّ...».

خلال صيف المجاعة تمكن ث. انذروليذاكي من تحويل أرضنا الصخرية إلى بستان بصعوبة فائقة. وأنقذ ذلك الجهد حياتنا مرة أخرى، لأن السمك نفسه لم يعد متوافراً في البحر. واضطررت فيما بعد إلى التردد على أثينا من أجل الحصول على بعض الخبز من السوق السوداء.

(ايجين) (خريف ١٩٤٢) الأحد (١)

حبيبتي لينوتشكا، تلقيت الخبز المقدس للتّو. وسأسعى إلى الحصول على تأشيرة دخول إلى ايجين للآنسة إيلّي...

الجيران يطعمونني جيداً... لكنني أشعر بالتعب من وشك «الوضْع». إنَّ «برومثيوس» يتخبط في أحشائي، فأتألم كثيراً...

وهكذا عملنا بجدّ وإتقان، مع السيد كاكريذيس، في ترجمة «الالياذة»...

وعمل سيكليانوس جيداً، هو الآخر، إذْ أتم «ديدالوس» وهي مسرحية شعرية قوية تنبثق من قلوب اليونانيين المستعبدين.. وقرأ علينا قصيدة «سولون» الذي يتظاهر بالجنون كي يتمكن من إثارة قلوب الأثينيين وتحريضهم على القتال في سالامين. كنا ننصت إليه فنبكي ونصفق ونطالبه بإعادات مرهقة للشاعر... ويأتي أصدقاؤنا للإستمْتاع بتلك القراءات. وكان هناك معلم مدرسة رفضنا

(١) رسالة إلى ايليني ساميوس.

استقباله، فظنّ أننا نخطط لمؤامرات شيوعية. وقبل الحرب بقليل وشى بنا إلى الشرطة ليلاً، وأكد أننا نرسل إشارات ضوئية إلى الغواصات... الألمانية! ويا له من رجل بائس، لقد خال أضواء المنارة، في جزر لاووسا إشارات ضوئية ذات علاقة بأعمالنا الشيطانية.

باتت حياتنا في الجزيرة فقيرة إثر رحيل سيكليانوس. وبعد الاستمتاع بالأمواج الرائعة، والصخور المالحة، وخلجان الرمال الصفراء، والسماء المتلألئة بالنجوم وضوء القمر – بما في ذلك، تلك البومة الصغيرة التي كانت تشاطرنا سهراتنا وتنافس شاعريْنا بفصاحتها – صار كلّ شيء غريبا ، بلا طعم.

كان رائعاً حضور ذلك الشاعر الرائي، متجوّلاً في رؤاه بحُرِّيّة، معتقداً أنه إله، من دون أن يخشى التصريح بذلك. فلم تكن «غطرسته» سوى نبل وطيبة مقنّعتيْن، حبّ للقريب مع تفاخر وتعاظم يميزانه. لكن الاقتراب ينهي إساءة فهم ذلك الشاعر الذي ولد سيّداً وخبر السعادة في الحرير وفي وفرة القصور، كما خبرها في أكواخ رعاة الجبل، حيث أمضى جزءاً كبيراً من حياته مبتهجاً.

(ايجين ٢٨ أكتوبر ١٩٤٢ [١])

أخي الحبيب،

لايمكن التعبير عن مدى تطلع هذه الأمكنة إلى حضورك، وانتظارها لعودتك مع السنونو... [٢] أكملتُ «الإلياذة» يوم ٢٣ أكتوبر، وأشعر بالحزن لفراق ذلك الرفيق اليومي. أجد نفسي الآن أمام طريقيْن، ولا أعرف أيهما أختار، أو بالأحرى، أيهما سيختارني . عادت الشمس والضوء الناعم، الرطب، وها هوذا القلب يلين ويتهيأ للإخصاب مثل الأرض. أتذكر كلّ اللحظات الخالدة التي أمضيناها معاً و «أميّز بين الذكرى ولحظة عيشها. كل شيء حاضر، أي خالد. لقد أضفى مرورك بهذا المكان معنى جديداً على شاطئي المقفر...

---

(١) رسالة إلى أنجيلوس سيكليانوس.

(٢) لم تتحقق وعود الزوجين سيكليانوس بالعودة إلى زيارتنا لأنّ الألمان رفضوا بعناد تقديم ترخيص الإقامة الضروري. لكننا لم ننقطع عن الالتقاء...

ادّى ازدياد ضغط النازيين والفاشيين على شعبنا إلى توثيق عرى الوحدة على مستوى القاعدة، وذلك برغم الانشقاقات الكثيرة على مستوى القمة. ولم يسبق لقلوبنا أن هفت إلى الاتحاد بتلك الدرجة.

يوم ٢٤ نوفمبر ١٩٤٢ فجّر الأنصار اليونانيون بمساعدة بعض الإنجليز، وفي مقدمتهم إدّي ميرس وكريس وودهاوس ودنيس هامسون [١]، جسر غورغوبوتاموس الكائن على جبل أويْتيسْ. وكانت تلك أول عملية تخريب هلّلت لها الإذاعة البريطانية لكن القمع لم يتأخر كثيراً.

يوم ٢٢ ديسمبر، من العام نفسه، أضرب أربعون ألف عامل في أثينا ورفعوا لافتات تقول: «يسقط الرعب!»، «اطلقوا سراح المعتقلين!»، «عاشت جبهة التحرير الوطنية!».

وتوجهت المظاهرة المسالمة نحو وزارة العمل. وأمام الوزارة اندفع ضابط إيطالي في سيارة جيب صادماً المتظاهرين الذين كانوا يتقدمون متشابكي الأيدي، ثم أخرج مسدّسه وأطلق الرصاص على أحد الشباب. وهكذا سقط الطالب ميتسوس كوستانتينيذس أول شهيد في معركة أثينا. وفي المساء نفسه توفي طالب ثان متأثرا بجراحه. وكان عدد الجرحى كبيراً. ثم عمد الإيطاليون والألمان إلى اعتقال العديد من الناس، بمساعدة أفراد الميليشيا.

ايجين، الاثنين (نهاية ديسمبر ١٩٤٢) [٢]

... وصلتني رسالتك المملوءة قلقا وحزناً. واستلمت الخبز.. يفكر يانيس مانغليس في السفر إلى كريت وسوف أعطيه كل ما لدينا كي يشتري لنا صابوناً... أنا قلق جداً إزاء ديامنتاراس. حلمت أول البارحة حلماً مروعاً. أرجو أن تطلعي على أخباره عند «ز»...

---

(١) Denys Hamson: We fell among the Greeks, London 1946
E.C.W. Myers: The Greek entanglement, London 1955
C.M. Woodhouse: Apple of Discord, London 1948
C.M. Woodhouse: One Omen, London 1949

(٢) رسالة إلى إ. ساميوس.

الأربعاء، ١٧-٢-٤٣ (١)

يستحيل التواصل عبر البريد: لقد وصلتْ بطاقتك بعد نصف شهر. بدأت أتأقلم هنا، والأصدقاء يدعونني للأكل، ويخشون عليّ سوء التغذية... سمينثيتسا(٢) تكبر، وقد روّضتها فصارت رائعة. وتعلّمت اللجوء إلى مكانها الخاص مساءً عندما أذهب للنوم. ومع الفجر تسرع إلى بابي وتدق. فإذا كان الوقت لايزال مبكراً، أقول لها: «ليس الآن!» بصوت قوي. في البداية، لم تفهم معنى ذلك، والآن بدأت تفهم. أصيح بصوت عالٍ: «ليس الآن!» فتنسحب!

تلقيت بالأمس رسالة من ابن عم وتيفهل، الناشر في برلين يعرض عليّ نشر «بستان الصخور»...

أعمل الآن على الأناشيد الأربعة الأولى التي أرسلها لي كاكريذيس مع التعديلات. تحسّن كبير. أعتقد أن هذا العمل سوف يكون مهمّاً.

الأربعاء مساء (٣)

عدت من الميناء. لم تصل إيلي. لكنني حملت الكيس الصغير الذي بعثتِ به. تأثرت كثيراً وفتحته – كلّ خيرات الربّ – خبز، زيتون طيب، حلاوى طحينية لذيذة، جبن أبيض...

عنايتك بي تثير مشاعري وأتلهف إلى المرض، أو التعرض للخطر، كي أفرح بمعالجتك لي، ما ينقصني لأكون لطيفاً حتى مع المقربين مني، هو المرض الذي يجعلهم يخشون فقداني بغتة، أو يدركون أنني إنسان بدوري، وأن قلبي ليس من صخر، وفي إمكان الأرض أن تتفتح تحتي وتبتلعني...

١٩٤٣ . كنتُ في أثينا، يوم ٢٣ فبراير ١٩٤٣، عندما أعلنت التعبئة بأمر من هتلر. وانتشر الخبز في العاصمة خلال بضع دقائق. ولم يعد الشعب قادراً على التحكم في غضبه. فحدثت مظاهرات صغيرة في اليوم نفسه. أما في الغد فقد شبت

(١) رسالة إلى إ. ساميوس.

(٢) قطتنا.

(٣) رسائل إل ايليني ساميوس.

ثورة عارمة. ومنذ الثامنـة صباحاً تقدمت الجماهير نحو مبنى وزارة العمل. وفي هذه المرة تسلح الجميع بالحجارة والهراوات والقضبان الحديدية. وقبل منتصف النهار اشتعلت الوزارة فيما اندفع الطـلّاب، إلى جانب العمال، يحرقون الملفّات... وسقط العديـد من الضحايا، لكن أمـر التعبئة أُلْغيَ. وهكذا نجحت معركـة أثينا الأولى. وشكلت نصراً رائعاً للشعب الذي أدرك ذلك، بوعي كامل، واحتفل بوسائله الخاصة.

ايجين، ٤ مارس ١٩٤٣(١)

أثناء الكرنفـال، رقصتْ فتيات جميلات الأزياء في باحتنـا... ثم جاءت أقنعة العمال الذين عفّـروا وجوههم بالسّخام واعتمـروا الطرابيش وارتدوا السراويل الممزقـة وظلّوا حفاة. وبعد أن أنشدوا بحماسة، ونهشوا الخّروب، انسحبوا...

سمينثيتسا تتحسّن... وإذا مكثتُ معي بضعة أشهر سوف أتعلّم المواء بشكل رائع، أو تتعلم، هي، كيف تتأتىء مثل زنجي صغير...

ايجين ١١ مارس ١٩٤٣(٢)

لا تقلقي من أجلي. أنا على مـا يرام(٣)... أعـدّ أكلي بشحّ، قدر المستطـاع، حتى تجدي عجيناً، وقمحاً مجروشاً، الخ... لدى عودتك...

١٥ مارس ١٩٤٣(٤)

برد قارس، لكنني لا أوقد النار، إذ لا يوجد فحم. أكتب إليك مجدداً بخصوص «اتحاد المحرّرين» لأنـه أمر مهم جداً. يُقـال إنهم سوف يقدمـون لنا قرضـاً بستّة آلاف دراخما، وهذا من شانه أن ينقذنا... أرجو أن تتّفقي مع خورموزيوس.

رفض المحررون قبول نيكوس كازنتزاكي في صفوفهم. لكن جورج باباندريو لم يوّفـر جهداً لمساعـدتنا. ولقد جنّ جنـونه عندمـا علم أن الناشر *الشهير*، وكان مليونيراً، لم يقـدم سوى صفيحتين من الزيت للحصول على تـرجمة «الإلياذة».

---

(١) و(٢) رسائل إلى ايليني ساميوس.

(٣) بالانجيزية Regular في الأصل.

(٤) رسالة إلى ايليني ساميوس.

ولم تمر بضع ساعات حتى حصل كاكريذيس وكازنتزاكي على مساعدة يونانيين معروفين بالكرم: أحدهما مانوليس بيناكيس، ابن رئيس بلدية أثينا ومؤسس المتحف الذي يحمل اسمه، والثاني «تريكورفوس-سارونيس » الجرّاح الشهير والمولع بالكتب النفّيسة. وهذا الأخير، أضاف إلى هبته النقدية، بعض المواد الغذائية.

وجاءت بعض النقود من مصدر ثالث : ذلك أنَّ مسرحية كازنتزاكي «بروتوماستوراس» التي حوّلها مانوليس كالومويرسيس، قبل سنوات عديدة، إلى أوبيرا، عُرضت من جديد وتمكن كازنتزاكي، لأول مرة، من تسلّم حقوق التأليف.

ايجين، ٢٣ مارس ١٩٤٣(١)

... لقد فرحت بمبلغ المائة والثمانين الف دراخما، مكافأة على مسرحية «بروتوماستوراس» المسكينة. فبعد كل هذه الأعوام - كتبتُها عندما كنتُ طالباً - بدأت تثمر. واللّه وحده يعلم متى تثمر مسرحيات ميليسا، الخ... بدورها، ولنأمل أن يكون ذلك قبل موتي.

كيف أشكر سبارونيس؟ ماذا أكتب له؟ ماذا أفعل؟ كيف أعبّر له عن تأثري الشديد في هذه الأوقات العصيبة، بالمساعدة السخيّة المتانية من شخص لا يعرفني؟...

أدركتُ أثناء سرد وقائع حياتنا أن هناك قانوناً ثابتاً في وجودنا: ما أن تهبنا يدٌ شيئاً حتى تفتكّه أخرى، قبل تمتعنّا به، وتفتك معه ما تجده بجانبه. ولم تطل فرحتنا بهبة الدكتور سبارونيس سوى بضعة أيام. إذ سرقنا خادمتنا صوفي. وواجهنا خزائننا الفارغة، مرة أخرى.

- كيف تجرأتِ على ذلك يا صوفي؟

- لقد وسوس لي الشيطان يا سيدتي لينيتسا. لا تُعلمي الشرطة. أرجوك خذي

---

(١) رسالة إلى ايليني ساميوس.

بيتي ولا تعلمي الشرطة. ما أخذته لم آكله وحدي بل تقاسمته مع الجيران.

فيمابعد، لم تكن تنسى أن تجلب لنـا قليلاً من البرتقال والتين، لدى تـرددها على زيارة البيلـويونيـز. لكن أجمل هدايا صـوفي، كما سنرى لاحقـاً، كانت تلك الهدية التي قدمتها لنا يوم رحيل الألمان من الجزيرة.

اضطررنـا إلى التقشف وشدّ الأحزمـة مكتفين بتناول الهندبـاء، لكن القديس فرنسوا، حبيب نيكوس، جاء لإسعافنا:

إذْ كتب بعض الرهبان الكاثوليك اليونانيين إلى نيكوس:

«يُسعـدنا إذا وافقت على تـرجمة «حياة القـديس فرنسـوا» لجورجنسن، من أجلنا، مع إضافة مقدمة طويلة، أن نتكفّل بإطعامك».

فانكب نيكوس على الترجمة مبتهجاً.

وتدخلت قطتنا سمينثيتسا، ذات الاسم الهوميروسي، في اللحظة المناسبة، هي الأخرى.

كان نيكـوس يشتغل قرب المدفأة الموقدة والقطـة الصغيرة على كتفه. وفجأة سقطت «ربّـة الفئران»[1] أرضـاً، بـلا حـراك. وقف نيكـوس واحتضنهـا وفتح الباب... ولم يستعـد وعيه إلا صباح الغـد على بلاط الممـر، متجمدّاً من البرد، مع صداع رهيب. أما سمينثيتسـا فقد استغرق شفاؤهـا من ذلك التسمّم بأوكسيد الكربون عدّة أيام.

(ايجين) ٢٥ مارس ١٩٤٣[٢]

هذه الليالي أحلم بكوابيس أرى فيها مـانوليس جيورجياديس[٣]. فافرح كثيراً لأنه على قيد الحياة، وأستيقـظ منهكاً. ولو لم تكن سميتثيتسا تأتي فجـراً «وتدق» الباب لما استطعت الاستيقاظ. تأتي وهي تخرّ، وتستكمل نومهـا في فراشي... وهذا أفضل، وأقول لك الحقيقـة: لقــد بــدأت تكتسب تعبيراً بشريــاً وأيقظت في نفسي كل مــا ينتمي إلى

---

(١) سمينثيوس: إله الفئران في «الإلياذة».

(٢) رسالة إلى ايليني ساميوس.

(٣) أعدمه الالمان رمياً بالرصاص، في كريت، مع شقيقيه.

السنّوريات. ومنذ أول أمس بدأتُ أقلّد مواءها المغتاظ، أو الناعم، حسب الظروف. أعتقد أنّ معايشة الإنسان لحيوان ما، في الصحراء، من شأنها أن تحقق تماهياً تدريجياً، فيبدأ الإنسان بالانحطاط، والحيوان بالسمّو، حتى يمحى الاختلاف. بينهما بعد عدّة أعوام. أما الآن فأنا أنتبه إلى اهتمامها بتسلق كتفي ومتابعة ما أكتب! وهي لا تفهم بعد ماذا يجري، لكنها سوف تفهم...

لم يكن يتوجب عليّ مصارحتك بحالة التسمم لأنني نجوت منها. اطمئني الآن. وسوف أنتبه أكثر من أجل راحتك. لكن، يا إلٰهي، ما أصعب الطّبخ! لو كنتُ أطبخ لكِ، أنتِ، لفعلت ذلك بطيبة خاطر. أما أن أطبخ لي وحدي فإنّ ذلك أمر مزعج ومُرْبك. ويا لهول ما أطبخ! تنظر إليّ سمييننثيتسا عندما أقدم لها الأكل، ثم تنحني، وتشمّ صحنها، فتنظر إليّ مجدداً مشتكية ومذهولة، كما لو كانت تقول: «ما هذا، يا إلٰهي! هل هي وجبة؟ لا يمكن أن يرضى بها حتى الكلاب!» ماذا أفعل؟ أحياناً يكون الزيت كثيراً، وأحياناً يكون غير كاف. ولم أنجح حتى الآن في إعداد فطائر بشرية، ولا حتى سنّورية. تتفتّت أحياناً، وتغلظ أخرى، وتصير غير قابلة للهضم... لقد تأثرت كثيراً من اضطرابك إزاء تسمّمي وضعفي. وأراحني ذلك مثل لتر حليب.

بدأ الكاتب الستين من عمره. ونضج فكره، وشاب فُوداهُ، وظل قلبه حنوناً ومعذّباً، مثل قلب طفل:

ايجين، ٢٨ مارس ١٩٤٣(١)

ما ألذّ الهدايا الصغيرة التي أرسلتِ بها اليّ! سأنفجر! لقد تغيرت سحنتي. واليوم انهمكت في المطبخ منذ الصباح... سأتحول إلى خنّوص (صغير الخنزير) ملذّات وأفقد شهرة الناسك وهي أفضل ما أمتلك. توقفي.. أرجوك... لقد تعب الرّسل «لوجه اللّه، يا سيد نيكوس، توسلوا إليّ، قل لها أن تتوقف، لم نعد قادرين!»

ظلّ نيكوس يحافظ على ميله المتمثل في لعب دور وكيل زواج. وكلما لجأ إلينا شاب وفتاة، سعى إلى «جعلهما سعيدين» بحضور الكاهن أو من دونه...

وكتب لي في الرسالة ذاتها:

---

(١) رسالة إلى ايليني ساميوس.

... ستاتي ايلي غداً، ومعها سأستمتع بالطبخ والأكل. قالت إنها تزينت جيداً كي تقابل «ك». تحدثت باستخفاف أزعجني. وإذا لم تنجح في المهمة سوف أحزن كثيراً. فليمدّ الإله يده (أي الإله زيوس في الكوميديا التي أردت كتابتها، والذي فتح وكالة زواج) ويدفع بهما لكن في الاتجاه ذاته، حتى يتّحدا...

أحتفظ بالعسل لك، وللضيوف الذين ننتظرهم.

إنّه الصيف! لقد تفتحت زهور «الجيروفلي» وصار أريجها يتضوع مساء، في البيت، حتى ليختنق القلب. والصبّار الذي تشبه أوراقه أسماك الرّنكة أو شوارب الدّرك، والذي يزهر مرة كلّ اربع سنوات، أخرج زهرة رائعة، وعالية مثل شجيرة. آمل أن تُقبِلي في الوقت المناسب... وأنا الآن أسعى إلى تأخير إزهاره... سمينثيتسا تصطاد الفراشات طيلة النهار. تندفع، ترفع قائمتيها الأمامتين وتمسك بالفراشة. فأخلّص ما أستطيع إنقاذه، وكثيراً ما أرى شواربها مغبرة بألوان اجنحة الفراش.

منذ نهاية ابريل ١٩٤٣ سيطر رجال المقاومة على ثلث مساحة اليونان. وقام الإيطاليون والألمان بغارات دموية عديدة على الأراضي المحررة دون أن يتمكنوا من التحصن فيها. وصار إدّي ميرس ورفاقه يتجولون في سيارة الجيب مرتدين بزّاتهم العسكرية. وأنقل من كتاب أندرياس كيدروس «المقاومة اليونانية في الأعوام ١٩٤٠-١٩٤٤، صفحة ٢٥٤ التقرير الألماني (IC/AO no 2670/43) المؤرخ في ٩ابريل ١٩٤٣:

«... تسجل كلّ يوم أعمال تخريب واسعة المدى، واغتيال جنود إيطاليين. ومنذ نوفمبر ١٩٤٢ بدأت تشكيلات «أندارتاس»[1] متزايدة العدد، تتوغّل في المناطق التي يحتلها الألمان وتهاجم مراكز الحرس للاستيلاء على الأسلحة والذخيرة. وفي منطقة قيادة سالونيك العسكرية وحدها، سجّل، منذ شهر ديسمبر قرابة ثلاثين هجوماً من هذا القبيل! أما عمليات التخريب والقتل فتجري بشكل يومي»...

أما البطولات التي قام بها رجال «الاندارتاس» ونساؤها، والقضاء شبه المبرم

(١) حركة الأنصار.

على الطليان شمالي اليونان، أو انتقامهم مـن السكان المدنيين بطرق وحشية، فقد أخبرنـا بها يانيس مـانغليس الذي تمكّـن من التنقل بحريّـة ومحادثة الضبـاط الإيطاليين، بفضل جوازه الإيطالي. وما لبث الألمان أن تدخلوا في المناطق التي كان يحتلها الطليان وتمكّنت المقـاومة من تحريرها. وهكـذا أحرقت عشرات القرى في أيام قليلـة. وكانت الأخبار تصلنا إلى ايجين ممـزوجة بآمال نـاقليها ومخاوفهم. فيكظم نيكوس غيظه، بعد أن حكم عليه الذين يعتبرهم رفاق السلاح، بالعزلة.

وإذا كان يُظهر مرارته في الرســائل فإنّ أعماله الأدبية لم تتطرق إلى ذلك. يوم ١٠ أغسطس أخبر بـريفيـلاكي بأنـه بـدأ يكتب مسرحيـة جـديـدة: «ثـلاثيـة بروميثيوس»، وكان يحبّ شـهر أغسطس إلى حدّ أنه عاد إلى إحدى أفكاره الأثيرة:

تطويب شـهر أغسطس *قديساً*. وفكّر في صديقنا فوتيس كونتوغلو المتخصص في تاريخ القديسين، كي يختلق له «قديس أغسطس» عامر اليدين بالتين والعنب.

وبعد إنهاء «ثلاثية بروميثيوس»[١] بدأ نيكوس يترجـم «أوديسة» هوميروس إلى اليونانية الحديثة، بإشراف يانيس كاكريـذيس. وكان كازنتزاكي يحثّه خوفاً من أن يترك هذا العمل ناقصاً، كما اعترف: «فيدخل الجحيم بساق واحدة[٢]».

في نهايـة سبتمبر تـوفي، في أثينا، شـاعـران من أفضل شعـرائنا: بـالامـاس ومـالاكاسي وفي مأتم بـالامـاس ألقى سيكليـانوس خطـابـاً حارّاً، أعلن فيـه أن بالامـاس «شاعر قـومي» وتحدّث عن الحرية بحضور المحتلين، وأثـار حماسة الجمهور. أمـا نيكوس فكـان يفضل مالاكـاسي، لأن أسلوبـه أقل فخامـة وأكثر غنائية. وكتب ذلك إلى سيكليانوس، مع شكره على إهدائه قصيدة «ديدالوس»:

ايجين، أول أكتوبر ١٩٤٣

... توصّلْتَ بإلهامكَ الكبير إلى رفع بالاماس نحو السماء السادسة، والذين استمعوا إليك قالوا إنَّ كلمتك كانت رائعة.

(١) عمل مبتكر لنيكوس كازنتزاكي.

(٢) من سوء الحظ أن حدس كازنتزاكي تحقق. واضطر يانيس كاكريذيس إلى إتمام ترجمة «أوديسة» هوميروس، بمفرده.

أقبّل يد زوجتك، إنَّ جمالها، ونبرة صـوتها، وعذوبتها، هي ما ينقص هـذا الشاطىء المقفر.

لم يكتفِ سكان أثينا خلال الاحتلال، بعقد ندوات أدبية وفلسفية فحسب، بل انفجرت في أوج الشدائد معركة وحشية بين المثقفين المحدثين والمثقفين المحافظين عندما تجرأ يـانيس كاكريذيس على نشر كتـاب من دون تثبيت النبرات الصوتية الخاصة باللغـة اليونانية. حـرب النبرات! وها هو ذا علاّمــة هوميروس يُبعد من الجامعة ويُقدم للمحاكمة «يونانيون خالدون في معاداة جنسهم!» همهم نيكوس مغتاظاً.

غير أن الشبـاب وقفـوا إلى جـانب المجـدديـن. وتحرّكت الأقـاليم بـدورهـا واستعدّت...

لم تخلُ رسائل نيكـوس كازنتزاكي، ورحـلاته، من تعلقـه بالمواضيع الكبيرة الخالـدة، في أعماله، ولاسيّما «الأوديســة». ولقد ردّ على حـاييم خـورموزيـوس بتاريخ ٢٤ أكتوبر ١٩٤٣:

... أشعر أن «عوليس» كلما تقدم أكثر، توسعت *ذاته*، مفجرةً كل قالب جديد –الذات، العائلـة، الوطن، العـرق، الكائن البشري، الكـائن العضوي – وأحس أنـه يتماهى مع الوثنة الغريبة الدائمة التي تتمظهر في كوكبنا على شكل حياة.

لقـد أدرك «عوليـس» أنَّ الوثنـة صـارت واعية: اختلقـت لها عينين فصارت تـرى، وأذنين فصارت تسمع، وقلباً، فصارت تتألم أو تفرح...

سألتني، مثلاً، كيف يتصور عوليس مسألة العلاقه بين الفرد والجماعة. ان إجابتي من شأنها أن تحدّ، في نظـري، من نيّة عـوليس، لأنني بـذلك أسجن صرخته في صيغة ضيقة، قد ترضي اليـوم أكثر الناس تقدّماً، لكنها في الغد، أو بعد الغـد، قد تبدو محافظة يتـولى كلّ عصر تأويله... أمـا سرّ كلّ رمز لا يكـون نغماً بل *تناغماً* فيجعل من يتقبلّـه ويـعيشه قادراً على إعطاء كل مشكلـة جوابها الذي تدفعه إليه قـوته حتى بلوغ الذروة. ويمكن لشخص آخـر، أكبر، أن يتقبل الـرمـز نفســه ويعيشه فيقـدّم جـوابـه الخـاص للمشكلة، ومن شأن إجابته أن تكون مختلفة تؤدي إلى الذروة نفسها.

لذلك نجد عوليس، كما قلتَ أبعد ما يكون عن التحـديد العِرقي. إنه مواطن في مدينة الغد (كلّ غدٍ). والتحلي بالنظرة الكريتيـة لا يعني إلغاء الحضارات الغربية والشرقية، أو الاغريقيـة، بل التأليف بينها و إضافـة ما هو جـديد، للتمكن من عيش حياة جـديدة أكثر اتساعاً وبطولة ووعياً. وكما قلت فإن عوليس لا يجوب اليونان وحدها بل *الأرض* كلها. ولكنه ينطلق من اليونان بالتأكيد...

إنَّ عـوليس يشكّل أسطـورة، وهـو ذاتـه الأسطـورة. ومع ذلك تتكسّر كلّ القـوالب ويتلاشى كلّ شيء، لثـوان قليلة، في لحظة توتـر عارم، أثناء أزمة بسرعـة البرق – برق أسود – ألم يفعل بـاندور الشيء ذاتـه، وهو الـذي مجدّ جسد الفتى الجميل والبطـولة الفعليـة، والقيمـة المؤكدة للحيـاة؟ لقـد اعترف، هـو الآخر، بلحظـة الاختنـاق وصرخ صرخته المريعة: «ما الإنسان إلا حلم ظلّ». ألم يصرخ الصرخة ذاتها، كلّ من هوميزوس وسوفوكليس، وهما الأكثر إغريقيـة من كلّ الإغريق؟ كذلك عوليس. إن كلّ روح عظيمة تمرّ بلحظة اختناق لأنها تضيق باكثر المآثر نبلاً، وأشد الأفراح عمقاً، وأشد الآلام عذاباً، وأكثـر المُثُل جـرأة. إذ لا يحتـويها شيء غير *اللا شيء*. فتصرخ صرختها. ثـم تستعيد هـدوءها، وتسترجع شجـاعتها، وتلجم الشيطـان الداخلي وتـواصل الصعود وذلك مـا يفعله عوليس. ينتهي *العدم*، وتكفّ صرختـه العدمية عـن كونها ذروة معـركته. إنها صمام أمـان يفتحه حتى لا يختنق، حتـى يسترجع أنفاسـه، ويخفّ كي *يتشجع من خلال الرعب* ويواصل الدرب الذي اختاره – الصعود....».

١٩٤٤ . غطت سنوات الحرب الأربع ايجين بطبقة مـن الصدأ وكانت الأرض تهيّيء الربيع منذ أربعة أعوام، تحت تلك الطبقة النازية. ويلوح، في السماء، طائر مبشّر بالـربيع الموشك. وإذ يغطي الرعد على صـوته، أحياناً، نلعنـه، لكن الطائر يتابع شدوه. كان الجيران يضبطون ساعاتهم، كل مساء، لدى رؤية كازنتزاكي ذاهباً إلى محلّ ليفاس. ***وكان الفرنسيون يخاطبون الفرنسيين***. وفي الحقيقة كانوا يخاطبون كلّ الاحرار!

وزادت الطلعات الجوية للطائرات فوق جزيـرتنا. لكنها لم تعد تلقي بقنابلها، بل ترشنـا بأوراقها المتطـايرة، والمكتوبـة بأسلوب أفضل من أسلـوب النازيين:

«أيها اليونانيون ابيدوا العدّو! وحتى إذا احترقت قرية بكاملها مقابل ألماني واحد مقتول لا تتردّدوا! سوف نبني لكم قرى أخرى...».

لم ينتظر اليونانيون تشجيع البريطانيين كي يقاتلوا في الجبال وينظموا الاغتيالات في السهول. وإذا كانت الإذاعة البريطانية قد توقفت عن ذكر أخبارهم فليس معنى ذلك أن الخطأ يعود إلى أنصارنا. كان المدنيون والقرويون، الرجال والنساء، يموتون وظهورهم إلى الحائط، أو مشنوقين على الأشجار، أو مدفونين أحياء. ومن الأفضل عدم الإسهاب في ذكر الفظاعات التي ارتكبها البلغار والألمان والطليان في اليونان المحتلّة.

لقد تحولت القرى إلى أكوام من رماد وقتل الشيوخ والنساء والأطفال بدم بارد. ووصف عملاء بريطانيون سريون في مذكراتهم آلام الشعب وتصميمه على التحرّر بكل الوسائل، في آن واحد... إلى أن حلّ اليوم الذي تلقّى فيه الشعب نفسه قنابل الإنجليز وقذائفهم التي جاءت لتقضي عليه في عاصمته...

قبل بضعة أشهر من التحرير، ظلّت المخابز مغلقة في ايجين. لكن الأطفال المصابين والجائعين لم تعد تغطي وجوههم الجراح. وبدأ غابرييل ولتر يوزع عليهم الحساء. وتعامل معهم قائدا الجزيرة، المدني والعسكري، باحترام للحياة البشرية.

ذات يوم اكتشفتُ جندياً ألمانياً متلبساً بالسرقة، وكنّا مقتنعين بأنه المسؤول عن سرقة بيت صديقنا كالموك. فساعدني القائد العسكري في التعرّف على المتّهم. لكنه أخفى غنيمته في بئر، لأنني أعلمته بما سأفعل. ولقد اكتشفنا تلك الغنيمة بعد مرور عدّة أشهر في المواجهة.

وبعد أيام قليلة كنا سنستريح في باحة بيتنا وقت الغروب، عندما انتبهنا إلى صفير غريب.

– هل هو موسم تزاوج الزواحف؟ سألتُ نيكوس غير مدركة الخطر.

– ربما، يا عزيزتي، لندخل، هيّا! كلا، لا تضيئي النّور!...

ولم يكد يجلس على الأريكة، قبالتي، حتى انفجر صوتٌ بلا صدى.

– كأنـه مصراع نافـذة اصطفق بـالهواء، همس نيكوس، ومع ذلك ليس ثمـة مصراع أو هـواء. وكم كانت دهشتنـا كبيرة في صبـاح الغد، عنـدمـا وجدت أنـا وصوفي، إناءً مكسوراً في الخزانة وقد سال المربّى الذي كان يحتويه، وفي المربّى... رصاصـة ألمانية. في البـداية ظننا الأمـر يتعلق بمزحـة ثقيلة، لأن الخزانـة كانت سليمة من جهة المطبخ. لكننا عثرنا في «الستوديو» على ثقب دائري يخترق جدار الخزانـة، وآخر في زجـاج نافـذة تفتح على الشمال الشرقي. هـز نيكوس كتفيـه. وببساطـة عاد إلى الجلـوس في المكان الذي كـان يجلس فيه ليلـة أمس – وكانت الأريكة لاتزال تحتفظ بآثاره. لقد مرّت الرصاصة وكادت تلامس شعره.

كـان الألمان يستعدون للـرحيل عنـدمـا أعلمنا من أثينـا بأن استخبـاراتهم ستفتش الجزيرة، وعلى نيكوس أن يختبىء في أقرب وقت ممكن.

بعد ظهر يـوم سبت، أغلقت القيادة أبوابها، فلمحت القائد العسكـري جالساً إلى الآلة الراقنة، خلف النافذة:

– هر كومندانت، قلت له، زوجي يعاني من مرض خطير. ينبغي أن يسافر إلى أثينا. هلاّ تكرمت، رجاء، بإعطائي ترخيصاً لمدة أسبوع؟

نظر إليّ نظرة ازدراء لا تخلو من طيبـة. وكأنها تقول إنه لم ينخدع. ومن دون أن ينبس بكلمة، بحث عن استمارة وملأها.

– أنصح السيد كـازنتزاكي أن يمـدّد إقامتـه في أثينا أكثر مـن أسبوع. ومن صالحه أن يمكث هناك خمسة عشر أو عشرين يوماً...

جـاء رجال الاستخبـارات النازيـة ورحلوا. ولم يُـزعج أحد في ايجين. وبعـد التحرير كان هناك ألماني أو اثنان مّمـن فضلوا الاستسلام للإنجليز على العودة إلى الرايخ الثالث.

بـدأت عمليات نفـي يهود سالـونيك في مـارس ١٩٤٣. ولقـد وصف اسحق عـروش في الدفترين ٣١و٣٢ من «أرشيف المقاومـة الوطنيـة» كيف نجا عشرون

ألفاً فقط من أصل مئة الف يهودي يوناني، وذلك بفضل جبهة التحرير الوطنية، والشعب اليوناني بوجه عـام، في حين ساهمت فيالق الأمن التي سلّحها الألمان في إبادتهم. وهي الفيالق نفسها التي ارتدّت فيما بعد على بني شعبها.

لقد عاث النازيون والميليشيا اليونانيـة فساداً في البلاد. وأرسل هــ. نيوباخر، الذي عينّه هتلـر مسؤولاً عن العمل السياسي في اليونان، هـذه البرقية إلى القيادة الألمانية:

«من الأفضل إعدام نسـاء وأطفال وشيوخ مسالمين، بـدل التورط في مطاردة عصابات مسلحة وإبادتها حتى آخر رجل».

وهو الأمر الذي لم يمنع القوات النـازية من اعتقال رهائن في أقفاص وجعلهم في مقدّمة قوافلهم العسكرية... أو وضـع فتيات، في كريت، داخل شاحناتهم لجعل رجال المقاومة يترددون في مهاجمتهم..

وصف روجيه ميلياكس[1] الأثينيين، وكان شاهـد عيان، بأنهم أول من قاوم الاحتلال في أوروبا المحتلة. من عسـانا ننقذ من النسيان؟ إلكترا أبوستولو..؟ ليلا كاراياني.. تلك الطالبة الشابة التي تشبثت بالدبابة الألمانية، التي ستسحقها بعد بضـع دقائق، راكلـةً رأس السائق النازي بكعب حـذائها؟.. المرضـات الشــابات الـلائي قُتلن بجـانب مشـوهي الحرب بعـد أن ألقت بهم حكـومـة كيسلنغ إلى الشارع...؟ الفتيـان الثلاثة الـذين استطاعوا بمفـردهم مواجهـة أكثر من مئتي ألماني؟

كم مـرّة عـدنـا إلى ذكراهم «كـي لا ننسى»؟ ومع ذلك كيف نستطيع العيش وإعادة بناء بلادنا إذا لم ننسهم؟

منذ بداية الحرب اصطف ستة أساقفة مـن الكنيسة الاورثوذكسية اليونانية بحزم إلى جانب الأنصار: رؤساء أساقفة خالسيذيك، ايليا، كوزاني، آتيكا، كيوس وساموس. ولقد أعاد التاريخ نفسه. ففي مرحلة مقاومة الشعب اليوناني لإزاحة

(١) ر. ميلياكس: «في مدرسة الشعب اليوناني»، باريس ١٩٤٦.

النّير العثماني، كان هناك أساقفة باركوا الطاغية، وآخرون دافعوا عن الشعب ورضوا بالموت معه. وكان هناك سياسون جيّدون وآخرون سيئون تماماً مثلما كان هناك أصدقاء لليونان طيبون، وآخرون سيئون. فكان كريس وودهاوس عدوّاً لدوداً لجبهة التحرير الوطنية، ومع ذلك اضطرّ إلى الكتابة:(١)

«... بعد سيطرة رجال جبهة التحرير الوطنية وحركة التضامن الوطني على كلّ الأراضي تقريباً، باستثناء طرق الإمداد التي يستخدمها الألمان، استطاعوا مدّ البلاد بأشياء لم تشهدها من قبل: الاتصال عبر الجبال باللاسلكي، والبريد والهاتف. وتمهيد الطرقات، ومدّ شبكة الاتصالات، بما فيها الاتصال بالراديو، إلى أبعد من جزيرة كريت أو جزيرة ساموس حيث كان ينشط رجال العصابات. وتسللت مكاسب الحضارة والثقافة للمرة الأولى. فأعيد فتح المدارس، والإدارات المحلية، والمحاكم، والمؤسسات العامة التي شلّتها الحرب. وافتتحت لأول مرة، مسارح، ومعامل، وجمعيات برلمانية. وبدأت الحياة المشتركة تحل محل الفردية التقليدية التي كانت تميّز الفلاّح اليوناني.... دولة منظمة في الجبال اليونانية!»

وهذا التقدّم تحديداً هو الذي استهدفه، وحقد عليه، أقصى اليمين وعلى رأسه ونستون تشرشل. وهكذا نظر إلى جبهة التحرير الوطنية التي كانت تضمّ بين أعضائها ثلاثين أستاذا جامعيا وستة رؤساء أساقفة، وعدة مئات من القساوسة، وعضوين في الأكاديمية، على أنها منظمة يسار متطرف وتروتسكيين.(٢)

يوم ١٤ أكتوبر ١٩٤٤ تحررت أثينا. لكن ايجين لم تتحرر بعد. إذ تلكّأ الإنجليز المقيمون في الجزر المجاورة. والغريب في الأمر أنهم سرعان ما خالطوا المتعاملين القليلين مع الألمان، حال وصولهم إلى ايجين. ورأى كازنتزاكي ما هو أسوأ من ذلك في كريت.

(١) كريس وود هاوس «أسباب الشقاق».

(٢) انظر برقيات و. تشرشل إلى ف. روزفلت في «مذكرات» تشرشل.

وقبل مغـادرة القائد المدنى ايجين، قـرر عدم إحـراق المؤن والأدوية التـابعة لجيش الاحتلال. واكتفى بإحـراق البزّات العسكـرية. وعندمـا علم سكان ايجين بالخبر السعيد هجمـوا على الكنوز المشتهاة. ونسوا، لشدة ابتهـاجهم، أنَّ مقاعد المدرسة والبلو والكراسي والأبواب، مِلْكهم فحملوها مع الغنيمة الألمانية.

– هيا ، بسرعة، ناوليني كيسيّن فارغين! توسلـت إليّ خادمتنا صوفي، وعيناها تلمعان طمعـاً.. يكفي أن أصل في الوقت المنـاسب حتى تدركي أننـي لست امرأة ناكرة للجميل!

بِمَ ستمـلأ صـــوفي الكيسين؟ بمعلّبـات، ولحم خنـــزيـر مملح، وطحين؟ أم بصحون وأدوات مطبخ؟

– هذه لك! إنَّها أفضل ما تحبّين! قالت لي وهي ترفع الكلفة حينا، وتعود إليها حينا، كلّ هذا لك كيرامو! (سيدتي!).

عيل صبر صوفي وظلت تنتظر ردّ فعلي. وقلبتُ الكيس فإذا بقرابة مائة لفّة من الورق الصحي تتدحرج عند قدميّ!

وكنّا نستعـد لمغادرة ايجين عندمـا عمد الصليب الأحمر إلى تـوزيع «الهدايا» الأميركية على السكـان. آه، ليت السينمائي «بونـويل» كـان معنا آنذاك في مـرفأ ايجين!

نـادى المنادي، على ظهـر حمار، كي يتجمع السكـان أمام الميناء في الساعـة الخامسة مساء حيث سيتم تـوزيع الهدايا بالقُرعة. فمن أيـة نفايات جمعت تلك الهبات؟

كان كل واحد يفتح علبته فيتخلّى عن صمتـه ووجومه ويندفع مبتهجاً وفجأة أعطى أحـدهم إشـارة. وبسرعـةٍ تنكّـر الجميع بتلك الأثـواب: فسـاتين دنتيـلا للحفلات، بدلات على الطـريقة الصينية، قبّعات من ريش، بناطيل صيـد، وأحذية بـالخصوص، أوسع ممـا يجب أو مفـرطـة في الضيق. فتحوّل سكـان ايجين إلى شخصيات غـريبة. وحصلنا بـدورنا على بنطال أخضر وفستـان إغراء، وزوجيْ

«صندل» بقياس تمثال الحرية.

ولم يكد الألمان يغادرون الجزيرة حتى طرق رجال الدّرك بابنا:

– إلى المركز بسرعة! – لماذا؟ – لكي نمزح قليلاً! هيا، بسرعة!

وسدّدا حربتَيْ بندقيّتهما نحوي عندما حاولتُ منعهما من الصعود إلى نيكوس. وبما أن هذا الأخير لم يدرك بسرعة ماذا يُراد منه، رفع أحد الدركيَّيْن نبرة صوته. فصرخت به فاقدة السيطرة على أعصابي:

– عليك أن تكون مهذّباً معه، يا بانايوتي، عامِلْه باحترام وإلا صفعتك!

فانطلق نيكوس مقهقها :

– بل جهزي لهما فنجان قهوة، يا لينوتشكا، إنهما ضيْفان عندنا، ولابد من أداء الواجب. سلكنا طريق ايجين، بين حربتيْ بانايوتي ورفيقه. وكان نيكوس شارد الفكر، وكتاب دانتي الصغير في يده، وأنا منزعجة لهذه المسيرة المحاصرة بحربتيْن.

– هل تخشيان أن نطير فجأة؟ تكلّما، تبّاً لكما! ماذا أصابكما؟

– الأوامر هي الأوامر. وأنتما شيوعيان.

– شيوعيان؟ ماذا، شيوعيان؟

– لا تلعبي معنا، يا سيدة لينيتسا. هل تشاهدين تلك الأضواء، هناك، على قمة الجبل؟ إنهم الشيوعيون. وهم يقتلون رجال الدرك في كل مكان. بالأمس أيضاً قتلوا أخي لذلك أقسمت بدوري أن أقتل كلّ الشيوعيين...

– يا بانايوتي، ألم يسبق لك قتل إنسان؟ – كلا. – ولا حتّى ألماني! – كلاّ: وتريد أن تبدأ بنا؟

مكثنا محبوسَين عدة ساعات في المركز، حتى بدأت أركل الباب بعنف وأصرخ بأقذع الشتائم. واغتظت من نيكوس الذي كان ينظر إليّ مدهوشا، بل شبه مشفق..

في تلك السنة (١٩٤٤) كان نيكوس ينوي كتابة «اكريتاس» وهي ملحمة بيزنطية على طريقة «الأوديسة». لكنها «لم تأت من صلبه» كما يشتهي، فتخلّى عنها. وبعد «كابوديستريا» وترجمة «الأمير» لمكيافلي، كتب مسرحية بيزنطية جديدة بطلها آخر أباطرة بيزنطة الذي مات في ساحة المعركة، يوم استيلاء الأتراك على القسطنطينية في ٢٩ مايو ١٤٥٣.

ولم يتخل عن تفاؤله الدائم فذهب إلى أثينا إثر التحرير مباشرة. وكان أحد مشاريع ج. باياندريو، تخليص سيكليانوس وكازنتزاكي من الهموم المادية. ولقد تحقق الجزء الأول من خطته - إقرار قانون يكافىء جهود الأكاديميين - من دون صعوبات. أما الجزء الثاني بتعيين سيكليانوس وكازنتزاكي عضوين في الأكاديمية، فقد باء بالفشل. وكانت الحرب الأهلية توشك على الانفجار.

وشاهدنا، في ساحة الدستور، مذبحة الجماهير المسالمة. ولاحت آمال الوفاق مستحيلة. وكان مركز القيادة الأنجلو - يونانية موجوداً بـ «فندق بريطانيا العظمى» في الساحة نفسها. كما كان شارع «أصدقاء اليونان» الذي سكنّا فيه مؤقتا، قريباً جداً، على بعد خطوتين، أمام مركز القيادة. وفيه كان أصدقاء اليونان يمطروننا بقذائفهم ورشاشاتهم. فنخاطر بحياتنا من أجل كسرة خبز. وعندما نسأل سائقي الدبابات الانجليز لماذا يطلقون النار على حلفائهم، يجيبون، مذهولين بدورهم، بأن تلك هي الأوامر!

لقد حشدوا دبّاباتهم من أجل مطاردة «الشيوعيين» الذين كانوا يفلتون منهم بالهروب من بيت إلى بيت. فيخرج سكان البيت المستهدف إلى الشرفة أو إلى عتبة البيت: ليس هناك أنصار في بيتهم، وحتى إذا كانوا هناك فقد هربوا عبر الحيطان المشتركة.

- !Sorry يقول أولئك الجنود المهذبون، عندئذ، !Sorry ثم يسددون مدافعهم نحو البيت المجاور.

في تلك الأيام الصعبة، كانت سيدات «أرستقراطيتنا» يوزعن الخبز. وكانت ماري، إحدى بنات أخت سيغريداكي، تعرفُ واحدة منهنّ تُدعى السيدة

ميلاس. فذهبتُ وماري لنصطف في الطابـور. وعندما حلّ دورنا، أنكرت السيدة ميلاس حقّ كازنتزاكي في الأكل.

وجُررنـا أيضاً إلى مركـز الشرطة مع خادمتنـا سولا الجميلة. وهنـاك لزمتُ الصمت. ففي جـزيرتنا كـان الجميع يعرفـوننا. أمـا في أثينا فأعـرف أن الناس يُقتلون بلا تردد. ولقد شاهدت عملية إعدام بلا محاكمة(١) في قلب الشارع، أمام أمهات ورجـال وأطفال مـذعورين. ولا أحـد - ما أجْبَنَنَـا يا إلٰهي! - ارتمى على الضحيـة كي يخلّصها من جـلادهـا. والشيء الوحيـد الـذي استطعتُ فعله هـو الانزواء للتقيّوء...

منذ نشر «الأوديسة» صارت تِيّاً أنيمـوياني تستقبل «جلسات أوديسيَّة» كل يوم سبـت. فيجتمع الأصدقـاء. ويقرأ يورغـوس لولاكـاكي مقاطع مـن الملحمة بصـوت جهوري بينما يتـولى ميخـالي اناستـايسو أو ديمتري أبـوستـوبولـو، والأخَوَان دسبـوتوبولـو التعليق عليها، وينطلق النقاش... وخـلال الاستراحات تقدّم تِيّـاً حلويـات مصنوعة بتين كـريت وعنبها، مـزينة بـالسمسم. وبعد فترة غادرنـا شارع «أصـدقاء اليونـان»، والتجأنا إلى ياني وتيّـاً أنيمويـاني. فصار الأصدقاء القدامـى والجدد، الشباب والمسِنّون يقبلون لزيارة شاعـرهم العزيز، لمدة قاربت العام. وأحيانا يقوم أحـد الحضور ويغادر في أوج الجلسة. وغالبا ما يكون شاعراً حديثاً، مـن دون أن يكون سيئا أو رديئاً. وكان نيكوس يحترم رأي تلامذة إليوت الذين وجدوا الأوديسة» «مضادة للحداثة». فلا يكره عناد الشاب، خصوصاً أنه يحبّهم.

وكان هناك نوع آخر من الاجتماعات في بيت تيّا: اجتماعات *مصالحة* سياسية. إذْ كان الشيب والشباب يـأتون للتحاور حول مستقبل اليونـان، المقلق. وسوف تتمخّض تلك الاجتماعـات، سنة ١٩٤٥ عن «الرابطة الاشتراكيـة العمالية» التي سوف يترأسها كازنتزاكي.

ما زال الإنجليز والألمان يتجوّلون في كـريت. ولقد استولى الإنجليز على كلّ ما

(١) قام أحد رجال الميليشيا بإعدام رهينة رمياً بالرصاص، صائحاً إنه .... بلغاري!

تركه الألمان بسبب ضيق الوقت، لدى انسحابهم. أما الألمان فظلّوا يتجولون بأسلحتهم. فكلفت الحكومة أستاذين من جامعة أثينا، هما يانيس كاكريذيس ويانيس كاليتسوناكيس بالذهاب إلى كريت صحبة نيكوس كازانتزاكي والمصور ك. كوتولاكي، من أجل إعداد تقرير حول آلام الجزيرة الشهيدة أكثر من مرّة.

تشانيا، ١١ يوليو ١٩٤٥ (١)

حبيبتي لينوتشكا،

مرة أخرى في تشانيا! تعطلتُ سيارتنا، ونسعى، بصعوبة، للحصول على إطارات للعجلات، أو على سيارة أخرى من الإنجليز... استعرنا أمس سيارة المطران. وطفنا ببعض القرى.

آلام كريت فظيعة. في إحدى القرى لم تستقبلنا سوى النساء، وكن يرتدين السواد، لأنّ الرجال أعدمهم الألمان. وهناك قرى مدمرة بكاملها، ومحروقة. ولا يمتلك السكان شوكة أو كأساً، أو ثياباً، أو نبيذاً. ويبكون لأنهم لا يستطيعون أن يقدموا لنا شيئاً. القلب يتحطم...

.... لم نحصل على سيارة بعد، وعذابنا شديد. ربما ارتحلنا غداً باتجاه ريثمنوس.

هيراكليون، ١٩ يوليو ١٩٤٥ (٢)

أنا الآن في هيراليون ، السيارة متعطلة مرة أخرى، ويجري تصليحها. وهكذا لن نقوم بجولة اليوم...

تغيّرتْ هيراكليون: أنقاض، بيوت آيلة للسقوط، سكان جدد، والذين كنت أعرفهم، مُنهارون أو موتى.... أجوب ذكريات مُرّة ولا أشعر بأدنى فرح. يصعب تأليف كتاب عن كريت لأنني أحسّ بالاختناق... هذه الرحلة مأسوية، جدّ منهكة...

هذه الأسطر التي كتبها نيكوس على ركبتيه لا تشكل جزءاً من ألف، مما شاهده في كريت. ولقد جاء التقرير الذي أعده بمشاركة الأستاذين كاكريذيس وكاليسوناكيس، في صفحات كثيرة. وكانت الصّور لا تطاق. فعلى كل باب في القرى التي مرّ بها الألمان، يوجد صليب أو أكثر، باللّون الأسود. وأحياناً تكون

---

(١) و(٢) رسائل إلى ايليني ساميوس.

هناك أربعة صلبان أو أكثر، بعدد الرجال الذين أبادهم النازيون.

«كان لي خمسة أبناء، قالت إحدى النساء المسنّات. ولم يبق لي لي أحد – لماذا قتلوهم؟ لأنني أخفيت الإنجليز – ولماذا كنتِ تفعلين ذلك؟ – لأنني كنت أفكّر في أمهاتهم...»

وفي موقع قرية أخرى لم يتبقّ سوى رماد سطّحتْه البلدوزر، وصليب خشبي: «هنا كانت توجد قرية كاندانوس التي مُسحتْ لأخذ العبْرة».

كم كاندانوس – أورادور[1] شهدت كريت؟ ولماذا عمد الإنجليز إلى منع أصدقائهم من كشف ذلك؟ إذْ بذلوا كل جهودهم لإعاقة عملهم. سيارات؟ لقد كان عندهم الكثير، لكنهم بخلوا بها. وفي المدن الكبرى شعر الرجال الثلاثة بالغضب والقرف أمام الغطرسة التي كان الألمان والإنجليز يتبادلون بها التحية برغم أنوف السكان البائسين الحزانى...

إنَّ عملية خطف جنرال نازي برتبة ثانوية – الجنرال كريب – والتي خطط لها ونفّذها عميلان إنجليزيان بمساعدة أنصار كريتين، لم تخدم الكفاح التحرري في شيء، بل قدمت مبرراً للنازيين كي يدمّروا القرى التي مرّ بها الخاطفون. ولقد اصطحب كازنتزاكي واحداً من الأنصار الخاطفين وتجولا في القرى التي دمّرها الهيجان النازي. وفي كتابه الذي ألّفه في كمبريدج سنة ١٩٤٦، وصف رحلته في كريت، كما رواها لي بصوته:

... بدأت الظلال تتمدّد. وصل مانوليوس وكوسماس ونُويمي إلى أول قرية. فدخلوا. كان هناك بيت، أو بيتان سليمان. ومن بين الأنقاض ظهرت نساء يرتدين أسمالاً، ورمتهم فتاة بفزْع حبق: «مرحباً بكم!» صاحت:

– هي ذي القرية الأولى التي مررنا بها، قال مانوليوس. نحن مسؤولون عن مصيرها. فليغفر لنا الرب! وصل الألمان بعد بضعة أيام، جمعوا النساء وحبسوهم في الكنيسة، ثم جمعوا الرجال في ساحة القرية «هل مرّ الأنصار من هنا مع الجنرال؟ –

---

(١) مجزرة ارتكبها الألمان في فرنسا (المترجم).

نعم. – في أي اتجاه ذهبوا؟ – لا نعرف. – تكلموا و إلا قتلناكم كلّكم! – لا نعرف!» عندئذ اختاروا أربعين رجلاً من بين الأقوياء وأخذوهم إلى المقبرة حيث صفّوهم إلى الجدار... ومرّ رجل أحدب، قصير، بائس، ونحيل. فخاطب الألمان: « أخجل من العيش، أنا الأحدب، في حين سيُعدم هؤلاء الأقوياء. اقتلوني واعفوا عن أحدهم.» فقهقه الألمان وامسكوا بالأحدب القصير وضمّوه إلى الأربعين....

بلغوا الآن ساحة القرية: المقاهي المحيطة بالساحة، والكنيسة، والمدرسة كلها أنقاض. اجتمع الفلاحون: كلهم مسنّون، وحضرت بعض النسوة أيضاً فوقفن وراء الرجال. رفع شيخ بارز العظام، قبعته، وتقدّم الآخرين لأنه أكبرهم – لا نملك كأسا حتى نسقيكم إذا كنتم ظمآنين، لا نملك خبزاً حتى نطعمكم إذا كنتم جائعين... لا نملك شيئاً، شيئاً، شيئاً!

– لايوجد حتى رجل تتحدّث إليه، قالت إحدى العجائز، انظروا لا يوجد إلا شيوخ وعجائز.

– هؤلاء هم الرجال الوحيدون الذين تبقوا لنا، قالت عجوز أخرى مشيرة إلى بعض الصغار الذين كانت أمهاتهم يرضعنهم. إذا مات هؤلاء تتلاشى القرية.

– ألم يقدّموا إليكم حديداً وآجراً، منذ ثلاث سنوات، حتى تتمكنوا من إعادة بناء بيوتكم؟ سأل كوسماس.

هزّ كبير القرية رأسه:

– ومن الذي سيقدم لنا ذلك؟ ومن الذي سَيَبْني؟ ننام في الكهوف شتاء، وبين أنقاض بيوتنا صيفاً. لم نعد قادرين على التحمّل. اتركونا بسلام!

ثم التفت نحو مانوليوس:

– فليجازك الله بالمثل يا مانوليوس، قال.

– قمتُ بواجبي نحو الوطن، أجاب مانوليوس بهدوء . كانت الحرب.

– فليجازك الله بالمثل، كرّر الشيخ.

– حتى الحرب تأتي بمشيئة الإله، قال مانوليوس.

– البيت والأطفال والزوجة يأتون أيضا بمشيئته، يا مانوليوس. في ذلك اليوم قتلوا

طفليّ، وأنت تعرف ذلك، في ذلك اليوم احرقوا زوجتي، عفوك إذا قلت كلمة زائدة...

... بلغوا الآن سهلاً صغيراً مقفراً. بعض السنابل بدأت تصفَر. وهناك قليل من زهور شقائق النّعمان المتباعدة ظلت محافظة على بذورها. كوخان أو ثلاثة تحت أشجار الزيتون، ونساء يوقدن النار لإعداد الأكل، والهواء يعبق برائحة عيدان الكروم المحروقة... مرّت عجوز قصيرة القامة، حافية القدمين، رازحة تحت حمل من الحطب:

– مرحبا بكم يا «أفَنْديكا»! قالت، ثم توقفت كي تتفرج مذهولة على المشهد ثلاثة كائنات بشرية تمرّ أمامها.

– كيف حالك، يا كيرا؟ سألها كوسماس. كيف تعيشين؟

– كما تعيش الكلاب، يا بنيْ! أجابت. هل أنت كريتي؟

– نعم.

– إنني أباركك! انجبْ أطفالاً، لقد فرغتْ كريت. انجب أطفالاً حتى لا تختفي كريت من وجه الأرض. فنحن نحتاج إليها...

أخرج مانوليوس من حزامه كيس التّبغ ولفّ سيجارة.

– المسكينة كونستانتينيا، كان لها أربعة أبناء، أقوياء... الأربعة التحقوا بالأنصار... ذات يوم سبت، صباحاً، نزلوا إلى القرية للاحتفال بعيد الفصح مع أمهم، ليلاً. مع طلوع الفجر، وصل الألمان، فدخلوا إلى بيتهم، واعتقلوهم.. ارتمت أمهم على قدمي الضابط الألماني. فشرع يضحك:

– اختاري واحداً من الأربعة، قال، ولن أقتله.

نظرت الأم إلى أبنائها الأربعة مرتجفة. مَنْ تختار؟

– أماه ، قال ابناؤها العزّاب الثلاثة، اختاري نيكوليس. إنه متزوّج، وله عائلة. لكن نيكوليس اغتاظ: أنا أنجبت اطفالاً، قال، ولم تَضِعْ البذرة. فليعش واحد منكم، أنتم الثلاثة، ويتزوج، وينجب أطفالاً بدوره. وطفقوا يتعاركون، كلّ واحد منهم يريد إنقاذ الآخر. وسرعان ما ضاق الضابط ذرعاً فأمسك بالعجوز وألقى بها في الحفرة، ثم رفع يده وأصدر أمره فهوت السرْوات الأربع وغطت الباحة...

تَقَدّمُوا من دون كلام... اجتازوا السهل، ولاح شِعْبٌ في الجبل، فولجوه.

– هي ذي القرية! قال مانوليوس.

نظر كوسماس فلم يستطع تبيّن شيء، سوى أكوام حجارة فوق أكوام حجارة، على منحدر التلّة...

نطّ كلبان أو ثلاثة من بين الأنقاض. فارتفع النُّبَاح. وكان الليل قد خيّم.

– لا أرى نوراً، قال كوسماس.

– من أين العثور على الزيت، من أين العثور على النفط؟ أجاب مانوليوس. هنا، عندما تغيب الشمس، تختبىء الكائنات البشرية بين الأنقاض، تأكل وتنام من دون ضوء، مثل الطيور الكواسر.

لاحت خمسة أو ستة وجوه، وراء الحجارة.

– مرحباً بكم! مرحباً بكم! إلى أين أنتم ذاهبون؟

– إلى بيت العجوز سورميلينا، أجاب مانوليوس. فهي التي ستؤوينا.

– هل جلبتم معكم بعض القوت؟ سأل صوتٌ مناكف.

– نعم.

– إذاً سوف تأكل العجوز سورميلينا أيضاً. فهل جئتم بما تتغطّون؟

نعم.

– إذاً في إمكان العجوز سورميلينا أن تتغطّى أيضاً، قال الصوت مجدّداً، فارتفعت الضحكات والقهقهات من وراء الحجارة.

– إنهم يضحكون، هنا. قال نويمي. ألم يتعذبوا؟ أم تراهم قهروا الألم؟

– في البداية بكوا، أوضح مانوليوس، ثم أدركوا أنَّ البكاء لا يجدي نفعاً، ففضلوا الضحك...

عرض سوفوليس، الذي عين رئيس وزراء، على كازنتزاكي أن يشارك في حكومته كوزير من دون حقيبة. وكان ينوي من وراء ذلك إيفاده إلى الولايات المتحدة والمكسيك وإنجلترا للمطالبة بإعادة إعمار اليونان. وسمح له باختيار معاونيه. وسرعان ما فكر نيكوس في انجيلوس سيكاليانوس، ذلك الرجل الأقدر

على إقناع مستمعيه. وكـذلك آنّا زوجته. ومن أجل التمكن من مـرافقة نيكوس إلى الولايات المتحدة، وخدمة القضيـة المشتركة من دون تعقيدات غير مجدية، قررنا، بعد ثمانية عشر عاماً من المعاشرة الحرّة، أن نتزوج.

وبدأ نيكوس الوزير، يعمل بضراوة.

(أثينا) الثلاثاء (١٩٤٥)[1]

لا أستطيع وصف التعب والعذاب اللذيـن أتكبدّهما... ارتموا عليّ كلّهم، كي أوفر لهم منـاصب... فأتّصِلُ بـالرئيس، وأركض وأصـارع – وفي الـوقت نفسـه أجمع الوثـائق لأمريكا: دراسـات، مقالات، صور، أفلام عن المجاعـة، الخ... وكثيراً ما أغادر بيتي[2] في الصباح، منـذ السابعـة والنصف – من دون أن أتناول شيئـاً في بعض المرات لأن أختي بالمصادفة تأخرت – ولا أعود إلا في منتصف الليل. كلّ الأصدقاء يلاحقونني بإلحاح وأنا أبذل ما في وسعي.

... هناك آلاف الاشخـاص البارزين يطلبـون المساهمة في المهمّـة. وأخشى أن تصير التشكيلـة رديئـة إذا لم يتـدخل رئيس المجلس. كثيراً مـا أقـابلـه لبضع دقـائق فقط، ويعدني دائماً بإعطائي ساعة من وقته....

وثمـة كتّاب كثيرون يتمنّـون الانخراط في الاكـاديمية، ويـرغبون في الحصـول على ميداليات، ومكافآت، ومناصب ومهـامّ، فيركضون ورائي ويكلفونني برغباتهم وآمالهم. وكالعادة أتعب كثيراً لأنني أتبنّى رغباتهم وأعتبر كلّ فشل إخفاقاً شخصياً.

لديّ الكثير مما أقوله لك، لكنني متعب. انجيلوس بدوره... منهك. ما أصعب العيش مع الناس...

توثقت الصـداقة بين الشاعريـن خلال أيام الحرب الأهلية السـوداء. وعاش الزوجان سيكليانوس مأساة مريعـة: إذ قُتلتْ شقيقة آنّا. ببلاهة، في أحد شوارع أثينا.

---

(١) رسالة الى ايليني ساميوس كازنتزاكي.

(٢) كان نيكوس، آنذاك، يسكن عند أخته الصغرى، هيلينا، أما أنا فقد عدتُ إلى ايجين.

(بلا تاريخ)

أخي انجيلوس،

لا يمكن وصف ما يحدث: سوف أزورك قريباً ونتحدث. أعيش بدوري كلّ آلام عرقنا، لكنني آمل أن تنتهي المأساة في غضون أيام قليلة – فصلها الأول على الاقل.

كن معافى، ولن أخشى شيئاً. «ن».

وعندما يكون كازنتزاكي في الوزارة، كثيراً ما يرجوه سيكليانوس أن يتدخل لإنقاذ أبرياء من المجاعة المتفشية في البلاد. فيسرع نيكوس إلى إجراء ما هو ضروري:

أخي انجيلوس،

سوف أبذل قصارى جهدي، وأحاول مقابلة الرئيس إذا أمكن، سوف أكتب له رسالة حارة، لأنني أدرك مدى دناءة الواشين وظلمهم.

إننا نمرّ بأيام سوداء. وأنا أكافح بلا هوادة لإنقاذ الأبرياء، ولا أدري بعد ما هي نتائج تدخلي. ليحمك الله؟ إني أفكر فيك كل الوقت. يتوجب علينا أن نعمل كثيراً. جنسنا في خطر...



إرخاء القلوس (×)

1957 - 1946

(×) حبال السفينة



بدأت سنة ١٩٤٦ بداية سيئة بالنسبة لليونان، لكنها حملت لنا خبراً سعيداً: راحيل مازالت على قيد الحياة! إذ استطاعت النجاة من النازيين في فرنسا. وعلى الرغم من العيش مثل حيوان مطارد، فقد تمكنت من العمل، وتأليف كتاب جميل، وإنقاذ أطفال يهود من الأيدي الإجرامية.

أثينا، ١٠ يناير ١٩٤٦[(١)]

تلقيتُ رسالتك وكتابك «ديونيزوس»... وقرأتهما بلهفة. مازلنا نعيش يا راحيل، ويمكننا أن نتعذّب.(٢) Gott sei dank! ما شاهدته وسمعته وتعذّبت بسببه، أنا أيضاً، خلال الأعوام الحمراء والسوداء الأخيرة، لا يمكن أن تعبّر عنه الكلمات. وحده الفعل العنيف يستطيع ذلك.

عزيزتي العزيزة راحيل، عندما أفكّر فيكِ، تلوح لي الحياة لُغزاً ذا عينين سوداوين واسعتين، سوف تظلين معي شعلة عنيفة صامتة، حتى آخر بريق في حياتي. مباركة هي المادة التي طوقت تلك الروح وحبستها وأعطتها شكلاً ملموساً يُدعى راحيل!

أمّا إلسا فلم تظهر إلا بعد ستة أعوام. وكنا قد توقفنا عن الأمل. إذ اعتبرنا «المرأة الصغيرة الصامتة» اختفت إلى الأبد خلال القصف الجنوني على دوسلدورف، أو في أحد معسكرات الاعتقال النازية... لكن النبأ السعيد فاجأنا ذات يوم. كانت لاتزال تعيش، ووعدتنا بزيارة. ومن المستشفى كتب إليها نيكوس، على الفور:

أوترخت ٢-١٢-١٩٥٢

عزيزتي، عزيزتي، عزيزتي إلسا، لماذا تركتني في يأس تلك الأعوام الطويلة السوداء؟ لم أعد قادراً على التفكير فيك لأن الألم كان لا يطاق.

لحسن الحظ أنك مازلت موجودة على وجه الأرض، أنتِ وزوجك ودوروتي! أنا أيضاً مازلت هنا! أعمل، وأشعر بالفتوّة، ويتجدّد الكون، كلّ صباح، أمام عينيّ السوداوين النّهمتيْن. ومازالت ايليني هنا، بجانبي دائماً، متفانية، وفيّة. كم كانت الآلام كثيرة غير

---

(١) رسالة إلى راحيل.

(٢) بالألمانية في الأصل: شكراً للربّ (المترجم).

أنّ كلّ شيء انتهى ومازال القلب خالداً.

لا أستطيع اليوم أن أكتب لك أكثر، إنّ فرحي عارم.. عزيزتي، عزيزتي، عزيزتي إلسا، مرحباً بك!

نيكوس.

لو كان الأمر يتوقف على نيكوس وحده لرفض رؤية كلّ النساء اللائي أحبّهن من قبل. وهو يعترف بذلك ويـذكر لنا الأسباب في رسائله. فنجـده يتنازل باسم الصـداقـــة ويفعل المستحيل حتى لا يعكّـر الصــــورة الأولى التي يحتفظ بها في داخله.

في باريس توصلت راحيل إلى إنقاذ نفسها بالضحك. وفي صالون السيدة بييو الواسع، كـانت راحيل الحيويـة، المكّورة، تنفجر ضـاحكة وهي تـروي طرائف حياتها في السنوات الأخيرة: المشردون اليهود الذين كانوا يثورون لأن الأكل يُقدم لهم في جفنات، الفتيـان الذين يعقـدون محكمة لمحاكمـة أحدهم... وكـان يمكننا البكاء، لكننا نضحك، وعينا راحيل تلمعان فتمدّان جسراً على الهاوية...

مع إلسا، كان الـوضع مختلفاً. لقد جاءت إلى أَنتيب مع زوجهـا، وابنتها «هبة الإله» فلم تكد تتمكن من رؤيـة نيكوس، لأنه أصيب، خلال زيـارتها، بحساسية شوهت شكل شفته مرّة أخرى.

فكانت «المرأة الصغيرة الصـامتة» تأتي، برقّتها المعتـادة، لتجلس على «مقعد فولتير» بينما يختبـىء مضيفها في أبعـد مكان ممكن، منـزوياً في أريكتـه، وتبدأ بطرح الأسئلة وانتظار الأجوبة، في الظلام.

كـانت الرؤيـة شبه متعـذرة والصـوتان يتلمّسـان ويتقدّمـان مستكشفَيْن التفاصيل والـذكريات. فتمرّ السـاعات وتقوم قرون الاستشعـار لدى الأعمَييْن بدورها، بينما يزهر القلب بمستقبل ممكن.

هناك أعـوام مثل قذائف الطربيـد البحرية التي تصيب مـراكب البشر الهشة

ويمكن لتوجيه الدفّة أنْ ينقذ السفينة. غير أنَّ القبطان الجاهل أو الجشع بفضل الإعلان عن الغرق. فينادي دماره وقد أعماه بريقُ ربحٍ قصير المدى.

لقد اتّخذتْ سنة ١٩٤٦ شكل ذلك الطربيد. ولم يكن الشعب قادراً على رؤيته. أما القادة القادرون على ذلك فكان بعضهم عاجزاً أو جباناً، في حين نظّم البعض صفوفه من أجل القرصنة التي تنشط عقب غرق السفينة.

ظلّ كازنتزاكي يراقب، ويثور على عجزه الشخصي وعجز أصدقائه الاشتراكيين الذين يترأسهم شرفياً. يقيناً هو ليس رجل سياسة. فلماذا لا يسلك طريق الزعيم الروحي؟

يعود السبب إلى كونه لم يتوصل، في داخله، إلى العثور على الأسطورة الجديدة التي بحث عنها طيلة حياته. ولم يعرف ماذا يقدم لذلك الشعب الذي يحبّه، والذي تتأهب طبقة فاسدة وكاسرة لاستغلاله بلا رحمة. فهل يحق له الكشف عن نتيجة زهده: «من يقفز إلى النار لا يمتلك سوى صرخته ملجأ»؟[١] أم يتوجب عليه، كما سجَّل في دفاتره، أن يبشر بمثل أعلى يفوق قدرات الإنسان دائماً، من أجل إيقاظ القوة الصوفية، والتوتر المؤلم والخصب، للروح النازعة إلى المستحيل؟

ولمّا أدرك عدم جدواه، فكّر في الاستقالة. ولقد أتيحت له الفرصة في وقت أقرب مما كان يتصور، بفضل جنرال إنجليزي ضرب بعصا خيزران على الطاولة.

كانت حكومة سوفوليس مجتمعة بكاملها للتصويت على قانون يعود، بموجبه، أفضل الضباط الفينيزيليين إلى صفوف الجيش بعد أن استبعدتهم دكتاتورية ميتاكساس والاحتلال الأجنبي. وأجمع الوزراء اليونانيون الأربعون على ذلك. لكن الجنرال الإنجليزي «سكوبي» فرض حق النقض ضارباً الطاولة بطرف خيزرانته.

وبعد بضعة أيام، استقال كازنتزاكي.

---

(١) رينيه شار.

يوم ٢٥ مارس، عرض المسرح القومي مسرحية «كابودستريا» بمناسبة العيد الوطني وبكى العديد من المشاهدين في القاعة. وكان المدير الجديد للمسرح كاتباً شابّاً: هو يورغوس ثيوتاكيس. غير أنَّ تلك الفرحة لم تلبث، كما جرت العادة، أن عكّرتها حملة معادية شنّها مغتابو نيكوس.

ألّح أصدقاء نيكوس كازنتزاكي على ترشحه لجائزة نوبل هو أيضاً. وفي تلك الحالة أيضاً، كان نيكوس استثناء للقاعدة. وبصفته رئيس «جمعية أدباء اليونان» فقد وافق، قبل ذلك ببضعة أسابيع، على قرار الجمعية نفسها ترشيح سيكليانوس لنيل جائزة نوبل. لذلك لم يشأ القيام بأي تحرك من شأنه أنْ يعرقل نجاح صديقه. وطلب من تيّا أن تمدّه بأدبيات الأكاديمية السويدية للتمعّن في دراسة المسألة. ذلك أن الأدب اليوناني غير معروف جيداً في الخارج، وحظّه في النجاح أقل من حظوظ البلدان الأخرى. ففكر نيكوس في الجمع بين الاسمين[1] كي تتاح فرصة نجاح أوسع لليونان. وقبل إجراء أية خطوة اتصل بسيكليانوس ليعرف رأيه. فتحمس الأخير للفكرة: «وهكذا أضع التاج على رأسك بيديّ، قال مازحاً، وتتوّجني أنتَ ايضاً».

استعدت جمعية الأدباء لترشيح كازنتزاكي. لكنه طالب بتسجيل شرط ضروري ضمن الترشيح: «لن يقبل كازنتزاكي الجائزة إلا اذا قسّمت بينه وبين الشاعر الكبير أنجيلوس سيكليانوس».

وسافر إلى لندن مرتاح الضمير حيث كال المدائح لسيكليانوس في إذاعة الـ بي.سي.سي. بعبارات حماسية، معتبراً إياه من أكبر الشعراء. غير أن أصدقاء صديقه شنّوا حملة وشاية وثَلْب ضد الرجل الذي لا يرقى الشك إلى نبله وطهارته.

قبل سفره إلى انجلترا[2] عاد كازنتزاكي إلى ايجين ليتأمل حصيلة إقامته في أثينا: إن السياسيين مسطّحون وقصيرو النظر، ولا يمكنهم أن يشكلوا بديلاً.

---

(١) ترشح مزدوج ومطابق لقوانين الاكاديمية السويدية التي تجيزه.

(٢) بدعوة من المركز البريطاني.

ولعلّ هذه، هي مهمة مثقفي العالم.

لندن، فندق سانت جيمس كورت،[1]
بيكنغهام غيت، مينستر هاوس
غرفة رقم ٢٩٦
٩ يونيو ١٩٤٦

... وصلت ليلة أمس. كانت السماء تمطر. لا أحد في المحطة. ملايين الزائرين[2] في لندن للاحتفال بالأعياد. يستحيل العثور على فندق. حملت حقائبي في الظلام ولعنت الساعة التي غادرت فيها ايجين. وفي النهاية اقتربت من شرطي[3] وفسرت له وضعي. اصطحبني وشرع يتلفن. كان سكران، لكنّه يتحلّى بالشهامة. كانت يده ترتعش فيخطىء في تركيب الأرقام... ذهبنا إلى المركز فوجدنا موظفاً أعلى رتبةً، لكنه كان ثملاً بدوره، لأن اليوم هو عيد النصر. فصار يخبط التلفون ويسبّ مقتنعاً أنَّ الخطأ خطأهم. ثم وصل رجال شرطة آخرون، أقلّ سُكراً، وتمكنّا في نهاية المطاف من الاتصال بالمركز البريطاني...

جناح ملكي، خمس حجرات، كلها لي، مكتب صغير، مكتب آخر كبير، الخ، الخ...

كل شيء باذخ، من حرير أو ذهب... في الصباح فطوران[4] لي وحدي. يصلان حتى غرفتي، الخ. لكن، ما من فرح. اليوم، الأحد، خرجت إلى الشوارع، تسكعت ساعات. كل شيء مغلق، لم أقابل احداً... اشتريت صحيفة «التايمز». فرشتها على ركبتي وتذكرت الأيام التي قضيناها معاً في ستراتفورد، قرب المدفأة. الجوّ داكن. أتلهّف للإحساس بشيء ما.

خرجت بعد الظهر للتنزّه. مطر خفيف. جموع في الشوارع، مع أبواق وأعلام وزينة (مازال الاحتفال بعيد النصر مستمراً) أزهار جميلة... زرت الرواق الوطني للفنون[5]

---

(١) رسالة إلى ايليني ساميوس كازنتزاكي.
(٢) بالانجليزية في الأصل Visitors (م)
(٣) بالانجليزية في الأصل Policeman (م)
(٤) بالانجليزية في الأصل Breakfast (م)
(٥) بالانجليزية في الأصل National Gallery (م)

فرحاً برؤية اللوحات التي أحبُّهـا، مرة أخرى. لكن ذلك النوع من الفرح لم يعد يكفيني فعـدت حزينـاً، إلى شقتي الباذخـة. في منتصف النهـار جيء لي بطعـــام متنـــوع، في طبـــق فضّي واسع. وهكذا دواليك. ولو كنتِ هنـا لاكتسب هذا البذخ غير المجدي مـذاقاً آخر... أفكّـر في تأليف كتـاب بعنوان: Post-war Conversations... سأجري اتصالاتٍ ابتداء من يوم الثلاثاء...

في السـاعة الحاديـة عشر جاءت امـرأة من المركز البريطـاني... فذهبنـا للبحث عن صيني، وتشيلي، وبلجيكي، وامـرأة إنجليزية، يستضيفهـم المركز، ثم ذهبنـا بعيداً، إلى الأرياف ونـزلنا في فنـدق من العصر الوسيط، حيث تنـاولنا شراب التفـاح ثم العشاء. مجتمع أليف، مرح، لكنـه سطحي. ما من فرح. الريف الإنجليزي رطـب، ناعم، أنثوي. المطر خفيف والهواء ثقيل، له رائحة قبر حديث النبش. تذكرت هيلين س.(٢) مرّة أخرى فانقبض قلبي.

سأبدأ بالكتابة غداً... ولعلّني بذلك أتمكن من طرد الضجر. متى أستلم رسالة منك؟ فمن شأنها أن تغير نظرتي لإنجلترا...

خيّم الظلام الآن، وعـدت إلى شقّتي، أضأت الشمعدانات. جاؤوا لإسـدال الستائر ثم تابعت الكتابة إليك. أين أنت؟ كيف حالك؟ ... تشجعي يا Mitkampferin (٣) الحبيبة. العالم محتمل، وأحيـاناً رائع، مادُمنـا معاً. لو لم تكـوني لمتّ ألف مرّة. لأنني مللت بني البشر.

(لندن) ١٣ يونيو ١٩٤٦(٤)

سأتحدث بعـد بضعة أيـام إلى الإذاعـة البريطانيـة. الإنجليـز يخدمونني بمـودّة، وينقلونني بـالسيارة، ويرسلـون لي تذاكر للمسرح. اليـوم سأشاهد عـرضاً من أعمال وايلد. وغـداً، رقصات من جاوا، ويـوم الاثنين، باليـه إنجليزياً... وسـوف ألتقي شارل مورغان أيضا، وأحدّثه عن ترجمتك...(٤)

منتصف الليل - عـدت من حفل استقبـال عنـد سـالسبري (موظف سـام في المركـز البريطاني) وهناك التقيت صـديقة رُوزا الذائعة الصيت، الأرجنتينية دونيـا فكتوريا،

(١) صديقة شابة لنيكوس كازنتزاكي، ماتت بشكل مفاجيء.

(٢) بالألمانية في الأصل: يا رفيقة النضال (المترجم)

(٣) رسالة إلى ايليني ساميوس كازنتزاكي.

(٤) كنت أترجم «الينبوع» لشارل مورغان، إلى اليونانية.

وتحدثنا مطولاً عن الماضي. جميلة، ثرية، متصنّعة قليلاً في البداية، لكنها ذكية. وضعتُ الأسئلة التي سأطرحها على المثقفين الانجليز...

١٤ يونيو[١]. المطر يهطل من جديد. سماء غائمة... جوّ خانق. سأذهب بعد الظهر لمشاهدة الرقص الجاوي.

مساء . رقصات جاوية جميلة جداً. ليست مثيرة جداً. لكنها جميلة، مطبوعة باللّطف والحشمة. تمطر مرّة أخرى. برد. قرّرتُ إطلاق نداء إلى «أممية الروح». ولعله يبرر وجودي هنا..

[٢] .... لندن حتى الآن لم تبعث فيّ أي فرح. لا يمكن أن تسعدني إلا بعض العروض الكبيرة، افريقيا، الأنهار، النمل في الغابات، القطعان، الأسماك في ايسلندا، بينـاريس بغداد. لم تعد أوروبا قادرة على إثارة قلبي.

أفكر دائماً بتأثر وحنان لا تشوبه شائبة. وإلا كيف أنسى، بأي نبل ووفاء، تقفين إلى جانبي، وتقاتلين مثل أثينا بروماكوس ذات الخوذة اللامرئية والحرْبة المزدوجة، والتي تنزل فجأة في الأشعار الهوميرية وتهرع لنجدة البطل المعرّض للخطر. فيشعر البطل بحضورها في قلبه فيخشى الانهيار خشية الموت.

لا يستطيع المثقفون هنا أن يقدموا شيئاً لرجل خبر العذاب وفكّر كثيراً وكافح. إنّهم يلوحون لي تبسيطيين، هادئين ومغتبطين حتى في يأسهم. لم تتّقد عيونهم وأفواهم وقلوبهم وحتى عندما تتقد فإنها تشتعل بهدوء، مع يقين ساذج بأنها مكافاة...

يوم ١٨ يوليو ١٩٤٦ وجّه نيكوس كازنتزاكي، عبر الإذاعة البريطانية، نداءً إلى مثقفي العالم قاطبة.

الرّوح الحرّة والخالدة لدى الانسان .

هذا النداء موجه إلى ذوي الإرادة الطيبة في العالم قاطبة. تمرُّ الإنسانية بمرحلة

---

(١) رسالة إلى إ. ساميوس كازنتزاكي.

(٢) رسالة إلى تيّا انيموياني.

حرجة وقد باتت الأمم وثيقة الصلات بحيث لم يعد أي شعب قادراً على الخلاص بمفرده إذا لم يُقيّض ذلك للشعوب الأخرى. وهكذا فإن أي شعب يسقط، يمكن أن يجرّ معه الشعوب الأخرى. لقد ولّى إلى الأبد ذلك الزمن الذي كانت أمة من الأمم تستطيع فيه العيش منعزلة، وتحقق الخلاص أو الدمار بمفردها. لذا فكل نداء يوجّه إلى شعب أمّة من أمم اليوم، يهم الشعوب الأخري كلها.

فما هو الخطر الكبير الذي يُحدق بعالمنا بعد الحرب؟ لقد تطور العقل البشري بطريقة أسرع وأكثف من روحه. وتمكن العقل من غزو القوى الكونيّة و إخضاعها لمشيئة الإنسان الذي لم يبلغ النضج الأخلاقي الضروري بعد، كي يستعمل تلك القوى في خدمة السلام والازدهار العالميين. هناك انعدام توازن وتناغم ما بين القوة العاقلة لدى الإنسان وتطوره الأخلاقي، على العكس مما كان سائداً قي الشرق، خلال العصور القديمة. إذْ بلغت الروح الإنسانية قمماً عالية في حين ظل العقل الخلاق (العلم) متخلّفا. إنه خللٌ خطير في التوازن، جعل شعوب الشرق المتحلّية بأخلاق سامية، مع تخلّف عملي، تدفع الثمن باهظاً. فوصل البرابرة وأبادوهم... واليوم ترتسم ظاهرة معاكسة.

يتوجب على كلّ حضارة أن تقيم الانسجام والتناغم بين العقل والروح إذا أرادت البقاء في مستوى عال. وينبغي أن تكون هذه النتيجة هي الهدف الأسمى لكفاح الإنسانية الراهن. إنَّ المهمة صعبة. ولن نتمكن من أدائها على الوجه الأكمل إلا إذا أدركنا بوضوح ماذا نريد و إلى أين نذهب.

ولكن قبل تحقيق ذلك، من الطبيعي أن نعيش الفوضى والخواء، الفوضى الأخلاقية والروحية. وكل من يتصل اليوم بأشخاص واعين، في أي مكان من العالم، يلاحظ عليهم عواقب الحرب المحتومة، أيْ آثار القلق والجوع، الإنهاك، والهمّ والارتياب، وفوق ذلك كله، غياب أخلاق ثابتة، معترف بها دولياً، تيسّر إعادة بناء الحياة الداخلية لإنسان ما بعد الحرب. إذ يتوجب علينا ألا نخطىء في ذلك، لأنّ البناء الحقيقي ليس إعادة بناء المصانع، والبواخر والمساكن، والمدارس والكنائس التي دمّرتها الحرب. ولا يمكن لأية حضارة أن تقوم إلا على أسس روحية. فالحياة السياسية والاقتصادية محكومة بإنجازات الإنسان الروحية. فكيف بوسع الإنسان أن يتجدد داخليا، في مناخ يسوده الإنهاك والقلق والارتياب؟ لا توجد وسيلة واحدة: حشد كلّ قوى الخير الغافية في كل إنسان وكلّ شعب. لقد قال لي القسّ المعروف مونييه إنَّه سأل صديقه الفيلسوف الكبير برغسون كيف يستطيع تكثيف فلسفته كلها في كلمة واحدة. فكّر برغسون لحظة ثم

صاح: التعبئة! تعبئة كلّ طاقاتنا الأخلاقية في كلّ لحظة حرجة.

ما من خلاص آخـر في هذه الفترة الحرجة. علينا حشد كلّ طاقـاتنا من أجل محاربة الكذب، والحقد، والظلم. علينا إعادة الفضيلة إلى هذا العالم.

مَنْ هم الناس الذين سوف يقدّمون الطاقات الأخلاقية للكون؟ لا يمكن أن نأمل في أن يأتي هـذا النداء، وهـو أهمّ نداء للتجمّع، من القـادة الزمنيين – من سيـاسيين وتقنيين واقتصاديين. وحدهم القـادة الروحيون في العالم يستطيعـون، ويتوجب عليهم، إنجاز هـذه المهمة النبيلـة، بعيـداً عن الأهواء الشخصيـة. إنَّ مسؤوليـة المفكـر في زمننا جـدّ جسيمة. ذلك أن الأهـواء عمياء وتولّـد الصراع. والقوى الماديـة التي وضعها العقل بين أيدي الناس قوى عظيمة، يتوقف خلاص الإنسانية أو ضياعها على طريقة استخدامها. لنتأمل بوضوح هذا العصر الخطر الذي نمـرّ به، ونتساءل عن الواجب الروحي لإنسان اليوم. لم يعـد الجمال كافيـا، وكذلك الحقيقـة النظريـة والطيبة السلبيـة. إنَّ الواجب الروحي لإنسـان اليوم أوسع وأعقـد مما كان عليـه في الماضي. إذ يتوجب عليـه أن يعيد النظـام إلى فوضى مـا بعد الحرب، ويفتح طـريقـا جديـدة. وعليه أن يكتشف صرخـة جديدة، ويطورها، من أجل التآلف والتجمّع على مستوى الكون. صرخة قادرة على إيجاد الـوحـدة – أي الانسجـام بين القوة العـاقلـة والقلب. ويتـوجب عليـه أن يجد الكلمات البسيطة التـي تكشف للبشر، مرة أخرى، هـذه الحقيقة البسيطـة: إنَّ بني البشر كلهم إخوة.

وكما كـانت الحال في كل الحضارات الخلاقـة في الماضي، ما زال الشـاعر متماثـلاً مع النبي. فلنثق بعقل الإنسان، لأنَّ العقل يتحمل مسؤولياته عندما يكون مصير الإنسانية معرضا للخطر، في اللحظات العصيبة. ومن المؤكـد أنَّ هناك فكرة عظيمة قد ولدت اليوم من الأرض الدامية. ولهذا السبب يبدو التطور في منتهى الألم، وهو ما يفسر أيضا اندفاع الشرّ بشراسة خـلال الأعوام الأخيرة حتّى أنّها بـاتت تحـاول، كَرَّة أخـرى، خنق الطفل الوليـد.ولهذا السبب، أيضا، يتـوجب على قـوى الخير أنْ تنظم صفوفهـا، وعلى أصحاب العقل أنْ يتعارفـوا بعيداً عن الأنـانية، وأن يتطارحـوا أسئلة عصرنـا المقلقة محاولين توفير الأجوبـة. وليس من الملحّ والضروري ، اليوم، أنْ نعمل فحسب، بل أن نعمل كلّنا معاً.

أوجّه هذا النداء إذاً، إلى كلّ المثقفين ذوي الإرادة الطيبـة في العالم بأسره. وأطرح هذه الاسئلة واثقاً بأن الأجوبة سوف توفّر تعاوناً روحيّاً على مستوى عالمي.

١ – هل تعتقدون بـأننا نعيش نهاية، أم بـداية مـرحلة جـديدة؟ وفي كلتـا الحالتين ما السمات التي تميّز هذه وتلك؟

٢ – هل يستطيع الأدب والفن، أو التفكير النظري، التأثير في حركـة التاريخ الراهنة؟ أم أنها تعكس الظروف الكائنة فقط؟

٣ – إذا كنتم تعتقـدون بأن الفكر والفن يـؤثران في الواقـع، فما هي الوجهة التـي ترون ضرورة قيادة التطور الروحي في بلادكم، نحوها؟

٤ – ما هي ، في نظركم، المساهمة الإيجابية التي يستطيع الفكر والفنّ تقديمها للعالم؟

٥ – مـا مدى وجـود اتصـال وتـواصل بين المثقفين وجماهير الشعب الـواسعة؟ ومـاذا يتوجب فعله لتوسيع قاعدة هذا الاتصال؟

٦ – ما واجب المثقف اليوم؟ أو الفنان؟ كيف يتمكن من المساهمة في التعاون السّلمي بين الشعوب.

٧ – هل من الممكن قيـام أمميـة الرّوح؟ وفي حـالـة الردّ بـالإيجاب، هل تـودّ المشاركـة فيها؟(١)

بعـد أن توقع كـازنتـزاكي ضالَـة النتـائج في مسعاه بـدأ يتحسّر مجدّداً على ايجين:

لندن ، سانت جيمس كورت

٢٠ يونيو ١٩٤٦ (٢)

بؤس الصقيع والوحل والمطر، لايمكن وصفه. أفكر في ايجين، لقد بدأتْ حبوب العنب تلمع. والتين يكبر، والبحـر منعش، نصف شفّـاف، وليس كنهر التـايمـز هذا. لم تعـد أوروبا تعجبني مطلقا. وقد تكون باريس جيدة لأننا نكون فيها معاً.

٢٥ يونيو (٣) **. مساء البـارحة حضرت أمسيـة شعرية، شـاركتْ فيها ثـلاث نساء**

(١) نشر هذا النداء في مجلة Life and Letters العدد ١٠٩، سبتمبر ١٩٤٦.

(٢) رسالة إلى ايليني ساميوس كازنتزاكي.

(٣) رسالة إلى ايليني ساميوس كازنتزاكي.

شمطـــاوات، لكل واحـدة منهن فـكّ واسع «من صنع إنجلترا»(١). خرجن مـن سباتهنّ وطفقن ينشدن أشعـاراً بإلقاء مفخّم، ثم عُـدْن إلى النوم. أعتقـد أنه لا يوجـد أسخف من الشعر الرديء...

بعد اكفهرار لندن وضجيجها، تمتـع نيكوس بهدوء كمبريدج الأخضر. أما أنا فمكثت أنتظر معجـزة، كُرْسيّـاً للآداب اليـونانيـة الحديثة في إحـدى الجامعات الأجنبية مثلا، الأمر الذي يمكننا من مغادرة ايجين لبضعة أعوام.

كمبريدج ، فندق غاردن هاوس

٢٣ يونيو ١٩٤٦ (٢)

... لا يمكن وصف الهدوء والطمأنينة والإخضرار. ليتنا نتمكن من العيش سنتين هنا حتى نُشفى من تهيّج الأعصاب واللهفة، والارتياب والبؤس، في أثينا! يوجد الفندق الذي نزلت فيه على ضفـة النهر. وتمرّ باستمرار، مراكب مسطحة، على متْنهـا صبايا وشباب، وتنساب هادئة صامتة (......) (٣)

شوارع رائعـة، أشجار عملاقـة، ثم الميزة الفاتنـة في إنجلترا: العشب الأخضر حول المدارس القديمة والكاتدرائيات...

تعرفت عل بعض الأساتذة الرائعين...

ودوّن نيكوس في دفاتره :

كمبريدج ، ٢١ يونيو . الأرض مرنة، رطبة، أنثوية. هنا تجدُ الأزهارُ ما تتغذّى به ولا تصارع كما في اليونـان، ببطولة، بَتَلاتُها عريضـة لكنها تفتقر إلى الرائحـة. بعد الظهر زرت شيبرد بريفوست في الكنغ كوليج. وهو شيخ هرم مُفعم بالحيوية والظُرف والقوة ويبدو متكلفـا، قليلا، ونـرجسياً. يتكلم كثيراً ويضحـك كثيراً. ويرى أن المهم بـالنسبة للإنسان هو أن يتثقف كإنسـان وليس كمتخصص. يزدري «الانتلجنسيا» لكنه يحترم الذين يخدمون الروح. ويعتبر تريفيليان أفضل إنسان في العالم.

شيبرد : bright hearted lion

(١) بالانجليزية في الاصل Made in England (المترجم)

(٢) رسالة إلى ايليني ساميوس كازنتزاكي.

(٣) كلمات غير مقروءة.

٢٢ يونيـو. شمس. اخضرار. نزهـة بين المدارس القديمـة. أية معجـزة هذا العشب الأخضر ما بين المدارس الغـوتية، مـريح مثل فردوس. في منتصف النهـار زرت صاحب «الثالوث». كـان، على العكس من شيبرد، صارماً زاهداً، بخيلا بـالكلام والضحك. ما أن قدّمْتُ له الاستجواب، وقرأ السؤال الأول، حتى وثب قائلا: لن أجيب! هذه ليست أسئلة، ماذا تريـد مني أن أقول؟ هل أقول إنَّ العالم عبثي؟ لا أقدر على ذلك!» دَعَكَ الـورقة بيده غاضبـا وأعادهـا إليّ.... ثم وقف مجاملاً ورافقني لزيـارة المدرسة. الحجـرة التي عاش نيوتن وعمل فيها، وكتبه في المكتبة، ثم حجرة بايرون...

٢٣ يـونيو... بعـد الظهر عنـد لوكـاس، من الكنغ كـوليج، جذّاب، ذكي، ضحـوك، جريء، «كائن بشري» حقيقي. كما قال شيبرد... تحدّثنا عن اليونان. وقد قام بجولة في البيلوبونيـز. قال لي: «لم أعد أقرأ، بل أعيد القراءة». يكـره المعاصرين ولا يفهم المُحْدَثين ويسخر منهم...

وبالأسلوب البرقي ذاته، سجّل كازنتزاكي لقاءه مع ديفيد غارني:

جذّاب، متحضّر، لطيف «عجوز»، أجاب (عـن الأسئلة). مع «لاوري لي» أثناء الغداء في مطعم قبرصي بتشلسـا: «مفعم بـالحيويـة، والشـاعريـة، يسـاريّ متطرف، ينشـد الفـلامنكو، يعـرف اسبـانيا. سُررتُ كثيراً...» ومع جـون ليهمان: «لطيف جـداً، جسم جميل،، ذكي، حـاذق تحدّثنا عن كـابيتانـاكي[1]، والأدب اليـوناني الجديـد. سيـزور اليونان في العام المقبل».

غـداء عند ستيفن سينـدر: شـاب، طويل، ذكي، يتكلم الفـرنسيـة. تحادثنا مطـولاً وبشكل جيد... ثم مع داوكنز: يا للحيـوية! يصعد السّلم درجتين! درجتين! حدّثني عن والد حاجيداكي، في ميرتو، بلغ العام الثاني بعـد المئة من العمر، وكان يثرثر في الباحة، بين ثـور وحمار، مع شيخ ثمانيني، سبق له احتضـانه رضيعـاً، في حفل زواجه. جـاء كاهن أعمى، مسنّ لزيارته، برفقة نائبه الشّماس الذي كان يجدل السّلال. سأله الشيخ الهرم «مـاذا أعمل أيها الشّماس؟ - أجـدل السّـلال -. جـدل السـلال أفضـل من جـدْل الفضائح!» أطلعني داوكنز على كتب عديدة، وتناولنا العشاء معاً، تلك الليلة...

بـالأمس رأيت جـون مـانسفيلـد. عـالم رائع، وإنسـان دمث. تحدثنـا عن الشعـر الإنجليزي وقال إن سوينبرن كان يكتب أشعاراً في غاية الاكتمال بحيث يجهد نفسه بعد

(١) شاعر يوناني شاب مات في انجلترا.

ذلك كي يُلحق بها بعض النقائص حتى لا تظلّ رتيبة.

ذهبت إلى مدرسة ودمان لمقابلة أستاذ الشعر بورا: بيت سادة، عشب أخضر، تماثيل صينية (وُلدَ بورا في الصين)... نشيط، ذكي، مثقف... يفهم الشعر.

لا يحب شارل مورغان. قرأنا بعض القصائد. يعتبر لويس وايديث سيتول أفضل شاعرين... غداء عند مورتيمر. كنت حزيناً، تكلمت فجأة عمّا يفعله الإنجليز في اليونان. رجل على ذلك القدر من الذكاء ولم يفهم شيئاً! قلت له إن سياسة إنجلترا في اليونان مضادة لبريطانيا.

تناولت الغداء مع الناقد الفنّي اَيْرونسايد. يتكلم الفرنسية بطلاقة. ذكي ونبيه. يفهم الفنّ جيداً – الرسم والنحت. تحدثنا مطولاً وسوف أعود إلى رؤيته في الـ«تايت غاليري»... غداء مع روزا موندا ليخمان وادي لويس. روزاموندا جميلة، فاتنة. شعرها رمادي مصبوغ باللون الوردي، فمها جميل وعيناها عميقتان، تشبه مركيزة من عصر لويس الخامس عشر، ذكية، طيبة... لويس ضامر الجسم، طويل الوجه، شاحب، أفضل شعراء اليوم. تحادثنا جيداً مدة طويلة...

ومن أكسفورد كتب إلى تيّا، بتاريخ ٤ يوليو:

... علماؤهم مثيرون للاهتمام: علماء آثار، فقهاء لغة، رياضيون. ويتمتعون بقيمة عالية في مجالات اختصاصهم. رأيت ميرس الهرم، كسيح في الثمانين من العمر، يعتمد على عكّازين، ولا يكاد يستطيع الكلام. يمضي الليل والنهار في فك رموز اللغة الميسينية... يا له من عمل ضخم، وصعب ومعقد! كيف توصل إلى تصنيف كل أبجديات ذلك العصر! لقد تخيل عدداً مهولاً من التراكيب! من دون فقدان الأمل! وعندما تمنيت أن يساعده الله على إيجاد المفتاح، ضرب بعكّازه على الأرض صارخاً: «لن أموت! سوف أكتشف!».

وفي اليوم نفسه، بعد أن روى لي كل ما عرفناه من خلال دفاتره:

... بالأمس كنت في ستراتفورد حضرت عرضاً لمسرحية «ماكبث» كان عرضاً متدنيّاً، أكاديمياً، متحذلقاً. لكنني سُررت بالعودة إلى رؤية الأماكن التي نحبّها.

لم يتغيّر شيء – النهر، الأوِز، الورود المتفتحة، البيوت القديمة التي يخرج منها عجائز ديكنز وكذلك الصحن الخشبي الذي أعجبنا... «بيتنا» غزاه اللبلاب، وأمامه

قطة تتشمس. مررت أمامه ثلاث مرات، سائراً ببطء.

إنَّ يوم لقائنا يقترب. لولاك لكانت حياتي صحراء! ما هذه المعجزة التي تستمر منذ عشرين عاماً؟

٥ يوليو... زرت أمس «أوكسفورديرس» الشهيرة واقترحت «الإلياذة» (النص الأصلي والترجمة). وعدوني خيراً... ينبغي أن أنجح، لأن العمل يصير مشهوراً عالمياً آنذاك. عندما أعود إلى لندن سأحاول الاهتمام بكتاب «الزّهد». رأيت ابنة واترلو التي وعدتني بترجمة «الزّهد».

لم نتمكن بعد من الحصول على دعوة من الحكومة الفرنسية وعدَنا بها مدير المعهد الفرنسي في أثينا. وبدأ ينتابني القلق. ذلك أنَّ العزلة الطويلة تبدو لي سلاحاً ذا حدّين. وحتى بالنسبة لرجل مثل كازنتزاكي كنتُ أتمنى له مدينة جامعية تمكننا من الطمأنينة قرب المدفأة ليلاً، والمشاركة في محاورات مفيدة. وإذا كنا عاجزين عن معرفة بلدان نائية، لماذا لا نحاول التعرّف على أناس مجهولين وبعيدين، ومثل هذه الرحلات من شأنها أن تفيدنا مثل السفرات الأخرى... وكان نيكوس يتمنّى ترضيتي لكنه غير قادر على طلب شيء لنفسه.

ولقد رأى أنه مدين لمستضيفه بتأليف كتاب عن إنجلترا ما بعد الحرب، فذهب للانزواء في كمبريدج. لكن روحه ظلت تهفو إلى اليونان التي تمزّقها الحرب الأهلية. لذلك ألّف الكتاب من دون حماسة، وأهمله في أحد الأدراج. ولم يُنقذ منه سوى بضع صفحات ضمّنها في رواياته لاحقاً...

كمبريدج، مسز لاوري، كاستل براي[١]

تشسترتون لاين، ٣٠ يوليو ١٩٤٦

... نظراً لكوني لا أود النزول في فندق، تمكن المركز البريطاني أن يعثر لي على غرفتين في بيت مدهش، في زقاق هادىء، ومحاط بالحدائق. والبيت كثير السلالم، يعج بسّكان طريفين من شباب، وشيوخ، وعجائز. يوجد مكتبي في الطابق الأول. وهو صغير يحتوي

---

(١) رسالة إلى ايليني ساميوس كازنتزاكي.

على أريكـة وطاولـة وثلاجـة... أمـا غرفـة النـوم فهي في الطابق الثـالث، وهي صغيرة بدورها غير مريحة. أين منها عظمة سانت جيمس كورت! يصعب عليّ الانتقال من غرفة إلى أخرى. وإذ أسال ظلاً، أو شبحاً ظنيناً، عـابراً بين الأروقة يجيبني بمنتهى التهذيب. بيت الراحة في طابق آخر، يستحيل عليّ العثور عليه لأنه يتطلب المرور أمام مرايا وأثاث قديم فأصعد وأنزل سلالم من دون وجـود حتى «العطر» الذي يقـودني. المسز لاوري عجوز خـارجة من إحدى روايات دوستـويفسكي، نحيلة، ذات ياقة مسلّكـة على رقبتها وتفوح منها رائحة النبيذ أو الجعة (لم أميّز بدقة بعد). وفوق باب الغرفتين في الطابق الأرضي، حروف يونانية كبيرة HAIRE HYTRA (إنه المطبخ). و HAIRE FILIA[1] (لم أجرؤ على الـدخول للـوقوف على حقيقة الأمـر)... ذهبت إلى المسرح مساء البـارحة وشاهدت مسرحية سارتر «الأبواب المغلقة»...

أحاول استجماع قواي حتى لا أتشتت، إذ ينبغي أنْ أبقى هنا من أجل تأليف الكتاب. لولا غليوني لبكيت. أتذكّر ايجين، والتين الناضج، والعنب اللامع والمرأة التي أحبّها كما لا أحبّ أحداً في العالم، والتي تجلس في الباحة متأملة البحر، منتظرة رسالة...

وضعت خطـة الكتـاب. سوف يكـون روايـة، لأن المثقفين هنـا لم يزودوني بـالمادة الضروريـة. ثلاثـة أقسـام: كـريت، إنجلترا، العـزلة. وسـوف أجيب عن الأسئلـة التي طرحتها. لست أدري إذا كان منـاخ البيت سيلائمني. لحسن الحظ أن النافذة الصغيرة في المكتب تفتح على حديقة جميلة... وهناك شجرة تفاح كبيرة تنتصب أمامي...

يوم السبـت سأضطر إلى زيـارة لندن. تلقيت دعـوة للغداء من الـوزير نويـل بيكر وينبغي أن أدلي له بـرأيي حول اليونان. مـاذا سيحدث؟ أعرف أن رأيي لن يـؤثر فيهم، ومع ذلك سـوف أعبّر عنـه، بـوضـوح ومن دون تحفّظ كما هي عـادتي في الأوقـات الحرجة...

كمبريدج... ١٩ أغسطس ١٩٤٦(٢)

تتلاحق الأيـام متشابهة، أستيقظ في الخامسـة والنصف صباحـاً، أنزل إلى مكتبي: طاولة مغطاة بالكتب والمخطوطات، أريكـة من طراز لويس الخامس عشر، قديمة جداً، مذياع وكرسيان...

---

(١) يمكن ترجمة الأولى بـ «سلاماً أيتها الطنجرة» والثانية «سلاماً أيتها الصداقة».

(٢) رسالة إلى ايليني ساميوس كازنتزاكي.

أنهيت حوالي ثلاثة أرباع الكتاب. وسوف يكتمل مع نهاية أغسطس تقريباً، ويشكل كتاب «الزّهد» قسمه الثالث.

في التاسعة تأتيني عانس شرسة بفطور الصباح(1): شربة شعير، نقانق، عجة أو سمك، وشاي بالحليب. أعود إلى الكتابة، وفي الواحدة، الغداء(2)، دائماً النوع نفسه، فظيع... أعود للكتابة، في الخامسة، شاي مع خبز بالزبدة... أعود إلى الكتابة. في السابعة عشاء، وهو عادة عشاء بارد(3): كرنب، لحم خنزير مقدد، نصف حبّة طماطم وتحلية. وعندما أقول «تحلية» أقصد شيئاً حامضاً، خوخاً أو خوخاً مجفّفاً، شديد الحموضة، ومنقوعاً في قشدة صفراء منفّرة. آكل وأفتح المذياع. في التاسعة أصعد للنوم... المطر لا ينقطع في الليل ولا في النهار. وعندما تشرق الشمس بغتة أخرج للتجول في المروج. الخضرة في انجلترا أعجوبة.

... الكتاب يتقدّم... مطر، مطر لايكفّ، برد قارس. عنقود العنب الملفوف في القطن (عنقود صغير، لنقُل ثلاثين حبة) يكلف ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف دراخما! صبراً! فرحت لتمكنك من اصطياد الأخطبوط بيديك. فهذه مأثرة.

لننتظر نتائج الاستفتاء الشعبي. أشعر بالقلق وأتألم من أجل اليونان...

أكتب إلى راسل مرة أخرى.. الجميع هنا يكرهون مورغان ويعتبرونه نرجسيّاً، مكتفيا بذاته وتافهاً. لا شك أنَّه سيقيم في ايجين عندما يزور اليونان. وعدته بعلبة حلوى طحينية لأنه مولع بها.

كمبريدج، ٢٩ أغسطس ١٩٤٦ (4)

أنا قلق جداً بشأن الاستفتاء. ماذا سيحدث بعده؟ من هنا لا أرى سوى الظلمات لكن دعنا من السياسة. ففي ذلك خطر!

أعلنت الصحف اليوم عن موت كافنداريس(5). تألمت لأنه كان شجاعاً وشريفاً...

جرى الاستفتاء الشعبي في اليونان ضمن مناخ بوليسي. ولقد انزعج أولئك

---

(1) بالانجليزية في الأصل Breakfast

(2) Lunch

(3) Cold-dinner

(4) رسالة إلى ايليني ساميوس كازنتزاكي

(5) سياسي، شغل عدة مناصب وزارية، وينتمي إلى انصار فينيزيلوس.

السادة في المركز البريطاني عندما علموا بأن ضيفهم صوّت برقياً لصالح الإبقاء على الجمهورية.

– لقد وعدتنا بعدم التدخل في السياسة مادمت في انجلترا.

– لا أذكر، أجاب نيكوس كازنتزاكي مندهشاً، بأنني تخليت عن حقوقي المدنية، بقبولي دعوتكم الوديّة. أعتقد أن مشاركة المرء في استفتاء شعبي يتوقف عليه مصير بلاده، أول واجب أمام إنسان مسؤول.

أقام كازنتزاكي بضعة أيام أخرى في انجلترا دون أن يتخلّى عن قلقه إزاء العالم ولاسيّما إزاء مصير اليونان. وخلّصته مقابلة نويل بيكر من آخر وهم.

لحسن الحظ أنّ اوكتاف مرلبيه وفى بوعده. واستلم نيكوس دعوة من الحكومة الفرنسية. ومع ذلك تردد، لأن المبلغ الذي وضع تحت تصرّفنا كان ضئيلاً. فترك لي الخيار:

كمبريدج، ١٢ سبتمبر ١٩٤٦(١)

لا شك أنك استلمت رسالتي ومعها رسالة مرلبيه. فماذا قررتِ؟ أنا موافق من الآن على اختيارك...

الوضع.. الدولي يقلقني... أعراض كثيرة مقلقة بدأت تلوح، وهي واضحة هنا، وغير مرئية في اليونان.... أشعر بالخوف على اليونان ولا أتوصل إلى الاطمئنان. ليس هناك حل ممكن. قمت بكل ما أقدر عليه، نبّهت كلّ من استطعت.

وضع اليونان ثانوي جداً، دولاب صغير في الآلة العملاقة التي سيستخدمها الكبار لحاجاتهم الراهنة، والسريعة جداً. الكتلتان الكبريان تتواجهان مهدّدتين. واليونان بينهما مثل حبة قمح بين حجري رحى. لعلّ معجزة تنقذ بلادنا.

أنا أيضاً راسلت هيربر... ربما تمكّن من الحصول على كرسي جامعي، لي. سوف نرى... دائماً تحدث معجزة في أحرج فترات حياتنا...

وهذه المخاوف عبّر عنها أيضاً إلى صديقه الشمالي:

---

(١) رسالة إلى ايليني ساميوس كازنتزاكي.

كمبريدج، ١٧ سبتمبر ١٩٤٦

عزيزي السيد كنوس،

يـزداد قلقي إزاء الأزمة الأخـلاقية في عصرنـا... والكتـاب الذي انتهيت من تأليفـه: يعالج، في شكل روائي، هـذا الوضع المخيف... أشعر بـالقلق من جرّاء مرور الإنسـانية بفترة حرجة، تماماً مثل غوريلا تكتشف النار قبل تحولها إلى إنسان...

دنا يوم الرحيل. وتعرف نيكوس في لندن على شاب يوناني من قبرص، يدرس ليصير سينمائياً ومخرجـاً. وفي الأثناء يمثل أدواراً مسرحيـة ويشرف على برامج هيئة الإذاعة البريطانية الموجهة لقبرص. وكان يعرف شخصية كازنتزاكي فمكّنه من فـرصة التحـدث في الإذاعة. كـان البرنامج الأول نـداء استغاثـة موجهـاً إلى المثقفين. أما الثاني والثالث فقد خصصا لأنجيلـوس سيكليانوس وبرنارد شو... وبلغت مشاركته قـرابة عشرة برامج... وتمكنا، بفضل المبلـغ الصغير الذي وفره لنـا ميشال كـاكويـانيس، من البقاء في بـاريس في انتظار المعجـزة. وهكذا كـان مصيرنا يتوقف دائماً على شيء يسير جداً.

ولقد كتب نيكوس إلى تيّا، من كمبريدج، بتاريخ ١٥ سبتمبر ١٩٤٦:

.... الغنيمة التي عدتُ بها من كمبريدج؟ كتاب، ومشاهدة المدارس القديمة، وخاصة الخضرة الإلهيـة للعشب في بـاحـات تلـك المدارس... إنّها معجـزة في منتهى البسـاطـة والعمق إلى حدّ تعجـز الكلمة عن وصفه. ولم أرَ ذلـك العشب من دون أن اتمنى وجودك بقربي. فهذه الرؤية من شانها أن تبعث فيك فرحاً عارماً، هادئاً، صامتاً، وعنيفاً في وقت واحـد، كما تفضلين ... إن روحـاً مثل روحـك لا يحق لها مغـادرة هـذه الأرض من دون التشبع بأفضل منها. وهنـاك سبب، من بين الأسباب السريـة جداً التي تجعلني أتمنى الثراء يتمثل في التمكن من جعلك ترين العالم.

وكتب إلى يانيس كاكريذيس:

لندن، ٢٢ سبتمبر ١٩٤٦

تملكني قلق رهيب خـلال الأشهر الأخيرة إزاء مصير الإنسـانيـة جمعاء... بـالأمس أعلن الأمريكان عن اكتشاف نوع من السموم الفتـاكة تكفي تسعة غرامات منه لقتل كلّ سكان الولايات المتحدة وكندا (أي الاتحـاد السوفياتي) وهكذا فإن الغوريلا، قبل تحولها

إلى إنسان، اكتشفت النار، وها هي ذي الآن تهدّد بإحراق العالم...

اعتاد نيكوس كازنتزاكي ، منذ أكثـر من خمسين عاماً، تخصيص ذكرى يوم ميلاده لمحاسبة ضميره، وتقديم تقرير لإلٰهه عن مسيرته الطويلة المتوّحدة.

يوم ١٨فبراير من العام ١٩٤٧، يبلغ ٦٤ سنة.

وكما حزمـة ضوء من منـارة، مسَحت نظـرته الماضي فهتف: «كـلا، كلا! غير كافٍ! لقـد بدّدتُ قواي، كـان في إمكاني أن أنجـز أفضل! لحسن الحظ أن أمامي عشرين سنة أخرى أعيشها...».

كان يصدّق ذلك ويجد فيه عزاء. وكنت أتوقع لحظات الوَهَن، الدورية العنيفة والقصيرة. وأعـرف أن بعـد اليأس يأتي الانفجـار الخلّاق. يكفي قلـم وورقـة بيضاء، ومتسع من الوقت، والعـزلة، والضحك المتبادل مع شخص حبيب، لترى النور روائع أدبية جديدة.

أما المظهر الخارجي لم يطرأ عليه أي تبدّل: هيئة فتيّة، نظرة ثاقبة ومتسامحة في آن واحـد، وذهن متفتح على كلّ جـديـد... بـاستثنـاء الصـدغين والشـاربين والحاجبين الكثيفين وقد بدأ يغزوهما الشيب.

في ذلك العام كنّـا نسكن في ساحـة المادلين، عند السيـدة سوزان بيـو، أرملة الكاتب والصحافي وصديق اليونان رينيه بيو. وللمرة الأولى منذ أعوامه الجامعية أحسّ نيكوس بالراحة في قلب باريس التي فتنته لهذا السبب.

ومنذ بعض الوقت اهتم مع بريفيلاكي بمشكلـة اليونانيين الذين هاجروا إلى الولايات المتحـدة الامريكية. كانـوا في غالبيتهم قرويين، أميين، طـردتهم المجاعة والبطالة من اليونان، فوجـدوا أنفسهم فجأة في خضم الإنتاج الضخم، والرفاهية العالية، واللصـوصية الفريدة التي خلقها إلٰه الـدولار. فما جدوى تعليم أبنائهم لغة الآباء، وتذكيرهم بقراهم وأصولهم؟ فكـل ذلك يكاد يشعرهم بالعار ولم يعد يهمهم سوى ربح الوقت من أجل الانـدماج، بأسرع وقت ممكن، في العنصر الذي

يحيط بهم. ولابدّ لهم من الكفاح المرير. أما ما تبقّى فيبدو لهم بذخاً، ورومانسية تم تجاوزها.

ومع ذلك ثمة مهاجرون آخرون في الولايات المتحدة، من جنسيات أخرى، يخدمون وطنهم الجديد من دون أن يعانوا من عقدة النقص التي يعاني منها هؤلاء اليونانيون المساكين الذين تخلّى عنهم وطنهم. فكيف يمكن مساعدتهم؛ كيف يدركون أن عليهم التماسك والتكاتف، وأن لهم واجبات ينجرّ عنها الحق في حياة أفضل.

أعدّ بريفيلاكي ونيكوس خططاً تفصيلية لتأسيس معهد للثقافة اليونانية في الولايات المتحدة. لكن الحكومة اليونانية المتعامية دوماً عن مستقبل شعبها، رفضت تجديد جواز سفر كازنتزاكي. وراح بريفيلاكي المتأهب للسفر إلى نيويورك، ضحية دسائس عديدة. ففي الوقت الذي بدأ اسم نيكوس يلمع في الخارج، صار من المجازفة النطق باسمه في اليونان.

ولقد استدعى الأمن العام بطرس خاريس، مدير المجلة الأدبية «نيَا إستيا» ورئيس تحريرها، لأنه نشر مسرحية كازنتزاكي «سدوم وعمّورة» المستوحاة من التوراة. وهُدّد أندرياس كارانتونيس، الناقد الأدبي المعروف بمناهضة الشيوعية، بالطرد من منصبه. وخسر فعلاً عشرة أعوام خدمة لأنه أعلن في الاذاعة أن مسرحية كازنتزاكي «قسطنطين باليولوغ» هي «تراجيديا وطنية». إن البشر يهرمون ويغيِّرون مواقعهم أو يموتون، أما الأفكار فتبقى. وبعد تأخر عشرين سنة تطالب اليونان اليوم بتأسيس ذلك المعهد الذي تحمس له الكريتيان بقوة.

باريس، ٤ أكتوبر ١٩٤٦

عزيزي السيد كنوس،

أنا في باريس، مدينة أنوار فعلاً. وأتذكر أيامي الدراسية في فترة الشباب، عندما كنت أتابع دروس أستاذي المبجل هنري برغسون. سأواصل، هنا أيضاً، ذلك الجهد الذي بدأته في انجلترا: لمّ شمل خَدَم الفكر «–من كتّاب وفنانين وعلماء – في اطار «أممية الروح»، وفوق كلّ أنواع السياسة، من أجل إنقاذ الروح المهددة بالخطر.

أن المثقفين يـدركــون الخطـر جيـداً، لكن غــالبيتهم من المتشككين أو المستسلمين للأحداث. غير أن هنـاك أناساً مستعديـن للمشاركة في هذه الحرب الصليبيـة السامية. ولقد تحاورت هذه الأيام مع رجل نابغة هو غاستون ديبوي عميد كلية العلوم في تولوز .. وله رؤيـة مأسوية لعصرنا. وهـو مستعد للعمل بكل ما أوتي من قوة. وهنــاك أيضا العالم الكبير دُوق بـروغلي الذي يدرك بـوضوح عمق الهاويـة التي انفتحت فجأة أمام الإنسانيـة. وقال إن القوى التي تملّكهـا الإنسان بلغت من الهول درجـة تستطيع معها تفجير كوكبنا..

باريس، ١٧ أكتوبر ١٩٤٦(١)

أنت على حق: أفضل وسيلـة نـاجعـة وعمليـة لتحقيق «أمميـة الـروح» تستـدعي الاتصال بشخصيات معروفة عالميا و إقناعها بتوقيع هذا النداء.

المثقفون الإنجليز خـانعون متشككون، منهكون بـالحياة اليومية القـاسية. أما في باريس فـالمثقفون أكثـر نشاطا وحيـوية ووعيـا بمسؤوليتهم إزاء الخطـر الذي يهدد الروح. إنَّ نصراً مماثلا لما حققته إنجلترا يعادل هزيمة، وهزيمة مماثلة كالتي تكبّدتها فرنسا، تثير يقظة قوى العرق المهانة..

باريس، ١٤ نوفمبر ١٩٤٦(٢)

.. الناس ، هنـا أيضاً، بـدأوا يرتـابون ويتشككـون، والفوضى عـارمة؛ ولا سيما في الأيام الأخيرة، بعـد الانتخابـات. ومن جهة أخـرى ترزح اليـونان تحت نير الفـاشية؛ ويُضطهد فيها بشراسة كل مستقيم ومتميز، ثقافيـا وأخلاقيا .. إن الشعلة الأكثر صفاء تتعـرض هناك للخطـر. كيف يمكن إنقـاذها؟ هيأت مشروعـاً: تأسيس معهـد للثقافـة اليونـانية الجديدة خـارج اليونان، ليشكّـل بؤرة محافظة على الشعلـة. ليس الوضع السياسي والاقتصادي وحده في خطر، بل الثقافي والأخلاقي أيضا. وكلّ نشاط خير ومجدٍ مهدد بالأفول. ومن شأن هذا المعهـد أن يوفر مجال تحرك لبعض اليونانيين النزيهين – من كتّاب وفنّانين وعلماء – حتى يتولوا رعايـة الشعلة الفكرية ليونان اليوم، على أرض أجنبية..

١٩٤٧ . اجتمع شمل بعض الأصـدقاء القـدامى وصـاروا يجتمعون حـول

(١) و(٢) رسائل إلى بوريي كنوس.

فنجـان كـاكاو في صـالـون مضيفتنـا، الجميل، حيث يتمتع كـازنتـزاكي بحق الجلوس على «مقعد الشاعر»[1]. وكان يشارك في تلك الجلسـات، أحيانا، كلّ من الكاتب الشـاب هنري ديكير، والسيدة ديفال الماهـرة، ونيكولا سفريـداكي الذي سيشرف قريبا على غاليري الفن في شـارع «ليشال»، الخ، الخ.. وبين وقت وآخر يهرب بوريي كنوس، المتخصص البارز في الحضارة اليـونانية، من ضباب بلاده ليحضر بعض الجلسات. وكـان يشغل منصب وزير التربية القوميـة في السويد، وترجم معظم روايات كازنتزاكي، تباعاً، ليعرّف بها في البلدان السكندنافية.

باريس، ٢٤ يناير ١٩٤٧

عزيزي السيد كنوس

إن حبّي للغة اليونـانية الحديثة جعلني أرفض توقيع عقـد، لتاليف سلسلة كتب، مع دار نشر باريسية كبيرة عرضت عليّ أن أكتب، بـالفرنسية مباشرة، خمسة كتب على غرار روايتي «تـودا-رابا». يوجـد موقعي في الأدب اليـوناني. كما أن تطور لغتنـا يمر بمرحلة حاسمة وخلّاقة، ولا أريد الهروب من موقعي مهما كان الثمن..

وفي حين نشطت مطاردة المثقفين[2] في اليونان حاول صـديقنا جان هيربر أن يجد خشبة خلاص لنيكوس كازنتزاكي. وكان جـوليان هكسـلي آنذاك مديرا عاماً لليونسكـو، في باريس، وصديقـاً شخصيا لجان هيربر. فعـرض على هذا الأخير منصب مـديـر مكتب الترجمة الكـلاسيكية. لماذا عـرض ذلك على جـان هيربـر تحديداً؟ لأنـه ساهم في إعـداد أول برنامج للترجمة بـالتعاون مع السيـد مالك، سفير لبنـان آنـذاك في نيويـورك. وربما يعـود السبب في ذلك أيضـا إلى تكـامل مشروع السيد مالك مع جهـود جان هيربر الذي تـولى منذ ١٩٣٥ نشر دراسـات حول حكماء الهنـد، وترجمات لأعمال شرقية، في سلسلة كتب كـان يشرف عليها تحت عناوين مثل الفلسفات الروحية المعاصرة، الهندوسية الخ.. لكن جان هيربر لم يـوافق على العرض نظـراً لمسـؤولياتـه في الأمم المتحـدة. فـاقترح على مديـر

---

(١) خصت السيدة بيو نيكوس بمقعد لا يحق لغيره الجلوس عليه.

(٢) كانت المطاردات والحرب الأهلية تفتك باليونان. وتتعـرض رسائل نيكوس كازنتزاكي خلال الأعوام ١٩٤٦ – ١٩٤٩ إلى وصف قلقه وغضبه وكلله.

اليونسكو أن يعوّضه بنيكوس كازنتزاكي. واقترح على نيكوس أن يستعين في أعماله بابنته الصغرى، السيدة ايفيت رونو التي كان نيكوس معجباً بفعاليتها ولطفها.

لكن ، لنعدْ إلى بدايات ١٩٤٧، قبل ظهور "deus ex-machina" .. أي جان هيربر. ففي يوم ١٩ يناير تذكر نيكوس تيًا وكتب إليها من باريس:

صديقتي العزيزة

... هذه الحياة قصيرة ونحن لا نتوصل إلى التمتع بها كما يجب وبالمقدار الذي يجب. ذلك أن الفضيلة التي وضعها أناس أدنياء مرتاعون تحول دوننا وتحقيق ذلك؛ لأنّ الخطيئة التي خلقها أناس أدنياء مرتاعون لا يمكن أن تبهج. وفي اللحظة التي نبدأ فيها بوضع «وصايانا العشر» الخاصة، نموت.

هل تذكرين الحلم الذي رأيته خلال السنة الماضية في بيتك ليلة رأس السنة؟ شجرة ذات أغصان مستقيمة تماماً، مثل أغصان الصنوبرة؛ أربعة وعشرين غصنا. وفي طرف كل غصن، أزْهَرَ حرفٌ من الأبجدية: أ، ب، جـ.. وعلى كلّ حرف وقف عصفور صغير، يشدو ملويّ العنق، وكانت العصافير تطير من حرف إلى آخر، فتجتمع ثم تفترق، وتتوحد مثل مقاطع لفظية صغيرة

ذات مرة شاهدت في مقبرة بالقسطنطينية شجرة غار جميلة وقوية، تنبثق من قبر درويش؛ من صدره. وأنا بدوري أحس بتلك الشجرة ذات الأغصان الأربعة والعشرين تنبثق من أحشائي. وعندما أتوصل إلى الجمع بين الحروف والمقاطع وتنظيم النشيد، أموت. ليتك تتمكّنين من المرور، ذات يوم، بالقرب من قبري كي تنصتي إلى ما أقول..

وكتب إلى يانيس كاكريذيس الذي دُعي إلى السويد ليلقي بعض الدروس في إحدى الجامعات:

لقد أرسلك الرّب هذا العام إلى السويد حيث تتمكن من الحديث عن حياتي وعن كفاحي الروحي. أعتقد أنه من العدل تشريف رجلين من اليونان، بلغا ذروة النضج والعطاء. فمن الذي سيكتب له الخلود بعد موته؟ لا أحد يعرف. فكلاهما عملا بجدّ وسعيا إلى تتابعه بقلق، أنت أيضا. ما الذي جعل شعبا بتلك الروعة يحكمه قادة على تلك الدرجة من الغباء، والتورط في الجرائم والأعمال الشريرة؟ إنّ مصير اليونان ماسوي، والمغامرة الأخيرة قد تؤدي بها إلى أعماق الهاوية، والحال أن بإمكانها إنقاذها..

وحول موضوع اليونسكو ، كتب إلى تِيًّا:

... لقد تم الأمر، وافقتُ. كلّفت نفسي بأعمال تحضيرية منهكة: السعي إلى إيجاد خطة لترجمة كلّ الأعمال الرائعة في كلّ العصور، إلى مختلف اللغات، في مجالات الأدب والفلسفة والعلوم الطبيعية، وعلم الاجتماع، الخ .. وهذه الخطة ستقدّم إلى المؤتمر العام الذي سينعقد خلال شهر نوفمبر، في المكسيك. إذا تمّت الموافقة يمكن الانتقال إلى تحقيق المشروع مباشرة. إنّه عمل مرهق يتطلب اجتماعات دائمة، ولجاناً متشكلة من رجال بارزين، لكنهم ليسوا بيروقراطيين كثيراً. ينبغي الكفاح من أجل إيجاد القليل من النظام، وتكثيف الغيمة وإكسابها شكلاً صلباً. إنَّ البشر يضيعون في رسم الأهداف الكبرى بالكلمات، ولا يدركون الإيقاع الإلهي للمشي على الأرض.

قبل إغلاق ملف اليونسكو يتوجب عليّ التنويه بجهود بعض الأصدقاء من أمثال تيًّا أنيمويانى، والأخوين دسيوتويولو، وب. بريفيلاكي، الذين سعوا إلى الحصول على كفالة فينيزيلوس وباباندريو، وكانلويولوس. ولحسن الحظ أن السياسيين الثلاثة دعموا نيكوس كازنتزاكي لدى اليونسكو. وحده وزير الخارجية اليوناني رأى أن من واجبه توبيخ سفير اليونان في باريس لأنه سمح بمثل ... تلك الفضيحة!

وفي اليونان، كتب بعضهم أن اليونسكو شكلت وسيلة لنيكوس كازنتزاكي كي يخدم شهرته في العالم. ولم يكن ذلك صحيحاً، مطلقاً. فباستثناء ج.ج. مايو، وعالم أسباني رائع توفي منذ زمن، لم يكن في اليونسكو مَنْ يعرف ذلك اليوناني النّحيل صاحب اللكنة، والذي ما أن أتمّ عمله حتى استقال – كي لا يقبض أموالاً تُجنَى بيسر.

وهناك من استغرب أيضا، سَعْي كازنتزاكي ، بوصفه إنساناً حرًّا، إلى الحصول على جائزة نوبل، مدّة سنوات عديدة. وهو لم يسع إليها من أجل المجد، بل بقصد تحقيق استقلال مالي يمكّنه من مساعدة أصدقائه، والسفر، ومعاينة معجزات هذه الأرض، والتوصّل إلى التيه «داخل ثرواته الجوّانية» من دون أن يضطر إلى استنزاف جهده في أعمال لا تقنعه إلا جزئيا.

لكن كازنتـزاكي كان يعي مآسي الكُتّـاب اليونـانيين، ولم يحقد عليهم قط. بل بالعكس. كـان يعرف أن لغتهم كلما ازدادت صفـاء تعذّرت تـرجمتها. وعنـدما أبدي بعض الانتقادات إزاء شراستهم وصعوبـة انتشارهم في الخارج، يضع يده على كتفي ويبتسم ببراءة طفل: «بـلادنا صغيرة، يالينـوتشكا، وليست معـروفة جيّداً. ضعـي نفسك مكان الذيـن يكتبون جيداً ولا يتمكنـون من تجاوز الحدود اليونانية. تعلّمي الطيبة»..

وحتى أختم بملاحظـة، مرحة أكثر، أشير إلى مـا كتبه كولن ولسـون الكاتب الإنجليزي الشاب والمشهور، بروح فكاهة بريطانية حقيقية، في كتابه الذي صدر في لندن سنة ١٩٦٢ بعنوان The Strenght to Dream:

«... ظلّ اسم كازنتزاكي شبه مجهول كليًّا. وهذا أمر مثير للاستغراب. وربما يعود السبب إلى كتابته باللغة اليونـانية، وإلى كون القراء المعاصرين لا يتوقعون اكتشـاف كـاتب يـونـاني مهم، فضـلا عن وقع اسمـه غير المشجّع. ولـو كتب بالروسية وكان اسمه كـازنتزوفسكي، لاشتهر عالميا، وانتشرت أعماله، وأُعجب بها القراء، على غرار أعمال شولوخوف. ثمة نوع من المأساة في هذا الوضع، إذ أنه يتعلق بكاتب يستطيع الـوقوف بجانب عمالقـة القرن التاسع عشر: تـولستوي، دوستويفسكي، نيتشـه (وهو يحبّـه). ولا ذكر لـه حتّى في «قامـوس كولـومبيا للآداب الأوروبية الحديثة».

كنتُ في جبال البيرينيه طلبا للاستشفاء، وظلّ نيكوس وحيداً في باريس، فكتب إليّ:

باريس ٩ يونيو ١٩٤٧

... الإضراب يتوسع وأخشى أن تتعطل خـدمات كثيرة. ولعلنـا نسير نحو الإضراب العام أو الحرب الأهلية؟ الـوضع، على أية حال، متوتـر ومثير للاهتمام. لا بد أن يحدث شيء. وقد يلعب دوراً حاسماً في تغيير وجهة أوروبا..

... لا تقلقي يا حبيبتي. فمصير[illegible] [illegible]متاز، برغم تـذمرك: معك رجل صلب يحبك. وهذا

أمر نـادر في هذا العصر البـائس واللئيم، الذي فقـد فيه جميع النـاس رشدهـم، وأرضاً صلبة يمشون عليها..

وكتب نيكوس يوم ١٤ يونيو ١٩٤٧، إلى بوريي كنوس ردًا على مدائحه:

... سعيد جدًا بارتمائك الباسل في لجّة «الأوديسة»[١]. إنّها تمثل أعلى قمة تمكّنتُ من بلوغها، من حيث الشكل الشعري والمضمون الفلسفي، بعد جهـود حياة كاملة في خدمة الروح.

لقد فـاجأ البيت الشعري ذو السبعة عشر مقطعـاً لفظياً[٢]. الكثير من شعـرائنا .. المعتادين على البيت اليوناني المحـدث من خمسة عشر مقطعا. غير أن ذلك الوزن المبجّل بدا لي مستهلكاً، وينقصه الإلهام. لم يعد قادراً على استيعـاب الروح المعاصرة المحتدمة التي تتألم وتكـافح من أجل كسر القـوالب التي تخنقهـا، وابتكار ايقـاع أوسع وأعمق. والمقطعان الإضافيان يضفيان على الملحمة رحابـة غير متوقعة، ومهابة وعنفاً منضبطاً في وقت واحد .. ولهذا السبب تبنّيْنَا، أنا وكاكريديس، هذا الوزن ذا السبعة عشر مقطعا لفظياً، في ترجمتنا لهوميروس.

... متى أتمكن من رؤية *دخان* ايثاكا مرة أخرى؟

اليونـان تمعن في الظلام تـدريجيا؛ وسـوف يرتكب الأمـريكيون الـذين خلطوا بين الروح والدولار، أخطـاء جسيمة في اليونان، بدورهم. إنّ الشعب اليونـاني يرى طريق الخلاص بوضوح، ويريد أن يسلكها فيُعرقل. لقد كان حظه مأسويا دائما؛ ولنأمل، هذه المرة، أن تقوّي الآلام روحه..

وكتب مرة أخرى إلى تِيًا، بتاريخ ١٦ يونيو ١٩٤٧، من باريس:

هنـا ، عمل كثير، أختنق. مشروع كبير، ولا أجـد متسعاً للـراحـة .. يوم الأحـد فقط أتمكن من المطـالعـة بنهم، فاقـرأ كومـة من الكتب المتراكمـة على مكتبي. غير أن البـذور الجاهزة للإزهـار في داخلي، وللتحوّل إلى أعمال أدبية، تظلّ مغمـورة. لعلها تتقوّى بهذا الانقطاع الإجبـاري. فلتأت السّاعـة المباركة التي أدخل فيهـا إلى فردوس العـزلة! متى؟ متى؟ لم يعد أمامي وقت أضيعه.

---

(١) المقصود «أوديسة» كازنتزاكي.

(٢) تجاوزاً، ما يعادل «التفعيلة» في الشعر العربي (المترجم).

باريس رائعة. متى نتمكن من مساعدتك على المجيء؟

إنـه مشروع أثير سـوف يتحقق بفضل المخـرج المسرحي الفـرنسي السيـد جاكمون، أتيحت لألبير كامو قراءة مسرحية «ميليسا» وكإنسان كريم، لم يتردد في مراسلة نيكوس متطوعاً لخدمته بالبحث عن مدير مسرح، في باريس، يرغب في عرض تلك المسرحية. وطمأن كازنتزاكي: «ليس هناك ما يتوجب إضافته أو حذفه .. ينبغي تمثيلها بلا تأخير...»

فَرِحْنَـا، وخجلنا كثيراً. فلم نجرؤ على دعـوة ألبير كامـو لزيارتنـا. وهكذا لم يتمكن نيكـوس إلا من رؤيتـه في مكتبـه الـذي تصـدر منه «المجلـة الفـرنسيـة الجديدة».

من بين الناشرين الفرنسيين الثـلاثة الذين طلبوا نشر روايـة «زوربا» اخترنا أضعفهم، كما لو كان الأمر متعمّداً، وقـدّر له الإفلاس يوم صدور الكتاب ... ولم تُجدِهِ نفعاً بعـض المقالات النقديـة المادحة التي نشرت في الصحف. فظـلَّ الكتاب رهين مخازن النـاشر. وفيما بعد، عنـدما أراد النـاشر «بلون» شراء تلك الطبعـة الأولى، تبيّن أنها بيعت سرًّا، من دون علم المؤلف.

وعندمـا أعود إلى قراءة ما ينـاهز العشرين رسالـة التي بعث بها نيكوس من بـاريس إلى صديقـه بريفيـلاكي، بين ١٩٤٦ و١٩٤٨، أستعيد همومـه الكبرى وكذلك مشاكل كازنتزاكي الشخصية التي سعى إلى حلّها بطاقته المعتادة.

باريس ١٥ أكتوبر ١٩٤٦

... أزعجك بمشاكلي ، غير أنني أمرّ بظروف عسيرة حقًّا: فالعودة إلى اليونان مريعة، لن أستطيع عمل شيء، وسوف يخنقـونني، أما البقاء في الخارج فلا أقـدر عليه لأنني لا أجد حتى القوت ... أتطلّع إلى ايجين، لكن كيف أعيش فيها؟ أشعر بالخزي، لكتابة هذه الكلمات خزي لكنه لا يخصني...

ومن باريس دائما، يوم ١٥ فبراير ١٩٤٧، حول جائزة نوبل، هذه المرة:

لا أريد أن أرشح وحدي لجائزة نوبل، مهما كـان المبرّر، لا بد أن يتم اقتراح ترشيحنا معاً، مرة أخرى، لأنني لن أوافق على ترشيحي وحدي. فليس ذلك من العدل..

يوم ٢٤ فبراير ١٩٤٧، بخصوص اليونان والحرب الأهلية:

الوضع مهول في اليونان، مهول أيضا في فرنسا. أعتقد أن هذه الاضطرابات الانتقالية من حضارة إلى أخرى سوف تدوم مئتي عـام، ابتداء من ١٩٠٠ أي أننا سوف نتوصل إلى سند قوي وبعض التوازن مع حلول ٢١٠٠..

باريس، ٤٧/٨/٧

لم أعد قـادراً على الكلام بسبب قلقي على اليونـان. لا يمكن أن تنقذها سـوى معجزة ويا لمصيبة من لا أمل له سـوى المعجزات. أختنق، وأحيانا أنفجر بالبكـاء عندما أكون وحيداً..

وعبّر عن فرحه لتمكّن صديقه من العمل بشكل جيّد:

هذا الكتاب[1]، في الحقيقة، يشبه معركة، يخرج منهـا المرء منتصراً وأكثر بسالة، و منهاراً، إذا كان جباناً. إنّه عمل شجاع. لم تسبق لي قراءة كتاب مثله حقًّا.

أنا أعجز مِنْ أن أردّ إليـك الفرح، والشرف الذي نالني من إهـدائك «الكريتي» لي. لقد كافحت حقًّـا طيلة حيـاتي، وما زلت أكافح كـي لا أدع روحي تموت. أعرف كيف يصير الفاني خالداً؛ وهذا هـو أكبر عذاب في حياتي، تحديداً، إذْ لا يكفي المرء أن يعرف ذلك، بل يتوجب عليه أن يصيره..

وعاد إلى محاورة صديقه القديم بـوريي كنوس الغاطس في ثلوج الشمال من دون أن ينسى اليونان، مكافحاً بدوره حتى يتحقق بعض العدل على تلك الأرض. فكتب إليه نيكوس يوم ٢١ أكتوبر ١٩٤٧:

لم يعد هناك إيمان يُخضع «الأنـا الكريهة» إلى مبدأ أسمى من الفرد؛ كلهـم فرديّون، ماديون، يحبّون المادة والكمية، ويزدرون النوعية والروح. لقد تقصَّفَتْ القشرة الرقيقة التي كانت تخفي البهيمـة البدائية (الأخلاق، الحب، الجمال). البركـان البشري يدخّن، وهيجانه مـؤكد. إننا نتقدم بسرعـة نحو اصطدام فظيع، نخرج منـه مهزومين. وسوف تنقضّ المجاعة والعري والبـؤس على البشرية فتسعى مجدّداً، لكن ببطء وصعوبة، إلى النهوض، والانتظام، واستعادة المسيرة «ما هو الدرب الأفضل؟ يسأل الهندوسي. – درب

---

(١) «الكريتي» تأليف ب. بريفيلاكي.

الإله. – وما درب الإله؟ – الصعود». وسوف تتعلم الإنسانية الصعود مثل سيزيف.

ما زال لدينا فرح وواجب: *أن نرغب في الصعود الجديد ونهيىء له، أن نؤمن بالصعود الجديد، وبالإنسانية الجديدة التي سوف تولد من الأنقاض*، وندرك أن المستقبل لا يتوقف علينا، لكن يجب أن نتصرّف كما لو كان يتوقف علينا. هكذا فقط أنجزت الأعمال العظيمة – وهكذا فقط نستطيع التأثير في المستقبل. إنه *تفاؤل مأسوي* اذاً وليس تشاؤماً .. ويمكن للإيمان، والحب، والاحترام، الممنوحين لهذه «الدودة الواقفة» التي تدعى الإنسان، أن تنقذنا.

هذه الأفكار، يا صديقي العزيز، تحاصرني في هذه الأيام الحرجة بالنسبة لفرنسا والعالم. فهنا ينظّم المعسكران صفوفهما: اليمين المتطرف، واليسار المتطرف. هنا أيضاً يجري التمهيد للصدام. هناك شيطان، هو شيطان القرن العشرين، يدفع بالناس نحو الدّمار. وكلّ دمار هو أول مرحلة من مراحل الخلق..

ويتحدَّثون عن عدمية كازنتزاكي. أليس العكس هو ما توحي به أعماله، ومراسلاته، وحياته؟

باريس، ١٢ ديسمبر ١٩٤٧[١]

قابلت أمير بولي أول أمس؛ وهو بدوره قلق جدًّا (ولا يفتقد الأمل أيضا) إزاء مصير الإنسان. ويأمل ألاّ تلجأ الإنسانية إلى استخدام القنبلة الذرية للانتحار. قال جملة أثّرت فيّ، لأنني مازلت أقولها وأكتبها، بدوري، منذ أعوام عديدة، والجميع يؤوّلونها بالمقلوب: «لا خوف، ولا أمل». أعتقد أنه شعار يناسب رجل العلم حاليا، كما يناسب كلّ إنسان مفيد ونبيه. «لا أخشى شيئاً، لا آمل شيئاً، أنا حر» إنها الجملة التي أتمنّى «رؤيتها» منقوشة على قبري. لقد تمثل جهد حياتي، خلال السنوات العشرين الأخيرة، في قهر الوهم والأمل، من دون أي شعور بالخوف: مواجهة الهاوية من دون بكاء، أو توسّل، أو تهديد، بل بطمأنينة وجدارة. رؤية الهاوية والعمل كما لو كنت خالداً.

فرحت كثيراً للتعرف على عالم برولي الكبير لأنّه رسّخ في داخلي أفكاراً كثيرة..

١٩٤٨. لم تكد احتفالات العام الجديد تنتهي حتى تلقّينا طعنة في القلب: مات

---

(١) رسالة إلى بوريي كنوس

صديقنـا الطبيب سقـريذاكي بعـد أن أصيب بالتهـاب الصّفاق خـلال زيارة إلى مسقط رأسه، وانعدام العلاج المناسب.

وهمس نيكـوس حزينـاً «الكريتيـون يحسـون بدنـوّ أجلهم، فيموتـون بين ذويهم»..

كان قد استقال للتّـو من اليونسكو، وبدأ يعدّ خطـاباً ليلقيه في المؤتمر الدولي للأدب، مـوضوعه الأدب اليـوناني الجديد. وكعـادته انكب على انتقـاء كلّ كلمة، والكتابة ثم إعادة الكتابة، باحثا عن الموضوعية قدر الإمكان.

«ليته يقبل بـالبقاء في اليـونسكو ستة أشهـر أخرى، فكّـرتُ. وهكذا نتمكن، بفضل المال المكتسب، من اشتراء شقتين في بـاريس، فنسكن في واحـدة ونؤجّـر الأخرى. ونتخلص من مشاكلنا الماليـة، إلى الأبد» غير أن نيكوس خطط لمستقبلنا بطريقة أخرى:

– كيف تنصحينني، قـال محتجًا، بقبـول أموال بـلا عمل؟ لم يعد لـوجودي معنى في اليونسكـو، وختم متنهداً، لو سلكت طـريق مكتبي يومـاً آخر، لبكيت في الشارع..

تركته وشأنه. واستعدت ثقتي. وبدأنا نحلم بقصور مستقبلية في ... أمريكا.

باريس، ٢ فبراير ١٩٤٨(١)

صديقي العزيز،

تأخرت في مـراسلتك كي أشكرك على تـرجمة «جدّي»(٢) .. لكنني كنت مهمومـاً. لقد توفي واحـد من أعزّ أصدقـائي ولم أتوصل إلى العزاء. ثـم ملأ السّم قلبي وروحي، في ذلك اليـوم، من جراء اغتيـال غانـدي. لقد تقلّص العـالم منذ ذلك اليـوم .. أربع رصاصـات أصابت الضمير الكوني بجرح عميق .. وليس من المستغرب، في عالم مادّي، وكاسر، ولا أخـلاقي، مثل عـالمنا، أن يُقتل بَطَلُ الّـلا عنف بـواسطة العنـف. كما لو أن الإعـلان عن

---

(١) رسالة إلى بوريي كنوس.

(٢) فصل من «الحرية أو الموت» مكرّس لموت الجّد.

السلام والمحبّة في عصر بائس، يثير الحقد ويفجّره. لقد أطلقت القوى الظلامية، الجبابرة العميان، وبات كلّ جهد نبيل يضاعف هيجانهم..

وأخيرا تمكن كازنتزاكي، يوم ٢٥ مارس ١٩٤٨، بعد تقديم استقالته لليونسكو، من التدوين في دفاتره: «٢٥/٣/١٨٢١ - ٢٥/٣/١٩٤٨، يوم تحرّر»[١].

باريس، ٢٣/٤/١٩٤٨[٢]

... لقد تحررتُ من جديد وانغمست في العمل الإبداعي الصافي والنزيه. طلبتُ من اليونان تجديد جواز سفري كي أسافر إلى أمريكا حيث ينتظرني مترجم «الأوديسة» (رِيَا دالفن). لكن الحكومة الفاشية القائمة في اليونان رفضت لأنها تخشى، كما زعمتْ، أن ألقي محاضرات سياسية! سأنتظر إذاً، أن يبسط الإله يده فوق اليونان ليدافع عنها. لأننا نضيع والعرق اليوناني في خطر. كلّ يوم يتقاتل الإخوة، ويتعمّق عمى الأهواء وتضمحلّ إنسانيتها.

لقد كان الشقاق دوماً إحدى لعنات عرقنا. وكثيراً ما أوصلنا إلى حافة الهاوية. وحتى اليوم تمكنت بلادنا من الخلاص، غير أن الأهواء أراقت الدماء، وحشد الخطر كل قوانا، وشحذ روحنا، فاكتفت، في بعض الأحيان، بالمسرات المتواضعة: الحب والسلام والفرح الإبداعي. ولهذا السبب كان عرقنا يندفع نحو الإبداع الروحي إثر كلّ حرب دموية. إنَّ أملي الخفيّ اليوم، هو أن تولد أعمال روحية عظيمة من الدم والرماد والدموع. إنَّ الشعلة ستنتقل من يد الأعداء إلى يد الإلٰه. يقال إن الربّ يحبّ اليونان ويرتدي الفوستانال[٣] اليونانية؛ وسنتأكد الآن!..

سعيت إلى إقناع نيكوس بالبقاء في باريس لأننا لا نستطيع السفر إلى أمريكا، ولا العودة إلى اليونان. لكنه تعب من المدن الكبرى. ولقد فُتن نيكوس بالوصف الذي قدّمه ثراسو كستناكي[٤] لمدينة آنتيب، ذات الطابع الأغريقي القديم، مع البحر وغابات الصنوبر والأسوار، والأرباض، ومرتفعات الألب، التي تذكّر

---

(١) ٢٥/٣/١٨٢١: ثورة موريه.

(٢) رسالة إلى ايليني ساميوس

(٣) تنّورة يونانية قصيرة ومجعّدة يلبسها الرجال في اليونان (المترجم)

(٤) روائي يوناني مقيم في باريس وأستاذ لغات شرقية.

باليونان. فقـرر السفر إليها فوراً. وكان يتوجب عليـه، قبل توديع اليونسكو، أن يلقي محاضرته عن الأدب اليـوناني في المؤتمر الدولي للأدب. ونظمت اليـونسكو مأدبة على شرفه. وبعد أحد عشر شـهراً من العبودية تمكن عوليس من الإبحار.

قبل بضـعة أسابيع من تخلّي نيكـوس عن منصبه، ظهر دمّل صـغير على شفته العليا، مصـحوب بحمّى خفيفة، وقلل طبيب اليـونسكو من خطورتها معتبرا إياها «حمّى رضيـع». وصـار نيكوس يرفض تنـاول الشاي في مكتبه مثل غيره، ويعود إلى البيت، في المساء، عطشــان، ويشرب الكثير من الشـاي. وكنت أستغـرب إغفاءه بضـع دقائق على «مقعد الشاعر». لكننا لم نول أهمية لتلك الأعراض الأولية.

وعندمــا انتقل نيكوس إلى آنتيـب بدأ يبحث عن مسكن جـديد لنــا، بمثابـرته وحماسته المعهودتين في الماضي. فوجد بيتاً رائعاً من كلّ الجوانب.

آنتيب، ٢٣ يونيو ١٩٤٨(١)

آمل أن يجلب لنا «البيت الـوردي» السعادة .. كيف عثرت على هذه الفيـلا؟ بمعجزة حقيقيـة. ولقد ســاعدتني النســاء مـرة أخرى. جبت المنطقـة مشيا على القـدمين، أو في الحافلـة، والقطار. لا شيء ... فخـرجت من آنتيب. وبعـد بضع مغامـرات استقبلتني في إحدى الوكالات العقارية سيدة شقراء، ممتلئة، تشبه غلاما خصيا. قالت «أعتقد أن لديّ ما يناسبك!» انعطفنا مع الزقاق المخضوضر ووصلنا إلى «البيت الوردي» دخلنا: حديقة فيها شجـرة محمّلة بـالزعـرور الناضج، وأشجـار زيتون، ومشمش، وسروة كبيرة في المدخل ... شرفة رائعة، تطل على البحر وجبال الألب المغطاة بالثلوج ... هدوء مطلق ... على بعد عشر دقائق من البحـر...

أنا سعيد بما وجدت، وسوف تسعدين في هذا البيت(٢) المريح...

سـمح نيكوس، قبل مغـادرة باريس، لممثل ومخرج مسرحي شاب ومـوهوب، هو جـورج كارمييه، بإخـراج مسرحية «جـوليان الكافـر»، لعرضها في مســابقة الفـرق الشابـة. وتـابع بنفسه كل العـروض التجـريبية. واستخـدمت الملاءات

---

(١) رسالة إلى ايليني ساميوس كازنتزاكي.

(٢) ....

القديمـة التي أهداها لنا ابن شقيـق سفريداكي بهذه المناسبـة، وبعض الأقمشة القطنيّة التي تولت السيدة كارمييـه صبغها، أزياء للإمبراطور - الجندي والقس والجنـود الأغريق .. حضرنـا التجربـة الأخيرة، لكن نيكوس لم يحضر العـرض الأول لأنه سافر، وانتقلتُ بدوري إلى ايفيان بعد العرض الأول مباشرة.

(آنتيب، ٢٣ يونيو ١٩٤٨)[٢]

الأربعاء

... فرحت بنجـاح المحاضرة حول غـاندي[٣]. تلقيت رسـالة من دوكير بخصـوص عرض «جوليان»، وكذلك من «س» والسيدة بيـو. يبدو أن النجاح كان باهراً والتصفيق حارًا.

انتهيت من «سدوم وعمـورة» منذ ١٨ يونيو. وهكـذا استغرقت الكتابة ثـلاثة عشر يوماً. وأقوم الآن بالنسخ كي تطلعي عليها.

هبت ريح عنيفة قبل أيام وأسقطت كلّ ثمار المشمش. لـذيذة، ناضجة، الخ .. لكنني حزنت لأنني كنت أنوي تركها إليك...

وبينما كنت أستريح في ايفيان نـزل الإلهام على نيكوس في «الفيللا الـوردية». وعاد إلى إشراقة الشباب كما في ايجين.

«اقرأي يا لينوتشكا، وخبّريني إذا كانت لها قيمة!» ووضـع على ركبتيّ وليدَيْن جديـديْن: «سدوم» و«عمورة» ويشكـلان مسرحية في ثـلاثة فصول أنجـزها في ثلاثة عشر يوماً، ودفعة أولى من رواية كبيرة ستحقق له الشهرة: «المسيح يُصلب من جديد».

شرعت أقرأ مذهـولة ومتسـائلة أين ومتى وُلد هذا العـالم المزدحم باللاجئين، وهذه اللغة الجديدة، الناعمة، المشبوبة، التي لم أعهدها في كتابته.

- لكنكَ كنتَ تستعدّ للكتابة عن شفاء المسيح بالتحليل النفسي!

---

(٢) رسالة إلى ايليني ساميوس كازنتزاكي.

(٣) تحدّثت عن غاندي في غرونوبل، أمام لجنة مختصرة.

– أنا ، ربّما ... لكن ذلك الآخر، المجهول في داخلي، كان مستعـدًّا لكتابة ما هو بين يديك الآن. هيا اقرأي يا عزيزتي واعلميني إن كان العمل جيِّداً...

قـرأتْ راحيل «سـدوم وعمـورة» واعترضت على بعض النقـاط، فـردّ عليهـا نيكوس مناكفاً:

عزيزتي راحيل، أواه، كم مرّغتُ ابراهيم ولحيته، وأسأت إليهما! وكم رفعت من شأن يهوذا الاسخـريـوطي بجـانب المسيـح، في الكتـاب الـذي أعمل عليـه الآن[1]. إن تلـك «المخلوقـات» المقدّسـة أو الشيطانية، بـالنسبة إلى خالقهـا، ما هي إلا بيـادق في لعبته السـامية. احتجت إلى «ابـراهـام – الشاة الثـاغيـة» فوجـدت في التـوراة ابراهيم آخـر. فأجريت عليه بعض اللمسات (الرتوش)، كما يفعل المصورون، حتى يخدم خطتي. أمر بسيط. ومن الأنسب والأعدل دفع «التقاليد» قليلا، تلك العجـوز الشرسة! كلّ ما ذكرتِهِ صحيح، لكن العكس أيضا صحيح؛ وبالنسبة للمبـدع ليس هناك وجود لما هو عادل أو غير عادل، طيب أو مـاكر، الإله والشيطان. هنـاك شعلة واحدة جـائعة لتلتهم كلّ ذلك القوت الشهي. وللشيطـان جسد مغذٍّ أكثر مـن الإله؛ وأنا أحبّه. بشرط أن يتم التهـامه وهضمه وتمثله...

أثناء تأليف نيكوس «المسيح يصلب من جديـد» تورّمت شفته. ولم يعد الأمر يتعلّق بدمّل بسيط كما كـان في باريس، بل صار ورماً صغيراً، مصحـوباً بقليل من الحمّى. ولقد دوّن نيكوس يوم ٢٧ يـوليو في دفتره: «تورمت شفتي في الوقت الذي كنت أصف فيه، في روايتي، كيف بدأ وجه البطل الذي سيلعب دور المسيح، ينتفخ بدوره».

لكن الشر ذهب كما جاء. ولم نعره أي اهتمام إلّا ما ذكره نيكوس: تأثير الروح في جسده ... جاء ب. بريفيلاكي لزيارتنا في آنتيب وسررنا كثيراً. إذ أن نيكوس لم يتنكر نهائيا، كان يشعر بنفسه منفيا، وتحمّس لرؤية صديقه ومواطنه، مجدّداً. وكان الكتاب الجديد الذي قرأه علينا بريفيلاكي متميزاً.

ولم يكد بريفيلاكي يغادر حتى زارنـا بيار وإيفون مترال، ثم بوريي كنوس،

---

(١) «الإغواء الأخير».

وبرونو لافانيني وكان متخصصاً في لغة اليونان وحضارتها، ويتحدّر من أصل صقلّي. الشمال والجنوب في قلبين مأخوذين باليونان ويعملان بحماسة للتعريف بأدبنا في بلديهما، وخطا بوريي كنوس خطوة إضافية: رفع صوته عاليا لإدانة القمع الذي يتعرّض له الشعب اليوناني خلال تلك الأعوام السوداء، على وجه الخصوص. وذلك ما شكره عليه نيكوس بحرارة.

أغلقت المدارس والجامعات أبوابها وغادر المصطافون الساحل. فتمكّنا من التنزّه ساعات على امتداد الشاطيء المقفر، وغابة غاروب، والمرتفعات، وفوق آنتيب و«كانْ»، والآلب البحرية التي تذكرنا بأرض آتيكا السهلة. سار كلّ شيء على ما يرام. وجاء «الفجر» الذي طالما ناداه نيكوس، وانفتحت الأبواب وحدها، حتى التي كان يتوجب أن تظل موصدة إلى الأبد. قبل عيد الميلاد بأيام، عرض علينا وكيل عقاري «فيللا» رائعة ذات بستان واسع مع شرفة مثالية تطل على مشاهد جميلة، تغري بالعزلة والعمل. وعرض علينا استئجارها لثلاث سنوات، ليفرحنا. «حمانا الله من ذلك!» صاح نيكوس هلعاً. «ثلاثة أعوام أخرى بعيداً عن اليونان! هذا يعني...».

وتعبتُ في إقناعه بتوقيع عقد الإيجار ... وبعد أيام مشرقة هبت العاصفة كالعادة. إذ عاد وجه نيكوس إلى التورّم عشية عيد الميلاد. وشخّص الأطباء داء «منطقة» (زونا) غريباً، لأنه غير مؤلم. ولم يكن كذلك. إذ عاد الورم مرة أخرى بعد ستة أشهر. إنه داء مجهول، حساسية مزمنة.

وبعد تلاشي الحمّى، والانقباض الجلدي الخفيف المرافق لها، عاد نيكوس إلى العمل، راغباً في النسيان. ومرت بضعة أيام فعاد كلّ شيء إلى طبيعته. وبتفاؤله المفرط لم يعد نيكوس إلى التفكير في الأمر، حتى عاوده المرض.

آنتيب، ٢٩ يناير ١٩٤٩(١)

صديقي العزيز،

كنت مريضاً، ولم أكفّ عن التفكير فيك وفي الكتابة إليك، لكنني لم أكن قادراً على

---

(١) رسالة إلى بوريي كنوس.

ذلك. وها أنـذا قد شفيت. تلقيت اليوم دراستك حول اليـونان اليوم، اليونـان المأسوية، واطلعت عليها بانفعال شديد..

عملت حتى في أيام مرضي، وروايتي الجديدة تتقدّم جيداً. هل اطلعت على عدد «دفاتر الجنوب» المكرس لموضوع «حضور اليونان»؟ إنّه جيد ومفيد إجمالاً، لكنه غير عادل. إذ لم يشمل الإشارة إلى أفضل ناثرينا وشعرائنا: بريفيلاكي، ميريفيلي، كاستاناكي، الخ ... وكذلك الشعـراء فارناليس، نيكـوس بارباس، ريتـا بومي، بابـا ... إنَّ ليفيسك فرنسي متحمّس راح ضحية زمرة كريهة في أثينا ... وأنا حزين جدًّا لذلك. آمل أن تتولّى أنتَ هذه المهمّة النبيلة، ذات يوم..

صرنا الآن نسكن في «فيـلا مانـوليتا» في منتـزه سارامـارتال. الربيـع ناعم. نذهب كلّ أسبوع باكراً لزيارة القـرى المحصنة في جبال الألب البحرية. صنوبر، زعتر، «سيست» غابـات ميموزا مزهـرة، أريج يتضوّع، نحل ويعاسيب طنّـانة، والبحـر يلمع تحت أقدامنـا. صـارت آنتيب بمثابـة «آنتيبـوليس» لنا، وجـاءت اليونان إلينا لأننا لا نستطيع الذهاب إليها.

انكب نيكـوس على العمل بشكل رائع. وكـان يسأل زوّارنـا من الأصـدقـاء اليونـانيين عن تفاصيل حـرب الأشقّاء التي تعصـف باليونـان، ويسجل بعض الملاحظات. وأنهى المسودة الأولى لرواية «الأخـوة الأعداء» بعنوان فرعي: «يزعم أنه حرّ. اقتلوه!».

في شـهر ابريل من العام نفسه كتب «كوروس» (ثيزيوس)، وهـي إحدى أجمل مسرحيـاتـه التي وضعها معتمـداً النثـر الإيقـاعي. وبين مـايـو ويوليـو أنجـز «كريستوف كولمبوس» بعنوان «التفاحة الذهبية». وبين العملين المذكورين، أعاد صياغة «قسطنطين باليولوغ».

آنتيب، ٣ ابريل ١٩٤٩(١)

صديقي العزيز،

أتمتع بصحـة جيدة وأعمل كثيراً، فـرغت للتوّ من كتـابة روايتي الجديـدة «الإخوة

---

(١) رسالة إلى بوريي كنوس.

الأعداء» ... أنهيت الصيـاغة الثانية اليـوم؛ سوف أعيد الصياغـة أربع أو خمس مرات، ولن تصدر الـرواية إلا بـاللغة الفـرنسية ... الآن أبـدأ مسرحية ذات شخـوص أربعة: مينوس، ثيزيوس، المينوتور وآريان[1] يرمز مينـوس إلى آخر ثمرة في حضارة قـديمة، وثيزيوس إلى أول ثمرة في حضارة جديـدة، والمينوتور إلى الشعور الباطني المظلم، حيث لم تنفصل الفروع الكبرى الثلاثة: الحيوان والإنسان والإله؛ إنه الجوهر المعتم والبدائي الذي يضم كلّ شيء. أما أريان فترمز إلى الحب.

أصارع ، وأنـا أعمل، كي أنسى آلام اليونان بعض الـوقت. ينفطر قلبي عندمـا أذكر «الأم»، آلما ماتر». متى ينتهي هذا العذاب[2]؟ لكن كيف؟ أخشى ما هو أسوأ...

عاد وجـه نيكوس إلى الانتفاخ من جـديد، مع غيـاب أية علامـات، أو أعراض أخرى، تمكّننا من اكتشاف أسباب المرض.

آنتيب، ٢٦ أغسطس ١٩٤٩[3]

صديقي العزيز،

منعني العمل والمرض من زيارتك خـلال الأشهر الأخيرة. سأذهب بعد غد إلى مـدينـة فيشي حيث أقيم واحداً وعشرين يوماً. عندمـا أمرض يتضاعف عملي، كما لو كنت أسعى إلى التغلُّب على المرض بتـوتر الـوثبة الخلاقـة. وهكـذا أنهيت «كريستـوف كولمبـوس» وفرغت من الصيغة النهائية لـ «قسطنطين بـاليولوغ» التي صغتها شعراً ضمن أبيات تتكون من ثـلاثة عشر مقطعا لفظيًا. ويحاصرني هـذه الأيام، موضوع جـديد بإلحاح شديد: بـودوان الرابع، ملك القدس، «الأبرص». يـا له من شخصية خارقـة! يا للروح البطـوليـة التي لا تقهـر داخل ذلك الجسـد المتعفّن تـدريجيـاً! يـا لـه من رمـز فظيع للإنسانية كلها! لا أتمكن من تمالك نفسي؛ يجب أن أعبّر عنـه بالكتابة حتى أتحرر منه، كيف ينبثق الموتى المدفونون منذ آلاف السنين من قبورهم، فجاة، ويحاصرون الأحياء؟ إنهم يريدون شرب القليل من دمنا، كي يبعثوا ويـروا نور الشمس! حدث لي الأمر نفسه مع عوليس، وهيلينا، وجوليان الكافر، نيسافور فوكاس، وأخيراً مع ألكسيس زوربا..

---

(١) ثيزيوس أوثيزي، ملك أثينا الأسطوري قتل المينوتور (الوحش) بفضل خيط آريان الذي كان دليله في الدهليز (المترجم).

(٢) انتهت الحرب الأهلية في اليونان وبدأت أعمال الانتقام والدسائس تعصف بالبلاد.

(٣) رسالة إلى بوربي كنوس.

وافق في نهاية المطاف على الذهاب إلى فيشي للراحة. ومنها كتب:

الجمعة، ٢ سبتمبر ١٩٤٩(١)

يا أرملة يحبّها رجلٌ حيّ، أكتب إليك مباشرة، بعد ذهاب الطبيب..

العمل الذهني صار صعباً. فالنهار يتخلّله العلاج والذهاب إلى ينابيع الماء المختلفة. سأضطر إلى البقاء آملاً أن تتحسن حالة الجسد ... أتلهف بهذه الرسالة إليك كي تدركي ما صار إليه المنفيّ..

الاثنين، بعد الطبيب(٢)

عدت من عند الوحش. كان ألطف اليوم ... سألته: «ماسم مرضي؟ – لستَ مريضاً! لا شيء!».

ألححت عليه، فانزعج وتناول ورقة وكتب: «التهاب معدة وأمعاء مع عجز في الكبد، من دون تقرّح...»

وكتب إلى بوريي كنوس في اليوم نفسه:

ذقت الكسل لأول مرة في حياتي. وأدركت لأول مرة أن لي جسداً يتوجب الاعتناء به، ليس من أجله، بل من أجل الروح التي يحملها على كتفيه. أُكثر من المغاطس، وشرب الماء الفاتر، وأتنزه تحت أشجار الدُّلب الخضراء فأرى الكثير من الناس الكئيبين، وأحيانا، كما يتجول الكهنة بأناجيل مفتوحة، أفتح بدوري كتاب دانتي الصغير الذي يلازمني في السفر، فأقرأ بيتين أو ثلاثة، وأنتقل إلى «الجحيم» أو «المطهر» أو «الفردوس»..

(فيشي) ٩ سبتمبر ١٩٤٩(٣)

تحدّث الطبيب اليوم عن «تحسن رائع» .. وبعد أسبوع من الاستسقاء، صار الكبد يعمل بشكل «شبه ممتاز»...

---

(١) و(٢) و(٣) رسائل إلى ايليني ساميوس كازنتزاكي.

(فيشي) مساء الثلاثاء[1]

يا أرملة الرجل الحيّ، «خِيري»![2]

أكتب إليك كل يوم. فالأيام ثقيلة لا تتقدّم. وعلى الرغم من كل شيء، هناك عمل يولد في دماغي -- من سلسلة «كوروس» - وسوف أكتبه حال عودتي ... آمل أن يعجبك...

أشعر بالحزن لعدم سماع المذياع. يبدو أن الاتحاد السوفياتي قد تخلّى عن رجال المقاومة [اليونانيين] المساكين . لا شك أن الشيوعيين سيجدون أعذاراً. وربما كان ذلك خطأ؛ لا أقرأ سوى «لوموند».

بعد أسبوع أمضيناه معاً في فيشي، عاد نيكوس إلى آنتيب بمفرده:

ايجبن (هكذا)[3] ٢٤ سبتمبر ١٩٤٩[4]

يبدو لي أنني لن أنسى أبداً ذلك الأسبوع الذي قضيناه معاً في فيشي. كانت لها عذوبة وحنان عجيبان، كما لو كانت أيام خطوبة، كما لو كنا نلتقي لأول مرة. لقد تذوقت كل لحظة بطمأنينة وكثافة، حتى عندما لا أتكلّم. كنت في منتهى السعادة..

تحدّث ترومان اليوم، في الإذاعة، عن كشف تفجير قنبلة ذرية في سيبيريا، وخرج المذيع[5] عن طوره لأن روسيا امتلكت بدورها قنبلة ذرية!..

وبعد بضعة أيام، كتب إلى بوريي كنوس:

آنتيب، ١٦ أكتوبر ١٩٤٩

ها أنذا قد عدت إلى جنة آنتيب، طقس ربيعي، شمس مشرقة، وعذوبة الكلية. بعض أشجار الميموزا أخطأت وأزهرت. لا أستطيع الانزواء في مكتبي، أعرّض نفسي، النهار كله، نصف عار، للشمس، وأكتب. الرومان القدامى على حق، فالشمس «هي الحقيقة المؤكدة» .. توصلت إلى الشكل النهائي لمسرحيتين وأبدأ بأخرى جديدة: «هيلينا»[6].

---

(١) رسائل إلى ايليني ساميوس كازنتزاكي.
(٢) باليونانية وتعني «تحيّة» (المترجم).
(٣) خطأ من كازنتزاكي في الأصل، وتوضّحه الرسالة اللاحقة. ويمكن التذكير أيضاً بقول استشعاري له سنة ١٩٤٨: «يحس الكريتيون بدنوّ أجلهم فيموتون بين ذويهم» (المترجم).
(٤) رسالة إلى ايليني ساميوس.
(٥) بالانجليزية في الأصل Speaker
(٦) أتلفها المؤلف قبل إنهائها.

وسوف أكتب «بودوان ملك القدس» هذا الشتاء.

ثمة تفاؤل معتدل في Lake Success، لذا يُعتقد أن هناك أملاً في التوصل إلى إيجاد حلّ للمسألة اليونانية. ولا شك أن هذا الحل سوف يكون ناقصاً وتغدو الحيلة غير محتملة في اليونان لبضع سنوات، فحتى مع انتهاء الحرب الأهلية سوف تبدأ أعمال الثأر الجماعية. إن مصير العرق اليوناني فظيع وغامض، كما لو أن الروح في تلك الأرض لا تروى إلا بالدموع والدماء .. وهكذا فإنّ واجب كلّ يوناني، لتبرير وجوده، هو الكفاح من أجل تحويل تلك الدماء والدموع إلى روح.

حلّ الخريف، مرة أخرى ، بطيئاً، زاهيا. وذكّرتنا حبات التين البيضاء الأخيرة بمذاق التين في شهر أغسطس، بنفسجية من الخارج، عسلية اللون من الداخل، شديدة الحلاوة ومنعشة. وبدا نيكوس متألّقا، يتسلّق أشجار التين كلّ صباح ويأتي لي بصحْفات ملأى بتلك الثمار التي أحبّ. ولولا المصير المأسوي لبلادنا لكنّا سعيدين في هذا *الفردوس* الجديد الذي جعل نيكوس يخطيء ويسميه ايجين.

آنتيب، ١٧ ديسمبر ١٩٤٩[١]

متى أعود إلى اليونان لأرسل إليك بالعسل والزبيب والتّين – الهبات اليونانية الخالدة. متى؟ كل شيء قاتم هناك، والعبودية تحاصرنا مجدّداً، عبودية علمية، منظمة جدًّا، مموّهة جيّداً، ونحن نحتاج إلى سنة ١٨٢١ جديدة كي نتحرّر[٢]. ولا بد أن تأتي طبعا، لكن، في الأثناء، سوف يموت آلاف البشر وتذوي أرواح أخرى أو تبيع نفسها..

لذلك أمكث هنا، منفيًّا في جنّة آنتيب، ساعياً، قدر الإمكان، إلى خدمة اللغة والروح اليونانيتين الجديدتين. ذلك ما أفعله منذ أربعين عاماً من دون أن أكافأ إلا باضطهاد الرسميين اليونانيين. لكنني مجبول من طينة طيبة «صنع كريت»[٣]، وأقاوم . وآمل أن أواصل المقاومة هكذا حتى الموت.

الرواية الجديدة[٤] تتقدّم، وستكون جاهزة عما قريب؛ أسعى قدر المستطاع إلى بعث

---

(١) رسالة إلى بوريي كنوس.

(٢) تاريخ ثورة مورية أو شبه جزيرة البيلوبونيز جنوبي اليونان (المترجم).

(٣) في الأصل Made in Creta

(٤) «الحرية أو الموت»

والدي حيًّا، وبالتالي إلى تسديد دَيني إزاء من أنجبني، بوضعه في العالم.

١٩٥٠. لم يتغير شيء في الوضع السياسي اليوناني خـلال هذه السنة، وكذلك في حياتنا الخاصة. وكما في ايجين أزهرت أشجار اللوز في بداية العام. يوم ١٨ فبراير احتفلنا بعيد ميلاد نيكوس، فقمنا بـرحلة طويلة عبر جبال الألب البحرية، تحت الميموزا المزهـرة. وتحدّثنا مطولا عن بريفيـلاكي الذي ولد بـدوره يوم ١٨ فبراير. وأثناء السير راجع نيكوس محصلة حياته. وكانت تلك المرة الأولى التي لم أسمعه فيها يتأسف عن عجزه في تزعّم حركة إصلاحات سياسية كبرى. كان في حالة حسنة. ومن أجل إبعاده عن مكتب عمله، حثثته على الذهاب لجني الزيتون مع البستاني الهرم الذي كان في العقد الثامن من العمر. واستطعنا، ثلاثتنا جَني قرابة سبعمائة كيلو غرام.

آنتيب، ٣ مارس ١٩٥٠[١]

صديقي العزيز،

... بعد غد، الأحد، ستجرى انتخابات في أجواء رعب ... وأخشى أن تزيد حياة البلاد تعقيداً[٢] ... أشكرك مجدّداً على إرهـاق نفسك بالتعليق على كتـابي؛ قبل أيام كـان عيد ميـلادي، وهـاأنـذا أسير منـذ خمسـة وستين عـامـاً، أمشي وأجيء في هـذا السجن ذي النّافذتين، هـذا السجن الغامض والمعتم الذي ندعوه «الإنسان»؛ ومن خـلال النافذتين الصغيرتين أنظر إلى العـالم من دون أن أشبع – ما أروعـه، ما أشد تنـاغمه مع جـوعنا، وظمئنا، وتطلعنا إلى إلـه! منذ خمسة وأربعين عاماً أكافح من أجل السّمـو بهذه الرؤية، وكل هذا الجوع والظمأ، كي أكسوهـا قبل موتي، بمساعدة حروف الأبجديـة اليونانية، الأربعة والعشرين. فيتحـوّل أكبر جزء ممكن من المادة إلى روح! لـو قيّض لي أن أولد من جديد لما اخترت دربـاً آخر. إن الدرب الصاعـد الذي اخترته وعر وشـاق، لكنني لا أشعر بالندم.

---

(١) رسالـة إلى بوريي كنوس (+ اضافـة ذاتية يعتذر المترجم العـربي على حشرها: ولدتُ في هذا اليـوم تحديداً .. لاترجم لك هذه الرسائل سنة ١٩٩٤ .. يا كازنتزاكي!)

(٢) يقصد اليونان طبعاً.

من ستوكهولم، جاءت أخبار سارة: ما زالت رواية «زوربا» تترك انطباعاً مدهشاً، وانتهى بوريي كنوس من ترجمة مسرحية «ثيزيوس» التي ستقدّمها الإذاعة السويدية. وأنجز أيضا ترجمة «المسيح يصلب من جديد» متوقعاً لهذا العمل مستقبلا باهراً. ولقد تأثر نيكوس، وشكره. لكنه حدّثه عن اليونان في الدرجة الأولى، حيث كانت الفاشية تعيث فساداً:

آنتيب، ١٥ مارس ١٩٥٠(١)

... ما حدث منذ أيام ، في اليونان، كان معجزة حقيقية. وبيّن عمق الكرامة والكبرياء والبسالة التي يتحلّى بها الشعب اليوناني؛ ففي أجواء رعب لا يصدق ذهب للتصويت ضد الفاشية، بالآلاف ..

أنت شاب في السابعة والستين من العمر، وأنا شاب في الخامسة والستين؛ قلبك وقلبي في العشرين، أو في الحادية والعشرين على أقصى تقدير. لن نسلم أسلحتنا بسهولة. إن إحدى أكبر الأفراح التي ما زلت أتمنى تذوقها، هي أن أجعلك تجيء إلى اليونان، كي نتمكن من وطء الثرى المقدّس واجتياز جبال كريت المقدّسة ثلاثا..

آنتيب ، ٩ مايو ١٩٥٠(٢)

.. «برافو» .. لا نتهائك من (ترجمة) «المسيح يصلب من جديد»؛ سررت لإعجابك بالرواية حتى النهاية. إنها رواية حقيقية .. كانت رواية زوربا أقرب إلى حوار بين كاتب فاشل ورجل حقيقي من عامة الشعب؛ حوار بين الروح – المحامية وروح الشعب العظيمة. انتهيت بدوري من كتابة «القبطان ميخاليس»، مأسوية جدًا: صراع من أجل الحرية، تطلّع الروح الأبدي إلى الانعتاق، جهد المادة للتحول إلى روح، تحرّر الإله من كل الفضائل البشرية التي تثقله من أجل التحول إلى روح أيضا. إن أسطورة القبطان ميخاليس في منتهى المأسوية، وقد عشتها بطريقة نازفة، عندما كنت في الرابعة من عمري، وبعد ذلك خلال ترعرعي في أجواء كريت المأسوية. وكل ما أذكره في الكتاب من أناس ووقائع وكلمات، وثيق الصلة بالواقع، مهما بدا غير قابل للتصديق، بالنسبة لأولئك الذين ولدوا في ضوء الحضارة الغربية أو في ظلها ...

سأتركها ترتاح قليلا على مكتبي الآن، وأبدأ بكتابة مسرحية تحاصرني منذ زمن ..

---

(١) رسالة إلى بوريي كنوس.

(٢) رسالة إلى بوريي كنوس.

«فاوست الثالث» وهو مختلف تماماً عن «فاوست» غوته، والأدوار مقلوبة كليًّا، إنَّه عمل في منتهى الصعوبة لأنه يتطلب منّي مقارعة ما سبق. وسوف أسعى إلى تجنّب الخزي. القدامى يفعلون ذلك؟ كانوا يستعيدون مواضيعهم الأكثر انتشاراً .. ويسعون إلى تجديدها فقط، وإكسابها عمقاً أكبر، ومعنى أوسع؛ سأحاول الآن، إذا استطعت، فعل الشيء ذاته مع «فاوست». فليكن الإله في عوني!...

عادت ظاهرة الحساسية. وكشف تحليل الدم عن اختلال في التوازن بين «وحيدات النواة» (mononucléaires) ومتعددات النّوى (polynucléaires). ونصح طبيب آنتيب ، نيكوس بالذهاب إلى باريس لاستشارة أحد الأطباء الكبار المتخصصين في الدم. فعاند نيكوس: «لا أشكو من شيء، عندي مشاغل أخرى!».

لحسن الحظ أنه وافق على موافاتي بآخر تحاليل الدم، إلى فيشي، من دون أن يشك في أنني سأذهب إلى باريس، بدلاً منه، لأخذ رأي المتخصصين.

(آنتيب) الأربعاء ١٩٥٠)(١)

سيعطيني الطبيب، يوم الجمعة، رسالة إلى طبيب متخصص في باريس، وكذلك التحاليل وصور الأشعة، ارسلي بها إلى ستيريانوس(٢). لا تقلقي بشأني مطلقاً؛ آكل جيداً، ولا أرهق نفسي؛ غداً أنتهي من «سدوم وعمورة» وسوف ننتظركم(٣) من أجل نسخها..

(آنتيب) الاثنين)(٤)

يا أكْرِيتَانيَا(٥) الشجاعة،

أنت يا من تقاتلين الموت لإنقاذي! تلقّيت للتوّ رسالتك من باريبس؛ إنه لأمر مؤسف ألا تظلي بضعة أيام في باريس بعد كلّ ذلك التعب. سأنتظرك ونقرّر معاً .. قبل ذلك لا ينبغي أن تقلقي، لديّ شعور عميق بأنني لا أعاني من شيء خطير .. أحس بجسدي

---

(١) رسالة إلى ايليني ساميوس كازنتزاكي.
(٢) صديق يوناني، يعمل طبيباً في باريس.
(٣) صيغة الجمع وردت في الأصل (المترجم).
(٤) رسالة إلى ايليني ساميوس كازنتزاكي.
(٥) حارسة الحدود.

قويا ومنتظماً ولم أبلغ بعد سن الثالثة والثمانين المحتومة[1]. لن تقلقي حاليا سوى بضعة أيام، ثم ينتهي كلّ شيء ببساطة وبسرعة..

استمع إلى موسيقى موتسارت الصباحية وأنا أكتب إليك. سأخرج بعد قليل لأُودِعَ هذه الرسالة في البريد وأبرهن لك أن كل شيء يسير مثل: ساعة ... «فاوست الثالث» لا يغيب عن ذهني في الليل والنهار، وأفكر أيضا في كتابة رواية جديدة...

بانين[2] تكاد تطير فرحاً: غداً يزورها يونغر، وسوف أتناول العشاء معهما مساء السبت.

أثناء غيابي عن آنتيب، نظّمت بانين المعجبة بالكاتب الألماني Junger إلى حد الجنون، لقاءً بين الكاتبين:

(آنتيب) الأحد (١٩٥٠)[3]

... يونغر مثير جدًّا للاهتمام. في حالة بدنية ممتازة. نحيف، حيوي، أشهب. يجمع بين الصلافة والسخرية. صلب جدًّا، ألماني حقيقي. أناني وممتع. يضحك بسهولة. لكن ضحكته سطحية، تخرج من شفتيه فقط، ضحكة ساخرة ومناكفة. ما أشد سذاجة بانين، وتفانيها ، بقربه، ما أشد طيبتها و«طهارتها»..

آنتيب، ٧ يونيو ١٩٥٠[4]

... أفكر في كتابة «فاوست الثالث» وأنا لا أفعل ذلك من باب الوقاحة أو جنون العظمة، كي أقتفي أثر غوتة، بل هي حاجة جسدية وذهنية، عندي، تدفعني نحو كتابة «فاوست الثالث»، أي فاوست اليوم، تراجيديا حول المصير الراهن للإنسان. فبعد بلوغ عقل الإنسان الذروة، وجد نفسه في مواجهة الهاوية. وسوف يتحرّك فيها أربعة شخوص رئيسيين: فاوست، أكريتاس، ميفيستو، وهيلينا. (هل تعلم بأن اسم ميفيستو تحريف لـ«ميفوتوفيلوس» اليونانية؟ (الذي لا يحب النّور)..

(١) «قرر» كازنتزاكي سابقاً أنه سوف يموت في هذه السنّ ! (المترجم)

(٢) فتاة جميلة من اذربيجان، تكتب بالفرنسية.

(٣) رسالة إلى ايليني ساميوس كازنتزاكي.

(٤) رسالة إلى يوريي كنوس.

وبالرغم من العناد، قرر نيكوس في النهاية أن ينتقل إلى باريس بمفرده.

الأربعاء، مساءً[١]

التقرير الصحّي الرابع للمريض:

رفيقتي الحبيبة في الحياة وفي الموت!

أمضيت الصباح كله في مستشفى سان لويس، حيث يهيمن «تسانك». عناية رائعة، في ثلاث ساعات تمّتْ كلّ الفحوص...

يعاملني تسانك مثل صديق حميم. لم أر مسنًّا أكثر حيوية ومتعة، منه ... قال إنني لست مصاباً بلوكيميا (ابيضاض الدم) بل أعاني، ببساطة، من الغدد اللمفاوية...

تحاورنا في الأثناء حول باسكال، وفاليري، وكلوديل، وبرغسون ... كان الحوار شيقاً، وقد فوجيء باطلاعي عليهم ... لذلك تصرف معي كصديق قديم، فليبارك ستيريانوس الذي توسط بيننا!

الساعة الآن، الخامسة مساء. وصلت إلى البيت[٢] مرهقاً، أمضيت ساعة ونصف الساعة واقفا في قطار الأنفاق. كلّ يوم أضيع فيه ساعات عديدة وأصاب بالأرهاق.

إنّ حماسة الآنسة باتاي واندفاعها، مدهشان، قالت إن الناس يشعرون بالخوف لأنني أكتب بطريقة قوية، مفرطة في القوة. ليتها تأتي إلى آنتيب! إنّ هذه المرأة من شأنها أن تصير حليفاً ثميناً، لنا..

الجمعة، منتصف الليل[٣]

التقرير الطبي السادس:

... تناولت العشاء مع نيقولا ... أهداني صحنين كبيرين، رائعين، من شمال أفريقيا ... والآنسة باتاي في غاية الدفء والتفاني ... أعتقد أن شيئا مهمًّا سيحدث ... دعت ايفون شاعراً لطيفاً جدًّا، للعشاء ... وهو شديد الإعجاب بـ«ثيزيوس».

هَتَفَتْ لِيًا، وسالتقيها غداً ... لكن كلّ هذا، خيم عليه القلق إزاء صحتك. لا أفكر إلا فيك وحدك، وأتلهف للعودة.

(١) رسالة إلى ايليني سامبوس كازنتزاكي.
(٢) بيت بيار وايفون مترال في «هايي - لي روز».
(٣) رسالة إلى ايليني ساميوس كازنتزاكي.

الزوجـان متزال مَلاَكَـان؛ صديقـان حقيقيان، يبذلان كـلّ ما في وسعهما من أجلي ... أتعب كثيراً، «المترو» يحطّمني.

السبت، مساء[1]

التقرير السادس (هكذا!):

حبيبتي، اليـوم انتهت المهمّـة التي كلّفْتني بها في بـاريس. فـاستمعي إلى النتـائج: تشاور الطبيبان تسـانك وجان برنار، وتـوصلا إلى النتائج التالية: ١- مـا أعاني منه يسمى بُمفهُوم Lymphôme . ٢- وهو مـرض نادر. ٣- ليس خطـراً ... عليك أن تتفادي التعرض للشمس الحارة...

ومن بيرا كافا، (على ارتفاع ١٤٥٠ متراً) حيث ذهبنا للإقامة بضعة أيام، كتب نيكوس إلى بوريي كنوس:

صديقي العزيز،

أنا في بيرا كـافا منذ أول أغسطس ... أجواء نقيـة. زوجتي ترتاح أخيراً، وأنـا أيضاً، وهذا هـدفنا .... ولكن كيف أرتاح؟ الـرواية الجديدة تتحـرك في أحشائي، وكما الجنين، تلتهم لحمي، وتشرب دمي، وتطـالب بـالخروج إلى الشمس. آمل أن تبـدأ آلام الـوضع وأفراحه، عما قريب. وفي الوقت نفسه أفكـر في «فاوست الثالث» الذي سوف يشكل عملاً جوهـريًا في حياتي، عمـلاً ذا نفس طويل، مثل «الأوديسة»؛ وسـوف يكون العمل الأخير الذي يشير إلى مروري على قشرة الأرض الحبيبة.

... واجبنـا النظر في اتجاه الهاويـة ... بكـرامة وإيمان. يقينـاً إنَّ اللحظـة الراهنـة والمستقبل القـريب فظيعان، وسـوف يصيران أفظع؛ لكن في المدى البعيـد، البعيد جـدًّا، سوف يصير المستقبل رائعاً؛ أعرف أن الإنسانية لم تتوصل بعد إلى اكتشاف ما تزخر به من ثروات في جوهرها. إنَّ بطن الأرض ما زال ممتلئاً بالبيض...

صِرْنَا الآن نمتلك كلّ ما من شأنه إسعادنـا، أو على الأقل، ما نعتقد أنه كذلك: الصحة، الهدوء، الشهرة التي كنتُ أتمناها كثيراً لينكوس، وفرحة برؤيتي سعيدة

---

(١) رسالة إلى ايليني ساميوس كازنتزاكي.

... ومن أجل الاحتفال بـالخبر المفرح من بـاريس، قدّر الزوجـان متزال أن تكون هديتهما لنا رحلة إلى أسبانيا، برفقة لوسيان فلوري، أخت ايفون الصغرى.

أخذ نيكوس، بحذره المعهود، يتنقل بين نيس وآنتيب، من أجل إنهاء الإجراءات الضرورية لتجديد جوازي سفرنا. ووافقت الحكومة اليونانية على التجديد لشهر واحد وسفرة واحدة!

من ٥ سبتمبر إلى ٢٢ منه، عشنا مثل سائحين. انطلقنا من ناربون وبربينيان إلى أسبانيا: برشلونة، تاراغون، بـالنسية، أليكانتي، قرطبة، طليطلة، ايليسكاس، مدريـد، فيتوريا، ســان سيباستيان. ودَوَّنَ نيكوس هـذه الرحلة ضمن قـائمة «الرحـلات» السعيدة. وفـرح باطـلاعي على الغريكـو كانـت صحبة آل متزال لا تعوض.

وتُـوّجت هذه السنـة بتمثيل «ثيـزيوس» في إذاعـة ستـوكهولم. وتمكنـا من الاستماع إليها من آنتيب، وقطّتُنا الصغيرة تنط على ركبنا. فتغمز بعينها، وتخرج لسانها الوردي، علامة هناء. فإذا عطسْتُ أو رفعت صوتي، زمجرت غاضبة..

غير أن مصير كوكبنا لم يترك لنيكوس هدنة:

آنتيب، ٢٠ ديسمبر ١٩٥٠(١)

صديقي العزيز،

يحلّ العام الجديد فظيعاً علينا، فالإنسانيـة توجد،، هذه الأيام، على شفير الهاوية – أكتب إليك وقلبي مفعم بالقلق والمرارة والسخط. فما هذا القدر الذي يقود البشر؟ هل له عينـان أم لا؟ هل يأتمر بأوامر دمـاغ أسمى منـه؟ وهل الحمق والظلم أشياء ضروريـة لتقدم الإنسـان على هذه الأرض؟ أشعر بضيق شـديد، ومع ذلك أكتب طيلة النهـار لأنه يتوجب

وكتب إلى جان كاكريذيس: على الإنسان أن يتصرف كما لو كان خالداً.

---

(١) رسالة إلى بوريي كنوس.

آنتيب، ٢٧ ديسمبر ١٩٥٠

صديقي العزيز

تلقينا رسالتك منذ قليل. رقصتْ ايليني فـرحاً. إنَّها تستعد لقدومك. حـاول أن تمكث أكثر من ثلاثة أيام، أسبوعاً على الأقل. إن هموم الإنسان ليست لها نهاية. وكذلك أفراحه. ابق أكثر، إذاً!

أنا سعيد بالتمكن من رؤيتك مرة أخرى، إلى درجـة بتّ معها عاجزاً عن الكتابة إليك أكثر. ماذا أكتب؟ سوف تتحدّث..

تبادلنا رسالتين مع صوفي أنطونيادس[1] هذا العام: قالت إنها أعدّت انطولوجيتين للأدب اليـوناني الحديث. ولم تختر مـن أعمالي كلها سوى بضعـة أبيات من تـرجمتي لدانتي! إنها تقدمني إذاً، كمترجم .. ياليونانيين الذين لا يتغيرون أبداً!

١٩٥١. أول ينـاير ١٩٥١. كنـا جـالسين في «الفيرندا» نتنعّم بـالشمس ولا ننتظر شيئاً في الحقيقة، عنـدما جاء ساعي البريد بـالخبر السعيد: بعد «زوربا» صدرت «المسيح يصلب من جديد» في الســويد وحققت نجاحاً منقطع النظير. لم أكن انتظـر هدية أثمن. رقصــت. غنّيت. وكان نيكـوس ينظر إليّ بعينين دامعتين قليلا: «بعـد فوات الأوان، يـا عزيـزتي، همس، بعد فوات الأوان ... ومـع ذلك أنا سعيد لأنك كذلك...» وتابع تدخين غليونه ضائعاً في تأملاته.

لكنه كتب في اليوم نفسه إلى صديقه بوريي كنوس:

فيللا مانوليتا، أول يناير ١٩٥١

صديقي العزيز جدًّا،

ليست هناك هـدية أجمل، للعـام الجديد، من المقـالتين النقديتين اللتين أرسلت بهما إلينا ... أنـا سعيد بنجاح هذا الكتـاب أفضل من «زوربا»، لكنني آمل أكثر بالنسبـة لـ «الحرية أو الموت» ... أتمنّى أن يدرك الأجانب ما تكبّـدناه، وأيّ درب وعر ومدمّي نسلك،

---

(١) كانت السيدة أنطونيادس آنذاك أستاذة لغة يونانية حديثة في إحدى جامعات هولندا.

وكم هو ماسوي قدر اليونان. أفكر في كل ذلك فتغيم عيناي. إن اليونان وكريت مثقلتان بالدموع والجراح وفي «الحرية أو الموت» بذلت ما قدرت عليه من أجل وصف كفاحهما. وأنا متأكد أن الذين سيقرأون هذا الكتاب سوف يدركون كم تألم الكاتب وجنسه.

... واأسفاه! إنَّ سكان الأرض ما زالوا بدائيين، وجنون العظمة هو الذي يجعلهم يسمون أنفسهم بشراً ... عندما نتوصل إلى هذه الصفة سوف تنتهي الحروب. وليس قبل ذلك.

الويل لمن صاروا بشراً قبل الأوان!

كلّما ألّف بريفيلاكي كتابا جديداً، احتفل به صديقه الأكبر، كما لو كان كتابه:

(آنتيب) ٢٥ يناير ١٩٥١[١]

... قرأت «الكريتي» ثلاث مرات حتى الآن. وأنا معجب بطريقتك في التغلّب على الصعوبات الاستثنائية. لقد سما ماناسيس إلى مرتبة أسطورية حتى أن قلبي خفق مجفلاً لأنني تذكرت ما كتبته لي ذات يوم[٢]. لم يتبق أمامي إلا قليل من الحياة، وسوف أبذل قصارى جهدي، ما عشت، لكنني لن أتوصل إلى جدارة ماناسيس. ثمة أمر واحد يعزّيني: لن أندم، بعد موتي، على أنني لم أعمل..

وكتب إلى صديقه الشاب، الكتبي ستاموس ديامنتاراس، يوم ٩ فبراير ١٩٥١:

أعمل بكثافة، أكتب روايات على طريقة ذلك الشخص «هوزاين بيرويث» كما رويت لي ذات يوم، وسوف يكون ذلك هو العنوان العام لكل الروايات التي سوف أكتبها. حتى الآن لي خمس روايات (وحدها رواية «زوربا» نشرت باللغة اليونانية).

ما زال جسدي متيناً وذهني متوقداً، وروحي طاهرة وحارة مثل شعلة. وتلك الأفراس الثلاث تقودني بجدارة - ومن دون أضرار - نحو القبر. وأرجو من الإله ألا تسرع كثيراً، حتى يتمكّن «المالك» من التمتّع أكثر بهذه الأرض..

---

(١) رسالة إلى ب. بريفيلاكي.

(٢) كان ب. بريفيلاكي قد كتب إلى نيكوس كازنتزاكي: «ما أن انتهيت من تأليف الكريتي حتّى أدركت أن ماناسيس هو أنت. وسوف تتأكد من ذلك بنفسك لدى قراءة الجزء الثالث».

للصينيين شتيمة مذهلة: «فلتولَدْ في عصر مهمّ!» وهذه اللعنة حلّت بنا فعلاً. إذ أننا نعيش في عصر مهم. ومن واجبنا تغيير هذه اللعنة إلى نعمة، قدر مستطاعنا. وذلك بكفاحنا، وبقوة عقلنا وكبرياء روحنا. إنّنا نعيش على مستوى الكون .. وكلّ لحظة اليوم تزنُ قرناً. ومن يعش عشرة أعوام أخرى، يهرم بدرجة لم يسبق لها مثيل. لقد اكتسب الزمن قيمة طارئة، غير خاضعة للقياس..

آنتيب، ٣ مارس ١٩٥١(١)

... أعمل جيداً، وكتابي الجديد «الإغواء الأخير» يتقدّم. الربيع يقبل مزهراً، والبحر يتضوّع مثل ثمرة ناضجة. أبولون يلمع تحت قناع الشمس. الدم يتدفق بطريقة أسرع والقوت يتحول، بطريقة أفضل وأسرع، إلى روح...

آنتيب، ٢٠ مارس ١٩٥١(٢)

... لم يعد لأندريه جيد وجود! كان كاتبا أنيق الأسلوب، معلّم كتابة، وليس كاتباً كبيراً. كان تأثيره المعنوي في الشباب الفرنسي مشؤوماً. إنَّ شكل كتابته ممتاز. لكنني لا أحب محتوى تلك الكتابة مطلقاً. بقي في فرنسا شيخ عظيم: كلوديل. وبعد موته ... لن يبقى سوى ورثة تابعين...

يوم ٢٣ مارس كتب نيكوس إلى لِيًّا دُنْكِلْبُلُوم:

... شكراً على عدم نسيانك لنا. أنا أيضاً أفكر فيك كثيراً، يا عزيزتي ليًّا، وآمل أن أراك ذات يوم، ليس في باريس، فهي مثل بابل لعينة وفاتنة، ولكن في القدس، في تل أبيب، على الأرض المقدّسة التي أحبها كثيراً! هناك قطرة كبيرة من الدم اليهودي في دمي(٣) وهذه القطرة تحرك دمي الأغريقي وتجعله يغلي. عندما كنت في العاشرة من عمري توسلت إلى أبي كي يتركني أتردد على حاخام كاندي لأتعلم العبرية؛ وذهبت إليه ثلاث مرات ... غير أن أعمامي، وخاصة عمّاتي، تملكهم الخوف خشية أن يشرب اليهود دمي كما زعموا. فأخرجني والدي من المدرسة اليهودية.

هنا، في العزلة، أعمل كثيراً، وجيّداً. أضع الآن كتاباً موضوعه عِبْري(٤) وتجري أحداثه في فلسطين. وتدركين كم هو مفيد لي أن أعود الآن إلى رؤية الأمكنة المقدّسة . لكن

---

(١) و(٢) رسالة إلى بوريي كنوس

(٣) افتتان كازنتزاكي بالشرق جعله يتصور دائما ان له دماً عبريا أو عربيا أو أفريقيا.

(٤) «الإغواء الأخير».

ذلك يبدو مستحيلاً: «نتْشِيفُو!»

في اليونـــان، كلّ الأوضاع سيئــة؛ ينبغي أن يكون المرء، أو يصير، بطـلاً كي يقدر على تحمل هذا العالم الـدنيء، المتعفّن. لكنّ وسط تلك العفونة توجد روح بكـر، تنموَ ترفع رأسها وتتغذى من ذلك العفن، وسوف تنتصر بعدنا بقرون. هناك مسيح يمشي دائماً...

آنتيب، أول يونيو ١٩٥١(١)

... لم أعد قـادراً على رفع رأسي من شدة انغماسي في فرح «الإغـواء الأخير» وقلقها... ويمرّ الزمن، تطلع أقمار وتغيب مثل البروق. زوجتي غـائبة في فيشي. والعزلة تجعلني أكثر توحشا، وذلك هو مناخي الحقيقي. إنَّ زوجتي هي التي ما زالت تشدني إلى مجتمع البشر وتمنعني من التـــوحش. ذات مـــرّة، على جبل سينـــاء، أراد النُسّـــاك إعطـــائي «ستيكي»، صـــومعة، في الصحـــراء: مصلّ، ثـلاث حجرات صغيرة، بـاحـة فيها ثـلاث شجرات زيتون وشجرة برتقال، وينبوع صغير. ويشتمل دير القديسة كاترين على عدة مخطـوطـات. وكـان بإمكـاني قـراءتها لنشر أهمهـا ... ومنـذ ذلك الـوقت لم تنفك تلك «الستيكي» تنتصب أمامي، في الهواء، ولولا وجود زوجتي لعدت إليها منذ زمن طويل ... لم أشاهد في حياتي ما هو أكثر جاذبية و إغراء من صحراء بلاد العرب.

لحسن الحظ أنك ستأتين بعد ثلاثة أسابيع، وسوف تصالحينني مع بني البشر....

بـدأت الروايـات الكبرى تسقط في النسيان، الـواحدة تلـو الأخرى. واغتـاظ نيكوس من عجـزه عن تمديد الأيـام وفق هواه، لكنـه حافظ على مظهـر الإنسان الحكيم. لم يعـد قلمـه قادراً على مسـايـرة إيقـاع فكره. وبـدأتُ أتكيف مع هـذا الاختزال الشخصي الجديد.

ظلّ دمثاً، مطمئنـاً، يضحك ويأكل وينـام، كما في السابق. وكلّ شيء يبـدو له طيباً ومناسباً:

– نيكوس، قال كاتب أمريكي شاب ينزل ضيفاً عندنا، كيف تتمكن من العمل في مثل هذا الفرن؟

---

(١) رسالة إلى بوربي كنوس.

– آه يا صـديقي، لا يوجـد ما هـو أفضل للعمل. فهذه الحرارة منشطـة جدًّا!
مرت بضعة أشهر، وعاد صديقنا الأمريكي الشاب، فوجد نيكوس يعمل في شرفته والبرد قارس هذه المرة:

– ولكن ، يا نيكوس كيف تستطيع الكتابة في هذا البرد القطبي!

– آه يا صديقي، لا يوجد أفضل منه للعمل! فهذا البرد منشط جدًّا!..

وظلت البطاقات التي كان يرسل بها إليّ من فيشي محافظة على التفاؤل:

٢٦ مايو ١٩٥١

يا ساكنة مدن المياه الحبيبة ... سأذهب اليوم إلى السوق لشراء بعض السمك للقطة – مع زيادة قليلة لأتمكن من الأكل أنا أيضاً. ذهبت أمس لشراء القليل من لحم الخنزير. وبما أنني كنت شارد الذهن، طلبت بدل قطعة كُوتْليتْ (ضلع) – هل لديكم «كيلوت» خنزير؟ فضحك الجميع، وأجابني الجزّار: كلا يا سيدي، ليس لديّ سوى «كيلوت» رجل! فذهبت إلى بائع «كيلوتات» آخر...

٣٠ مايو

نامت القطة طوال ليلة أمس بجانبي. أتعمّد شراء السمك من أجلها، من أجل ذيلها الذي، ما إن تراني قادماً بالسلة، حتى ينتفخ وينتصب مثل قضيب..

كان رأس آنتيب البحري الذي رَمَتْ بنا الأقدار إليه منذ أربعة أعوام، يتميز بنبات جميل مثل الآس، والمصطكا، والزيتون، والسرو، والصنوبر، واليوكالبتوس، والسنديان، والبلوط. وكان نيكوس على شرفته يبدو، بين الرياح والروائح القديمة، مثل ذئب بحار يدير دفّته وعيناه تجوبان عرض البحر.

– هل تريد أن أهتم بجواز سفرك؟ سأله يا نيس سفيانوبولو[1] الذي زارنا في آنتيب بضعة أيام.

– أود الحصول عليه في الوقت المناسب، كي أتمكن من العودة إلى زيارة شمال إيطاليا، هذا الصيف.

---

(١) سياسي يوناني ثاقب النظر، نادى بسياسة حيادية لليونان.

أجاب نيكوس. وأضاف: أحمل اليونان في داخلي، ولا أرغب في العودة اليها. لو كنت قادراً لسافرت إلى المكسيك أو الهند.

ولقد جعلنا يانيس سفيانوبولو نحلم بمستقبل أفضل لليونان، لأنه، برغم قلبه المرهق، كان يحتفظ بالحيوية وتشويق المستمعين إليه، بملاحظاته الذكية حول السياسة الدولية، ودور الوساطة الذي قد تلعبه اليونان. فكنا نأمل رؤيته على رأس حكومة يونانية تُخرج بلادنا من الهاوية التي أسقطها فيها الأنجليز والأميركان. لكننا كنا أكثر قلقا إزاء أنجيلوس سيكليانوس. إذ عرفنا أنه يشكو مجدداً من توعك صحته.

ولم يكد يانيس سفيانوبولو يغادر آنتيب حتى انفجر الخبر المحزن بين أيدينا مثل رمّانة.

– لا أوافق! لا أوافق! همس نيكوس وهو يكزّ على أسنانه. كلا، هذا غير مقبول!

ورمى بالرسالة التي تلقّاها منذ قليل، ثم وقف وألصق جبينه بزجاج النافذة. تناولت الرسالة اللعينة، وإذا انجليوس سيكليانوس قد كفّ عن الحياة.

– هذا أمر غير عادل! احتجّ نيكوس مرة أخرى. ثمة الآلاف من النفايات البشرية تتضرّع يوميا كي يختصر الإله آلامها؛ آلاف اليائسين والبشر المفرغين من جوهرهم يبحثون عن الموت، طلباً لحياة أفضل. وها هو ذا زهرة المصطفين، الرجل «الممتلىء»، يصعق في أوج عطائه الخلاق..

توصّلت بصعوبة إلى سحب نيكوس من تأمل ذلك القبر المفتوح حديثاً. ولم أكن أعرف سوى بلسم واحد: العمل. وربما السفر أيضا .. حتى تتمكن عيناه من تأمل جمال جديد ..

وفي اليونان تمكّنت تِيًّا أنيمويانِي من حلّ مشكلة جوازي سفرنا، جزئيًّا. فصار بإمكاننا، بعد الإقامة في الجبل، أن نذهب لزيارة ايطاليا ... إيطاليا التي كان نيكوس يحدّثني عنها بحنين كبير..

آنتيب، ١٤ يونيو ١٩٥١[١]

عزيزتي وصديقتي الوحيدة،

مبـاركـة أنتِ! لقـد انتصرت ... وبفضلك سوف نـذهب إلى ايطـاليـا. لكن الشيء غير المتوقـع هو أن الوزارة جـدّدت الجواز مدّة شهـرين فقط! كما لو كنت مجرمـاً!.. أختنق سخطاً. ويحدث كلّ هـذا في الوقت الذي تسكن فيـه صورة صديقي الميت أيـامي ولياليّ. سأذهب لقضاء أسبوعين في الجبل، بفرنسا، فربما استعدت هدوئي قليلا. فعندما يرهق جسدي كثيراً أستعيد بعض الطمأنينة.

سنقصد جبال الآلب غداً. وسوف أراسلك مرة أخرى من هناك، وكذلك ايليني المرهقة والحزينة جدًّا. لقد طرق الموت بابنا، ياتيًّا..

كنت سأخضع إلى عمليـة جراحيـة بسيطة، وقررت ألاّ أعلم نيكـوس حتى لا أقلقه. تذرعت بقطتنا «بوبولي» ومشكلة تركها وحيدة، وطلبت منه أن يسبقني إلى الجبل. وطلبت منه خدمة خاصة حتى لا يفكر في الموت:

- لم تعجبني الصياغة الثانية لكتابـك «قسطنطين باليولوغ» فهلاّ أسعدتني بصياغته مرّة ثالثة؟ تكون جديرة بـ «ثيزيوس»، بنيكوس كازنتزاكي الجديد؟

استمع اليّ نيكوس، كعادته، لكنه لم يعـد بشيء. وعندما التحقت به في سيغال بعد أيام، قرأ عليّ الفصل الأول من «باليولوغ» أقرب إلى قوة «ثيزيوس».

سيغال ذات الاسم المجنّح[٢]، قرية شبه مهجورة تبعد بضعة كيلو مترات عن نيس، في جبال الألب البحرية. وكان كلّ بيت مهـدم يثير فينا هوس البنّائين: «هنا نستطيع إقامة مسكننـا الجديد، المكتب في هذه الزاويـة، وهناك، أمام تلك المدفأة المهجورة، قاعـة الجلوس...» كان هناك جدول يتعـرّج في أسفل الوادي، والكروم تتدرّج على السفح وثمة صليب ينتصب في مدخل القـرية، بل هناك أيضا خوري هـرم يعتني بـالكنيسـة الصغيرة وكنوزهـا. وفي الليل تشعّ فـوق كـروم العنب

(١) رسالة إلى تيًّا أنيمويانى.

(٢) تشابه صوتي بين اسم القرية Sigale واسم «الزّيز» بالفرنسية cigale (المترجم).

مليـارات الأضواء الخضراء إنها حشرات الحبـاحب محتفلة بتـزاوجها. ويـذهل نيكوس: «لم أتخيل قط مثل هذه الأعراس!».

سيغال، استيرون، فندق غوردا

٢٢ يوليو ١٩٥١[١]

صديقي العزيز جدًا،

نحن الآن في قرية صغيرة على جبـال الألب. وسنمكث فيها حتى الثالث من أغسطس لنقصد فلورنسا بعدها..

هنا، في العـزلة ، أحاول الشفـاء من صدمة فظيعة: تـربطني بسيكليانوس صـداقة أربعين عاماً. كـان الوحيد الذي أستطيع معــه التنفس، والتحدّث، والضحك، والصمت. أما الآن فاليونان فارغة بالنسبة إليّ.

كانـت أيامه الأخيرة في منتهـى المرارة والظلم: لقد ناولـوه السمّ بدل الـدواء، خطأ. وهكذا جعلوه يتجرّع «اللّيزول» فاخترقت أحشـاؤه. لكنه صارع ببسالة. وحالما تجرع السمّ نُقل في سيارة مـن كيفيسيا إلى أثينا، بـاتجاه مستشفى ايفانغيليسمـوس، وهناك رفضوا استقباله. فنُقل إلى عيـادة كاثوليكية «ياماكـاريستوس». لكن بعد فوات الأوان. ظل ذهنه صـافيا حتى آخر دقيقـة. هناك تفاصيل أكثـر في صحيفة «نيا-إستيـا». بعد اقتراح مأتم وطني، رفضت الحكومة في البداية، مـدّعية أنّ سيكليانوس كان لا - وطنيا، شيـوعيا، معـاديـا للوطن! انظـر إلى أين وصلنـا! وهذا يبيّن نـوعية الـرجـال ، نوعيـة «الأنذروليس»[٢] الذين يحكمون اليونان حاليا. لقد اعتبر رجال السياسة عندنا أنّ ذلك الشاعر خائن! ذلك الشـاعر الأكثر يونانية، الأكثر تعلقا باليـونان الخالدة، تلك الروح التي بنت، مع أرواح أخرى، معجزةً تدعى «اليونان».

أكتب إليك ودموعي تغالبني. دموع ألم، وقرف وغضب. تمنيت لو متُّ ولم أعش هذا الخزي الذي تشهده بلادي. يوم الثلاثاء ١٩ يونيو ومع غروب الشمس، مات صديقي. ومنذ ذلك اليوم وأنا أحمل جثمانه بين ذراعيّ. أنام وأستيقظ ولا أتوصل إلى هدوء البال؛ وعندما أختلي بنفسي فقط، أنحني عليه وأبكي. وتعاودني الأسئلة الأبدية، تمزّق فكري،

---

(١) رسالة إلى بوريي كنوس.

(٢) سفير يوناني شن حملة مغرضة، في ستوكهولم، ضد سيكليانوس وكازنتزاكي.

فـلا أعود قـادراً على تحمّل الحياة والظلم؛ ثمـة الآن قطيع قـرود مثقّفة تحيـا، وتعيش جيداً، وتدنّس اليونان، أما سيكليانوس فقـد مات! إذا كان هناك إله فإنّه مدين لنا، ذات يوم، بالحساب.

ولم نكد نصل إلى فلـورنسا، ونقيم في فيللا فـابريكـوتي، حتى انقضّت علينا كارثة أخرى:

فلورنسا، ٤ أغسطس ١٩٥١(١)

صديقي العزيز،

كارثة وطنية أخرى تحلّ باليونان! لقد توفي أول أمس، بشكل مفاجيء، أشرف رجال السياسة، وأكثرهم استنارة، وجدارة، يانيس سفيـانو بولو. لا أحد يستطيع تعويضه. ولست أرى من هـو قادر على حكم اليـونان. فقـدتُ صديقـاً رائعاً، ولا عـزاء. إنَّ قارون يعرف كيف يختـار الأفضل؛ فاللـؤماء لا يمـوتون بسهـولة لأنهم متكيّفـون مع العالم الـراهن؛ كلّ شيء لصـالحهم .. في حين يتوجّب على الإنسـان الشريف أن يكـافح الجميع ويتجرّع كلّ أنـواع السموم التي يقدّمهـا له الأصدقـاء والأعداء على حد سـواء؛ فهو غير متاقلم مع العالم غير المنصف في هذا الزمن، وهذا العالم يزدريـه ويرفضه. سفيانوبولو أُذيق السم بدوره، لا مـن أيدي أعدائه فقط، بل من أيـدي أصدقـائه أيضا، لأن أصـدقاء اليوم، الناس الشرفاء، جبناء، ومستعدون للـانتقال، في كل لحظة، إلى معسكر الأدنياء، لأنه المعسكـر الأقوى. وهكـذا لم أجد في فلورنسـا ما كنت أسعى إليـه من ابتهاج؛ إنني أحمل ميّتيْن في داخلي وأرى كلّ شيء بعينين غـائمتين. قـررت تأليف كتـاب عن سيكليانوس، لحظات عظيمة، جُبْنَا فيها اليونان، ولعلّ ما قلناه، وفكرنا فيه، أو فعلناه معاً، يفيد أناساً آخرين..

فلورنسا، ٤ أغسطس ١٩٥١(٢)

عزيزتي تيّا،

ليباركك الله، فلولاك لما عدت إلى رؤية فلورنسا ثانية. أتجول من دون أن أنساك هنا. أشهـد فلورنسـا بانفعـال، لكن من دون فـرح. قلبي حزين. ربما ارتحت قليـلا بتأليف

---

(١) رسالة إلى بوريي كنوس.

(٢) رسالة إلى تيا أنيموياني.

بعيون مطفأة ، مثـل تابعين، نذهب لمشـاهدة تمثـال لميكائيل أنجلـو، ونرى سيكليانوس يتلوّى في تشنجات الألم .. ونتفرّج على «الباليولوغ الأخير» لبينوزّو غوزولي، فيُخيل إلينا؛ في ذلك النور المخضرّ، أننا نشـاهد قسمات صديقنا يانيس سفيانوبولو. وحتى ملائكة فرا أنجيليكو كانت تبدو لنا كأنها تحضر جنّازاً..

لم أجرؤ على التسريع في العـودة لأنني أعرف طريقة نيكـوس: إرهاق الجسد بأكبر قدر ممكن حتى يتألم ويجعل الروح تنسى ألمها. وهكذا واصلنا برنامجنا: البندقية، سيانّـا، سان جيمينيانو، بادوفا، بيزا، ثم جنـوة. وكان نيكوس يرفض تناول الطعام الساخن ويتغذّى بالفواكه والجبن والخبز، فقط..

صدرت «المسيح يصلب مـن جديد» في ستـوكهوم فكسب نيكـوس صديقين جديدين: الكاتب اليهودي الألماني ماكس تو، والكاتب الهولندي دان دولارد، ذلك الشاب النشط الذي لم يُضعْ دقيقة واحـدة لاستئذان نيكوس، وأرسل إلى ناشره الأميركي، ماكس لنكـولن شوستر، بكتـاب «المسيح يصلب من جديـد» مرفـوقاً برسالة متحمسة.

ولدى العـودة إلى آنتيب أجـرى نيكوس تنقيحـات أخيرة على «الإغواء الأخير» وعاد إلى محاورة صديقه البعيد بوريي كنوس:

فيللا مانوليتا، ١٢ سبتمبر ١٩٥١

صديقي العزيز،

عدنا أمس من الحج إلى ايطـاليا، وعيوننا وقَلْبَانَا، منبهرة بـأعمال الإنسان الرائعة. لقد شاهدتها ثلاث أو أربع مرات في حياتي، وفي كلّ مرة تبدو لي مختلفة وكأني أكتشفها للمرة الأولى. وفي هـذه المرة لم أعد أميـز، بقلق عميق، هالـة ضوء حول كلّ أثـر فني، بل تاجـاً ليليًا، مدركاً أنّ جنـاح الموت يرفرف فـوقه. عندما دخلت إلى كنيسـة إريميتاني في بادوفـا حيث أعجبت سابقاً بجـداريات مانتيغنـا، لم أجد سوى الأنقـاض؛ لقد سقطت قنبلة على الكنيسـة وسحقت كل شيء. كذلك تحطّمت في بيـزا، وكامبـوزانتو، جـداريات

أوركانيا وبينوزو غوزولي؛ وتحولت كلّ تلك الروائع الملونة إلى رماد. الإنسانية تنتحر. أذرع الأرض جيئة وذهابا، أنظر بنهم، وعطف ومرارة، مودّعاً كلّ شيء.

وسوف تفعل الشيء ذاته، بدورك، في اليونـان. اذهب إليها بسرعة كي تصل في الوقت المناسب، وتتأمل «المعجزة اليونانية» ما دامت قائمة، إن البارثنون يمكن أن يتحول إلى رماد أيضا..

ماكس تو، الذي يلقبه أصدقاؤه بـ «المجوسي» هو يهودي ألماني، وكان يتعاون في برلين مع برونو كاسيرر[1]. وتمكن في آخر لحظة من مغادرة الجحيم الهتلري والإقـامـة في أوسلـو، والتـزوج فيهـا. وعمـل كـلاهما على إنقـاذ أكبر عـدد من المضطهدين والملاحقين. لكن مـاكس تو لم يتمكن من إنقاذ عـائلته. ومع ذلك لم يُعمه الحقد. وتعلّم كيف يكرس حياته لإعادة الثقة والصداقة بين الشعب الألماني والشعوب الأخرى.

كان مشغوفاً بالأدب، ويسعى إلى اكتشاف المواهب الشابة والتعريف بها. ولا يمكن حصر عـدد الشعراء والنـاثرين السكنـدنافيين والألمان الذيـن يدينـون له بشهرتهم.

وكـان صـديقاً حميماً لكل من ألبيرت شـويتـزر وتـوماس مـان فقـدم لهما «المسيح يصلب من جديد». وبسبب إعجابه بذلك الكتاب سعى إلى مقابلة منعزل آنتيب، أو مساعدته على الأقل:

آنتيب، ١٥ سبتمبر ١٩٥١

صديقي ومعلّمي العزيز،

فـاجأت رسالتك عـزلتي فاحسنت إليّ؛... لم أعـد وحيداً ... كيف أتمكن ذات يـوم من التعبير عن امتناني؟

.... لم أكترث بنشر قلقي وآمالي، أما الآن، وقد استمعت إلى صوتك يستجيب لصوتي، صرت أتطلع إلى كسب أصوات وديـة أخرى. ليت بالإمكان تاسيس جمعيـة، على طريقة رهبانيات أيـام زمان، من أجل مقاومة التعفن والروح الانهزامية الجامعـة بين الفظاعة

---

(١) ناشر مشهور مات منفيًّا في لندن.

والروعة، في عصرنا.

... سوف أسعد باستقبالك إذا مررت بآنتيب. لا يطمح الواقع إلى التطابق مع رغبات الروح الحارقة. آمل إذاً، أن أراك في آنتيب...[١]

ونظراً إلى كون نيكوس لا يستطيع الذهاب إلى النرويج فقد جاء ماكس تو إلى آنتيب. وكرّر زياراته في الأوقات الصعبة. وضحكا معاً ووضعا خططاً، الواحدة أكثر تفاؤلا من الأخرى .. حتى الأيام الأخيرة عندما جاء ماكس تو إلى عيادة فريبورغ ليقبّل صديقه قبلة الوداع الأخير من دون أن يعلم بأنها كذلك.

لم يهدأ بالي لوجود أربعين ألف كلمة مترجمة من الفرنسية إلى اليونانية الجديدة، والصافية في صندوق مغلق. إذ أن غياب قاموس فرنسي - يوناني، ويوناني - فرنسي، مع ترك هذا العمل للتلف، بدا لي أمراً شنيعاً. وألححتُ على نيكوس حتى وافق على إتمام ذلك القاموس، إذا وجد شخصاً متخصصاً. ولقد اقتنعنا بأن الوقت قد حان لإنجاز تلك المهمة، على أكمل وجه.

فيلا مانوليتا، ٦ نوفمبر ١٩٥١[٢]

صديقي العزيز،

زارني أستاذ اللغة اليونانية الحديثة في السوربون، السيد ميرامبال[٣]، إثر عودته من اليونان. ووضعنا أسس قاموس فرنسي يوناني، يجمع بين اللغة الصفائية والشعبية .. ونعتقد أن إنجاز هذه المهمة على أكمل وجه يتطلب سنتين من العمل الشاق؛ لكن ميرامبال عالم كبير، وأنا متعلق جدًّا باللغة المتداولة، وهذا من شأنه أن يجعل العمل ناجحاً ومفيداً ... أعمل كثيراً. لم يعد لدي متسع من الوقت للنوم؛ إنَّ العاصفة الخلاقة تحملنا مثل الرّكام ... لا بد من جسر حديدي للمقاومة ؛ كنت أتمنى بعض الراحة، لكن كيف؟ أنا مستعجل وثمة قوة في داخلي تتلهّف من دون رحمة..

---

(١) رسالة إلى بوريي كنوس.

(٢) رسالة إلى بوريي كنوس.

(٣) غيّر ميرامبال رأيه ووضع بمفرده قاموساً، كان لسوء الحظّ محدود القيمة.

انتهيت من رقن «الإغواء الأخير» بالآلة الكاتبة، فأرسلنا بالنص إلى بوريي كنوس:

فيلا مانوليتا، ١٣ نوفمبر ١٩٥١[١]

تملّكني انفعال شديد وأنا أرسل إليك بهذا العمل؛ وإذا صبرت على قراءته بتمهّل، سوف يتملكك الانفعال نفسه الذي تملكني أثناء كتابته. أنا متيقّن من ذلك...

أردت تجديد وإكمال الأسطورة المقدَّسة التي تشكل أساس الحضارة المسيحية الكبيرة في الغرب. وليس الكتاب مجرد سيرة للمسيح، إنه جهد إبداعي مقدس ومؤلم، يهدف إلى تجسيد جوهر المسيح – مع إلغاء كل الأدران، والأكاذيب والدناءات التي ألحقها به المُتجَلْبِبُون المسيحيون والكنائس، وشوّهوه بها.

كثيراً ما تتلطخ مخطوطاتي .. لأنني لا أتحكم في دموعي، هناك بعض المأثورات التي لا يعقل أن يكون المسيح قد تركها، هكذا، ناقصة، كما نلاحظ ذلك في الأناجيل، ولقد أكملتها وأعطيتها النهاية النبيلة والحنون الجديرة بقلبه؛ وثمة كلمات، ربما لم ينطق بها، لكنني أوردتها على لسانه، وكان من شأنه أن يقولها، لو كانت تعاليمه في قوته النفسية وطهارته. وهناك الشعر في كلّ مكان، وكذلك حبّ الحيوان، والعشب، والبشر، والثقة في الروح، واليقين بانتصار النّور..

استعرت ، طيلة عام كامل، من مكتبة «كانْ»، كل الكتب التي وُضعت حول المسيح، ويهودا، ووقائع ذلك العصر، والتّلمود، الخ .. وهكذا فإن كلّ التفاصيل صحيحة تاريخيا. لكن من حقّ الشاعر عدم الخضوع لعبودية التاريخ «بوييزيس فيلوسوفوتيرون ايستورياس» (الشعر فلسفي أكثر من التاريخ)..

وكتب إلى ماكس تو، المنغمس في قراءة «الحرية أو الموت»، مؤكداً على الحوافز التي جعلته يكتب هذه «الساغا»[٢] الكريتية، ثم أضاف:

---

(١) رسالة إلى بوريي كنوس.

(٢) مصطلح من الأدب الاسكندناڤي يعني الحكاية التاريخية أو الميثولوجية (المترجم).

آنتيب، ١٦ نوفمبر ١٩٥١

... كلّ الأحداث المذكورة في هذا الكتاب واقعية .. أردت، قبل كل شيء، إبراز الهيجان المقدّس الذي تملك شعباً مكافحاً من أجل حريته، وكيف تحول أتفه الناس إلى أبطال في قبضة ذلك الاندفاع الفظيع – بجانبه الإنساني، واللا إنساني أيضاً...

لقد عشت الثورة الكريتية سنة ١٨٨٩ بعنفٍ، جعلني أعود، اليوم، كلما أردت كتابة شيء عميق ودامٍ، إلى ذكريات الطفولة ... ذلك أنني لا أعرف السماء، والبحر، والمرأة، والزهرة، وفكرة الموت، وجمال الحياة الشرس، إلا من خلال ذلك القلب الطفولي الملتهب. وهكذا تمكنت من امتلاك كل تلك الألغاز التي ما زالت تلتهب في أعماقي وتجعلني أرتعد. ولو أني فقدت تلك الرجفة، وتلك الذكريات الطفولية، لما ظلت هناك أية قيمة لكلّ ما تبقّى؛ مجرّد ظلال غريبّة يحرّكها العقل ... العقل الاستدلالي البائس..

١٩٥٢: بدأت بداية سيئة. إذْ أصيب نيكوس بنزلة برد، مرفوقة بحرارة عالية، وتورّمت شفته من جديد. وصار يسعل بطريقة أقلقتني.

لم يتبق في عينيه سوى الحزن. فطردت صورة وجهٍ يتلبّس وجهي مثل قناع: وجه كوفاروبياس[1] الذي شاهدته في متحف اللوفر، فقلت ما كان يجول في ذهني لتسلية الرجل المتألم:

«– لا تهتمّي بحالتي. إنها روحي التي تُملي قوانينها على الجسد. وهي متضايقة من عدم قدرتها على التعبير عن ذاتها في «فاوست الثالث».

– ليذهب فاوست الثالث إلى الشيطان، والرابع أيضا! هناك مواضيع كثيرة تغلي في دماغك. أنت تذكرني بالفتيات الباحثات عن زوج، عندنا: «أريد زوجاً، أريده الآن، إذا تأخر قليلاً، لا كنتُ ولا كانْ!».

ولم تساهم الأخبار الطيبة القادمة من اليونان في تلطيف الجوّ. فقد نشر بريفيلاكي كتاب «الزهد» في طبعة أنيقة. وزيّنه أحد أفضل النقاشين على الخشب

(١) البورتريه الشهير الذي رسمه الغريكو لـ «كوفاروبياس».

في اليونان، وهو يـانيس كيفالينوس، بزخارف مؤطَّـرة، جميلة جدًّا. وسُرّ نيكوس بذلك. وانكبّ بـريفيلاكي دائما، بمســاعدة عمانـويل كستاغلي، على نشر الأعمال الكاملة لكازتنتزاكي بعناية فائقـة. وسرّ كازنتزاكي مرة أخرى. ولم تتكدر محبته لصديقـه الأصغر بسبب عدم إعجابـه بـ «المسيح يصلب من جديد» والـروايات الأخرى الكبرى.

«لقد تقـدمت بمقدار ما استطعـت، وعلى بريفيلاكي الآن أن يتجـاوزني! هذه هي الوسيلة الوحيدة للابن كي يشرّف أباه!».

لكن كازنتـزاكي كان أكثر تشدّداً إزاء اليـونانيين الآخرين: وهذا مـا كتبه إلى بوريي كنوس الذي كان يستعد لزيارة اليونان:

آنتيب، ٤ يناير ١٩٥٢

... إن الشعب اليـوناني الـذي يسكن الجبـال والجزر، رائع جدًّا. ويتحلّى بفضـائل كبرى وبخصال إنســانية عميقـة؛ غير أن قادتـه الحـاليين يلحقون بـه العـار. وسـوف تلتقي، بين المثقفين، ببعض الشبـاب المفعمين بـالطموح، والفضـول الـروحي، والحب التلقائي..

... ولن يكـون لكتبي أيّ صدى في اليـونـان، لأنها تطرح قضـايـا ما ورائيـة لا تهم اليـونانيين المعـاصرين؛ فالموضـوع الرئيسي، شبـه الـوحيد، في كل أعمالي هـو معركـة الإنسان مع «الإله»، الصراع الشرس الذي تخوضـه الدودة المسماة «إنسان» ضد القوى المتسلطة والظـلامية الموجودة في داخله وحـواليه؛ العناد، الصراع والصلابـة لدى تلك *الشرارة* الصغيرة السّاعيـة إلى خرق *الظلام الأبدي* وقهــره. الصراع والقلق من أجل تحويل الظلمات إلى نـور، والعبوديـة إلى حريـة ... لكن كل تلك المعـارك، ويا لـلأسف، غريبة وغير مفهومة لدى مثقفي اليوم في اليونان...

أقبل الربيع مبكرا، قلقا، وكلّ شيء يتطلع إلى السعادة. والروح تزدري الجسد المنهك وتطلب أجنحة. اختفى الـورم الذي كان يشوه شفـة نيكوس، لكن الحزن استمرّ.

«عندما كـانت تنتابني نوبـة الكبد وتعتني بي في الظلام طوال ســاعات، ماذا

كنت تقــول لي؟ أصبري، أصبري، يــالينونشكــا، الحيــاة جميلــة، تذكـري أننــا محظوظــان ... وماذا كنت تفعل لطــرد الألم؟ تروي لي حكايــات كريتيــة جميلة. واأسفاه، ما من حكــايا في جعبتي، لكن يكفي أن تأمرني لأقــرأ لك أجمل الحكايا المطبــوعة في كتب البشر، تعــود العينان الحبيبتــان من بعيد، ثــانية، تنظــران اليّ مازحتين، ثم تستعيدان ذلك التعبير عن حزن لا يوصف، يكدّرني...

فيقــودني التداعي إلى ثلــوج غــوتسغاب الــرائعــة، وعالم الصمت والصفــاء، والهواء الخفيف، وأنفاس الأبقار الدافئة.

– هلْ تريد الذهاب إلى الجبل وحيداً بين الثلوج؟

قبل بضعة أيام من سفره إلى جبال الآلب النمســاوية تلقّى نيكوس أخباراً جدّ مؤثرة من أوسلو. وإذا كان الكتّاب اليونــانيون يتآمرون عليه، فقد رشحه أدباء النرويج بــالإجماع لنيل جائزة نوبل. وإذا كــانت اليونان تتردد في تجديــد جواز سفره وتتركــه سجيناً في فــرنسا، فقــد وافقت النرويــج على إعطائه جــواز سفر «تكفيني بضــع ســاعــات، كتب إليــه مــاكس تــو، كي أحصل لك على الجنسيــة النرويجية. وإذا أذِنْــتَ لي بتوجيه نداء عبر الإذاعة، ســوف تحصل على ما يمكنك من العــلاج في أي بلد تختاره». لكــن كازنتزاكــي، مهما كان قولــه، لم يشأ تغيير جنسيته، ولن يطلب مساعدة أحد.

آنتيب، ٢٠ يناير ١٩٥٢(١)

معلمي وصديقي العزيز،

أية معجزة! لقد نظمت ، ورتّبت، وأنجحت كلّ شيء، بطريقة رائعة. كيف أجد كلمات لشكرك؟ أي مَــلاَك حارس أتى بك إلى عزلتي؟ فأمسكت بيــدي وقلت لي: «اتبعني، أعرف الدّرب، ثق بي!» فتبعتك...

وَجَــدْتني رسالتك وحــرارتي قــد بلغت ٤٠ درجة. أصــارع بشراســة منذ شهــرين. وأحاول الشروع في تــاليف كتاب جــديد(٢) غير أنني أصطــدم بعــــراقيل كبيرة؛ ذلك أن

---

(١) رسالة إلى بوريبي كنوس.

(٢) كتاب «فاوست الثالث».

روحي المغتاظة تشكّل جسدي، وتشوهه، ثم تعيد تشكيله، تسيء إليه، تلقي به على السرير محموماً مضنىً. وكلما أُعلِنَت الحرب، في داخلي، بين الروح والمادة التي تقاومها، أصابني الشيء ذاته. لحسن الحظ أن رسالتك وصلت؛ وقد حسّنتْ من حالتي، أنا متأكد من ذلك..

آنتيب ، ٣٠ يناير ١٩٥٢[1]

أفكر في الذهاب، خلال بضعة أيام، إلى «التيرول» النمسوي. أنا مرهق جدًّا وينبغي أن أكون حذراً؛ لقد أضناني الجهد الذي بذلته كي أبدأ كتابي الجديد ... فكّرت في أمور كثيرة خلال هذين الشهرين ... لم أعد، كما في السابق، في حلٍّ من المسؤولية إزاء أي شخص؛ الآن، بعد الطريق التي سلكها «المسيح يصلب من جديد» صار من الضروري أن يشكل كلّ كتاب من كتبي، خطوة إلى الأمام. لقد خطا «الإغواء الأخير» تلك الخطوة؛ وعلى الكتاب الجديد أن يذهب إلى أبعد وأعلى. هذه المسؤولية كبيرة جدًّا وجسدي يُنهك بملاحقة روحي...

كيتزبوهل، غاستهاوس ستانغ،

١٣ فبراير ١٩٥٢[2]

حبيبتي ،

نزلت اليوم إلى كيتزبوهل ... وعدت حوالي منتصف النهار. لا يمكن وصف الجمال الثابت للأشجار المثقلة بالثلوج، كما لو كانت مزهرة. ولا الجبال البيضاء العالية المحيطة بها. الثلج يتساقط بلا انقطاع. يتساقط وطبقة ا لثلوج الكثيفة قد بلغت عدة أمتار. لم تعد الأيائل تجد ما تأكل في الغابات، فتنزل إلى المدينة. تذكرت غوتسغاب، غير أن المناظر هنا أروع، من أجمل مناظر أوروبا.

تحسّنت حالي. وارتحت جيدا. لم أعد أسعل. اختفت آخر آثار «الهربس» .. سأبدأ بالعمل منذ الغد كي أحاول استخراج قصة من «الإخوة الأعداء» كما طلب مني فيوفغ ... آمل أن يكون كل شيء على ما يرام في «مانوليتا» وأن تكوني قد تعوّدت على غيابي؛ عندما أسافر، أندم على اضطهادي لك ... أتمنى أن أستعيد هدوئي في الجبال، وسوف أتصرّف بطريقة أفضل.

---

(١) رسالة إلى بوريي كنوس.
(٢) رسالة إلى ايليني ساميوس كازنتزاكي.

يا له من حشد، يا لهنّ من نساء – وعجائز أيضاً – يتدفقون كلّ صباح للتزحلق على الثلوج يـا للحيويـة والقوة! يعـودون مع منتصف النهار وهـم يتضوّرون جوعـاً مثل البهائم ... غـابات بيضاء ، ولا شيء غير الصنـوبر. ما من طـائر، أو حيوان، الهدوء قبل الطيور والحيـوانات ويسمع بين فينـة وأخرى تقصـف الجليد الكريستـالي المعلق على السطـوح، إذ يتكسر ويسقط. فتطقطـق السطـوح المثقلـة بـالثلج، ويخرج الـرجـال برفوشهم كي يزيلوه .. هذه هي حياتي. ورسائلي تخبرك بالأمر نفسه..

ليكن الله معك، يا حبيبتي، ولا وجود لأحد غيره في العالم...

لم يطل نيكوس الإقـامة في كيتـزبوهل إذ انتقل إلى مكـان أكثر هـدوءاً: لوفير. وأراد صاحب الفندق الـذي أحبّه أن يقرأ له طالعـه، كما فعل مع هتلر شخصيا، حسب قوله. «لا ترهق نفسك في البحث عن مـواضيعك، قال له متفحّصاً خطوط يـده. سوف تأتيك من تلقـاء ذاتها. اصبر، اترك لها وقتـا للمجيء. على أية حـال سوف تعيش مطولاً. لكنّك تعاني مرضاً خطيراً جدًّا...».

لم يعد نيكوس بجانبي حتى يُسكت نـدمي . فيتملكني الندم. وأندم على عدم التروي في هذه السفرة أو تلك. وأندم على انسيـاقي مع التفاؤل المفرط لدى رفيق الدرب.... أندم على عدم استجابتي لغـريزتي التي كثيراً ما حاولت تنبيهي. أندم بالخصوص على فتح بابنا، ذات يوم، لتلك الشقراء المجهولة، للقدر الذي استعار شكل تلك المجهولة الشقراء.

لمحت من خلال الباب البلوري شعراً نـادراً وأصهب منفلشا مثل أعواد ثقاب؛ وجهـاً مشوهـا قليـلا بسبب حادث مـا، خطير ... نظـرة طائر مـرتبك. كلمتني المجهولـة بلغة فرنسية متـوحشة. أردت إغلاق الباب في وجههـا. كنت مستعجلة جدًّا، لأنَّ الحافلة ستفوتني، ونيكـوس ينتظرني في سيغال. ومع ذلك استمعت إلى المجهولة. قالت إنها جاءت تطلب منا غرفـة لإيواء إحدى صديقاتها ... وكانت قد رأتنا في نزهاتنا ... وهي فنّانة «وتعرف كلّ الرجال العظام في عصرنا...»

وضعت حدًّاً لـذلك اللقاء القصير، بكلّ احترام. ولم تستأ، بل وعدت بـالعودة

حال رجوعنا، لتمتين ا لتعارف.

اليوم، وبعـد أعوام كثيرة من التأمل والألم، مـا زلت أعتقد أن قدرنـا تنكر في إهاب تلك الشقراء المجهولة.

بعد سيغال وإيطاليـا تابعنا حياتنا في آنتيب حتى طرقت بـابنا تلك الشقراء، مرة أخرى. وقبلنا دعوتها. كانت ابنتها جذابة، وحفيدها بكّاء قليلا من دون داع.

لدى قراءتها صحف بلادها علمت بالنجـاح الباهر الذي حققه كتاب «المسيح يصلب من جديد» في هولندا. وبـدأت تلحّ علينا كي نرافقها في السفر حتى يتمكّن نيكوس من معالجة مرض «الهربس» في هولندا.

وهكذا قصـدنا، ذات يـوم من شهر ديسمبر ١٩٥٢، مستشفى في أوتـرخت. وكان البرد قارساً جداً.

كان الناشر الهولندي، السيد بلومسما ألطف ما يكون، ولم يكن ليغادرنا ليلاً ونهاراً.

وأحاطنـا أصدقاؤنـا الآخرون بالمحبـة، مثل الزوجين بليسـترا اللذين تعـرفنا عليهما في ايجبن - دان دولارد وزوجته الشـابة، وكذلك رجل الدين الكـاثوليكي واسع الثقافة، المبشر ج. فان جيلوفن الذي كان يأتي ليؤنس نيكوس ويحاوره في مختلف المواضيع الماورائيـة والأخلاقيـة. وحـده طبيبنا كـان في غـاية الشبـاب والعناد.

لم تكشف التحاليـل عن أي داء مخيف، فغادرنـا المستشفى يوم ٥ ديسمبر. وكـان يوم السـادس منـه عيد القـديس نيقـولا فنظم المعجبون بنيكـوس حفل استقبال على شرفه في أمسـتردام.

قبل ذلك كانت شفة نيكوس قد انتفخت قليلا منذ يوم ٤ ديسمبر.

- لن نغادر المستشفى ما دامت شفة زوجي قـد تورّمت من جديد . وهو على أية حال لن يستطيع الظهور أمام الجمهور.

- لقد وعدتكما بمغادرة المستشفى يوم ٥ ديسمبر، ردّ الطبيب، وسوف تغادرانه ويضع السيد كازنتزاكي دواء الستربتومايسين في جيبه.

- البرد فظيع ولسنا معتادين عليه، ونزلات البرد مستفحلة في أمستردام. وقد نصحتني، عدة مرات، يا دكتور، بألا أترك زوجي يتعرض للبرد!

- لن يصاب السيد كازنتزاكي بالبرد، إنَّه قوي جدًّا...

وأصيب كازنتزاكي بنزلة برد. والأسوأ من ذلك أنها كانت نزلة من نوع الأنفلونزا الحادّة ولم نكد ننتهي من مشاهدة لوحات رامبرنت وفرانز هالز، وفرمير، وفان جوخ، في المتاحف، حتى لزم نيكوس الفراش، مع حمّى شديدة.

ويستحيل سرد التفاصيل اللاحقة. فبعد أيام من اليأس في أمستردام، عدنا إلى أوترخت. وتابع الطبيب الشاب عناده. وعبثًا توسلت إليه أن يستدعي اختصاصي العيون كي يفحص عيْن نيكوس التي أحمرّت، لأول مرة، وصارت تؤلمه. «لا شيء، أجاب متشبثًا برأيه، فذلك ناجم عن حالته العامة».

لم تبيّن التحاليل أي تغير في الدم. لكن زيادة الورم في وجه نيكوس، وآلام عينه التي لم تنقطع، جعلت الطبيب يناوله «الكورتيزون» للمرة الأولى.

آه نيكوسمو، نيكوسمو[1]، ما كان أشد فراغ صبرك المرضي آنذاك!

«لا أشكو من شيء، قلت، سوف أشفى حال عودتنا إلى آنتيب!»

وذهبت توسلاتي سدىً. إذ كان الطبيب الشاب الذي أرسله إلينا قدرنا - وهذا ما علمت به لاحقاً - يقضي لياليه في الكنائس مصليًا من أجله! وألح على الناشر كي يزوّدنا بتذكرة العودة التي تظاهرتُ بأننا لا نستطيع الحصول عليها.

كان تشاؤمي يجعلني أتوقع مصائبنا القادمة، وقلة خبرتي في التمريض تجعلني أنفعل من تهيج أعصاب زوجي بشكل مبالغ فيه. ولم تسبق لي رؤيته قط على تلك الحال.

---

(١) صيغة تحبّب مستخدمة باليونانية «بانيكوسي» (المترجم)

ولم نكد نبلغ آنتيب حتى تفاقمت حالة عينه. وعنـدما فوجئت بالحدقة مغطاة بطبقة من الصّديد قررت التصرف بعزم وقوة:

– لقد وهبنا الله عينين اثنتين، يا سيدتى. فإذا فقدنا إحداهما، بقيت لنا الثانية! ولست أختلق شيئاً، بل أنقل حرفيا إجابة طبيب العيون في آنتيب.

لحسن الحظ أنَّ صديقنـا الطبيب ستيريانوس، والـزوجين مترال الوفيين، في باريس، كـانوا ينتظرون نيكـوس في المحطة. وفي صباح الغـد استقبله مستشفى بيشا. وتمكن الدكتور هودلو من إنقاذ عينه المرّة الأولى.

لكنني أستبق الأحداث! فمن الصعب سرد الأحـداث المؤلمة في حياتنا بتسلسل زمني. بسرعة، بسرعة، هيا نقفز في الجحيم كي نخرج منه إلى النور، في أقصر وقت ممكن.

منـذ ذلك الوقت لم أعـد أغادر نيكـوس. لذلك لا أمتلك من تلك الفترة سـوى بضع بطاقات بريدية «تقارير طبية» صار يبعث بها إليّ، فيما بعد، من فريبورغ، في بريسغو، حيث ذهب واثقا من عناية البروفيسور هيلماير.

والآن ، لنعد إلى الوراء، إلى صيف ١٩٥٢.

بعد فيشي وكيتزبوهل، أراد نيكوس أن يأخذنى مرة أخرى إلى إيطاليا. وفي هذه المرة زرنا بولونيا، رافين، ريعيني، سان مارينو، بيروجا، آسيز، أريزو، سيين...

ساعات لا تُنسى. فـرح بالاكتشاف وإعادة الاكتشـاف ... جيوتو بييرو دي لافرنسيسكا لي بوفيرولو .. الـروائع الاترودية في بيروجا، ولا سيما آسيز حيث أحيا نيكوس من أجلي، جورجنسن والكونتيسة أونريكينا بوتشي ... وهناك تملّكنا جنـون تهيئة بيت قـديم، مرة أخـرى ... في الأزقـة الظليلة التي كنـا ننشد فيهـا «الفيوريتي» ونحن نأكل التين والدرّاق.

– هل أنت قادر على تقبيل أبرص على فمه؟ سألته ذات يوم.

– هذا مستحيل! صاح نيكوس مقشعرًا.

– إذاً ماذا علّمك القديس فرنسوا، وشويتزر؟ هل أنت قادر على العيش بين البرْص مضحّياً لهم بكلّ الثروات الأخرى التي يزخر بها كيانك؟

– كلا. لست مثلهما. ولن أتوصل إلى ذلك.

– إذاً؟

– لقد تعلّمت شيئاً: إن الإنسان ما زال قادراً على إنزال المعجزة إلى الأرض. يكفي تجاهل الدرب المسطّح الذي يؤدي إلى السعادة، واختيار الدرب الصاعد الذي يقود إلى المستحيل...

– هل تشعر بالندم لأنك لم تختر درب الفعل والممارسة؟

– لقد حاولت، كما تعلمين، في مناسبات عديدة، لكن من دون طائل، دائماً. وسعيت إلى تغيير طبعي سدىً. والآن لا أرغب إلا في أمر واحد: بلوغ آخر الدرب الذي اخترته. ومن يدري، يا لينوتشكا، ربما لا يوجد أي درب آخر بالنسبة إليّ. وربما وجدنا أنّ كلّ الدروب تتقاطع إذا سرنا حتى النهاية.

– في المعجزة؟

– في معجزة ندعوها حياة، وهي خالدة.

آنتيب، ٩ سبتمبر ١٩٥٢(١)

جالساً، من جديد، إلى مكتب عذابي وفرحي، أمسك بالقلم وأكتب إليك ... شاهدت روائع في إيطاليا. وسررت كثيراً. فكّرت بعمق في آسيز وعشت مجدّداً مع الشهيد العظيم والبطل الذي أحبه كثيرا: القديس فرنسوا. والآن تسكنني رغبة في تأليف كتاب عنه. فهل أتمكن من ذلك؟ لا أدري بعد. أنتظر إشارة حتى أبداً. وكما تعلم فإنّ اللازمة الدائمة، في حياتي وفي كتاباتي، هي صراع الإنسان داخلنا، ضد الإله، وصراع المادة ضد الروح..

لدى عودتي وجدت مخطوطة ترجمة «الإلياذة» التي أنجزناها مع كاكريذيس. كان الإغواء شديداً، فارتميت فوراً في الأشعار الهوميرية، ارتمائي في بحر منعش، أثناء اشتداد القيظ.

---

(١) رسالة إلى بوريي كنوس.

راجعت الترجمة وعدّلت فيها، فسررت بغنى لغتنا وتناغمها وليونتها. أعتقد أنني لم أشعر بمثل هذه اللذة في حياتي، أية لغة، أية عذوبة وأية قوة!

أمس، في «كَانْ»، تعرفت على ناشري الأميركي ماكس لنكولن شوسنز. تحدّثنا مطولا، وأعطيته الترجمة الإنجليزية لرواية «زوربا» ... واليوم تلقيت برقية متحمسة؛ وافق على نشرها. ولقد فرحت كثيراً. فانا، كما تعلم، أحب هذا الكتاب حبّا خاصاً، لأنني أحببت زوربا الإنسان بقوة.

كنا نستعد لزيارة «كانْ» من أجل مقابلة الناشر الأمريكي ماكس لتكولن شوستر وزوجته راي عندما جاءنا ساعي البريد بنسخة من «زوربا» في طبعة جون لهمان الإنجليزية. وذهبنا إلى فندق الكارلتون ونيكوس يتأبط ذلك الكتاب.

– اسمحا لي بدقيقة واحدة، ترجّانا السيد شوستر الذي أهداه نيكوس كتابه، سأصعد بحثا عن شيء ما. طالت غيبته ثم نزل ضاحكاً، وظل يضحك ونحن نجلس إلى مائدة الطعام، ويقرأ مقاطع من الكتاب، متخليا عن الأكل، وأحيانا تنوبه زوجته.

ولدى العودة إلى الفندق أجبرني على الحديث عن «الإغواء الأخير». وبعد ذلك اللقاء الشيق، صارت كتب كازنتزاكي تنشر تباعاً في أميركا. ولم تنقطع علاقتنا بعد ذلك.

«ماكس سألتقط لك صورة و«الأوديسة» بين يديك، لأنك ستنشرها، هذا ما أتوقعه» قالت راي وهي تلتقط الصورة لزوجها محتضنا طبعة الجيب من «الأوديسة».

وفي الأثناء انصرف نيكوس إلى مراجعة ترجمة «الإلياذة» وكتابة الأسطورة الذهبية لقديسه المحبوب «فرانسوا الأسيزي»:

أنتيب، ٦/١١/٥٢(١)

... وصلتني رسالتك وأنا منكبّ على «الألياذة». لقد راجعتها مرتين، لأنني أفتحها فلا أستطيع إغلاقها ... أعمل بشكل جيد هنا، وبدأت بكتابة عمل جديد...

---

(١) رسالة إلى يانيس كاكريذيس.

وعندما كان نيكوس يتأهب لمغادرة آنتيب متوجها إلى أوترخت، يوم ٦ نوفمبر ١٩٥٢، كتب إلى بوريي كنوس:

... أشعر بالحزن لترك القديس فرنسوا مدة شهر. عندما أصعد إلى مكتبي، يجلس أمامي مثل «موديل» أمام رسام، وينتظرني؛ فابدأ بسرد حياته، وذكر مآثره ووصف ملامحه...

وفي هولندا ازداد نجاح «المسيح يصلب من جديد» مقارنة بالبداية. وتحدثت الصحافة كثيراً عن الكاتب اليوناني الذي جاء للعلاج في أوترخت. وأكّدت التحاليل ما ذهب إليه الأستاذ تسانك في باريس، فهدأ بالنا وبدأنا نضع الخطط، لأن متاحف البلد سحرتنا.

أوترخت، ١٧ نوفمبر ١٩٥٢(١)

صديقتي العزيزة جداً،

قرأت بتأثر بالغ رسالتك الأخيرة. وسررت لإعجابك بـ«الإغواء الأخير». أنا أيضا شعرت أثناء كتابتها بتأثر عميق وحنوّ عارم، وكثيراً ما كانت عيناي تترقرقان بالدموع. أجريت هنا، في هولندا، محاورات مهمة مع بعض القساوسة حول الجانب اللا هوتي من الكتاب. وثار بعضهم لأن المسيح خضع للإغواء، أما أنا فقد أحسست، أثناء التأليف بما أحس به المسيح. صرت المسيح وأدركت أنَّ إغواءات كبرى، كانت تعترضه وتؤخر مسيرته نحو الجلجلة. ولكن كيف بوسع اللاهوتيين أن يدركوا ذلك؟

سنمكث في أوترخت ثلاثة أيام أخرى ثم نبدأ جولتنا عبر المدن والمتاحف؛ غداً يخبر الطبيب ايليني بنوعية الحمية التي يتوجب عليها أن تتبعها ... وبالأمس نُقل إليها دم هولندي.

سررت كثيراً برؤية لوحات قيمة. وهذا مفيد لكتاب القدّيس فرنسوا الذي تركته غير مكتمل على مكتبي في «فيللا مانوليتا».. كل الفنون لها جذر واحد. وأحيانا أتأثر بقطعة موسيقية، أو لوحة، أكثر من تأثري بعمل أدبي، ولهذا السبب أتلهف إلى مشاهدة رامبرنت وهالس وبروغل وفان جوخ.

أكتب إليك والثلج ينهمر، الأشجار مثل الكريستال، وسرب من النوارس يحلق أمام

---

(١) رسالة إلى تيا انيموياني.

النوافذ، لقد تطلعت كثيراً إلى مشاهد الشمال وصمته...

الصورة التي أبعث بها إليك توجد الآن في عدة صحف هولندية وفي واجهات المكتبات، ايليني مسرورة بذلك، أما أنا فلا أستطيع لأنّ كياني كله متفرّع للقديس فرنسوا...

أوترخت، ٢٣ ديسمبر ١٩٥٢[(١)]

صديقي العزيز،

انتهت جولتنا في هولندا ، وسنسافر غداً بالطائرة نحو «مانوليتا». نتائج الفحوص الطبية جيدة. لا تشكو ايليني من مرض خطير، وأنا أيضا؛ لكننا بتْنا نعرف أية حمية نتبع ... ~~عيد ميلاد~~ سعيد، يا صديقي العزيز، أتمنى لك الكثير من الفرح والصحة والسعادة؛ ولتقبل الملائكة التي أنشدت «هوزانا» في بيت لحم، تلك الليلة، لتنشد فوق رأسك أيضاً أناشيد السلام والسعادة. «ن».

١٩٥٣. لن يدرك القارىء غير المطلع أنَّ أحداثا كثيرة جرت بين الرسالتين السابقتين. لم يتحدّث نيكوس عن آلامه الشخصية لأحد. وقِلَّة هم الذين كانوا يعرفون ذلك. وفيما بعد سوف يُدهش الجميع في مستشفى بيشا أو في عيادة هضاب شومون.

لقد كان نيكوس قدوة لنا جميعاً في تحمل الألم.

– إنه أسد ! رأيت أسداً! صاحت ماري لويز باتاي[(٢)] عندما رأته طريح الفراش مضمّد العين، شرساً مثل قرصان.

وبعد ثلاثة أشهر عندما كان في شبه غيبوبة عن العالم الخارجي طلب منّي قليلا من الكرز ثم أملى عليّ قصائد «هايكاي» فرنسيسكانية[(٣)] مدهشة، من دون اللجوء إلى التعديل أو التشطيب. وكان ذلك استثناء لأن هذا الرجل لم يكن يجيد

(١) رسالة إلى بوريي كنوس.

(٢) الآنسة ماري لويز باتاي التي صارت وكيلة نيكوس كازنتزاكي الأدبية في فرنسا، لاحقاً.

(٣) انظر «تقرير إلى غريكو» و«فقير آسيز».

الإملاء قط. وهـذا ما أدعوه «معجـزة القديس فرنسـوا الثانية» وكـانت الأولى قد أنقذتنا من المجاعة في إيجين...

آنتيب، ١٩ مارس ١٩٥٣[١]

رفيقة النضال الحبيبة،

عيني في تحسّن، لكنني لم أتمكن من التفرغ للعمل بعد، لأنها تُرهق بسرعة. وما زال القديس فرنسوا ينتظر على مكتبي؛ وفي الأثناء يشتغل ذهني، وقد اكتمل العمل في داخلي، ولم يعد يتطلب سوى الكتابة. وكما رأيت فإن النقد الموجّه إلى أعمالي المنشورة في الخارج متحمّس جـدًّا، ويبالغ في مـدحي. ولولا امتـلاكي لـرأس كريتي صلب لصرت مغـروراً. لكنني أعرف أنني لم أدرك ما أريد وأنّ الزمن يمرّ. متى أبدأ بكتابة «فاوست»؟ وهو محكّ جيد لاختبـار قوتي. أؤجّلـه دائماً لأنني لم أبلغ الجدارة بعد. لكنني وجـدت الأسطورة أخيراً، في بـاريس، عنـدما كنـت نزيل المستشفى. وهكذا خطـوت الخطـوة الأولى، وهي الخطوة الأصعب. فليساعدني الإله!

لا أعـرف إنْ كان هنـاك إله أم لا، وإذا كـان يـوجد، فأنـا أعرف أنـه لم يأت لمساعدة من ناداه. بل العكس هو مـا حدث. ففي الربيع التهبت عين نيكوس مرة أخرى. فتوسلت إليـه كي يسافر إلى باريس. لكنـه رفض. وكان طبيب العيون في آنتيب هرماً، ومـدمناً للكحول. غير أننا كنا نجهل ذلك. وعندمـا أراد كَيَّ الرموش الكثيفة التي أعاقت عمله، أحرق عين نيكوس.

– آه! صاح، لقد أحرقتك!

واضطر نيكوس إلى السفر باتجاه باريس.

وقبل ركوب القطار حقنه طبيب العيون بإبرة حليب[٢] ونصحه بتناول إبرتين أخريين، من دون أن يوضح لنا أنه أراد بذلك أن يُحدث خرّاجاً.

وما كـان نيكوس لينجو من الموت في تلـك المرة، لولا تدخل البروفيسـور جان برنار.

---

(١) رسالة إلى تيا انيموياني.

(٢) طريقة بالية.

لن أتعرض إلى التفاصيل لكنني لن أنسى سلوك كـازنتزاكي عندما كان يفتح عينيه ليراني وهو في حالة هذيـان «مرحبا بك! لماذا أزعجت نفسك لأمر تافه؟...» وفيما بعد، عنـدما كـان في عيادة مـونمارتر «اقـرأي لي (القبطان ميخـاليس) يا عزيزتي .. كلا خذي ورقـة ... اكتبي!» ثم أملى عليّ قصائد الهايكاي التي أوردها فيما بعد على لسان «فقير آسيز».

وحال خروجـه من العيادة، أملى عليّ قصائد الهايكاي التـي أوردها فيما بعد على لسان «فقير آسيز».

وحال خروجه من العيادة، أملى عليَّ رسالة إلى صديقه بوريي كنوس:

باريس، ٨ يونيو ١٩٥٣

صديقي العزيز جدًا،

كتبت أثنـاء مرضي بعض قصـائد الهايكـاي الفرنسيسكـانيـة وأعتقد أنها جيـدة. مختصرة ومفعمة بـالإحساس والـدلالة، والإلفـة الفرنسيسكـانية مع الإلـه .. حياتي مظلمة ويائسة! شهور عديدة بين جدران العيادة والمستشفى. ولولا ايليني وفرنسوا لما صمدتُ. وربما فتحتُ الباب وخرجت. لكنني أفكـر فيك وفي أصدقائي الآخرين في العالم ولم أشأ أن أحـزنهم. أقاوم، أصارع، أحشـد كل قـواي النيرة لقهر الظلام، وأعتقـد أنني بدأت أقهـره. أنا الآن أفضل حالاً ولم يبق سـوى اندمال الجرح. لا تهتم إذاً، يـا صديقي العزيز، ساشفى عما قريب كي أكافح إلى جانبك. لأننـا نشبه محاربيْـن باسليْـن كرّسا حياتهما للهدف الأكبر: انتصار الروح على المادة..

باريس، ١٢ يونيو ١٩٥٣(١)

لا تقلق على صحتي، فكلّ شيء على ما يرام الآن، وآمل أن أعـود إلى آنتيب حوالي نهاية الشهر. وهناك سوف أنتظـر كاكريذيس ونبدأ بعملنا الجبـار، لأنني ما زلت أؤمن بأنّه صرح لغوي وأدبي تعتزّ به لغتنا..

أما بالنسبة للقديس فـرنسوا فلا ينبغي الاستعجال. كنت أسجل بعض الملاحظات أثناء مـرضي، وأكتب قصائد فـرنسيسكانيـة، وأهيّيء المشاهد، فيغتنـي العمل بثروات

---

(١) رسالة إلى بوريي كنوس.

كبيرة؛ وسوف أعـود إليه بحماسة جديـدة حالما أقدر على ذلك.. حـاولت استغلال فترة المرض قـدر المستطاع، فانضجت هـذا العمل في داخلي. ولعلّني أكـون بـذلك قد حـوّلتُ المرض إلى روح.

يُفَسَّر تحمّس نيكوس للقـديس فرنســوا بإعجابـه الشديـد بالأبطـال الذين يجمعون بين البطولة والقداسة لكن كيف سيتـوصل إلى تكريس كتاب كامل له؟ وهل سيسقط في نزعة التأريخ لسير القدبسين الكاثوليك، في أواخر حياته؟

من محاوراتنـا المطـولـة حول هـذا الموضــوع يستعيـد ذهني بعض الجمل المتفرقة:

«أثنـاء هذيـان الحمّى، تـذكـري عيادة شــومــون، خيّل إليّ انني كنت أرى القديس فرنسوا ينحني عليَّ ويأتي خلال ليالي الأرق ليجلس قرب فراشي ويروي لي سيرة حياته، مثل مربيّة عجوز...»

«... في كتابي ســوف أورد أقواله، وأقــوالاً أخرى كـان يمكن أن يقولها .. كما فعلت مع مأثورات الأناجيل تماماً. فـأنا متأكد أن المسيح لم يتوقف في منتصف الطريق. ذلك أن طيبته أعمق مما نَقَلَ عنه تلاميذه..

«... لا يهمّني الأدب ولا التحليل النفسي، بل القــوى الخفيـة الموجـودة داخل الروح الإنسانية والتي نتركهـا تنام وتتلف، بسبب الجبن، أو بسبب انعدام مثل أعلى..

«يصير القـديس فرنســوا معــاصراً لنا، ليـس لأنه حقق في قلبـه ذلك الاتحاد الكامل مع الكـون والذي يقودنا إليه العلم المعـاصر عبر دروب أخرى، فقط، بل لأن قلبه توصل أيضا إلى حلّ المشـاكل التي ما زالت غير قابلة للحلّ: الفقر، الظلم، العنف. والحب الذي كان يبشر بـ، هو وحده الكفيل بحلّ هذه المشـاكل.

كان يبشر به، هو وحده الكفيل بحلّ هذه المشـاكل..

«... ألحّ مؤرّخـو القديسـين القدامى على حـالة الغبطـة لدى القديس فـرنسوا «الفقير»... أما أنـا فسوف أركّز على الصعـوبة الكبرى التي يتحـرّر بها الإنسان

الفـانى ... إنَّ الصراع في منتهى القســـوة ... وهــذا الصراع تحديـداً هـــو الـذي يهمني...»

في هذا الصيف لـن يتمكن نيكوس من تسلق أشجـار التين، ولن يساعـدنا في جني الزيتون. ذلك أن الجرح الذي تسببت فيه حُقن الحليب أبطأ في الاندمال.

مع ذلك، وعلى الرغم من ذلك الجرح المفتوح دائماً، وظهـور أشكال أخرى من الحساسية الناجمة عن الإفراط في كميات الـزرنيخ، فقد حافظ على مزاجه المتّزن وتحمسـه للعمل وسـاهم حـدثـان سعيـدان في بعث السرور إلى قلبـه: زيـارة بريفيـلاكي القصيرة، ومجيء يانيس كاكريـذيس. وهذا الأخير أقام معنا قـرابة شهر. فراجع الرجلان ترجمة «الإلياذة» مراجعة نهائية. وظلت الحاجة إلى توفير نفقات طبعها.

وفـرح نيكوس بعـرض لاحق، تقدمتْ بـه إحـدى جامعـات ألمانيا الشرقيـة، واشترطت فيه نشر النصين (اليـوناني القديم وتـرجمته إلى اللغة الجديـدة) معاً. غير أن كاكريـذيس اعترض على ذلك ولم يلحّ نيكوس. وبطريقة لا واعيـة بدأ يلج المرحلة الأخيرة من حياته، مرحلـة التخلّي والاستسلام، والإكتفاء بأبسط الأمور. فصـار يفرح بكل شيء ويستمتع بـرؤية زهـرة، أو بسمة، أو تحليق طـائر يترك ريشـة تسقط – ولم يعـد هنـاك شيء ضروري، بـاستثنـاء الموسيقى والتعطش الدائم للعدالة والحرية.

وهكذا نصل إلى سنة ١٩٥٤.

آنتيب، ٨ يناير ١٩٥٤(١)

صديقي العزيز،

زوجتي تبلغك السـلام، وهي مشغـولة طيلـة النهـار بالبيت الصغير، الجديـد(٢)؛ العمّال منهمكون في العمل، ومكتبـي يتهيأ. نأمل الاستقرار في بيتنـا خلال شهر ابـريل؛

---

(١) رسالة إلى بوريي كنوس.

(٢) بيت صغير مهدم لبعض الصيادين، كان يوجد خارج أسوار آنتيب القديمة.

ليتك كنت معنا كي نحتفل به معاً، أحيانا، عندما أتأمل البيت الصغير وهو يُبنى، أتذكر كلمات زاهد مسلم في القرن العاشر: «– لماذا لا تبني لك بيتاً، أنت أيضاً؟ سُئل. – لأنّ عرّافاً قال لي بأنّني لن أعيش سوى سبعمائة سنة، أجاب. فما الحاجة إلى بناء بيت لمثل هذه اللحظة القصيرة؟».

وهناك عرّاف آخر تنبّأ لي بالعيش ثلاثة وثمانين عاماً. ومع ذلك دفعتني سذاجتي ووقاحتي إلى بناء بيت..

أنتيب، ٢٠ يناير ١٩٥٣(١)

... أراجع هذه الأيام أعمالي كلها، وأعطيها أشكالها النهائية، متمنيّا صدورها ضمن طبعة كاملة..

هنا، بدأ الربيع: شمس ساطعة، كريتية، حارة. أفكر فيك بين البرد والضباب. لكنّ أبولون الشمالي له جاذبيته؛ فالروح تضطر إلى التركيز على ذاتها، بينما تتشتت في المناخات الحارة، وتتنزه تحت الشمس، وتشعر أنّ الحياة أسمى من الفكر.

... البيت الصغير يتقدّم؛ صغير جدًا لكنه فاتن؛ سميناه «الشرنقة» يدخلها المرء يُسْرُوعاً ويخرج منها فراشة..

سيحتفل نيكوس يوم ١٨ فبراير ١٩٥٤ بعيد ميلاد مؤثر. ذلك أن ماكس تو «الساحر» كان يخبيء في جرابه أكثر من مفاجأة. ووصلت حمائمه من أربعة أركان الأرض، حاملة في مناقيرها مكاتيب الصداقة والإمتنان.

وبدأ منذ عشية الذكرى يُدهشنا بهداياه التي وضعها أمام نيكوس. هدايا ملموسة وأخرى، أعلن عنها، فإذا الواحدة أجمل من الأخرى: نجاح المسرحية المقتبسة من «المسيح يُصلب من جديد» في مسرح «نورسكي» بأوسلو، طبعات جديدة في أمكنة متعددة، دراسات نقدية أخرى متحمسة، ترجمات تُعدّ في أكثر من عشرين لغة – أعمال بدأت تجد قلوباً وآذاناً جديدة تسمعها.

(١) رسالة إلى بوريي كنوس.

شربنا الأنخاب نبيذاً من سامـوس في كريستـال نرويجي. وكَالَ مـاكس تو المدائح للنـرويج، بـلاده بـالتبنّي، ولشعبهـا القـوي لأنـه عميق، ووفيّ لمبـادئه، ولأدبـائهـا المتحلّين بـالإيثـار ومازالـوا يصرّون على تـرشيح كـاتب يـونـاني، هونيكوس كازنتزاكي، لجائزة نوبل..

«إذا رغبت في الحصول على الجنسية النرويجية، فلا شيء أسهل من ذلك!»

لكن كازنتزاكي يرغب في البقاء كما هـو! كريتيًّا ذا قلب أفريقي، على الرغم من التصرّف الغريب لمسقط رأسـه كريت. فلم تردّ الفعل بسرعـة على الادعاءات التي أصابته بسبب نشر رواية «القبطان ميخاليس»[1]. وكان رجال الدين اليونانيون على درجـة من الجهل جعلت رئيس الأسـاقفة المقيم في الـولايـات المتحدة ينـدّد بالمؤلف ويطالب بتسليط الحرمان الكنسي على «القبطـان ميخاليس مافريذيس»! خالطاً بذلك بين اسم الناشر واسم بطل الرواية الملعون!

يوم ١٨ فبرايـر ١٩٥٤ سرى الدفء في «فيللا مـانوليتـا»، وأضيئت الأنوار، وتألقت الزينة، وبدأ الاحتفال...

ومنذ الفجر أسرع ماكس تو شخصيا إلى فتح الباب والتصفيق لشباب سباق الـدراجات التـابعين لمصلحة البريـد والبرق والهاتف وقـد تولـوا القيام بعـرض مكوكي بين المدينـة و«فيللا مـانوليتـا» ناسجين بـذلك لوحـة لا مرئيـة مفعمة بالحماسة والثقة...

أنتيب، ٢٤ فبراير ١٩٥٤[2]

... «الشرنقة» تتقدّم ... أنـا مسرور بالسكن أخيراً في بيت على ذوقي وشبهي. ايليني أيضا سعيدة، وهذا هو الأهم..

كان يوم فـراشات وعصافير وورود. وناديتُ قطتنـا الصغيرة «بوبولي» كي أذيقها القليل من القشـدة التي تحبها، فـاكتشفنا أنها اختفت. وفي البـداية تحمّل

---

(١) كان حابيم خورموزيوس هو أول يوناني يدافع بقوة عن هذه الرواية.

(٢) رسالة إلى بورجي كنوس.

نيكوس نحيبي، لكنه استيقظ ذات يوم مرتجفاً: «بوبولي! بوبولي!» صاح مغموراً بالفرح. وقفز من السرير نحو النافذة...

لم تعد بوبولي وأقسم نيكوس ألا يسمح لقطّةٍ أخرى بالحلول محلها.

أعرف أنه من العبث ارتـداء ثوب الحداد من أجل قطة. لكن ضياعهـا أحزننا. تلك الكرة الزغبيّة البيضاء، ذات الذيل المنتصب عاليا والمتحرك في استقبالنا، تلك الروح الصغيرة ذات النظرة الصافية التي كانت تأتي لنا بصغارها عندما تضطر للتغيّب بضع دقـائق. تلك الشيطانة، نصـف ا لقطة ونصف الطائر، التـي أتعبنا «التقاطها» من الأشجار حيث كانت تجثم، فجِئنا لنقنعها بطيبة الإنسان..

(آنتيب) أول مايو ١٩٥٤[1]

... أعلمني الناشر الألماني أمس:[2] Letzte Versuchung auf papstlichem Index

ما زلت أستغـرب ضيق قلوب الناس وأرواحهـم؛ فهذا الكتاب ألّفتـه في حالة عـارمة من الحماسة الدينية، والحب المتّقد للمسيح، ومع ذلك ها هو ذا ممثل المسيح، البابا، لا يفهم شيئاً ويدينه! من الطبيعي جدًّا أن تدينني دناءة عالم العبيد هذا.

آنتيب، ١٤ مايو ١٩٥٤[3]

... كان ناشري النيويوركي عندنا بالأمس، مع زوجته؛ تحدثنا كثيراً، ويريد السعي إلى ترجمة «الأوديسة»؛ وسوف يدفع للمترجم كي يأتي للعمل معي في آنتيب. عمل جبّار في منتهى الصعوبة، ويتطلب حبًّا وصبراً فوق طاقة الإنسان.

مـا زال «القبطان ميخـاليس» يثير غضب اليـونانيين. وقـد اعتبره رئيس أساقفـة كيوس بذ يئـاً، خائناً، معاديـاً للدين والأخلاق في كريت! وهكـذا يمكنك تصور الهمجيّة التي يعاني منهـا وطننا، أقصد اليونـانيين الرسميين والدينيين. كـذلك أدانت الكنيسة الأرثوذكسية في أمريكـا كتاب «الإغواء الأخير» واعتبرته فاحشا إلْحاديًّـا وخائناً. لكنها اعترفت بأنها لم تقرأه وأنّها اعتمدت على الانتقادات التي نُشرت في صحيفة «هستيا».

أمـا أنا فـامكث هنا في عـزلتي، هـادئاً، منصرفـاً إلى مهمتي، وأخـدم اللغة والـروح

---

(١) رسالة إلى بوريي كنوس.

(٢) (كتاب) «الاغواء الأخير» على لائحة الممنوعات.

(٣) رسالة إلى بوريي كنوس.

اليــــونانيتين الخـــــالدتين، بمقدار ما أستطيع، كما كتب ترتوليان:

Ad tuum, Domine, triobunal appelo

أبرق نيكوس بجمله ترتوليان إلى اللجنة المسؤولة عن قائمة المنوعات. وأضاف إلى الكنيسة الأرثوذكسيــة اليونانية: «لقـد لَعَنتموني يا آبائي، أما أنـا فاباركم. أتمنّى أن تكون ضمائركم بنزاهة ضميري، وأن تكونوا خلوقين ومتدينين بمقدار ما أنا كذلك».

اقترب موعـد توديع «فيللا مانـوليتا». وهكذا ولّت خمسة أعـوام «من الفرح والألم، كما يليق بالانسان» – خمسة أعوام لم نعرف فيها الضجر.

وإذا كان نيكوس يفرح في كل مرة يكتشـف فيها شعرة بيضاء في رأسي – «يا للفرحــة، إنّك بدأتِ تهرمين بين يديَّ!» فأنـا، ويا لـلأسف، لم أكن قادرة على فعل ذلك عندما ألاحظ ذبول وجهه، على الرغم من يقظة روحه كما في أول لقاء بيننا.

لقد غادرنا صخرة ايجين بزوجي حذاء وقميص غيار. وكُتب علينا ألا نعود إلى رؤيتها لتضيع بذلك أشياء كثيرة نحبهـا، إلى الأبد. وهلع نيكوس في آنتيب لفكرة تجديد الإيجار مدّة ثلاث سنوات أخرى. إذ أننا أمضينا فيها تسع سنوات، بينها خمس سنوات، وكانت الأفضل، في «مانوليتا».

وهـا هي ذي ساعـة الوداع تـدق. والبستـاني الهرم كامـوس المصاب بـداء المفاصل يتذمر بشاربه الغالي:(١)

- هكذا إذاً، تغادرانني ... ولن نلتقي...

– سوف نأتي مراراً لزيارتك يا جدّي! وعده نيكوس – سوف نأتي لمساعدتك على أداء الزّعرور! أضفتُ بغصّة متصنّعة.

وتأثر كاموس بمغادرتنا، هو الأول. وفي سترته وجدنا ورقة صغيرة مدعوكة وقد كتب عليها بقلم الرصاص:

---

(١) نسبة إلى بلاد «الغال» La Gaule، فرنسا القديمة (المترجم)

«عزيزتي السيـدة هيلين كازنتزاكي، أنا ذاهب إلى الجنّة. وهنـاك سوف أغفر لأعدائي. آمل أن نلتقي مرة أخرى في الجنّة».

تـركنا هضبـة خضراء وحديقـة واسعة وفيلـلا رحبة، ودخلنـا بيتاً ضئيـلاً للصيادين، معلّقا على صخرة، تشرف على ساحة قرية قديمة. ومن الشرفة الظليلة يلوح البحر القصي.

في المساء الأول، عندما أنزلنا الستائر وأضأنا المصباح، خلنا أننا في حلم.

– هل أنت راض يا نيكوس؟ هل تستطيع العمل هنا؟

– أعتقد ذلك. فهـذا ليس بيتاً، بل هـو ثوب سميك، يـدفئنا في الشتـاء ... قال نيكوس متابعاً حلقات الدخان المتصاعدة من غليونه، شارد البال.

وفي الأثناء وصلت الكتب والمخطـوطات من ايجين. وبدأ نيكوس عمليـة الفرز بلهفة شديدة وكنت أستمع إلى صوت تقّصف الورق وتمزّقه طق! طق! طق!

– هل أنت مقتنع بتمزيق الكثير؟

– نعم ... أحسب ذلك.

وامتلأت سلة المهملات...

آنتيب، ٢١ يونيو ١٩٥٤(١)

صديقي العزيز جدًا،

نال صـديقنا زوربا جـائزة أفضل عمل أجنبي منشور في فرنسـا، أتخيل ضحكته في الجنّة، حيث ينبغي أن يكون. وفي الوقت نفسه يصـدر «القديس فرنسوا» على حلقات في إحدى أفضل صحف أثينا.

أتابع ، من عـزلتي المشمسة ، أهـواء البشر؛ بذهـول وشفقة. وأواصل عملي – الحلم بإنسانية أفضل، محاولاً التعبير عنه، لأساعدها بذلك على التحقق كما أعتقد.

بعد غـد يصل الشاعر الأمـريكي فريار ... موفـداً من ناشري الأمريكي في نيـويورك

(١) رسالة إلى بوريي كنوس.

الذي سيمكنّه من راتب حتى يبقى معي مدة ستة أشهر، لترجمة «الأوديسة» ... أعتقد بانني عبّرت في «الأوديسة» عن روحي كلها، عن الشعلة والنور اللذين أخرجتهما من المادة التي جُبل منها جسدي. أما أعمالي الأخرى فهي ثانوية، ولهذا وافقت على مثل هذه التضحية: أن أخسر ستة أشهر.

وأخيراً سندخل إلى «الشرنقة» غداً. رتّبت كتبي ... ايليني فرحة مثل طائر بَنَى عشه ودخل إليه الآن ليحضن البيض. أيّ بيْض؟ الكتب التي سوف أؤلفها، وتتولّى ايليني نسخها؛ وليس لنا أطفال آخرون...

كان للشرنقة – الصغيرة، لكن المريحة – مرتادوها الأوفياء. وكثيراً ما يرنّ الجرس فجراً:

– مرحبا يا «قابلتي»! يصيح نيكوس مستقبلا صديقه الشاب، الرسام لاديسلاس كيجنو، ماذا سنلد اليوم؟

– فكّرتُ في ... يقول كيجنو وهو ينظر بحنان إلى الرجل المسنّ المرتدي قميصه البرتقالي الأبدي وقد انكبّ على مخطوطاته. الرجل الذي لا يغضب قط إذا جاء من يريد أن يحادثه.

– فكّرت في ... ثم ينفخ صوته مثل آلة موسيقية.

فأستمع إليهما يضحكان ويتحدّثان بضع دقائق ثم يذهب كيجنو ويخيّم الصمت من جديد. وبعد الظهر يأتي دُرْ دي لاسوشير، أمين متحف آنتيب، المعجب ببيكاسو وصديقه، ويدخل بمذكّرته لأنه ينوي، في تلك الأعوام، تأليف كتاب عن كازنتزاكي.

وخلال أعوام الشرنقة أطلّ شاب جميل الطلعة، أسمر البشرة، مصريّ المولد. وكان يسكن في إيكس – أون – بروفانس حيث يمتلك ويحرر مجلة ممتازة باللغة الفرنسية هي الدلافين الأربعة، واستطاع عزيز عزّت أن يفتن كازنتزاكي. إذْ أنّ ذلك الشاب المتحدر من أرومة عربية ويجيد الألمانية، والإنجليزية، والفرنسية،

والإيطالية، بعمق، والجامع بين الروح الثورية والتصوّف، ذلك الشرقي، كان يتحرك بأريحية فوق أرض ذرعها كازنتزاكي ألف مرة. وهكذا قدّم له نيكوس كتاب «الزهد» منذ البداية. وبعد مرور زمن طويل سوف يكرّس عزيز عِزّت دراسة بيوغرافية (سيرة) لنيكوس، أعتبرُها شخصيًا ناجحة جدًّا في ميدانها.

سنة ١٩٥٥ جاء جول داسان أيضا إلى الشرنقة. كان يتميز بابتسامة طفل وعذوبة سرد الطرائف، ويقرأ لنا بالإنجليزية نص السيناريو الذي اقتبسه من «المسيح يصلب من جديد» وكان الحوار الأحادي المقطع يدهش نيكوس فيهتف: «آه! آه! لو لم أكن يونانيا لاخترت هذه اللغة!» ويزداد سرور نيكوس بسماع الطرائف التي جاء بها داسان من كريت فيتنهد لإحساسه بالحنين.

وهناك وجه آخر حبيب، رجل متواضع لكنه موهوب، زار الشرنقة لأول مرة. كان يدعى بوهوسلاف مارتينو. جاء يرتدي ثيابا بسيطة ومعطفه في يده، وقدّم نفسه إلى شخصين لم يسمعا شيئا من موسيقاه، ومع ذلك لم يستأ، وحافظ على قلب طيب، لتواضعه العميق.

وضع بوهوسلاف مارتينو كتيّب أوبراه «هوى يوناني[1]» من دون مساعدة تذكر لنيكوس. كان الموسيقار يعرض عليه أفكاره، فلا يجد نيكوس ما يغيره ويوافق مباشرة. ولم يتمكن المبدعان من حضور الحدث العالمي الذي شكّله عملهما، في زيوريخ.

لا يمكن ذكر أسماء كلّ الذين زاروا «الشرنقة» لأن القائمة تطول. ومع ذلك أذكر بودّ الأزواج: لوران، دي ليي[2] ايميلينا، بوارييه، غيومو، وكوليت بوتشر، الخ، الخ، الخ... وكانت زياراتهم تبعث السرور في قلب نيكوس. وأخيراً عمل نيكوس مع بيار سبيريو، صاحب البرامج الإذاعية التي لفتت انتباهه، من أجل إعداد محاورات تذيعها مؤسسة الإذاعة الفرنسية.

---

(١) صدرت «المسيح يُصلب من جديد» بعنوان «هوى يوناني» في بلدان عديدة.

(٢) رَسَمَ السيد ت. دي ليي صورتي «بورتريه» لنيكوس كازنتزاكي، احداهما في حياته. وكان نيكوس يحب جلسات التصوير مع حوارات شيقة.

في يونيو ١٩٥٤، التجأنا إلى سوز، وهي محطة صغيرة للرياضة الشتوية، توجد في برشلونات على ارتفاع ١٤٠٠ متر، كي يتمكن نيكوس من العمل مع كيمون فريار في ترجمة «الأوديسة» إلى اللغة الإنجليزية.

كانت سنة ١٩٥٤ تشرف على النهاية. وأُرهق نيكوس بالعمل المتعب في سوز. ونظراً لسوء حالته قررنا استشارة البروفيسور هيلماير في فريبورغ، بعد عرض «سدوم وعمورة» في مانهايم عرضاً عالمياً.

وهكذا علمنا أن نيكوس مصاب بابيضاض الدم (لوكيميا) اللّمفاوي. وقد تجاوزت الكريات البيض الحدّ الطبيعي، لأول مرة، بعد حادثة الدُّمّل.

بعد أسبوع من العلاج لاح البروفيسور هيلماير متفائلاً بمقدار ما كان جان برنار كذلك.

– الأمر ليس خطراً. عليك أن تأتي مرّة في السنة، ونتكفّل بجعلك في أحسن حال.

١٩٥٥. ما إن عدنا إلى آنتيب حتى كتب نيكوس إلى صديقه القديم الذي يعيش بعيداً، في ثلوج الشمال.

آنتيب، ٢١ يناير ١٩٥٥[١]

صديقي العزيز جدًا،

أخيراً عدت إلى «الشرنقة» اليوم. كنت في العيادة المشهورة لطبيب الدم الألماني الكبير، البروفيسور هيلماير. وهناك مكثت أربعين يوما للاستشفاء؛ سار كلّ شيء على ما يرام، وعاد الدم إلى طبيعته. وعدت بدوري إلى صخرة «قوقازي» منتظراً، مرة أخرى، مجيء نسر زيوس كي يمزّق كبدي. نعم إنني أكتب الآن: «كان يريد الحرية، قال، اقتلوه»[٢] لكنني لم أكمله بعد؛ وأحمل في داخلي، منذ الآن، ثلاثة كتب أخرى تتلهف لرؤية النّور ... سوف أموت وكتبٌ كثيرة لا تزال في داخلي.

(١) رسالة إلى بوربي كنوس.

(٢) «حرب الإخوة»، (الاخوة الأعداء).

صدرت روايات نيكـوس كازنتزاكي، في عدة بلـدان، بإيقاع متسارع. في دبلن خصص الأستاذ ف. ب. ستـانفورد فصـلاً كامـلاً لـ «الأوديسـة» الحديثة، في كتابه «موضـوعة عوليس». لكن أكبر فرحة عرفهـا الكاتب جاءت مع نشر أعماله الكاملة التي بدأت نظهر في اليونان بإشراف ب. بريفيلاكي وم. كاستغلي، في حين اهتم الـرسـام ج. فارلامـون بـالأغلفـة، ونقش غلانيس المعـروف بـالنحت على الخشب، غلاف واحد من مجلدات المسرح الثلاثـة. لكنّ ظلاًّ ثقيلاً جاء مرة أخرى ليحجب النور.

فمنذ وقت قصير سَرَتْ شـائعة بأن بريفيلاكي مـريض. لكن نيكوس لم يشأ إجباره على الخروج من صمته وفي يـوم ٣٠ يناير ١٩٥٥ كتب إليه فـرحاً بتلقّيه أخباراً سارة:

... أخيراً تمكنت اليوم من قراءة «أليعازر»؛ يصعب عليّ الحكم على أحد أعمالك لأنني أشعر بتماثلي معك وكأن ما تكتبه يخرج من أحشائي. لقد أثر فيّ «أليعازر» كثيراً؛ ذروة شـامخة للفضيلة، والفكـر والجمال؛ وليمنحك الله القـوة الدائمـة كي تتمكن من البقـاء والتنفس، فوق مثل ذلك العلوّ.

في مانهايم لم يفهمـوا شيئاً من «سـدوم». عرضت ثـلاث مرات أمـام جمهور واسع. لكنني لم أتحمّل الفـرجـة وطلبت من المديـر أنْ يـوقـف العـروض. لم يستشيروني، وتصرّفوا وفق فهمهم...

يوم ١٨ فبراير ١٩٥٥ تهيأنا للاحتفال بالذكرى السبعين لمولد نيكوس. وكان ذلك ما اعتقدناه على الأقل. وفي الحقيقة، كـان نيكوس في الثانية والسبعين. وبعد موته، سوف نكتشف التاريخ الصحيح مصادفة، وكان مكتوبا بخط يده في دفتر مدرسي:

«ولدتُ يوم ١٨ فبراير ١٨٨٣، وصادف يوم جمعة».

وهكذا بـدأ كازنتزاكي عامـه الثالث والسبعين، منتصبا مثل سروة، لكنـه فقد بريـق الشباب، إلا في منـاسبات عرضـه لفكرة عظيمـة، أمام حلقـة صغيرة من

الأصدقاء؛ ولا سيما إذا كان أصدقاؤه ... نساء...

ازداد انكبابه على العمل وصار يرفض الذهاب للنزهة أكثر من السابق.

– طيب، طيب لا تغضبي، سأذهب بعكازي كي أتنزّه. كان يقول ذلك، عندما أكون مرهقة جدًّا وأقترح عليه أن يذهب للنزهة بمفرده. أما إذا ترافقنا في جولة حول الأسوار فكان يندفع بحماسة في لعبتنا الجديدة:

«أين عسانا نكون في مثل هذا اليوم من السنة القادمة؟».

آنتيب، ٢٠ فبراير ١٩٥٥[١]

صديقي العزيز جدًّا،

أشكرك كثيراً على تمنياتك. دخلت في عامي الحادي والسبعين، لكن بجسدي فقط؛ لأنّ قلبي وفكري لم يهرما، وسوف أعمل على ألا يهرما أبداً. فالهرم هزيمة تلحق بالضعفاء والجبناء والعاطلين عن العمل؛ ونحن لسنا من هؤلاء..

كيف وضع رجال الدين اليونانيون حدًّا لحملتهم المعادية لكازنتزاكي؟ هذا ما يُعدّ التصريح به مزعجاً حقاً.

نبّه وزير يوناني الأميرة ماري بونابرت إلى وجودنا وتمتّعنا بالحرية على الرغم من كتب نيكوس كازنتزاكي «الشائنة» وعندما قرأتها أعجبت بها ونصحت الملكة بقراءتها. فلجأت ملكة اليونان – الألمانية الأصل – إلى منع الكنيسة الأرثوذكسية من تعريض نفسها للسخرية بإحراق كتب كازنتزاكي.

كانت ماري بونابرت كاتبة، تلميذة وصديقة لسيغموند فرويد[٢]. وقد وضعت عدّة مؤلفات مهمة. ولدت لأبوين من أصول فرنسية وكورسيكية فلم تقبل بأن تشكل صفتها كـ «أميرة» قيداً أو سجناً. كان من الطبيعي، وهي الأميرة

(١) رسالة إلى بوريي كنوس.

(٢) دفعت ماري بونابرت مبلغاً ماليا كبيراً للنازيين من أجل اطلاق سراح سيغموند فرويد.

من عائلة حاكمة، أن تدعـو زميلها إلى قصرها لكنّها فضلت أن تطلب منه السماح لها بزيارته في بيته للتعرف عليه.

جاءت بمفردهـا ، محمّلة بحقيبة ملأى بكتبهـا. وعادت مرة ثانيـة مع ابنتها أوجيني ذات الابتسـامة الصـافية. وفي المرة الثـالثة زارتنـا برفقـة زوجها الأمير جورج، أمير اليونان وكان نيكوس قد وصف مجيء هذا «الأمير اليوناني الشاب» إلى كـريت مترافقـاً مع التخلـص من النّير التركي، في كتـابـه «الحريـة أو الموت» بـوصفه أسعـد حدث في حيـاتـه. مرّت الأعـوام، وظلّ الـرجلان، على الـرغم من اختلاف الانتماء، يعتبران ذلك اليوم أسعد يوم في حياتهما. كان كازنتزاكي يفعل ذلك انطلاقـا من حبه للحريـة، فيما كان الأمير ينطلق من حبه لكـريت، برغم كلّ شيء، ومن حبه لها على طريقته الخاصة إذ أنه «أحبها» مثل أعزّ عشيقة...

اخترنا كاديماريو، على ارتفاع ستّمائة متر، فوق بحيرة لـوغانو، لقضاء عطلة الصيف، وكان نيكوس يدوّن بعض الأفكار في مذكرته «حتى لا يضيع الوقت» كل صباح، بينما يترك فترة مـا بعد الظهـر تحت تصرّفي. فنذهـب للتنزّه في الغـابات المجاورة.

«أين عسـانا نكون في مثل اليوم من السنة القادمة؟».

كنت أقترح أكثـر الأمـاكن غـرابـة. فيزايـد نيكـوس: «لم لا؟؟ إذا تمكّنـا من الحصول على مـزيد من الأمـوال فسوف نطـوف بالعـالم ثلاث مـرات ... ونبدأ بالمكسيك...».

يأتي الأصدقاء لرؤيته فتنطلق ضحكاتـه منتعشة من جديد. وكان من بينهم هلموت فـون دن شتاين الذي تـرجم «فقير آسيز» إلى الألمانية، والنـاشر الإيطالي آلدو مـارتيلو وزوجتـه آنا، وناشر بـوينس ايرس، كارلـوس لوهلي، وجـان بيار وايفون منزال ... بل كـانت هناك أيضاً «ربة إلهام» في كاديماريـو، وهي شاعرة ألمانية شـابة وجـذابة يجري في عروقهـا الدم الفرنسي، تـدعى ميلا بـوفي. وكان نيكوس يحبّ شِعرها وحديثها الغنيّ بالمفاجآت.

كورهاوس، كاديماريو، لوغانو
١٠ يوليو ١٩٥٥(١)

صديقي العزيز جدًّا،

وأخيراً خلدنا ، أنا وايليني، إلى الراحة ... أفكّر في البدء بعمل جديد هنا، يكون عنوان «رسالة إلى الغريكو»(٢) ... سيرة ذاتية أقدم فيها اعترافاتي إلى جدّي الغريكو(٣). بالأمس جاء لرؤيتنا صديق عالم، هو هلموت فون دن شتاينن، وقال لي أن بترارك كتب رسائل إلى شيشرون لأنه كان يحبه كثيراً. وسُررت لذلك، لأن فكرتي ليست شخصية، إنها قديمة جدًّا تدفع بالمرء إلى محادثة ميت محبوب يثق به، كي يعترف له بهمومه. أنت أيضا تخلد إلى الراحة في الريف. وماذا تعني «الراحة» بالنسبة لنا؟ تعني أننا نعمل ما نريد، وليس ما تطلبه الحاجة الخارجية.

في «رسالة إلى الغريكو» ، تحدث نيكوس عن القديس فرنسوا، وعن «شقيقه المعاصر» ألبرت شويتزر، وزيارتنا له، في أغسطس ١٩٥٥:

كنت متأثراً ، في ذلك اليوم من أغسطس، عندما سلكت في أوج الظهيرة، طريق قرية غونسباخ الضيق، وسط غابات الألزاس. وطرقت باب قديسنا فرانسوا المعاصر جاء ليفتح الباب شخصياً، مدّ لي يده وصافحني. كان صوته حادًّا وهادئاً، وهو يبتسم تحت شاربيه الرماديين الكَثَّين، وينظر إليّ .. لقد سبقت لي رؤية محاربين كريتيين هرمين مثله، مفعمين بالطيبة، وبإرادة لا تقهر.

كانت اللحظة التي انفتح فيه قلبانا من أروع لحظات حياتي. بقيت معه حتى هبوط الليل: وتحدثنا عن المسيح، وهوميروس، وأفريقيا، والبرص، وباخ. وفي المساء ذهبنا إلى الكنيسة الصغيرة في القرية: «لنكفّ عن الكلام» قال لي في الطريق، وانتشر تأثرٌ عميق على وجهه الجاف. كان يتهيأ لعزف موسيقى باخ وجلس أمام الأرغن. كان ذلك اليوم، كما أعتقد، من أفضل لحظات حياتي.

وفي طريق العودة، رأيت على حافة الطريق زهرة برية؛ انحنيت لالتقاطها.

---

(١) رسالة إلى بوربي كنوس.

(٢) اشارت المؤلفة في بداية الكتاب إلى أنها نشرت لاحقا بعنوان «تقرير إلى الغريكو».

(٣) أي جدّه حيث المنبت إذ أن الغريكو El Greco (نحو ١٥٤٠ - ١٦٢٤) ولد في كريت وتوفي في طليطلة الأسبانية واشتهر بالصوفية في رسم لوحاته. ومعنى لقبه الذي يتطلب التعريف بالألف واللام «الاغريقي».

«كلا! قال لي ممسكا بيدي؛ إنّها كائن حيّ، وينبغي احترام الحياة».

وكانت نملة صغيرة تدبّ على طيّة سترته؛ فأمسك بها بحنوّ فائق ووضعها على الأرض بعيداً عن الطريق حتى لا تُداس. لم يقل شيئاً. لكن كلمات سلفه الآسيزي الناعمة مرّت على شفتيه: «أختي، النملة الصغيرة...».

عدت إلى عزلتي، لكن ذلك اليوم الأغسطسي لم يغرب من ذهني قط. لم أعد وحيداً. فإلى جانبي كان ذلك المصارع يسلك طريقه بخطوته الفتية الحازمة، ويقينه الذي لا يتزعزع. لم تكن طريقه طريقي. غير أنها كانت عزاء كبيراً لي ودرساً قاسيا، لأنني رأيته يرتقي دربه الصاعد بإيمان وعناد كبيرين. ومنذ ذلك اليوم أدركت أن حياة القديس فرنسوا لم تكن أسطورة، وتيقنت من أن الإنسان ما زال قادراً على إنزال المعجزة على وجه الأرض. لقد رأيته، لمسته بيديّ، تحدّثت معه، ضحكنا، ولزمنا الصمت معاً..

بعد عامين، سأله الصحافي بيار ديكارغ، في باريس، لماذا ألف كتاباً «فظيعاً» عن القديس فرنسوا، فأجابه نيكوس:

أضع كتبا مقلقة على الأقل، وفظيعة إذا أمكن، لأنه يتوجب التأكيد للبشر بأنهم سائرون نحو الكارثة، وأن عالمنا على شفير السديم الذي سيلتهمه. قليلون هم الكتّاب الذين يهتمون بذلك: إنّهم يتلاعبون بحكايات صغيرة عن الجنس والتحليل النفسي. الرسامون والموسيقيون أكثر حساسية ويتوقعون دنوّ النتيجة، أما الكتّاب فيتلهّون بملذات بالية. ينبغي إعلامهم بأننا نقترب من النهاية. وتسعى كتبي إلى تأخير الاستحقاق. كتابتي لسيرة حياة القديس فرنسوا تعود إلى حاجة العالم لأبطال، يكونون قديسين أيضاً. والقديس فرنسوا عزيز لديَّ بشكل خاص؛ وقد عشت فترة طويلة في آسيز. لقد أنقذ حياتي مرتين: المرة الأولى لما كدنا نموت جوعاً في اليونان، خلال الاحتلال؛ والمرة الثانية عندما أوشكتُ على الموت بسبب دمّل في عيني(١)...

كانت سنة ١٩٥٥ في منتهى الغنى والجمال:

لقاء ألبرت شويتزر وماري بونابرت، نشر «الإلياذة» بترجمة كازنتزاكي وكاكريذيس، وكذلك صدور الجزءين الأولين من أعمال كازنتزاكي الكاملة، في اليونان، أوبرا بوهوسلاف مارتينو، والإعداد لفيلم داسان ... وكانت هناك

---

(١) صحيفة «تريبيون دي لوزان» ٢٦ مايو ١٩٥٧.

شهادات المودة من الشباب اليوناني العزيز على قلب نيكوس. إذ قام عدد من الشباب اليونانيين بتكذيب شائعات نشرتها الصحف، تدّعي أن حالة نيكوس الصحية تبعث على القلق من نهاية محتومة. فنسخ أولئك الشباب المجهولون رسالة يخبر فيها نيكوس أخته بأنه في صحة جيدة، ويعمل بجدّ، ويحتقر اضطهاد رجال الدين له. ثم وزعوا نسخاً كثيرة من تلك الرسالة في اليونان. وعندما علم نيكوس بالأمر، قال مازحاً : «يا لهم من شياطين! من أين حصلوا على تلك الرسالة؟ لا أصدّق أن أختي...»

لكي أبيّن رقة نيكوس وشغفه، في ترجماته، أورد هنا مقاطع من رسائله إلى يانيس كاكريذيس:

آنتيب، ٢٩ ابريل ١٩٥٥

بعد طبع «الإلياذة» سوف نجد ما نصلّحه فيها من أخطاء، وإذا متّ أنا، سوف تجد نفسك مضطراً إلى نشر طبعة ثانية منقحة، بمفردك. ذلك أن العمل الأصلي قد لا يحتاج للتصحيح؛ لكن الترجمة تتطلب ذلك باستمرار. لاحظت ذلك «بعرق غزير» كما قال دانتي، عندما ترجمت «الكوميديا الإلهية»...

وظلّ كازنتزاكي يتعذّب حتى في نومه، بسبب «صفة» لم يتفق مع كاكريذيس، حول دقة ترجمتها:

آنتيب، ١٢ سبتمبر ١٩٥٥

... آه متى يحين وقت الطبعة الثانية من «الإلياذة» لإصلاح تلك الكالوغنوموس (أرأيت، ان هذه الكلمة لا تدعني أرتاح). في الصباح بحثت في القاموس الكبير لديميترياكوس فوجدت...[1] انتهى! لن أنبس بكلمة واحدة حتى الطبعة الثانية...

آنتيب ، ٢٩ سبتمبر ١٩٥٥

تمنيت لو ترجمنا «يندار» و«ثيوسيديد» معاً، لكن الحياة قصيرة، للأسف، والإنسان يوارى التراب وهو لا يزال ممتلئاً بالإمكانات والرغبات.

---

(١) يمكن تفسير كلمة كالوغنوموس بطريقتين مختلفتين: أ- إنسان ذو حكم صائب. ب) إنسان طيب، سهل العيش، والمعنى الأخير هو الأصح.

... أعمل بلهفة . ثمة أشياء كثيرة يمكن أن تـزعجني. لكنها لا تتمكن من ذلك. إنَّ حساسيتي محمية بـدرع غير نفّاذ، وهكذا لا يعكّر أحد أحاسيسي الداخلية. Larvatus Prodeo كما كان يقول ديكارت. لا بد لكلّ كائن من وضع قناع صلب؛ فهو ضروري في عصرنا الدنيء...

وجاء اليوم الذي استلمنا فيه «الإلياذة» في طبعة رائعة، وفق رغبة نيكوس.

آنتيب ، ٩ نوفمبر ١٩٥٥(١)

رفيق معركة النصر،

أعتقد أن هـذا اليوم هـو الأسعد في حياتي. صعـدتْ ايليني إلى مكتبي قافـزةً درجات السُلّم أربعـاً أربعـاً وكانت تخفي يـديْها خلف ظهـرهـا: – أغمض عينيك! صرخت بي. ففهمت فوراً.

– «الإلياذة»!

أغمضت عينيّ وتلقيتها في يدي، قبلتُها. فتحتُ عينيَّ: أية فرحة هذه التي تجعل المرء يكافح طيلة سنوات، ثم يحس بثمرة كفاحه تتشكل ببطء، ويمسك بها أخيراً بين يديه! حماك الله يا رفيقي الحبيب، فلولاك لم أنجز شيئاً، والشرف كله يعود إليك. والآن لنشمّر عن سـواعدنـا؛ لقد حـان دور الأوديسة. كم أتطلع إلى معـاودة المعركـة! وكم أتمنّى أن نخوض معركة ثالثة، لكنني لن أجد وقتا، سوف تبقى وحدك...

آنتيب، أول ديسمبر ١٩٥٥(٢)

منذ وقت طويل وأنا أرغب في الكتابة إليـك لأخبرك بأنني بدأت أجهز الطبعة الثانية من «الإلياذة». فهذا النص لا يدعني أرتاح. ما إن أستيقظ، كل صباح، حتى أسرع وأفتح «الإلياذة» وأقرأها بصوت عال، كما كان يفعل مسيحيو العصور الأولى بالتوراة. لحسن الحظ أنني لم أجـد سـوى القليـل ممـا يمكن تعـديلـه ... وفي المقـدمـة طبعـا: كلمـة «كالوغنوموس» العتيدة.

أكتب إليك وشهر أغسطس الملحمي في «فيلـلا مانوليتا»، قبل عـامين، يعاودني، أية سعادة! أية شعلة!

---

(١) و(٢) رسالة إلى يانيس كاكريذيس.

ألم يكن ذلك الشهر «الملحمي» الذي تحدّث كازنتزاكي عن «الشعلة» و«السعادة» فيه، شهر آلام أيضاً؟ فلم يكد يُشفى، مع بقاء جرحه المفتوح بسبب الزرنيخ، وعينه المتعبة، حتى عاد إلى العمل منذ الفجر لمراجعة الترجمة مع كاكريذيس.

وهو عندما يصف ذلك الشهر بـ «الملحمي» يفكر في الملحمة الهوميرية من دون شك. غير أن قوة روحه، أيضا، تجعله ينسى كلّ الآلام مهما كان مأتاها، ولا يحتفظ إلا بالوجه المشرق للحياة، وهو وجه ملحمي عل يأية حال. كان يزدري المرض والموت، وكل أنواع العاهات الأخرى، لكنه يعرف كيف يتقبل الألم، بنوع من نفاذ الصبر في البداية، ثم بهدوء وطمأنينة بعد ذلك، وصولاً إلى التخفيف من قلقي بأسلوبه المازح: «أعرف أن حياتي معلّقة على شعرة، لكن هذه الشعرة هي شعرة ايليني، ولن تنقطع!»

خلال زيارة إلى أوزاكا حضرتُ عرضاً لمسرح الدمى. لكنني انزعجتُ من كثرة العارضين من البشر الحقيقيين الذين كانوا يحركون تلك الدمى. وسرعان ما حدث أمر غير متوقع. كانت حركات الدُّمى تزداد فيتلاشى العارض أكثر. ومع نهاية العرض لم يبق منه سوى ثوب فارغ مثل قشرة ثعبان، بينما بعثت الحياة في الدمى واكتسبت لحماً ودماً، فصارت تعيش حياتها بحيوية وجمال فائقين.

فتنَني المشهد وأذهلني. وأدركتُ ما حصل لنا: إنَّ خلق نيكوس لشخوص بشرية لا يتطلب منه جهداً فكرياً ومعنوياً فحسب، بل يتطلب جهداً جسدياً أيضاً. وهكذا بدأ يتلاشى بدوره من دون أن يدرك سبب الإنهاك والضنى. لكن عارض الدمى يعود بعد عرضه إلى الحياة، فكيف يستطيع نيكوس ذلك؟

١٩٥٦. بدأ نيكوس يترجم «أوديسة» هوميروس بحماسة عالية. ولم ينقطع عن الترجمة إلا خلال سفرة واحدة إلى فريبورغ حيث خضع إلى فحص طبّي عام. ثم كتب إلى كاكريذيس «عدت في أحسن حالة. وسوف أفعل ذلك كلّ عام».

وأغرتــه رحلة أخرى عندمــا دعاه نهرو إلى زيارة الهنـد. لكنني عارضت ذلك السفر بقوة، خوفاً من كثرة أنواع التلاقيح التي سيضطّر إليها.

وفي هذا العام أيضــاً كُلِّف ديموستون دانييليذيس أثناء مــروره بستوكهولم، من قبل اللجنــة العالميــة للسلام، بسبر نيــة نيكوس كــازنتزاكي ومعــرفة مــدى استعداده. فظلّ نيكوس مرتبكاً لحظة:

– ليس من العدل أن أقبل. ينبغي أن تسند هذه الجائزة إلى شيوعي تعذّب من أجل السلام وأقترح بـدلاً منه، الشاعر فـارناليس، أو الروائي كورنــاروس الذي اعتقلته الشرطة الفاشية.

غير أن اللجنة العالمية للسلام ألحّت، فعاد دانييليذيس إلى إقناعه.

«لقـد أسندت إليك الجائزة بــالإجماع. ويُخشى أن يُعتبر رفضك إهانــة ... في العام الماضي أعطيت الجائزة إلى ادوارد هاريو رئيس الحزب الراديكالي الاشتراكي الفرنسي، ورئيس بلـدية ليـون، وهو كــاتب أيضا ... الخ، الخ. وقبلــه أسندت إلى شارلي شــابلن، وتشوستاكـوفيتش، ولاكسنس ... وقسّ انجليزي، والعـديد من الكتاب والفنانين ... وفي هذا العام سيُتوّج معك الرسام الصيني شي يا – شي الذي بلغ التسعين...».

آنتيب، ٢٤ يونيو ١٩٥٦(١)

... سنسافـر بعد غـد إلى فيينا ومنها إلى يــوغسلافيــا، لنقيم في الجبل. أتردد كثيراً في زيارة اليونــان، لأنّ الكريتيين سوف يخنقونني بالعرق والمآدب والحفـاوة. وهذا أمر في منتهى الخطـورة .... وأفكـر في التخلّي عن مثل هـذا الفـرح. إذ ينبغيَ أن أواصل العيش قليلا...

أشكرك على المقـال الذي كتبتــه في «نيا استيا»؛ فمـن المستحسن أن يطلع الناس على شهر عسل تعاوننا، ليصير قدوة لليونـانيين المعاصرين والقادمين، ويتواصل دائما..

جائزة السلام لم تكن متـوقعة؛ وقد فرحت ايليني، ولم أحـزن بدوري؛ عدم اكتراثي

---

(١) رسالة إلى يانيس كاكريذيس.

بكل ذلك، لا يصدّق، بل صار مَرَضيًّا؛ قلبي يشتعل، لكن من أجل شيء آخر. فمن يصدّق؟ أنت فقط..

وهم الذين عانوا من نير الأجنبي يستطيعون فهم حب الحرية الذي يُلهم نيكوس كازنتزاكي لذلك لم يتحدّث أمام لجنة السلام إلا عن الحرية والسلام، وحق كلّ شعب وكلّ فرد فيهما.

أتلقّى هذه المكافأة العالية ... مثل عامل يستلم أجرته في نهاية يوم عمله. لذلك أشعر بتأثر عميق، وبارتباك كبير أيضاً: هل أنا جدير بهذه الأجرة؟

تردّدت في اللحظات الأولى. ولم أسمح لنفسي بقبول هذا الشرف، في نهاية المطاف، إلا باسم كريت، الجزيرة التي وُلدتُ فيها. لأنها الوحيدة، الجديرة بمثل هذه المكافأة لفداحة الثمن الذي دفعته لبلوغ السلام..

لقد دفعني إلهام كريت إلى الكفاح بصفتي إنساناً، وكاتباً، من أجل الحرية والسلام والكرامة الإنسانية.

لكن هذا الاحتفال يكتسي لديَّ، في الوقت نفسه، بدلالة بالغة: إن لجنة تحكيم جائزة السلام الدولية تقدّم غصن الزيتون إلى شاعر يوناني. ولعلَ هذه المبادرة تكون بادرة سلام يعمّ الأرض اليونانية كلها.

وينتصب أمامي وسط حفل السلام هذا، وجه قبرص، ملطخاً بالدماء. ففي هذه اللحظة تستشرس قوى الظلام، هناك، ضد الحرية.

لم يسبق للمثل الأعلى المتعلق بالسلام أنْ كان ضرورياً كما هو في عصرنا. ولأول مرة تجد الإنسانية نفسها أمام الهاوية بطريقة واعية؛ وهذا هو سبب الاضطراب، وتفشّي الروح الانهزامية والخيانة حولنا..

... وإذا كنا نريد تفادي سقوط العالم في العدم، فعلينا أن نحرر الحبّ المسجون في قلب الإنسان، أيضاً. ينبغي أن تتحول القوة الذرية إلى خدمة القلب الذري. وعلينا ألا ننسى بأن الحرية والسلام يوجدان خارج إطار الطبيعة. فكلاهما من صنع الإنسان ويتحققان بالعرق وبالدموع. وسوف يظلان موجودين، في الطليعة، كرفيقين وفيّيْن، ما دام الإنسان يتنفس على وجه هذه الأرض. لكنهما مهددان في كلّ لحظة، لذلك يتوجب

علينـا حشد قـوانا كلهـا، في كل لحظـة، للدفـاع عنهما. ينبغي أن نبقى بجانبهـا دائما، واقفين دائماً...

إن القلق الـذي يخنق اليـوم كلّ إنسـان جـديـر بهذا الاسم، يترافق مع أمل كبير؛ أو بالأحرى، مع يقين كبير؛ فـالشرّ ينتهي دائماً بالرضوخ إلى قـوة الخير المطلقة، البطيئة، والأكيـدة في الوقت نفسـه. ولـو لم يكن هـذا القانـون الغـريب هـو الذي يقـود مصير الإنسانيـة لانهزمت الروح، منذ زمن طـويل، أمام المادة، واختنقت الحرية والسـلام بـ «الخوف الأكبر»...

كـانت أكبر فـرحة لنيكـوس في فيينـا، هي من دون شك، مقـابلتـه للشاعـر الكولومبي خورخي ثالاميا، والكـاتب الأرجنتيني ألفريدو فاليرا، وكلاهما عضو في لجنة السـلام الدوليـة وأعجب كازنتزاكي بثـالاميا إلى حدّ أنـه ترجم لـه فوراً «موت بوروندون بوروندا» وبعض القصائد الأخرى.

رحلات ، محاولات، زيـارات للمتاحف، لقاءات مع أصـدقاء يونـانيين جاؤوا لـلاحتفـال بكبيرهم... كل ذلك كـان يبعث السرور في نفســه، غير أن ضـحكتـه، ضحكته الطويلة المجلجلة، لم تدوِ مرة واحدة في فيينا، ولا في يوغسلافيا بعدها ... لم يصل إلى حدّ الاكتئاب لكنه كفّ عن «شيطنتـه» السابقة. وبدأت قسماته التي هدّها المرض تكتسي بتعبير أمْيَل إلى الوقار والرصانة..

وبعد فيينا، كانت مدرجة في برنامجنا زيارات إلى كلّ من لوبليانا وزغرب حيث ينتظـرنا الكتّـاب السلوفـانيون والكـرواتيون، ثم روغـاسكا سـلاتينا المدينـة الصغيرة المعروفة بحمّاماتها المعدنيـة، وأخيراً بوهيين على ضفة بحيرةٍ ذات لون أخضر فيروزي. «كـان ينبغي أن نعيش دائماً في الجبـال، همس نيكـوس وهـو يستنشق، بعمق، هواء غابات الصنوبر والأرز. سكان جبال كريت على حق عندما يتساءلون عمّا إذا كـان لسكان السهول روح.. لكن، لسـوء الحظ مرة أخرى، لم يتمكن نيكوس من الخلـود إلى الراحـة. إذ توجب عليـه العمل مجدّداً، مع كيمون فريار، في ترجمة «الأوديسـة» إلى الإنجليزية...

كان جـالساً على ضفـة تلك البحيرة الأقرب إلى صـورة في «بطاقـة بريـدية» والزاخرة بأسماك الترويت، مع شـلال في البعيد، عندما كتب رسالـة إلى صديقنا الكريتي ث. انذروليذاكي، المدير السابق لسجون ايجين:

بوهين، فندق زلاتوروغ
١٨ أغسطس ١٩٥٦

«ما كان أروع أيام زمان!
ليتها تعود ولو مرة في العام!»

عزيزي ثاسي ، كـانت هذه «الماندينـاذا»[١] الكريتية تدور في رأسي وأنـا أقرأ رسالتك الرائعة ... لقد أعـدتَ لي المرحلة البطولية عندما كنتَ تُخرج مـن الأرض الصخرية بقولاً لذيذة، وتستمع إلى المذياع ثم تطرق نافذتي، وأكون في انتظارك للاطلاع على الأنباء[٢] ، مرحلة سوداء زاخرة بالبروق. وكنتَ تقـاسمني طنجرتك حتى تنقذني من الموت جوعاً. كم مرة تذكـرناك، في الخارج، وتذكرنـا زوجتك الشجاعة، إلى درجة الإجهـاش بالبكاء. بُورك الجوعُ والهلعُ لأنهما سمحا لشجاعتك وعطفك أن يتألقا بتلك الطريقة.

كنتُ أكـافح وقتها، ومـا زلتُ كذلك حتى الموت؛ لأن ذلك هـو واجبي. لقد استنفـذت جهودي من أجل إعـلاء كرامة الإنسان وحـريته. وحده الـذي اطلع على حياتي عن كثب يدرك مـدى تعبي، يقيناً لو لم تكن ايليني مـوجودة لما تحمّلتُ عملية الصَّلب الطـويلة. مباركة هي التي أنقذتني مراراً عديدة من الموت واليأس. لقد سافرتْ الآن إلى كريت حيث ستبقى عشرة أيـام هناك وتشاهـد الفيلم[٣]... أما أنـا فقد فقـدت كل فضـول، ولم يعد صراعي يتـلاءم وتلك الأفراح البشريـة الصغـيرة. «لا تتـوقّفْ، لا تلتفـتْ إلى الوراء، اصعـدْ!» يأمرني ذلك الصوت اللا إنساني – والإنساني في آن – مانعاً إيّاي من المتعة.

مع ذلك أستطيع القول بانني سعيـد؛ غير أن سعادتي متوحشة أيضـا، بلا ضحك، بلا ارتواء، ولا تترك لي لحظة متعة. الفرح، يقول ذلك الصوت، راحة والراحة خطيئة...

...سوف نسافر في نهايـة أغسطس إلى فيينا، وبين ٥ و١٥ سبتمبر أكون في جنيف ثم أعود إلى «الترسّب» [مثل النبيذ] في بيتي الصغير، في آنتيب..

---

(١) بيتان متلازمان محمّلان بمعنى متكامل.

(٢) أثناء مرحلة الاحتلال النازي والمجاعة.

(٣) «المقبل على الموت».

أقول وداعـاً ... أقول وداعاً ... وعما قـريب سوف أقـوم بجولة عبر العـالم كي أقول وداعاً لكل البلدان التي أحببتها. وداعاً! سوف أودّع الناس الذين أحببتهم أيضاً، وهكذا، يا عزيزي، ثاسي، سوف نلتقي....

وكتب من آنتيب، يوم ١٥ سبتمبر ١٩٥٦، إلى يانيس كاكريذيس:

... ها نحن أولاء قد عـدنا من رحلتنا الصيفية التي دامت شهـرين ونصف الشهر... رجعت فـرحـاً إلى زنـزانتي وأدواتي - الـورق، الكتب، المخطـوطـات. وأنتظـر تـرجمة «الأوديسـة» بفارغ الصبر. أَسْرِعْ، لأنني مـا زلت أعيش، لكن لا تنسَ أنني لن أعيش إلى الأبد؛ فأين ستجـد شريكاً آخر، عاملاً آخـر أنسب منّي؟ لدي الكثير من العمل، غير أنني مستعدّ لترك كل شيء من أجل «الأوديسة»..

يزداد نأيُ يونان الجغرافيا تدريجياً، فتبتعد عن ذهني؛ أما اليونان الأخرى فباقية. وهكذا لم أعد أشعر بأي حنين لوطء ثراها...

انتاب القلق كلاًّ من السيد والسيدة كـاكريذيس إزاء مصير ترجمة «الإلياذة» و«الأوديسة» في حالة موتنا أنا ونيكوس. فأخبرت نيكوس الذي لم يتردد في إهداء حقوق التأليف إلى ابنيْ يانيس كاكريذيس:

آنتيب، ١٢ أكتوبر ١٩٥٦

أنا سعيد بتوأمة أفراحنا وأتراحنا لتذهب متحدة إلى طفلين حبيبين...

لم يسترخ كازنتزاكي بعـد النجاح بقدر ما دفعه ذلك إلى حث مزايـاه الفكرية، وبالتالي مسؤولياته. وكان قد أوضح إلى صديقه الحميم بوريي كنوس، متعته في كتابة الـروايات والدافع الذي يحضّه على ذلـك. لكنني أضيف هنا مقتطفات من مراسلته مع ب. بريفيلاكي:

(آنتيب) ٣ ديسمبر ١٩٤٩

أنا منغمـس في كتابة «القبطـان ميخاليس» ... ولم يسبـق لي الشعور بتوتـر مفعم بـالحماسة والـولع في كياني كلـه، وبمثابـرة جسـدية عـارمة، كما في هـذه المرة. وقبل الانتهـاء من كتـابـة عمل، يتـدافع عمـلان أو ثلاثـة أعمال أخـرى، في داخلي، وتطـالب بالتجسّد والسعي في الأرض...

(آنتيب) ٢٨ فبراير ١٩٥٠

أتابع الغوص في الرواية الجديدة (القبطان ميخاليس) وأشعر براحة كبيرة، وانفراج ... أستعيد أزمنة قديمة باتت تنتمي الآن إلى الميثولوجيا و إلى إنسانية ما قبل الطوفان – إنسانية الديناصورات والماموث. إنَّها المرة الأولى التي تجعلني الكتابة أشعر بمثل هذا الفرح.

(آنتيب) ٢٤ يوليو ١٩٥٠

... أواصل العمل بمثابرة وطمأنينة. وأشعر بالفرح لخوضي في جنس أدبي جديد – الرواية – إذ أنني «أُمضي مقتي» وأستعيد فتوّتي، أكتبها باندفاع وبراءة، مثل هاوٍ يكتب لأول مرة...

وكتب، أثناء تأليفه «الإغواء الأخير»، إلى الشخص ذاته:

آنتيب ، ١١ نوفمبر ١٩٥٠

أنا «في الورشة» لتأليف كتابي الجديد الذي يتطلب الكثير من الجهد، لأنه يخرج من إطاري المعهود ... لقد بدأت التناقضات تنحل في نتيجة عضوية، وأعتقد أنني توصلت، كما يقول المتصوّفة البيزنطيون، إلى بلوغ ذروة جهدي، أي «اللّا – جهد».

وربّما عبّرتُ في هذا الكتاب عن هذا الإنصهار العضوي للتناقضات. بدأت أتوصّل إلى عدم الاكتراث بأية «مشكلة» أو «قلق». لقد عثرتُ على الحل خارج القوة العاقلة والتحليل، أي خارج مجال الشيطان...

لقد رأينا كيف أنّ صاحب الفندق، في لوفير، الذي يقرأ الكفَّ أيضاً، قد نصح نيكوس بألّا يبحث عن مواضيعه، وأن يتركها تأتي إليه بحرية.

لوفير، سالزبورغ، ٦ مارس ١٩٥٢

... كنت مرهقا .... كانت روحي تصارع موضوعاً عويصاً منذ أشهر عديدة: «فاوست الثالث» إلى حد إنهاك جسدي ... لكن الروح ظلت تلحّ بلا هوادة، وتعذب الجسد بقسوة وشراسة غير متوقعتين. فلم أقدر على النوم أو الأكل؛ وتحجّر قلبي رافضاً كل الأفراح اليومية المعتادة. وفي نهاية المطاف احتج الجسد بطريقته الجبانة المعهودة، فأصيب بالمرض. دائماً المرض نفسه: الهربس على الشفتين ... لكن الخزي الذي أشعر به من خذلان الجسد أغناني. دامت تلك الحالة خمسة عشر يوماً، غير أن الخزي لم ينقطع، فلم

أعد قادراً على تحمّل أي شيء، أو أي شخص. عنـدئذ حثّتني ايليني المتألمة أكثر مني، على السفر، والذهاب إلى أحد الجبال واستنشاق الهواء النقي .. وهكذا جئت وتمتعت بالهواء في هذه الجبال الثلجية الرائعة. بعد ثلاثة أيام أعود إلى «مانوليتا» مرتاحاً تماماً. لكنني سـوف أتفادى الخوض مـرة أخرى في ذلك الموضـوع الرهيب، وأكتب روايـة نثريـة ... فأرتـاح أثناء كتـابتهـا. ولن أسعى إلى البحث عن «فـاوست الثالث» إذا لم يأت هـو إلى لقائي؛ فهذا أكبر دليل موثوق على أن وقته لم يحن...

آنتيب، ٦ ديسمبر ١٩٥٣

... «القديس فرنسوا» عمل لن يروق لك؛ وأنـا أيضا أستغرب لماذا كتبته. فهل يوجد متصوّف ديني في أعماقي؟ لأنني تأثرت كثيراً أثناء كتابته...

وكتب في عيد الفصح سنة ١٩٥٥ مواسيا صديقه ب. بريفيلاكي الذي أوقعه حادث:

... ربما أثمر انقطاعك عن الحركة؛ أفضل مـا في «القديس فرنسوا» أمليته على ايليني في أوقات الحمّى...

آنتيب، ٢٢ مارس ١٩٥٦

... أعمل كثيراً. بعد بضعة أيام أفرغ من كتابـة «رسالة إلى الغريكو». ايليني لا تريد رقنهـا بالآلـة الكـاتبة. تجهش بـالبكاء لأننـي أتحدّث فيها عن مـوتي. لكن، ينبغي أن تتعود، وأنا أيضا..

أعمل ساعات طويلة ولا أتعب؛ وهذه المثابرة تقلقني، لأنها ليست طبيعية؛ في ذهني أعمال عديدة، والأيام تبدو لي قصيرة، لم يسبق لي أن عشت أعواماً بهذا القِصر. لن أتمكن من المثابرة في الكتـابة؛ الشعلة التي في أعماقي تزداد اتّقاداً وتـوهّجاً كما لو أنها ملّتني، وباتت ترغب في إتلافي[1]..

١٩٥٧. لاحت بوادر الربيع مثقلـة: احتفالات ستقيمها دار «بلون» للنشر، في بـاريس، بمناسبـة صدور «فقير أسيـز»، والكتاب رقم ٢٠٠ في سلسلـة «نيران

(١) كل المقتطفات السابقة مأخوذة من رسائل نيكوس كازنتزاكي إلى صديقه ب. بريفيلاكي.

متشابكـة»، وعرض فيلم داسـان في مهرجان «كـان»، والمراجعة الأخيرة لترجمة «الأوديسة» إلى الإنجليزية ... وقد أنهكت نيكـوس القراءة بصوت عال. أضف إلى ذلك قـراءات مختلفة واستعدادات للـرحلة الكبيرة بـاتجاه الصين .. وتخلّل ذلك إقامة لبضعـة أيام في عيادة فريبورغ، من أجل الاطمئنان والتحلّي بـالشجاعة في تنفيذ خططنا الجريئة، بعد استشارة الدكتور هيلماير.

آنتيب ، ٩ يناير ١٩٥٧(١)

... أنجزت النشيدين، الخامس والسادس ... أنا الآن مثل بهيمة «جحيم دانتي» التي «ما إن تأكل حتى تجوع أكثر» .. أشعر بنشوة عارمة عندما اقرأ هوميروس حتى يوشك الإرهاق أن يصرعني. وتحثني ايليني على الخروج والنزهة واستنشاق القليل من الهواء ورؤية القليل من الشمس. يا للخسارة، لا أستطيع العيش خمسمائة سنة كي أترجم كلّ الأقدمين!

آنتيب، ٢٥ يناير ١٩٥٧(٢)

أصارع العمل والمرض بشجـاعة، ولم يعد لي عـزاء إلا في الكتابة. أتـرجم «أوديسة» هوميروس حـاليا فأنسى هـذا العالم البـائس والجائر الذي نعيش فيـه. وكما سائس العربـة في دلفي، أمسك بالأعنة واثقـا، قدر المستطـاع، وأسعى إلى توجيه الجسـد نحو الوجهة التي نرتضيها الروح، وليس التي يريدها هو ...

منذ شهـر، ولأول مرة، أسنـدت لي الحكومة الـرسمية في اليـونان، الجائزة الأولى على أعمالي المسرحية ... متى نلتقي؟ آه، ليتني أتمكن من البوح قليلاً! ليس لي أحد أصارحه. زوجتي فقط...

ديميتري فـوتيادي كـاتب لا يـزال شابـاً، كرّس كل جهـده وقـوته للتـاريخ اليونـانى، الحقيقي وليس الذي يدرّسونـه لنا. يكتب باللغـة الحديثة ولا يخشى تسمية الأشيـاء بأسمائها. يحبّه اليونـانيون كثيراً، لكن الأجانب يجهلونـه، لأنه ليس طموحـاً، كما أن الناشرين الأجانـب لا يهتمون بكفاح الشعب اليـوناني من

---

(١) رسالة إلى يانيس كاكريذيس.

(٢) رسالة إلى بوريي كنوس.

أجل العدالة والحرية.

في بداية فبراير ١٩٥٧ أرسل فوتيادي إلى نيكوس بالكتاب الذي ألّفه عن واحد من أروع أبطال استقلالنا: كارايسكاكي، ابن الراهبة. طلب مني نيكوس، كعادته، أن أفكك أوراقه، ثم بدأ يقرأ. وبعد قليل رأيته يمسح عينيه ... لم يكن مصاباً بالزكام ... كان يبكي...

آنتيب، ٢٧ فبراير ١٩٥٧

عزيزي فوتيادي،

حماك إله اليونان وبارك يدك التي تكتب. أقرأ كتابك «كارايسكاكي» فتغيم عيناي؛ أية جسارة وبسالة! أية خيانات وأية تضحيات من أجل الحرية! ١٨٢١ ... يا لها من سنة! يا لها من بؤرة للرذائل! وكيف تمكنت الزهرة الزرقاء من التفتّح؟ وهذا أيضا: أية أكاذيب علّمونا في المدارس! وكم يتأخر مجيء الرجال الحقيقيين - بُوركتَ - لقول الحقيقة!

لا أشبع من قراءة كتابك. وأحزن من وجودنا بعيديْن وعدم التمكن من مصافحتك. كتابك عن كارايسكاكي بعث فيَّ فرحاً عارماً ومرارة قاسية؛ هو الآن على مكتبي وأقرأه بتمهّل حتى يدوم؛ فأي مؤلِّف آخر، لكاتب فاشل، يستطيع الآن تحريك شعوري بهذه الدرجة؟

أشكرك على ذلك، يا عزيزي فوتيادي. لقد ألّفت كتاباً جميلاً وقمت بعمل شجاع في الوقت نفسه؛ ويندر أن يتطابق الاثنان...(١)

وكتب إلى بوريي كنوس، يوم ٢٨ ابريل ١٩٥٧:

... تأخرت في مراستلك لأنني كنت في ألمانيا ... سار كلّ شيء على ما يرام ، وعاد دمي إلى حالته الطبيعية، فرجعت إلى آنتيب في صحة جيدة، وبدأت عملاً فظيعاً ... بدأت فرنسا تتعرف عليّ وتكرمني كثيراً. لقد تأخرت قليلا، لكن ذلك غير مهم. كلّ هذه الأمجاد تتركني لا مباليا، إذ تجاوزت كلّ طموح وبتّ الآن استنشق عطر الهاوية المرّ .. عدت من «كانْ» حيث عرض الفيلم على جمهور محدود(٢). لم أتمالك دموعي؛ إنّه جدّ مؤثر.

---

(١) كل مؤلفات فوتادي وضعتها الطغمة العسكرية على لائحة الممنوعات.

(٢) عرض خاص لفيلم «المقبل على الموت».

... صحتي جيــدة، لكنني أرهـق نفسي كثيراً. آمل أن يــريحني السفــر. تــرجمة «أوديستي» رائعة جداً ... المترجم هنا، ونراجعها كلها، معاً؛ إرهاق رهيب...

قبل سفـرنا إلى الصين بقليل، أرسلت غـالاتي إلى نيكوس، بعـد مرور أربعين عامـاً على الطلاق، بهدية غـريبة الشأن: وثيقـة طلاق هجائيـة على شكل رواية، تُصـوِّرُهُ فيها بأبشع النعـوت. رفض نيكـوس قراءتها. وكـان رأيي أنه يتـوجب دحض مثل تلك الافتراءات. «مسكينة غالاتي، همس نيكوس، مسكينة غالاتي، لا تستأهل مثل هذه النهاية!» وانتهى الأمر..

أما مع لفتيريس فكان صنيعه أفضل:

قرأ كتاب سِلْفِهِ السابق ومدحه على أسلوبه ولغته، كما طلب منه. وبعد بضعة أيام عاد لفتيريس إلى الهجوم برسالة مفعمة بالحماسة والهذيان: «آه يا نيكوس، أنت كريم النفس، أنت الأفضل، أنت ... الخ، الخ ... اسمح لي بـاستخدام مدائحك كي أتمكن من بيع الكتاب بشكـل أفضل خلال أعياد الميـلاد...» ووافق نيكوس. وبفضل قسيمة التقـديم التي مدحت فيها الضحيـة مغتابها، تمكن لفتيريس من بيع كتابه... وردّ نيكوس على احتجاجاتي الغاضبة: «ومن عساه يصدّق كل تلك الافتراءات، يا صغيرتي؟..»

آنتيب، أول يونيو ١٩٥٧(١)

... أسافر بعد غد مع ايليني، إلى الصين. سوف أمكث عشرة أيام في موسكو، وشهراً في الصين، وشهراً آخـر، أثناء العـودة، في يوغسلافيـا ... أنا مسرور بهذه الـرحلة الكبيرة ورؤية آلما ماتر، مرة أخرى، وكذلك آسيا. لقد طال الهدوء هنا.

عـدتُ أول أمس من بـاريس حيث أقمت عشرة أيـام، وجـرت فيها عـدة احتفـالات. اضطررت إلى التحدث لـلإذاعة والتلفزيون مرات عدة، وأضنـاني كلّ ذلك، لأنه يتناقض وطباعي. آمل التوصل إلى الراحة من خلال هذه الرحلة المتعبة.

سوف أكاتبك من الصين، ولن تغيب عن ذهني دائماً...

---

(١) رسالة إلى بوريي كنوس.

وسافرنا إلى الصين.

كان نيكوس على درجة من الإرهاق جعلتنا نخشى ما هو أسوأ. لكنه رفض الإنصياع.

– سيدي كازنتزاكي، أرى قبراً مفتوحاً في قعر فنجانك، قالت له صديقتنا السيدة بوارييه، عشية سفرنا، وكانت تجيد قراءة الفنجان. لا تسافر، لوجه الله.

– عجباً! قال نيكوس ضاحكاً. القبر يدلّ على الزواج، كما في الأحلام.

يوم الرحيل عادت خريسولا بوارييه إلى التضرّع:

– لا تسافر، أرجوك. حلمتُ أحلاماً سيئة.

وعاد نيكوس إلى القهقهة.

– نيكوسمو، توسلتُ إليه بدوري، لقد قلت بأننا أحرار: «إذا شئتُ دخلتُ، وإذا لم أشأ لا أدخل» هكذا قال بطلك الكريتي على أبواب هيراكليون. إذن، إذا شئنا سافرنا، وإذا لم نشأ دعنا هنا!

– هيّا، يا رفيقة المعركة، هل ستلقين بسلاحك؟ وأنا المبتهج بخدمتك كدليل في بكين...

عندما يتصرّف نيكوس بمزاج المناكفة، وبضحك، يتلاشى التعب، والشيخوخة، والتجاعيد، مثل تلاشي آثار الخطى على الرمال، بعد مرور الموجة.

في براغ وموسكو، تفادينا كل ما هو مرهق. وكان الصديقان اليونانيان(١)، المرافقان لنا في هذه الرحلة يخبئان لنا مفاجأة: إذ حصل السيد ايفيلبيديس على دعوة من الحكومة اليابانية لزيارة اليابان.

– سوف نذهب! صاح نيكوس مفتوناً.

– لقد وعدتني بعدم النزول نحو الجنوب، وعدم الذهاب إلى أبعد من بكين. لقد

(١) خريسوس ايفيلبيديس وزوجته نيلي. وكان السيد ايفيلبيديس أستاذاً في الزراعة في «بانتيوس شولي» بأثينا، وكاتباً، كما شغل منصب وزير الزراعة، والمالية أيضا، إذا لم تخنّي الذاكرة.

قرأت الصحف وتعرف أن هناك نزلة برد وافدة تفتك بالناس في طوكيو. وقال الطبيب: لا ينبغي التعرض للجراثيم!

– أف! لن يتمكن منّا الداء! وهكذا سوف ترى لينوتشكا اليابان أيضاً... دندن نيكوس ثم بدأ يعدّد لي العجائب التي سأشاهدها.

في بكين كان مضيفونا في منتهى اللباقة. إذ قلت لهم مرة واحدة: لا ملح، لا زيارات إلى المصانع، ساعة قيلولة يوميا، فاحترموا كلّ ذلك بدقة.

وتفادوا الرحلات التقليدية المنظّمة التي تمر بشانغهاي والمدن الصناعية، تكريماً لنيكوس. واختاروا لضيفهم «طريق الشعراء»، أي مضائق وشعاب «يانغ تسي» التي تغنّى بها شعراء مشهورون مثل لي تا بي وغيره. وحتى تشونغ كنغ بحرارتها العالية لم ترهقنا. ومع ذلك مكّنتنا لجنة السلام الحريصة على راحتنا، من بضعة أيام للاستراحة في كومينغ، بلاد الربيع الدائم، قرب حدود التّيبت (على ارتفاع ٢٠٠٠ متر).

لم يرهق نيكوس في الصين وفرح، في كل خطوة، بتحقيق التقدّم في البلاد.

– هنا ، قال لي، كانت توجد مقابر جماعية مفتوحة! وكانت تشكل خطرا مميتا للأطفال الذين يلعبون حولها... وهناك، أذكر، كانت توجد صفوف طويلة من الشحاذين، بعيون رَمْصَاء مغطاة بالذباب ... والآن صار رجال عربات الريكشو يرتدون قفازات بيضاء!

– وهي أنظف من قفازاتنا، علّقتُ معجبةً بنظافة الصينيين.

عشنا لحظات لا تنسى مع كيو-مو-جو، وشوانلاي، وماو - دونغ الذي تبادلنا معه بضع كلمات، وبوذا المجبول من يشب أبيض، ومعبد السماء، والجامعات، والمختبرات، والمنتزهات العامة، والدكاكين الصغيرة، والممثل الكبير الرائع ميلانغ فانغ.

ولكُم أن تتصوّروا مدى الحفاوة التي وجدها نيكوس كازنتزاكي في جامعة بكين لأنه محبوب جدًّا ويعاني من المرض والشيخوخة!

أرسل رئيس الجامعة الذي كان ينتظرنا طالبة شابة كي... تساعد نيكوس على الخروج من السيارة وصعود الدرجات القليلة: «لست عاجزاً، ولا هرماً!» قال نيكوس، وأضاف: «لكن هذا الأمر يروق لي!» وانقاد ممسكاً بالذراع اليمنى للفتاة الرائعة.

ولمّا جلسنا لتناول الشاي أمام مائدة واطئة، انكبّت الطالبة الشابة، بأصابع تشبه أجنحة الفراشات، على حلّ الشرائط التي تشد قبعة القش على رأس نيكوس. ثم شرعت تفتح أزرار قميصه بإجلال جدير بالضيف الكبير، فأمسكت بأحد طرفي القميص، بيدها اليسرى، وروّحت على صدر ... المريض الناضح عرقاً، بمروحتها الصغيرة. أطالت فعل ذلك، بهدوء ولطف، مبتسمة، وكأنها في حضرة شخص عزيز، طال انتظاره، وعاد من سفر بعيد...

في السفينة التي كانت تقلّنا من هانكو إلى تشونغ كنغ، كثيراً ما سمعت نيكوس يتنهد:

– لو كان لي ماء من نبعي...

مردداً أغنية يونانية شعبية. ولقد أدركت أن ذلك الحزن متأتٍ من منعنا إياه، تفادياً لإرهاقه تحت المطر وفي الوحل، من النزول لزيارة الضيعات الصينية الصغيرة التي كنا ننزل لمشاهدتها.

وبعد جولة على ضفاف بحيرة كومنغ، الحافلة بزوارق صيد تعدّ بالمئات، شرعنا نصعد الدرجات المؤدية، عبر أبواب، ومعابد، وهياكل متعددة الأدوار، إلى «المعبد الذي يلامس السماء».

وصعد نيكوس من دون أن يتأخر أو يتعب. فشاهدنا «باب التنين» و«الجميلة النائمة» ثم «معبد التنّين لونمان» الذي تتغنّى به الأشعار القديمة. وواصلنا الصعود نحو «معبد الطهارة الثلاثية» وصولاً إلى سرادق «رئيس العلماء»: وكان شابا مطليا بالذهب، يحاكي صورة بوذا، يمسك بدواة في يد، وبريشة في يد. غير أن طرف الريشة انكسر عندما كان النحات تشو كيانغ كوو ينجز هذا العمل؛ فانتحر يأساً...

ولسوء الحظ أن نيكوس لم يُنبَّه في فريبـوغ إلى خطورة التلقيح بالنسبة إليه. وفي كانتون لُقّح ضد الكوليرا والجدريّ.

كنا في طوكيو عندمـا بدأت ذراعه تنتفخ. ومن دون أن يخبرني لجأ إلى ارتداء قمصان طويلة الأكمام والاستحمام في مغاطس حامية جدًا. وعندما سألته أجاب بابتسامة غـامضة: «أحبّ تقليد اليابانيين». ولم أدرك حقيقـة الأمر إلا بعد فوات الأوان.

وبفضل حسن التنظيم الذي تتميز بـه السيدة ايفيلبيديس، لم يتعب نيكوس من رحلاتنا داخل اليابان. غير أن ذراعه ظلت منتفخة. ولم أنتبه إليها إلا في طائرة العودة.

أضعنـا عشرين يومـاً، بغباء، في كـوبنهاغن بسبب حبّ في غير محلّـه لطبيب حاصل على جائزة نـوبل، حتى كاد نيكوس يبلغ النهايـة. لكن البروفيسـور جان برنار وصل في آخر لحظة وأسعفنا من جديد:

– خذيه فوراً إلى هيلماير!

– أردت أن أفعل ذلك منذ البداية ... لكنني مُنعت...

– لن يمنعك أحد الآن.

– ربما فات الأوان.

– أؤكد لك العكـس. يكفي أن تعديني بعـدم التوقف في الطريـق مهما حدث، ينبغي الوصول إلى فريبورغ في أقرب وقت ممكن.

بلغنا فـريبورغ ولم نفقـد الحياة. رفض نيكـوس النقّالـة. وانتقل إلى الطائرة مشيا. وظل يصرّ على الجلـوس، في الطائرة كما في محطة فريبـورغ، ثم في القطار الذي أقلّنـا إلى فريبورغ. لكنـه لم يكد يبلغ درج مدخل المحطـة حتى التوى مثل زهرة تموت.

– أفي هذه الحالة تأتين به؟ وبّخني الدكتور هوردر.

– حاول إنقاذه، يا دكتور. لقد أقسم لي البروفيسور جان برنار بأنك قادر على ذلك! وحدثت المعجزة لآخر مرّة.

– هل لاحظت، يا دكتور، أن شـوارع فريبورغ مبتلّة؟ قـد تقول أنها أمطرت. كلا لم تمطر، تلك دموع زوجتي! قال نيكوس بعد زوال الخطر.

– أرادوا أن يبتروا ذراعك ... اعترفت له ذات يوم، بعد أسابيع النقاهة. فقرّرتُ ... قتلك.

فارتجف نيكوس: «قتلي؟»

– نعم. كاتب ... من دون يده اليمنى ... ولا يجيد إملاء كتابته أيضاً ... لو كان الأمر يتعلق بساق...

– أف! حتى بتر الساق فظيع! همس نيكوس مفكّراً. وبعد بضع دقائق:

– عزيزتي، أرجوك، هاتي لي ورقة وقلماً.

وشرع يكتب بيده اليسرى...

وانتشر خبر مرضه في فريبورغ. فهرع ماكس تو في المقدمة، برفقة ابنة الطبيب ألبرت شويتزر وسكرتيرته. وبدأت لاديسلاس كيينو تبعث إلينا ببطاقات بريدية رائعة تقلد روائع الرسم المعاصر، لتذكرنا بصديقنا سغريداكي الذي لا ننساه. وأرسل المعتقلون السياسيون المحكومون بالإعدام، في كورفو، نسخة مصغرة لسفينة شراعية جميلة باللونين الأزرق والأبيض، سُرَّ نيكوس. وجاء د. دانييليذيس صديق عامي برلين ١٩٢٢ و١٩٢٣ والصديق الدائم، ليطمئن على صديقه الأكبر سنّاً. كما جاء بعض الشباب اليونانيين الذين كانوا طلابا آنذاك، وصاروا أساتذة جامعيين اليوم، ليتعرّفوا على كاتبهم المحبوب.

ورأت راحيل حلماً غريبا: تراءت لها والدتي وتوسلت إليها أن تأتي للبحث عني «بين الموتى». وكان نيكوس في حالة جيدة، وتأكد الأطباء من شفائه. لذلك أخبرته بالحلم:

«مسكينة راحيلينا، همس، إنها قلقة بشأني».

وأخبرته أيضا بحلم من أحلامي: تـراءت لي أمي مرة أخرى وانتصبت أمامي مثل تمثال صوّاني، وأشارت بإصبع مهددة: «غداً تموتين!» قالت لي.

– أنا؟ أموت؟

– نعم، أنت، ستموتين!

– حلم جميل جدًّا، قال نيكوس مازحاً. ستأتينا أخبار سعيدة!

وصار يلتهم الكتب التهـاماً وهو جالس على مقعـده. ولم تُخفِ. أمينة المكتبة الفـرنسيـة في فـريبورغ دهشتهـا. ولقـد طـالب بكتب كثيرة، من بينهـا أعمال مونتانيي وراسين وموليير. وكان يتنهّد في الأثناء:

«لقد طال المرض، يا إلٰهي! متى أستعيد عملي؟

– صبراً، صبراً، صبراً على الأرض، قلتُ مرددة تأويله لبعض أبيات فاليري.

– هناك مواضيع ثلاثة جـديدة تتصارع في رأسي. أيها سيخرج الأول؟ ينبغي أن أعيد أيضا كتابة «الغريكو» بأسلوب آخر. ليتني أقدر على إملائه..

– لنحاول.

ولم تعط المحاولة نتيجة تذكر.

– لا أريـد العمل إلا والقلم في يـدي. اقرأي لي، على الأقل، تـرجمتك للقصـائد الصينية واليابانية. فقد يكون فيها ما يتطلب التعديل.

وأجرى تعديلات مهمة. ثم عاد إلى المطالعة. وبعد أن قرأ الكتاب الصغير الذي ألّفه روجيه مارتن دي غار حول موت أندريه، ناولني اياه:

– أحب أن تطالعيه يا لينوتشكا، هكذا أريد أن أموت!».

وكـان هناك قسيس يأتي لـزيـارة المرضى كلّ يـوم سبت، فيحييه نيكـوس بتهـذيب ويترك مسؤوليـة الحوار على كاهلي. وعنـدما يغـادرنا الـرجل الطيب، يتنفس نيكوس مرتاحاً. ويهمس «ومع ذلك فهو صادق!»

لم نكن غنيّين. وتبدَّدَتْ بقية مواردنا في العيادات والفنادق الجبلية. ولم يظهر على نيكوس الانتباه إلى ذلك. كان الأمر الوحيد الذي يقلقه هو تأخري في العودة من جولتي اليومية، بحثا عن الكتب والصحف الفرنسية. فكنت ألمح، من بعيد، وجهه الحبيب، ملتصقاً بزجاج النافذة. وأتخيل عينيه الصغيرتين تتقصّيان ممرات المتنزه.

– لِمَ تظل واقفا أمام النافذة، نيكوسمو؟ أسأله مخفية انفعالي، فأنت تعرف أنني لا أواجه أي مكروه، وأعود دائما.

– نعم، نعم، أعرف، لكن الأمر أقوى مني.

وعندما أزمجر لأنه يسرع في المشي داخل الغرفة:

– أشعر بتجدد قواي تماماً، يقول معجباً باستعادة قواه. أؤكد لك أنني أحس كما لو كنت أطير بجناحين!

ذات مساء وجدته جالساً على مقعده بتعقّل.

– تعالي ، أسرعي ، لدي خبر سارّ!

– سارّ جدًّا؟

– نعم، سارّ جدًّا جدًّا!

– نوبل! صحتُ مهتاجة. إذ تلقّى ماكس تُو مكالمة من ستوكهولم، قبل فترة، توحي بأن نيكوس قد ينال الجائزة، فكنت في انتظارها...

– بل أفضل من ذلك، يا لينوتشكا! أفضل بكثير! قال نيكوس مشرقاً. ثم ناولني البرقية التي كانت في يده. برقية لم أشاهد أطول منها.

– اقرأي.

كانت برقية متأتية من لجنة السلام الدولية في بكين. وقد علمت بما أصابنا فأرسلت تعبّر لنا عن حزنها، وبعثت في الوقت نفسه بمبلغ مهمّ من أجل تغطية

نفقـات العيادة واعِـدَةً بتحمّل كلّ المصـاريف الـلازمة مهما طـالت المدة. وكـان التعبير عن كل ذلك بأسلوب عذب، على الطريقة الآسيوية.

– ما رأيك؟ هل أنت راضية؟

وتابع من دون أن يترك لي فرصة لخلع معطفي والتمتّع بما ورد في البرقية:

– الصداقة عندي، أهم من كلّ جوائز نوبل في العالم، يا لينوتشكا. ساعديني الآن على كتابة بـرقية جيدة كي نشكر أصدقاءنـا. لن نستطيع، على أية حال، أن نتقبل العرض. لن نأكل الأرز الذي يعود إلى الشعب الصيني!

وبعد صياغة البرقية نظر نيكـوس في ساعته: «ما زال أمامك متسع من الوقت كي تذهبي إلى البنك، وتطلبي إعادة المبلغ إلى بكين. انتبهي، عليك أن تدفعي ما هو ضروري حتى يصل المبلغ كـامـلاً ... ينبغي ألا يخسروا شيئـاً خـلال عمليـة التحويل...

وتم ذلك.

وفي الطريق تـذكرت دهشة «مـاو دون» والكتّاب الصينيين الآخرين، عنـدما أهداهم نيكـوس رواياتـه كلها من دون مقـابل «عندما يـأتي أحدهم إلى الصين، همس وانغ تشنشي في أذني، يتنـاول قلماً وورقة ويبـدأ في الحساب: هـذا الكتاب ثمنه كذا.. وذاك ثمنه كذا وكذا.. هذه أول مرّة يهدينا فيها كاتب أوروبي مؤلفاته بهذه الطريقة».

وحده كـازنتزاكي، في عيادة فريبـورغ. لم يشعر بخيبة أمل، عندمـا أُسندت جائزة نوبل إلى ألبير كامو.

«أسرعي يا لينوتشكا كي تساعديني على كتـابة برقية تهنئة. إنَّ خوان رامون وألبير كامو جديران حقاً بالجائزة. هيا نكتب برقية حارة!»

وكـانت تلك آخـر كلمات يمليها عليّ نيكـوس كـازنتزاكـي، ليرسلها إلى أحـد

الأصدقاء[1].

بعد يومين أو ثـلاثة أيام، انتابتـه حمّى قوية، بلا سبب ظـاهر. وفي هذه المرة أسرع إلينا قـدرنا بنـزلة البرد الآسيـوية، عنـدما كـان نيكوس يعـود إلى ارتقاء الصعود المحتوم.

ولقد تعجّبت لموت ثلاثة من جيراننا ا ليونانيين بالداء ذاته، واحداً تلو الآخر.

– ألم يكن بإمكانك إنقاذهم يا عزيزي البروفيسور هيلماير؟

– كلا ، للأسف، لقد جاؤوا في آخر لحظة ... تأخروا كثيراً...

– أنا خائفة .... خائفة على زوجي.

– لا تخافي يا سيدتي العزيزة، فزوجك ليـس مصاباً بالسرطان. سوف يعيش طويلاً، أؤكد لك ذلك ونصحني بالذهاب إلى آنتيب كي أجلب ثياباً شتوية، نحتاج إليها خلال إقامتنا الجبليّة.

– تستطيعان مغادرة العيادة بعد أيام قليلة ... وسوف تعود عليكما الإقامة في الجبل بفائدة كبيرة ... كنتُ أتأهب للرحيل عندما انطلقت الحمّى. وذهب الظن، في الأيـام الأولى، إلى تسمّم معوي. فأمـر نيكوس بـالامتناع عن الأكل. ووُصف لـه مضاد السولفاميد. وفي صباح الغد نزلت الحمّى إلى ٣٦,٦ درجة. لكنها عادت إلى الارتفاع، في المساء، مثل السهم.

وظلت الحال على ذلك المنوال مدّة ثلاثة أيام. فضـاق تنفسه وازداد سرعة. ولم يكن القلق باديا على وجوه الأطباء. وصل ألبرت شويتزر يوم ٢٥ أكتوبر. وتمكن نيكوس من التحـرك والجلوس على السرير. فـاحتضن صديقـه وحدّثه بحيـوية

(١) يوم ١٦ مارس ١٩٥٩، كتب لي ألبير كامو الرسالة التالية:
«سيدتي، لقد تأسفت كثيراً لعـدم التمكن من تلبية دعوتك. أكنّ إعجابا عميقاً، وتعلّقـاً عاطفياً إذا سمحتِ، بأعمال زوجك. ولقد سعدت بفـرصة الإفصاح عن هذا الإعجـاب، على رؤوس الأشهاد في أثينا، عندما كـانت اليونان الرسميـة تستقبل أكبر كُتّابها ببرود. إن الاستقبـال الحار الذي خصّصـه الطلاّب المستمعـون إلى شهادتي، يُعتبر أجمل تكريم لآثـار زوجك وأعماله. ولا أنسى كـذلك، أنني تلقيت منه أنبل بـرقية، في اليوم نفسـه الذي تحسّرت فيه على نيلي جائزة يستحقها كازنتزاكي مائة مرّة أكثر منّي. وفيما بعد، علمتُ بذهول شديد، أن تلك البرقية كُتبت قبل موته بأيام قليلة. وبموته يغيب واحد من أكبر فنّانينا. فأنا من الذين يحسّون، ولن يكفّوا عن الإحساس، بالفراغ الذي تركه».

جعلت الطبيب الطيّب يغادر متيقنا أنــه سيعود، بعد أيام قليلــة ليجده قد شفي. ولم يكن هناك حديث في فريبورغ عن النزلة الآسيوية الوافدة، بعد، على الرغم من فتكها بالناس في فرنكفورت.

فهل كان نيكـوس مدركـاً خطورة حالتـه؟ لم أكن متيقنة من ذلك. لكنـه، منذ اليوم الأول، عنـدما جاء الدكتـور هوردر يناولـه حقنة الكورتيزون، مـدّ ذراعه قائلاً:

– Und jetzr Schluss! (والآن، إنها النهاية!)

فهل كان يعبّر عمّا يدور في خاطره حقًّـا؟ أم كان ذاك صوت شعوره الباطني الذي لم يُولِهِ أية أهمية؟ وخـلال الأيام الأربعة التي بقيت في حياته، لم ينطق بأية كلمة متشائمة.

وعلى العكس تماماً، ظلّ مستنداً إلى وســائده، حتى المساء الأخير، فيمدّ ذراعه لاستبدال الضمادات، ويتناول اللبن الرائب، ولا يشكو إلا من عطش فظيع:

– عطشـان! ... عطشـان!...

صباح يوم السبت ٢٦ أكتوبر، سألني الدكتور هوردر:

– هل أدركتِ أن زوجك اليوم في حالة خطرة؟

– لقـد سبقت لي رؤيتــه مـرتين في مثل هـذه الحالة. وسـوف تسـاعـده على تجاوزها، أليـس كذلك؟ فـوعدني بـذلك ... لكنه غـادر العيادة. ولم يعـد إلا بعد العاشرة ليلاً، عندما تمّ كلّ شيء.

مكثت وحيدة قرب سرير مريضي، متضرّعـة إلى كل القديسين كي يساعدوني: «نيكوسمـو، نيكوسمو، إنها حمّى «تـريبيميروس» (حمّى ثلاثة أيـام). تشجع يا حبيبي. ستنزل حرارتك هذه الليلة. وفي الغد، يطلع الفجر رائعاً، من جديد.

– نعم، نعم ... كان يقول لي بإشارة من رأسه طالباً أن يشرب.

– تذكّر برغسون، «التعبئة!» أحشد قواك كلها، أرجوك!

– نعم، نعم ... يقول مشيراً برأسه، ويعود إلى طلب الماء.

في تلك الليلة دخل قسيسان إلى غرفتنا. جاء القسيس البروتستانتي، ثم تلاه الكاثوليكي. فأدار نيكوس وجهه نحو الجدار.

لم أفقد الأمل آنذاك فلم أفكر في النهاية «نيكوسمو، وبّخته، ما فعلتهُ لا يوحي بالأدب والتهذيب. لقد أراد المسكينان تكريمك».

فلم ينبس بكلمة. أدار وجهه نحوي وطلب أن يشرب.

– هل تشعر بالتّحسن، يا صغيري؟

– نعم ... نعم ...

– هل تشعر بألم ما؟

– لا ... لا .... إني أشعر بالعطش!...

في احدى اللحظات، لاحظتُ مرّتين، أنه كان يضع أصبعه على شفته. ظننت أنه يريد حكّها لأنّ الحرارة زادت في التهاب شفته.

– هل تشعر بحاجة إلى الحك؟

– نعم، قال نيكوس بحركة من رأسه.

كان يكذب عليّ. وذلك ما أدركته بعد فوات الأوان. كان يحاول التأكد من تلاشي بصره، لأنّ عينيه، بعد بضع ساعات، لاحتا ذابلتين.

«نيكوسمو! نيكوسمو! صرختُ، هل تسمعني يا حبيبي؟»

مكث جامداً. لكنّ «قلبه الطفولي الصغير»[1] ظلّ يخفق. وتسارع نفسه أكثر وازداد قصراً.أمسكت بيده اليسرى، الحريرية، التي لم تتعرق، ووضعتها على رأسي. «بَارِكني يا حبيبي ... اجعلني أسلك الدرب الذي رسمته....»

---

(١) قال لنا الأطباء إن نيكوس يمتلك قلب طفل.

ظلت يده على رأسي فترة طويلة. كانت ساخنة، ناعمة، منعشة دائماً. كما أحبّها تماماً ... ثم وضعتها بعناية على غطاء السرير.

لم يعد لنيكوس كـازنتزاكي وجود. وتملّكتْني رغبة في فتح الأبـواب والنوافذ، صائحة مولولة.

«يا قمر، يا نجوم، يا أشجار، أيها الليل الدامس، هو الذي أحبّكنَّ كثيراً، لم يعد له وجود!».

خجلتُ من نفسي. أمَـا كنتُ لأعجب بهذه الميتـة، وأتمنّاهـا لي، لـو كنتُ مجرد «متفرجة»؟

كانت الليلة الثانية جداراً معتما ينغلق على أعوامي الضوئية الثلاثة والثلاثين. عدت إليه، اقتربت منه، وتأملته مليًّا. أغمضتُ له عينيه. تينك العينين الزيتونيّتين، الطيبتين، الماكرتين، اللتينْ لن تعودا إلى رؤية الشمس أبداً.

واقفاً، تماماً كما عاش، أسلم روحه. مثل الملك الـذي أخذ نصيبه من الوليمة، ثم وقف، فتح الباب، ومن دون أن يلتفت، اجتاز العتبة.

ايليني ن. كازنتزاكي

مرافعة ن. كازنتزاكي

كُتبتْ في كريت **1925**



للردّ على الاتهام، يتوجب عليّ صياغة الطريقة التي أنظر بها اليوم إلى المسألة الاجتماعية، بكلمات مختصرة وبسيطة.

أعتقد أن هناك ثلاث حلقات متعاقبة ينبغي توضيحها، إذا أردت لمرافعتي أن تكون ذات نتيجة منطقية وقيمة توضيحية.

١- في أية لحظة تاريخية يوجد العالم، حاليا؟

٢- ما هو موقف اليونان وما هو واجبي في هذه اللحظة؟

٣- ما أعتبره من صميم واجبي الشخصي.

أ- أنا مقتنع بأن البورجوازية في الوقت الراهن عاجزة عن الاستجابة للاحتياجات المعاصرة ومخاوف المجتمع.

- على المستوى الاقتصادي: نجدها تتأسس على مبدأ التنظيم الفردي للإنتاج، أي على السرقة، والتوزيع غير العادل للثروات؛

- على المستوى الاجتماعي: لا وجود لأية أخلاق تعتمد عليها العلاقات الإنسانية.

- على المستوى السياسي: تسيّر الطبقة الحاكمة السياسة وفق مصلحتها الخاصة على حساب الأغلبية الواسعة للشعب؛ وكلّ تغيير في الأشخاص أو المؤسسات يثبت عدم جدواه.

ولم تعد البورجوازية تمتلك مثلا أعلى، قادراً على إضفاء النبل والتماسك على أنشطة الأفراد والدول. لم يعد هناك وجود لعقيدة، أي لاندفاع يتجاوز قدرات الفرد، من شأنه ضبط إيقاع الأفكار، والمشاعر، والأعمال الإنسانية.

أمامنا مشهد يُلاحظ وجوده في نهاية كل الحضارات. هناك طبقة - تتشكل في البداية من رجال الدين أو المرازبة المجوس، ثم الملوك، فالسادة الإقطاعيين، وصولا إلى البورجوازية - تستولي على السلطة مقوّضة النظام السابق. وبعد

مرور فترة زمنيــة تمرّ بها كل طبقة بكل مراحل الترقي والانحطــاط تحلّ محلها طبقة أخرى – فتمرّ بالأطوار ذاتها – وتلغي ما سبق. ذلك هو الإيقاع التاريخي.

لقد قلبت البورجوازية سلطة الإقطاع. وقدمت ما تقدر عليه – بشكل رائع كمّا ونوعاً – إلى الفكر، والفن، والعلم، والعمل. وهي ترسم الآن خطها البياني المحتوم، المنحني نحو الأسفل.

ونحن نعيش هذا الانحطاط، وبالتــالي يصعب التحدّث عنه. غير أن الانحلال بلغ من السرعة ما جعل الأكثر تشدداً يشعرون بالقلق.

هناك صنفان من المحاولات يرتسمان بوضوح:

١– صنف يبذل كلّ جهوده للمحافظة على الأوضاع البورجوازية بمحاربة كلّ فكر أو عمل مضاد.

٢– صنف يحاول قلب تلك الأوضــاع واستبدالها بنظــام جديــد أكثر عــدالة وكرامة. وهذه قناعاته على الأقل.

الصنف الأول يمثل المحافظين الماسكين بزمام السلطة، ومن حقهم طبعا، ومن واجبهم كــذلك، أن يــدافعوا عن أيــديــولوجيتهم ومصــالحهم. لكنهم يجهلــون القوانين المحتومة للنشأة والازدهار ثم التدهور، ويأملون أن تحدث معجزة الآن، وتتمكن طبقتهم، لأول مرة في التاريخ، من البقاء في السلطة إلى الأبد.

وليس هناك أي مثال، حتى الآن، يبرهن على أن جهــودهم ستظل مثمرة حتى النهاية.

ولو حــدث ذلك لما تزحــزحت الحياة عن أشكالها الأولى، الثــابتة والنــاقصة. تذكــروا جملة «كــورييه» الشهيرة: عنــدما أراد الله خلق العــالم، صرخت الملائكة المحافظة في الأرجــاء: «إلهنا لا تقوّض السديم!» لكن الله لم يستمــع إليها. وهو لا يستمع إليها أبداً.

ما الطبقــة التي ستعقب الطبقة البــورجوازية؟ أنــا متيقن؟ تمام التيقن، بأنّها طبقة الشغيلة: من عمال وفلاحين ومنتجي فكر. ولقــد مرّت هذه الطبقة بالمرحلة

الأول، مرحلة البذل والتضحيـة؛ ولم تعد تلجأ، كما قبل قرن مضى، إلى إحسان الأغنياء وكـرمهم؛ لم تعد تطلب الصّدقـة. ثم اجتازت المرحلـة الثانية - مـرحلة العدالة؛ فلم تعد تسعى إلى فهم مبدئها، لأن العدالة حق وواجب. وهي توجد الآن، في المرحلـة الثـالثة والأخيرة: إنّها متأكـدة الآن من الاستيـلاء على السلطـة، لأن التاريخ يريد ذلك.

وهكذا نجـد أنفسنا في النقطـة الحرجة التي تترنّح فيها طبقـة برغم مـا يبدو عليهـا من مظـاهـر القـوة؛ فتتـزعزع أسسهـا، وتفقـد تـوازنها النفسي، وتبـدأ بالانحلال، والتفكك لأنها لم تعد متحلية بالإيمان والعقيدة.

وهناك طبقـة أخرى في طور التشكّل ، تنظّم صفوفهـا، وتمتلك عقيدة. غير أن نظامها ناقص، إذ أنها لم تحقق الوعي الكامل، ولم تدرك قوتها على الوجه الأكمل؛ وما زالت تحت عبودية العملاق المتحلّل.

لقد فقـدت القيم القديمة تلك الثقة التي كـانت توطّدهـا، وتضفي عليها معنى ووزناً. وصـارت القيم الجديدة تتطور باستمـرار من دون أن تتوصل حتى الآن إلى شكل ثابت.

هذه هي بالتحديد، المرحلة الانتقالية، المأسوية والفظيعة، التي نعيشها.

وثمة ثلاثة أحداث تجعل الخطر الذي تواجهه البورجوازية أشد خطورة:

١- للمـرة الأولى في التـاريخ نـلاحظ هذا الأمـر الاستثنـائي: إذْ أن القـارات الخمس جميعها تشترك اليـوم في حركة جماعية. ولأول مـرة في التاريخ تكتسب الأرض وعياً موحّداً. وتلتفّ كلّ الأجناس - البيضاء والسوداء والصفراء - حول هدف واحد. وليس لانهيار الحضارة الأغريقيـة - الرومانية سوى قيمة إقليمية مقارنة بالكارثة التي ترتسم اليوم أمام البورجوازية.

٢- وهناك حدث آخر يسرّع في الخطر ويتمثل في اليقظة الرهيبة لشعوب آسيا وأفـريقيا. ولقـد أيقظ الأوروبيون الـوعي القـومي لدى تلك الشعـوب، من أجل استخدامها في الحرب العالمية، ووعدوها بالحرية بعد تحقيق النصر. كما سلّحوها

وعلّموهــا فنون القتــال، بما في ذلك قتل الأوروبيين، ثم عــادوا (الأوروبيون) إلى بلدانهم؛ من دون الوفــاء بوعودهم؛ وتوجد كل المستعمرات الآن في حــالة غليان، مطالبة باستقلالها.

٣- أما الحدث الثالث والأخير، المسرّع في الخطر، فهو التالي: يقود هذه الحركة العــالمية ذات الجبهــة الثنــائيــة قائد للبروليتــاريــا الأممية ينادي بــالازدهــار الاقتصـــادي. وهو يقــود في الوقــت نفسه شعــوب الشرق المتطلّعة إلى الانعتــاق القومي. وهذا القــائد هو دولة عملاقة، تعدّ السادســة في العالم، ولها جيش قوي جدًّا، ومواد أوليــة لا تنضب، وعلماء كبار، وقادة سياسيــون لا يلين لهم جانب، ولها، على وجه الخصوص، ذلك الشيء الرهيب الذي لا يوجد في معسكر الخصوم: العقيدة الجديدة. إنها روسيا.

تحاول روسيــا أن تتحــول إلى قــدوة لدولــة البروليتــاريــا. وتحض جماهير الشغيلــة على الاقتــداء، وتبشرهــا بــالخلاص. وتتــوجــه إلى شعــوب الشرق بـــ «بروباغندا» مبتكرة، من خــلال نداءات في منتهى البساطة، والفهم، والتقبّل، من لــدن العقــول الشرقيـــة: «اطــردوا الأوروبيين، تحرروا من رأس المال الأجنبي! صيروا سادة في أوطانكم!».

لم تعد روسيا طليعة أوروبا في آسيا، بل طليعة آسيا في أوروبا.

إنَّ التجربة قاسية، دامية، وحرجة، على امتداد المساحات الشاسعة في روسيا. وتتوجــه أنظار الجميع، من أعداء وأصدقــاء، بدافع الحقد أو بــدافع الحب، نحو روسيا. لأنها تشكل مركز الأرض حاليا، سواء شاء الآخرون أم أبوا.

هــذا الأمل المشرق في مــرحلــة ما بعــد الحرب، هــذا الشعــور الحاد بضرورة الخروج من البــؤس الاقتصـــادي والاجتماعي والسيـــاسي، يشكل مع الانتظــام الواضح والمتميز لكلا المعسكرين:

حقيقة العالم الكبرى.

ب– أمام حقيقة هـذا الواقع العالمي، يُوجـد واقع آخر صغير، محلي، هو واقع اليونان. فما العلاقة بين الاثنين؟

يقـول الكثيرون بأن هـدف الصراع الطبقي في اليونـان ليس واضحـاً كما في بلـدان أخرى، ذات صنـاعة متطـورة. إذ أننا خـرجنا من تسلط الإقطـاع التركي وأسياد الإقطاع الريفي، ولم تطور البورجوازية كلّ إمكاناتها، كما أن عدد العمال والمزارعين ما زال ضئيلاً، وتفتقـر غالبيتهم للوعي والتنظيم، فلا يمكـن أن يوجد صراع طبقي في بلادنا. ونحن محافظون بطبعنـا، ولن نترك الموجة تعبر حدودنا. ذلك ما يدّعونه.

وأنا مقتنع بأن اليـونان لن تشهد أيـة ثورة إلا بعد قـرون عديدة، لـو كانت معزولة تماماً عن بقية العالم. لكننا لا نستطيع تناسي هذه الوقائع الثلاثة الثابتة:

١– لا يمكن لأي بلد، اليـوم، أن ينعزل بالكامل، ولا يمكن لأيـة قوة بشرية أن تحصر الأفكار داخل حدود جغرافية.

٢– إن البلدان الرأسمالية المتقـدمة تُلحقنا بمصالـحها الاقتصاديـة وتزيد في عبء الاستغلال شبه الاستعماري الذي نعاني منه. فنحن مرتبطون، سواء شئنا أم أبينا، بعجلـة الرأسمالية في كلّ من أوروبـا وأمريكا، وهناك أثـر فوري وثقيل لكل مشاكلهم الاقتصادية، في بلادنا.

٣– وأخيرا، علينـا ألا ننسى مـا يلي: أن التطـور الـذي كـان يتطلب أجيـالاً وأحقابا، قبل الحرب، صار يُدرك الآن في فترة زمنية محدودة، ويسعى إلى التحقق العملي الملموس. وهـذا ما يـؤكد وجود صراع طبقي في اليـونان، يـزداد خطورة، ونلاحظه جميعاً.

أعرف أن الحلّ الأمثل كـان يتطلب مرور اليـونان، كغيرهـا، بمختلف مراحل التطور، عبر سيرورة منتظمـة، بطيئة، وذات خصوصية محليـة. لكن الأشياء في هذه الـدنيا لا تجري دائماً بمثل ذلك النظام والمنطق. لقـد اختفت أنواع كثيرة من النبـات والحيوان، كما ظل تـاريخ شعوب عـديدة غير مكتمل، لأنها عجـزت عن التكيّف مع نسق التطـور القاسي بـالنسبـة للمتأخرين. وكـان التكيّف مع نسق

التطور القاسي بالنسبة للمتأخـرين. وكان من السخاء والمنطق تمكينهم من مهلة للنّضـج، لكن الفيزياء والتاريخ لا يعرفان الإمهال. القرار! الفرار!.

إنَّ هذه الفكرة حرجة بالنسبة للأرض كلها، ولا سيما اليونان. لأننا متأخرون بشكل خاص، يعـود إلى أسباب تاريخيـة وعرقية. ولا شك أن الـزمن الذي تبقى أمامنا، للتكيّف من إيقاع العالم، هو زمن وجيز.

ستنفجر العاصفـة، شئنا أم أبينا، ولن يهمّها أكنّـا مستعدّين أم لا. لن تنتظر نضجنا. وهكذا يعصف الواقع الأكبر بواقع اليونان الأصغر.

مـا هو واجبنـا؟ الاستعداد. كيف؟ بـوعي اللحظة التـاريخية التي نعيشهـا، وتـوعية الشعب، وإعطـاء مضمون جـديد، وأكثـر نبلاً لأفكـار العمل والعدالـة والفضيلة.

هكذا فقط تتوصّل الجماهير إلى الانتقال من وعي حقوقها إلى إنجاز واجباتها. وهكذا فقط تستطيع تحمّل مسؤولياتها عندما يحين موعد الاستحقاق المحتوم.

إنَّ الصراع، كما أراه، ليس صراعاً اقتصادياً فحسب. ذلك أن النمو الاقتصادي وسيلـة لبلوغ النمـو الفكري والـروحي لـدى الإنسان. ينبغي العمل على تلبيـة الحاجـات الماديـة لأكبر عدد ممكن من النـاس، من أجل بلـوغ الهدف والسمـوّ بمفهوم السعادة إلى مرتبة عليا.

ومن الطبيعي أن تقاتل البـورجوازية من أجل خنق هذه المحـاولة. فكل فكرة جديـدة تُتّهم دائما بكونها لا أخلاقيـة وإجراميـة، من قبل المدافعين عن السلطة القائمـة ذلك أن الفكرة الجديـدة ليست سوى بذرة واقع جـديد يـريد التحكم في الأرض بعد اجتثاث الأفكار القديمـة التي يتعلّق بها الكثيرون، لكنها أفكار عقيمة ومعيقة للحياة. تذكر وا ما حدث خلال الأعوام الأولى من ظهور الديانة المسيحية. وكيف شتم المدافعـون عن النظـام القـديم تلك الفكرة الجديـدة، وافتروا عليهـا، وطاردوها، محاولين خنقها.

وباستعراضي للدائرة الكونية وضعتُ القوس الصغير – اليونان – في موضعه،

ووضعت في داخله، النقطة الكونية للممارسة الفردية.

لقد شعرتُ أنه من واجبي الحصول على فكرة واضحة ومتجرّدة بخصوص أكبر مشكلة تضبط إيقاع عصرنا - المسألة الرّوسية.

ما قرأته كان ممتلئاً بالتناقضات والتفاهات والتحيّز. إذ يقدّم البعض روسيا وكأنها الفردوس في حين يعتبرها غيرهم بمثابة الجحيم. فسعيت إلى تكوين رأي شخصي. لأنه يتوجب على الإنسان في عصرنا الحرج أن يتخذ، بتبصّر نهائي، موقفاً محدّداً، إلى اليمين أو إلى اليسار - في إطار الصراع العالمي. ففي أزمنة أخرى، هادئة ومتوازنة، كان من حق الفرد أن ينعزل ويهتم بنجاح علاقاته الشخصية مع الآخرين، فقط. أما في أيّامنا فإن مثل تلك العزلة الأنانية، والنجاح الاتفاقي، يُعدّان جبناً مشؤوماً.

تلك هي الدوافع النفسية والفكرية التي جعلتني أزور روسيا. لقد زرتها وأقمت فيها بضعة أشهر. ثم عدتُ إلى زيارتها، واطّلعت باهتمام وقلق، وعاينت تجربة استثنائية ملأتني اضطراباً وانفعالاً وأملاً. فلم أعثر في روسيا على الجنة التي وصفها الشيوعيون التبسيطيون، ولا على الجحيم الذي أعلن عنه البورجوازيون الشرسون المتخوّفون. وجدت تلك الأرض التي يكافح فيها الإنسان، ويبحث، ويحاول، ويكدّ لإيجاد منفذ، لفتح طريق بين عالم قديم لم تعد روحه تتقبّله وبين مثل أعلى جديد، يكافح سدىً، من أجل التحقق.

وهذا الجهد الرهيب الذي لم يكتمل بعد ملأني بمشاعر الإحترام والقلق. لقد عدت من روسيا واثقاً بالإنسانية على وجه الخصوص. وهي ثقة فقدتُها خلال معايشة البورجوازية.

عدت إلى اليونان فوجدت كلا الخصمين المتقارعين حول المسألة الروسية غاطساً في الجهالة. ورأيت أن من واجبي توعية من أستطيع، سواء أكانوا من الشيوعيين أم من البورجوازيين. كتبتُ سلسلة مقالات، أصدرت كتبا، وتحدّثت بتجرّد دائم، وقاسٍ أحياناً. ولهذا لم أتوصل إلى إرضاء الشيوعيين ولا البورجوازيين. ولا يهمني ذلك، لأنّ هدفي ليس كسب الإعجاب بل قول الحقيقة.

لست مغتابا ضيّق الأفق ولا منافحـاً سطحياً. لأنني لست رجل ممارسة، بل رجل هدفه التفكير ومحاولة صياغة أفكاره. لهذا توجد لديّ القوة والحق من أجل رؤية الفكرة ضمن تكـاملها وبريقها وظلالها. لو كنتُ رجل ممـارسة لبالغت في كل ما يخدم ممارستي، وقلّلت من شأن كلّ ما بوسعه كبحها بطريقة واعية أو لا واعية، وأعلنتُ عن عقيدة منحوتة بفظاظة أو سهلة الفهم.

لست من السذاجـة بحيث أصدّق أن الفكرة تتحـول إلى واقع، فوراً. أردت أن يتعمّق أكبر عـدد من النـاس في فهم العصر الـذي نعيشه، ويستعـدّوا لنهضـة حياتهم الفردية والاجتماعية. نهضة نفسية في البداية، ثم فكرية واجتماعية؛ وفي نهاية المطاف، ومع مرور الزمن: اقتصادية وسياسية.

هكذا سـاعدت أنا أيضـا، بوسـائلي المتاحة، على فتح درب الخلاص الـوحيد لليونـان؛ الدرب الأسرع والأكثـر عقلانيـة، أي تكيّف الواقع اليـوناني الصغير، تدريجيا، مع الواقع الأكبر.

هذه هي قناعتي التي أعلنتها. ومن حقكم وواجبكم أن تهاجموا الفكرة بمقدار مـا تستطيعون. غير أن الخيـار الذي يعترضكم خيـار فظيع: إذ أنّ لجوءكم إلى الضرب يسهّل ولادة أبطال وشهداء وبهذه الطريقة تساهمون في انتصار العقيدة الجديـدة. أمّـا إذا لم تلجأوا إلى الضرب فإنكم تتركـون الفكـرة تقـوّض الأسس القديمة بهدوء، وتقضي عليها.

مهما فعلتم، ومهما طال الزمن، لديّ قنـاعة، أيها السـادة القضـاة، بأن الأقلية سوف تكبر دائماً، وأن الضحـايا سوف يشاهدون قوتهم تزداد دائما، وأن الطبقة الضـاربة سوف تسقط دائماً.

تلك هي أفكاري. ورأيت أنه من واجبي صياغتهـا بنزاهة مطلقة. أما واجبكم فيحتّم عليكم، إذا وجدتموها جديرة بالقصاص، أن تفعلوا.





نيكوس كازانتزاكي

ولد نيكوس كازانتزاكي سنة١٨٨٣ في كاندي، وأمضى طفولته في معمعان الحرب التي شنها الوطنيون الكريتيون (نسبة إلى جزيرة كريت) ضد الاحتلال التركي. بعد دراسة الحقوق في أثينا سافر إلى باريس وحضر دروس الفيلسوف هنري برغسون الذي أثر فيه تأثيراً حاسماً لا يقل عن تأثير نيتشه. وأعقبت ذلك مرحلة ترحّل وسفر ثم اعتكاف في جبل آثوس، وإقامة في برلين خلال أعوام ما بعد الحرب -حيث ألّف كتاب «الزهد»-، وعدة رحلات إلى روسيا، لإعجابه الشديد بشخصية لينين، ويمكن القول إن سيرة حياة كازانتزاكي كلها، وثيقة الصلة بأسفاره، فبعد عودته من اليابان والصين كتب «بستان الصخور»، ثم «الأوديسة». أما رواياته الكبرى، باستثناء «زوربا اليوناني» فإنها تعود إلى السنوات الأخيرة التي عاشها في أنتيب، وهي أبرَز المدن الفرنسية من حيث الطابع اليوناني، وكانت تدعى في السابق أنتيبوليس.

لم يتوقف كازنتزاكي، طوال حياته، عن النشاط الاجتماعي والثقافي: بدأ مناضلاً اشتراكياً منذ شبابه، وصار وزيراً في العام ١٩٤٥ وشغل منصب مدير في اليونسكو قبل انسحابه للتفرغ إلى أعماله ثم وفاته في ألمانيا سنة ١٩٥٧.

ايليني كازنتزاكي

زوجة نيكوس كازانتزاكي. التقاها في العام ١٩٢٤ عندما كان يقيم في أثينا وقد بلغ من العمر إحدى وأربعين سنة. تمارس ايليني (ساميوس) كازنتزاكي الصحافة. وقد ألفت عدة كتب من بينها «حياة المهاتما غاندي» «ومأساة بانييت استراتي الحقيقية» (صدر بالأسبانية في سانتياغو- التشيلي)، كما تكتب الشعر.

■ قالوا عنه

كان يعيش على المستوى نفسه مع عناصر العالم، بل داخل كل شيء، وكل كائن قادر على إدراك المقدس عندما يلتقيه، كان له، إزاء كل ما يحيا، ذلك الورع الذي كان يشكل أحد الملامح الجوهرية التي كثيراً ما يتم تناسيها. وقد كتب عنها شارل بيغي صفحات رائعة أقرب إلى وثنية القدامى.. وكان توماس مان يوازي كازنتزاكي بشعراء الاغريق القدامى، أي أسلافه الكبار؛ وقال إن روح هوميروس تبعث في كتب كازنتزاكي المفعمة بحيوية خارقة، والمسكونة بحس حلولي يطهّر الطبيعة كلها، بما فيها أبسط نبتة على ربوة..

مارسيل بريون
من الأكاديمية الفرنسية
(لوموند)

مثلما تعيش البذرة ، بخطى متسارعة ، مراحل تشكل نوعها، تبدو روح كازنتزاكي القادم من وسط متواضع، وكأنها أمام واجب العيش، خلال أعوام معدودة، مجمل المغامرة الروحية للبشرية جمعاء .. ربما كان يتوجب القول إنّ كازنتزاكي، مع المسيح، أراد الخلاص في مواجهة العالم، ومع بوذا أراد الخلاص خارج العالم؛ وأراد مع لينين الخلاص من خلال العالم، وأخيراً مع «عوليس»، أراد أن يخلص، هو والعالم، في وقت واحد، وذلك بابتكار وثنية بقامة الإنسان.

روبير كانتز
(الاكسبرس)

بقي البحث عن الأسباب التي جعلت هذا الرجل القادم من الشرق الأدنى يحتقر الغرب في شبابه، وكان ينتظر منه الكثير، ثم يتوجه نحو آسيا، ليعود منها، في خريف حياته، كي يكمل أعماله ويموت بالقرب من هؤلاء الفرنسيين الذين حقد عليهم في السابق
سبب [illegible]
إلى ال[illegible]
الزهر[illegible]

دار الآداب
هاتف ٨٠٣٧٧٨ ـ ٨٦١٦٣٣
ص ب ٤١٢٣ ـ ١١ بيروت

تصميم الغلاف : علي الجاك